أعلام السنة المنشورة في صفات الطائفة المنصورة

الجزء الأول

عبد الرحمن العلي

الطبعة الأولى*

* ملاحظة: لم نتمكن من تصحيح الأخطاء المطبعية في هذه الطبعة؛ فنرجو المعذرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

إنّ الحمدَ لله: نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله: فلا مُضل له، ومن يُضلل: فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

* قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران: ١٠٢] .

* وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً } [النساء: ١] .

* وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً } [الأحزاب: ٧٠_ ٧١] .

أمّا بعد:

فإن أصدقَ الحديث: كتابُ الله، وخير الهدي: هديُ محمد صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأمور: محدثاتها، وكل محدثة: بدعة، وكل بدعة: ضلالة، وكل ضلالة في النار .

* قال الله تعالى: { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإِسْلامُ } [آل عمران: ١٩] .

* وقال تعالى: { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ }[آل عمران: ٨٥].

فالإسلام: دين الله الذي لا يَقبل غيرَه، ولا يُتعبّد له إلا به، فلا دين له سواه .

وقد أنزل الله هذا الدين مهيمناً على الأديان كلها، وجعله الدين الخاتم، ولذا: فقد أكمله الله، وأحكمه لتقوم حجته على العالمين في كل عصر ومصر بأن لا يعبدوا إلا الله وحده لا شريك له، وبأن لا يعبدوه إلا بما شرع .

وقد أودع اللهُ هذا الدين من مكنون الأسرار، ودقائق الكمال، وخفايا الإحكام ما يجعل هذا الدين كلّما اعتراه الضعف بل الوهن الشديد الذي يظن معه الناظرون أنه على وشك أن يلفظ أنفاسه: ينتفض أقوى ما يكون، محطماً كل ما ومَنْ يقف أمامه، متخطياً حواجز الزمان والمكان، مجدداً عهود العز والتمكين وكأن هذا الوهن من أسباب قوته، ومبررات صلابته وصموده ! .

فللإسلام: قوة ذاتية في مواجهة المحن، والبلايا، والأخطار التي تنزل بساحته مهما اشتدت قسوتها تجعله يخرج منها أقوى عوداً، وأصلب قناة مع جدّة وصفاء، وقد شهد بهذه القوة الذاتية للإسلام أعداؤه قبل أن ينطق بها أتباعه .

والسرُّ في هذا كله: أن الإسلام لا يتمحور حول أشخاص، ولا يُختزل في رجال، ولا يَستمد وجوده من عدد

وعُدّة، وقوة وضعف، وإنما الإسلام يستمد وجوده، وأسباب قوته، ومبررات صلابته وصموده من الله وحده الحي الذي لا يموت:

* قال تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر: ٩] .

فالله تعالى ذكره، وجلّ أمره: تكفّل بحفظ هذا الدين، وأوكل هذا الأمر العظيم لنفسه، فأنّى أن يأتي الضياع أو يُتصور ؟!!!.

ومن الأمور التي تكفّل الله بها، وجعلها من أسباب حفظ هذا الدين: أن يُقيّض له رجالاً: يصنعهم على عينه، ويكلؤهم بحفظه وتوفيقه، ويمدهم بمدد من عنده: فيحفظوا هذا الدين، ويقوموا به، ويجددوا ما اندرس منه .

وقد تكفل الله _ كذلك_ بمنه، وكرمه، ولطيف صنعه أن تكون هذه الثلة المنتقاة، والنخبة المصطفاة: باقيةً في الأمة إلى قيام الساعة، فلا يخلو منها عصر من الأعصار، ولا زمن من الأزمان .

* قال تعالي: { وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف: ١٨١] .

وهذه " الأمة " من الرجال: أهل هذه الثلة المنتقاة، والنخبة المصطفاة: هم صفوة الخلق بعد الأنبياء، والمرسلين لأنهم ورثة الأنبياء، والمرسلين إذ هم القائمون بأمر الله، وما يحبه ويرضاه .

* قال تعالي: { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } [التوبة: ١٠٠] .

ولذلك؛ تكفّل الله بحفظهم، وتأييدهم، ونصرهم، وجعلهم قاهرين، ظاهرين على عدوهم، ومَنْ خالفهم .

* قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك "(١) .

ــ ومن ثم؛ فهؤلاء الرجال_ أهل هذه الثلة المنتقاة، والنخبة المصطفاة_: هم الطائفة الظاهرة المنصورة التي تكفّل الله بوجودها في الأمة إلى قيام الساعة تحقيقاً لأمره في حفظ هذا الدين، وبقاء حجته في الخلق .

وقد ترجم ابن حبان_ رحمه الله_ لحديث الطائفة المنصورة في صحيحه بقوله: " ذكر البيان بأن الفتن إذا وقعت، والآيات إذا ظهرت: **كان في خللها طائفةٌ على الحق أبداً** "(٢) .

وقال ابن حزم _ رحمه الله_ بعد أن ذكر حديث الطائفة المنصورة:

[فصح أن أهل كل عصر **لا يجوز أن يخلوا من أن يكون فيهم قائلٌ بالحق**](٣) .

---

١) يأتي تخريج أحاديث الطائفة المنصورة في مواضعها_ إن شاء الله_، وقد صرّح عدد من أهل العلم، والأئمة بتواتر حديث الطائفة المنصورة كشيخ الإسلام ابن تيمية في " اقتضاء الصراط المستقيم/٦ "، والسيوطي في " قطف الأزهار المتناثرة/٢١٦ "، والزبيدي في "لقط اللآلئ المتناثرة/٦٨ "، والكتّاني في " نظم المتناثر/٩٣ "، وغيرهم .

(٢) " صحيح ابن حبان١٥/٢٤٨ " .

(٣) " المحلى١/٤٧ " .

وقد ذكر ابن حزم_ أيضاً_ أن أحاديث الطائفة المنصورة دالةٌ على: [أن أمته عليه السلام لا تجتمع ولا ساعة واحدة من الدهر على باطل بل **لا بد أن يكون فيهم قائل بالحق، وقائم به**][1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فعُلم بخبره الصدق أنْ لا بد أن يكون في أمته قوم متمسكين بهديه الذي هو **دين الإسلام محضاً**][2] .

وعند شرحه لحديث معاوية_ رضى الله عنه_ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من يُرد الله به خيراً يُفَقِّه في الدين، وإنما أنا قاسمٌ والله يُعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله "[3] .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [وهذا الحديث: مشتمل على ثلاثة أحكام: أحدها: فضل التفقه في الدين، وثانيها: أن المعطي في الحقيقة هو الله، **وثالثها: أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبداً**][4] .

ونقل السيوطي عن القاضي عبد الوهاب من المالكية_ رحمهما الله_ قوله: [تواترت الأخبار عنه صلى الله عليه وسلم بقوله: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم خلاف من خالفهم حتى يأتي أمر الله "، فأعلمنا صلى الله عليه وسلم بذلك: أنه **لا يخلو عصر من أعصار المسلمين من قائم لله بالحق، وداع إلى الهدى**][5] .

وقال المناوي_ رحمه الله_ بعد ذكر أحد أحاديث الطائفة المنصورة: [وفيه أن هذه الأمة آخر الأمم، **وأنه لا بد أن يبقى منها مَنْ يقوم بأوامر الله حتى يأتي أمر الله**][6] .

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب_ رحمه الله_ عقب سوقه لحديث الطائفة المنصورة من رواية ثوبان: [التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى بل لا تزال عليه طائفة][7] .

ــ فأهل الطائفة المنصورة: غرسُ الله في أرضه وبين عباده، يستعملهم الله في طاعته، وينفذ من خلالهم قدره في حفظ هذا الدين، ونصره، والتمكين له، وإظهاره على الدين كله؛ فهم: ستارٌ لقدر الله لا غير .

* قال صلى الله عليه وسلم: " لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته "[8] .

---

(٤) " الإحكام٤/٥٢٧ " .

([2]) " اقتضاء الصراط المستقيم/٦ " .

([3])" البخاري١/٣٩ " .

([4]) " فتح الباري١/١٦٤ " .

([5]) " الرد على من أخلد إلى الأرض/١٠٨: ١٠٩ " .

([6]) " فيض القدير٦/٣٩٦ " .

([7]) " فتح المجيد/٢٧٨ " .

([8]) " ابن ماجه١/٥ "، " الثقات٤/٧٥ " من حديث أبي عنبة الخولاني، وقال في " مصباح الزجاجة١/٥ ": [هذا إسناد صحيح رجاله كلهم

وإذا كان هؤلاء: هم غرس الله كما وصفهم بذلك المعصوم صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى؛ (فغرسُ الله: محروسٌ في الأحوال، ومحفوظٌ في الأصلاب والأرحام، ومُراعى في قطع الأسفار إليه: يكلؤه، ويرعاه .

وهم: رجاله في أرضه، وأولياؤه، والدّعاة إليه، وغرسُ الله: راسخةٌ عروقُه في الأرض، وواردةٌ فروعُه في الملكوت، غَرَسهم الله تعالى وأنبتهم، وهو يجني ثمرتهم)(١) .

ـــ أهمية معرفة صفات هذه الطائفة والوقوف عليها .

وإذا كانت هذه الطائفة بهذا الشأن العظيم، وبهذه المنزلة الرفيعة من الدين: وجب على العاقل أن يسعى في الانضمام إليها، والتشمير عن ساعد الجد بغية اللحوق بها ليكون من أهلها، وفرداً من أفرادها، وإنما يكون ذلك بحمل النفس على جميل صنعها، وحسن فعالها، والتأسي بأحوالها .

فأهل الطائفة المنصورة: لم يكتسبوا ما اكتسبوا من شأن عظيم، ومنزلة رفيعة في الدين، وعزّ في الدنيا والآخرة: إلا بما قام بهم من صفات حملوا النفوس عليها، وجاهدوها على الاتصاف بها رغبةً فيما عند الله، والدار الآخرة .

فسبيل مَنْ أراد الانتساب إليهم لينتظمه عقدُهم، ويضمه ركبُهم، ويشمله وصفُهم: أن يتحلى بصفاتهم؛ فيحمل نفسَه على ما حملوا نفوسهم عليه، ويجاهدها على ذلك رغبةً فيما عند الله، والدار الآخرة .

وممّا لا شك فيه أن الإخبار عن وجود هذه الطائفة، وبقائها في الأمة: بشارةٌ عظيمة لأهل الإسلام إذ هو وعد قائم لا يتخلف، وقدر نافذ لا مردّ له؛ ومَنْ ذا الذي يملك أن يرد قدر الله أو يدفعه غير أنّ لله في خلقه سنناً تحكم ظهور الحق، والتمكين له؛ وعمادُ ذلك: أنّ الحق لا بد له من رجال يتمثلونه في أنفسهم، ويمثلونه واقعاً حياً يحس به، ويلمسه كلُّ مَنْ رآه أو سمع به؛ ولذا: فإن هذا الوعد الإلهي بوجود هذه الطائفة وبقائها: يحمل في ثناياه تكليفاً شرعياً للأمة، وأبنائها ليخرج منهم مَنْ يجعلهم الله ستاراً لإنفاذ قدره في وجود هذه الطائفة وبقائها؛ ومن ثم: نصرُ الدين والتمكين له؛ فالوعود الربانية: تكاليف شرعية يُخاطب بها محلُ الوعد وأهله .

ـــ أمر آخر تظهر من خلاله أهمية معرفة صفات الطائفة المنصورة، وهو: تصحيح النسبة، وإقامة البينة، أعني: تصحيح نسبة كثير من الناس إلى هذه الطائفة الظاهرة المنصورة، وإقامة البينة على ذلك حيث يزعم الكثيرون أنهم أحق بها وأهلها، وحقيقة الحال أنّ نسبتهم إلى هذه الطائفة كنسبة الثرى إلى الثريا، فالدعوى: عريضة، والعجز: ظاهر، والله المستعان .

ومن ثم؛ كان الوقوف على صفات الطائفة المنصورة التي وصفها الشارع بها، وميّزها بها عن غيرها، وأكسبها بها ما اكتسبت من نصر وظهور، وجعلها أساساً ومناطاً لرفعتها في الدنيا والآخرة: من أهم المهمات، وأولى الواجبات، والله يهدي مَنْ يشاء إلى صراطه المستقيم .

ـــ وصفات الطائفة المنصورة_ كما سيظهر معنا_ متداخلة، بمعنى أن بعضها يدخل في البعض الآخر كما أن

ثقات]، وانظر: " تحفة التحصيل/٣٧١ "، " جامع التحصيل/٣١٤ "، "الاستيعاب٤/١٧٢٢: ١٧٢٣ "، " الإصابة٧/٢٣٨: ٢٣٩ " .

(١) " نوادر الأصول١/٣٨١ " .

بعضها_ كذلك_ يستلزم البعض الآخر كما يستلزم غير ذلك من الصفات إلا أننا آثرنا الحديث عن أهم، وأبرز الصفات التي تُميّز الطائفة المنصورة عن غيرها كما تدلّ عليها، وترشد إليها أحاديثُ الطائفة المنصورة متجاوزين بذلك الاعتبارات المختلفة لهذه الصفات .

وقاعدتنا التي نجري عليها في النقل هي ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله:

[وليس كل من ذكرنا قوله من المتكلمين، وغيرهم نقول بجميع ما يقوله في هذا وغيره، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به حتى ولو كان كافراً](١) .

وسيأتي مزيد بيان لهذه القاعدة عند حديثنا عن معالم الحق عند الطائفة المنصورة، وقد أكثرت من النقول عن أهل العلم، والأئمة المتقدمين إيثاراً للتأصيل العلمي على العرض الإنشائي كما كررت بعض النقول رغبة في أن تكون الفكرة كاملة حيث عرضت، ولِما في ذلك من الأهمية في ترسيخ الفكرة في العقول، والقلوب، وجرياً على قاعدة القرآن الكريم في تكرار المعاني، وإعادة عرضها وبسطها المرة تلو المرة، وقد جاءت أبحاث هذه الرسالة أبحاثاً مطولة وهو ما قصدنا إليه محاولة لاستيفاء هذه الأبحاث حقها من البحث، والتأصيل كونها اليوم أقرب للأحاجي، والألغاز_ مع وضوحها الشديد في نفسها_ من المقررات الشرعية الثابتة .

وقد جهدتُ أن أنتصر لما جاء به صلى الله عليه وسلم وحده، وفهمه عنه أئمة هذا الدين من سلفنا الصالح دون ما جاء به الرجال_ أيّاً كانوا_ من عند أنفسهم رضي مَنْ رضى، وسخط مَنْ سخط إذ رضا الناس غاية لا تدرك، ومهما أرضيت فئة: أسخطت أخرى ولا بد؛ فكان من بدائه العقول_ فضلاً عمّا أوجبه الشرع_ إيثار رضا الله وحده، وإيثار ما يبقى على ما يفنى، فإنْ أصبتُ: فالفضل لله وحده هو الموفق، والمعين، وإنْ أخطأتُ: فمن نفسي، والشيطان؛ وشرع الله، ودينه: بريء منه، وحسبي أنّي قصدتُ الحق، وسعيتُ إليه بقدر الجهد، والإمكان، ولم يدر في خلدي غير الانتصار لهذا الدين، والذود عن حياضه والله من وراء القصد .

(١) " الفتاوى٥/١٠١ " .

ـــــ تنبيه هام:

حديثنا عن صفات الطائفة المنصورة إنما هو باعتبار مجموع الطائفة لا باعتبار آحادها؛ بمعنى: أن هذه الصفات مجموعةً توجد في مجموع الطائفة وإن لم تتحقق في كل فرد من أفرادها؛ فالنظر إنما هو للطائفة كمجموع لا كآحاد، فمجموع الطائفة يقوم بمجموع الصفات، ولا يلزم من ذلك قيام مجموع الصفات بكل فرد من الأفراد .

ونصيب الفرد من الانتساب إلى الطائفة المنصورة_ زيادةً ونقصاً_ إنما هو بحسب نصيبه الذي قام به من صفات هذه الطائفة إذ أن هذا الوصف (الطائفة المنصورة): هو كوصف: (الإسلام، والإيمان، والإحسان) أو كوصف: (الهدى، والتقي، والبر، والفلاح ...)، وغير ذلك من الأوصاف التي يتعلق بها الوعدُ في ديننا: كلها أوصاف متفاضلة في ذاتها ممّا يُفيد أنّ المنتسبين لهذه المسمّيات الشريفة: يتفاضلون_ زيادةً ونقصاً_ في الانتساب إليها بحسب ما قام بكل منهم من شعبها الظاهرة والباطنة، وهم في ذلك بين: مقل، ومستكثر مع كون بعض شعب هذه المسميات: شعباً حدّيّة؛ بمعنى: أنّ تخلّف هذه الشعب: يُخرج مَنْ تخلفت عنه من دائرة المسمى والانتساب إليه .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسير قوله تعالى: { وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ }، قال:

[وهؤلاء أئمة الهدى، ومصابيح الدجا، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر .

وهم الصدّيقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، **وهم في أنفسهم: مراتب متفاوتة؛ كلٌ بحسب حاله، وعلو منزلته؛** فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم][(١)] .

وقال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_ نقلاً عن النووي_ رحمه الله_ ثم معقباً عليه:

[يجوز أن تكون الطائفة: جماعة متعددة من أنواع المؤمنين: ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم: أولاً، فأولا إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله، انتهى ملخصاً مع زيادة فيه .

ونظير ما نبّه عليه ما حمل عليه بعض الأئمة حديث: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ": أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط بل يكون الأمر فيه كما ذكر في

([١]) " تفسير السعدي/٢٠٧ " .

الطائفة، وهو متجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد إلا أن يُدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز فإنه القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما مَنْ جاء بعده؛ فالشافعي وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة **إلا أنه لم يأمر بالجهاد، والحكم بالعدل؛** فعلى هذا كل مَنْ كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المائة: هو المراد سواء تعدد أم لا](١).

قلت: يشير الحافظ_ رحمه الله_ إلى حديث أبي هريرة_ رضي الله عنه_ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَنْ يجدِّد لها دينها "(٢) .

(ولفظ " مَنْ " في الحديث يُطلق على الفرد، وعلى الجماعة؛ فيحتمل المعنى أن يكون المبعوث فرداً، ويحتمل أن يكون جماعة أو طائفة؛ فإن كان المجدِّد فرداً: فلا بدَّ أنه من الطائفة المنصورة وهذا ممّا لا يحتاج إلى بيان، وإن كانت مهمة التجديد موكولة إلى فئة: فهي الطائفة المنصورة_ بلا ريب_، وذلك لأن خصائص هذه الطائفة هي الخصائص التي يُحتاج إليها في تجديد الدين لهذه الأمة)(٣) .

ـــ وعليه، فقد يَمنّ الله سبحانه وتعالى على مَنْ يشاء من عباده فيجمع له كل شعب المسمى أو أكثرها ليكون من السابقين، السابقين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

* وقد أخرج الإمام مسلم_ رحمه الله_ في صحيحه عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من أنفق زوجين في سبيل الله: نودي في الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة: دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد: دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة: دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام: دعي من باب الريان .

قال أبو بكر الصديق_ رضي الله عنه_: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، **وأرجو أن تكون منهم** "(٤) .

* وأخرج الإمام مسلم_ كذلك_ عن أبي هريرة_ أيضاً_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ .

قال أبو بكر__ رضي الله عنه_: أنا .

---

(١) " الفتح ٢٩٥/١٣ " .

(٢) " المستدرك٥٦٧/٤ "، " أبو داود١٠٩/٤ "، " المعجم الأوسط٣٢٤/٦ "، وغيرهم، وهو حديث اعتمده الأئمة، ونص على صحته العراقي، وغيره، انظر: " فيض القدير ٢٨٢/٢ "، " كشف الخفاء/٢٨٢ " .

(٣) " صفة الغرباء/١٧٣ " .

(٤) " مسلم٧١١/٢ " .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ .

قال أبو بكر_ رضي الله عنه_: أنا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ .

قال أبو بكر_ رضي الله عنه_: أنا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ .

قال أبو بكر_ رضي الله عنه_: أنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما اجتمعن في إمريء إلا دخل الجنة "[1] .

وقد ترجم النووي_ رحمه الله_ لهذه الأحاديث بقوله: [باب: مَنْ جمع الصدقة وأعمال البر][2] .

---

(1) " مسلم٢/٧١٣ " .

(2) " صحيح مسلم٢/٧١١: ٧١٣ " .

الباب الأول

الصفة الأولى

كونها طائفة من الأمة

ـــــ تمهيــد .

* عن جابر بن عبد الله_ رضي الله عنه_، قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لا تزال **طائفة من أمتي** يقاتلون على الحق: ظاهرين إلى يوم القيامة "(١) .

* وعن ثوبان_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال **طائفةٌ من أمتي** ظاهرين على الحق، لا يضُرُّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك "(٢) .

* وعن المغيرة بن شعبة_ رضي الله عنه_ عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال:

" لا تزال **طائفة من أمتي** ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون "(٣) .

فثبت وصف هؤلاء الظاهرين القائمين بدين الله بأنهم: " طائفة "، وتدخل تحت هذا الوصف، وتتعلق به جملة من المسائل الهامة نذكرها_ إن شاء الله_ في الفصول التالية، فنقول:

---

(١) " مسلم١/١٣٧، ٣/١٥٢٤ " .

(٢) " مسلم٣/١٥٢٣ " .

(٣) " البخاري٦/٢٦٦٧ "، " مسلم٣/١٥٢٣ "، واللفظ للبخاري .

الفصل الأول

المبحث الأول

الطائفة المنصورة جزء الأمة المتميّز

فظواهر الأحاديث الواردة في ذكر هذه الطائفة المنصورة كما سبق بعضها: دالة_ بغير جهد_ على أن هذه الطائفة هي جزء من الأمة لا كلها، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته ستفترق في أمر دينها إلى ثلاث وسبعين فرقة؛ وأن كل هذه الفرق ستنحرف عن الصراط المستقيم إلا فرقة واحدة .

* فقال صلى الله عليه وسلم كما في حديث الفرق المشهور: " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً: فواحدةٌ في الجنَّة، وسبعون في النار، وافترقت النَّصارى على ثنتين وسبعين فرقةً: فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده؛ لتفترقنَّ أمتي على ثلاث وسبعين فرقةً: واحدةٌ في الجنة، وثنتان وسبعون في النار، قيل: يا رسول الله، مَن هُم ؟، قال: الجماعة "(١) .

ــ وكذلك، فإن الواجبات التي تقوم بها هذه الطائفة_ كما سيأتي_: هي في الأصل واجبات كفائية، بمعنى أنها غير واجبة على الأعيان .

ـــــ وظواهر أحاديث الطائفة المنصورة كما تدل على أن هذه الطائفة هي جزء من الأمة لا كلها، فإنها تدل_كذلك_ على أن هذا الجزء من الأمة أعمّ من حيث الوجود من أن يكون هو جماعة المسلمين الملتزمين بيعة إمام المسلمين الشرعي، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديثه عن هذه الطائفة: " لا تزال "، " حتى يأتي

(١) من حديث عوف بن مالك_ رضي الله عنه_ عند " ابن ماجه١٣٢٢/٢ "، " السنة لابن أبي عاصم٣٢/١ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١٠١/١ "، والحديث: صحيح مشهور مروي عن جمع من الصحابة في دواوين السنة المختلفة .

أمر الله وهم على ذلك ": يدل على استمرار وجود هذه الطائفة؛ كان للمسلمين جماعة وإمام أم لا(١) .

وهذه الطائفة وإن كانت أعم من جماعة المسلمين الملتزمين بيعة إمام المسلمين الشرعي من وجه، فهي أخص منها من وجه آخر، أي: باعتبار صفاتها، والواجبات القائمة بها .

ـــــ وهذا ما فهمه السلف من أحاديث الطائفة المنصورة حيث ورد عن جمهرة من أئمتنا الكرام_ كما سيأتي_ أن الطائفة المنصورة: هم " أهل الحديث "؛ ومن المعلوم بداهة أن أهل الحديث هم جزء من الأمة لا كلها كما أنه من المعلوم_ أيضاً_ أن أهل الحديث قد يوجدون وليس للمسلمين جماعة، ولا إمام كما أنه من المعلوم_ كذلك_ أن جماعة المسلمين الملتزمين بيعة إمام المسلمين الشرعي قد لا يكونون كلهم من أهل الحديث .

ـــ ولذلك، فقوله صلى الله عليه وسلم كما جاء من حديث معاوية_ رضي الله عنه_:

" من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، والله المعطي، وأنا القاسم، **ولا تزال هذه الأمة** ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون "(٢): مُقيد بما سبق، فالمراد: بعض الأمة لا كلها، وهو البعض القائم بالدين علماً، وعملاً .

وقد مرّ معنا قول الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_ في هذا الحديث: [وهذا الحديث: مشتمل على ثلاثة أحكام: أحدها: فضل التفقه في الدين، وثانيها: أن المعطي في الحقيقة هو الله، وثالثها: أن **بعض** هذه الأمة يبقى على الحق أبداً](٣) .

وسبق معنا في المقدمة نحو كلام الحافظ ابن حجر عن عدد من أهل العلم، والأئمة كابن حزم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والمناوي، وغيرهم رحمهم الله جميعاً .

* وقد جاء من حديث معاوية_ رضي الله عنه_ نفسه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تزال **طائفة** من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس "(٤) .

* وعن معاوية_ رضي الله عنه_ أيضاً_، قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لا يزال **من أمَّتي أمَّةٌ** قائمةٌ بأمر الله ما يضُرُّهم مَن كذَّبهم، ولا مَن خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك " .

---

(٢) المراد بالجماعة هنا: الكيان السياسي القائم وهو المعنى المذكور في حديث حذيفة: " فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ "، والمراد: جماعة المسلمين التي هي في طاعة الإمام الشرعي كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة قبلها: " تلزم جماعة المسلمين وإمامهم".

(٢) " البخاري٣/١١٣٤ " .

(٣) " فتح الباري١/١٦٤ " .

(٤) " مسلم٣/١٥٢٤ " .

فقال مالك ابن يخامر: سمعت معاذاً يقول: " وهم بالشام " .

فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول: " وهم بالشام "(١) .

* وعنه_ رضي الله عنه_ كذلك_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال **عصابة** من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة "(٢) .

* وعن المغيرة بن شعبة_ رضي الله عنه_، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " لا يزال **ناسٌ** من أُمَّتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون "(٣) .

* وفي لفظ عن المغيرة_ رضي الله عنه_، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لن يزال **قوم** من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون "(٤) .

* ومن حديث سلمة بن نفيل_ رضي الله عنه_ قال صلى الله عليه وسلم: " ولا يزال **من أمتي أمةٌ** يقاتلون على الحق ... "(٥) .

* ومن حديث عمران بن حصين_ رضي الله عنه_ قال صلى الله عليه وسلم: " لا تزال **طائفة من أهل الإسلام** يقاتلون على الإسلام ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتلون الدجال "(٦) .

ـــــ وعليه؛ فالطائفة المنصورة: جزء خاص من الأمة الإسلامية، وهذا الجزء الخاص من الأمة: هو طليعة بعثها، وأهله: هم القائمون بأمرها، والعاملون من أجل رفعتها، وعزتها لتتبوأ مكانتها التي جعلها الله لها في قيادة البشرية خيرَ أمة أخرجت للناس .

فأهل هذه الطائفة: هم الأبناء البررة لأمتهم، يؤرقهم حالها، ويقض مضجعهم ضعفُها، وتكالبُ الأعداء عليها، يحملون همَّ الإسلام بين جوانحهم: فلا يهدأ لهم بال، ولا يستقر بهم قرار وهم يرون ما نزل بساحة أمتهم، فهَمُّهم: نصر الدين والعمل له، وكل منهم يَحذر أن يؤتى الإسلام من قبله .

قال الإمام محمد بن نصر المروزي_ رحمه الله_:

[حدثنا محمد بن إدريس ثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي ثنا أيوب بن سويد سمعت الأوزاعي يقول: كان يقال: ما من مسلم إلا وهو قائم على ثغرة من ثغر الإسلام، **فمن استطاع ألا يؤتى الإسلام من ثغرته:**

---

(١) " البخاري٣/١٣٣١، ٦/٢٧١٤ " .

(٢) " مسلم٣/١٥٢٤ " .

(٣) " البخاري٣/١٣٣١ " .

(٤) " مسلم٣/١٥٢٣ " .

(٥) " النسائي الكبرى٣/٣٥، ٥/٢١٨ "، " المعجم الكبير٧/٥٢ "، " التاريخ الكبير٤/٧٠ " .

(٦) " المعجم الكبير١٨/١١١ " .

فليفعل](1) .

وقال المروزي_ أيضا_:

[حدثني محمد بن إدريس حدثني أحمد بن أبي الحواري حدثني إسحاق بن خلف _ وكان من الخائفين_ قال: قال الحسن بن حي: إنما المسلمون على الإسلام بمنزلة الحصن، فإذا أحدث المسلم حدثاً: ثَغَرَ في الإسلام من قبله، فإن أحدث المسلمون كلهم: **فأثبت أنت على الأمر الذي لو اجتمعوا عليه لقام الدين لله بالأمر الذي أراده من خلقه؛ لا يؤتى الإسلام من قبلك**](2) .

ـ وأفراد الطائفة المنصورة يتمثلون ما جاء في وصف الفاروق عمر_ رضي الله عنه_ على لسان ابن مسعود_ رضي الله عنه_، فعندما جاء ابنَ مسعود رجلان ليسمع منهما قراءةَ سورة من القرآن قد اختلفا فيها: أحدهما قرأ على عمر، والآخر قرأ على آخر .

فقال الذي قرأ على عمر: اقرأنيها عمر بن الخطاب: فأجهش ابن مسعود بالبكاء حتى بلّ الحصى بدموعه، وقال: " اقرأ كما أقرأك عمر فإنه كان للإسلام حصناً حصيناً، يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه، **فلما أصيب عمر: انثلم الحصن** "(3) .

فأهل الطائفة المنصورة يستشعرون أنهم حصون الإسلام، يرومون إدخال الناس فيها ثم لا يخرجون منها .

وقد صح في وصف أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنهم يسوقون الناس بالسلاسل إلى الجنة حرصاً عليهم، وشفقةً ونصحاً، وحالهم: كحال الطبيب الذي يتحايل على المريض الجاهل بمرضه، الكاره لما فيه شفاؤه: ليطعمه الدواء رغماً عنه، وإن كرهت نفسه .

وإن كان في ذلك نوع خشونة وشدة إلا أن هذه الخشونة والشدة: تُحمد عند رؤية العاقبة بما لا مزيد عليه بل ويُشكر أصحابُها عليها ويُحمدون بل وتعدّ من مناقبهم وفضائلهم وقد كان .

* قال تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِالله }

[آل عمران: ١١٠] .

وقد عقد الإمام البخاري_ رحمه الله_ في كتاب التفسير من صحيحه باباً، فقال: " باب: كنتم خير أمة أخرجت للناس " .

ثم ساق بسنده عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ في قوله تعالى: { كنتم خير أمة أخرجت للناس }، قال: "خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام "(4) .

---

(1) " السنة للمروزي/١٣ " .

(2) " السنة للمروزي/١٤ " .

(3) " المعجم الكبير٩/١٦٠، ١٦٢"، وانظر: " مصنف ابن أبي شيبة٦/٣٥٤، ٣٥٧ "، " المستدرك٣/ ١٠٠ " .

(4) " البخاري ٤/١٦٦٠ " .

* وفي رواية، قال أبو هريرة_ رضي الله عنه_: " نجيء بهم في السلاسل: فندخلهم الإسلام "(١) .

* وفي المستدرك عنه_ رضي الله عنه_، قال: " تجرونهم بالسلاسل: فتدخلونهم الإسلام "(٢) .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم: " عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل "(٣) .

ـــ وهِمَّةُ أهل الطائفة المنصورة في نصرة الدين والتمكين له: يُعبّر عنها سيفٌ من سيوف الطائفة المنصورة سلّه الله نصرةً للدين، وتمكيناً له_ بهمة، وعزم، ومضاء مع صدق، وإخلاص_: فكان على يديه من النصر والتمكين ما هو إلى عالم الخيال أقرب منه إلى عالم الواقع:

* يقول خالد_ رضي الله عنه_: " ما من ليلة يهدى إليّ فيها عروس_ أنا لها محب_ أو أبشّر فيها بغلام: أحبّ إليّ من ليلة: شديدة البرد، كثيرة الجليد في سرية أصبّح فيها العدو "(٤) .

ـــ وهذه الهمّة لا تقعد بأهل الطائفة المنصورة دون الجنة:

* قال تعالى: { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر: ٩٩] .

* قال الحسن_ رحمه الله_: " أي قوم: المداومة، والله ما المؤمن بالذي يعمل شهراً أو شهرين أو عاماً أو عامين؛ لا والله: ما جعل الله لعمل المؤمن أجلاً دون الموت "(٥) .

* وفي رواية عنه_ رحمه الله_، قال: " أي قوم: المداومة، المداومة، فإن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت "(٦) .

ـــ وهكذا كانت همة أهل الطائفة المنصورة الأولين: همة وثابة، متوقدة، لا تعرف معنى لترك العمل ما لم يأت اليقين:

* عن عائشة_ رضي الله عنها_: أن ورقة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " وإن يُدْرِكْني يومُك: أنصرْكَ نصراً مؤزراً "(٧) .

مع كبر سنه، وذهاب بصره: هذه همته، وهذا عزمه، وقد تمنى أن يكون فيها جذعاً، قوياً ليكون نفعُهُ: أكبرَ، وأثرُهُ: أقوى .

---

(١) " مسند إسحاق بن راهويه ١/٣٤٤ " .

(٢) " المستدرك٤/٩٤ " .

(٣) " البخاري ٣/١٠٩٦ " .

(٤) " الجهاد لابن المبارك/٩١ "، وانظر: " سير أعلام النبلاء ١/٣٧٥ " .

(٥) " الزهد للإمام أحمد/٢٧٢ " .

(٦) " الزهد لابن المبارك/٧ " .

(٧) " البخاري١/٤، وغيرها "، " مسلم١/ ١٤١ " .

* وعن أنس_ رضي الله عنه_: " أن أبا طلحة الأنصاري قرأ سورةَ براءة، فلما أتى على هذه الآية: { انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً }: قال: أرى ربَّنا عز وجل يستنفرنا: شيوخاً، وشباباً: جهزوني أي بني .

فقال بنوه: يرحمك الله؛ قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع أبي بكر_ رضي الله عنه_ حتى مات، ومع عمر_ رضي الله عنه_، فنحن نغزو عنك .

فأبى: فجهزوه فركب البحر: فمات، فلم يجدوا له جزيرةً يدفنونه فيها إلا بعد سبعةِ أيام فلم يتغير فدفنوه فيها"(١) .

* " وأسند الطبري عمّن رأى المقداد بن الأسود_ رضي الله عنه_ بحمص على تابوت صراف، وقد فضل على التابوت من سمنه، وهو يتجهز للغزو، فقيل له: لقد عذرك الله ! .

فقال: أتت علينا سورة البعوث: { انفروا خفافاً وثقالاً } "(٢) .

* " وخرج سعيد بن المسيب_ رحمه الله_ إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه؛ فقيل له: إنك عليل ! .

فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل؛ فإن لم يمكني الحرب: كثرت السواد، وحفظت المتاع "(٣) .

* وسُئل ذو النون_ رحمه الله_ عن سبيل المسلم ليكون من صفوة الله .

فقال: " إذا خلع الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة "(٤) .

وقد وضعها أحد أئمة الطائفة المنصورة قاعدةً خالدةً، تالدة، وهو الإمام الشافعي عندما قال: " طلبُ الراحة في الدنيا لا يصلحُ لأهل المروءات، فإن أحدَهم لم يزلْ تعباناً في كل زمان " .

ومن بعد الشافعي حدّد الغاية بأتم عبارة، وأوضحها: الإمامُ المنصور، الظاهر على مَنْ خالفه وعاداه: الإمام أحمد عندما سُئل: متى يجد العبد طعم الراحة ؟

فقال: " عند أول قدم يضعها في الجنة "(٥) .

* ولقد قال_ رحمه الله_ لابنه: " يا بني: لقد أعطيت المجهود من نفسي "(٦) .

* وقبل ذلك كله كان مَنْ كان الشيطان يفرق من ظله الفاروق_ رضي الله عنه_ يقول: " الراحة للرجال:

---

(١) " الجهاد لابن المبارك/٨٩ "، " الزهد للإمام أحمد/ ٢٥١ " .

(٢) " تفسير القرطبي٨/١٥١"، وانظر:" الجهاد لابن المبارك/٨٨ " .

(٣) " حلية الأولياء١/١٣ " .

(٤) " حلية الأولياء١/١٣ "، " الزهد للبيهقي٢/٧٨ " .

(٥) " طبقات الحنابلة ١/٢٩٣ " .

(٦) " صفة الصفوة٢/ ٣٥١ "، وانظر: " الحلية٩/ ٢٠٣"، " السير١١/ ٢٣٢، ٢٦٣ " .

غفلة "(١) .

ــ فأهل الطائفة المنصورة_ سيما أئمتهم_ لا يرضون إلا ببذل المجهود من أنفسهم، ويأنفون من أن ينسبوا للغفلة رغبة فيما عند الله والدار الآخرة حيث تعلقت نفوسهم بالراحة هناك لا هنا، يهتفون:

فحي على جنات عدن فإنها　　منازلك الأولي وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى　　نعود إلى أوطاننا ونــسلم

ــ وهؤلاء_ أهل الطائفة المنصورة_ قد خرجت هموم الدنيا من قلوبهم فلم يبق فيها غيرُ همِّ الدين، والعمل له: فسهلَ عليهم أن يعطوا المجهود من أنفسهم لله ولدينه .

* وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر_ رضي الله عنه_:

" مَنْ جعل الهموم هماً واحداً: كفاه الله ما همّه من أمر الدنيا والآخرة، ومن تشاعبت به الهموم: لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك "(٢) .

و(هذا أصل عظيم في تمهيد الطريق إلى الحق تقدس بصرف هموم الدنيا المستولية على قلوب الورى الشاغلة لهم عن الإقبال على مولاهم، وهمومها: كل هم ينشأ عن الهوى في لذة من لذاتها: كملبس، ومأكل، ومنكح، ومال، وحشم، وجاه، فكل هَمّ منها يحجب عن الله، وعن الآخرة بحسب قوته، وضعفه، ولا طهارة للقلب إلا بالفراغ منها: هَمّاً، هَمّاً)(٣) .

ــ وقد قال تعالى في بيان حال أهل الطائفة المنصورة: { فِي بيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ **رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** } [النور: ٣٦_ ٣٧] .

* قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني أبي، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، قال: سمعت مالكاً يقول: " بقدر ما تحزن للدنيا: كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة: كذلك يخرج هم الدنيا من قلبك "(٤) .

فتعاظم شعور أهل الطائفة المنصورة بالمسؤولية، وثار كالبركان إحساسُهم بعظم الأمانة: فغلت صدورُهم بالعزم على القيام بالأمر الذي يحبه الله ويرضاه .

* قال مالك بن دينار_ رحمه الله_: " إن صدور المؤمنين تغلي بأعمال البر، وإن صدور الفجار تغلي بأعمال الفجور، والله تعالى يرى همومكم فانظروا: ما همومكم رحمكم الله "(٥) .

---

(١) " أدب الدنيا والدين للماوردي/٨٢ " .

(٢) " المستدرك ٤/ ٣٦٤ "، وانظر:" المستدرك ٢/ ٤٨١ "، " ابن ماجه١/ ٩٥، ٢/١٣٧٥ "، " مصنف ابن أبي شيبة٧/ ٧٦ " .

(٣) " فيض القدير٣/ ٢٦١ " .

(٤) " الزهد للإمام أحمد /٣١٩ " .

(٥) " الزهد للإمام أحمد / ٣٢٣ "، " الحلية٦/ ٢٨٨ " .

ــ وأهل الطائفة المنصورة في ذلك كله: يتسابقون فيما بينهم مع صدق، وسلامة صدر:

* قال تعالى: { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُون } [المطففين: ٢٦] .

* وقال سبحانه: { وَسَارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِينَ }
[آل عمران: ١٣٣] .

* وقال سبحانه في وصف عباده المؤمنين: { أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }
[المؤمنون: ٦١] .

ــ وقد كان عمر_ رضي الله عنه_ يحاول جاهداً مسابقة أبي بكر_ رضي الله عنه_ في الخير:

* أخرج الترمذي_ رحمه الله_ بسنده عن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_، قال: " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق: فوافق ذلك مالاً عندي، قلت: **اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً** .

قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أبقيت لأهلك، قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك، قال: أبقيت لهم الله ورسوله .

قلت: **والله لا أسبقه إلى شيء أبداً** "(١) .

* وقد جاء عن الشعبي_ رحمه الله_ في قوله: { إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم }:

قال: " أنزلت في أبي بكر وعمر_ رضي الله تعالى عنهما_؛ أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما خلفت وراءك لأهلك ياعمر، قال: خلفت لهم نصف مالي .

وأمّا أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر، فقال: عدة الله، وعدة رسوله .

فبكى عمر_ رضي الله عنه_ وقال بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، **والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقاً** "(٢) .

ــ وأهل الطائفة المنصورة: يُغذّيهم في تنافسهم، ويدفعهم له: معرفتُهم أن لا وقوف ألبته دون أبواب الجنة، وإنما هما أمران لا ثالث لهما: إما التقدم، والزيادة أو التقهقر، والنقص .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [والقصد: أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة إذ صاحب حفظه: مترقٍ على درجات الكمال، فإذا أضاعه: لم يقف موضعه بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في

---

(١) " الترمذي٥/٦١٤ "، " الحاكم١/٥٧٤ "، و" البزار١/٣٩٤ "، وغيرهم عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر، وانظر: " تلخيص الحبير٣/ ١١٥ "، ورواه البزار_ أيضاً_ من حديث نافع عن ابن عمر عن عمر " ١/٢٦٣ "، وقال الترمذي: [حديث حسن صحيح] .

(٢) " تفسير ابن كثير١/٣٢٤ " .

تقدم: فهو متأخر ولا بد، فالعبد سائر لا واقف: فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، إما إلى أمام وإما إلى وراء .

وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف ألبتة: ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار: فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف ألبتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير، وفي السرعة والبطء كما قال تعالى: { إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر } .

ولم يذكر واقفاً إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة: فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة](١) .

* قال حماد بن سلمة_ رحمه الله_: " ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاعُ اللهُ فيها إلا وجدناه مطيعاً، إن كان في ساعةِ صلاة: وجدناه مصلياً، وإن لم تكن ساعةُ صلاة: وجدناه: إما متوضئاً أو عائداً مريضاً أو مشيعاً لجَنَازة أو قاعداً في المسجد، وكنا نرى أنه لا يحسن أن يعصي الله "(٢) .

* وذكر جرير بن عبد الحميد أن: " سليمان التيمي لم تمر ساعةٌ قطُّ عليه إلا تصدقَ بشيء، فإن لم يكن شيءٌ: صلى ركعتين "(٣) .

* وقالت فاطمة بنت عبد الملك تصف زوجَها عمرَ بن عبد العزيز_ رحمه الله_:

" كان قد فرّغ للمسلمين نفسَهُ، ولأمورهم ذهنه، فكان إذا أمسى مساءً لم يَفرغ فيه من حوائج يومه: وصل يومَهُ بليلته "(٤) .

* وقال بعض أصحاب عمر بن عبد العزيز القدامى لعمر: لو تفرغت لنا .

فقال لهم_ رحمه الله_: " وأين الفراغ ؟!، ذهب الفراغ، فلا فراغ إلا عند الله "(٥) .

* وذكروا عن محمد بن أحمد الدباهي أنه: " لازمَ العبادةَ، والعملَ الدائم، والجد، واستغرق أوقاته في الخير ....، صلبٌ في الدين، وينصحُ الإخوان، وإذا رآه إنسان: عرف الجدَّ في وجهه "(٦) .

* وقال إبراهيم الحربي عن الإمام أحمد_ رحمهما الله_: " ولقد صحبته عشرين سنةً: صيفاً وشتاءً، وحراً وبرداً، وليلاً ونهاراً، فما لقيته في يوم إلا وهو زائدٌ عليه بالأمس "(٧) .

فهو في صعود أبداً، لا يعرف الوقوف .

---

(١) " مدارج السالكين ٢٦٧/١ " .

(٢) " حلية الأولياء٢٨/٣ "، " سير أعلام النبلاء ١٩٨/٦ " .

(٣) " سير أعلام النبلاء١٩/٦ " .

(٤) " سيرة عمر لابن عبد الحكم/١٤٦ " .

(٥) " طبقات ابن سعد ٣٩٧/٥ " .

(٦)" ذيل طبقات الحنابلة ٣٦١/٢ " .

(٧) " الزهد للإمام أحمد/١١ "، " مناقب أحمد لابن الجوزي/١٤٠ " .

قال ابن الجوزي_ رحمه الله_: [ومن الصفوة أقوام مذ تيقظوا: ما ناموا، ومذ سلكوا: ما وقفوا، فهمّهم: صعودٌ، وترقٍّ، كلما عبروا مقاماً: رأوا نقصَ ما كانوا فيه: فاستغفروا](١) .

ــ وجماعُ أمر أهل الطائفة المنصورة: أخْذُ الدين بقوة لا لهواً، ولعباً:

* قال تعالى: { يا يحيى خذ الكتاب بقوة } [مريم: ١٢] .

فهم أولى الناس بقول البحتري:

قلبٌ يطل على أفكاره ويدٌ   تمضي الأمور ونفس لهوها التعب(٢)

* جاء في ترجمة عبد الله بن الزبير_ رضي الله عنهما_ أنه: " كان لا ينازع في ثلاثة: شجاعة، ولا عبادة، ولا بلاغة، وأنه كان صواماً، قواماً "(٣) .

* وقال ابن مهدي_ رحمه الله_: " لو قيل لحماد بن سلمة إنك تموت غداً: ما قدر أن يزيد في العمل شيئاً"(٤).

* و" كان بالكوفة ثلاثة لو قيل لأحدهم إنك تموت غداً ما كان يقدر أن يزيد في عمله: محمد بن سوقة، وعمرو بن قيس الملائي، وأبو حيان التميمي "(٥) .

* وجاء في ترجمة شعبة بن الحجاج_ رحمه الله_: " قال البكراوي: ما رأيت أعبدَ لله من شعبة، لقد عبدَ الله حتى جفّ جلده على عظمه ليس بينهما لحم "(٦) .

فحداء أهل الطائفة المنصورة:

كن رابط الجأش وارفع راية الأمل   وسر إلى الله في **جد بلا هزل**

وإن شعرت بنقص فيك تعرفه   فغذّ روحك بالقرآن واكتمل

وحارب النفس وامنعها غوايتها   فالنفس تهوى الذي يدعو إلى الزلل(٧)

وقد استنكر ابن القيم_ رحمه الله_ استنكاراً شديداً: قطعَ الطريق باللهو، واللعب، فقال مقرّعاً، وموبّخاً:

[يا مخنث العزم أين أنت والطريقُ: طريقٌ تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمي في النار الخليل،

---

(١) " صيد الخاطر/355 " .

(٢) " ديوان البحتري١/١٧٢ " .

(٣) " سير أعلام النبلاء٣/٣٧٠ " .

(٤) " تهذيب التهذيب ٣/١٣ " .

(٥) " التهذيب٩/٢١٠ " .

(٦) " حلية الأولياء٧/ ١٤٤ " .

(٧) " ديوان الشعاع/ ١٦٢ " .

واضطجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسفُ بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيدُ الحصورُ يحيى، وقاسى الضرَّ أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم، تزهى أنت باللهو واللعب](١) .

ـ ولذا: قلّ كلامهم، وكثر عملهم وإن لم يشعر بهم الآخرون:

* قال الوليد بن مزيد: سمعت الأوزاعي يقول: " إن المؤمنَ: يقولُ قليلاً، ويعملُ كثيراً، وإن المنافقَ: يتكلمُ كثيراً، ويعملُ قليلاً "(٢) .

المبحث الثاني

الطائفة المنصورة والفرقة الناجية

(١) " الفوائد/٤٢ "، وقارن بما في " المدهش لابن الجوزي/٢٩١ " .

(٢) " سير أعلام النبلاء٧/١٢٥ " .

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته ستفترق في أمر دينها إلى ثلاث وسبعين فرقة، وأن هذه الفرق كلها ستنحرف عن الصراط المستقيم الذي جاء به صلوات ربي وسلامه عليه إلا فرقة واحدة .

* فقال صلى الله عليه وسلم: " افترقتُ اليهود على إحدى وسبعينَ فرقةً: فواحدةٌ في الجنَّة، وسبعون في النار، وافترقت النَّصارى على ثنتين وسبعين فرقةً: فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده: لتفترقنَّ أُمَّتي على ثلاث وسبعين فرقةً: واحدةٌ في الجنة، وثنتان وسبعون في النار .

قيل: يا رسول الله، مَن هُم ؟، قال: الجماعة "(١) .

* وفي رواية: " إن أهل الكتابين افتَرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملَّة، وإنَّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملَّة، كلُّها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تَجَارى بهم تلك الأهواءُ كما يَتَجارى الكَلَب بصاحبه؛ لا يبقى منهُ عرقٌ ولا مِفْصَلٌ إلا دخله "(٢) .

والظاهر أن هذا الاختلاف المذكور والذي تفترق به الأمة إلى هذه الفرق إنما هو الاختلاف في أصل الدين، وقواعده المحكمة، ومسائله الكبار من الإيمان والتوحيد، والاعتصام بالكتاب، والسنة دون الاختلاف في الأحكام العملية الدائر بين الراجح والمرجوح إذ لم يخل عصر الصحابة_ رضوان الله عليهم_ من هذا الاختلاف بل كان ذائعاً منتشراً بينهم وهم: " الجماعة " المشهود لها بالنجاة .

ـ وعلى هذا يمكن تعريف هذه الفرقة الناجية بأنهم: (الثابتون على اعتقاد ما نقله إليهم السلف الصالح_رحمهم الله_ عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه_ رضي الله عنهم_ فيما لم يثبت فيه نصٌّ في الكتاب، ولا عن الرسول صلى الله عليه وسلم)(٣) .

وهؤلاء: (هم **أهل السنة والجماعة** المتمسكون بكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين)(٤) .

* وقد سُئِل الإمام مالك_ رحمه الله_: مَنْ أهلُ السنة ؟ .

فقال: " أهل السنة الذين ليس لهم لقبٌ يُعرفون به: لا جهمي، ولا قَدَري، ولا رافضي "(٥) .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) صحيح من حديث معاوية_ رضي الله عنه_: " الحاكم٢١٨/١ "، " أبو داود١٩٨/٤ "، "أحمد١٠٢/٤ "، " المعجم الكبير٣٧٦/١٩، ٣٧٧"، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١٠٢/١ "، " السنة لابن أبي عاصم٧/١ ".

(٣) " الرد على من أنكر الحرف لأبي نصر السجزي/٩٩ " .

(٤) " تفسير ابن كثير ٤٣٣/٤ " .

(٥) " الانتقاء في فضائل الأئمة الفقهاء/٣٥ " .

* وسُئل أبو بكر بن عيَّاش_ رحمه الله_: مَن السُنِّيُّ ؟ .

فقال: " الذي إذا ذُكِرت الأهواء: لم يتعصَّب لشيءٍ منها "(١) .

ومن ثم، فحدّ النجاة أساساً: سلامة المعتقد، والحرص على الاتباع .

ـ والمتأمّل في أحاديث الطائفة المنصورة يرى أن ما علّقه عليها الشارع من مهام، وما أوكله إليها من واجبات ممّا يمثل بمجموعه صفات هذه الطائفة_ كما سيأتي تفصيله_: هو ممّا يتجاوز حدّ النجاة لدائرة أخص هي دائرة القوامة على أمر الله، والقيام به في أنفسهم، وفي غيرهم؛ فهم: صالحون، مصلحون بل ومقاتلون على هذا الصلاح، باذلون في سبيله النفس والنفيس، والغالي والرخيص، وهذه خصوصيتهم التي اجتمعوا عليها: فكان ظهورهم، ونصرهم، وقهرهم لمخالفيهم، ومن ناوأهم إذ الجزاء من جنس العمل .

فــ(كلمة " طائفة " تدلُّ بمعناها اللغوي على أن هذه الفئة أطافت بشيء واجتمعت حوله، وما هذا الشيء إلا القوامة على الحق، والسهر على حفظة وحمايته، والذب عنه إذ أن تعليق أحكامها على وصف معيَّن لا بدَّ أن يكون مراداً، مقصوداً، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يصفهم بالنجاة فحسب بل لم يرد وصفهم بالنجاة ألبتة في أحاديث الطائفة المنصورة السابقة، وإنما وُصِفوا بذلك في أحاديث الفرقة الناجية .

أمّا في أحاديث الطائفة المنصورة: فوُصفوا بوصف أعلى من ذلك، وهو: وصف الظُّهور، والنصر، والغلبة، والثبات، وملازمة الحق، والقتال دونه، وما أشبه ذلك)(٢) .

ـ وقد قام الدليل على أن " الطائفة ": جزء الفرقة لا كلها، وأنها الجزء القائم بالدين: علماً وعملاً، دعوة وجهاداً:

* قال تعالى: { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } [التوبة: ١٢٢] .

ففرّقت الآية بين الفرقة والطائفة، وبينت أن الطائفة جزء من الفرقة، وأنها هى الجزء القائم بالعلم، والجهاد من الفرقة(٣) .

* وقال تعالى: { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [آل عمران: ١٠٤] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقول تعالى: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأولئك هم المفلحون.

---

(١) " الشريعة للآجري٣/٥٨١ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة١/٦٣ " .

(٢) " صفة الغرباء/٢٨٨: ٢٨٩ " .

(٣) انظر: " تفسير ابن كثير٢/٤٠١ : ٤٠٢ "، " تفسير القرطبي٨/٢٩٤ " .

قال الضحاك: هم خاصة الصحابة، وخاصة الرواة؛ يعني: المجاهدين، والعلماء ...](١) .

وهذا ظاهر في كون هذه " الأمة " المذكورة في الآية: جزءاً خاصاً متميزاً عن غيرها وإن كان هذا الغير من أهل النجاة والفضل، وإنما تميزت هذه " الأمة " عن غيرها بما قامت به، ونصبت نفسَها له من الأمر الأحب لله ربّ العالمين .

* وقد قال تعالى: { لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ الله الْحُسْنَى وَفَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً } [النساء: ٩٥] .

فنفى الله تعالى المساواة بين القاعدين من المؤمنين، وبين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم، وأنفسهم مع اشتراك الجميع في الأجر والفضل فضلاً عن النجاة كما في قوله تعالى: { وكلاً وعد اللهُ الحسنى } غير أن مرتبة المجاهدين أعلى، ودرجتهم أكبر إذ قد: { فَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً } .

فدلّ ذلك على أن هناك دائرة أخص، وأرفع من دائرة النجاة، والأجر، والفضل .

* وبنحو الآية السابقة: قوله تعالى: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } [الزمر: ٩] .

فنفى الله تعالى المساواة بين أهل العلم، وغيرهم .

والأدلة على كون الجهاد، والعلم من صفات خاصة المؤمنين دون عامتهم: كثيرة جداً، وذلك أن الأصل فيهما أنهما من فروض الكفايات، بمعنى: أن وجوبهما إنما هو على البعض دون الكل، وهذا البعض من خاصة المؤمنين القائم بالعلم، والجهاد: هم الطائفه المنصورة دون غيرهم، وغيرُهم: تبعٌ لهم .

ــــ والقول بالتسوية بين الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة يعني أن ما تميزت به الطائفة المنصورة من القيام بأمر الله، والقوامة عليه بالعلم، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله: هي واجبات عينية لا تتم النجاة من الوعيد في الآخرة إلا بها؛ وهو ممنوع بيقين .

فإمّا أن نجرد الطائفة المنصورة ممّا شهدت لها به النصوص من القيام بأمر الله، والقوامة عليه بالعلم، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وإمّا أن نجعل ذلك فرضَ عين في حق كل مسلم لا تتم النجاة من الوعيد إلا به؛ وكلاهما ممنوع .

فلا يبقى غير التفريق بين الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، وكون هذه الأعمال ممّا تميزت به الثانية_أساساً_ دون الأولى .

ــــ ويؤكد ما سبق، ويوضحه: أن القعود عن القيام بأمر الله، والقوامة عليه بالعلم، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله عند القدرة: هو من جنس الذنوب، والمعاصي لا من جنس البدع، والمحدثات في حين أن العلماء كافة قد حملوا حديث الفرق على ما كان راجعاً للبدع، والمحدثات لا إلى الذنوب، والمعاصي حتى قال الشاطبي_ رحمه الله_: [فلم يكن منهم قائل بأنّ الفرقة المضادة

---

(١) " تفسير ابن كثير ٣٩١/١ " .

للجماعة: هي فرقة المعاصي غير البدع على الخصوص](1) .

وقال_ رحمه الله_: [وكل مَنْ لم يهتد بهديه، ولا يستن بسنته؛ فإمّا إلى بدعة أو معصية؛ فلا اختصاص بأحدهما غير أن الأكثر في نقل أرباب الكلام، وغيرهم أن الفرقة المذكورة: إنما هي بسبب الابتداع في الشرع على الخصوص، **وعلى ذلك حمل الحديثَ مَنْ تكلم عليه من العلماء، ولم يعدوا منها المفترقين بسبب المعاصي التي ليست ببدع، وعلى ذلك يقع التفريع إن شاء الله**](2) .

ـ قلت: ولأئمة أهل السنة الأعلام كلامٌ كثير، مشهور في التفريق بين البدع، والمعاصي وبيان قلة خطورة الثانية على الدين بالنسبة للأولى .

فيظهر بذلك أن جهة الحديث عن الطائفة المنصورة في كلام النبي صلى الله عليه وسلم مختلفة عن جهة حديثه صلى الله عليه وسلم عن الفرقة الناجية، وأن هذه الجهة الأخيرة: هي السلامة من البدع في القول، والعمل، والاعتقاد، وعلى هذا الأساس يُفهم ما روي عنه صلى الله عليه وسلم في بيان الفرقة الناجية من أنها: " مَنْ كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي "(3) .

أمّا جهة حديثه صلى الله عليه وسلم عن الطائفة المنصورة: فهي_ كما تنطق به الأحاديث_ ما وراء ذلك من إظهار هذا الدين السالم من البدع، والمحدثات، والقتال في سبيله، والتمكين له، والله أعلم .

ـ وعلى هذا؛ فالتسوية بين الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة يعني أن كل من لم يتصف بما اتصفت به الطائفة المنصورة من القيام بأمر الله، والقوامة عليه بالعلم، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله: هو من الفرق الضالة المُباينة للفرقة الناجية؛ وهو ما يظهر فساده .

فالمتفق عليه (أن هذه الفرق إنما تصير فرقاً بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين، وقاعدة من قواعد الشريعة لا في جزئي من الجزئيات إذ الجزئي، والفرع الشاذ: لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعاً، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية)(4) .

---

(1) " الاعتصام2/410 " .

(2) " الاعتصام2/411 " .

(3) من حديث عبد الله بن عمرو_ رضي الله عنهما_: " المستدرك1/218 "، " الترمذي5/6 "، " البدع والنهي عنها لابن وضاح/85 "، " الشريعة للآجري/15، 16 "، "السنة للمروزي/23 "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة1/99 "، " الإبانة لابن بطة1/219: 221 "، وغيرهم، وهو حسن لشواهده الكثيرة، والله أعلم .

والحديث حسّنه الترمذي كما في " تحفة الأحوذي7/334 "، وكما نقله العراقي في " تخريج الإحياء3/198 "، وابن القيم في " حاشيته على أبي داود12/222 "، والعجلوني في " كشف الخفاء1/170 ".

وقد رويت هذه الزيادة عن أنس_ رضي الله عنه_، انظر: "المختارة7/278"، " المعجم الأوسط8/22 "، " المعجم الصغير2/29 "، " مجمع الزوائد1/189 " .

(4) " الاعتصام2/415: 416 " .

ـــــ وقد ورد عن جمهرة من سلفنا الصالح أن الطائفة المنصورة: هم أهل الحديث:

* قال الإمام الكبير عبد الله بن المبارك_ رحمه الله_ في بيان الطائفة المنصورة:

" هم عندي أصحاب الحديث "(١) .

* وقال يزيد بن هارون_ رحمه الله_: " إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم ؟! "(٢) .

* وسئل الإمام أحمد عن هذه الطائفة المنصورة، فقال: " إن لم تكن أهل الحديث فلا أدري من هي ؟ "(٣) .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [أخرج الحاكم في علوم الحديث بسند صحيح عن أحمد: " إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم ؟ "](٤) .

* وقال الترمذي: قال محمد بن إسماعيل: قال علي بن المديني_ رحمه الله_: " هم أصحاب الحديث "(٥) .

* وقال الإمام البخاري_ رحمه الله_ : [باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق "، وهم: أهل العلم](٦) .

ومن المعلوم: أن أهل الحديث أو أهل العلم: جزء من الفرقة الناجية_ أهل السنة والجماعة_ إذ ليس كل منتسب لأهل السنة_ الفرقة الناجية_: هو من أهل الحديث أو أهل العلم إلا أن يكون ذلك بالتبعية؛ فعوام الفرقة الناجية_ وهم قطاع عريض إن لم نقل: القطاع العريض_ ليسوا من أهل العلم أو من أهل الحديث بالمعنى الاصطلاحي الخاص المذكور هنا وإن كانوا منهم باعتبار اتباعهم لهم، واقتدائهم بهم .

ـــ وعليه؛ فالفرقة الناجية: هي جزء خاص من أمة الإسلام لا كلها كما هو نص حديث الفرق: " أمتي ... إلا فرقة واحدة ": فهي فرقة واحدة من مجموع الأمة .

ثم الطائفة المنصورة بعد: جزء خاص من الفرقة الناجية: { فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ: طَائِفَةٌ ... } الآية؛ فالطائفة جزء الفرقة لا كلها .

فمراتب الانتساب لهذا الدين هنا: ثلاث؛ مرتبة الإسلام، وهي أوسع المراتب جميعاً ثم: مرتبة الفرقة الناجية، وهي أخص ممّا سبقها ثم: مرتبة الطائفة المنصورة، وهي أضيق المراتب، وأخصها جميعاً .

والعلاقة بين هذه المراتب: هي عين العلاقة بين: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات في قوله تعالى: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتَابَ الذينَ اصْطَفَيْنَا من عبَادنا فَمنهُم ظَالمٌ لنَفسه ومنْهُم مُقْتَصدٌ وَمنْهُم سَابقٌ بالخَيْرَات بإذْن الله

---

(١) " شرف أصحاب الحديث للخطيب/٢٦ " .

(٢) " المرجع السابق " .

(٣) " معرفة علوم الحديث/٢ "، " شرف أصحاب الحديث/٢٥، ٢٧ " .

(٤) " فتح الباري ١٣/٣٥٩ " .

(٥) " سنن الترمذي٤/٤٨٥ "، " شرف أصحاب الحديث/٢٧ " .

(٦) " فتح الباري ١٣/٣٥٨ " .

ذلك هُوَ الفَضْلُ الكبير } .

وهي_ كذلك_: عين العلاقة بين: الإسلام، والإيمان، والإحسان كما في حديث جبريل المشهور(١) .

قال ابن رجب_ رحمه الله_ عن حديث جبريل: " ما الإسلام...، ما الإيمان ...، ما الإحسان ... " الحديث، قال: [هو حديث عظيم الشأن جداً يشتمل على شرح الدين كله، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في آخره: " هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " بعد أن شرح **درجة** الإسلام، و**درجة** الإيمان، و**درجة** الإحسان، فجعل ذلك كله ديناً](٢) .

ـــــ وبناء على ما سبق؛ فكلّ مَنْ كان من أهل الطائفة المنصورة: فهو بلا شك من الفرقة الناجية بغير عكس إذ كل ما اتصفت به الفرقة الناجية: ثابت في حق الطائفة المنصورة_ كما يظهر في صلب هذه الرسالة_ ثم تتميز الطائفة المنصورة بعد بالقيام بالفروض الكفائية التي يتحقق بها القيام بأمر الله، والقوامة عليه .

وهذه هي القاعدة العامة هنا مع التسليم بأن الوصفين: " الفرقة الناجية " و " الطائفة المنصورة " قد يجتمعان أحياناً على وجه الاستثناء من القاعدة العامة في فئة من المؤمنين، وحينئذ تكون الطائفة المنصورة: هى الفرقة الناجية بأكملها كما كان الحال في صدر الإسلام، وكما سيكون عليه الحال في آخر الزمان حينما ينحاز المؤمنون إلى الشام، وعليهم ينزل عيسى بن مريم عليه السلام لقتال الدجال .

وهذا يُذَكّر بأن صفات الطائفة المنصورة التي تميزت بها عن الفرقة الناجية من العلم، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله وإن كانت في الأصل واجبات كفائية؛ فإنها قد تتعين أو يتعين قدر منها؛ وعندئذ يصبح القيام بما تعين منها_ عند العلم، والقدرة_ ممّا لا تتم النجاة من الوعيد في الآخرة إلا به كما سيظهر في ثنايا البحث وبقوة .

* قال تعالى: { والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر } .

* وقال تعالى: { وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إنَّ الله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ }

[البقرة: ١٩٥] .

وقد ذكرنا في المقدمة أنّ الانتساب للطائفة المنصورة متفاوت، وأنّ نصيب الفرد من الانتساب للطائفة المنصورة هو بحسب نصيبه ممّا قام به من صفاتها .

ــ وبما سبق يعلم أنه ليس هناك أدنى تعارض بين ما ورد عن أئمة السلف من أن أهل الحديث: هم الفرقة الناجية، وما ورد عنهم من أنّ أهل الحديث: هم الطائفة المنصورة إذ أهل الحديث: هم الطائفة المنصورة، وهم الفرقة الناجية في نفس الوقت لما قررناه من أن كل مَنْ كان من الطائفة المنصورة: فهو بلا شك من الفرقة الناجية، فوصف " الطائفة المنصورة " كوصف " الإحسان " يجمع ما قبله من " الإيمان "، و" الإسلام"،

---

(١) " مسلم ١/٣٦ " .

(٢) " جامع العلوم والحكم/ ٢٥ " .

فأين التعارض ؟! .

وبهذا_ كذلك_ يُعلم الجواب عن نحو قول شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: في مفتتح رسالته " العقيدة الواسطية ": [فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة](١) .

فالطائفة المنصورة: هي جزء لا يتجزء من الفرقة الناجية بل هي قلب الفرقة الناجية_ أهل السنة والجماعة_، فكل ما ثبت للفرقة الناجية: ثبت للطائفة المنصورة ضرورة كما أنها هي المقام الأعلى الذي يتضمن ما قبله ضرورةً أيضاً .

ـ وأمّا الاعتراض هنا بأن وصف " النجاة ": أعلى، وأخص من وصف " النصر " أو " الظهور ": فهو اعتراض مردود بيقين، وهو ظن مجرد مخالف لكثير من النصوص؛ منها:

* قوله تعالى: { يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون } [التوبه: ٣٢_٣٣] .

* وقال تعالى: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِالله شَهِيداً } [الفتح: ٢٨] .

* وقال تعالى: { يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَالله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [الصف: ٨_٩] .

* وقال تعالى: { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام: ٣٤] .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُم الْغَالِبُونَ } [الصافات: ١٧١_ ١٧٣] .

* وقال تعالى_ كذلك_: { كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [المجادلة: ٢١] .

* وقال تعالى: { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ } [غافر: ٥١] .

فالوعد في هذه النصوص كلها_ وغيرها_ إنما هو بالنصر، والغلبة، والظهور في الدنيا، والآخرة مع أنّ المَعْنيين بهذا الوعد: هم من أهل النجاة قطعاً، فتعين أن الوعد بالنصر، والغلبة، والظهور: أخص من الوعد بالنجاة، وهذا ظاهر جداً من الآيات إذ صراع الرسل مع مخالفيهم إنما هو_ أساساً_ لإظهار الحق الذي بُعثوا به، والتمكين له لا لتحقيق النجاة لأنفسهم في الآخرة فقط، والله أعلى، وأعلم(٢) .

---

(١) " العقيدة الواسطية/٥: ٦ " .

(٢) وهذا ما بدا لي في مسألة العلاقة بين " الفرقة الناجية "، و" الطائفة المنصورة " بعد متابعة لكل ما قيل، وثار حولها، وتبقى هذه المسألة: مسألة علمية، اجتهادية_ إذ لا يوجد كلام **صريح** لمَنْ تقدم فيها_، الأصل أن تعالج بمنهج علمي موضوعي بعيداً عن التشنج، والانفعال، وسوء الظن، واتهام النيات، والأحكام المسبقة، والهوى الغالب، والله من وراء القصد .

ـــــ تنبيه هام جداً:

المراد بـــ: " أهل الحديث " .

مرّ معنا قول جمهرة من أئمة السلف بأن أهل الحديث: هم " الطائفة المنصورة ": وهذا الوصف: " أهل الحديث " من هؤلاء الأئمة الأعلام في بيان الطائفة المنصورة: هو وصفُ كمالٍ مُعبّر بغاية الإيجاز، والإحكام عن حال الطائفة المنصورة من القوامة بأمر الله: علماً وعملاً، دعوةً وجهاداً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [ونحن لا نعني بأهل الحديث: المقتصرين على سماعه أو كتابته أو روايته بل نعني بهم: كلَّ من كان أحقَّ بحفظه، ومعرفته، وفهمه: ظاهراً، وباطناً، واتباعه: باطناً، وظاهراً، وكذلك: أهل القرآن .

وأدنى خصلة في هؤلاء: محبة القرآن والحديث، والبحث عنهما، وعن معانيهما، والعمل بما علموه من موجَبهما](١) .

فأساس الانتساب إلى: " أهل الحديث ": هو عين أساس الانتساب إلى " الطائفة المنصورة " من العلم والعمل، والدعوة والجهاد؛ أمّا مَنْ كان حظه من النسبة لأهل الحديث: مجرد تجارة الورق؛ فنسبته إليهم: نسبة زور هيهات أن تَسلَم له أو أن يكون المقصود بها وإن أسبغ على نفسه الألقاب أو سوّد وجهه بالمداد أو أتقن دقّ الطبول !!! .

وصدق ابن القيم_ رحمه الله_ في قوله في نونيته:

من أين والعلماء أنتم فاستحوا	أين النجوم من الثرى التحتاني ؟!
لم يشـــبه العلماء إلا أنـــتم !	أشبهتم العلمـــاء فـــي الأذقان
والله لا عـــلـــم ولا ديـــن	ولا عقل ولا بمروءة الإنسان(٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [إذا قيل عن رجلٍ إنه صاحب سنة؛ فالمقصود به أنه: على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام رضوان الله عليهم من أمور الدين: **قولاً، وعملاً، واعتقاداً**](٣) .

وقال ابن رجب_ رحمه الله_: [والسنة: هي الطريق المسلوك، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من: الاعتقادات، والأعمال، والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديماً لا يطلقون

---

(١) " الفتاوى٤/٩٥ " .

(٢) انظر: " شرح القصيدة النونية لأحمد عيسى١/٤٨٨ " .

(٣) " الفتاوى١٩/٣٠٦: ٣٠٧ " .

اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله، وروي معنى ذلك عن الحسن، والأوزاعي، والفضيل بن عياض](١) .

وقال شيخ الإسلام_ رحمه الله _أيضاً_: [ومن المعلوم: أن أهل الحديث، والسنة أخص بالرسول واتباعه، فلهم من فضل الله، وتخصيصه إياهم بالعلم، والحلم، وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم كما قال بعض السلف: " أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل "؛ فهذا الكلام تنبيه على ما يظنه أهل الجهالة، والضلالة من نقص الصحابة في: العلم والبيان أو **اليد والسنان**](٢) .

وقال_ أيضاً_ رحمه الله_ عن أهل الحديث؛ ولله درّ ما قال: [فإن الله كتب في قلوبهم الأيمان، وأيدهم بروح منه **لما صدقوا في موالاة الله ورسوله، ومعاداة من عدل عنه**، قال تعالى: { لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلا إِنَّ حِزْبَ الله هُمْ الْمُفْلِحُونَ } .

وأهل العلم المأثور عن الرسول: أعظم الناس قياماً بهذه الأصول، لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم، ولا يصدهم عن سبيل الله العظائم بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه، ويتكلم في أحب الناس إليه عملاً بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَالله أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}، وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }](٣) .

وقال اللالكائي_ رحمه الله_ وهو يُعدّد مناقب أهل الحديث: [فإنهم السواد الأعظم، والجمهور الأضخم، فيهم: العلم، والحكم، والعقل، والحلم، **والخلافة، والسيادة، والملك، والسياسة** .

وهم أصحاب الجمعات، والمشاهد، والجماعات، والمساجد، والمناسك، والأعياد، والحج، **والجهاد**، وباذلي المعروف للصادر والوارد، **وحمات الثغور والقناطر الذين جاهدوا في الله حق جهاده**](٤) .

---

(١) " جامع العلوم والحكم/٢٦٣ " .

(٢) " الفتاوى٤/١٤٠ " .

(٣) " الفتاوى١/١٠ " .

(٤) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٢٥ " .

المبحث الثالث

الطائفة المنصورة وقلة العدد

قوله صلى الله عليه وسلم " طائفة ": يدل على أن هذه الطائفة الظاهرة المنصورة قد تكون في بعض الأزمان قليلة العدد بالنظر إلى مجموع الأمة إذ " الطائفة "_ لغةً، وشرعاً_: تنتظم الواحد فما فوق .

جاء في " مختار الصحاح ": [والطَّائِفة من الشيء: قطعة منه، وقوله تعالى: { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ }، قال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: الواحد فما فوقه](١) .

_ وقد استدل الأئمة_ رحمهم الله_ بقوله تعالى: { فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } على قبول خبر الواحد وحجيته لكون " الطائفة " تنتظم: الواحد فما فوق(٢) .

وقد عقد الإمام البخاري_ رحمه الله_ باباً في كتاب الأحكام من صحيحه، فقال: " باب: ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الآذان، والصلاة، والصوم، والفرائض، والأحكام، وقول الله تعالى: { فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ }، الآية "(٣) .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [وهذا مصير منه إلى أن لفظ " طائفة " يتناول الواحد فما فوقه، ولا يختص بعدد معين، وهو منقول عن ابن عباس، وغيره كالنخعي، ومجاهد نقله الثعلبي، وغيره .

وعن عطاء، وعكرمة، وابن زيد: أربعة، وعن ابن عباس_ أيضاً_ من أربعة إلى أربعين، وعن الزهري: ثلاثة، وعن الحسن: عشرة، وعن مالك: أقل الطائفة: أربعة، كذا أطلق ابن التين، ومالك إنما قاله فيمن يحضر رجم الزاني، وعن ربيعة: خمسة .

وقال الراغب(٤): لفظ طائفة يُراد بها الجمع، والواحد: طائف، ويُراد بها الواحد، فيصح ان يكون كراوية، وعلامة، ويصح أن يُراد به الجمع وأطلق على الواحد .

وقال عطاء: الطائفة اثنان فصاعداً، وقواه أبو إسحاق الزجاج بأن لفظ طائفة يشعر بالجماعة وأقلها اثنان،

---

(١) " مختار الصحاح١/١٦٨ " .

(٢) انظر: " تفسير القرطبي٨/٢٩٤ " .

(٣) " البخاري٦/٢٦٤٧ " .

(٤) انظر: " مفردات القرآن للراغب/٥٣٢ " .

وتعقب بأن الطائفة في اللغة: القطعة من الشيء فلا يتعين فيه العدد .

وقرّر بعضهم الاستدلال بالآية الأولى على وجه آخر، فقال: لما قال: { فلولا نفر من كل فرقة }، وكان أقل الفرقة: ثلاثة، وقد علق النفر بطائفة منهم: فأقلّ مَنْ ينفر واحد ويبقى اثنان، وبالعكس](١) .

والمرجّح_ والله أعلم_، أن الطائفة: الواحد فما فوق إذ الطائفة لغة_ كما سبق_: القطعة من الشيء، فلا يتعين فيه العدد كما قال الحافظ .

قال ابن عبد البر_ رحمه الله_ في الآية السابقة: [فألزم النفير فى ذلك البعض دون الكل ثم ينصرفون فيعلمون غيرهم، والطائفة في لسان العرب: الواحد فما فوق](٢) .

ـــ قلت: وبهذا جاء التنزيل:

* قال تعالى: { لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ **طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً** بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } [التوبة: ٦٦] .

قال القرطبي_ رحمه الله_ في تفسير هذه الآية: [قيل: كانوا ثلاثة نفر: هزيء اثنان، وضحك واحد، فالمعفو عنه: هو الذي ضحك ولم يتكلم .

والطائفة: الجماعة، ويقال للواحد على معنى نفس طائفة، وقال ابن الدفع: يطلق لفظ الجمع على الواحد كقولك: خرج فلان على البغال، قال: ويجوز أن تكون الطائفة إذا أريد بها الواحد: طائفاً والهاء للمبالغة](٣).

فالآية نص في كون " الطائفة " تنتظم الواحد فما فوق .

ـــ وبنحو الآية السابقة:

* قوله تعالى: { وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا } [الأحزاب: ١٣] .

قال القرطبي_ رحمه الله_ في تفسيرها: [الطائفة: تقع على الواحد فما فوقه، وعنى به هنا: أوس بن قيظي والد عرابة بن أوس ...](٤) .

وقد قال الإمام البخاري_ رحمه الله_ في " باب ما جاء في إجازة خبر الواحد ... "، قال: " ويسمى الرجل: طائفة لقوله تعالى: { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا }، فلو اقتتل رجلان: دخلا في معنى الآية "(٥) .

قال الحافظ_ رحمه الله_: [وهذا الاستدلال سبقه إلى الحجة به: الشافعي، وقبله: مجاهد، ولا يمنع ذلك قوله: { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ }، لكون سياقه يشعر بأن المراد أكثر من واحد لأنّا لم نقل إن الطائفة

---

(١) " الفتح١٣/٢٣٤ " .

(٢) " جامع بيان العلم١/١١ " .

(٣) " تفسير القرطبي١٤/١٤٧ " .

(٤) " تفسير القرطبي٨/١٩٩ " .

(٥) " البخاري٦/٢٦٤٧ " .

لا تكون الا واحداً](1) .

قلت: وقد قال القرطبي_ رحمه الله_ في تفسيره: [قلت: أنصُّ ما يستدل به على أن الواحد يقال له طائفة: قوله تعالى: { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا }: يعني نفسَيْن، دليله: قوله تعالى: { فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ }، فجاء بلفظ التثنية، والضمير في اقتتلوا وإن كان ضمير جماعة فأقل الجماعة اثنان في أحد القولين للعلماء](2).

ــ فدلّ ذلك كله على أن لفظ " الطائفة " يطلق_ لغةً، وشرعاً_ على الواحد فما فوق.

وقد قال ابن الأثير_ رحمه الله_ في نفس حديث الطائفة المنصورة: " لا تَزال طائفةٌ من أُمَّتي على الحقِّ "، قال: [الطائفة : الجماعة من النَّاس، **وتقعُ على الوَاحد**، كأنه أرادَ نَفْساً طائفة .

وسُئل إسحاق بن راهُوية عنه، فقال: الطائفة: دُون الألف، **وسيَبْلُغ هذا الأمرُ إلى أنْ يكون عدَد المُتَمَسِّكينَ بما كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصْحابه: ألفاً يسلّى بذلك أن لا يُعْجبَهم كَثْرَةُ أهل الباطل**](3).

قلتُ: فجاء النص عن بعض الأئمة الأعلام على أن هذه الطائفة الظاهرة المنصورة قد تكون في بعض الأزمان قليلة العدد جداً بالنظر إلى مجموع الأمة .

وقد قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب_ رحمه الله_ عقب سوقه لحديث الطائفة المنصورة من رواية ثوبان: [العاشرة: الآية العظمى أنهم **مع قلتهم** لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم](4) .

ــــ وقد جاء وصفُ الطائفة المنصورة_ أيضاً_ بأنها: " عصابة " كما في حديث جابر بن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه **عصابة** من المسلمين حتى تقوم الساعة"(5) .

* ومن حديث عقبة بن عامر_ رضي الله عنه_: " لا تزال **عصابَةٌ** من أُمَّتي، يقاتلونَ على أمر الله، قاهرين لعدوِّهم، لا يضُّرهم من خالَفهم حتى تأتيَهُم الساعة وهم على ذلك "(6) .

* وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لن يزال على هذا الأمر **عصابةٌ** على الحقِّ، لا يضرُّهم مَن خالَفَهم حتى يأتيَهُم أمرُ الله وهم على ذلك "(7) .

---

(1) " الفتح13/234 " .

(2) " تفسير القرطبي 8/294 " .

(3) " النهاية في غريب الحديث3/153 " .

(4) " فتح المجيد/278 " .

(5) " مسلم3/1524 " .

(6) " مسلم3/1524 " .

(7) " صحيح ابن حبان15/249 "، " أحمد2/340، 379 " .

وقد قال في " لسان العرب ": [والعُصْبة، والعِصابة: جماعة ما بين العَشَرة إلى الأربعين](١) .

وفي " النهاية لابن الأثير ": [العَصائِب: جمعُ عِصابة، وهم الجماعة من الناس من العَشَرة إلى الأرْبَعين](٢).

ـــ وجاء من حديث مرّة البهزي_ رضي الله عنه_ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين على من ناوأهم، **وهم كالإناء بين الأكلة** حتى يأتي أمر الله وهم كذلك .

قلنا يا رسول الله: وأين هم، قال: بأكناف بيت المقدس "(٣) .

فقوله صلى الله عليه وسلم: " وهم كالإناء بين الأكلة ": ظاهر في غربة هذه الطائفة، وقلة عددها، وعدتها بالنظر لمجموع مَنْ حولها من المخالفين، والمناوئين، والخاذلين، والله أعلم .

* ومن حديث المغيرة بن شعبة_ رضي الله عنه_ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يزال **ناسٌ** من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون "(٤) .

* وعن قرّة بن إياس المزني_ رضي الله عنه_ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يزال **ناسٌ** من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة "(٥) .

* وعن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يزال **ناسٌ** من أمتي ظاهرين على الحق "(٦) .

فقوله صلى الله عليه وسلم: " ناسٌ ": مشعر بالقلة وإن لم يكن نصاً فيها .

ـــ وقد جاء في وصف الغرباء الذين أثنى النبي صلى الله عليه وسلم عليهم خيراً أنهم :" ناس صالحون في ناس سوءٍ كثير؛ مَنْ يعصيهم **أكثر** ممّن يطيعهم "(٧) .

أي: أنهم قليل في وسط كثير من المخالفين، والمناوئين، والخاذلين .

* وقد جاء في رواية: " ناس صالحون **قليل** في ناس سوءٍ كثير، مَنْ يعصيهم أكثر ممن يطيعهم "(٨) .

ـــ وتأمّل ما جاء في وصف الغرباء_ كذلك_ أنهم: " الفرَّارون بدينهم، يبعثهم الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة **مع**

---

(١) " لسان العرب ٦٠٧/١ " .

(٢) " النهاية لابن الأثير ٢٤٣/٣ " .

(٣) " المعجم الكبير ٣١٧/٢٠ " .

(٤) " البخاري ١٣٣١/٣ " .

(٥) " صحيح ابن حبان ٢٤٨/١٥ "، " أحمد ٣٥/٥ "، " مسند ابن الجعد/١٦٦ " .

(٦) " الدارمي ٢٨٠/٢ " .

(٧) " أحمد ٢٢٢/٢ " .

(٨) " الزهد الكبير للبيهقي ١١٦/٢"، " الزهد لابن المبارك/٢٦٧ "، وانظر: " مجمع الزوائد ٢٥٩/١٠ " .

عيسى بن مريم "(١) .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم في وصف الطائفة المنصورة كما في حديث عمران ابن حُصَين_ رضي الله عنه_: " لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على مَن ناوأهم **حتى يقاتلَ آخرهُم المسيحَ الدجَّال** "(٢) .

فبالجمع بين الحديثين: يتبين أن هؤلاء الغرباء الفرارين بدينهم: هم الطائفة المنصورة المقاتلة على هذا الدين إذ هم أولى الناس بعيسى بن مريم عليه السلام لقتالهم معه دون غيرهم؛ فناسب أن يبعثهم الله عز وجل معه يوم القيامة دون سواهم(٣) .

ولا شك أن قلة العَدد، والعُدد أحد مظاهر الغربة وأسبابها .

ـــــ وقد أخبرنا المولى سبحانه وتعالى أن سنته قد جرت بقلة أتباع الحق، وأنصاره:

* قال تعالى: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [يوسف: ١٠٦] .

* وقال تعالى: { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام: ١١٦] .

* وقال تعالى: { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [يوسف: ١٠٣] .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تعالى: يا آدم أخرج بعث النار ؟ .

قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده: يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد "(٤) .

* وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الفرق: " إن أهل الكتابين افتَرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملَّة، وإنَّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملَّة، كلُّها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تَجَارى بهم تلك الأهواءُ كما يَتَجارى الكَلَب بصاحبه؛ لا يبقى منهُ عرقٌ ولا مِفْصَلٌ إلا دخله"(٥).

فظاهر حديث الفرق: أن هذه الفرقة الناجية غريبة في هذا الخضم من الفرق الضالة، ولذلك ربط الإمام الآجُرِّي_ رحمه الله_ بين حديث الغربة، وحديث الفرق، فقال:

---

(١) " الزهد للبيهقي٢/١١٦ "، " الزهد للإمام أحمد/١٤٩ "، " حلية الأولياء١/٢٥ " .

(٢) " المستدرك٢/٨١، ٤/٤٩٧ "، " أبو داود٣/٤ "، " أحمد٤/٤٣٧ "، " المعجم الكبير١٨/١١٦ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/١١١".

(٣) انظر " صفة الغرباء/ ٢٨٤ ".

(٤) " البخاري٣/١٢٢١، ٥/٢٣٩٢ "، " مسلم١/٢٠١ " .

(٥) سبق تخريجه .

[وقوله صلى الله عليه وسلم: " وسيعود غريبًا ": معناه_ والله أعلم_: أن الأهواء المضلَّة تكثرُ، فيضلُّ بها كثيرٌ من الناس، ويبقى أهل الحق_ الذين هم على شريعة الإسلام_: **غرباء في الناس**، ألم تسمع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: " تفترق أمَّتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي الناجية ؟، قال: " ما أنا عليه وأصحابي "](١) .

قلتُ: (وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً: غريبةً بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع، ورئاسات، ومناصب، وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول، فإن نفس ما جاء به: يضادّ أهواءهم، ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات، والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم، فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحهم، وأعجب كلٌ منهم برأيه)(٢) .

وإذا كانت الطائفة المنصورة: هي خلاصة، ونقاوة الفرقة الناجية: فلا شك حينئذٍ في غربتها، وقلتها بالنظر إلى مجموع الأمة، والله أعلم .

ـــــ وقد قام الدليل على أن وصف " الجماعة " الموصوفة به الفرقة الناجية كما في حديث الفرق: يتحقق_شرعاً_ باثنين:

* قال النبي صلى الله عليه وسلم: " مَنْ يتصدق على هذا فيصلي معه "(٣) .

والمراد بالتصدق هنا: هو أن يثيبه بانضمامه معه في الصلاة ثواب الجماعة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " صلاة الجماعة تعدل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة "(٤) .

فدلّ الحديث على أن الاثنين: جماعة، وقد صلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه رجل واحد فقط .

فدلت السنة العملية والقولية على أن الاثنين: جماعة .

قال البخاري_ رحمه الله_: " اثنان فما فوقهما: جماعة "(٥)، ويُروى هذا مرفوعاً(٦) .

ـــــ بل قد تنحصر الجماعة بوصفها الشرعي المعتبر والذي هو موافقة الحق في شخص واحد، وحينئذ فهذا

---

(١) " الغرباء للآجري/٢٤ " .

(٢) " مدارج السالكين لابن القيم٢/١٩٨ " .

(٣) من حديث أبي سعيد الخدري_ رضي الله عنه_: " صحيح ابن حبان٦/١٥٧، ١٥٨ "، "المستدرك١/٣٢٨ "، " أحمد٣/٤٥ "، "الدارمي١/٣٦٧ "، " أبو داود١/١٥٧ "، " البيهقي الكبرى٣/٦٨ "، وغيرهم، والحديث صححه في " المجمع٢/٤٥ " .

(٤) " البخاري١/٢٣١ "، " مسلم١/٤٥٠ " عن ابن عمر_ رضي الله عنهما_ .

(٥) " البخاري١/٢٣٤ " .

(٦) انظر: " فتح الباري٢/١٤٢ " .

الشخص وإن كان فرداً: هو الجماعة .

* وقد صحّ وصف النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الطائفة المنصورة بأنها: **أمة** من أمته كما جاء من حديث معاوية_ رضي الله عنه_، قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " لا يزال من أمتي **أمَّةٌ** قائمةٌ بأمر الله ما يضُرُّهم مَن كذَّبهم، ولا مَن خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك "(١) .

* وعن سلمة بن نفيل الكندي_ رضي الله عنه_ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ولا يزال من أمتي: **أمة** يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم، حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة "(٢) .

وهذا الوصف: " أمة " كما يقوم بالعدد الكثير: يقوم كذلك بالعدد القليل بل قد يقوم بالشخص الواحد:

* قال تعالى: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: ١٢٠] .

ـــ وقد اتفقت كلمة السلف على أن القائمين بالحق_ علماً وعملاً_ قد يكونون قلة بل قد يكون القائم بالحق: رجلاً واحداً:

* قال عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_ لعمرو بن ميمون: " جمهور الجماعة هم الذين فارقوا الجماعة، والجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك "(٣) .

* وقال نعيم بن حماد_ رحمه الله_: " إذا فسدت الجماعة: فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد الجماعة وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ "(٤) .

* وقال الحسن البصري_ رحمه الله_: " إن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي: الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكونوا كذلك "(٥) .

* وكان الحسن_ رحمه الله_ يقول: " يا أهل السنة، ترفقوا_ رحمكم الله_، فإنكم من أقل الناس "(٦) .

* وقال الإمام الأوزاعي_ رحمه الله_: " أما إنه ما يذهب الإسلام ولكن يذهب أهل السنَّة حتى ما يبقى في البلد منهم إلاَّ رجل واحد "(٧) .

---

(١) " البخاري٣/١٣٣١، ٦/٢٧١٤ " .

(٢) " النسائي الكبرى٣/٣٥، ٥/٢١٨ "، " المعجم الكبير٧/٥٢ "، " التاريخ الكبير٤/٧٠ " .

(٣) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/١٠٨، ١٦٩ " ، " تاريخ دمشق ابن عساكر١٣/٦٤٢: ٦٤٣ "، "تهذيب الكمال٢٢/٢٦٤ " .

(٤) " تهذيب الكمال٢٢/٢٦٥ "، " تاريخ دمشق١٣/ ٦٤٣ " .

(٥) " شرح العقيدة الطحاوية/٣٠٨ " .

(٦) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٥٧ " .

(٧) " كشف الكربة في وصف حال أهل الغُربة لابن رجب/٢٨، ٢٩ " .

* وقال يونس بن عبيد_ رحمه الله_: " ليس شيء أغرب من السنَّة وأغرب منها من يعرفها "(١) .

* وقال سفيان الثوري_ رحمه الله_: " استوصوا بأهل السنَّة: فإنهم غرباء "(٢) .

* وكان سفيان الثوري_ رحمه الله_ يقول: " إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة، وآخر بالمغرب: فابعث إليهما بالسلام، وادع لهما، ما أقلَّ أهلَ السنة والجماعة "(٣)

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [اعلم أن الإجماع، والحجة، والسواد الأعظم: هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض ...

وقال بعض أئمة الحديث_ وقد ذكر له السواد الأعظم_، فقال: أتدري ما السواد الأعظم: هو محمد بن أسلم الطوسي وأصحابه .

فمسخ المختلفون الذين جعلوا السواد الأعظم، والحجة، والجماعة: هم الجمهور، وجعلوهم عياراً على السنة، وجعلوا السنة: بدعة، والمعروف: منكراً **لقلة أهله وتفردهم في الأعصار والأمصار**، وقالوا من شذ: شذ الله به في النار .

وما عرف المختلفون أن الشاذ ما خالف الحق وإن كان الناس كلهم عليه إلا واحداً منهم: فهم الشاذّون، وقد شذّ الناس كلهم زمن أحمد بن حنبل إلا نفراً يسيراً: فكانوا هم الجماعة، وكانت القضاة حينئذ، والمفتون، والخليفة، وأتباعه كلهم: هم الشاذّون، وكان الإمام أحمد وحده: هو الجماعة، ولمّا لم يتحمل هذا عقول الناس: قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين، أتكون أنت وقضاتك، وولاتك، والفقهاء، والمفتون كلهم على الباطل، وأحمد وحده هو على الحق، فلم يتسع علمه لذلك: فأخذه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل .

فلا إله إلا الله: ما أشبه الليلة بالبارحة، وهي السبيل المهيع لأهل السنة والجماعة حتى يلقوا ربهم: مضى عليها سلفهم، وينتظرها خلفهم من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي](٤) .

---

(١) " المرجع السابق " .

(٢) " كشف الكربة في وصف حال أهل الغُربة لابن رجب/٢٨، ٢٩ " .

(٣) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة٦٤/١ "، " تلبيس إبليس لابن الجوزي/٩ " .

(٤) " إعلام الموقعين٣٩٧/٣: ٣٩٨ " .

الفصل الثاني

الطائفة المنصورة والعمل الجماعي

ـــــ تمهيــد:

* قوله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس " .

* وفي حديث جابر بن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة " .

* ومن حديث سلمة بن نفيل الكندي_ رضي الله عنه_ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة "(١) .

فهذه الأحاديث وغيرها ممّا ورد في ذكر الطائفة المنصورة: دالة بذاتها على مشروعية العمل الجماعي للقيام بواجبات الدين: علماً وعملاً، دعوةً وجهاداً إذ من المعلوم ببداهة العقول أن هذه الواجبات العظيمة، والأمانات الجسيمة التي اضطلعت هذه الطائفة بالقيام بها، وشهد لها الشرع بناءً عليها شهادةَ مدحٍ وثناء: لا يمكن القيام بها على الوجه الأكمل الممدوح بصورة فردية، هذا بالإضافة لما في قوله صلى الله عليه وسلم: " طائفة "، "عصابة "، " أمة " من دلالة .

فأهل هذه الطائفة قد يكونون أفراداً كما قد يكونون جماعات إذ أساس الانتساب إلى هذه الطائفة: هو التحلي بما وصفها به الشارع من العلم والعمل، فمتى وجدت هذه الصفات: كان صاحبها من الطائفة المنصورة فرداً كان أم جماعة مع كون العمل الجماعي من مستلزمات القيام بواجبات الدين ولا بد خصوصاً في هذه الأزمنة المتأخرة حيث غاب الحكم الإسلامي الذي يجتمع حوله المسلمون للقيام بواجبات الدين، والله أعلم .

قال النووي_ رحمه الله_: [وأما هذه الطائفة، فقال البخاري: هم أهل العلم، وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم، قال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث .

قلت_ النووي_: ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين؛ منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير،

---

(١) سبق تخريج هذه الأحاديث كلها .

ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض][1] .

وقال ابن العربي_ رحمه الله_: [وأما الطائفة المنصورة، فقيل: هم أصحاب الحديث، وقيل: هم العباد، وقيل: هم المناضلون على الحق بألسنتهم، وقيل: هم المجاهدون في الثغور بأسنَّتهم][2] .

ــ والحق: أن هذه الصفات المذكورة تمثل بمجموعها: مجموع صفات الطائفة المنصورة، ونصيب الفرد أو الجماعة من الانتساب لهذه الطائفة: بقدر ما قام به أو بها من هذه الصفات؛ والنسبة المطلقة هي لمن مَنّ الله عليه بالقيام بمجموع هذه الصفات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ونتكلم_ إن شاء الله_ عن الطائفة المنصورة والعمل الجماعي من خلال ما يأتي:

---

(١) " شرح مسلم للنووي٥/٥٨: ٥٩ " .

(٢) " عارضة الأحوذي٥/٣٤ "، وانظر: " المفهم للقرطبي٣/٧٦٣ " .

المبحث الأول

مشروعية العمل الجماعي

ــ وقد دلّ الشرع على مشروعية العمل الجماعي، وأهميته .

* قال تعالى: { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ } [المائدة: ٢] .

وعند التعاون لا بد من قانون شرعي يضبط هذا التعاون ويوجهه، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

[وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا، **ولا في الآخرة** إلا بالاجتماع، والتعاون، والتناصر، فالتعاون، والتناصر على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع .

فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من: أمور يفعلونها ويجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة: ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد، والناهي عن تلك المفاسد، **فجميع بني آدم لا بد لهم من طاعة آمر وناه ...]**(١) .

وقال_ رحمه الله_: [وأمّا " رأس الحزب ": فإنه رأس الطائفة التي تتحزب، أي: تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله من غير زيادة، ولا نقصان: فهم مؤمنون لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم ...

فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف، ونهيا عن التفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان](٢) .

* وقال تعالى: { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [آل عمران: ١٠٤] .

قال ابن جرير الطبري_ رحمه الله_: [يعني بذلك جلّ ثناؤه: ولتكن منكم أيها المؤمنون { أمة }، يقول: **جماعة يدعون الناس إلى الخير**؛ يعني: إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده، { ويأمرون بالمعروف}، يقول: يأمرون الناس باتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ودينه الذي جاء به من عند الله، {وينهون عن المنكر }، يعني: وينهون عن الكفر بالله، والتكذيب بمحمد، وبما جاء به من عند الله بجهادهم بالأيدي، والجوارح حتى ينقادوا لكم بالطاعة، وقوله: { وأولئك هم المفلحون }، يعني: المنجحون عند الله،

---

(١) " الفتاوى٢٨/٦٢: ٦٥ " .

(٢) " الفتاوى١١/٩٢ " .

الباقون في جناته ونعيمه](1) .

وهذه: " الأمة " القائمة بهذا الواجب تحتاج في أحيان كثيرة إلى أن يكون هناك تعاون فيما بين أفرادها للقيام بالواجبات المذكورة على خير وجه، فيأتي هنا ما سبق تقريره في الآية السابقة .

* وقال تعالى: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة: ٧١] .

وهذه الآية الأخيرة: فيه إشارة ضمنية لمشروعية العمل الجماعي للقيام بواجبات الدين، ومن ذلك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ لمّا كان هذا الأمر يقوم في الغالب على الشوكة، والقوة: ذكره الله عز وجل بعد تقريره لأصل الشوكة، والقوة عند المؤمنين، والتي هي: الموالاة الإيمانية والتي لا تتحقق إلا بتجمع المؤمنين وتعاونهم على القيام بما يجب عليهم من أمر دينهم .

ــ وقد قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ } [النساء: ٥٩] .

* وقال تعالى: { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } [النساء: ٨٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [و" أولوا الأمر": أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه: أهل اليد والقدرة، وأهل العلم والكلام، فلهذا كان أولوا الأمر صنفين: العلماء، والأمراء، فإذا صلحوا: صلح الناس، وإذا فَسَدوا: فسد الناس كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للأَحْمُسِيَّة لما سألته: ما بقاؤنا على هذا الأمر ؟، قال: ما استقامت لكم أئمتكم(٢) .

ويدخل فيهم الملوك، والمشايخ، وأهل الديوان، وكل من كان متبوعاً: فإنه من أولي الأمر، وعلى كل واحد من هؤلاء: أن يأمر بما أمر الله به، وينهى عمّا نهى عنه، وعلى كل واحد ممن عليه طاعته: أن يطيعه في طاعة الله، ولا يطيعه في معصية الله](٣) .

وكلامه_ رحمه الله_ فيه إقرار ظاهر لمشروعية ولايات أخر داخل الولاية العامة الكبرى، والتي هي ولاية أمر المسلمين من قبل الإمام الشرعي بل وكون هذه الولايات الأخر ممّا تشمله الآية السابقة(٤) .

وهذا إن ساغ مع وجود الإمام الشرعي: فكونه سائغاً عند غيابه: أولى، والله أعلم .

ــــ ومن السنة النبوية:

* قوله صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن عمرو_ رضي الله عنهما_: " لا يحل لثلاثة نفر يكونون

---

(1) " تفسير الطبري٤/٣٨ " .

(٢) " البخاري٣/١٣٩٣ " .

(٣) " الفتاوى٢٨/١٧٠ " .

(٤) هذا مع بقاء الفرق في الأحكام المتعلقة بكل من النوعين، وخصوصية الولاية العامة الكبرى بأحكامها دون تلك الولايات الأخر والتي لا تشاركها فيها .

بأرض فَلاة إلا أمَّروا عليهم أحدهم "(١) .

* وقال صلى الله عليه وسلم_ أيضاً_ من حديث أبي سعيد الخدري_ رضي الله عنه_: " إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا عليهم أحدهم "(٢) .

ـ وجاء عن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " إذا كنتم ثلاثة في سفر: فأمّروا عليكم أحدكم "(٣).

* وعن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_، قال: " إذا كنتم ثلاثة في سفر: فأمّروا عليكم أحدكم، **ذاك أمير أمّره رسول الله صلى الله عليه وسلم** "(٤) .

فهذه الأحاديث، والآثار نص في مشروعيه العمل الجماعي للقيام بأمر السفر، ولا شك أن القيام بأمر الدين: علماً وعملاً، دعوةً وجهاداً: أهم وأعظم، فإذا شُرع العمل الجماعي في السفر: فمشروعيته للقيام بواجبات الدين الكبار: أولى، وآكد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين، ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم " من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة_ رضي الله عنهما_ .

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو_ رضي الله عنهما_، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يحل لثلاثة يكونوا بفلاة من الأرض إلا أمَّروا عليهم أحدهم " .

فأوجب صلى الله عليه وسلم: تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر **تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع ...**](٥) .

وقال_ أيضاً_ رحمه الله_: [وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا بالاجتماع، والتعاون، والتناصر؛ فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع .

فإذا اجتمعوا: فلا بد لهم من أمور يفعلونها ويجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة: ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد، والناهي عن تلك المفاسد، فجميع بني آدم لا بد لهم من طاعة آمر وناه...

---

(١) " أحمد٢/١٧٦ " .

(٢) " أبو داود٣/٣٦"، " الأوسط٨/١٠٠ "، " الطيالسي/٢٨٦ "، وغيرهم، ورواه ابن حبان "١٠/٣٨٣ " من حديث أبي الدرداء_ رضي الله عنه_، ورواه أبو داود" ٣/٣٦"، والبيهقي " الكبرى٥/٢٥٧ " من حديث أبي هريرة_ رضي الله عنه_.

(٣) " الطبراني٩/١٨٥ "، وقال في" المجمع٥/٢٤٩ ": [ورجاله: رجال الصحيح] .

(٤) " البزار ١/٤٦٢"، وقال في" المجمع٥/٢٥٥ ": [ورجاله: رجال الصحيح خلا عمار بن خالد، وهو: ثقة] .

(٥) " الفتاوى٢٨/٣٩٠: ٣٩٢ " .

إلى أن قال:

ولهذا أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أمته تولية ولاة أمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالى؛ ففي سنن أبي داود عن أبي سعيد_ رضي الله عنه_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم " .

وفي سننه_ أيضاً_ عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ مثله.

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو_ رضي الله عنه_ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمَّروا أحدهم " .

فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولى أحدهم: كان هذا **تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك**](١) .

ـــ وبمعنى ما قاله شيخ الإسلام: قال الشوكاني_ رحمه الله_، فبعد أن ذكر هذه الأحاديث السابقة قال:

[وفيها دليل على أنه يشرع لكل عدد بلغ ثلاثة فصاعداً أن يؤمّروا عليهم أحدهم لأن في ذلك السلامة من الخلاف الذي يؤدي إلى التلاف فمع عدم التأمير يستبد كل واحد برأيه، ويفعل ما يطابق هواه: فيهلكون، ومع التأمير: يقل الاختلاف، وتجتمع الكلمة .

وإذا شرع هذا لثلاثة يكونون في فلاة من الأرض أو يسافرون: فشرعيته لعدد أكثر يسكنون القرى، والأمصار، ويحتاجون لدفع التظالم، وفصل التخاصم: أولى وأحرى، وفي ذلك دليل لقول من قال إنه يجب على المسلمين نصب الأئمة، والولاة، والحكام](٢) .

قلت: وفيه دليل على مشروعية العمل الجماعي مطلقاً للقيام بواجبات الدين كما بيّنا، وقد مر معنا: قول شيخ الإسلام: [فأوجب صلى الله عليه وسلم: تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر **تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع ...**](٣) .

وقوله_ أيضاً_: [فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات، وأقصر الاجتماعات أن يولى أحدهم: كان هذا **تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك**](٤) .

وإذا شُرع هذا عند وجود الإمام العام القائم بواجبات الدين: فشرعيته عند غيابه، وعند تعطل واجبات الدين بل وضياعها بالكلية: أولى، وأظهر_ بلا شك_ قياماً بهذه الواجبات، ونصحاً للإسلام والمسلمين، فلا يَعُد هناك معنىً للخلاف ! .

---

(١) " الفتاوى٢٨/٦٢: ٦٥ " .

(٢) " نيل الأوطار ١٥٧/٩ " .

(٣) " لفتاوى٢٨/٣٩٠: ٣٩٢ " .

(٤) الفتاوى٢٨/٦٢: ٦٥ " .

ـ وممّا يدل_ كذلك_ على مشروعية العمل الجماعي للقيام بواجبات الدين: كون الأمة بمجموعها مخاطبة بإقامة الدين من: إقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وإقامة الجمع والجماعات، والجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من أحكام الدين، وكون هذه الواجبات معلقة بالإمام في الأصل: لا يعفي الأمة من مسئوليتها، فلو تقاعس الإمام عن القيام بواجباته من إقامة الدين على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه: فإن إثم عدم القيام بهذه الواجبات لا ينال الإمام وحده بل ينال الأمة جميعها إذ أن هذه الفروض الكفائية يأثم الجميع بتركها(١)، ومِن ثم: وجب أن تقدم الأمة مَنْ يقوم بهذه الواجبات بصورة تتحقق معها الكفاية .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [خاطب الله المؤمنين بالحدود، والحقوق خطاباً مطلقاً كقوله تعالى: { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا }، وقال تعالى: { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا }، وقوله: { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ }، وكذلك قوله: { وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً } .

لكن قد عُلم أن المخاطب بالفعل لا بد أن يكون قادراً عليه، والعاجزون لا يجب عليهم، وقد عُلِمَ أن هذا فرض على الكفاية، وهو مثل الجهاد بل هو نوع من الجهاد .

فقوله: { كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ }، وقوله: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ الله }، وقوله: { إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ }، ونحو ذلك: هو فرض على الكفاية من القادرين، والقدرة: هي السلطان، فلهذا: وجب إقامة الحدود على ذي السلطان، ونوابه.

والسنة أن يكون للمسلمين إمام واحد، والباقون نوابه، فإذا فُرض أن الأمة خرجت عن ذلك لمعصية من بعضها، وعجز من الباقين أو غير ذلك، فكان لها عدة أئمة: لكان يجب على كل إمام أن يقيم الحدود، ويستوفي الحقوق، ولهذا قال العلماء: إن أهل البغي يَنْفُذ من أحكامهم ما ينفذ من أحكام أهل العدل، وكذلك لو شاركوا الإمارة وصاروا أحزاباً: لوجب على كل حزب فعل ذلك في أهل طاعتهم .

فهذا عند تفرق الأمراء وتعددهم، وكذلك لو لم يتفرقوا لكن طاعتهم للأمير الكبير ليست طاعة تامة، فإن ذلك_ أيضاً_ إذا أسقط عنه إلزامَهم بذلك: لم يَسقط عنهم القيامُ بذلك بل عليهم أن يقيموا ذلك .

وكذلك لو فرض عجز بعض الأمراء عن إقامة الحدود، والحقوق أو إضاعته لذلك: **لكان ذلك الفرض على القادر عليه** .

وقول من قال: لا يقيم الحدود إلا السلطان ونوابه: إذا كانوا قادرين، فاعلين بالعدل، كما يقول الفقهاء: الأمر إلى الحاكم: إنما هو العادل القادر، فإذا كان مُضَيِّعاً لأموال اليتامي أو عاجزاً عنها: لم يجب تسليمها إليه مع إمكان حفظها بدونه، وكذلك الأمير إذا كان مضيعاً للحدود أو عاجزاً عنها: لم يجب تفويضها إليه مع إمكان إقامتها بدونه .

والأصل: أن هذه الواجبات تُقام على أحسن الوجوه، فمتى أمكن إقامتها مع أمير: لم يحتج إلى اثنين، ومتى لم يقم بعدد، **ومن غير سلطان:** أقيمت إذا لم يكن في إقامتها فساد يزيد على إضاعتها، فإنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن كان في ذلك من فساد ولاة الأمر أو الرعية ما يزيد على إضاعتها: لم

(١) عند العلم، والقدرة .

يدفع بأفسد منه، والله أعلم](١) .

ـ وقد اتفاق أهل العلم على أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو: واجب، ولمّا كان القيام بواجبات الدين_ علماً وعملاً، دعوة وجهاداً_ ممّا لا يتم إلا بالقوة، والشوكة اللتين هما ثمرة الاجتماع: كان هذا الاجتماع ممّا يدخل في معنى الواجب .

قال شيخ الإسلام وهو يتحدث عن مشروعية الاجتماع للقيام بواجبات الدين:

[ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، **ولا يتم ذلك إلا بقوة، وإمارة** .

وكذلك سائر ما أوجبه من: الجهاد، والعدل، وإقامة الحج، والجمع، والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة، والإمارة ...

إلى قوله:

فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً، وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته، وطاعة رسوله من أفضل القربات ...](٢) .

ـ وإذا كان هذا الاجتماع مشروعاً للقيام بواجبات الدين عند تقاعس الإمام، وتقصيره في القيام بهذه الواجبات: فكونه مشروعاً عند غياب الإمام، وتعطل أحكام الدين بالكلية: ممّا لا يقبل النزاع، والله أعلم .

قال إمام الحرمين الجويني_ رحمه الله_: [وإذا لم يصادف الناس قَوَّاماً بأمورهم يلوذون به: فيستحيل أن يُؤمروا بالقعود عمّا يقتدرون عليه من دفع الفساد، فإنه لو تقاعدوا عن الممكن: عمّ الفساد البلاد والعباد ...

إلى أن قال:

وقد قال بعض العلماء: لو خلا الزمان عن السلطان، فحق على قُطان كل بلدة، وسكان كل قرية أن يقدموا من ذوي الأحلام والنهى، وذوي العقول والحجا: مَنْ يلتزمون امتثال إشاراته وأوامره، وينتهون عند مناهيه ومزاجره، فإنهم لو لم يفعلوا ذلك: ترددوا عند إلمام المهمات، وتبلدوا عند إظلال الواقعات](٣) .

ــــ وقد مارس أئمة الطائفة المنصورة عبر تاريخ الأمة: العملَ الجماعي قياماً بواجبات الدين من: الدعوة، والتعليم، والإرشاد، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن الجهاد في سبيل الله، ومن إقامة الحدود والأحكام :

* قال الزهري في ترجمة الصحابي هشام بن حكيم بن حزام القرشي_ رضي الله عنه_: " كان يأمر بالمعروف في **رجال معه** "(٤) .

---

(١) " الفتاوى٣٤/١٧٥، ١٧٦ " .

(٢) " الفتاوى٢٨/٣٩٠: ٣٩٢ " .

(٣) " غياث الأمم/٣٨٧: ٣٨٨ " .

(٤) " تهذيب التهذيب ١١/ ٣٧ " .

* ونحو ذلك ما جاء في ترجمة عبد الرحيم بن محمد العلثي البغدادي الفقيه المحدث الزاهد، قالوا: " كان شيخاً جليلاً، عالماً، عارفاً، من أجل شيوخ الحديث، ملتزماً بالسنة، زاهداً، ذا فضل، وورع، وأدب، وعلم .

وقال البرزالي عنه: محدث بغداد في وقته، موصوف باتباعه السنة، ونصرها، والذب عنها .

قال الذهبي: **وله أتباع، وأصحاب** يقومون في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر "(١) .

* ومن روائع صفحات أهل العلم هنا: ما ذكره ابن الجوزي، قال:

[قال ابن عقيل: رأينا في زماننا: أبا بكر الأقفالي في أيام القائم إذا نهض لإنكار منكر: **استتبع معه مشايخ:** لا يأكلون إلا من صنعة أيديهم: كأبي بكر الخباز: شيخ صالح أضر من اطلاعه في التنور، **وتبعه جماعة** ما فيهم أحد يأخذ الصدقة، ولا يدنس بقبول عطاء، صوام النهار، قوام الليل، أرباب بكاء، فإذا تبعه مخلط: رده، وقال: متى لقينا الجيش بمخلط: انهزم الجيش](٢) .

ـ ومن كبار أئمة الطائفة المنصورة الذين مارسوا هذا الفقه_ فقه العمل الجماعي_ بأظهر صوره، وأشملها للقيام بواجبات الدين: شيخ الإسلام، وعلم الأعلام: أبو العباس تقي الدين ابن تيمية:

فكان للإمام_ رحمه الله_ جماعة من أصحابه وأتباعه يحتسب بهم: دعوةً إلى الله، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وجهاداً في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا .

قال ابن كثير_ رحمه الله_ في أحداث سنة ٦٩٩ هـ:

[وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب أعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر ففرح الناس بذلك، وكان يخطب لقازان بدمشق، وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء .

وفي بكرة يوم الجمعة المذكور: دار الشيخ تقي الدين بن تيمية_ رحمه الله_ **وأصحابه** على الخمارات، والحانات: فكسروا آنية الخمور، وشققوا الظروف، وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، وفرح الناس بذلك] .

ويقول ابن كثير_ أيضاً_ في أحداث عام ٧٠١ هـ:

[وفي هذا الشهر _ شهر شوال من عام ٧٠١ هـ _ ثار جماعة من الحسدة على الشيخ تقي الدين، وشكوا منه أنه: **يقيم الحدود، ويعزّر، ويحلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو_ أيضاً_ فيمن يشكو منه ذلك، وبين خطأهم** ثم سكنت الأمور](٣) .

وليس هناك أبلغ من هذا في الدلالة على ممارسة الإمام_ رحمه الله_ للعمل الجماعي، وأنه كان له جماعة، وأنصار للقيام بواجبات الدين من: إقامة الحدود، وإنكار المنكر باليد، وتعزير أصحابه: لا يصرفه عن ذلك:

---

(١) " ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣١٦ " .

(٢) " تلبيس إبليس/١٤٥ " .

(٣) " البداية والنهاية١٤/١٩ " .

لوم لائم، ولا حسد حاسد بل كان_ رحمه الله_ قائماً هو، ومن معه من أصحابه بما يستطيعون من أمر الله لا يضرهم في ذلك من خالفهم، ولا من خذلهم .

ـ وقد كانت جماعة شيخ الإسلام هذه_ رأساً، وأتباعاً_ تأخذ نصيبها من الابتلاء في سبيل الحق الذي تقوم به علماً وعملاً، دعوة وجهاداً:

قال ابن كثير_ رحمه الله_ في أحداث سنة ٧٢٦ هـ:

[وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان: أمر قاضي القضاة الشافعي **في حبس جماعة من أصحاب الشيخ ابن تيمية في سجن الحكم**، وذلك بمرسوم نائب السلطنة وإذنه له فيه فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم .

وعزّر جماعة منهم على دواب، ونودي عليهم ثم أطلقوا سوى شمس الدين بن محمد بن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة](١) .

ـ وأما ابتلاء الرأس الإمام: فأشهر من أن نشير إليه، فهو_ رضي الله عنه، وأرضاه_ (لم ينتقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة إلى أن فُوّض أمره لبعض القضاة، فتقلد ما تقلد من اعتقاله، ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة الله تعالى)(٢) .

وقد كتب شيخ الإسلام وهو في سجن الإسكندرية رسالة إلى " جماعته " هذه يقول فيها:

[{ وأما بنعمة ربك فحدث } والذي أُعَرِّفُ به الجماعة_ أحسن الله إليهم في الدنيا والآخرة، وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة_ فإني_ والله العظيم الذي لا إله إلا هو_ في نِعَمٍ من الله ما رأيت مثلها قط في عمري كله، وقد فتح الله سبحانه وتعالى أبواب فضله، ونعمته، وخزائن جوده، ورحمته ما لم يكن بالبال، ولا يدور في الخيال ...] .

وبعد استطراد من الإمام في وصف ما فتح الله عليه به في هذا الابتلاء بما تنقلب معه المحنة إلى منحة، يقول: [وأنا في هذا المكان_ يعني سجن الإسكندرية_ أعظم قدراً، وأكثر عدداً ما لا يمكن حصره وأكثر ما ينقص عليّ: **الجماعة**، فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة، والسرور، والنعيم ما تقر به أعينهم ...] .

ثم يقول مخاطباً جماعته:

[والمقصود: إخبار **الجماعة** بأن نعم الله علينا فوق ما كانت بكثير، كثير، ونحن بحمد الله في زيادة من نعم الله، وإن لم يكن خدمة **الجماعة** باللقاء، فأنا داع لهم بالليل، والنهار قياماً ببعض الواجب من حقهم، وتقرباً إلى الله تعالى في معاملته فيهم ...] .

ثم يختم رسالته_ رحمه الله_ بتوجيه نصحه، وإرشاده بل وأمره إلى هؤلاء الصحب البررة، فيقول:

[والذي **آمر** به كل شخص منهم أن يتقي الله، ويعمل لله: مستعينا بالله، مجاهداً في سبيل الله، ويقصد بذلك أن

---

(١) " البداية١٤/١٢٣ " .

(٢) " العقود الدرية في مناقب ابن تيمية/٢٧ " .

تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله](١) .

المبحث الثاني

ضوابط العمل الجماعي عند الطائفة المنصورة

العمل الجماعي عند الطائفة المنصورة وسيلة لا غاية، بمعنى: أنه إنما شُرع لإقامة الدين: بصرف العبادة لله وحده، وصرف المتابعة لنبيه صلى الله عليه وسلم، فهو: وسيلة لغاية أعظم، وأكبر .

ومتى أخلّ العمل الجماعي بإقامة الدين: إحداثاً وابتداعاً أو اتباعاً للرجال دون الحق أو صرفاً للولاء لغير الله ورسوله ودينه أو تقصيراً وقعوداً عن القيام بالواجب وتركاً لما أمر الله به ورسوله: فقد خرج عن الغاية التي شُرع من أجلها، وعاد على أصله بالإبطال .

ومن ثم: كانت هناك جملة من الضوابط الشرعية التي تحكم العمل الجماعي عند الطائفة المنصورة، وتوجهه حفظاً عليه، وتحقيقاً للغاية التي شُرع لها، وبغير هذه الضوابط: يغدو العمل الجماعي بلاءً_ وأي بلاء_ على الدين وأهله بما يَفقد معه أصحابُه محلهم في قافلة الطائفة المنصورة .

ونتكلم_ بإذن الله تعالى_ عن أهم هذه الضوابط في المطالب الآتية؛ فنقول:

---

(١) " الفتاوى٢٨/٣٠: ٤٦ " .

المطلب الأول

الإخلاص لله وحده

ـــــ الإخلاص: هو قصد الله تعالى وحده لا شريك له بالعبادة بالتبري عن كل ما دون الله، وتخليص القصد، والنية من كل غرض ينافي ذلك .

فالإخلاص: هو تخليص النية، والعمل من كل قصد غير رضا الله سبحانه وتعالى .

* عن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله: فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها: فهجرته إلى ما هاجر إليه "(١) .

ـ والإخلاص: هو حقيقة الإسلام، والإيمان، والإحسان، وهو حقيقة التوحيد: أوله، ومنتهاه، وهو روح الأعمال ولبها، ولذلك كان أكثر الأعمال: أمراً به، وحثاً عليه، ونهياً عن ضده؛ ومن ذلك:

* قوله تعالى: { هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [غافر: ٦٥] .

* قال تعالى: { وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [البينة: ٥] .

* وقال تعالى: { إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ الله مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ }

[الزمر: ٢_ ٣] .

* وقال تعالى: { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ } [الزمر: ١١] .

* وقال تعالى: { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً } [الكهف: ١١٠].

---

(١) " البخاري١/٣، ٣٠ " وغيرها، " مسلم١٥١٥/٣ " .

فالعمل لا يكون إلا لله: منه الصدور، وإليه الورود، فلا يُبتغى بالعمل غيره سبحانه: من حزب أو طائفة أو زعيم أو مطاع أو غير ذلك ممّا ينافي الإخلاص ويضاده، فجميع الإرادات: لا بد أن تكون منحصرة في إرادة وجهه سبحانه وتعالى وحده .

فالمحرك للعمل_ سلباً وإيجاباً_: إرادة وجه الله، والسعي لنيل رضاه، والرغبة في نصر دينه لا غير .

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " يا رسول الله: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذْكَر، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه_ وفي رواية: يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية_ فمن في سبيل الله ؟ " .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قاتل لتكون **كلمة الله** هي العليا: فهو في سبيل الله "(١) .

فالعمل إنما هو لإعلاء كلمة الله وحده، ومن كان عمله: لحزبه وطائفته أو زعيمه ومطاعه: فقد خاب سعيه، وخسر خسراناً مبيناً، وجعل لله أنداداً، وكان فيه من الشرك بحسب ذلك .

* قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب العزة سبحانه: " قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري: فأنا بريءٌ منه، وهو كله للذي أشرك "(٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [وتحقيق ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أوجب الأعمال، وأفضلها وأحسنها، وقد قال تعالى: { ليبلوكم أيكم أحسن عملاً }، وهو كما قال الفضيل بن عياض_ رحمه الله_: أخلصه وأصوبه، فإن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً: لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة .

فالعمل الصالح لا بد أن يُراد به وجه الله تعالى، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريءٌ منه وهو كله للذي أشرك " رواه مسلم](٣) .

ـــــ ومن خلّط في نيته(٤): فكان عمله لله ولغيره: نصرةً لحزب أو إرضاءً لأمير أو طلباً لمحمدة أو غير ذلك من حظوظ النفس وأهوائها: فعمله مردود غير مقبول، وسعيه ضائع، وجهده في غير محل إذ الله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وابتغي به وجهه .

* عن معاذ بن جبل_ رضي الله عنه_ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " الغزو: غزوان؛ فأمّا من ابتغى وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد: فإن نومه، ونبهه أجر

---

(١) " البخاري١/٥٨، ٣/١٠٣٤ "، " مسلم٣/١٥١٢، ١٥١٣ " .

(٢) " مسلم٤/٢٢٨٩ " .

(٣) " مجموع الفتاوى٢٨/١٣٤ " .

(٤) انظر تفصيل حالات التخليط في النية: " إعلام الموقعين٢/١٦٢: ١٦٣ " .

كله، وأمّا من غزا فخراً، ورياءً، وسمعةً، وعصى الإمام، وأفسد في الأرض: فإنه لن يرجع بكفاف "(١) .

* وعن أبي أمامة_ رضي الله عنه_ قال: " جاء رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له ؟ .

قال صلى الله عليه وسلم: لا شيء له .

فأعادها: ثلاثاً، كل ذلك يقول: لا شيء له ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتغى به وجهه "(٢) .

* وقوله تعالى: { ألا لله الدين الخالص } يدل على أن العمل إن لم يكن خالصاً: فليس لله، ولا يقبله، ولا ينفع صاحبه .

ــ هذا، مع كون العمل نصرةً لحزب وطائفة أو زعيم ومطاع لا لله وحده: من عصبية الجاهلية التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما بال دعوى الجاهلية ؟...، دعوها فإنها مُنْتِنة "(٣) .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " من قُتِل تحت راية عُمِّيَّة: **يغضب للعصبة، ويقاتل للعصبة:** ليس من أمتي"(٤).

* وقال صلى الله عليه وسلم: " من قُتِل تحت راية عمِّيَّة: **يدعو عصبية أو ينصر عصبية:** فقِتْلَة جاهلية"(٥) .

ــــ ولضعف الإخلاص في العمل علامات ظاهرة تدل عليه؛ منها:

ــــ ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية_رحمه الله _ عن أقوام من أن همّهم: [أن ينتصر جاههم أو رياستهم، وما نُسِبَ إليهم لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله .

بل يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم **وإن كان جاهلاً سيئ القصد ليس له علمٌ، ولا حسن قصد،** فيفضي هذا إلى أن: يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله ...، **ومن هنا: تنشأ الفتن بين الناس**](٦) .

ــ ومن ذلك_ كذلك_: البحث عن صالح " الجماعه " أو " الحزب " وتقديمه وإن كان ذلك على حساب

---

(١) " المستدرك٢/٩٤ "، " الدارمي٢/٢٧٤ "، " البيهقي الكبرى٩/١٦٨ "، " أبو داود٣/١٣ "، " النسائي الكبرى٣/٣٣، ٤/٤٣٢ "، " أحمد٥/٢٣٤ "، " المعجم الكبير ٢٠/٩١ " .

(٢) " النسائي٣/١٨ " من حديث أبي أمامة_ رضي الله عنه_ بإسناد جيد .

(٣) " البخاري٤/١٨٦١، ١٨٦٣ "، " مسلم٤/١٩٩٨، ١٩٩٩ " عن جابر بن عبد الله_ رضي الله عنهما_ .

(٤) " مسلم٣/١٤٧٧ " عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ .

(٥) " مسلم٣/١٣٧٨ " عن جندب بن عبد الله_ رضي الله عنه_ .

(٦) " منهاج السنة النبوية٥/٢٥٥ " .

الصالح العام للإسلام والمسلمين بل وأدهى من ذلك وأمر: البحث عن صالح " الجماعة " أو " الحزب " وتقديمه ولو ترتب على ذلك الضرر بل والضرر البالغ بالصالح العام للإسلام والمسلمين إذ النظر لـــ"الجماعة " لا غير، و" الجماعة ": هي الإسلام، والإسلام: هو " الجماعة "، في سلسلة من الممارسات، والتنظيرات تُدمي القلب، وتُقرّحه ممّا تترشح معه " الجماعة " لتكون_ وبجدارة_ صنماً يُعبد من دون الله .

قال ابن هبيرة_ رحمه الله_: " إن من مكائد الشيطان أن يقيم **أوثاناً في المعنى تُعبد من دون الله** مثل أن يتبين له الحق، فيقول: ليس هذا مذهبنا تقليداً لمعظم عنده قد قدّمه على الحق "(١) .

ـــ ومن علامات ضعف الإخلاص_ كذلك_: فرح النفس، وسرورها بخطأ الآخرين من العاملين للدين الساعين لنصره؛ فيفرح العبد بزلات إخوانه وأغلاطهم، وفي المقابل: يثقل ويشتد عليه أن يجري الله الحق على ألسنتهم أو أن يُظهره على أيديهم .

والأصل (أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم، ودفع مضارهم: يفرحون بحصولها **ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين**، ويألمون بفقدها، ويسعون جميعاً في كل أمر يُصلحون به دينهم، ودنياهم)(٢).

ـ وهذا البلاء الأعظم، والداء الأسود من أعظم قوادح الإخلاص الدالة على قلة الدين، ورقته إذ لو خلصت نية العبد لله حقاً: لأحب نصرة الإسلام ورفعته ولو على يد أبغض الناس إليه، وأبعدهم من نفسه، ومثل هذا في الحقيقة: إنما يعمل لنفسه أو حزبه لا لله ودينه .

* وكان الإمام الشافعي_ رحمه الله_ يقول: " ما ناظرتُ أحداً قط إلا أحببتُ أن يوفّق ويسدد ويعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحداً إلا ولم أبال بيّن الله الحق على لساني أو لسانه "(٣) .

* وقد استحسن الإمام أحمد ما حكي عن حاتم الأصم أنه قيل له: أنت رجل أعجمي لا تفصح، وما ناظرك أحد إلا قطعته، فبأي شيء تغلب خصمك ؟ .

فقال_ رحمه الله_: " بثلاث: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوؤه "، فقال الإمام أحمد: " ما أعقله من رجل "(٤) .

ـ وقد ذكر الغزالي هنا ما يصلح أن يكون أصلاً يقاس عليه غيرُه هذا مع صلته الشديدة لما نحن فيه:

قال_ رحمه الله_: [الباعث للأكثرين على نشر العلم: لذة الاستيلاء، والفرح بالاستتباع، والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يُلبّس عليهم ذلك، ويقول: غرضكم نشر دين الله، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترى الواعظَ يَمُنّ على الله تعالى بنصيحة الخلق، ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس قوله، وإقبالهم عليه، وهو يَدّعي أنه يفرح بما يُسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه مَن هو

---

(١) " العقد الياقوتية/١٠٤ " .

(٢) " تفسير السعدي/١٠٨ " .

(٣) " الحلية٩/١١٨ "، " صفوة الصفوة٢/٢٥١ " .

(٤) " الإحياء للغزالي١/٦٥ " .

أحسن منه وعظاً، وانصرف الناس عنه، وأقبلوا عليه: **ساءه ذلك وغمّه، ولو كان باعثه الدين: لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره** ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنتَ أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أنّ انقياده للحق، وتسليمه الأمر: أفضل، وأجزل ثواباً، وأعود عليه في الآخرة من انفراده .

وليت شعري لو اغتمّ عمر_ رضي الله عنه_ بتصدّي أبي بكر_ رضي الله تعالى عنه_ للإمامة: أكان غمُّه محموداً أم مذموماً ؟، ولا يستريب ذو دين أنْ لو كان ذلك: لكان مذموماً لأن انقياده للحق، وتسليمه الأمر إلى مَن هو أصلح منه: أعود عليه في الدين من تكفّله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرحَ عمرُ_ رضي الله عنه_ باستقلال مَنْ هو أولى منه بالأمر، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك ؟! ...

فمعرفة حقيقة الإخلاص، والعمل به: بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر، والفرد الفذ، وهو المستثنى في قوله تعالى: { إلا عبادك منهم المخلصين }، فليكن العبد شديد التفقد، والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر](١) .

ـــ ومن علامات ضعف الإخلاص_ كذلك_ ونقصه: التمسك بالحق وتحريه عندما يكون الحق موافقاً للنفس وما تهواه، فإن كان الحق مخالفاً لهوى النفوس: فالإعراض التام، فلا يُرفع بالحق رأساً، ولا يُقدّر له قدراً، وحقيقة الحال هنا: أن المتَّبَع_ أساساً_: هو أهواء النفوس ورغباتها، فعليها المعوّل، ولها الانتصار، وما الحق هنا إلا لبوس يبرّر من خلاله الهوى ويمرّر .

* قال تعالى: { وَإِذَا دُعُوا إِلى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ }

[النور: ٤٨_ ٥١] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ }، أي: إلى حكم الشرع { مُذْعِنِينَ }، وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا ممدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين لأن العبد حقيقة: من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع: فليس بعبد لله على الحقيقة](٢) .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { يقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدْ الله فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ الله شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ } [المائدة: ٤١] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: هذا قولهم عند محاكمتهم إليك؛ لا قصد لهم إلا اتباع الهوى، يقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق هواكم: فاقبلوا حكمه، وإن لم يحكم لكم به: فاحذروا

---

(١) " الإحياء للغزالي٤/٣٨٠: ٣٨١ " .

(٢) " تفسير السعدي/٤١٠ " .

أن تتابعوه على ذلك، وهذا فتنة، واتباع ما تهوى الأنفس ...

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ }، أي: فلذلك صدر منهم ما صدر؛ فدل ذلك على أن من كان مقصوده بالتحاكم إلى الحكم الشرعي: اتباع هواه، وأنه إن حكم له: رضي، وإن لم يحكم له: سخط: فإن ذلك من عدم طهارة قلبه كما أن من حاكم، وتحاكم إلى الشرع، ورضي به_ وافق هواه أو خالفه_: فإنه من طهارة القلب؛ ودل على أن طهارة القلب: سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد، وعمل سديد](1).

ـ وهذا المسلك: هو مسلك أهل الأهواء قديماً وحديثاً الذين جعلوا الانتصار أساساً لأهوائهم وآرائهم ثم النظر بعد: للدليل الشرعي .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [ولذلك سمي أهل البدع: أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها حتى يصدروا عنها بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك](2) .

ـ وهذا كله مناقض لحقيقة الإخلاص الذي أُمرنا به .

* قال إبراهيم بن أدهم_ رحمه الله_: " الإخلاص: صدق النية مع الله تعالى .

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس ؟، فقال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب .

وقيل: الإخلاص: دوام المراقبة، ونسيان الحظوظ كلها .

قال الغزالي_ رحمه الله_: وهذا هو البيان الكامل "(3) .

ـــ وفقدُ الإخلاص: سبب كل آفة، ومصدر كل سوء، وعند العارفين: قرينُ الهلاك، ولذلك قال داود الطائي: " رأيت الخير كله إنما يجمعه: حسن النية "(4) .

* ورُوي أن عمر بن الخطاب مرّ على معاذ بن جبل_ رضي الله عنهما_، فقال له: " ما قوام هذه الأمة ؟ .

قال معاذ: ثلاث، وهنّ المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة– فطرة الله التي فطر الناس عليها_، والصلاة، وهي الملّة، و الطاعة، وهي العصمة .

فقال عمر: صدقت "(5) .

ـــ ومن ثم: وجب خلوص النية في العمل من جميع الشوائب، والأغراض، والحظوظ، وأن يتحقق العبد من

---

(1) " تفسير السعدي/١٤٣ " .

(2) " الاعتصام٢/٣٩٨ " .

(3) " إحياء علوم الدين٤/٤٠٢: ٤٠٣ " .

(4) " جامع العلوم والحكم/١٣" .

(5) " تفسير الطبري٢١/٤٠ "، " تفسير ابن كثير٣/٤٣٤ " .

نفسه: كونه لا يريد بعمله حقاً إلا الله .

وهذا لا يكون إلا بمجاهدة النفس، ومراقبتها، ومحاسبتها، وحملها على الإخلاص حملاً وإن كرهت إذ الإخلاص: شديد على النفس غاية الشدة إذ ليس لها فيه نصيب، وإذا كان الإخلاص: دوام المراقبة، ونسيان الحظوظ كلها: عُلِمَ مبلغ شدته على النفس حقاً، ومبلغ معاناتها عند تعاطيها له، وفُهِمَ عندئذ قول يوسف بن أسباط_ رحمه الله_: " إيثار الله عز وجل: أفضل من القتل في سبيل الله "(١) .

* وقد قال أيوب السَّختياني_ رحمه الله_: " تخليص النيّات على العُمّال أشدّ عليهم من جميع الأعمال "(٢) .

* وكان الإمام العلم سفيان الثوري_ رحمه الله_ يقول: " ما عالجت شيئا أشدّ على من نيتي لأنها تتقلب علي"(٣) .

* وعن يوسف بن أسباط_ رحمه الله_، قال: " تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد"(٤) .

---

(١) " جامع العلوم والحكم/١٣" .

(٢) " إحياء علوم الدين٤/ ٣٩٩ " .

(٣) " جامع العلوم والحكم/١٣ " .

(٤) " المرجع السابق " .

المطلب الثاني

الاعتصام بالكتاب والسنة[1]

والاعتصام بالكتاب والسنة: هو السّياج الذي يحمي العمل الجماعي من التردي في مهاوي الانحراف: فيكون الضياع .

وقد قام الشرع المطهر، وتواترت، وتواطئت موارده على الأمر بالاعتصام بالكتاب والسنة، والنهي عن ضده من الإحداث في الدين، والتقديم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، (فلم نجد في كتاب الله، وسنة رسوله، وآثار صحابته إلا الحث على الاتباع، وذم التكلف والاختراع)[2] .

* قال تعالى: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا } [آل عمران: ١٠٣] .

والآية نص ظاهر في وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، إذ هما حبل الله الذي أمرنا به .

* وقال تعالى: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام: ١٥٣] .

فأمر سبحانه باتباع سبيل واحد، وهو صراطه المستقيم، ونهى عن اتباع السبل المخالفة له من الآراء، والأهواء .

* عن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً، ثم خط

---

(١) يأتي حديث موسع عن الاعتصام بالكتاب، والسنة كصفة مستقلة من أهم صفات الطائفة المنصورة، وما ذكر هناك: متمم، ومكمل لما ذكر هنا .

(٢) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٢٢ " .

خطوطاً: يميناً وشمالاً، ثم قال: " هذه سبل: على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: { وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله } "(١) .

* وقد قال تعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرَاً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً } [الأحزاب: ٣٦] .

ـ وقد بَيّن تعالى أن عاقبة الاعتصام بشرعه ودينه: هي الفلاح، والرشاد، والفوز في الدنيا، والآخرة:

* فقال تعالى: { وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِالله فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [آل عمران: ١٠١] .

و(الاعتصام: التمسك والتعلق، فالاعتصام بالله: التمسك بعهده، وميثاقه الذي عهد في كتابه إلى خلقه من طاعته، وترك معصيته)(٢) .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [أي ومع هذا، فالاعتصام بالله، والتوكل عليه: هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد](٣) .

ـ كما (أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: { والذين يمسكون بالكتاب }، أي: اعتصموا به، واقتدوا بأوامره، وتَركوا زواجره، {وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين } [الأعراف: ١٧٠])(٤) .

ــــ وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال "(٥) .

وقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: " وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ": هو تماماً كقوله تعالى: { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا }، و" حبل الله ": هو الكتاب والسنة، فيشمل ذلك: كل ما جاء به صلى الله عليه وسلم من: الاعتقاد، والقول، والعمل، وهذا ما أمرنا بالاعتصام به .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم: " تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم "(٦) .

---

(١) انظر كلام ابن كثير_ رحمه الله_: " التفسير ١٩١/٢ " .

(٢) " تفسير الطبري٣٣٩/٥ " .

(٣) " تفسير ابن كثير ٣٨٨/١ " .

(٤) " المرجع السابق٢٦١/٢ " .

(٥) " مسلم١٣٤٠/٣ " .

(٦) " الحاكم ١٧١/١" ،" البيهقي١١٤/١٠"، " من حديث ابن عباس، وبنحوه من حديث أبي هريرة، ورواه " المروزي في السنة/٢٦ "، و" اللالكائي٢٢٨/١ " عن ابن عباس، ورواه الإمام مالك في "الموطأ/٨٩٩ " بلاغاً .

* وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في حديث العرباض بن سارية_رضي الله عنه_: " فإنه من يعش منكم، فسيرى اختلافاً كثيراً: فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي: عضوا عليها بالنواجذ..." الحديث(١) .

ـــــ وقد بيّن تعالى أنه لم يُحوج عباده لشيء غير ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة، فقد أكمل لهم الدين وأحكمه، وما من شيء هو لهم هدى، وصلاح في الدنيا والآخرة: إلا وقد جاءهم منه من العلم ما هو أكمل وأهدى من غيره بل بما لا يقارن به غيره، فأغنى الله سبحانه وتعالى أمة نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن تستهدي في أي أمر من أمورها بغير الكتاب والسنة من علوم الخلائق، وسياساتهم .

* قال تعالى: { مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام: ٣٨] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [أي: في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث، وقيل: أي في القرآن، أي: ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن: إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام أو من الإجماع أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب، قال الله تعالى: { ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء }، وقال: { وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم }، وقال: { وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا }، فأجمل في هذه الآية، وآية النحل ما لم ينص عليه ممّا لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره: إما تفصيلاً، وإما تأصيلاً، وقال: {اليوم أكملت لكم دينكم }](٢) .

* وقال تعالى: { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل:٨٩] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [قال ابن مسعود: قد بُيّن لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال، وكل حرام .

وقول ابن مسعود: أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس اليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم](٣) .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [وقوله: { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ}: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة، ومعان جلية حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة، وأدلة متنوعة: لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح: معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى .

---

(١) " الترمذي٥/٤٤ "، " أبو داود٤/٢٠٠"،" ابن ماجه١/١٥: ١٦"، "الدارمي١/٥٧"، " ابن حبان١/١٧٨: ١٨٠ "، " الحاكم١/١٧٤: ١٧٧"، وغيرهم .

(٢) " تفسير القرطبي٦/٤٢٠ " .

(٣) " تفسير ابن كثير٢/٥٨٣ " .

فلمّا كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء: صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم: يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة، فالهدى: ما نالوا به من علم نافع، وعمل صالح، والرحمة: ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة: كصلاح القلب وبره وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة، والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم][(١)] .

* ومن حديث جابر بن عبد الله_ رضي الله عنه_ أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم: فغضب، وقال: " أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني "[(٢)] .

* وعن أبي الدرداء_ رضي الله عنه_ قال: جاء عمر بجوامع من التوراة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، جوامع من التوراة أخذتها من أخ لي من بني زريق: فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عبد الله بن زيد_ الذي أُرى الأذان_: أمسخ الله عقلك، ألا ترى الذي بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر_ رضي الله عنه_: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً: فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: " والذي نفس محمد بيده: لو كان موسى بين أظهركم ثم اتبعتموه وتركتموني: لضللتم ضلالاً بعيداً: أنتم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين "[(٣)] .

والحديث ظاهر في وجوب الاكتفاء والاستغناء بما جاء به صلى الله عليه وسلم، وتحريم طلب الهدى والصلاح في غيره أياً كان هذا الغير .

وقد عقد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب_ رحمه الله_ باباً في كتابه " فضل الإسلام "، فقال:

[باب وجوب الاستغناء بمتابعته صلى الله عليه وسلم عن كل ما سواه، وقول الله تعالى: { ونزلنا عليك الكتب تبينا لكل شيء }] .

* وعن أبي الدرداء_ رضي الله عنه_، قال: " لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما في السماء

---

(١) " تفسير السعدي/٣١٣: ٣١٤ " .

(٢) " أحمد٣/٣٨٧،٣٣٨"، " ابن أبي شيبة ٥/٣١٢ "، " الدارمي١/١٢٦"، وأبو يعلى والبزار وغيرهم وهو مروي عن عمر من طرق، وانظر " مجمع الزوائد١/١٧٣: ١٧٤، ١٨٢، ٨/٢٦٢ " .

(٣) رواه الطبراني في الكبير وفيه أبو عامر القاسم بن محمد الأسدي ولم أر من ترجمه وبقية رجاله موثقون " مجمع الزوائد١/١٧٤ " .

طائر يطير بجناحيه إلا ذكرنا منه علماً "[١] .

* وعن أبي ذر_ رضي الله عنه_، قال: " تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علماً، قال: قال صلى الله عليه وسلم: ما بقي شيء يقرب من الجنة، ويباعد من النار إلا وقد بين لكم "[٢] .

ورحم الله الإمام الشافعي حيث يقول: [فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبل الهدى فيها، قال الله عز وجل: { آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد }، وقال تعالى: { ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى بشرى للمسلمين }، وقال تعالى: { وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون }][٣] .

فأهل الطائفة المنصورة يوقنون بأنه (لا تقع واقعة إلى يوم القيامة إلا وفي الكتاب أو السنة بيانها: نصاً أو دلالة)[٤] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [وهذ الأصل من أهم الأصول وأنفعها، وهو مبني على حرف واحد، وهو عموم رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم، وعلومهم، وأعمالهم، وأنه لم يُحوج أمته إلى أحدٍ بعده، وإنما حاجتهم إلى من يبلغهم عنه ما جاء به .

فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة إلى المرسَل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من بُعث إليه في أصول الدين وفروعه، فرسالته: كافية، شافية، عامة، لا تُحْوِج إلى سواها.

ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عمّا جاء به.

وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً، وعلّمهم كل شيء حتى آداب التخلي، وآداب الجماع، والنوم، والقيام، والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، والسفر والإقامة، والصَّمْت والكلام، والعزلة والخلطة، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت، ووصف لهم العرش والكرسي، والملائكة والجن، والنار والجنة، ويوم القيامة، وما فيه حتى كأنه رأي عين .

وعرَّفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعَرَّفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم، وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم .

وعرفهم من طرق الخير والشر: دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله، وعرفهم صلى الله عليه وسلم من

---

(١) قال في" المجمع٨/٢٦٤": " رواه الطبراني، ورجاله: رجال الصحيح " .

(٢) " المعجم الكبير٢/١٥٥"، وانظر: " المجمع٨/٢٦٣: ٢٦٤ " .

(٣) " أحكام القرآن للشافعي١/٢١ "، " الرسالة/٢٠ " .

(٤) " شرح مسلم للنووي١١/٩١ " .

أحوال الموت، وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما لم يُعَرّف به نبي غيره .

وكذلك عرّفهم صلى الله عليه وسلم من أدلة التوحيد، والنبوة، والمعاد، والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده، اللهم إلا إلى مَنْ يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد الحروب، ولقاء العدو، وطرق النصر والظفر ما لو عَلموهُ وعَقَلوه ورَعَوْه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها، وما يتحرزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أحوال نفوسهم، وأوصافها، ودسائسها، وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه: لاستقامت لهم دنياهم أعْظَمَ استقامة.

وبالجملة: فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برُمَّته، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى: **سياسة خارجة عنها تكملها**، أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها ؟! .

ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وَفَّقَ الله له أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عمّا ما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يشتغل الناسُ به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزَبَد أفكارهم وزُبالة أذهانهم عن القرآن والحديث ؟!!! فالله المستعان .

وقد قال الله تعالى: { أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتْلَى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون}، وقال تعالى: { وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين }، وقال تعالى: { يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين }][(١)] .

ـــــ ولذلك: كان شر الأمور: محدثاتها، وكان الإحداث في دين الله_ تقديماً بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: بالآراء، والأهوآء، والبدع_ والهدى: نقيضين لا يجتمعان، ومن ثم: نهى الشارع عن الإحداث، وذمه وحذر منه غاية الذم والتحذير:

* قال تعالى: { وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه **ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** } .

فنهى تعالى عن اتباع السبل من الآراء والأهوآء، ونص تعالى على أن اتباع هذه السبل: بعدٌ عن الصراط

---

(١) " إعلام الموقعين٤/٣٧٥: ٣٧٧ " .

المستقيم ومجانبة له:

قال القرطبي_ رحمه الله_: [وهذه السبل تعم: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وسائر أهل الملل، وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد، قاله ابن عطية، قلت: وهو الصحيح](١) .

* وقد جاء عن مجاهد_ رحمه الله_ أن " السبل " التي نهى الله عنها هي: " البدع، والشبهات "(٢) .

ــ وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه السبل كلها من وحي الشياطين وزخارفهم إضلالاً للعبيد وفتنة لهم كما مر معنا من حديث ابن مسعود_ رضي الله عنه_ في قوله صلى الله عليه وسلم: " هذه سبل: **على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**، ثم قرأ: { وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله } "(٣) .

فكل ما خالف الصراط المستقيم من الكتاب والسنة: هو من وحي الشياطين وزخارفهم وإن استحسنته العقول واستصوبته، وأنّى لوحي الشياطين وزخافهم أن تكون مصدراً لهدى أو سبيلاً لرشاد ! .

فتعين أن اتباع غير الكتاب والسنة من الآراء والأهواء: ضلال في الدنيا، وخسارة في الآخرة .

وقد أخرج ابن حبان_ رحمه الله_ حديث ابن مسعود السابق في صحيحه ثم ترجم له بقوله: " ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من لزوم سنته صلى الله عليه وسلم، وحفظه نفسه عن كل من يأباها من أهل البدع وإن حسنوا ذلك في عينه وزينوه " .

ثم ترجم له أخرى بقوله: " ذكر ما يجب على المرء من ترك تتبع السبل دون لزوم الطريق الذي هو الصراط المستقيم "(٤) .

قال ابن جرير_ رحمه الله_ في قوله تعالى: { فتفرق بكم عن سبيله }:

[يقول: فيشتت بكم إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل، ولا طرق، ولا أديان اتباعكم { عن سبيله }، يعني عن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه](٥).

* وقد روي عن ابن مسعود_ رضي الله عنه_، أنه سئل: ما الصراط المستقيم ؟ .

فقال: " تركنا محمد صلى الله عليه وسلم في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه: جواد، وعن يساره: جواد، وثم رجال يدعون من مر بهم، فمن أخذ في تلك الجواد: انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط: انتهى

---

(١) " تفسير القرطبي٧/١٣٨ " .

(٢) " الطبري٨/٨٨ "، " القرطبي٧/١٣٨ " .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) انظر: " صحيح ابن حبان١/١٨٠: ١٨١ " .

(٥) " تفسير الطبري٨/٨٨ " .

به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: { وأن هذا صراطي مستقيماً } الآية "[١] .

ـ وقد قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله } .

* عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_، قال: " نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه " .

* وعنه_ أيضاً_ قال: " لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة " .

* وعن مجاهد_ رحمه الله_، قال: " لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه " .

* وعن الضحاك_ رحمه الله_، قال: " يعني بذلك في القتال، وكان من أمورهم لا يصلح أن يقضى إلا بأمره ما كان من شرائع دينهم " .

* وفي لفظ: " لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم " .

* وقال ابن زيد_ رحمه الله_: " لا تقطعوا الأمر دون الله ورسوله " .

* وعن سفيان_ رحمه الله_، قال: " لا تقضوا أمراً دون رسول الله " .

* وعنه_ أيضاً_: " لا تقدموا بين يدي الله ورسوله بقول ولا فعل "[٢] .

والآيه تعم كل ما ذكره هؤلاء الأئمة_ رضوان الله عليهم_، فالقول الجامع فيها: أن الله سبحانه وتعالى نهى عباده عن أن يقدموا شيئاً من آرائهم، وأهوائهم، وأفكارهم، وتصوراتهم، وسياساتهم، وأفعالهم، وغير ذلك من أمورهم على ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [يقول: لا تعجلوا بقضاء أمر في **حروبكم** أو دينكم قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله فتقضوا بخلاف أمر الله، وأمر رسوله][٣] .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [أي: لا تقدموا قولاً، ولا فعلاً بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا، ومن قدّم قوله أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم: فقد قدّمه على الله تعالى لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل][٤] .

ثم قال_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { لا تقدموا بين يدي الله ورسوله }: أصل في ترك التعرض لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه، والاقتداء به][٥].

---

(١) " تفسير القرطبي٧/١٣٨ " .

(٢) انظر هذه الآثار: " تفسير الطبري٢٦/١١٦: ١١٧ "، " القرطبي١٦/٣٠١"، " ابن كثير٤/٢٠٦ " .

(٣) " تفسير الطبري٢٦/١١٦ " .

(٤) " تفسير القرطبي١٦/٣٠٠ " .

(٥) " المرجع السابق١٦/٣٠٢ " .

وقال ابن القيم_ رحمه الله_: [أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تُفتُوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه، ويُمضِيه .

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " لا تقولوا خِلافَ الكتاب والسنة، وروى العوفي عنه، قال: " نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه " .

والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول، ولا فعل قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يفعل][1] .

ـ وبنحو الآية السابقة: قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون } [الحجرات: ٢] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم؛ فكيف تقديم آرائهم، وعقولهم، وأذواقهم، **وسياساتهم**، ومعارفهم على ما جاء به، ورفعها عليه ؟!، أليس هذا أولى أن يكون مُحبْطاً لأعمالهم ؟!!!][2] .

* وقال تعالى_ أيضا_: { إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه } [النور_ ٦٢] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه: فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول، ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنُه يُعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذِنَ فيه][3].

ــــ وقد أنذر صلى الله عليه وسلم أمته من الإحداث في دين الله، وحذرها من مغبة ذلك، وكان هذا دأبه صلوات ربي وسلامه عليه كلما وعظ وذكّر:

* قال جابر_ رضي الله عنه_ " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب: احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين_ ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى_، ويقول: أما بعد، فإن خير الحديث: كتاب الله، وخير الهدي: هدي محمد، وشر الأمور: محدثاتها، وكل بدعة ضلالة "[4] .

* ومن حديث ابن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنما هما اثنتان: الكلام، والهدي؛ فأحسن الكلام: كلام الله، وأحسن الهدي: هدي محمد، ألا وإياكم ومحدثات الأمور: فإن شرّ

---

(١) " إعلام الموقعين ٥١/١ " .

(٢) " إعلام الموقعين ٥١/١ " .

(٣) " إعلام الموقعين ٥١/١ " .

(٤) " مسلم ٥٩٢/٢ "، " ابن حبان ١٨٦/١ "، " أبو يعلى ٨٥/٤ "، وغيرهم .

الأمور: محدثاتها، وكل محدثة: بدعة، وكل بدعة: ضلالة "[1] .

* وفي حديث العرباض بن سارية_ رضي الله_، قال صلى الله عليه وسلم: " فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً: فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي: عضوا عليها بالنواجذ، **وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة: ضلالة** "[2] .

قال ابن رجب_ رحمه الله_: [قوله: " إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة ": تحذيرٌ للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة، وأكّد ذلك بقوله: " كل بدعة: ضلالة "، والمراد بالبدعة: ما أحدث ممّا لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه: فليس ببدعة شرعاً وإن كان بدعة لغة ...

فقوله: " كل بدعة ضلالة ": من جوامع الكلم، لا يخرج عنه شئ، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله صلى الله عليه وسلم: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ": فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه: فهو ضلالة والدين برئ منه، **وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة**][3] .

* وعن عبد الله بن عمرو_ رضي الله عنه_، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منكم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناسٌ جهال يُستفتون، فيفتون **برأيهم**: فيَضلون ويُضلون "[4] .

وقد ترجم الإمام البخاري لهذا الحديث بقوله: " باب ما يُذكر من ذم الرأي، وتكلف القياس، { ولا تقف_ لا تقل_ ما ليس لك به علم } "[5] .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [قوله: " باب ما يذكر من ذم الرأي "، أي: الفتوى بما يؤدي إليه النظر، وهو يصدق على ما يوافق النص، وعلى ما يخالفه، والمذموم منه ما يوجد النص بخلافه، وأشار بقوله: "من" إلى أن بعض الفتوى بالرأي لا تذم وهو إذا لم يوجد النص من كتاب أو سنة أو إجماع ...

قال ابن بطال: التوفيق بين الآية والحديث في ذم العمل بالرأي، وبين ما فعله السلف من استنباط الأحكام: أن نص الآية ذم القول بغير علم: فخص به من تكلم برأي مجرد عن استناد إلى أصل، ومعنى الحديث: ذمّ من أفتى مع الجهل ولذلك وصفهم بالضلال والإضلال وإلا فقد مدح من استنبط من الأصل لقوله تعالى: { لعلمه الذين يستنبطونه منهم }، فالرأي إذا كان مستنداً إلى أصل من الكتاب والسنة أو الإجماع: فهو المحمود، وإذا

---

(١) " ابن ماجه١/١٨ "، " اللالكائي١/٧٧ "، " السنة لابن أبي عاصم١/١٦ "، والبيهقي في "الشعب٤/٢٠١ "، وغيرهم .

(٢) " ابن ماجه١/١٦ "، " أحمد٤/١٢٦ "، " المستدرك١/١٧٥ "، " الكبير١٨/٢٥٧،٢٤٧ "، "اللالكائي١/٧٤،٢٢ "، " السنة لابن أبي عاصم١/١٩: ٢٠ ،٢٧ " .

(٣) " جامع العلوم والحكم/٢٦٦ " .

(٤) " البخاري٦/٢٦٦٥ " .

(٥) " صحيح البخاري٦/٢٦٦٥ " .

كان لا يستند إلى شئ منها: فهو المذموم][(١)] .

ـ وقد كثر كلامُ السلف_ رضوان الله عليهم_ في ذم الإحداث في الدين، والتقديم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والقول بالرأي المخالف للكتاب والسنة:

* عن سهل بن حنيف_ رضي الله عنه_، قال: " يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته ... "[(٢)] .

* وعن عمر_ رضي الله عنه_ نحو قول سهل، ولفظه: " اتقوا الرأي في دينكم "[(٣)] .

* وفي لفظ: " اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أردّ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي اجتهاداً_فوالله ما آلوا عن الحق_، وذلك يوم أبى جندل حتى قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: تراني أرضى وتأبى "[(٤)] .

* وعنه_ أيضاً_، قال: " إياكم وأصحاب الرأي: فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي: فضلوا وأضلوا "[(٥)] .

* وكان عمر_ رضي الله عنه_ يقول: " إن أصدق القيل: قيلُ الله، وإن أحسن الهدي: هدي محمد، وشر الأمور: محدثاتها "[(٦)] .

* وعن ابن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " ليس عام إلا الذي بعده شر منه، لا أقول عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهاب العلماء ثم يحدث قوم يقيسون الأمور بآرائهم: فيهدم الإسلام "[(٧)] .

* وكان عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_ إذا خطب، قال: " إن أحسن الحديث: كتاب الله، وأحسن الهدي: هدي محمد، وشر الأمور: محدثاتها "[(٨)] .

* وفي لفظ عنه، قال: " إن أحسن الهدى: هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وإن أحسن الكلام: كلام الله، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم، فكل محدث: ضلالة، وكل ضلالة في النار "[(٩)] .

---

(١) " فتح الباري١٣/٢٨٢: ٢٨٨ "

(٢) " صحيح البخاري٦/٢٦٦٥ " .

(٣) " المدخل للبيهقي/١٩٠ " .

(٤) " الطبراني في الكبير١/٧٢"، " والضياء في المختارة١/٣٢٥ "، وغيرهما، وانظر" المجمع١/١٧٩، ٦/١٤٥ " .

(٥) " الدارقطني٤/١٤٦ "، " اللالكائي١/١٢٣ " .

(٦) "اللالكائي١/٨٤ "، " السنة للمروزي/٢٨ " .

(٧) " الدارمي١/٧٦"، " الكبير٩/١٠٥ "، وانظر: " المجمع١/١٨٠ " .

(٨) " السنة للمروزي/٢٨ "، " الشعب٤/٢٠٠ "، " المعجم الكبير٩/٩٦ " .

(٩) " اللالكائي١/٧٧ " .

* وعن علي_ رضي الله عنه_، قال: " لو كان الدين بالرأي لكان مسح أسفل الخف أولى من أعلاه "(١) .

* وعن أبي مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " أيها الناس: اتهموا الرأي، فقد رأيتني أهم أن أضرب بسيفي في معصية الله، ومعصية رسوله ... "(٢) .

* وقال أبو الزناد_ رحمه الله_: " إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيراً على خلاف الرأي، فما يجد المسلمون بداً من اتباعها، من ذلك أن الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة "(٣) .

* وعن الحسن_ رحمه الله_، أنه قال: " إنما هلك من كان قبلكم حين تشعبت بهم السبل وحادوا عن الطريق: فتركوا الآثار، وقالوا في الدين برأيهم: فضلوا وأضلوا "(٤) .

* وقال مسروق_ رحمه الله_: " من يرغب برأيه عن أمر الله: يضل "(٥) .

* وقال الشعبي لمالك بن مغول_ رحمهما الله_: " ما حدثوك هؤلاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فخذ به، وما قالوه برأيهم: فألقه في الحش "(٦) .

* وقال الإمام الأوزاعي_ رحمه الله_: " عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوها لك بالقول "(٧) .

ــ والآثار عن السلف في ذم الرأي: كثيرة جداً، وقد عقد ابن عبد البر_ رحمه الله_ باباً حافلاً في كتابه الفرد: " جامع بيان العلم وفضله "، عَنْونَ له بقوله: " باب: ما جاء في ذم القول في الدين بالرأي، والظن، والقياس على غير أصل، وعيب الإكثار من المسائل دون اعتبار "(٨) .

وقد ساق_ رحمه الله_ في هذا الباب جملة وفيرة من آثار السلف في النهي عن القول في الدين بالرأي المجرد، وذم ذلك، وعيبه غاية الذم، والعيب .

ــ وكذلك فعل الإمام ابن القيم_ رحمه الله_ في " إعلامه " حيث عقد باباً كبيراً عظيماً في النهي عن القول في الدين بالرأي المجرد بدأه بما ورد عن الصحابة ثم التابعين ثم من بعدهم من أئمة المسلمين(٩) إلى أن

---

(١) " أبو داود١/٤٢ "، " البيهقي١/٢٩٢ "، " الدارقطني١/٢٠٤ " .

(٢) " ابن أبي شيبة٧/٥٠٨ " .

(٣) " صحيح البخاري٢/٦٨٩ " .

(٤) " جامع بيان العلم٢/١٣٧ " .

(٥) " جامع بيان العلم٢/١٣٧ " .

(٦) " الدارمي١/٧٨ "، " السير٤/٣١٩، ٧/١٧٦"، وانظر: " الحلية٤/٣١٩ " .

(٧) " ذم التأويل/٣٤ " .

(٨) " جامع بيان العلم٢/١٣٣: ١٥٠ "، وانظر: " فتح الباري١٣/٢٨٩: ٢٩٠ " .

(٩) انظر: " إعلام الموقعين١/٥٣: ٧٩ " .

قال: [والمقصود أن السلف جميعهم على ذم الرأي، والقياس المخالف للكتاب والسنة، وأنه لا يحل العمل به: لا فتيا، ولا قضاءً](1) .

قال ابن أبي داود_ رحمه الله_:

تمسّك بحبل الله واتبع الهدى ولا تك بـدعياً لعلك تـفلح
ودن بكتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله تنجو وتربح
ودع عنك آراء الرجال وقولهم فقول رسول الله أزكى وأشرح(2)

ـــ وإنما عظم النهي عن الإحداث في دين الله بالتقديم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لكون ذلك:

* مضاداً لحقيقة العبودية مع كونه محاداة للإلوهية، ولذا قال تعالى: { فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم } .

قال الإمام أحمد_ رحمه الله_: " وما الفتنة ؟: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله: أن يقع في قلبه شيء من الزيغ: فيزيغ قلبه: فيهلكه "(3) .

وهذه المحاداة: ظاهرة من وجهين:

ـ الوجه الأول:

(أن المبتدع: معاند للشرع، ومشاق له لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها ... إلى غير ذلك لأن الله يعلم، ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين .

فالمبتدع: رادّ لهذا كله، فإنه يزعم أن ثم طرقاً أخر ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عينه بمتعين كأن الشارع يعلم، ونحن أيضاً نعلم بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع: أنه علم ما لم يعلمه الشارع .

وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع: فهو كفر بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود: فهو ضلال مبين .

وإلى هذا المعنى أشار عمر بن عبد العزيز_ رضي الله عنه_ إذ كتب له عدي بن أرطأة يستشيره في بعض القدرية، فكتب إليه: " أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وترك ما أحدث المحدثون فيما قد جرت سنته، وكفوا مؤنته: فعليك بلزوم السنة، فإن السنة إنما سنها من قد عرف ما في خلافها من الخطأ، والزلل، والحمق، والتعمق، فارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم: وقفوا، وببصر نافذ: قد كفوا، وهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل كانوا فيه

---

(1) " إعلام الموقعين ٧٩/١ " .

(2) " سير أعلام النبلاء٢٣٣/١٣: ٢٣٤ " .

(3) " الصارم المسلول لابن تيمية/٥٦ " .

أحرى .

فلئن قلتم: أمر حدث بعدهم: ما أحدثه بعدهم إلا من اتبع غير سننهم، ورغب بنفسه عنهم، إنهم لهم السابقون، فقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم: مقصراً، وما فوقهم: محسر، لقد قصر عنهم آخرون: فغلوا، وأنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم " ...

فقوله: " فإن السنة: إنما سنها من قد عرف ما في خلافها ": فهو مقصود الاستشهاد)(١) .

ــ الوجه الثاني:

(أن المبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع لأن الشارع وضع الشرائع، وألزم الخلق الجري على سننها، وصار هو المنفرد بذلك لأنه **حكم بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفون وإلا فلو كان التشريع من مدركات الخلق: لم تنزل الشرائع، ولم يبق الخلاف بين الناس، ولا احتيج إلى بعث الرسل عليهم السلام .**

هذا الذي ابتدع في دين الله: قد صيّر نفسه نظيراً، ومضاهياً حيث شرع مع الشارع، وفتح للاختلاف: باباً، وردّ قصد الشارع في الانفراد بالتشريع، وكفى بذلك)(٢) .

ــ كما أن الإحداث في دين الله بالتقديم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: زعمٌ صريح بأن الدين: ناقص، لم يكمل بعد، وهو مروق من حكم الشرع، وخلع لربقة الإسلام:

قال أبو طالب_ رحمه الله_: " أخبروني عن الكرابيسي أنه ذكر قول الله: { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً }: قال: لو أكمل لنا ديننا: ما كان هذا الاختلاف ! .

فقال_ يعني: أحمد بن حنبل_: هذا الكفر صراحاً "(٣) .

إذ من قطعيات أهل الإسلام: أن (الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة، ولا النقصان لأن الله تعالى قال فيها: { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا } .

وفي حديث العرباض بن سارية : " وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها الأعين، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه موعظة مودع، فما تعهد إلينا ؟ .

قال: تركتكم على البيضاء، ليلها: كنهارها، ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي، وسنة الراشدين من بعدي " الحديث .

وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا، وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة .

فإذا كان كذلك، فالمبتدع: إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقالة: إن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء

---

(١) " الاعتصام١/٣٧: ٣٨ " .

(٢) " الاعتصام١/٣٨ " .

(٣) " طبقات الحنابلة١/٤٠ " .

يجب أو يستحب استدراكها، لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتمامها من كل وجه: لم يبتدع ولا استدرك عليها وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم .

قال ابن الماجشون: سمعت مالكاً يقول: " من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة: زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم: خان الرسالة لأن الله يقول: { اليوم أكملت لكم دينكم }، فما لم يكن يومئذ ديناً: فلا يكون اليوم ديناً)[١] .

ـــــ فما دخل الفساد على العباد في دينهم ودنياهم، واضطربت أحوالهم، وساء نظامهم، وتناوشتهم شياطين الإنس والجن إلا من جراء الإحداث في دين الله بالتقديم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهم في ذلك يظنون أنهم يحسنون صنعاً، ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية وأعلى مناره حيث يقول:

[الشرائع: أغذية القلوب، فمتى اغتذت القلوب بالبدع: لم يبق فيها فضل للسنن، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث][٢] .

فكما هو تأثير الطعام الخبيث في البدن: كذلك هو_ بل وأشد_ تأثير التقديم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في القلوب، والعقول حتى أنها تعمى عن رؤية الحق وهو أوضح من الشمس في رابعة النهار بما ران عليها من الأهوآء، والآراء .

وقد بين شيخ الإسلام_ رحمه الله_ أن ما يقع فيه العباد من الاعتقادات الباطلة، والأعمال الفاسدة التي تضطرب معها أحوال العباد في دينهم ودنياهم: إنما هو بسبب ترك ما جاء به صلى الله عليه وسلم، فقال:

[أسباب هذه الاعتقادات والأحوال الفاسدة: الخروج عن الشِّرعة، والمنهاج الذي بُعث به الرسول صلى الله عليه وسلم إلينا، فإن البدع: هي مبادئ الكفر، ومظان الكفر كما أن السنن المشروعة: هي مظاهر الإيمان، ومقويّة للإيمان، فإنه يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية][٣] .

(فالهرب، والنجاة النجاة، والتمسك بالطريق المستقيم، والسنن القويم الذي سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح)[٤] .

---

(١) " الاعتصام١/٣٧ " .

(٢) " اقتضاء الصراط المستقيم/٢٨١ " .

(٣) " الفتاوى١٠/٥٦٥ " .

(٤) " تفسير القرطبي٧/١٣٨ "

المطلب الثالث

اتباع الحق والدوران معه حيث دار

وهذا: هو الضابط الثالث من ضوابط العمل الجماعي عند أهل الطائفة المنصورة، وهو: فرعٌ عمّا قبله إذ من اعتصم بالكتاب والسنة حقاً: كان رائده الحق حيث كان؛ مع القريب أم البعيد، مع الموافق أم المخالف، وافقه الرجالُ أم خالفوه، فأهل الطائفة المنصورة: ولاؤهم للحق لا غير؛ و(المؤمن لدى الحق: أسير)[(١)] .

* قال تعالى: { اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ } [الأعراف: ٣] .

فأمر تعالى أمراً مطلقاً باتباع ما أنزل إلينا من عنده سبحانه_ وهو الحق_، ونهى عن اتباع ما دون ذلك من الأولياء أيّاً كانوا، فعُلم أن الولاء للحق فقط .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ }، أي: تتولونهم، وتتبعون أهواءهم، وتتركون

---

(١) " حلية الأولياء١٠/٣١ " .

لأجلها الحق](1) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: [وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه، ولا يناجز عليها بل لأجل أنها ممّا أمر الله به ورسوله أو أخبر الله به ورسوله لكون ذلك طاعة لله ورسوله](2) .

فالاتباع_ دعوةً أو عملاً_: إنما هو للحق في ذاته، وما الرجال إلا وسيلة للدلالة على الحق وتوصيله، ومتى خالفت الوسيلة الغاية منها ولم تحققها: طُرحت وأعرض عنها تمسكاً بالغاية التي هي المقصود الأصل والأساس .

* عن أنس_ رضي الله عنه_ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " .

فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً؛ أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم: " تحجزه_ أو تمنعه_ من الظلم، فإن ذلك نصره "(٣) .

* وفي لفظٍ: " تأخذ فوق يديه "(٤) .

والمراد: ظاهر، وهو: أن تأخذ منه ولا تنصره على الباطل، ولا تواليه ولاءً مطلقاً في الحق والباطل، وإنما تكون معه عند الحق، وتكون ضده عند الباطل؛ فلا عصبية لمتبوع، ولا لجماعة، ولا لمذهب .

فالحديث نص في كون الولاء المطلق: للحق، وللحق وحده؛ وإنما يُوالى الآخرون_ وإن كانوا أقرب قريب_ بقدر قربهم أو بعدهم من الحق لا لذواتهم، فلا يُوالى لذاته إلا الحق .

* وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم قوله: " مُر بالمعروف، وانه عن المنكر، وزل مع الحق حيث زال"(5).

* وعن أبي بكر_ رضي الله عنه_، قال: " إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة: باتباعهم الحق في الدنيا، **وثقله عليهم**، وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً: أن يكون ثقيلاً .

وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة: باتباعهم الباطل في الدنيا، **وخفته عليهم**، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً: أن يكون خفيفاً "(6) .

قال الإمام الشافعي_ رحمه الله_: " أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) " تفسير السعدي/١٨٤ " .

(٢) " مجموع الفتاوى ٩/٢٠ " .

(٣) " البخاري٦/٢٥٥٠ " .

(٤) " البخاري٢/٨٦٣ " .

(٥) " المستدرك٤/١٧٦ "، " صحيح ابن حبان١٣/١٩٧ " .

(٦) " حلية الأولياء١/٣٦ "، " الثقات٢/١٩٣ " .

وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس "[١] .

ـــــ واتباع الغير_ فرداً كان أم طائفة_ مطلقاً_ أي في الحق والباطل_: هو من التفرق المذموم الذي نهانا الله تعالى عنه، وتوعد أهلَه، وأصحابَه .

* قال تعالى: { ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون }.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله وطيب ثراه_ : [وأما رأس الحزب: فإنه رأس الطائفة التي تتحزب، أي: تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان: فهم مؤمنون: لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم.

وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم سواء كان على الحق أو الباطل: فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله، فإن الله ورسوله أمر بالجماعة والإئتلاف، ونهيا عن التفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان](٢) .

ـــ وقد أخبرنا تعالى أن اتباع الغير في الباطل_ موالاة له وموافقة_: من دين المشركين الذين نُهينا عن مشابهتهم فيه أشدّ نهي وأصرحه .

* قال تعالى: { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمّا يُشركون } .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [مَنْ عَلم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول: فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبع في ذلك هواه، ونصره باللسان، واليد مع علمه أنه مخالف للرسول؛ فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق: لا يجوز له تقليد أحد في خلافه][٣] .

ـــــ وقد بيّن الله تعالى أن عاقبة هذا المسلك من رد الحق، وقبول الباطل موافقةً للغير وموالاةً له: أسوأ عاقبة وأخسرها، مع كون الجزاء فيها من جنس العمل، وما ربك بظلم للعبيد .

* قال تعالى: { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ }

[البقرة: ١٦٧] .

فكلّ من رد الحق واتبع غيره_ فرداً كان أم طائفة_ ووالاه في الباطل مع علمه بباطله: فله نصيب من هذه

---

(١) " إعلام الموقعين٢/٢٦٣ " .

(٢) " الفتاوى١١/٩٢ " .

(٣) " الفتاوى٧/٧١ " ً.

الآية: قلّ هذا النصيب أو كثر(١) .

ــ كما أن اتباع الغير مطلقاً: من العصبية التي نُهينا عنها، وقد رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليس منا من دعا إلى عصبية "(٢) .

وهو_ كذلك_ من ابتغاء سنن الجاهلية في الإسلام، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ مسلم بغير حق ليهريق دمه"(٣) .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب_ رحمه الله_: [ويندرج فيها كل جاهلية مطلقة أو مقيدة، أي: في شخص دون شخص: كتابية أو وثنية أو غيرهما من كل مخالف لما جاء به المرسلون] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [مَنْ مالَ مع صاحبه سواء كان الحق له أو عليه: فقد حكم بحكم الجاهلية، وخرج من حكم لله ورسوله](٤) .

ــ فالمسلم مطالب باتباع الحق دائماً وأبداً؛ كان الحق مع القريب أم البعيد، مع الموافق أم المخالف، مع طائفته أم غيرها، فدورانه إنما هو مع الحق ذاته بغير عَرَضٍ آخر .

ومن الكلام القيم هنا: قول الإمام ابن القيم_ رحمه الله_: [عادتنا في مسائل الدين كلها: دقها، وجلها: أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نتعصب لطائفة على طائفة بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق، لا نستثني من ذلك طائفة، ولا مقالة](٥) .

وقال ابن القيم_ رحمه الله_ أيضا_: [فإن كل طائفة معها حقٌ وباطل وتتفاوت في ذلك، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذا الطريق: فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسّر عليه فهم الأسباب](٦) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن تكلم عن الولاء الباطل بين التلميذ ومعلمه:

[ولكن يحسن أن يقول لتلميذه: عليك عهد الله وميثاقه أن توالي من والى الله ورسوله، وتعادي من عادى الله ورسوله، وتعاون على البر والتقوى، ولا تعاون على الإثم والعدوان، وإذا كان الحق معي: نصرت الحق،

---

(١) ردّ الحق متابعة للغير في الباطل ليس درجة واحدة، وإنما هو: درجات، فمنه ما هو: كفر، ومنه ما هو بدعة، ومنه ما هو معصية، ومنه ما هو خطأ، وكلٌ بقدره .

(٢) " أبو داود٤/٣٣٢ " .

(٣) " البخاري٦/٢٥٢٣ " عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ .

(٤) " الفتاوى٢٨/١٧ " .

(٥) " طريق الهجرتين/٥٨٢ " .

(٦) " طريق الهجرتين/٥٧٠ " .

وإن كنت على الباطل: لم تنصر الباطل، فمن التزم هذا: كان من المجاهدين في سبيل الله تعالى، الذين يريدون أن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا](١) .

وقال_ رحمه الله_: [وليس للمعلمين أن يُحزّبوا الناس، ويفعلوا ما يلقى بينهم العداوة والبغضاء بل يكونون مثل الأخوة المتعاونين على البر والتقوى كما قال تعالى: { وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان } .

وليس لأحدٍ منهم أن يأخذ على أحد عهداً بموافقته على كل ما يريد، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يُعاديه بل من فعل هذا كان من جنس جنكيز خان وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم: صديقاً ولياً، ومن خالفهم: عدواً باغياً ...

بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يُطيعوا الله ورسوله، ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله .

وإذا وقع بين معلم ومعلم أو تلميذ وتلميذ أو معلم وتلميذ خصومة، ومشاجرة: لم يجز لأحد أن يُعين أحدهما حتى يعلم الحق، فلا يُعاونه بجهل ولا بهوى بل ينظر في الأمر فإذا تبين له الحق: أعان المحق منهما على المبطل سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره، وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره، فيكون المقصود: عبادة الله وحده، وطاعة رسوله، واتباع الحق، والقيام بالقسط .

قال الله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً } .

ومن مال مع صاحبه_ سواء كان الحق له أو عليه_: فقد حكم بحكم الجاهلية، وخرج عن حكم الله ورسوله .

والواجب على جميعهم أن يكونوا يداً واحدة مع المحق على المبطل، فيكون المعظم عندهم من عظمه الله ورسوله، والمقدّم عندهم من قدّمه الله ورسوله، والمهان عندهم من أهانه الله ورسوله بحسب ما يُرضي الله ورسوله لا بحسب الأهوآء](٢) .

ـــ وقد مرّ معنا: أن (المؤمن: لدى الحق: أسير)(٣):

فيدور مـــع قول الرسول وفعله	نفيــاً وإثباتــاً بـــلا روغان
ويحكم الوحي المبين على الذي	**قال الشيــوخ فعنده حكمـــان**
لا يحكمان ببـــاطل أبداً وكل	العدل قد جاءت به الحكمان
وهما كـــتاب الله أعـــدل حاكم	فـــيه الشـــفا وهداية الحيران

---

(١) " الفتاوى١٩/٢٨: ٢١ " .

(٢) " الفتاوى ١٥/٢٨: ١٧ " .

(٣) " حلية الأولياء١٠/٣١ " .

والحـــاكم الثاني كـــلام رسوله		مـــا ثـــم غيرهما لذي إيمـــان
فإذا دعـــوك لغير حكمهما فلا		سمعاً لداعـــي الكفر والعصيان
قل لا كرامة لا ولا نعمـــا ولا		طـــوعاً لمن يدعو إلى طغيان
وإذا دعيت إلى الرسول فقل لهم		سمعاً وطوعاً لست ذا عصيان(١)

---

(١) " شرح النونية١/١٢٨ " .

المطلب الرابع

كون الولاء لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولدينه

وهذا الضابط: من أخطر ضوابط العمل الجماعي عند أهل الطائفة المنصورة إذ أمر الولاء: أمرٌ عقدي، وهو لحمة الإسلام وسداه، وأساس الإيمان ومنتهاه، وحقيقة الإخلاص وغايته، ودليل الاتباع الصادق، والمحك الذي تتميز به الحقائق من الدعاوى .

ومعقد الولاء عند أهل الطائفة المنصورة: هو " الدين " وفقط، ليس لهم من نسبة أخرى يعقدون عليها ألوية

الولاء والبراء، فولاؤهم للدين، وبراؤهم للدين، وحبهم للدين، وبغضهم للدين .

* عن أنس_ رضي الله عنه_ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما، وأن يحب المرء **لا يحبه إلا لله**، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار "(١) .

* وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من أعطى **لله**، ومنع **لله**، وأحب **لله**، وأبغض **لله**، وأنكح **لله**: فقد استكمل الإيمان "(٢) .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " أوثق عرى الإيمان: الموالاة **في الله**، والمعاداة **في الله**، والحب **في الله**، والبغض **في الله عز وجل** "(٣) .

فأساس الولاء، ومعقده عند أهل الطائفة المنصورة: هو الله_ دينه وشرعه_: إيماناً به، وتحقيقاً لتوحيده، ومتابعة لنبيه صلى الله عليه وسلم، وكلُّ نِسْبَةٍ دون ذلك من؛ قوم أو حزب أو طائفة أو زعيم أو مطاع أو رأي محدث: فهي عند أهل الطائفة المنصورة من الجاهلية، وحاشا أن تكون الجاهلية عند أهل الطائفة المنصورة معقداً لولاء أو براء .

* عن جابر_ رضي الله عنه_ قال: " غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع أنصارياً: فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين .

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: **ما بال دعوى أهل الجاهلية**، ثم قال: ما شأنهم: فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **دعوها فإنها خبيثة** ... "(٤) .

فتأمّل قوله صلى الله عليه وسلم: " ما بال دعوى الجاهلية "، وقوله: " دعوها فإنها خبيثة "_ وفي رواية:

---

(١) " البخاري١/١٤، ١٦ "، " مسلم١/٦٦ " .

(٢) " المستدرك٢/١٧٨ "، " الترمذي٤/٦٧٠ "، " أحمد٣/٤٣٨، ٤٤٠ "، " أبو يعلى٣/٦٠، ٦٨ "، " المعجم الكبير٢٠/١٨٨ " والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وللحديث طريق أخرى عن أبي أمامة الباهلي_ رضي الله عنه_ بدون قوله: " أنكح لله " عند " أبي داوود٤/٢٢٠ "، "المعجم الكبير٨/١٣٤، ١٧٧ "، " المعجم الأوسط٩/٤١ " .

(٣) حديث صحيح له طرق، وألفاظ متقاربة عن أبي ذر، والبراء بن عازب، وابن مسعود_ رضي الله عنهم_، انظر: " المعجم الكبير١١/٢١٥ "، " شعب الإيمان٧/٧٠ "، " أبو داود٤/١٩٨ "، " البزار٩/٤٦١ "، " أحمد٥/١٤٦ "، " مصنف ابن أبي شيبة٦/١٧٠، ٧/٨٠"، " الطيالسي/١٠١ "، " تعظيم قدر الصلاة١/٤٠٤ "، " البيان والتعريف١/٣٠٤ "، " أحمد٤/٢٨٦ "، " مصنف ابن أبي شيبة٦/١٧٢"، " المعجم الصغير١/٣٧٣"، " المعجم الكبير١٠/١٧١ "، " الطيالسي/٥٠ "، " الفردوس٥/٤١٥ "، " المجمع١/٨٩: ٩٠، ١٦٢"، "الترغيب والترهيب٤/١٤ " .

(٤) " البخاري٣/١٢٩٦، ٤/١٨٦١، ١٨٦٣ "،" مسلم٤/١٩٩٨ " .

"دعوها فإنها منتنة "(١)_ تعقيباً على تنادي الرجلين بهذين الإسمين: " المهاجرين "، و" الأنصار " مع أن هذين الإسمين من الأسماء المشروعة، الممدوحة، المحبوبة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم بل هما من الأسماء التي جاء القرآن بتزكية وتعديل أصحابها إلا أنهما لما كانا هنا شعاراً لولاء يحمل نوعاً من العصبية: صار ذلك من فعل الجاهلية، وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذه الدعوى منتنة كونها متضمنة لاستبدال أساس الولاء والبراء عند المسلمين ومعقده بنسبة أخرى ولو كانت شرعية ولاسم شريف، وفئةٍ كريمة، فكيف بما دون ذلك من النسب المحدثة الباطلة ؟! .

وقد ترجم الإمام البخاري_ رحمه الله_ لهذا الحديث بقوله: " باب: ما ينهى من دعوى الجاهلية "(٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فهذان الاسمان: " المهاجرون "، و" الأنصار ": اسمان شرعيان جاء بهما الكتاب والسنة، وسماهما الله بهما كما سمانا المسلمين من قبل ...

وانتساب الرجل إلى المهاجرين والأنصار: انتساب حسن محمود عند الله وعند رسوله، ليس من المباح الذي يقصد به التعريف فقط كالانتساب إلى القبيلة أو الأمصار ...

ثم مع هذا لما دعى كل منهما طائفته منتصراً بها: أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وسماه: دعوى الجاهلية](٣) .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم: " ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو **دعا بدعوى الجاهلية** "(٤).

* وقال صلى الله عليه وسلم: " من دعا بدعوى الجاهلية: فهو من جثا جهنم .

قال رجل: وإن صام، وصلى ؟!!! .

قال صلى الله عليه وسلم: وإن صام، وصلى، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم: المسلمين، المؤمنين، عباد الله"(٥) .

ـــــ وعليه: فالولاء الحزبي والذي يُعقد فيه الولاء والبراء على أساس الانتماء للحزب: فيُوالى من انتمى للحزب ووالاه وإن كان في دينه دخل ودخن، وبدع ومحدثات، ويُعادى من نأى عنه وجفاه وإن كان من أتقى أهل الأرض توحيداً واتباعاً، هذا الولاء: هو من دين الجاهلية وشرعتها، وليس من هدي الطائفة المنصورة ودينها، وهيهات .

---

(١) " البخاري٤/١٨٦١، ١٨٦٣ "، " مسلم٤/١٩٩٨، ١٩٩٩ " .

(٢) " البخاري٣/١٢٩٦ " .

(٣) " اقتضاء الصراط المستقيم/٧١ " .

(٤) " مسلم١/٩٩ " .

(٥) " صحيح ابن حبان "، " النسائي الكبرى٥/٢٧٢، ٦/٤١٢ "، " أحمد٤/١٣٠، ٢٠٢ "، "الطيالسي/١٥٩"، " أبو يعلى٣/١٤٢ "، " المعجم الكبير٣/٢٨٩ " من حديث الحارث الأشعري .

قال شيخ الإسلام_ رحمه الله_: [ولهذا تجد قوماً كثيرين: يحبون قوماً، ويبغضون قوماً لأجل أهوآء لا يعرفون معناها، ولا دليلها بل يوالون على إطلاقها أو يعادون من غير أن تكون منقولة نقلاً صحيحاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وسلف الأمة، ومن غير أن يكونوا هم يعقلون معناها، ولا يعرفون لازمها، ومقتضاها .

وسبب هذا: إطلاق أقوال ليست منصوصة، وجعلها مذاهب يُدعى إليها، ويُوالى ويُعادى عليها .

وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته: " إن أصدق الكلام: كلام الله ... إلخ ": فدين المسلمين: الإسلام، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده مبني على اتباع كتاب الله، وسنة نبيه، وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة هي أصول معصومة، وما تنازعت فيه الأمة ردوه إلي الله والرسول ...

وليس لأحد أن ينصب شخصاً يدعو إلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها غير النبي صلى الله عليه وسلم، ولا ينصب لهم كلاماً يوالى ويعادى عليه غير كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وما اجتمعت عليه الأمة بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة: يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة، ويعادون][(١)] .

وقال_ رحمه الله_ بعد أن تحدث عن الولاءات الباطلة: [فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تتفرق، وتختلف حتى يُوالي الرجل طائفة، ويعادي أخرى بالظن والهوى، وقد برّأ الله نبيه ممن كان هكذا .

فهذا فعل أهل البدع كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين، واستحلوا دماء من خالفهم، أما أهل السنة: فهم معتصمون بحبل الله][(٢)] .

وقال_ كذلك_ رحمه الله_: [ومن حالف شخصاً على أن يوالي من والاه، ويعادي من عاداه: كان من جنس التتر المجاهدين في سبيل الشيطان، ومثل هذا ليس من المجاهدين في سبيل الله تعالى، ولا من جند المسلمين، ولا يجوز أن يكون مثل هؤلاء من عسكر المسلمين بل هؤلاء من عسكر الشيطان](٣) .

ـــــ فالحب والبغض، والنصرة والخذلان، والموافقة والمخالفة، وغير ذلك من معاني الولاء والبراء: أساسها الذي يجب أن تدور عليها: هو ما يحبه الله ويرضاه من القيام بدينه: علماً وعملاً، ويحرم أن تدور هذه المعاني على غير ذلك، وغير ذلك هو على التحقيق من حظوظ النفس وأهوائها .

(فتعليق الأمور من: المحبة والبغضة، والموالاة والمعاداة، والنصرة والخذلان، والموافقة والمخالفة، والرضا والغضب، والعطاء والمنع بما يخالف هذه الأصول المنزلة من عند الله ممّا هو: أخص منها أو أعم منها أو أعم من وجه وأخص من وجه ...

فالأعم: ما عليه المتفلسفة، ومن اتبعهم من ضلال المتكلمة والمتصوفة في تسويغ التدين بغير ما جاء به

---

(١) " الفتاوى٢٠/١٦٤ " .

(٢) " الفتاوى٣/٤١٩: ٤٢٠ " .

(٣) " الفتاوى٢٨/١٩: ٢١ " .

محمد رسول الله، وإن عظّم محمداً صلى الله عليه وسلم وجعل دينه أفضل الأديان، **وكذلك من سوغ النجاة والسعادة بعد مبعثه بغير شريعته .**

والأعم من وجه والأخص من وجه: مثل الأنساب، والقبائل، والأجناس العربية، والفارسية، والرومية، والتركية أو الأمصار، والبلاد .

والأخص مطلقاً: الانتساب إلى جنس معين من أجناس بعض شرائع الدين: كالتجند للمجاهدين، والفقه للعلمـــاء، والفقر والتصوف للعباد أو الانتساب إلى بعض فرق هذه الطوائف كإمام معين أو شيخ أو ملك أو متكلم من رؤوس المتكلمين أو مقالة أو فعل تتميز به طائفة أو نحو ذلك .

كل ذلك من أمور الجاهلية المفرقة بين الأمة، وأهلها خارجـــون عن السنة والجماعة، داخلون في البدع والفرقة .

بل دين الله تعالى أن يكون رسوله محمد صلى الله عليه وسلم: هو المطاع أمره، ونهيه، المتبوع في محبته ومعصيته، ورضاه، وسخطه، وعطائه، ومنعه، وموالاته، ومعاداته، ونصره، وخذلانه .

ويعطى كل شخص أو نوع من أنواع العالم من الحقوق: ما أعطاهم إياه الرسول، فالمقرب من قربه، والمقصى من أقصاه، والمتوسط من وسطه، ويحب من هذه الأمور: أعيانها، وصفاتها ما يحبه الله ورسوله منها، ويكره منها ما كرهه الله ورسوله منها، ويترك منها_ لا محبوباً، ولا مكروهاً_ ما تركه الله ورسوله كذلك)(١).

ـــ وهذا هو الميزان الحق، والمنهج القسط، الذي من حاد عنه: فقد غبنت صفقته، وبارت سلعته، وضل سواء السبيل .

* وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ألا إن آل أبي_ يعني فلاناً_ ليسوا لي بأولياء، **إنما وليي: الله، وصالح المؤمنين** "(٢) .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " إن أوليائي منكم: المتقون، مَن كانوا، وحيث كانوا "(٣) .

(فالواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه، ومقدار حبه وبغضه: هل هو موافق لأمر الله ورسوله؟، وهو هدى الله الذي أنزله على رسوله، بحيث يكون مأموراً بذلك الحب والبغض، لا يكون متقدماً فيه بين يدي الله ورسوله، فإنه تعالى قد قال: { لا تقدموا بين يدي الله ورسوله }، ومَنْ أحب، وأبغض قبل أن يأمره الله ورسوله ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله .

ومجرد الحب، والبغض: هوى، لكن المحرم اتباع حبه، وبغضه بغير هدى من الله، ولهذا قال: { ولا تتبع

---

(١) " الفتاوى٣٤١/٣ : ٣٤٣ " .

(٢) " البخاري٢٢٣٣/٥ "، " مسلم١٩٧/١ " .

(٣) صحيح عن معاذ_ رضي الله عنه_ في " المعجم الكبير١٢٠/٢٠ "، " السنة لابن أبي عاصم٩٣/١ "، وقال في " المجمع٢٣٢/١٠ ": [إسناده جيد] .

الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد } ...

فأخبر أن من اتبع هواه: أضله ذلك عن سبيل الله، وهو هدى الله الذي بعث به رسوله، وهو السبيل إليه)(١).

ـــــ تنبيه هام:

يخدع أقوام أنفسهم: حيث يزعمون أن ولاءهم، ومحبتهم: لله، وفي الله، وحقيقة الحال ليست كذلك إذ الولاء في الله، والمحبة فيه تعني: موالاة الشخص، ومحبته لدينه_ علماً، وعملاً_ لا غير كما سبق تقريره، وهنا علامتان لكون الولاء، والمحبة في الله حقاً، وصدقاً:

---

(١) " مجموع الفتاوى١٣٢/٢٨: ١٣٤ " .

ــ العلامة الأولى:

أنه إذا كان العبد المحبوب من القائمين بدين الله_ علماً، وعملاً_، فحقيقة المحبة في الله، والولاء فيه: أن لا تتغير بالموافقة أو المخالفة، ولا بالإحسان أو الإساءة، ولا بالبر أو الجفاء، فإذا تغيرت: علمنا أنها لم تكن لله في صدر أو ورد .

* قال يحيى بن معاذ_ رحمه الله_: " حقيقة الحب في الله: أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء "(١) .

فالمحبّة في الله: ينبغي أن يُراد بها وجه الله، فلا يحب الشخص إلا لله، وأن لا تزيد تلك المحبّة ببر المحبوب للمحب، ولا تنقص بجفائه إياه، فإن البغض ينبغي أن يُراد به وجه الله أيضاً، وأن يكون لله لا لسبب آخر بل يبغض الشخص إمّا: لكفره أو ابتداعه أو معصيته، فإن هذه هي أسباب البغض في الله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدي عليك، والكافر تجبُ معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك](٢) .

ــ العلامة الثانية:

أنه إذا أحدث العبد المحبوب حدثاً في دينه خرج بمقتضاه عمّا كان عليه من العلم أو العمل، فإن من كون تلك المحبة، وذلك الولاء في الله حقاً: أن تتبدل المحبة، والولاء إلى بغضٍ بقدر ما أحدث في دينه(٣)، فإن لم تتبدل المحبة، والولاء: علمنا يقيناً أنها محبة، وولاء في حظوظ النفس، وأهوائها، والله سبحانه وتعالى من ذلك كله بريء ! .

فــ(من أحب لسبب: فبالضرورة يبغض لضده، وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر)(٤) .

* وقد كان بشر_ رحمه الله_ يقول: " الحب في الله، والبغض في الله، فإذا أحببت أحداً في الله، فأحدث حدثاً: فأبغضه في الله، فإن لم تفعل: لم يكن ذلك الحب في الله "(٥) .

* وعن يوسف بن أسباط_ رحمه الله_، قال: سمعت سفيان الثوري: " يقول إذا أحب الرجلُ الرجلَ في الله ثم أحدث حدثاً في الإسلام، فلم يبغضه عليه: فلم يحبه في الله "(٦) .

---

(١) " فتح الباري١/٦٢ " .

(٢) " الفتاوى٢٨/٢٠٩ " .

(٣) والكلام هنا في المصر، الجاحد، الذي صار " الحدث " له صفة ثابتة أمّا من كان " الحدث " منه هفوة، وزلة: فالأصل: العفو، والإغضاء، وإقالة العثرة، والأخذ بيده ليرجع إلى ما كان عليه لا إسلامه لنفسه، وشيطانه مع التذكر بأن الحب، والبغض قد يجتمعان في الشخص الواحد، فلينتبه لهذا ! .

(٤) " الإحياء للغزالي٢/١٤٤ " .

(٥) " شعب الإيمان٧/٧٠ " .

(٦) " شعب الإيمان٧/٧١ " .

* وعن سفيان الثوري عن شيخ من الأنصار، قال: " إذا أحببت رجلاً في الله ثم أحدث فلم أبغضه: فلم أكن أحببته في الله "(١) .

ـــــ ومن مسالك الشيطان هنا: أن يَخدع الإنسان نفسَه، ويغشّها بالباطل متابعة منه لهواه، وضعفاً منه عن كبح نفسه عن غيها وضلالها: فيُلبس بغضَه للآخرين ممن هم أعظم منه قياماً بأمر الله علماً وعملاً: لبوساً شرعياً بزعم أن بغضه إياهم: لله، وفي الله، ويعلم الله سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى: أن بغضه إنما هو: لنفسه ولهواه، فحقيقة الحامل على هذا البغض: الخلاف في رأي أو انتماء لم يُلزم به الشرع، ولكنه هوى النفوس، وحقدها الملحاح الذي يزين الباطل في صورة الحق وليس ذلك بنافع أهله شيئاً، والله من وراء القصد .

قال ابن رجب_ رحمه الله_: [ولمّا كثر اختلاف الناس في مسائل الدين، وكثر تفرقهم: كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم، وكل منهم يظهر أنه يبغض لله، وقد يكون في نفس الأمر معذوراً، وقد لا يكون معذوراً بل يكون: متبعاً لهواه: مقصراً في البحث عن معرفة ما يبغض عليه، فإن كثيراً من البغض كذلك إنما يقع لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلا الحق، وهذا الظن: خطأ قطعاً، وإن أريد أنه لا يقول إلا الحق فيما خولف فيه: فهذا الظن قد يخطئ ويصيب، وقد يكون الحامل على الميل: مجرد الهوى والألفة أو العادة، وكل هذا: يقدح في أن يكون هذا البغض لله، **فالواجب على المؤمن: أن ينصح لنفسه، ويتحرز في هذا غاية التحرز، وما أشكل منه: فلا يدخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما نهى عنه من البغض المحرم**](٢) .

---

(١) " المرجع السابق " .

(٢) " جامع العلوم والحكم/٣٢٨ " .

المطلب الخامس

ثبوت الأخوة الإيمانية لأهلها

وهذا متفرع عمّا قبله، فإذا كان معقد الولاء هو الدين: فلا غرو أن تكون الأخوة الإيمانية ثابتة لكل مؤمن؛ أين كان، ومن كان .

* قال تعالى: { والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض } [التوبة:٧١] .

* وقال تعالى: { إنما المؤمنون إخوة } [الحجرات:١٠] .

* وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يسلمه ... "(١) .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً "(٢) .

* وقال صلى الله عليه وسلم_ كذلك_: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم: مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو: تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "(٣) .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد: يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس "(٤) .

ـــــ وهذه الحقوق الإيمانية_ بدلالة النصوص الصريحة_ ليس لها من شرط غير الإيمان، فمن وضع لها قيداً آخر من؛ جنس وقوم أو حزب وطائفة أو شيخ وزعيم أو موافقة لم يأمر بها الشرع في قول أو رأي أو مذهب أو انتماء: فقد ابتغى سنن الجاهلية، ورام في الإسلام ظلماً، وفساداً .

* قال صلى الله عليه وسلم: " من ادعى دعوى الجاهلية فإنه جثا جهنم .

فقال رجل: يا رسول الله: وإن صلى وصام ؟

فقال صلى الله عليه وسلم: وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله التي سماكم: المسلمين، المؤمنين، عباد الله"(٥) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [ليس لأحد أن يُعلق: الحمد والذم، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة، والصلاة واللعن بغير الأسماء التي علق الله بها ذلك؛ مثل: أسماء القبائل، والمدائن، والمذاهب، والطرائق المضافة إلى الأئمة والمشايخ ...

---

(١) " البخاري٢/٨٦٢، ٢٥٥٠ "، " مسلم٤/١٩٩٦ " عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ .

(٢) " البخاري١/١٨٢، ٢/٨٦٣ "، " مسلم٤/١٩٩٩ " عن أبي موسى_ رضي الله عنه_ .

(٣) " البخاري٥/٢٢٣٨ "، " مسلم٤/١٩٩٩ " عن النعمان بن بشير_ رضي الله عنه_، واللفظ لمسلم .

(٤) حسن عن سهل بن سعد_ رضي الله عنه_: " أحمد ٥/٣٤٠ "، " مصنف ابن أبي شيبة٧/٨٩"، " المعجم الكبير٦/١٣١ "، وانظر: " المجمع٨/٨٧، ١٨٧ "، " تفسير ابن كثير٤/٢١٣ " .

(٥) سبق تخريجه .

فأما الحمد والذم، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة: فإنما تكون بالأشياء التى أنزل الله بها سلطانه_وسلطانه كتابه_، فمن كان مؤمناً: وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافراً: وجبت معاداته من أي صنف كان](١) .

وقال_ رحمه الله_ : [والله سبحانه قد أوجب موالاة المؤمنين بعضهم لبعض، وأوجب عليهم معاداة الكافرين، فقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين* فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين* ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهـــم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين* يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله واسع عليم* إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون* ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون } .

فقد أخبر سبحانه أن ولي المؤمن: هو الله، ورسوله، وعباده المؤمنون، وهذا عام في كل مؤمن موصوف بهذه الصفة سواء كان من أهل نسبه أو بلدة أو مذهبه أو طريقة أو لم يكن .

وقال الله تعالى: { والمؤمنون والمؤمنات بعضـــهم أولياء بعض }، وقال تعالى: { إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض }](٢) .

وقال_ رحمه الله_ كذلك: [وأمثال هذه النصوص في الكتاب، والسنة: كثيرة، وقد جعل الله فيها عباده المؤمنين: بعضهم أولياء بعض، وجعلهم إخوة، وجعلهم متناصرين، متراحمين، متعاطفين، وأمرهم سبحانه بالائتلاف، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، فقال تعالى : { واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا }، وقال تعالى: { إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله } .

فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد صلى الله عليه و سلم أن تفترق وتختلف حتى يوالي الرجل طائفة، ويعادي طائفة أخرى بالظن والهوى بلا برهان من الله تعالى، وقد برَّأ الله نبيه صلى الله عليه و سلم ممن كان هكذا، فهذا فِعْل أهل البدع كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين، واستحلوا دماء مَن خالفهم .

وأما أهل السنة والجماعة فهم معتصمون بحبل الله، **وأقل ما في ذلك أن يفضل الرجل من يوافقه على هواه، وإن كان غيره أتقى لله منه، وإنما الواجب أن يقدم من قدمه الله ورسوله، ويؤخر من أخّره الله ورسوله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله**، وينهى عمّا نهى الله عنه ورسوله، وأن يرضى بما رضي الله به ورسوله، وأن يكون المسلمون يداً واحدة](٣) .

---

(١) " الفتاوى٢٨/٢٢٧: ٢٢٨ " .

(٢) " الفتاوى٣/٤١٩: ٤٢٠ " .

(٣) " الفتاوى٣/٤١٩: ٤٢٠ " .

المطلب السادس

العدل مـــع الآخرين

وهو من ضوابط العمل الجماعي الهامة، والممَيّزة لأهل الطائفة المنصورة عن أهل البدع، وهو_ على التحقيق_: من مقتضيات الأخوة وحقوقها، فإذا كان الولاء لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودينه، وكانت الأخوة_ بناءً على ذلك_ ثابتة للمؤمنين: كان العدل أساساً للتعامل معهم مع كون العدل قيمة مطلقة في التعامل مع الناس جميعاً وأولى الناس به: المؤمنون حيث كانوا .

* قال تعالى: { يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً } .

فهذا أمر من الله تعالى بالقول السديد ولزومه، والقول السديد: هو مقتضى العدل، ومن ثم: فالخروج عن العدل: خروج عن السداد والرشاد، ووقوع في الغي والفساد.

ولقد أعلى الله سبحانه وتعالى من شأن العدل أيّما إعلاء حيث أمر به أمراً مطلقاً، ولو كان في ذلك مخالفة لنزاعات النفس التي جُبلت عليها من الحب أو الكره، وهذا صريح في كون العدل قيمة ذاته .

* قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَالله أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } [النساء: ١٣٥] .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [ومعناه: قوموا بالقسط لله عند شهادتكم أو حين شهادتكم، { ولو على أنفسكم }، يقول: ولو كانت شهادتكم على أنفسكم أو على والديكم أو أقربيكم فقوموا فيها بالقسط والعدل، وأقيموها على صحتها بأن تقولوا فيها الحق، ولا تميلوا فيها ...][(١)] .

قال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " أمروا أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم "[(٢)] .

قلت: وقوله تعالى: { لله }: (معناه: لذات الله، ولوجهه، ولمرضاته، وثوابه)[(٣)] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا: { قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ }، والقوام: صيغة مبالغة، أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله، وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله: أن لا يُستعان بنعمه على معصيته بل تصرف في طاعته، والقسط في حقوق الآدميين: أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك كما تطلب حقوقك، فتؤدي النفقات الواجبة، والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به من الأخلاق، والمكافأة، وغير ذلك .

ومن أعظم أنواع القسط: القسط في المقالات، والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما بل يجعل وجهته العدل بينهما .

---

(١) " تفسير الطبري٥/٣٢١ " .

(٢) " تفسير القرطبي٥/٤١٣ " .

(٣) " تفسير القرطبي٥/٤١٢ " .

ومن القسط: أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان حتى على الأحباب بل على النفس، ولهذا قال: {شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا }، أي: فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير_ بزعمكم_ رحمة له بل اشهدوا بالحق على من كان .

والقيام بالقسط: من أعظم الأمور، وأدلها على دين القائم به، وورعه، ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه، وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نُصْب عينيه، ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به، وأعظم عائق لذلك: اتباع الهوى، ولهذا: نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: { فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا }، أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها: عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى: إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً، والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه: وفق للحق، وهدي إلى الصراط المستقيم](١) .

* وقال تعالى_ أيضا_: { يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون } [المائدة: ٨] .

قال الإمام ابن جرير الطبري_ رحمه الله_: [يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ليكن من أخلاقكم وصفاتكم: القيام لله، شهداء بالعدل في أوليائكم، وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم، وأفعالكم: فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي، واعملوا فيه بأمري .

وأما قوله: { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا }، فإنه يقول: ولا يحملنكم عداوة قوم أن لا تعدلوا في حكمكم فيهم، وسيرتكم بينهم: فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم من العداوة](٢) .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ}، أي: كونوا قوّامين بالحق لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا { شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ }، أي: بالعدل لا بالجور .

وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال: " نحلني أبي نحلاً، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال صلى الله عليه وسلم: أكل ولدك نحلتَ مثله ؟ .

قال: لا، فقال صلى الله عليه وسلم: اتقوا الله واعدلوا في أولادكم، وقال صلى الله عليه وسلم: إني لا أشهد على جور " .

قال : فرجع أبي، فردّ تلك الصدقة " .

وقوله تعالى: { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا }، أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم بل

---

(١) " تفسير السعدي/١٢٥ " .

(٢) " تفسير الطبري٦/١٤١ " .

استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً .

ولهذا قال: { اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }، أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه، ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه كما في نظائره من القرآن وغيره كما في قوله: { وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم } .

وقوله: { هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }: من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء كما في قوله تعالى: { أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً }، وكقول بعض الصحابيات لعمر: أنت أفظ، وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال تعالى: { وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }، أي: وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر][(1)] .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله تعالى_ : [{ ولا يجرمنكم }، أي: لا يحملكم: { شنآن قوم }، أي: بغضهم، {على أن لا تعدلوا }: كما يفعله من لا عدل عنده، ولا قسط بل كما تشهدون لوليكم: فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم: فاشهدوا له، فلو كان كافراً أو مبتدعاً: فإنه يجب العدل فيه وقبول ما يأتي به من الحق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله فإن هذا ظلم للحق .

{ اعدلوا هو أقرب للتقوى }: أي كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم فإن تم العدل كملت التقوى][(2)] .

* وعن جابر_ رضي الله عنه_، قال: " أفاء الله خيبر على رسوله صلى الله عليه وسلم: فأقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة: فخرصها عليهم، ثم قال: يا معشر اليهود، أنتم أبغض الناس إليّ؛ قتلتم أنبياء الله، وكذبتم على الله عز وجل، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم: فلكم، وإن أبيتم: فلي .

فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض "[(3)] .

فتأمّل كيف أن هذا الصحابي الجليل لم تحمله محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم_ وهي محبة شرعية مأمور بها بل هي أعظم المحاب وأرضاها عند الله_ مع بغضه لليهود_ وهو بغض شرعي مأمور به_ أن يخرج عن مقتضى العدل معهم تغليباً لمحبته أو بغضه، وهم: يهود ! .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [ومعلوم أننا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة: مثل الملوك

---

(1) " تفسير ابن كثير ٢/٣١: ٣٢ " .

(2) " تفسير السعدي/١٣٨ " .

(3) صحيح: " أحمد٣/٣٦٤ "، " مصنف عبد الرزاق٤/١٢٢: ١٢٤ "، " البيهقي الكبرى٤/١٢٣ "، "الدارقطني٢/١٣٣ "، وأخرجه " أبو داود٣/٢٦٤ " مختصراً، والحديث مروي عن ابن عمر، وأبي هريرة، وعائشة_ رضي الله عنهم_، انظر: " المجمع٤/١٢١ "، " المعجم الأوسط٧/٣٠٤ " .

المختلفين على الملك، والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين: وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل، لا بجهل وظلم، فإن **العدل واجب لكل أحد، وعلى كل أحد، في كل حال، والظلم محرم مطلقا لا يباح قط بحال،** قال تعالى: { ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى }، وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، **فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نُهي صاحبُه أن يظلم من أبغضه، فكيف في بغض مسلم بتأويل أو شبهة أو بهوى نفس ؟!، فهو أحق أن لا يظلم بل يعدل عليه**][١].

فكيف يجوز بعد هذا لمسلم أن يسوغ لنفسه الخروج عن مقتضى العدل في تعامله مع غيره من المسلمين مهما عظمت مساحة الخلاف بينه وبينهم: فيكون الرمي بالباطل، وقالة السوء، وبخس الحقوق لمجرد مخالفتهم له في انتماء أو رأي لم يَأمر به الشرع ويُلزم، وهم من أهل دينه وملته مع كون العدل قيمة مطلقة كما ذكرنا ؟! .

ـ وقاعدة الطائفة المنصورة هنا: هي ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ بقوله:

[والكلام في الناس يجب أن يكون بعلم، وعدل لا بجهل، وظلم كحال أهل البدع][٢] .

وقال_ كذلك_ رحمه الله_: [ولما كان أتْبَاعُ الأنبياء هم أهل العلم والعدل، كان كلام أهل الإسلام والسنة مع الكفار وأهل البدع: بالعلم، والعدل لا بالظن، وما تهوى الأنفس][٣] .

* وفي قوله صلى الله عليه وسلم: " القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة: رجلٌ علم الحق، فقضى به: فهو في الجنة، ورجلٌ علمَ الحق، فقضى بغيره: فهو في النار، ورجلٌ قضى للناس على جهل: فهو في النار"[٤] .

قال ابن تيمية_ رحمه الله_: [فإذا كان من يقضي بين الناس في الأموال والدماء والأعراض إذا لم يكن عالماً، عادلاً: كان في النار، فكيف بمن يحكم في الملل والأديان، وأصول الإيمان، والمعارف الإلهية، والمعالم الكلية بلا علمٍ، ولا عدل][٥] .

ـــ ومن الجهل، والظلم: ذكرُ السيئات، والتشهير بها مع ترك الحسنات وطرحها، ولا سيما عندما تكون تلك الحسنات أعظم من السيئات الحاصلة، ومن اللطائف هنا: قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

فجعل الله سبحانه وتعالى: ذكر الحسنة وإن كانت يسيرة: من الميزان القسط .

---

(١) " منهاج السنة٥/١٢٦ " .

(٢) " المرجع السابق " .

(٣) " الجواب الصحيح١/١٠٧ " .

(٤) صحيح: " المستدرك٤/١٠١ "، " الترمذي٣/٦١٣ "، " أبو داود٣/٢٩٩ "، " النسائي الكبرى٣/٤٦١ "، "ابن ماجه٢/٧٧٦ "، " البيهقي الكبرى١٠/١١٦ "، " المعجم الأوسط٤/٦٣ "، " المعجم الكبير٢/٢٠، ٢١ "، وانظر: " المجمع٤/١٩٦ " .

(٥) " الجواب الصحيح١/١٠٨ " .

قال أبو حاتم ابن حبان_ رحمه الله_: [لسنا ممن يوهم الرعاع ما لا يستحله، ولا ممن يحيف بالقدح في إنسان_ **وإن كان لنا مخالفاً**_ بل نعطي كل شيخ حظه ممّا كان فيه، ونقول في كل إنسان ما كان يستحقه من العدالة والجرح(١)](٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا](٣).

وقال_ كذلك_: [وأهل السنة والجماعة يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، وهو أن المؤمن يستحق وعد الله وفضله والثواب على حسناته، ويستحق العقاب على سيئاته، وأن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يُثاب عليه وما يُعاقب عليه، وما يُحمد عليه وما يُذم، وما يُحبّ منه وما يُبغض منه](٤) .

وقال_ أيضاً_ رحمه الله_: [والصواب أن يُحمد من حال كل قوم: ما حمده الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة، ويُذم من حال كل قوم: ما ذمه الله ورسوله كما جاء به الكتاب والسنة](٥) .

ـــ هذا، مع كون العدل يقضي مع البعض ممن كثر ماء بحر حسناته حتى فاض_ قريباً كان أم بعيداً، موافقاً كان أم مخالفاً_: أن توهب سيئاتُه لحسناته وتغمر فيها، فلا يُتنقص بذكرها، والقاعدة المتفق عليها هنا أنه: إذا بلغ الماء قلتين: لم يحمل الخبث(٦) .

* كما قال صلى الله عليه وسلم في حق عثمان_ رضي الله عنه_ يوم تصدق بتلك الصدقة العظيمة: " ما ضرّ عثمان ما فعل بعد هذا "(٧) .

* وكما قال صلى الله عليه وسلم في حق أهل بدر: " وما يدريك، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم "(٨) .

* ومن حديث عائشة_ رضي الله عنها_، قال صلى الله عليه وسلم: " أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا

---

(١) وذكر الجرح لا يكون إلا لغرض شرعي لا على وجه الغيبة والتنقص أو التشهير لحظ النفس وهواها.

(٢) " الثقات٧/٦٤٦ " .

(٣) " الفتاوى٢٨/٢٠٩ " .

(٤) " الفتاوى١١/١٦ " .

(٥) " الاستقامة١/٢٢١ " .

(٦) هذا مع بيان الخطأ، وعدم اتباعه عليه .

(٧) " الترمذي٥/٦٢٦ "، " الحاكم٣/١١٠ " .

(٨) " البخاري٣/١٠٩٥ "، " مسلم٤/١٩٤١ " .

الحدود"(١) .

* وعن عروة بن الزبير بن العوام_ رحمه الله_ أنه سبّ حسان بن ثابت_ رضي الله عنه_، فقالت له خالته المطهرة عائشة_ رضي الله عنها_ (وكان حسان ممّن زل يوم الإفك)_: " يا ابن أختي: دعه، فإنه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "(٢) .

فوهبت زلته لفضله_ رضي الله عنهما_ .

* وعن القاسم بن محمد_ رحمه الله_ أن رجلاً، قال: عجبتُ من عائشة حين كانت تصلي أربعاً في السفر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ركعتين ؟! .

فقال له القاسم بن محمد : " عليك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلَّ من الناس من لا يعاب "(٣) .

قال ابن عبد البر_ رحمه الله_ تعليقاً على هذا الأثر: [قول القاسم هذا في عائشة: يشبه قول سعيد بن المسيب حيث قال: " ليس من عالم، ولا شريف، ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، ومن كان فضله أكثر من نقصه: وهب نقصه لفضله "](٤) .

ويقول ابن تيمية_ رحمه الله_ في نفس المعنى: [وممّا يتعلق بهذا المعنى أن يُعلَم أن الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم إلى يوم القيامة_ أهل البيت وغيرهم_، قد يَحصل منه نوعٌ من الاجتهاد مقروناً بالظن، ونوع من الهوى الخفي: فيَحصل بذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه **وإن كان من أولياء الله المتقين**](٥) .

ويقول ابن القيم_ رحمه الله_ في الرجل الجليل من أهل الإسلام إنه : [قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذورٌ بل مأجور لاجتهاده: فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز **أن تُهدر مكانته، وإمامته، ومنزلته في قلوب المسلمين**](٦) .

ورحم الله ابن الأثير الجزري حيث قال: [إنما السيد من عُدت سقطاته، وأُخذت غلطاته، فهي الدنيا لا يكمل فيها شيء](٧) .

---

(١) "أحمد٦/١٨١"،"أبوداود٤/١٣٣"، " النسائي٤/٣١١،٣١٠"،" البيهقي٨/٢٦٧، ٨/٣٣٤"، "الدارقطني٣/٢٠٧ "، وهو حديث حسن، وانظر: " المجمع٤/١٤٦، ٦/٢٨٢ " .

(٢) " مسلم٤/ ١٩٣٣ " .

(٣) " التمهيد١١/١٧٠ " .

(٤) " المرجع السابق " .

(٥) " منهاج السنة النبوية٤/٥٤٣ " .

(٦) " إعلام الموقعين٣/٢٨٣ " .

(٧) ويروى نحوه عن الأحنف بن قيس، وانظر: " المستطرف للأبشيهي١/١٤٦ "، " رسائل الجاحظ "، " التذكرة الحمدونية " .

قلتُ: وقد قيل:

تريد مهذباً لا عيب فيه   وهل عودٌ يفوح بلا دخان

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [من قواعد الشرع، والحكمة_ أيضاً_: أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر: فإنه يحتمل منه ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية: خبث، والماء إذا بلغ قلتين: لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل: فإنه لا يحتمل أدنى خبث](١) .

ـ ومن اللطائف هنا قول شيخ الإسلام ابن تيمية في موسى_ عليه السلام_ حين ألقى الألواح، وجرّ بلحية أخيه، وفقأ عين ملك الموت: ولم يعتب عليه ربه: [فإنه قاوم فرعون أكبر أعداء الله تعالى، وتصدى له ولقومه، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة، وجاهد في الله أعداء الله أشدّ الجهاد، وكان شديد الغضب لربه: فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره، وذو النون لمّا لم يكن في هذا المقام: سجنه في بطن الحوت من غضبة، وقد جعل الله لكل شيء قدراً](٢) .

* وقد قال إمام الطائفة المنصورة صلى الله عليه وسلم: " إنّ المقسطين عند الله على منابر مِن نور عن يمينِ الرحمنِ عز وجل_ وكلتا يديه يمين_: الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولُوا "(٣) .

فالمؤمن مأمور بالقيام في جميع أقواله وأفعاله بالقسط_ وهو العدل_ أمراً مطلقاً، فالعدل رائده، والعدل دافعه: فلا تحمله المحبة على تزيين الباطل، والدفاع عنه في شخص من يحب، ولا تحمله الكراهية على رد الحق، والصد عنه في شخص من يكره، وإنما يدور مع العدل حيث دار ولو كان ذلك على حساب نفسه هو أو أقرب قريب وأحب حبيب .

ـ وفي بيان أن العدل: قيمة مطلقة، وأنه قيمة ذاته: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية_رحمه الله_:

[وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر ممّا تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم يشترك في إثم، ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة .

ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام ...

وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أُقيم أمر الدنيا بالعدل: قامت وإن لم يكن لصاحبها في الدين من خلاق، ومتى لم تقم بالعدل: لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به في الآخرة](٤) .

---

(١) " مفتاح دار السعادة ١/ ١٧٦ " .

(٢) ذكره عنه تلميذه البار ابن القيم في " مدارج السالكين٢/٤٥٦ " .

(٣) " مسلم٣/١٤٥٨ " .

(٤) " الاستقامة ٢ / ٢٤٧ ".

المطلب السابع

الحرص على الوحدة والائتلاف والبعد عن الفرقة والاختلاف

وهذا ليس فقط من ضوابط العمل الجماعي عند أهل الطائفة المنصورة بل هو من أصول الطائفة المنصورة، وأركان عملها بعد الاعتصام بالكتاب والسنة، وهو في نفس الوقت من أسباب نصرها، وظهورها على أعدائها .

* قال الله تعالى: { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } .

قال ابن كثير_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآية: [وقوله تعالى: { ولا تفرقوا }، أمرهم بالجماعة، ونهاهم عن الفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة في النهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع][1] .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [فإن الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة، فإن الفرقة: هلكة، والجماعة: نجاة، ورحم الله ابن المبارك حيث يقول:

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا   منه بعروته الوثقى لمن دانا][2] .

وقال عند تفسير قوله تعالى:{ ولا تفرقوا }: [ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا عباد الله إخواناً، فيكون ذلك منعاً لهم من التقاطع والتدابر][3] .

ـــ وقد ذمّ الله تعالى الفرقة غاية الذم، وبيّن آثارها، وعواقبها الوخيمة على أصحابها:

* فقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلى الله ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [الأنعام: ١٥٩] .

وهذه الآية ممّا يجب أن تقشعر له قلوب أهل الفرقة: الساعين فيها، الحريصين عليها: حيث نصّ تعالى على أن النبي صلى الله عليه وسلم متبرئ منهم: فهو صلى الله عليه وسلم ليس منهم في شئ ! .

ـ وقد بيّن تعالى بأتم عبارة وأوضحها: أن الفرقة في الدين بجعل الناس شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون: من دين المشركين الذين نُهينا عن مشابهتهم فيه .

* قال تعالى: { وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }

---

(١) " تفسير ابن كثير ٣٩٠/١ " .

(٢) " تفسير القرطبي١٥٩/٤ " .

(٣) " المرجع السابق " .

[الروم: ٣١_٣٢] .

ــ وقد بيّن تعالى_ كذلك_ أن التفرق والنزاع: سبب للفشل والهزيمة ولو كان هؤلاء الجند: هم الصحابة الكرام_ رضوان الله عليهم_، ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم: بين أظهرهم .

* قال تعالى: { وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ الله وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَالله ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران: ١٥٢] .

ولا شك أن غير الصحابة_ رضي الله عنهم_: أولى أن يشملهم هذا الوعيد عند حدوث سببه من التفرق والتنازع، فهو_ أي: كون التفرق والتنازع موجباً للفشل والهزيمة_: قانون كلي، وقاعدة مطردة .

* وقال تعالى: { وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا } [الأنفال: ٤٦] .

ـــ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله يَرضى لكم ثلاثاً، ويَسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه، ولا تُشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال "(١) .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد منكم بحبوحة الجنة: فليلزم الجماعة "(٢) .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " يد الله مع الجماعة "(٣) .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " الجماعة: رحمة، والفرقة: عذاب "(٤) .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد "(٥) .

ــ كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف، وحذّر منه، وبين أنه هلاك الأمم، ومن ذلك:

* ما رواه البخاري عن النزال بن سبره عن عبد الله بن مسعود_رضي الله عنه_، قال: " سمعت رجلاً قرأ

---

(١) مسلم .

(٢) صحيح: " الترمذي٤/٤٦٥ "، " النسائي الكبرى٥/٣٨٨ "، " المختارة١/٢٩٥ " عن عمر_ رضي الله عنه_ .

(٣) حسن: " الترمذي٤/٤٦٦ " عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_، وهو مروي عن عرفجة الأشجعي_رضي الله عنه_ كما في " صحيح ابن حبان١٠/٤٣٨ "، " الشعب للبيهقي٦/٦٦ "، وأصل حديث عرفجة عند " مسلم٣/١٤٧٩، ١٤٨٠ "، وانظر: " الاستيعاب٣/١٠٦٣ " .

(٤) حسن: " أحمد٤/٢٧٨، ٣٧٥ "، " مسند الشهاب١/٤٣ "، " السنة لابن أبي عاصم٢/٤٣٥ "، "الشعب٦/٥١٦ "، وانظر: " المجمع٨/١٨٢"، " الترغيب٢/٤٦ " عن النعمان بن بشير_ رضي الله عنه_ .

(٥) صحيح: " صحيح ابن خزيمة٣/١٩٥ "، " ابن حبان١٤/١٢٥ "، " المستدرك١/٢٠٤، ٥٨٢ "، "الترمذي٥/١٤٨"، " أحمد٤/١٣٠، ٢٠٢"، وغيرهم عن الحارث الأشعري_ رضي الله عنه_ .

آية سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكرت له ذلك، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: " كلاكما محسن، ولاتختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا"(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله وطيب ثراه_: [نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق لأن كلا القارئين كان محسناً فيما قرأه، وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا، فأفاد ذلك بشيئين:

أحدهما: تحريم الاختلاف في مثل هذا .

والثاني: الاعتبار بمن كان قبلنا، والحذر من مشابهتهم .

واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة الذي يورث الأهواء تجده من هذا الضرب، وهو: أن كل واحد من المختلفين مصيباً فيما يثبته أو في بعضه، مخطئاً في نفي ما عليه الآخر كما أن القارئين كل منهما كان مصيباً في القراءة بالحرف الذي علم، مخطئاً في نفي حرف غيره؛ فإن أكثر الجهل إنما يقع في النفي الذي هو الجحود والتكذيب لا في الإثبات لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه، ولهذا نُهيت الأمة أن تضرب آيات الله بعضها ببعض لأن مضمون الضرب: الإيمان بإحدى الآيتين، والكفر بالأخرى إذا اعتقد فيهما تضاداً إذ الضدان لا يجتمعان](٢) .

ـــــ وقد تواطأ السلف على الأمر بالوحدة والاجتماع والحث عليهما، والنهي عن الفرقة والنزاع والتحذير منهما، وكثر في ذلك كلامُهم، ومن ذلك:

* عن ابن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " يا أيها الناس عليكم بالطاعة، والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة، والطاعة: هو خير ممّا تستحبون في الفرقة "(٣) .

* ولما صلى عثمان بن عفان_ رضي الله عنه_ بمنى أربع ركعات باجتهاد منه_ رضي الله عنه_ وهو الإمام المطاع: قيل ذلك لعبد الله بن مسعود: فاسترجع، ثم قال: " صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ركعتين، وصليت مع أبي بكر_ رضي الله عنه_ بمنى ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ بمنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات: ركعتان متقبلتان " .

ثم صلى عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_ بعد ذلك **أربعاً**، فقيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعاً .

فقال_ رضي الله عنه_: " الخلاف: شر "(٤) .

---

(١) " البخاري٣/١٢٨٢ " .

(٢) " اقتضاء الصراط المستقيم/٣٥: ٣٦ " .

(٣) " تفسير الطبري٤/٣٢ " .

(٤) " أبو داود٢/١٩٩"، " البيهقي الكبرى٣/١٤٣ "، وهو في " مصنف عبد الرزاق٢/٥١٦ "، " البزار٥/٧١ "، " المعجم الأوسط٦/٣٦٨ "، " أبو يعلى٩/٢٥٦ " .

* وفي لفظ: " إني أكره الخلاف "[١] .

فرحم الله أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم: ما كان أفقههم، وأورعهم، وأحرصهم على الائتلاف، وجمع الكلمة .

* وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما_ أنه قال لسماك الحنفي: " يا حنفي: الجماعة، الجماعة، فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها، أما سمعت الله يقول: { واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا } "[٢] .

* وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ أيضاً_قال: " أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء، والخصومات في دين الله "[٣] .

* وعن قتادة_ رحمه الله_، قال: " إن الله عز وجل قد كره لكم الفرقة، وقدّم إليكم فيها، وحذركموها ونهاكم عنها، ورضي لكم السمع والطاعة، والألفة والجماعة، فارضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم "[٤] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [إن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليفَ القلوب، واجتماعَ الكلمة، وصلاحَ ذات البين، فإن الله يقول: { فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم }، ويقول: { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا }، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وأهل هذا الأصل: هم أهل الجماعة كما أن الخارجين عنه: هم أهل الفرقة][٥] .

ويقول_ رحمه الله_: [وهذا الأصل العظيم، وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً وألا يتفرق: هو من أعظم أصول الإسلام، وممّا عظمت وصية الله به في كتابه، وممّا عظم ذمُّه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، وممّا عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة أو خاصة مثل قوله صلى الله عليه وسلم: " عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة " ...

وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة بل وفي غيرها: هو التفرق والاختلاف، فإنه وقع بين أمرائها، وعلمائها من ملوكها، ومشايخها، وغيرهم من ذلك ما الله به عليم][٦] .

وقال_ أيضاً_ رحمه الله_: [فمن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: الأمر بالائتلاف والاجتماع، والنهي عن الاختلاف والفرقة][٧] .

---

(١) " البيهقي٣/١٤٤ " .

(٢) " تفسير القرطبي٤/١٦٤ " .

(٣) " تفسير الطبري٤/٣٩، ٥/٣٣٠، ٧/٢٢٩، ٨/٨٨ " .

(٤) " المرجع السابق٤/٣٢ " .

(٥) " الفتاوى٢٨/٥١ " .

(٦) " الفتاوى٢٢/٣٦٠ " .

(٧) " الفتاوى٣/٤٢١: ٤٢٢ " .

وقال_ رحمه الله_ مبيناً نتيجة الاختلاف والتفرق وأثرهما مقارنة بالوحدة والاجتماع:

[ونتيجة الجماعة: رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه، ونتيجة الفرقة: عذاب الله، ولعنته، وسواد الوجوه، وبراءة الرسول منهم][١] .

وقال_ كذلك_: [وهذا التفريق الذي حصل من الأمة: علمائها، ومشائخها، وأمرائها، وكبرائها: **هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها**، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله][٢] .

وقال_ أيضاً_: [وإذا تفرق القوم: فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا: صلحوا وملكوا، فإن الجماعة: رحمة، والفرقة: عذاب][٣] .

ـــــ ومن ثم، كان الحرص على جمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم، والعمل على إزالة موانع ذلك من أسباب الفرقة والاختلاف: من أعظم أعمال البر، وأزكاها عند الله تعالى .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [إن السعي والدعوة إلى جمع المسلمين وإلى إصلاح ذات بينهم: هو أفضل الأعمال، وإنه أفضل من استغراق الزمان بالصوم والصلاة، ومن أعظم وأجل الجهـــاد في سبيل الله .

وعلى المسلمين أن لا يجعلوا الاختلاف بينهم في الأقوال والمذاهب، وفي الملك والسياسة: حائلاً يحول بينهم وبين الأخوة الدينية، والرابطة الإيمانية بل تجعل الخلافات كلها، والأغراض الجزئية تبعاً لهذا الأصل الكبير][٤] .

ـــــ وأخيراً، فإن الحرص على الوحدة والائتلاف، والبعد عن الفرقة والاختلاف: هو مقتضى ما أمر الشرع به، وحث عليه، وجعله الدعامة الأساسية_ بعد تحقيق التوحيد والإيمان_ التي يقوم عليه البناء الحقيقي لهذا الدين_ علماً وعملاً، دعوةً وجهاداً_ ألا وهو: الولاء الإيماني إذ الولاء الإيماني: لحمة الجماعة الواحدة وسداها، والجماعة الواحدة ذات الولاء الإيماني: هي الترجمة العملية، والتجسيد الواقعي الحي لهذا الولاء، فلا جماعة بغير ولاء إيماني، ولا ولاء إيماني حقيقي بغير جماعة، وتأمّل قوله تعالى: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } [الأنفال: ٧٣] .

تدرك أن هذه الجماعة الواحدة **القائمة على الولاء الإيماني:** هي المقوم العملي الأول_ بعد تحقيق التوحيد والإيمان_ في الوقوف أمام التجمع الجاهلي ذي الولاء الكفري، ولذا كانت المقوم الأول لدفع الفتنة_ بأنواعها المختلفة_، والفساد الكبير .

وعند التفرق والاختلاف لا يتحقق الولاء الإيماني بين أهله ضرورة، ومن ثم: يتوزع المسلمون شيعاً وأحزاباً، وتنتهبهم الفرقة: فتختفي جماعتهم الواحدة أمام التجمع الجاهلي: فتكون الفتنة، ويكون الفساد الكبير .

---

(١) " الفتاوى١/١٧ " .

(٢) " الفتاوى٣/٤٢١ " .

(٣) " الفتاوى٣/٤٢١ " .

(٤) " وجوب التعاون بين المسلمين/٥ " .

قال سيد_ رحمه الله_: [المسلمون الذين لا يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوي الحركي ذي الولاء الواحد، والقيادة الواحدة: يتحملون أمام الله_ فوق ما يتحملون في حياتهم ذاتها_ تبعة تلك الفتنة في الأرض، وتبعة هذا الفساد الكبير][(١)] .

(١) " ظلال القرآن/١٥٦٠ " .

ـــــ **مسألة هامة:**

مفهوم الوحدة والاجتماع عند الطائفة المنصورة .

الوحدة عند الطائفة المنصورة وسيلة وليست غاية، بمعنى أنها مطلوبة من حيث كونها وسيلة لإقامة الدين لا من حيث ذاتها إذ الاجتماع المأمور به شرعاً: هو الاجتماع على الحق لا على الباطل، فهو اجتماع أديان لا اجتماع أبدان .

* قال تعالى: { وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر: ١ــ٣] .

فالأمر: هو التواصي بالحق_ والحق مطلقاً هو: الكتاب والسنة_، وهذا ممّا عُلق عليه الاستثناء من الخسران الشامل لجنس الإنسان، فاجتماع لا يقوم على التواصي بالحق_ كتاباً وسنة_: أهله في خسران بنص الآية الكريمة الذي لا يقبل التأويل .

كما أن اجتماعاً هذا شأنه_ أي: لا يقوم على التواصي بالحق: دعوةً، وعملاً_: مدعاة لتخلف نصر الله، وتوفيقه إذ نصر الله، وتوفيقه مرتبط بالقيام بالحق، والعمل به كما قال تعالى: { إن تنصروا الله: ينصركم } .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فلا تكون طاعة لله ورحمته بفعلٍ لم يأمر الله به من: اعتقاد أو قول أو عمل، **فلو كان القول أو العمل الذي اجتمعوا عليه لم يأمر الله به: لم يكن ذلك طاعة لله، ولا سبباً لرحمته**][(١)] .

وقال_ كذلك_: [وهذا التفريق الذي حصل من الأمة_ علمائها، ومشايخها، وأمرائها، وكبرائها_: هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، **وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله**][(٢)] .

ـــــ وقد أخبرنا تعالى أن ترك بعض الحق: هو عين موجب التفرق بل موجب العداوة والبغضاء .

* قال تعالى: { وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً ممّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمْ الله بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [المائدة: ١٤] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: [فأخبر أن نسيانهم حظاً ممّا ذكروا به، وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به: كان سبباً لإغراء العداوة، والبغضاء بينهم .

وهكذا هو الواقع فى أهل ملتنا مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها، وكثير من فروعه من

---

(١) " الفتاوى١/١٧ " .

(٢) " الفتاوى٣/٤٢١ " .

أهل الأصول، والفروع](١) .

ويقول_ أيضاً_: [فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به: وقعت بينهم العداوة، والبغضاء](٢) .

* وقد قال تعالى_ أيضا_: { وإن هذا أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون } [المؤمنون: ٥٢] .

فأمر تعالى منعاً للاختلاف، وعصمة منه: بتقواه، وتقواه إنما هي: امتثال أمره، واجتناب نهيه .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ أُمَّةً وَاحِدَةً }: متفقة على دين واحد، وربكم واحد، { فَاتَّقُونِ }، بامتثال أوامري، واجتناب زواجري ...

{ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا }، أي: تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء { أَمْرَهُمْ }، أي: دينهم، { بَيْنَهُمْ زُبُراً }، أي: قطعاً، { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ }، أي: بما عندهم من العلم والدين، { فَرِحُونَ } يزعمون أنهم المحقون وغيرهم على غير الحق **مع أن المحق منهم: من كان على طريق الرسل**](٣) .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ أيضاً_ في قوله تعالى: { ولا تكونوا من المشركين مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [الروم: ٣١_ ٣٢]، قال:

[وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم، وتفرقهم فرقاً كل فريق يتعصب لما معه من حق، وباطل: فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفريق بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد](٤).

ـ فتبين بذلك أن جمع الحق، والعمل به: هو موجب الاتحاد والاجتماع كما أنه في الوقت نفسه: العاصم من التفرق والنزاع .

ـ وإذا كان الاجتماع على التحقيق هو اجتماع القلوب ألفةً، ومحبةً، فالقلوب: لا يجمعها، ولا يألف بينها إلا الله، والله سبحانه وتعالى لا يألف بين القلوب، ولا يجمعها إلا إذا كانت قائمة بالحق: دعوةً إليه، وعملاً به .

* قال تعالى: { وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ الله هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

[آل عمران: ٦٢_ ٦٣] .

وإنما ألف الله بين قلوبهم وجمع: لاجتماعهم على الحق وقيامهم به، والجزاء من جنس العمل، فلما اجتمعوا على الحق: جمع الله بينهم .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [ولذلك قال: { واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا }، فبين أن التأليف إنما

---

(١) " الفتاوى١/١٤: ١٥ " .

(٢) " الفتاوى٣/٤٢١ " .

(٣) " تفسير السعدي/٣٩٦ " .

(٤) " تفسير السعدي/٤٦٦ " .

يحصل عند الائتلاف على التعلق بمعنى واحد، وأما إذا تعلقت كل شيعة بحبل غير ما تعلقت به الأخرى: فلا بد من التفرق، وهو معنى قوله تعالى: { وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله }](١) .

* وفي الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير_ رضي الله عنه_، قال صلى الله عليه وسلم: " لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم "(٢) .

* وفي رواية: قال النعمان بن بشير_ رضي الله عنه_ أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال: " أقيموا صفوفكم ثلاثاً، والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم " .

قال: " فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه، ومنكبه بمنكب صاحبه "(٣) .

* ومن حديث البراء بن عازب_ رضي الله عنه_، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تختلف صفوفكم: فتختلف قلوبكم "(٤) .

وقد ترجم إمام الأئمة ابن خزيمة_ رحمه الله_ لهذا الحديث بقوله: " باب: التغليظ في ترك تسوية الصفوف تخوفاً لمخالفة الرب عز وجل بين القلوب "(٥) .

قال النووي_ رحمه الله_ في قوله صلى الله عليه وسلم: " أو ليخلفن الله بين وجوهكم " في حديث النعمان بين بشير_ رضي الله عنه_ عند الشيخين:

[قيل: معناه يمسخها، ويحولها عن صورها لقوله صلى الله عليه وسلم: " يجعل الله تعالى صورته صورة حمار "، وقيل: يغير صفاتها، والأظهر_ والله أعلم_: أن معناه يوقع بينكم العداوة، والبغضاء، واختلاف القلوب كما يقال: تغير وجه فلان عليّ، أي: ظهر لي من وجهه كراهة لي، وتغير قلبه علي لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم، واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن](٦) .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_ قول النووي السابق ثم علق عليه بقوله:

[ويؤيده رواية أبي داود، وغيره بلفظ: " أو ليخالفن الله بين قلوبكم "](٧) .

فتأمّل كيف أن هذه المخالفة البسيطة في نظر الكثيرين: موجبة لتنافر القلوب، وتناكرها ممّا يُؤذن بالاختلاف

---

(١) " الاعتصام٢/٤٠٩ " .

(٢) " صحيح البخاري١/٢٥٣ "، " مسلم١/٣٢٤ " .

(٣) " صحيح ابن حبان٥/٥٤٨: ٥٤٩ "، " أبو داود١/١٧٨ "، " الدارقطني١/٢٨٢ " .

(٤) " صحيح ابن خزيمة٣/٢٤ "، " ابن حبان٥/٥٣٠ "، " المستدرك١/٧٦٥ "، " المجتبى٢/٨٩ " .

(٥) " شرح مسلم٤/١٥٧ " .

(٦) " صحيح ابن خزيمة٣/٢٤ " .

(٧) " فتح الباري٢/٢٠٧ " .

والفرقة المؤذنَيْن بالعداوة، والبغضاء، والله المستعان .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فظهر أن سبب الإجتماع والألفة: **جمع الدين والعمل به كله**، وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما أمر به باطناً وظاهراً، وسبب الفرقة: ترك حظ ممّا أُمِرَ العبادُ به، والبغي بينهم](١) .

وقال_ أيضاً_ رحمه الله_: [وأما الحقوق العامة، فالناس نوعان: رعاة، ورعية، فحقوق الرعاة: مناصحتهم، وحقوق الرعية: لزوم جماعتهم، فإن مصلحتهم لا تتم إلا باجتماعهم وهم لا يجتمعون على ضلالة بل مصلحة دينهم ودنياهم **في اجتماعهم، واعتصامهم بحبل الله**](٢) .

ـــــ وقد بيّن الشرع أن الاجتماع وسيلة للقيام بالدين لا غاية يوقف عندها مع ضياع الدين وذهابه:

* قال تعالى { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } .

فأمر تعالى أولاً بالاعتصام بالكتاب والسنة ثم نهى بعد ذلك عن التفرق: فعُلم أن التفرق المنهي عنه إنما هو التفرق في إقامة الدين من أهله المعتصمين بحبل الله: كتاباً وسنة .

قال ابن جرير_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآية السابقة: [يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع **على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله**](٣) .

وقال_ رحمه الله_ أيضاً_ في قوله تعالى: { ولا تفرقوا }: [يعني جل ثناؤه بقوله: { ولا تفرقوا }، ولا تتفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتابه من الائتلاف والاجتماع **على طاعته، وطاعة رسوله، والانتهاء إلى أمره**](٤) .

وقال الشوكاني_ رحمه الله_ في نفس الآية: [أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا **على التمسك بدين الإسلام**](٥) .

فالأمر أولاً: هو أمر تمسك بالكتاب، والسنة ثم الاجتماع على ذلك وعدم التفرق فيه، (فإن القرآن يأمر بدين الإسلام، وذلك هو عهده وأمره وطاعته، والاعتصامُ به جميعاً إنما يكون في الجماعة)(٦) .

وإنما ذمّ التفرق والاختلاف أساساً لأن (التفرق والاختلاف يقوم فيه من أسباب الشر، والفساد، **وتعطيل**

---

(١) " فتاوى ابن تيمية١/١٧ " .

(٢) " فتاوى ابن تيمية١/١٨ " .

(٣) " تفسير الطبري٤/٣١ "

(٤) " تفسير الطبري٤/٣٢ " .

(٥) " فتح القدير ١/٣٦٧ " .

(٦) " منهاج السنة٥/١٣٤ " .

الأحكام ما يعلمه من يكون من أهل العلم العارفين)[1] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه، وسنة نبيه، والرجوع إليهما عند الاختلاف، **وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة: اعتقاداً، وعملاً، وذلك: سبب اتفاق الكلمة، وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا، والدين، والسلامة من الاختلاف**][2] .

ــ وعليه؛ فالوحدة المطلوبة[3] هي الوحدة على الحق_ ما كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه_ للقيام بهذا الحق والتمكين له، وهو ما صرحت به الآية بقوله تعالى: { واعتصموا بحبل الله جميعاً }: فنص تعالى على أن الاعتصام إنما هو بحبله: كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

* وقد قال تعالى_ أيضاً_: { شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ الله يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [الشورى: ١٣] .

فأمر أولاً بإقامة الدين: { أَنْ أَقِيمُوا **الدِّينَ** }، وأكّد ذلك بقوله: { وَلا تَتَفَرَّقُوا **فِيهِ** }، والمراد: (أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين: أصوله، وفروعه تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم، والعدوان .

{ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ }، أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين، وفروعه)[4] .

ــ وبنحو هاتين الآيتين السابقتين من الأمر أولاً بإقامة الدين:

* جاء قوله تعالى: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [الروم: ٣٠_٣٢] .

وفي هذه الآيات جميعاً: جاء النهي عن التفرق بعد الأمر بإقامة الدين، فإقامة الدين_ بالاعتصام بالكتاب والسنة_: الأصل، والغاية، وترك التفرق: الفرع، والوسيلة .

والوقوف عند الفرع، والوسيلة مع ضياع الأصل، والغاية: عمل معكوس، وجهد ضائع، وسعي في غير محل: هيهات أن يؤتي ثمرته .

---

(١) " الفتاوى٤٧٧/٢٧ " .

(٢) " تفسير القرطبي١٦٤/٤ " .

(٣) هذه وحدة نوعية خاصة، وهي الأصل والأساس الذي يجب أن يُسعى إليه، ويُرد الناس له إلا أن هناك دائرة أوسع تحكمها قواعد المصالح والمفاسد الشرعية .

(٤) " تفسير السعدي/٥٥٣ " .

ـ وتأمّل بعين البصر، والبصيرة: قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، **وأطيعوا الله ورسوله** ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين }

[الأنفال: ٤٥_٤٦].

فأمر تعالى_ قبل النهي عن التنازع_ بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

يقول سيد_ رحمه الله_ في كلام جد نفيس: [وأما طاعة الله ورسوله: فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداءً، فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة: { ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم}...

فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجّه الآراء والأفكار، **فإذا استسلم الناس لله ورسوله: انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم** مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة][(١)] .

ـــ ورغم ما جاء من الأمر المؤكد بلزوم جماعة المسلمين، والوعيد الشديد لمن فارقها: فقد جاء من حديث عبادة بن الصامت_ رضي الله عنه_ المتفق عليه، قال:

" دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، **وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان** "[(٢)] .

* وعن عوف بن مالك الأشجعي_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" خيار أئمتكم: من تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم .

قلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك .

قال: لا، **ما أقاموا لكم الصلاة** "[(٣)] .

فهذان الحديثان_ بالإضافة لما سبق_ دالان_ الأول منطوقاً، والثاني مفهوماً_ على أنه إذا عاد الفرع على الأصل بالإبطال، وكانت الوسيلة غير محققة للغاية: فلا وحدة، ولا اجتماع .

* ونحو ذلك: ما أخرجه الإمام البخاري_ رحمه الله_ عن معاوية_ رضي الله عنه_، قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه

---

(١) " في ظلال القرآن/١٥٢٨: ١٥٢٩ " .

(٢) " البخاري٦/٢٥٨٨ "، " مسلم٣/١٤٧٠ " .

(٣) " أحمد٦/٢٤ "، " ابن حبان١٠/٤٤٩ "، " الكبير١٨/٦٢: ٦٣ " .

ما أقاموا الدين"[1] .

ـ فأساس الوحدة: الاجتماع على عواصم الدين، ومحكمات الشريعة، وقواعد الملة، والجمل الثابتة فيها دون الاجتماع على جزئيات أو خصوصيات يُبعّض بها الدين، ويُختزل فيها .

فالجامع_ بإذن الله_: هو الحق، والمفرّق: هو الباطل أياً كانت صورتة، وقد أبدع البحتري حين قال:

إِذا ما الجُرحُ رُمَّ عَلى فَسادٍ   تَبَيَّنَ فيهِ تَفريطُ الطَبيبِ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [كون الأستاذ يريد أن يوافقه تلميذه على ما يريد: فيوالي من يواليه، ويُعادي من يُعاديه مطلقاً، وهذا حرام ليس لأحد أن يأمر به أحداً، ولا يجيب عليه أحد بل **تجمعهم السنة، وتفرقهم البدعة، يجمعهم فعل ما أمر الله به ورسوله، وتفرق بينهم معصية الله ورسوله**][2] .

ـــــ وممّا يوضح ما سبق ويؤكده: أن " الجماعة " المأمور بها في الشرع وإن كان لها عدة معان إلا أن هذه المعاني المتعددة تدور كلها حول الحق وأهله المجتمعين عليه .

* وقد مر معنا قوله تعالى: { واعتصموا بحبل الله جميعاً } .

* كما مر معنا_ كذلك_: قوله صلى الله عليه وسلم: " وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ... " الحديث .

* كما قال صلى الله عليه وسلم: " إنما هلك من كان قبلكم: باختلافهم **في الكتاب** "[3].

* وقال صلى الله عليه وسلم في وصف الفرقة الناجية " الجماعة ": " من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي "[4] .

قال أبو شامة_ رحمه الله_: [حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد به: لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولا نظر إلى كثرة أهل البدع بعدهم .

قال عمرو بن ميمون الأودي: " صحبت معاذاً باليمن، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام ثم صحبت بعده أفقه الناس: عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_، فسمعته يقول: عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة، ثم سمعته يوماً من الأيام وهو يقول: سَيَلِي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها، فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة .

قلت: يا أصحاب محمد، ما أدري: ما تحدثونا ؟ .

قال: وما ذاك ؟ .

---

(١) " البخاري٣/١٢٨٩ " .

(٢) " الفتاوى٢٨/١٩ " .

(٣) " مسلم٤/٢٠٥٣ " .

(٤) سبق تخريجه .

قلت: تأمرني بالجماعة وتحضّني عليها، ثم تقول صَلِّ الصلاة وحدك، وهي الفريضة، وصل مع الجماعة وهي نافلة ؟! .

قال: يا عمرو بن ميمون، قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية !، تدري ما الجماعة ؟ .

قلت: لا .

قال: إن جمهور الجماعة: الذين فارقوا الجماعة؛ الجماعة: ما وافق الحق وإن كنت وحدك " .

وفي طريق أخرى: " فضرب على فخذي، وقال: " ويحك، إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة: ما وافق طاعة الله عز وجل " .

قال نعيم بن حماد: " يعني إذا فسدت الجماعة: فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ "][١] .

* وقال أبو عيسى الترمذي_ رحمه الله_ في سننه: " و تفسير الجماعة عند أهل العلم: هم أهل الفقه، والعلم، والحديث "[٢] .

* وقال الإمام البربهاري_ رحمه الله_: [بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته السنة، وأوضحها لأصحابه وهم: الجماعة، وهم: السواد الأعظم، والسواد الأعظم: الحق وأهله](٣) .

قال ابن حبان_ رحمه الله_:

[الأمر بالجماعة بلفظ العموم، والمراد منه الخاص لأن الجماعة: هي إجماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن لزم ما كانوا عليه، وشذّ عن من بعدهم: لم يكن بشاق للجماعة، ولا مفارق لها، ومن شذّ عنهم، وتبع من بعدهم: كان شاقاً للجماعة، والجماعة بعد الصحابة: هم أقوام اجتمع فيهم الدين، والعقل، والعلم، ولزموا ترك الهوى فيما هم فيه وإن قلت أعدادهم لا أوباش الناس ورعاعهم وإن كثروا][٤] .

ــ والأقوال في هذا المعنى: كثيرة، وهذا ظاهر في أن الاجتماع المأمور به: هو الاجتماع على الحق بغض النظر عن العدد والعدة، وأن الاجتماع على غير الحق: مردود بل لا قيمة له وإن كثر أهلُه وأنصارُه .

وقد عقد الإمام البخاري_ رحمه الله_ باباً في كتاب " الاعتصام " من صحيحه، فقال: " باب: قول الله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا }، وما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم "[٥] .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [والوسط: العدل ... لأن أهل الجهل ليسوا عُدولاً، وكذلك أهل البدع،

---

(١) " الباعث على إنكار البدع والحوادث/٢٢ " .

(٢) " سنن الترمذي٤/٤٦٦ " .

(٣) " شرح السنة/٢٢ " .

(٤) " صحيح ابن حبان١٤/١٢٧ " .

(٥) " صحيح البخاري٦/٢٦٧٥ " .

فعُرف أن المراد بالوصف المذكور: أهل السنة والجماعة، وهم أهل العلم الشرعي، ومَن سواهم ولو نسب إلى العلم: فهي نسبة صورية لا حقيقية][1] .

وقد ساق الإمام البخاري_ رحمه الله_ هذه الآية: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } في كتابه " خلق أفعال العباد"، ثم قال: [هم الطائفة التي قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحق لا يضرُّهم مَن خذلهم "][2] .

---

(١) " فتح الباري١٣/٣١٦ " .

(٢) " خلق أفعال العباد/٦٠ " .

الباب الثاني

الصفة الثانية

أنها على الحق

ـــــ تمهيــد:

* عن ثوبان_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين **على الحق** لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك "(١) .

* وعن جابر بن عبد الله_ رضي الله عنه_، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون **على الحق** ظاهرين إلى يوم القيامة "(٢) .

* وعن عمران بن حصين_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون **على الحق**، ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال "(٣) .

فصرّحت الأحاديث بأن هذه الطائفة المنصورة " على الحق "، ووصف الطائفة المنصورة بأنها على الحق: هو وصف مجمل(٤) لحال هذه الطائفة، فهي على الحق في دينها: علماً وعملاً، وهذا الوصف ممّا يَقضي لها على مخالفيها، ومن ثم: لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم في وصف الطائفة المنصورة: " **على** الحق ": دلالة على شدة تمسك هذه الطائفة بـــ" الحق "، فهي غير متذبذبة في " الحق " بل متمكنة منه، مستقرة عليه، ثابتة فيه، وهو ما يفيده لفظ: " على "، وتؤكده باقي صفات الطائفة المنصورة .

ـــــ وقد جعل الله سبحانه وتعالى فلاح العباد، ونجاتهم في الدنيا، والآخرة محصوراً في معرفة الحق، والعمل به، وبقدر نصيب العبد من تحقيق هذين الأصلين_معرفة الحق، والعمل به_: يكون نصيبه من

---

(١) " مسلم٣/١٥٢٣ " .

(٢) " مسلم١/١٣٧، ٣/١٥٢٤ " .

(٣) " المستدرك٢/٨١، ٤/٤٩٧ "، " أبو داود٣/٤ "، " أحمد٤/٤٣٧ "، " المعجم الكبير١٨/١١٦ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/١١١".

(٤) ومعلوم أن هذا الوصف يستلزم ما ذكرناه، وما سنذكره_ إن شاء الله_ من صفات عن الطائفة المنصورة بل ويستلزم من الصفات غير ما ذكرنا في هذه الرسالة ممّا يدخل في وصفها بأنها " على الحق " .

الفلاح، والنجاة في الدنيا والآخرة، وبقدر بعده عن تحقيق هذين الأصلين: يكون نصيبه من الخسران في الدنيا، والآخرة إذ الخسران: عدم معرفة الحق أو عدم العمل به .

ولذا جعل تعالى_ بمنه، وكرمه، ولطيف صنعه_: ديدن المؤمنين، وشغلهم الشاغل طلبَ تحقيق هذين الأصلين فيما يرددونه في اليوم والليلة عدة مرات من طلب هداية الصراط المستقيم كما في سورة الفاتحة إذ الصراط المستقيم بأجمع قول وأدقه: معرفة الحق، والعمل به .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسيره لأم الكتاب:

[قال تعالى: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ }، أي: دلنا، وأرشدنا، ووفقنا إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، **وهو: معرفة الحق، والعمل به**، فاهدنا إلى الصراط، واهدنا في الصراط؛ فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط: تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً، وعملاً .

فهذا الدعاء: من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك .

وهذا الصراط المستقيم: هو { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، {غَيْرِ } صراط { الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } الذين **عرفوا الحق وتركوه** كاليهود ونحوهم، و { لا } صراط { الضَّالِّينَ} الذين **تركوا الحق على جهل، وضلال** كالنصارى، ونحوهم .

ثم قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_:

فهذه السورة على إيجازها قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن ...

بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع، والضلال في قوله: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } لأنه معرفة الحق، والعمل به، وكل مبتدع، وضال: فهو مخالف لذلك][(١)] .

ـ فعُلم أن معرفة الحق، والعمل به: هو الصراط المستقيم، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين .

وأن ترك العمل بالحق بعد معرفته: صراط المغضوب عليهم .

وأن ترك العلم بالحق، والعمل على جهل: صراط الضالّين .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [صراط { المغضوب عليهم }: وهم الذين فسدت إرادتهم: فعلموا الحق، وعدلوا عنه، { ولا } صراط { الضالّين }: وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة، لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بـــ { لا }: ليدل على أن ثم مسلكين، قاصدين، وهما: طريقة اليهود، والنصارى ...

إنما جيء بـــ{ لا }: لتأكيد النفي لئلا يتوهم أنه معطوف على { الذين أنعمت عليهم }، والفرق بين الطريقتين ليجتنب كل واحد منهما، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على: **العلم بالحق، والعمل به**، واليهود: فقدوا

---

(١) " تفسير السعدي/٥ " .

العمل، والنصارى: فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى لأن من علم وترك: استحق الغضب بخلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه وهو اتباع الحق: ضلوا .

وكل من اليهود والنصارى: ضال، مغضوب عليه لكن أخص أوصاف اليهود: الغضب كما قال تعالى عنهم: { من لعنه الله وغضب عليه }، وأخص أوصاف النصارى: الضلال كما قال تعالى عنهم: { قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل }](١) .

* وقال تعالى: { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: { قُلْ } للناس: { هَذِهِ سَبِيلِي}،أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله، وإلى دار كرامته **المتضمنة: للعلم بالحق، والعمل به**](٢) .

* وقال تعالى في وصف عباده المصطفين، الأخيار: { والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً } [الفرقان: ٧٣] .

قال قتادة_ رحمه الله_: " يقول: لم يصموا عن الحق، ولم يعموا فيه، فهم_ والله_ قومٌ عقلوا عن الحق، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه "(٣) .

* وقال تعالى: { والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر } [العصر: ١_٣] .

فحكم الله تعالى_ وهو خير الحاكمين_ بالخسران لجنس الإنسان، ولم يستثن من هذا الحكم إلا من عرف الحق، وعمل به، وهم: { الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر } .

قال الإمام الشافعي_ رحمه الله_:" لو تدبر الناس هذه السورة: لكفتهم "(٤) .

* وقد قال تعالى في ذكر الطائفة المنصورة: { وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون }

[الأعراف: ١٨١] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقول تعالى: { وممن خلقنا }، أي: بعض الأمم { أمة }: قائمة بالحق قولاً، وعملاً، { يهدون بالحق }: يقولونه، ويدعون إليه، { وبه يعدلون }: يعملون، ويقضون ...

---

(١) " تفسير ابن كثير ٣٠/١ " .

(٢) " تفسير السعدي/٢٨٢ " .

(٣) " تفسير ابن كثير ٣٣٠/٣ " .

(٤) " المرجع السابق ٥٤٨/٤ " .

وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة " .

وفي رواية: " حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك "، وفي رواية: " وهم بالشام "](١) .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: ومن جملة من خلقنا: أمة فاضلة، كاملة في نفسها، مكملة لغيرها: يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق: فيعلمون الحق، ويعملون به، ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به .

{ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال، والدماء، والحقوق، والمقالات، وغير ذلك .

وهؤلاء أئمة الهدى، ومصابيح الدجا، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر .

وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم: مراتب متفاوتة: كلٌ بحسب حاله وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم](٢) .

فتبين بما سبق أن النجاة في الدنيا، والآخرة: محصورة في معرفة الحق ثم العمل به .

ـــ والحق: هو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وبلّغه عن ربه سبحانه وتعالى: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً .

* قال الله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيم } [البقرة: ١١٩] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

[فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور؛ الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة، فالأول والثاني: قد دخلا في قوله: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ }، والثالث في قوله: { بِالْحَقِّ } ...

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة](٣) .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر: ٢٤] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق ...، وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم، والصراط المستقيم: حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم: حق، وصدق](٤) .

---

(١) " نفس المرجع٢/٢٧٠ " .

(٢) " تفسير السعدي/٢٠٧ " .

(٣) " تفسير السعدي/٢٤ " .

(٤) " تفسير السعدي/٥٠١ " .

* وقال تعالى: { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } [محمد: ٢_ ٣] .

قال السعدي_ رحمه الله_: [{ اتبعوا الحق } الذي هو الصدق، واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم...](١).

فـ" الحق " الذي عليه الطائفة المنصورة: هو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عند ربه من الكتاب والسنة: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً، وهو ما كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [والحق: هو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، وما جاء به علماً، وعملاً](٢) .

ـــ (معالم الحق عند الطائفة المنصورة) .

ولهذا " الحق " عند أهل الطائفة المنصورة معالم يعصمهم تلمسُها، والتمسُّك بها_ بإذن الله_ من الوقوع في الباطل قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات، ليتكلم بعلم، وعدل ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم](٣) .

وأهل الطائفة المنصورة من أبعد الناس عن الفساد، ومن ثم: لديهم أصول كلية يعرفون بها الحق: فلا يختلط بضده، وهم في ذلك يَردّون إلي تلك الأصول: المسائلَ، والوقائع، والأحداث، وغير ذلك من صور الجزئيات: فيهتدون، ولا يضلون، وينأون_ بفضل الله ورحمته_ عن الجهل، والكذب، والظلم .

ومن تلك الأصول الكلية عند أهل الطائفة المنصورة: **معالم الحق عندهم** إذ للحق عندهم معالم كما ذكرنا: يعصمهم تلمسُها، والتمسكُ بها_ بإذن الله_ من الوقوع في الباطل .

وهذا الباب معقود_ أساساً_ للكلام عن أهم هذه المعالم، وهو ما سوف نتناوله_ إن شاء الله_ في الفصول التالية، فنقول:

---

(١) " تفسير السعدي/٥٧٧ " .

(٢) " مدارج السالكين١/٥٨ " .

(٣) " الفتاوى١٩/٢٠٣ " .

الفصل الأول

المَعْلَمُ الأول

الحق واضح ظاهر

فالحق عند الطائفة المنصورة: أبلج، أي: " ظاهر، واضح "، والباطل: لجلج، أي: " مختلط "، وهذا لمن أتى الحقَ من بابه، وطلبه من مظانه، واتبع سبيل المؤمنين، فالحق في مجمله: ظاهر غاية في الظهور والوضوح، خاصة: مسائله الكبار التي هي: عماد الإسلام وعصامه، والتي يحتاج إليه الناس ضرورة: فلا قيام لمصالح دينهم ودنياهم إلا بها، فهذه: قد بينها الشرع وأوضحها بأتم بيان، وأظهر حجة وبرهان، وقد قيل: " ما أبين الحق لذي عينين "(١) .

ـــــ وكون الحق: واضحاً، ظاهراً عند الطائفة المنصورة أمر مقرر من وجوه:

ـــــ الوجه الأول:

أن الله سبحانه وتعالى بين أنه قد أقام حجته على عباده بالرسل، فمن بلغته الحجة الرسالية: فقد أقيمت عليه الحجة، وانقطع في حقه العذر، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ومنها:

* قال تعالى: { رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً } [النساء: ١٦٥] .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [{ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل }: يقول أرسلت رسلي إلى عبادي مبشرين ومنذرين لئلا يحتج من كفر بي، وعَبدَ الأنداد من دوني أو ضلّ عن سبيلي بأن يقول إن أردت

---

(١) " حلية الأولياء٨/١٠٢ " .

عقابه: { لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى }: فقطع حجة كل مبطل ألحد في توحيده، وخالف أمره بجميع معاني الحجج القاطعة عذره إعذاراً منه بذلك إليهم لتكون لله الحجة البالغة عليهم، وعلى جميع خلقه][(١)] .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_: [قوله: { لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً }، أي: أنه تعالى أنزل كتبه، وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبين ما يحبه ويرضاه ممّا يكرهه ويأباه لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى: { ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى }، وكذا قوله: { ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم } الآية، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل من أجل ذلك مدح نفسه، **ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين** "[(٢)]، وفي لفظ آخر: " **من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه** "[(٣)]][(٤)] .

* وقال تعالى: { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ الله وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ } [الأنعام: ١٥٧] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ }، أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجتكم، وخشية { أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا }، أي: اليهود، والنصارى، { وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ }، أي: تقولون: لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم، ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً لم ينزل من السماء كتاب: أجمع، ولا أوضح، ولا أبين منه .

{ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ }، أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا بعدم كمالها وتمامها، فحصل لكم بكتابكم: أصل الهداية، وكمالها، ولهذا قال: { فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ }، وهذا اسم جنس: يدخل فيه كل ما يبين الحق، { وَهُدًى } من الضلالة، { وَرَحْمَةٌ }، أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم .

فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه، والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً، وكذب به: فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ الله وَصَدَفَ عَنْهَا }، أي: أعرض، ونأى بجانبه، { سَنَجْزِي الَّذِينَ

---

(١) " تفسير الطبري٦/٣٠ " .

(٢) " البخاري٦/٢٦٩٨ " .

(٣) " مسلم٤/٢١١٤ " .

(٤) " تفسير ابن كثير ١/٥٨٩ " .

يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ}، الذي يسوء صاحبه، ويشق عليه { بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ } لأنفسهم ولغيرهم: جزاء لهم على عملهم السيئ، { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } .

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن: أجل العلوم، وأبركها، وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم: هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلفين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين، والآخرين][1] .

ـــــ الوجه الثاني:

الوجه الثاني الذي يتقرر به أن الحق عند أهل الطائفة المنصورة في ذاته: واضح، ظاهر لا لبس فيه، ولا خفاء: أن الله سبحانه وتعالى قد وصف رسالته التي أوحاها لنبيه صلى الله عليه وسلم بوصف دال على كمال الظهور والوضوح، فوصفها بأنها: **نور**:

* قال تعالى: { أوَ مَن كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له **نوراً** يمشي به في الناس كمن مَثَلُه في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون } [الأنعام: ١٢٢] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً في الضلالة: هالكاً، حائراً، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له، ووفقه لاتباع رسله، { وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس }، أي: يهتدي كيف يسلك، وكيف يتصرف به، والنور هو القرآن كما رواه العوفي، وابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال السدي: الإسلام، والكل صحيح، { كمن مثله في الظلمات }، **أي: الجهالات، والأهواء، والضلالات المتفرقة**، { ليس بخارج منها }، أي: لا يهتدي إلى منفذ، ولا مخلص بما هو فيه ...

كما قال تعالى: { الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون }، وقال تعالى: { أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم }، وقال تعالى: { مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون }، وقال تعالى: { وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير }، والآيات في هذا كثيرة][2] .

* وقال تعالى: { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه

---

(١) " تفسير السعدي/١٨٢ " .

(٢) " تفسير ابن كثير٢/١٧٣ " .

نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم } [الشورى: ٥٢] .

* وتأمّل قوله تعالى: { يا أيها الناس قد جآءكم **برهان** من ربكم وأنزلنا إليكم **نوراً مبيناً** } [النساء: ١٧٤] .

فلم يكتف سبحانه وتعالى بوصف ما أوحاه لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه: **نور** رغم كفاية هذا الوصف في الدلالة على المراد من الوضوح والظهور، وكونه النجاة المطلقة لمن تعلق به بل والدلالة على الكمال من ذلك كله حتى وصف سبحانه وتعالى هذا النور_ أيضاً_ بأنه نور: **مبين:** { وأنزلنا إليكم **نوراً مبيناً** }، فهو: **نور: مبين،** وهذا غاية في الدلالة على كون هذا الوحي قد حاز قصب السبق، وبلغ شأواً رفيعاً، ومنزلة سامقة لا تُدانى في الوضوح، والظهور دلالةً على المطالب العالية التي جاء لتحقيقها في الدنيا والآخرة، هذا فضلاً عمّا في قوله تعالى: { برهان من ربكم } من دلالة على ذلك أيضاً .

قال ابن جرير_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآية الكريمة: [يعني جل ثناؤه بقوله: { يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم }: يا أيها الناس من جميع أصناف الملل: يهودها، ونصاراها، ومشركيها الذين قصّ الله جل ثناؤه قصصهم في هذه السورة: { قد جاءكم برهان من ربكم }، يقول: قد جاءتكم حجة من الله تبرهن لكم بطول ما أنتم عليه مقيمون من أديانكم ومللكم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذي جعله الله عليكم حجة: قطع بها عذركم، وأبلغ إليكم في المعذرة بإرساله إليكم مع تعريفه إياكم صحة نبوته، وتحقيق رسالته .

{ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً }، يقول: وأنزلنا إليكم معه { نوراً مبيناً }، يعني: **يبين لكم المحجة الواضحة، والسبل الهادية إلى ما فيه لكم النجاة من عذاب الله، وأليم عقابه إن سلكتموها واستنرتم بضوئه،** وذلك النور المبين: هو القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم][(١)] .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم }، يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم عن الثوري، وسماه: برهاناً: لأن معه البرهان، وهو المعجزة، وقال مجاهد: البرهان ههنا: الحجة، والمعنى متقارب، فإن المعجزات: حجته صلى الله عليه وسلم، والنور المنزل: هو القرآن عن الحسن، وسماه: نوراً: **لأن به تتبين الأحكام، ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أي: واضح، بين**][(٢)] .

ــ قلت: قوله تعالى: { برهان من ربكم }: أعم ممّا ذكر سابقاً إذ هو شامل لكل ما أقام الله به الحجة، وقطع به العذر .

قال ابن كثير_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآية: [يقول تعالى مخاطباً جميع الناس، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزيلة للشبه، ولهذا قال: { وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً }، أي: **ضياء واضحاً على الحق،** قال ابن جريج وغيره: هو القرآن][(٣)] .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يمتنّ تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة،

---

(١) " تفسير الطبري٦/٣٩ " .

(٢) " تفسير القرطبي٦ /٢٧ " .

(٣) " تفسير ابن كثير ١/٥٩٣ " .

والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، أي: حجج قاطعة على الحق: تبينه وتوضحه، وتبين ضدّه، وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ }، وفي قوله: { مِنْ رَبِّكُمْ }: ما يدل على شرف هذا البرهان، وعظمته حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية، فمن تربيته لكم التي يحمد عليها ويشكر أن أوصل إليكم البينات ليهديكم إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم .

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً }، وهو: هذا القرآن العظيم الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره][1] .

ـــــ الوجه الثالث:

الوجه الثالث من الوجوه التي يتقرر بها أن الحق عند أهل الطائفة المنصورة في ذاته: واضح، ظاهر لا لبس فيه، ولا خفاء: هو أن الله سبحانه وتعالى وصف كتابه_ بالإضافة لما سبق_ بأنه: هدى، وشفاء، ومنير، وغير ذلك من الأوصاف الدالة كلها على أن هذا الكتاب قد أرشد إلى الحق وبيّنه في جملة المطالب التي جاء لتحقيقها بأوضح حجة، وأظهر برهان .

* قال تعالى: { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة: ٢] .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [و" الهدى " في هذا الموضع: مصدر من قولك هديت فلاناً الطريقَ إذا أرشدته إليه، ودللته عليه، وبينته له، أهديه: هدى، وهداية][2] .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [الهدى فى كلام العرب معناه: الرشد، والبيان، أى: فيه كشف لأهل المعرفة ورشد، وزيادة بيان وهدى][3].

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله وطيب ثراه_: [قوله: { ذَلِكَ الْكِتَابُ }، أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين من العلم العظيم، والحق المبين، فهو: {لا رَيْبَ فِيهِ }، ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه: يستلزم ضده إذ ضد الريب والشك: اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على اليقين المزيل للشك والريب ...

و" الهدى ": ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال: {

---

(١) " تفسير السعدي/١٣٢ " .

(٢) " تفسير الطبري١/٩٨ " .

(٣) " تفسيرالقرطبي١/١٦٠ " .

هُدىً}، وحذف المعمول، فلم يقل: هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني: لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم: في دنياهم وأخراهم][١].

* وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } [يونس: ٥٧] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يقول تعالى مرغباً الخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة، الضرورية للعباد، فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ }، أي: تعظكم، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها، { وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ}، وهو: هذا القرآن؛ شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد: ممّا يوجب للعبد الرغبة والرهبة، وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة عن الشر، ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن: أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله: أحب إلى العبد من شهوة نفسه، وكذلك ما فيه من البراهين، والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف، وبيّنها أحسن بيان ممّا يزيل الشبه القادحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية: تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده .

{ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ }، فالهدى: هو العلم بالحق، والعمل به، والرحمة: هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به، فالهدى: أجل الوسائل، والرحمة: أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين، وإذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه: حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور][٢] .

ــ وقد وصف سبحانه وتعالى كتابه_ القرآن الكريم_ الذي أنزله هادياً، ومرشداً، ومخرجاً من الظلمات إلى النور، ومفرّقاً بين الحق والباطل في آيات كثيرة بأنه: **مبين**، أي: واضح، ظاهر، غاية في الوضوح والظهور، ومن ذلك .

* قال تعالى: { قد جاءكم من الله **نور وكتاب مبين** يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم } [المائدة: ١٥_١٦] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم، فقال: { قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام }، أي: طريق النجاة والسلامة، ومناهج الإستقامة، { ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم }، أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة،

---

(١) " تفسير السعدي/٦ " .

(٢) " تفسير السعدي/٢٥٠ " .

ويرشدهم إلى أقوم حالة][1].

* وقال تعالى: { الر تلك آيات **الكتاب المبين** إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين } [يوسف: ١_ ٣] .

عن مجاهد_ رحمه الله_، قال: " { تلك آيات الكتاب المبين }، بيّن حلاله، وحرامه " .

وعن قتادة_ رحمه الله_، قال: " أيّ_ والله_ لمبين: تركيبه، هداه، ورشده " .

وعنه_ أيضاً_، قال: " { تلك آيات الكتاب المبين }، بين الله رشده، وهداه "[2] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [يعني بالكتاب المبين: القرآن المبين حلاله، وحرامه، وحدوده، وأحكامه، وهداه، وبركته ...][3] .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_: [قوله: { تلك آيات الكتاب }، أى: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن { المبين }، أي: الواضح، الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها، ويبينها ...][4] .

وفي " تفسير الجلالين ": [{ المبين }: المظهر للحق من الباطل][5] .

* وقال تعالى: { وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين **بلسان عربي مبين** } [الشعراء: ١٩٤_١٩٥] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم { وإنه }، أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: { وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث } الآية: { لتنزيل رب العالمين }، أي: أنزله الله عليك وأوحاه اليك، { نزل به الروح الأمين }، وهو جبريل عليه السلام ...

وقوله تعالى: { بلسان عربي مبين }، أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي، الفصيح، الكامل، الشامل ليكون بيناً، واضحاً، ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة][6] .

* وقال تعالى: { طس تلك آيات القرآن وكتاب **مبين** هدى وبشرى للمؤمنين } [النمل: ١_ ٢] .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [يقول: هذه آيات القرآن بيانٌ من الله بيّن به طريق الحق، وسبيل السلام،

---

(١) " ابن كثير ٣٥/٢ " .

(٢) " تفسير الطبري١٤٩/١٢ " .

(٣) " تفسير القرطبي١١٨/٩ " .

(٤) " ابن كثير ٤٦٧/٢ " .

(٥) " تفسير الجلالين/٣٠٢ " .

(٦) " ابن كثير٣٤٨/٣ " .

{وبشرى للمؤمنين }، يقول: وبشارة لمن آمن به، وصدق بما أنزل فيه بالفوز العظيم في المعاد](١) .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [وصفه بالمبين لأنه بين فيه أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، ووعده ووعيده ...

قوله تعالى: { هدى وبشرى للمؤمنين }، هدى في موضع نصب على الحال من الكتاب، أي: تلك آيات الكتاب هادية، ومبشرة](٢) .

* وقال تعالى في أول الحجر: { الر تلك آيات الكتاب **وقرآن مبين** } .

* وقال تعالى: { وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا **ذكر وقرآن مبين** } .

ــ والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقد قال تعالى_ كذلك_: { ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر } [القمر:٢٢] .

وهذه الآية نص في أن الحق الذي يحتاج إليه العباد علماً وعملاً: ميسر، ممّا يفيد أنه: ظاهر، واضح، فالقرآن: أساس الحق، والذكر: يتضمن العلم والعمل .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم: " إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد: إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا "(٣) .

ولا شك أن من معاني اليسر، ومقتضياته، ولوازمه: الوضوحَ، والظهورَ .

ـــــ وقد نفي سبحانه اللبس، والانحراف اللذين يمنعان وضوح الحق وظهوره عن كتابه، فقال تعالى: { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ **قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقول تعالى: { ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل }، أي: بيّنّا للناس فيه بضرب الأمثال { لعلهم يتذكرون }، فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان ...

وقوله جل وعلا: { قرآنا عربياً غير ذي عوج }، أي: هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، ولا لبس بل هو بيان، ووضوح، وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك { لعلهم يتقون}، أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد](٤) .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَاً } [الكهف: ١] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [" الحمد ": هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق: إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد

---

(١) " تفسير الطبري١٩/١٣١ " .

(٢) " تفسير الطبري١٣/١٥٥ " .

(٣) " البخاري١/٢٣ " .

(٤) " ابن كثير٤/٥٣ " .

صلى الله عليه وسلم، فحمد نفسه، وفي ضمنه: إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما: نفي العوج عنه، وإثبات أنه مقيم مستقيم](١) .

ـــــ الوجه الرابع:

الوجه الرابع من الأوجه الدالة على أن الحق عند أهل الطائفة المنصورة في ذاته: واضح، ظاهر لا لبس فيه، ولا خفاء: هو أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله عليه الصلاة والسلام: بالبلاغ المبين في غير ما آية، ومن ذلك:

* قوله تعالى: { وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [التغابن: ١٢] .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [{ فإن توليتم }، يقول: فإن أنتم لم تعملوا بما أمرناكم به، وتنتهوا عمّا نهيناكم عنه، ورجعتم مدبرين عمّا أنتم عليه من الإيمان والتصديق بالله وبرسوله، واتباع ما جاءكم به نبيكم: فاعلموا أنما { على رسولنا البلاغ المبين }، يقول: فاعلموا أنه ليس على من أرسلناه إليكم إلا إبلاغكم الرسالة التي أرسل بها إليكم **مبينة لكم بياناً يوضح لكم سبيل الحق، والطريق الذي أمرتم أن تسلكوه**](٢) .

وقال الشيخ السعدي: [{ فإن توليتم }، أي: عن طاعة الله، وطاعة رسوله { فإنما على رسولنا البلاغ المبين}، أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم بلاغاً بيناً، واضحاً: فتقوم عليكم به الحجة](٣) .

* وقال تعالى: { فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين } .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فإن أدبر هؤلاء المشركون يا محمد عمّا أرسلتك به إليهم من الحق فلم يستجيبوا لك، وأعرضوا عنه: فما عليك من لوم، ولا عذل لأنك قد أديت ما عليك في ذلك، إنه ليس عليك إلا إبلاغهم ما أرسلت به، ويعني بقوله: { المبين }: الذي يبين لمن سمعه حتى يفهمه](٤) .

* وقال تعالى: { قُلْ أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا **الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** } [النور: ٥٤] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [وأما الرسول عليه الصلاة والسلام: فوظيفته أن يأمرهم وينهاهم، ولهذا قال: { قُلْ أَطِيعُوا الله وَالرَّسُولَ } فإن امتثلوا: كان حظهم وسعادتهم، وإن { تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ } من الرسالة، وقد أداها، { وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } من الطاعة ...

---

(١) " تفسير السعدي/٣٣٠ " .

(٢) " تفسير الطبري٧/٣٥: ٣٦ " .

(٣) " تفسير السعدي/٦٣٦: ٦٣٧ " .

(٤) " تفسير الطبري١٤/١٥٧ " .

{ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا } إلى الصراط المستقيم: قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته وبدون ذلك: لا يمكن بل هو محال .

{ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }، أي: **تبليغكم البين الذي لا يبقي لأحد شكاً ولا شبهة**، وقد فعل صلى الله عليه وسلم، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم، ويجازيكم: هو الله تعالى، فالرسول: ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته][1].

ـ وكون النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغ البلاغ المبين: من قطعيات هذا الدين عند أهل اليقين (ويدخل في هذا: كل أمر تلقته الأمة عنه صلى الله عليه وسلم من العقائد، والأعمال، والأقوال، والأحكام الشرعية، والمطالب الإلهية .

فبلّغ صلى الله عليه وسلم أكملَ تبليغ، ودعا وأنذر، وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ: بقوله، وفعله، وكتبه، ورسله، فلم يبق خير: إلا دل أمته عليه، ولا شر: إلا حذرها عنه، وشهد له بالتبليغ: أفاضل الأمة من الصحابة فمن بعدهم من أئمة الدين، ورجال المسلمين)[2] .

ـــ الوجه الخامس:

أن الله سبحانه وتعالى وصف دينه بالكمال، والاكتمال، ومقتضى هذا: وضوح وظهور ما يحتاج إليه العباد من الحق الذي يحبه الله ويرضاه: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً إذ ذلك: لازم من لوازم كمال الدين، وتمامه بل لا يتصور الكمال، والاكتمال بغير هذا .

* قال تعالى: { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا } [المائدة: ٣] .

ومما قيل في تفسير هذه الآية ما ذكره الطبري_ رحمه الله_ بقوله:

[قال بعضهم: يعني جل ثناؤه بقوله: { اليوم أكملت لكم دينكم }: اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون فرائضي عليكم، وحدودي، وأمري إياكم ونهيي، وحلالي وحرامي، وتنزيلي من ذلك ما أنزلت منه في كتابي، وتبياني ما بينت لكم منه بوحيي على لسان رسولي، والأدلة التي نصبتها لكم على جميع ما بكم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتممت لكم جميع ذلك فلا زيادة فيه بعد هذا اليوم][3] .

وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وانقطاع الوحي: فهذا المعنى متجه بل لا يصح غيره، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ولذلك، قال ابن كثير_ رحمه الله_: [هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم

---

(١) " تفسير السعدي/٤١١ " .

(٢) " تفسير السعدي/١٤٩ " .

(٣) " تفسير الطبري٦/٧٩ " .

الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن: فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو: حق وصدق لا كذب فيه، ولا خلف كما قال تعالى: { وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً}،أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين: تمت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً }، أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه][(١)] .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } بتمام النصر، وتكميل الشرائع: الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة: كافيين كل الكفاية في أحكام الدين، وأصوله وفروعه، فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة من علم الكلام، وغيره: فهو جاهل، مبطل في دعواه قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله، ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله .

{ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي } الظاهرة والباطنة، { وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً }، أي: اخترته واصطفيته لكم ديناً كما ارتضيتكم له: فقوموا به شكراً لربكم، واحمدوا الذي مَنَّ عليكم بأفضل الأديان، وأشرفها، وأكملها][(٢)] .

* وفي الحديث المتفق عليه عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ أن رجلاً من اليهود قال له: " يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت: لاتخذنا ذلك اليوم عيداً .

قال: أي آية ؟ .

قال: { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً } ... " الحديث[(٣)] .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم كما جاء من حديث أبي الدرداء_ رضي الله عنه_: " **وأيم الله**، لقد تركتكم على مثل **البيضاء: ليلها، ونهارها: سواء** " .

قال أبو الدرداء_ رضي الله عنه_: " صدق_ والله_ رسول الله صلى الله عليه وسلم، تركنا والله على مثل البيضاء: ليلها ونهارها: سواء "[(٤)] .

وهذا ممّا لا يقبل التأويل في أن الحق الذي جاء به صلى الله عليه وسلم، وبلغه عن ربه، والذي أمرنا بالتمسك به: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً: واضح، ظاهر بل غاية في الوضوح، والظهور، وقد أقسم_ بأبي هو وأمي_ صلى الله عليه وسلم بربه_ " وأيم الله "_ على ذلك .

---

(١) " تفسير ابن كثير ١٣/٢ " .

(٢) " تفسير السعدي/١٣٤: ١٣٥ " .

(٣) " البخاري ٢٥/١ "، " مسلم ٢٣١٢/٤ " .

(٤) " ابن ماجه ٤/١ "، " السنة لابن أبي عاصم ٢٦/١ " .

* ومن حديث العرباض بن سارية_ رضي الله عنه_، قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة: ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله: إن هذه لموعظة مودع، فماذا تعهد إلينا ؟ .

قال صلى الله عليه وسلم: " قد تركتكم على **البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين: عضوا عليها بالنواجذ ... " الحديث(١).

وهذا السياق له أهمية خاصة هنا: حيث أخبر صلى الله عليه وسلم بما هو حادث بعده من الفرقة والاختلاف، وقد بيّن صلى الله عليه وسلم بين يدي ذكره لذلك: أنه قد ترك أمته على المحجة الواضحة، النقية: " على البيضاء: ليلها: كنهارها ": وهذا نص منه صلى الله عليه وسلم بوضوح الحق وظهوره لمن طلبه عند شيوع الفرقة والاختلاف بل قد قال صلى الله عليه وسلم: " لا يزيغ عنها إلا هالك ": وهذه إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى أن الحق وإن كثرت الأرآء والأهوآء: سهل المنال، داني القطاف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فهو (صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى ترك الناس على شريعة بيضاء: ليلها كنهارها، لا تحتاج إلى تتمة، ولا تفتقر إلى زيادة)(٢) .

(فصلوات الله وسلامه على هادى الأمة، وكاشف الغمة الذي أوضح الله به المحجة، وأقام به الحجة، وأنار به السبيل، وأوضح به الدليل)(٣) .

ـــــ ومن أوجه وضوح الحق وظهوره بعد: كونُ هذا الحق في مجمله موافقاً لفطرة الإنسان السوية التي لم تشوهها الشبهات أو الشهوات:

* قال تعالى: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرة الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [الروم: ٣٠] .

يقول تعالى: (فسدد وجهك، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية: ملة إبراهيم الذي هداك الله لها، وكمّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك: لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها)(٤) .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [وهذا الأمر الذي أمرناك به: هو: { فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا }، ووضع في عقولهم حسنها، واستقباحَ غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة، والباطنة: قد وضع الله في

---

(١) " ابن ماجه١/١٦ "، " أحمد٤/١٢٦ "، " المستدرك١/١٧٥ "، " الكبير١٨/٢٥٧،٢٤٧ "، "اللالكائي١/٧٤،٢٢ "، " السنة لابن أبي عاصم١/١٩: ٢٠، ٢٧ " .

(٢) " فيض القدير٦/٢١٦ " .

(٣) " حاشية ابن القيم على أبي داود١٢/٣١٣ " .

(٤) " تفسير ابن كثير٣/٤٣٣ " .

قلوب الخلق كلهم: الميلَ إليها، فوضع في قلوبهم: محبة الحق، وإيثارَ الحق، وهذا: حقيقة الفطرة](1) .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم: " ما من مولود إلا يُولدُ على الفِطْرة، فأبواه يُهوّدانه، ويُنَصِّرانه، ويُمجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحِسّون فيها من جَدْعاء حتى أنتم تجدعونها ؟ "(2) .

قال الحافظ ابن رجب_ رحمه الله_: [وأما في حديث وابصة، فقال: " البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس "، وفي رواية: " ما انشرح إليه الصدر " ...

وهذا يدل على أن الله فطر عباده على معرفة الحق، والسكون إليه، وقبوله، وركّز في الطباع محبة ذلك، والنفور عن ضده](3) .

فإذا تجرَّدت النفوس من أهوائها، وجدَّت في تَلَمُّس الحقِّ، متبعة في ذلك سبيل المؤمنين: فإنها_ إن شاء الله_ مَهْدِيَّةٌ إليه: كونه فطرتها المفطورة عليه (وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة: والفطرة تصدقها، وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: { أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه }، وهو القرآن: بلغه جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبلغه النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمته)(4) .

ــــ فأصول هذا الدين ومسائله الكبار، وأمَّهات الفضائل العظيمة، وأمَّهات الرذائل القبيحة ممّا يتفق جميع العقلاء على: حسنه أو قبحه، وحمد فاعله أو ذمه، وعظيم نفعه أو ضرره: بيّنه الشرع، وأحكمه بعبارات جليَّة، واضحة، ونصوص بيِّنة لا تقبل صرفاً، ولا تأويلاً، ولا جدلاً، ولا مراءاً .

كما أن ما به قيام مصالح الناس في معاشهم، وما يحتاجون إليه في سياسة دنياهم: بيّنه الشرع_ كذلك_ وأحكمه إذ غاية الشرع المنزل: سياسة الدنيا بالدين: تحقيقاً للمصالح وتكميلاً، ودفعاً للمفاسد وتعطيلاً أو تقليلاً على النحو الذي تتحقق معه سعادة العبد في الدارين بما لا يَطلب الصلاحَ في غيره إلا جاهل أو مفتون .

(فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته، واعتقاده، والتصديق به من هذه المسائل: فقد بينه الله، ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر إذ هذا من أعظم ما بلّغه الرسول البلاغ المبين، وبينه للناس، وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه، وبلغوه، وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول: لفظه، ومعانيه، والحكمة التي هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نقلوها_ أيضاً_ عن الرسول: مشتملة من ذلك على غايه المراد، وتمام الواجب، والمستحب، والحمد لله)(5) .

وإنما البلية كل البلية: ضعف الثقة في شرع الله ودينه، وعدم القناعة بكفاية الكتاب والسنة ممّا يُردي صاحبه

---

(١) " تفسير السعدي/٤٦٥ " .

(٢) " البخاري٦/٢٤٣٤ "، " مسلم٢/٢٠٤٨ " .

(٣) " تفسير ابن كثير٢/٤٤١ " .

(٤) " جامع العلوم والحكم/٢٥٣ " .

(٥) " درء التعارض لابن تيمية١/٢٧: ٢٨ " .

في مهاوٍ سحيقة من الضلال، والبعد عن دين الله .

* وما أبلغ كلمة العباس بن عبد المطلب_ رضي الله عنه_ هنا حيث قال: " والله، ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم **حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً**، وأحلّ الحلال، وحرّم الحرام، ونكح، وطلّق، وحارب، وسالم، وما كان راعي غنم يتبع رؤوس الجبال يخبط عليها العضاة بمخبطه، ويمرر حوضها بيده: بأنصب، ولا أدأب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكم "(١) .

* وقد جاء من حديث النعمان بن بشير_ رضي الله عنه_، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " الحلال: **بين**، والحرام: **بين**، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقي المشبهات: استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا إن حمى الله في أرضه: محارمه "(٢) .

فنصّ صلى الله عليه وسلم على أن " الحلال "_ قولاً، وفعلاً، واعتقاداً_: بين، وأن الحرام_ قولاً، وفعلاً، واعتقاداً(٣) _: بين، فأفاد ذلك بنص صحيح، صريح أن الحق الذي يجب على الناس اتباعه: واضح، ظاهر .

قال الرامهرمزي_ رحمه الله_: [هذا مثلٌ في **وضوح الحق، وظهور معالم الإسلام** لمن أراد قصدها، وعدل عن طريق الشبه، والريب مفارقاً لها](٤) .

ولا يعارض ذلك، ولا يدفعه قوله صلى الله عليه وسلم: " وبينهما مشبهات أو مشتبهات " إذا الاشتباه إنما هو في الأذهان لا في نفس الأمر كما يدل عليه دليل الخطاب من قوله: " لا يعلمها كثير من الناس " .

قال الخطابي_ رحمه الله_ في قوله عليه السلام: " وبينهما مشبهات "، قال:

[أي: أنها تشتبه على بعض الناس دون بعض وليس أنها في ذوات أنفسها مشتبهة لا بيان لها في جملة أصول الشريعة، فإن الله سبحانه لم يترك شيئاً يجب له فيه حكم إلا وقد جعل فيه له بياناً، ونصب عليه دليلاً لكن البيان: ضربان، بين عامة الناس، وخفي إلا الخاص من العلماء .

والدليل على صحة ما قلنا: قوله عليه السلام: " لا يعلمها كثير من الناس " وقد عقل ببيان فحواها: أن بعض

---

(١) " الطبقات لابن سعد٢/٢٦٧ " .

(٢) " البخاري١/٢٨ "، " مسلم٣/١٢١٩ " .

(٣) تفسير " الحلال "، و " الحرام " الوارد عن بعض العلماء بالأعيان: قصرٌ لكلامه صلى الله عليه وسلم على بعض أفراده بغير دليل، وإخراج لأنواع من الحلال، والحرام أهم، وأظهر ممّا ذكروه، ويبقى الأصل في كلامه صلى الله عليه وسلم: العموم، والإطلاق ما لم يقم دليل ظاهر .

قال ابن العربي_ رحمه الله_: [وقد جعلوا هذا الحديث: ثلث الإسلام، وربعه، وأكثروا في التقسيمات، وأكثرها تحكمات تحمل الزيادة، والنقص، وبالجملة: فالمعاني مشتركة، ولو قيل: إنه نصف الإسلام: لكان له وجه من الكلام، ولو قال قائل: إنه جملة الدين: لما عدم وجهاً لكن هذه المعاني مدخلة لمتعطيها في المتكلفين] . " فيض القدير٣/٤٢٤ "

(٤) " أمثال الحديث/١٥ " .

الناس يعرفونها وإن كانوا قليل العدد](١) .

وقال ابن رجب_ رحمه الله_ في شرحه لهذا الحديث بعد أن أشار للأسباب التي ينشىء منه الاشتباه في الأحكام: [ومع هذا فلا بد في الأمة من عالم يوافق الحق، فيكون هو العالم بهذا الحكم، وغيره يكون الأمر مشتبهاً عليه، ولا يكون عالماً بهذا، فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يظهر أهل باطلها على أهل حقها، فلا يكون الباطل معمولاً به في جميع الأمصار والأعصار، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في المشتبهات: " لا يعلمهن كثير من الناس ": فدل على أن من الناس: من يعلمها، وإنما هي مشتبهة على من لم يعلمها، **وليست مشتبهة في نفس الأمر**](٢).

ـــــ قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [الرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة: فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع: هو النور الذي يبيِّن ما ينفعه وما يضره، والشرع: نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنا ...

إلى أن قال_ رحمه الله_:

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده، وأشرف منّة عليهم: أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك: لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشر حالا منها، فمن قَبلَ رسالة الله واستقام عليها: فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها: فهو من شر البرية، وأسوأ حالاً من الكلب، والخنزير، والحيوان البهيم](٣) .

وقال شارح الطحاوية: [ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رسله، وأصول هذا الدين وفروعه: موروثة عن الرسل، وهو ظاهر غاية الظهور، يمكن كل مميز من صغير وكبير، وفصيح، وأعجمي، وذكي وبليد أن يدخل فيه بأقصر زمان، وأنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك من: إنكار كلمة أو تكذيب أو معارضة أو كذب على الله أو ارتياب في قول الله أو ردّ لما نزل أو شك فيما نفى الله عنه الشك أو غير ذلك ممّا في معناه](٤) .

---

(١) " معالم السنن٣/٤٩ " .

(٢) " جامع العلوم والحكم/٦٩ " .

(٣) " الفتاوى١٩/٩٩: ١٠٠ " .

(٤) " شرح الطحاوية/٥٨٥ " .

ـــــ فائدة نفيسة جداً:

قال الشيخ الشنقيطي_ رحمه الله_ في تفسير قوله تعالى: { أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها }، قال:

[اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به: لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة: **قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً** .

بل الحق الذي لا شك فيه: أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة: يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما، أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما: فممنوع إجماعاً .

وأما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح: فله أن يعمل به، ولو آية واحدة أو حديثاً واحداً .

ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من لم يتدبر كتاب الله: عام لجميع الناس، وممّا يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم: هم المنافقون والكفار: ليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول بل ليس عندهم شيء منها أصلاً، فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي: لما وبّخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين كما ترى .

ومعلوم أن من المقرر في الأصول: أن صورة سبب النزول: قطعية الدخول، وإذاً فدخول الكفار والمنافقين في الآيات المذكورة: قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين: لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله، وعدم عملهم به .

وقد علمت أن الواقع: خلاف ذلك قطعاً، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد، والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة من الكتاب والسنة: لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد بل ليس فيها إلا الاتباع ...

إلى أن قال_ رحمه الله_:

ومن المعلوم أنه لايصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

ومن المعلوم_ أيضاً_ أن عمومات الآيات والأحاديث الدالة على حث جميع الناس على العمل بكتاب الله، وسنة رسوله: أكثر من أن تحصى كقوله صلى الله عليه وسلم: " تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي "، وقوله صلى الله عليه وسلم: " عليكم بسنتي " الحديث، ونحو ذلك ممّا لا يحصى .

فتخصيص جميع تلك النصوص بخصوص المجتهدين، وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة على غيرهم تحريماً باتاً يحتاج إلي دليل من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بآراء جماعات من المتأخرين المقرين على أنفسهم بأنهم من المقلدين][(١)] .

ــــ مسألة:

سلامة المحل شرط أساس عند الطائفة المنصورة لوضوح الحق وظهوره .

الحق وإن كان واضحاً، ظاهراً بل غاية في الوضوح والظهور في ذاته عند أهل الطائفة المنصورة إلا أن هذا الأمر لا يقف عليه، ولا يُوفق إليه كل أحد، ذلك أن سلامة المحل وطهارته: شرط أساس لذلك، ومن ثم: فما يدعيه البعض من خفاء الحق، والتباسه، وعدم وضوحه: إنما يرجع_ غالباً_ لفساد المحل، وعدم صلاحه لسكنى الحق وإقامته، والجزاء من جنس العمل، وما ربك بظلام للعبيد، وقد قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم

ــ وقد دل القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على هذا القانون الكلي، وهذه العقوبة القدرية بأوضح برهان، وأتم بيان:

* قال تعالى: { ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين } [البقرة: ٢] .

فرغم كون القرآن الكريم هدى مطلقاً: فإنه سبحانه وتعالى قيّد هذه الهداية هنا بــ" المتقين " دون سواهم إذ هم وحدهم الذين يدركون هذه الهداية، ويقفون عليها، وينتفعون بها لسلامة المحل، وأهليته لذلك .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [فإن قال لنا قائل: أو ما كتاب الله نوراً إلا للمتقين، ولا رشاداً إلا للمؤمنين ؟ .

قيل: ذلك كما وصفه ربنا عز وجل، ولو كان نوراً لغير المتقين، ورشاداً لغير المؤمنين: لم يخصص الله عز وجل المتقين بأنه لهم هدى بل كان يعم به جميع المنذرين، ولكنه هدى للمتقين، وشفاء لما في صدور المؤمنين، ووقر في آذان المكذبين، وعمي لأبصار الجاحدين، وحجة لله بالغة على الكافرين، فالمؤمن به:

---

(١) " أضواء البيان٧/٤٣٠: ٤٣١ " .

مهتدٍ، والكافر به: محجوج][1] .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [قال في موضع آخر: { هُدى لِلنَّاسِ }: فعمّم، وفي هذا الموضع، وغيره: { هُدى لِلْمُتَّقِينَ } لأنه في نفسه هدى لجميع الناس: فالأشقياء: لم يرفعوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله: فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقائهم .

وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه: فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً }، فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية، ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، هداية التوفيق، فالمتقون: حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم: لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها: ليست هداية حقيقية تامة][2] .

* وقال تعالى: { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ } [يس: ٧٠] .

فرغم وصفه سبحانه وتعالى لما جاء به صلى الله عليه وسلم بأنه { ذكر وقرآن مبين }: جعل سبحانه في نفس المقام النذارةَ النافعة للأحياء دون الأموات، وهل يُنذر الميت ؟! .

عن الضحاك_ رحمه الله_ في قوله: { لينذر من كان حياً }، قال: " من كان عاقلاً " .

وعن قتادة_ رحمه الله_ { لينذر من كان حياً }: " حي القلب، حي البصر "[3] .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [وقوله: { لينذر من كان حياً }، يقول: إنْ محمد إلا ذكر لكم لينذر منكم أيها الناس من كان حي القلب: يعقل ما يقال له، ويفهم ما يبين غير ميت الفؤاد بليد][4] .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: حي القلب، واعيه: فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة، الزكية][5].

* وتأمّل قوله تعالى: { وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون} [الأنعام: ١٠٥] .

فالله سبحانه وتعالى يقول: { وكذلك نصرف الآيات }، (والمراد: أن الله تعالى ينوع الآيات الدالة على المعاني الرائعة، الكاشفة عن الحقائق الفائقة لا تصريفاً أدنى منه بل تصريفاً بلغت في الروعة مبلغاً ارتقى

---

(١) " تفسير الطبري١/٩٨ " .

(٢) " تفسير السعدي/٦ " .

(٣) " الطبري٢٣/٢٧: ٢٨ " .

(٤) " الطبري٢٣/٢٧: ٢٨ " .

(٥) " تفسير السعدي/٥١٠ " .

عن إدراك المخلوقين)[1]، ورغم وضوح الحق وظهوره بل ورغم ذلك التنوع في عرض الحق بأبلغ حجة، وأوضح وأظهر برهان: فقد خص سبحانه البيان { لقوم يعلمون }، وهم من (يدركون الحق، ويذعنون له)[2] دون الجاحدين .

قال ابن كثير_ رحمه الله_:

[قوله: { ولنبينه لقوم يعلمون }، أي: لنوضحه لقوم يعلمون الحق: فيتبعونه، والباطل: فيتجنبونه، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء كقوله تعالى: { يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً }، الآية، وكقوله: { ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم }، وقال تعالى: { وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو }، وقال: { وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً }، وقال تعالى: { قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد }، وغير ذلك من الايات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء، ويهدي به من يشاء، ولهذا قال ها هنا: { وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون }][3] .

ـــــ فالحق قد يكون أظهر من الشمس في رابعة النهار، ورغم ذلك: تعمى عن رؤيته كثير من الأعين لما ران عليها من سواد الشبهات أو الشهوات التي تحجب عنها الرؤية بل تجعلها ترى الحق: باطلاً، والباطل: حقاً .

وقد بيّن تعالى أن الحجة الظاهرة، البينة التي تضارع الشمس: وضوحاً، وظهوراً، وانكشافاً، والتي يخضع لها أقوام وينقادون لصولتها: هي نفسها تكون سبباً لفتنة آخرين، وإضلالهم عن الحق بما كسبته قلوبهم، وأيديهم .

* قال تعالى: { وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً } [المائدة: ٦٤] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [أي: يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة: نقمة في حق أعدائك من اليهود: يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً، وعلماً نافعاً، ويزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغياناً_وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء_، وكفراً، أي: تكذيباً كما قال تعالى: { قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد }، وقال تعالى: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين لا يزيد الظالمين إلا خسارا }][4] .

---

(١) " تفسير السعدي/١٧٢ " .

(٢) " المرجع السابق " .

(٣) " تفسير ابن كثير٢/١٦٣: ١٦٤ " .

(٤) " تفسير ابن كثير٢/٧٦: ٧٧ " .

وللشيخ السعدي هنا كلام غاية في النفاسة حيث قال_ رحمه الله_:

[وقوله: { وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْراً }، وهذا من أعظم العقوبات على العبد: أن يكون الذكر الذي أنزله الله على رسوله، الذي فيه حياة القلب والروح، وسعادة الدنيا والآخرة، وفلاح الدارين، الذي هو أكبر منة امتنّ الله بها على عباده توجب عليهم المبادرة إلى قبولها، والاستسلام لله بها، وشكراً لله عليها: أن تكون لمثل هذا: زيادة غي إلى غيه، وطغيان إلى طغيانه، وكفر إلى كفره، وذلك بسبب إعراضه عنها، ورده لها، ومعاندته إياها، ومعارضته لها بالشبه الباطلة](١) .

ـــــ فزبالة الأرآء والأهوآء، ونحاتة الأفكار والأوهام التي يعتادها العبد، ويستمرئها، ويعتاض بها عن الشرع المطهر: تفسد عليه قلبه، ومن ثم: تفسد عليه تصوره للحقائق، فيراها على خلاف ما هي عليه رغم وضوحها في نفسها غاية الوضوح، وقد مرّ معنا قول شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_:

[الشرائع: أغذية القلوب، فمتى اغتذت القلوب بالبدع: لم يبق فيها فضل للسنن، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث](٢) .

ـــ وأوضح منه، وأبلغ، وأعظم، وأقوى في تحقيق هذا المعنى: قوله تعالى: { وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم }، وما من مُحْدِثٍ، مُقدِّمٍ بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، مُعْرِضٍ عن هدي الكتاب والسنة، مُلتمسٍ للهدى والصلاح في غيرهما إلا وله نصيب من هذه الآية قلّ أو كثر .

وتزداد البلية عندما يعتقد هذا " الأعمى " ويوقن أنه بصير: فيسد على نفسه سبلَ النجاة، ويكون كالباحث عن حتفه بظلفه إلا أن يدركه الله برحمته .

* قال تعالى: { وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا: فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } .

فالحجة المعروضة_ آية الحق ودليله_: واحدة في حق الفريقين، ورغم ذلك كان هذا البون الشاسع في النتيجة الحاصلة بين الفريقين: فكانت في حق فريق: زيادة في الإيمان، وكانت في حق الآخر: زيادة في الرجس، وما ذاك إلا لسلامة محل التلقي عند الفريق الأول، وفساده عند الثاني { في قلوبهم مرض } .

قال ابن كثير__ رحمه الله_: [{ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم }، أي: زادتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم كما قال تعالى: { وننزل من القرآن ماهو شفاء } الآية، وقوله: { قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد } .

وهذا من جملة شقائهم أن **ما يهدي القلوب: يكون سبباً لضلالهم، ودمارهم كما أن سئ المزاج لو غذي بما**

---

(١) " تفسير السعدي/١٤٨ " .

(٢) " اقتضاء الصراط المستقيم/٢٨١ " .

غذي به لا يزيده إلا خبالاً، ونقصاً][1] .

* وقال تعالى: { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً } [الإسراء: ٨٢] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_:

[يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد إنه: { شفاء ورحمة للمؤمنين }، أي: يُذهب ما في القلوب من أمراض؛ من: شك، ونفاق، وشرك، وزيغ، وميل، فالقرآن يشفى من ذلك كله، وهو_ أيضاً_ { رحمة } يحصل فيها الإيمان، والحكمة، وطلب الخير، والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به، وصدقه، واتبعه فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك: فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً، وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن كقوله تعالى: { قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد }، وقال تعالى: { وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون }، والآيات في ذلك كثيرة][2] .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسيره للآية السابقة:

[أي: فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، **وليس ذلك لكل أحد** وإنما ذلك: للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العاملين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به، أو عدم العمل به: فلا تزيدهم آياته إلا خساراً إذ به تقوم عليهم الحجة .

فالشفاء الذي تضمنه القرآن: عام لشفاء القلوب من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقصود الرديئة، فإنه مشتمل على: العلم اليقين الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ، والتذكير الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها .

وأمّا " الرحمة ": فإن ما فيه من الأسباب، والوسائل التي يحث عليها؛ متى فعلها العبد: فاز بالرحمة، والسعادة الا بدية، والثواب العاجل والآجل][3] .

* وفي قوله تعالى: { قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد }:

---

(١) " تفسير ابن كثير٢/٤٠٤ " .

(٢) " تفسير ابن كثير٣/٦٠ " .

(٣) " تفسير السعدي/٣٢٨ " .

قال ابن جرير_رحمه الله_: [قوله: { قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء }: يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهم {هو }، ويعني بقوله: { هو }: القرآن، { للذين آمنوا } بالله ورسوله، وصدقوا بما جاءهم به من ربهم { هدى}، يعني: بيان للحق، { وشفاء }، يعني: أنه شفاء من الجهل ...

وقوله: { والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى }، يقول تعالى ذكره: والذين لا يؤمنون بالله ورسوله، وما جاءهم به من الله { في آذانهم } ثقل عن استماع هذا القرآن، وصمم لا يستمعونه، ولكنهم يعرضون عنه، وهو عليهم {عمى }، يقول: وهذا القرآن على قلوب هؤلاء المكذبين به عمى عنه، فلا يبصرون حججه عليهم، وما فيه من مواعظه ...][(1)] .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_: [أي: قل يا محمد هذا القرآن لمن آمن به { هدى } لقلبه، { وشفاء } لما في الصدور من الشكوك والريب، { والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر }، أي: لا يفهمون ما فيه، { وهو عليهم عمى }، أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال سبحانه وتعالى: { وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً }، { أولئك ينادون من مكان بعيد}، قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم، قال ابن جرير: معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول، قلت: وهذا كقوله تعالى: { ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون}...][(2)].

ـــــ فسلامة المحل شرط أساس لوضوح الحق، وظهوره، وانكشافه عند أهل الطائفة المنصورة، ومع فساد المحل، ومرضه: لا تنفع حجة، ولا يفيد دليل، ولا يجدي برهان، ولو كانت هذه الحجج، وتلك الدلائل، والبراهين: أظهر من الشمس في رابعة النهار بل مع فساد المحل، ومرضه: لا ينفع شيء_ إلا أن يشاء الله_ ولو تناطحت الجبال بين يدي ذاك المريض، والأمر لله من قبل ومن بعد .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [قبولُ المحل لما يوضعُ فيه: مشروطٌ بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان: فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة: لم يبق فيه لاعتقادِ الحق ومحبتِهِ موضع كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع: لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة: لم يمكن شَغلُها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها .

فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله، وإرادته، والشوق إليه، والأنس به: لا يمكن شغلُهُ بمحبة الله، وإرادته، وحبه، والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره][(3)] .

ـــــ فقضيةُ من عمى عن الحق، ولم يره_ غالباً_ ليست في خفاء الحق ذاته، وعدم وضوحه، ولكنها في

---

(1) " تفسير الطبري١٢٧/٢٤: ١٢٨ " .

(2) " ابن كثير ١٠٤/٤ " .

(3) " الفوائد/٢٩ " .

بنيّات الطريق التي يسلكها هؤلاء طلباً للوصول: فيكون الهلاك، ولهؤلاء حق القول:

فنفسَك لُم ولا تَلم المطايا   ومت كمداً فليس لك اعتبارُ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_:

[ولكن ينبغي أن يعرف أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق: فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول، وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله: ضلوا، كما قال تعالى: { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ومَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى }، قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه: أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية ...

ولهذا أخبر الله في غير موضع من كتابه: بالضلال، والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله وإن كان له نظر وجدل واجتهاد في عقليات وأمور غير ذلك، وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين، قال تعالى: { وجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأَبْصَاراً وأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ولا أَبْصَارُهُمْ ولا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وحَاقَ بهم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }][(١)] .

الفصل الثاني

المعلم الثاني

الحق واحد في ذاته لا يتعدد

فالحق عند أهل الطائفة المنصورة: واحد في ذاته لا يتعدد[(٢)]، أدركه العبد أم أخطئه، وهذا عند أهل الطائفة المنصورة: قانون كلي، وقاعدة مطردة في كل خلاف بين ضدين إذ الضدان: لا يجتمعان، ولا يرتفعان: فلزم ضرورة كون الحق واحداً، لا يتعدد، والقول بغير ذلك: جمع بين الأضداد، وهذا ممّا يحيله العقل_ فضلاً عن الشرع_ إذ العقل يحيل أن يكون الشيء الواحد: حلالاً، وحراماً في نفس الوقت، أي: باعتبارات واحدة كما أن هذا القول من شأنه: وصم الشريعة المطهرة بالاضطراب، ورميها بالجمع بين الشيء ونقيضه مع القطع بأنّ مراد الله: واحد؛ أصابه من أصابه، وأخطئه من أخطئه .

ـــ وحقيقة الحال: فأن القول بتعدد الحق: هو ثمرة مُرّة من ثمار القول بوجوب التقليد ممّا استلزم القول

---

(١) " الفتاوى٣/٣١٥ " .

(٢) وهذا في خلاف التضاد لا التنوع كما يظهر .

بصحة الأقوال، والاجتهادات التي صدرت عن أصحابها وإن كانت متضادة تمام التضاد كما أن هذه المسألة ما كان لها أن تأخذ ما أخذته من حيز لولا تشقيقات المتكلمين، وتنظيراتهم الجدلية .

وأصل هذه المقالة من بدع المعتزلة التي أحدثوها كما قال أبو الطيب الطبري_ رحمه الله_:

[وهم الأصل في هذه البدعة، وقالوا ذلك لجهلهم بمعاني الفقه، وطرقه الصحيحة الدالة على الحق، الفاصلة بينه وبين ما عداه من الشبه الباطلة، فقالوا: ليس فيها طريق أولى من طريق، ولا أمارة أقوى من أمارة، والجميع متكافؤن، وكل من غلب على ظنه شيء: حكم به ...][(١)] .

ومن المعتزلة تلقفها المتكلمون كأبي الحسن الأشعري، ومن بعده: الباقلاني ثم الغزالي، ومنهم سرت، ولذلك قال أبو إسحاق الشيرازي لما بلغته مقالة أبي الحسن الأشعري هذه: [يقال: إن هذه بقية اعتزال بقي في أبي الحسن رحمه الله، هذا مذهب أصحابنا، ومذهب هؤلاء][(٢)] .

قال أبو المظفر السمعاني_ رحمه الله_: [ولقد تدبرت فرأيت أكثر من يقول بإصابة المجتهدين: هم المتكلمون الذين ليس لهم فى الفقه، ومعرفة أحكام الشريعة: كثيرُ حظ، ولم يقفوا على شرف هذا العلم، وعلى منصبه فى الدين، ومرتبته فى مسالك الكتاب والسنة، وإنما نهاية رأس مالهم: المجادلات ...][(٣)] .

ـ وبذلك يعلم أن ما ينسبه المتكلمون إلى الجمهور من القول بتعدد الحق: هو دعاوى مجردة شأنهم فيها كشانهم في حكاية هذه النسبة في كثير من مسائل الأصول مع كون الأمر على العكس تماماً كما سنبين هنا، وقد خلط المتكلمون هنا بين أمرين: بين ما أراده الله من عباده، وبين وجوب العمل بما أدى إليه الاجتهاد إذ لله تعالى حكمان؛ الأول: هو ما أراده، وشرعه، ونصب عليه الدلائل، والأمارات ليتوصل له المجتهدون، والثاني: وجوب العمل بما أدى إليه الاجتهاد، فنظر المتكلمون إلى الثاني ولم ينظروا إلى الأول كما لم يحرروا الفرق بينهما ببيان أن الثاني قد يفارق الأول، ولا يستلزمه .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [والمشهور: أن الجمهور ذهبوا إلى أن المصيب في القطعيات واحد عدا الجاحظ، والعنبري، وأما ما لا قطع فيه، فقال الجمهور_ أيضاً_: المصيب واحد، وقد ذكر ذلك الشافعي، وقرره، ونُقِلَ عن الأشعري أن كل مجتهد مصيب، وأن حكم الله تابع لظن المجتهد، وقال بعض الحنفية، وبعض الشافعية: هو مصيب باجتهاده وإن لم يُصب ما في نفس الأمر: فهو مخطىء، وله أجر واحد][(٤)] .

بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [قول **عامة السلف، والفقهاء** أن حكم الله: واحد، وأن من خالفه باجتهاد سائغ: مخطئ معذور، مأجور ...][(٥)] .

---

(١) " شرح اللمع١٠٤٨/٢ " .

(٢) " المرجع السابق " .

(٣) " قواطع الأدلة٣٢٣/٢ " .

(٤) " فتح الباري٤٠٩/٧: ٤١٠ "، وانظر: " جمع الجوامع٤٢٩/٢ " .

(٥) " الفتاوى٢٦٨/٢٠ " .

ـــــ وقد دلّ الشرع المطهر دلالة لا تحتمل مكابرة على أن الحق واحد لا يتعدد:

* قال تعالى: { فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ } [يونس: ٣٢] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قال علماؤنا: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل: منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها وهي مسائل الأصول التي الحق فيها في طرف واحد لأن الكلام فيها إنما هو في تعديد وجود ذات كيف هي، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله تعالى فيها: { لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً }، وقوله عليه السلام: " الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات "، والكلام في الفروع إنما هو أحكام طارئة على وجود ذات متقررة لا يختلف فيها، وإنما يختلف في الأحكام المتعلقة بها](١) .

وإذا كانت العبرة كما هو مقرر عند الأصوليين بعموم اللفظ، فإن لفظ الآية عام لجملة أحكام الدين: العلمية والعملية، الأصول والفروع، فعند كون الخلاف خلافَ تضاد: في أنه ليس بين الحق، والباطل منزلة ثالثة ممّا يفيد كون الحق واحداً لا يتعدد .

وليس لدينا ما يخصص قوله تعالى: { فماذا بعد الحق إلا الضلال } ببعض الدين دون البعض الآخر، وقد كان الإمام مالك_ رحمه الله_ يستدل بهذه الآية عينها على منع اللعب بالنرد والشطرنج، وهي من مسائل الفروع العملية كما لا يخفى:

قال القرطبي_ رحمه الله_: [روى عبد الله بن عبد الحكم، وأشهب عن مالك في قوله تعالى: { فماذا بعد الحق إلا الضلال }، قال: اللعب بالشطرنج، والنرد من الضلال، وروى يونس عن ابن وهب أنه سئل عن الرجل يلعب في بيته مع إمرأته بأربع عشرة، فقال مالك: ما يعجبني، وليس من شأن المؤمنين، يقول الله تعالى: { فماذا بعد الحق إلا الضلال } ...](٢) .

وهذا واضح تمام الوضوح في حمل الإمام مالك_ رحمه الله_ للآيه على عمومها، وأنه عند كون الخلاف خلاف تضاد_ سواء كان ذلك في الأصول أو الفروع_: { فماذا بعد الحق إلا الضلال }، ومن أحسن من الله حكماً، ومن أصدق من الله قيلاً .

* وقال تعالى: { وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل } الآية .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [إنما وحد سبيله: لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى: { الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون }](٣) .

وهذا مضطرد في جملة مسائل الديانة، ولا وجه لتخصيصه ببعض دون بعض .

---

(١) " تفسير القرطبي٨/٣٣٦ " .

(٢) " تفسير القرطبي٨/٣٣٧ "، وانظر: " سير أعلام النبلاء٨/١٠٨ " .

(٣) " تفسير ابن كثير٢/١٩٢ "، وانظر: " ابن كثير١/٣١٣ " .

* ونحو الآية السابقة: قوله تعالى: { قل **هذه سبيلي** ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني } .

* وقد قال تعالى: { وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الله ورسوله لعلمه الذين يستنبطونه منهم } .

فقوله تعالى: { لعلمه الذين يستنبطونه منهم }: يدل على أن هناك في محل الاستنباط حكماً معيناً يسعى المجتهد لإدراكه وموافقته في نفس الأمر .

وحمل الآية على القطعيات دون الظنيات: تحكم ليس عليه دليل بل هو مردود بظاهر الآية حيث قال تعالى: {وإذا جاءهم **أمر** ... }: أي: أمراً مطلقاً، أياً كانت صفته، وأياً كان مبناه(1) .

* وقد قال تعالى: { وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ }[الأنبياء: ٧٩].

فقوله تعالى: { ففهمناها سليمان }: ظاهر الدلالة في أن الحق هنا في هذه المسألة الفرعية، العملية: واحد، وأنه هو الموافق لمراد الله حيث أسند سبحانه وتعالى الفعل لنفسه: { ففهمناها } ممّا يدل على أن مراد الله واحد: أصابه سليمان عليه السلام بتفهيم الله له وتوفيقه، ولم يصبه داود عليه السلام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فاختص سليمان بالفهم، وأثنى عليهما بالحكم والعلم](2) .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآية: [وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب، وقد يخطئ ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده](3) .

ـ واستدلال مَنْ ذهب للقول بتعدد الحق، وأن كل مجتهد مصيب بقوله تعالى: { وكلاً آتينا حكماً وعلماً }: غير مستقيم ألبته إذ الآية يجب أن تفهم في سياق واحد، فلما قال تعالى: { ففهمناها سليمان }_ والمفهوم حجة عند جماهير أهل العلم_: وجب أن يفهم قوله بعدها: { وكلاً آتينا حكماً وعلماً } بما يتفق معها ولا يعارضها، وكلام الله يتفق، ولا يختلف .

وغاية ما في الآية: (الدلالة على أن كل واحد منهما أوتي حكماً وعلماً، وهو نكرة في سياق الإثبات: فيخص، وليس فيه ما يدل على أنه أوتي حكماً وعلماً فيما حكم به، وقد أمكن حمل ذلك على أنه أوتي حكماً وعلماً بمعرفة دلالات الأدلة على مدلولاتها وطرق الاستنباط، فلا يبقى حجة في غيره)(4) .

* وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب: فله أجران، وإذا حكم فاجتهد

---

(١) انظر: " الإحكام للآمدي٤/١٩١: ١٩٢ " .

(٢) " رفع الملام/٣٠ "، " الفتاوى٢٠/٢٥٢ " .

(٣) " تفسير السعدي/٣٧٦ " .

(٤) " الأحكام للآمدي٤/٢٠١ " .

ثم أخطأ: فله أجر "(١) .

وهذا الحديث نصٌّ في كون الحق واحداً، لا يتعدد من وجهين:

أولاً: قوله صلى الله عليه وسلم: " ثم أصاب "، ثم قال صلى الله عليه وسلم بعدها: " ثم أخطأ ": دال على أن الصواب، الموافق لمراد الله سبحانه وتعالى: واحد في ذاته، قد يدركه المجتهد، وقد يخطئه .

ثانياً: قوله صلى الله عليه وسلم عن المجتهد إذا أصاب: " فله أجران "، وفي المقابل قال صلى الله عليه وسلم عن المجتهد إذا أخطأ: " فله أجر "، فهذه المغايرة بين أجر الصواب، وأجر الخطأ: قاطعة بالفرق بين ماهية "الصواب "، وماهية " الخطأ "، وأنهما متغايران، وأن مراد الله_ وهو الصواب_: واحد .

وقد ترجم الإمام البخاري_ رحمه الله_ لهذا الحديث بقوله: " باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ"(٢).

ــ وأما من ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب، وأن الحق يتعدد تعلقاً بقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: " وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ: فله أجر ": فقد أبعد النجعة، وجانب الصواب، وتكلف في تأويل كلام النبي صلى الله عليه وسلم تكلفاً ظاهراً، وحَمَّله ما هو صريح في رده إذ غاية قوله صلى الله عليه وسلم: "وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ: فله أجر ": رفع الأثم والحرج عن المجتهد، وهو ما نقول، وسيأتي قريباً التنبيه إليه .

والحاصل: أن من اجتهد في طلب الحق من مظانه، وبذل الوسع، واستفرغ الجهد، وأتى بما يستطيع من ذلك ثم أخطأ: فهو معذور بل مأجور كما صرّح بذلك صلى الله عليه وسلم بقوله: " فله أجر "، إلا أن رفع الحرج، ونفي الإثم عنه بل والحكم له بالأجر: لا يعني أنه قد أصاب الحق في نفس الأمر، كيف وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم في نفس مقام الحكم له بالأجر: بتخطئته: " وإذا حكم فاجتهد ثم **أخطأ**: فله أجر " ! .

ــ وهاهنا: أمران:

" الاجتهاد بشرطه "، و" إصابة الحق "، فمن قام به الأمران: فله أجران: أجر اجتهاده، وأجر إصابة الحق، ومن قام به الأمر الأول دون الثاني: فله أجر الاجتهاد دون أجر إصابة الحق، وفي هذه الحالة الثانية: فإن الحكم برفع الحرج، ونفي الإثم عن المجتهد بل والحكم له بالأجر: لا يستلزم، ولا يتضمن الحكم بعدم خطئه، وإصابته الحق في نفس الأمر، والخلط بين الأمرين هنا: أمر عجب ليس له ما يبرره غير عدم الرغبة في تخطئة الأئمة المجتهدين_ رحمهم الله_، رغم أن الأئمة أنفسهم قد ورد عنهم واستفاض: تخطئتهم لبعضهم البعض بل ورد هذا، وذاع، وانتشر عمن هم أعظم وأجل: عن الصحابة الكرام_ رضوان الله عليهم جميعاً_ كما ستأتي الإشارة إليه(٣) .

---

(١) " البخاري٦/٢٦٧٦ "، " مسلم٣/١٣٤٢ " عن عمرو بن العاص_ رضي الله عنه_ .

(٢) " صحيح البخاري٦/٢٦٧٦ " .

(٣) انظر: " فتح الباري١٣/٣٢٠ " .

قال الشوكاني_ رحمه الله_ ضمن كلامه عن الحديث السابق: [فالحق الذي لا شك فيه، ولا شبهة: أن الحق: واحد، ومخالفه: مخطئ مأجور إذا كان قد وفّي الاجتهاد حقه، ولم يقصر في البحث بعد إحرازه لما يكون به مجتهداً](1) .

ـ ونحو الحديث السابق في الدلالة على كون الحق واحداً: قوله صلى الله عليه وسلم: " القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة: رجلٌ علم الحق، فقضى به: فهو في الجنة، ورجلٌ علمَ الحق، فقضى بغيره: فهو في النار، ورجلٌ قضى للناس على جهل: فهو في النار "(2) .

والحديث ظاهر في أن الحق: واحد لا يتعدد بهذه القسمة الثلاثية، وأحكامها المختلفة، (فإنه لو لم يكن الحق واحداً: لم يكن للتقسيم معنى)(3) .

* ومن حديث بريدة بن الحصيب_ رضي الله عنه_ أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله: فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا "(4) .

وهو ظاهر في أن حكم الله_ وهو الحق_: واحد في ذاته، وأن المجتهد قد يصيبه، وقد يخطئه .

قال النووي_ رحمه الله_: [وفيه حجة لمن يقول ليس كل مجتهد مصيباً بل المصيب واحد، وهو الموافق لحكم الله في نفس الأمر ...](5) .

وقال الصنعاني_ رحمه الله_: [وهو دليل على أن الحق في مسائل الاجتهاد مع واحد، وليس كل مجتهد مصيباً للحق](6) .

وقال الشوكاني_ رحمه الله_ في فوائد هذا الحديث: [وأن ليس كل مجتهد مصيباً بل الحق عند الله واحد](7).

ـ ومن أصرّح الأدلة_ كذلك_ على أن الحق_ وهو مراد الله_ في ذاته عند الاختلاف: واحد، لا يتعدد: ما أخرجه الشيخان عن أبي سعيد الخدري_ رضي الله عنه_، قال: " نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سعد، فأتى على حمار، فلما دنا من المسجد، قال صلى الله عليه وسلم

---

(1) " إرشاد الفحول/٤٣٧: ٤٣٨ " .

(2) صحيح: " المستدرك٤/١٠١ "، " الترمذي٣/٦١٣ "، " أبو داود٣/٢٩٩ "، " النسائي الكبرى٣/٤٦١ "، "ابن ماجه٢/٧٧٦ "، " البيهقي الكبرى١٠/١١٦ "، " المعجم الأوسط٤/٦٣ "، " المعجم الكبير٢/٢٠، ٢١ "، وانظر: " المجمع٤/١٩٦ " .

(3) " إرشاد الفحول/٤٣٨ " .

(4) " مسلم٣/١٣٥٧ " .

(5) " شرح مسلم١٢/٤٠ " .

(6) " سبل السلام٤/٤٨ " .

(7) " نيل الأوطار٨/٥٢ " .

للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم، فقال: هؤلاء نزلوا على حكمك .

فقال: تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم .

قال صلى الله عليه وسلم: قضيت بحكم الله، وربما قال: بحكم الملك "[١] .

فقوله صلى الله عليه وسلم تعقيباً على حكم سعد_ رضي الله عنه_: " قضيت بحكم الله أو بحكم الملك ": دال على أن لله سبحانه وتعالى هنا حكماً واحداً: هو مراده، وهو الحق الذي يحبه ويرضاه، وهو ما وافقه سعدُ_رضي الله عنه_ .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [" بحكم الملك "، أي: بحكم الله، أي: صادفت حكم الله][٢] .

* وفي رواية، قال صلى الله عليه وسلم: " لقد حكم اليوم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق السماوات"[٣].

قال السهيلي: [معناه: أن الحكم نزل من فوق ...][٤] .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " إن الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس "[٥] .

قال ابن رجب_ رحمه الله_: [كلام النبي صلى الله عليه وسلم يدل على أن هذه المشتبهات من الناس من يعلمها، وكثير منهم لا يعلمها، فدخل فيمن لا يعلمها: نوعان، أحدهما: من يتوقف فيها لاشتباهها عليه، والثاني: من يعتقدها على غير ما هي عليه .

ودلّ الكلام على أن غير هؤلاء: يعلمها ومراده أنه يعلمها على ما هي عليه في نفس الأمر من تحليل أو تحريم .

وهذا من أظهر الأدلة على أن المصيب عند الله في مسائل الحلال والحرام المشتبهة المختلف فيها: واحد عند الله، وغيره ليس بعالم بها بمعنى أنه غير مصيب لحكم الله فيها في نفس الأمر وإن كان يعتقد فيها اعتقاداً يستند فيه إلى شبهة يظنها دليلاً، ويكون مأجوراً على اجتهاده، مغفوراً له خطؤه][٦] .

ـــــ وممّا يدل_ كذلك_ على أن الحق واحد، لا يتعدد: أنّا قد أمرنا عند الاختلاف: بالرد إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولو كانت الأقوال المختلفة، المتضادة كلها: حقاً، لما كان هناك معنىً لهذا الرد، كما أن

---

(١) " البخاري٣/١١٠٧، ١٣٨٤، ٤/١٥١١ "، " ٣/١٣٨٨، ١٣٨٩ " .

(٢) " فتح الباري١١/٥٤ " .

(٣) " المستدرك٢/١٣٤ " .

(٤) " فتح الباري٧/٤١٢ " .

(٥) " البخاري١/٢٨ "، " مسلم٣/١٢١٩ " .

(٦) " جامع العلوم والحكم/٧١ " .

الأمر برد الاختلاف لله ورسوله صلى الله عليه وسلم: يدل على أن مراد الشارع في محل الاختلاف: واحد، يسعى المجتهد لنيله، والوقوف عليه .

قال ابن كثير_ رحمه الله_ في قوله تعالى: { فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول } .

[قال مجاهد، وغير واحد من السلف: أي: إلى كتاب الله، وسنة رسوله، وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين، وفروعه: أن يُرد التنازع في ذلك إلى الكتاب، والسنة كما قال تعالى: { وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله }، فما حكم به الكتاب والسنة، وشهدا له بالصحة: فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال][١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [والدليل الخاص الذي يُرجّح به قول على قول: أولى بالاتباع من دليل عام على أن أحدهما أعلم وأدْيَن، وعلم الناس بترجيح قول على قول: أيسر من علم أحدهم بأن أحدهما أعلم وأدْين لأن الحق واحد ولا بد][٢] .

ـــــ وقد اشتهر عن الصحابة الكرام_ رضوان الله عليهم_ وذاع، وانتشر، واستفاض ما يدل على أن الأقوال: منها ما هو حق وصواب، ومنها ما هو باطل وخطأ، وهم_ رضوان الله عليهم_ معدن العلم وحملته، وأهل الاجتهاد ورافعوا رايته، ومن ذلك:

* قول أبي بكر الصديق_ رضي الله عنه_ في الكلالة: " أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً: فمن الله، وإن **يكن خطأ**: فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان "[٣] .

* وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: " لما توفى النبي صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر، كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله: عصم مني ماله، ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله .

قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة: حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقاتلتهم على منعها .

قال عمر_ رضي الله عنه_: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال: فعرفت أنه **الحق** "[٤] .

* وكتب كاتب لعمر_ رضي الله عنه_: " هذا ما أرى اللهُ أميرَ المؤمنين عمر ": فانتهره عمر_ رضي الله

---

(١) " تفسير ابن كثير ٥١٩/١ " .

(٢) " الاختيارات الفقهية/٣٣٣ " .

(٣) " الدارمي٤٦٢/٢ "، " البيهقي٢٢٣/٦ " .

(٤) " البخاري٢٥٣٨/٦ " .

عنه_، وقال: " لا بل اكتب: هذا ما رأى عمر، فإن كان صواباً: فمن الله، وإن كان **خطأ**: فمن عمر "[1] .

* " وقطع عمر_ رضي الله عنه_ اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في التكبير على الجنائز، وردهم إلى أربع "[2].

* " وأرسل عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ إلى امرأة مغيبة كان يُدخل عليها، فقيل لها أجيبي عمر، فقالت: يا ويلها، ما لها ولعمر، فبينا هي في الطريق: فزعت: فضربها الطلق: فدخلت داراً: فألقت ولدها، فصاح الصبي صيحتين ثم مات .

فاستشار عمر أصحابَ النبي صلى الله عليه وسلم: فأشار عليه بعضهم أن ليس عليك شيء، إنما أنت وال، ومؤدب .

وصمت علي، فأقبل عليه، فقال: ما تقول، فقال علي: إن كانوا قالوا برأيهم: فقد **أخطأ** رأيهم، وإن كانوا قالوا في هواك: فلم ينصحوا لك، أرى أن ديته عليك ... "[3].

* وعن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_ " أن قوماً أتوه، فقالوا جئناك لنسألك عن رجل تزوج منا، ولم يفرض صداقاً، ولم يجمعهما الله حتى مات .

فقال عبد الله: ما سئلت عن شيء منذ فارقت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد علي من هذه، فأتوا غيري، فاختلفوا إليه شهراً ثم قالوا له في آخر ذلك: من نسأل إن لم نسألك وأنت أخية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه البلدة، ولا نجد غيرك .

فقال ابن مسعود_ رضي الله عنه_: سأقول فيها بجهد رأي، إن كان صواباً: فمن الله، وإن كان **خطأ**: فمني، والله ورسوله: منه بريء، أرى أن يفرض لها كصداق نسائها، ولا وكس، ولا شطط، ولها الميراث، وعليها العدة أربعة اشهر وعشراً .

وذلك بحضرة ناس من أشجع، فقام رجل يقال له معقل بن سنان الأشجعي، فقال: أشهد أنك قضيت بمثل الذي قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأة منا: يقال لها: بروع بنت واشق .

فما رُئي عبد الله فرح بشيء بعد الإسلام كفرحه بهذه القصة "[4] .

* وفي لفظ: " ففرح عبد الله بن مسعود فرحاً شديداً حين **وافق قضاؤه قضاء** رسول الله صلى الله عليه وسلم"[5] .

---

(١) " البيهقي١١٦/١٠ " .

(٢) " البيهقي٣٥/٤ " .

(٣) " البيهقي١٢٣/٦، ٣٢٢/٨ "، " مصنف عبد الرزاق٤٥٨/٩: ٤٥٩ " .

(٤) " ابن حبان٤٠٩:٤١١ "، " المستدرك١٩٦/٢ "، " البيهقي٢٤٥/٧ "، " النسائي الكبرى٣١٦/٣ " .

(٥) " أبو داود٢٣٧/٢ " .

* " وجاء رجل إلى أبي موسى الأشعري، وسلمان بن ربيعة_ رضي الله عنهما_، فسألهما عن ابنة، وابنة ابن، وأخت لأب، وأم .

فقالا: لابنته النصف، وللأخت من الأب والأم النصف، ولم يورثا ابنة الابن شيئاً، وأتِ ابنَ مسعود فإنه سيتابعنا .

فأتاه الرجل، فسأله وأخبره بقولهما .

فقال ابن مسعود_ رضي الله عنه_: **لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين**، ... " الحديث[1] .

* وعن عائشة_ رضي الله عنها_، وذكر لها أن عبد الله بن عمر يقول: " إن الميت ليعذب ببكاء الحي "، فقالت عائشة_ رضي الله عنها_: " يغفر الله لأبي عبد الرحمن أما إنه لم يكذب، ولكنه **نسي أو أخطأ** ... " الحديث[2] .

* وكان ابن عباس_ رضي الله عنهما_ ينكر على من قال بالعَوْل من الصحابة كعلي، وابن مسعود، وزيد_رضي الله عنهم_، وكان يقول: " ترون الذي أحصى رمل عالج عدداً: لم يحص في مال: نصفاً، ونصفاً، وثلثاً، إذا ذهب نصف، ونصف، فأين موضع الثلث "[3] .

* بل كان_ رضي الله عنه_، يقول: " فليجتمعوا: فلنضع أيدينا على الركن ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين: ما **حكم الله** بما قالوا "[4] .

* وقال: " لوددت أني وهؤلاء الذين **يخالفوني في الفريضة**: نجتمع، فنضع أيدينا على الركن ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين "[5] .

* وبلغ ابن عباس_ رضي الله عنهما_ أن ابن مسعود_ رضي الله عنه_ يقول: " إن طلق ما لم ينكح: فهو جائز، فقال ابن عباس: **أخطأ** في هذا، إن الله عز وجل يقول: { إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن }، ولم يقل: إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن "[6] .

ــ فهذه الأقوال عن الصحابة_ رضوان الله عليهم_، وغيرها كثير ممّا تركناه من تخطئتهم لأنفسهم، ومن تخطئتهم لبعضهم البعض: قاطعة في كونهم يرون الاجتهاد في نفس الأمر: منه ما هو حق وصواب، ومنه ما هو باطل وخطأ، أي: أن الحق في ذاته: واحد، لا يتعدد، وإلا لم يكن لكلامهم هذا أدنى معنى .

---

(١) " أبو داود٣/١٢٠ " .

(٢) " مسلم٢/٦٤٣ " .

(٣) " البيهقي٦/٢٥٣ "، " سنن سعيد بن منصور/٦١ "، " مصنف عبد الرزاق١٠/٢٥٣ " .

(٤) " سنن ابن منصور/٦١ " .

(٥) " مصنف عبد الرزاق١٠/٢٥٤ " .

(٦) " مصنف عبد الرزاق٦/٤٢٠ "، " المعجم الكبير٩/٣٢٧ "، " مجمع الزوائد٤/٣٣٤ " .

هذا والصحابة_ رضوان الله عليهم_: هم أهل الاجتهاد التام، واجتهادهم: أكمل من اجتهاد غيرهم، وهم مبرّؤون في اجتهادهم ممّا قد يخدش وجه اجتهاد غيرهم، فإذا كان هذا واقعاً في اجتهادهم: فلا شك في وقوعه في اجتهاد مَنْ بعدهم، ولا يدفع هذا عاقل فضلاً عن عالم .

* قال الإمام أبو حنيفة_ رحمه الله_ في قولين للصحابة: " أحد القولين: خطأ، والمأثم موضوع "(١) .

* وسئل الإمام مالك_ رحمه الله_ عن اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " خطأ، وصواب، فانظر في ذلك "(٢) .

* وقال_ رحمه الله_ أيضاً_ في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مخطيء، ومصيب، فعليك بالاجتهاد "(٣) .

* وقال الإمام الشافعي_ رحمه الله_ في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أصير منها إلى ما وافق الكتاب أو السنة أو الإجماع أو كان أصح في القياس " .

قال المزني_ رحمه الله_ تعليقاً على قول الإمام السابق: [فقد بين أنه قبلَ قوله بحجة، ففي هذا مع اجتماعهم على أن العلماء في كل قرن ينكر بعضهم على بعض فيما اختلفوا فيه: قضاءٌ بيّنٌ على أن لا يقال إلا بحجة، وأن الحق في وجه واحد، والله أعلم](٤) .

قال ابن عبد البر_ رحمه الله_: [قد اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: فخطّأ بعضهم بعضاً، ونظر بعضهم في أقاويل بعض وتعقبها، ولو كان قولهم كله صواباً عندهم: لما فعلوا ذلك](٥) .

_ وقد عقد ابن عبد البر_ رحمه الله_ باباً عَنْون له بقوله: " باب: ذكر الدليل في أقاويل السلف على أن الاختلاف: خطأ، وصواب: يلزم طلب الحجة عنده، وذكر بعض ما خطأ فيه بعضهم بعضاً، وأنكره بعضهم على بعض عند اختلافهم ... "(٦) .

وقد ساق ابن عبد البر_ رحمه الله_ في هذا الباب جملة وفيرة عن السلف الصالح: الصحابة فمن بعدهم_رضوان الله عليهم_ في تعقب بعضهم بعضاً، وتخطئة بعضهم بعضاً بل وإنكار بعضهم على بعض إلى أن قال_ رحمه الله_:

[هذا كثير في كتب العلماء، وكذلك اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتابعين، ومن بعدهم

---

(١) " جامع ابن عبد البر٢/٨٣ " .

(٢) " المرجع السابق٢/٨١ " .

(٣) " نفس المرجع " .

(٤) " جامع بيان العلم٢/٨٢ " .

(٥) " جامع بيان العلم٢/٨٤ " .

(٦) " المرجع السابق٢/٨٥: ٩٢ " .

من المخالفين، وما ردّ فيه بعضهم على بعض: لا يكاد يحيط به كتاب فضلاً عن أن يجمع في باب، وفيما ذكرنا منه: دليل على ما عنه سكتنا، وفي رجوع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم إلى بعض، وردّ بعضهم على بعض: دليل واضح على أن اختلافهم عندهم: خطأ، وصواب، ولذلك (ما) كان يقول كل واحد منهم: جائز ما قلت أنت، وجائز ما قلت أنا، وكلانا نجم يهتدى به، فلا علينا شيء من اختلافنا .

والصواب ممّا اختلف فيه وتدافع: وجه واحد، ولو كان الصواب في وجهين متدافعين: ما خطّأ السلف بعضهم بعضاً في اجتهادهم، وقضائهم، وفتواهم، والنظر يأبى أن يكون الشيء، وضده: صواباً كله، ولقد أحسن القائل:

إثبات ضدين معاً في حال أقبح ما يأتي من المحال

ومن تدبر رجوع عمر إلى قول معاذ في المرأة الحامل، وقوله: لولا معاذ هلك عمر: علم صحة ما قلنا ...

ثم ذكر_ رحمه الله_ عدة أمثلة من رجوع الصحابة_ رضوان الله عليهم_ لقول بعضهم البعض إلى أن قال:

وفي كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري: لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك: أن ترجع فيه إلى الحق، فإن الحق: قديم، والرجوع إلى الحق: أولى من التمادي في الباطل .

وروي عن مطرف بن الشخير أنه قال: لو كانت الأهوآء كلها واحداً: لقال القائل: لعل الحق فيه، فلما تشعبت وتفرقت: عرف كل ذي عقل أن الحق لا يتفرق ...

وقال أشهب: سمعت مالكاً يقول: ما الحق إلا واحد، قولان مختلفان: لا يكونان صواباً جميعاً، ما الحق، والصواب إلا واحد، قال أشهب: وبه يقول الليث ...][1].

ـــ قال أبو إسحاق الشيرازي_ رحمه الله_: [مسألة: الحق من قول المجتهدين في الفروع: واحد، وعلى ذلك دليل يجب طلبه وإصابته. وما سواه: **باطل** ...

ويدل عليه إجماع الصحابة_ رضي الله عنهم_ ...

ثم ساق_ رحمه الله_ بعض الآثار عن الصحابة كالتي ذكرناها آنفاً، ثم قال:

وهذا إجماع ظاهر على تخطئة بعضهم بعضاً في مسائل الاجتهاد: فدل على أن الحق من هذه الأقوال في واحد، وما سواه: باطل][2] .

وقد قال الشوكاني_ رحمه الله_: [وما أشنع ما قاله هؤلاء الجاعلون حكمَ الله عز وجل متعدداً بتعداد المجتهدين، تابعاً لما يصدر عنهم من الاجتهادات، فإن هذه المقالة مع كونها مخالفة للأدب مع الله عز وجل، ومع شريعته المطهرة: هي_ أيضاً_ صادرة عن محض الرأي الذي لم يشهد له دليل، ولا عضدته شبهة تقبلها العقول، وهي_ أيضاً_ مخالفة لإجماع الامة_ سلفها، وخلفها_ فإن الصحابة، ومن بعدهم في كل عصر من العصور ما زالوا يخطئون من خالف في اجتهاده ما هو أنهض ممّا تمسك به، ومن شك في ذلك، وأنكره:

---

(١) " جامع بيان العلم٢/٨٧: ٨٩ " .

(٢) " التبصرة/٥٠١ " .

فهو لا يدري بما في بطون الدفاتر الاسلامية بأسرها من التصريح في كثير من المسائل بتخطئة بعضهم لبعض، واعتراض بعضهم على بعض][(1)] .

ـــ ولقد كان الأئمة الكبار_ رحمهم الله_ كلهم ينهون أصحابهم عن تقليدهم كما كانوا يأمرونهم بطلب الحق بدليله من مظانه، وستأتي معنا نصوصهم في المَعْلَم الثالث_ إن شاء الله_: وهذا صريح منهم في كون الحق في نفس الأمر: واحداً، لا يتعدد .

ـ كما كان هؤلاء الأئمة الكبار يرجعون في أحيان كثيرة عن كثير من أقوالهم التي كانوا عليها ممّا اصطلح عليه بـــ" تغير الاجتهاد "، وهذا وحده من أظهر ما يكون دلالةً على أن الحق في ذاته: واحد، لا يتعدد، وهو ما يسعى المجتهد لإدراكه بأقصى ما يستطيع، ولذا: يرجع عمّا كان عليه إذا تبين له أن الحق بخلافه، ولو كانت الأقوال المختلفة كلها حقاً وصواباً، وكان كل مجتهد مصيباً، وكان الحق في نفس الأمر يتعدد: لما كان لهذا الرجوع معنى، وهذا ممّا يقترب من القطع، والله أعلم .

ـ ومن العجيب هنا: أن كتب القائلين بأن كل مجتهد مصيب، وأن الحق يتعدد: طافحة بالرد على مخالفيهم، والإنكار عليهم بعبارات لا تخلو من رعونة وشدة، هذا مع تطويلهم النفس، وكثرة تفريعهم في الانتصار لأقوالهم، ورد أقوال مخالفيهم، ولو كان الحق يتعدد، وكان كل مجتهد مصيباً في نفس الأمر: لكان الخطب أهون بكثير من هذا، فهذا المسلك منهم: إقرار عملي بأن الحق واحد في نفس الأمر، وأنه هو ما يسعى كل مجتهد لإدراكه: أدركه أم أخطئه .

قال أبو إسحاق الشيرازي_ رحمه الله_: [ويدل عليه إجماع الأمة على وجوب النظر، والاستدلال في ترتيب الأدلة، وبناء بعضها على بعض، ولو كان الجميع حقاً، وصواباً: لم يكن للنظر، والاجتهاد معنىً، وربما عُبّر عن هذا بأن الناس قد اتفقوا على حسن النظر، وعقد المجالس به، ولو كان الجميع حقاً، وصواباً: لم يكن للنظر معنى، ولا لعقد المجالس بسببه وجه إذ لا يجوز أن يُناظر بعضهم بعضاً على أمر هو: حق، وصواب كما لا يجوز أن يُناظر بعضهم بعضاً على ترك ما أجمعوا عليه من الأحكام][(2)] .

ـ ثم إنّا نقول: (إن القولين المتضادين في مسائل الاجتهاد كالتحليل والتحريم، والإيجاب والإسقاط، والتصحيح والإفساد: لا يخلو إمّا أن يكونا صحيحين أو فاسدين أو أحدهما صحيحاً، والآخر فاسداً، ولا يجوز أن يكونا صحيحين لأن ذلك يوجب أن يكون الشيء الواحد: حلالاً وحراماً، صحيحاً فاسداً، حسناً قبيحاً: وذلك مستحيل، ولا يجوز أن يكونا فاسدين لأن ذلك يؤدي إلى إجماع الأمة على الخطأ: فثبت أن أحدهما: صحيح، والآخر: باطل ...

ويَرِد هذا الدليل على وجه آخر، وهو أن تحليل الشيء وتحريمه، وإفساده وتصحيحه: لا يجوز ورود الشرع به، ولو جاز ذلك: لورد النص به، فيقول: النبيذ حلال، حرام، والنكاح بلا ولي: باطل، صحيح على هذه الصفة، وما لا يجوز ورود الشرع به: لم يَجز أن يَرد عليه النظر، والاجتهاد، بَيّنَ صحة هذا: أن النظر، والاجتهاد نتيجة النص، والإجماع، فإذا استحال أن يدل النص، والإجماع على تحليل الشيء، وتحريمه على

(1) " إرشاد الفحول/٤٣٨ " .

(2) " التبصرة/٥٠١ "، ونحوه في " قواطع الأدلة للسمعاني٢/٣١٨ " .

الإطلاق: استحال أن يدل عليهما النظر، والاجتهاد إذ لا يجوز أن تدل نتيجة الشيء على ما لا يدل عليه أصله)[١] .

ــ قال ابن حزم_ رحمه الله_: [مسألة: والحق من الأقوال في واحد منها وسائرها خطأ، وبالله تعالى التوفيق.

قال الله تعالى: { فماذا بعد الحق إلا الضلال }، وقال تعالى: { ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا }، وذم الله الاختلاف فقال: { ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا }، وقال تعالى: { ولا تنازعوا فتفشلوا}، وقال تعالى: { تبيانا لكل شيء } .

فصح: أن الحق في الأقوال ما حكم الله تعالى به فيه، وهو واحد، لا يختلف، وأن الخطأ ما لم يكن من عند الله عز وجل .

ومن ادعى أن الأقوال كلها حق، وأن كل مجتهد مصيب: فقد قال قولاً لم يأت به قرآن، ولا سنة، ولا إجماع، ولا معقول، وما كان هكذا: فهو باطل .

ويبطله_ أيضاً_: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا اجتهد الحاكم فأخطأ: فله أجر ": فنص عليه الصلاة والسلام أن المجتهد قد يخطىء .

ومن قال إن الناس لم يكلفوا إلا اجتهادهم: فقد أخطأ بل ما كلفوا إلا إصابة ما أمر الله به .

قال الله عز وجل: { اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء }: فافترض عز وجل اتباع ما أنزل إلينا، وأن لا نتبع غيره، وأن لا نتعدى حدوده، وإنما أُجِرَ المجتهدُ المخطىء أجراً واحداً على نيته في طلب الحق فقط، ولم يأثم إذا حرم الإصابة، فلو أصاب الحق: أجر أجراً آخر كما قال عليه السلام إنه إذا أصاب أجرَ ثانياً ...][٢] .

ثم ساق_ رحمه الله_ بسنده حديث عمرو بن العاص_ رضي الله عنه_ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " .

ــ وفي الختام هنا، فإن القول بتعدد الحق في ذاته: يخالف ما هو مقطوع به من كون الشريعة موضوعة على قاعدة الابتلاء، ومسالكه، فيُبتلى العبادُ بحكم الشرع: ليتبين مَنْ يخرج عن دواعي الهوى، وحظوظ النفس ببذل الجهد الممكن نحو معرفة الحق، والعمل به، وهذا: هو المقصد الأساس من وضع الشرع كما لا يخفى، وبذلك: تتفاوت أقدار العباد، وتتعدد منازلهم .

ومن البدهي (أن العبد إذا اعتقد أن كل مجتهد مصيب للحق عند الله تعالى: للحِقه الكلالُ، والكسل فى الطلب بل يتوانى، ويقصر، ويعتمد على أنه إن أصاب أو أصاب صاحبه: فقد أصاب الحق، وإذا علم أن الحق

---

(١) " التبصرة/٢:٥٠٢ ٥٠٤ "، ونحوه في " قواطع الأدلة للسمعاني٢/٣١٦ " .

(٢) " المحلى١/٧٠ " .

واحد، وأن الله عز وجل كلفه الإصابة ببذل مجهوده: يتكلف، ويتحمل كل كد، وتعب فى الطلب ليصيب الحق عند الله تعالى ثم يكون التوفيق، والهداية له من الهوى على قدر سعيه، وكده، وبذله)[1] .

ـــــ مسألة:

عدم التلازم بين الخطأ والإثم عند الطائفة المنصورة .

فأهل الطائفة المنصورة وإن كانوا يرون أن الحق في نفس الأمر: واحد، لا يتعدد إلا أنهم في نفس الوقت يرون عدم التلازم بين الخطأ والإثم، ومن ثم فليس كل من أخطأ الحق أو حُرم التوفيق لإصابته: يكون آثماً، مستحقاً للوعيد بل قد يكون معذوراً بل مأجوراً إذ لا وعيد عند أهل الطائفة المنصورة قبل قيام الحجة، وفرق

(١) " قواطع الأدلة للسمعاني٢/٣٢٢ " .

بين من طلب الحق: فأخطئه، وبين من طلب الباطل: فأصابه، والله: حَكمٌ، عدل .

وأهل الطائفة المنصورة: يقولون بما دل عليه الدليل، وقد (ثبت بالكتاب، والسنة، والإجماع: أن من الخطأ في الدين: ما لا يكفر مخالفه بل ولا يفسّق بل ولا يأثم)[1].

ولذا، كان (مذهب أهل السنة: أنه لا إثم على من اجتهد وإن أخطأ)[2] .

* قال تعالى: { لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطئنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين } [البقرة: ٢٨٦] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا }، المعنى: اعف عن إثم ما يقع منا على هذين الوجهين أو أحدهما كقوله عليه السلام: " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه "[3]، أي: إثم ذلك ...][4] .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في الآية: [ويؤخذ من هنا: قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها، وقاعدة العفو عن النسيان، والخطأ ...][5] .

* وقد جاء عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: " لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: { لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير } .

قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية: ولا نطيقها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا، وعصينا بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

فلما اقترأها القوم: ذلت بها ألسنتهم: فأنزل الله في إثرها: { آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}.

---

(١) " الفتاوى لابن تيمية١٢/٤٩٤ " .

(٢) " المرجع السابق١٩/١٢٣ " .

(٣) انظر الكلام حول صحة هذا الحديث: " جامع العلوم والحكم لابن رجب/٣٧١: ٣٧٤ " .

(٤) " تفسير القرطبي٣/٤٣١: ٤٣٢ " .

(٥) " تفسير السعدي/٦٧ " .

فلما فعلوا ذلك: نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: { لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا } .

قال: نعم .

{ ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا } .

قال: نعم .

{ ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به } .

قال: نعم .

{ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين } .

قال: نعم "(١) .

* وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_، قال: " لما نزلت هذه الآية: { وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله }، قال: دخل قلوبَهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا .

قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم: فأنزل الله تعالى: { لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا } .

قال: قد فعلت .

{ ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا } .

قال: قد فعلت .

{ واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا } .

قال: قد فعلت "(٢) .

ـــ وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ إلى أن كثيرًا (من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة، ولم يعلموا أنه بدعة: إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يُرَدْ منها، وإما لرأي رَأَوْه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم، وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله تعالى: { ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا }، وفي الصحيح أن الله قال : " قد فعلتُ ")(٣) .

* وقال تعالى: { والذي جاء بالصدق وصدَّق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء

---

(١) " مسلم١/١١٥ " .

(٢) " مسلم١/١١٦ " .

(٣) " الفتاوى١٩/١٩١ " .

المحسنين **ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا** ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعلمون)[الزمر: ٣٣_ ٣٥].

* وقال تعالى_ كذلك_: { أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا **ونتجاوز عن سيئاتهم** في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون } .

فهذا الوعد المذكور في هاتين الآيتين بالتجاوز عن السيئات وتكفيرها: يشمل بعمومه_ فضلاً من الله ورحمة_: من طلب الحق ببذل وسع، واستفراغ جهد مع صدق وإخلاص: فأخطئه، وقد انتزع شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ هذا المعنى من آية الزمر السابقة، فقال معتذراً لبعض أهل الفضل والصلاح ممن شهدوا سماع الصوفية ورقصهم متأولين: [والذين شهدوا هذا اللغو متأولين من أهل الصدق والإخلاص والصلاح: غمرت حسناتهم ما كان لهم فيه، وفي غيره من السيئات أو الخطأ في مواقع الاجتهاد، وهذا سبيل كل صالحي هذه الأمة في خطئهم وزلاتهم](١) .

* وقد مر معنا قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب: فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ: فله أجر " .

فجعل له صلى الله عليه وسلم: أجراً مع خطئه، وعدم إصابته الحق لصدقه في طلبه، وبذله ما يستطيع في ذلك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فتبين أن المجتهد مع خطئه: له أجر، وذلك لأجل اجتهاده، وخطؤه: مغفور له لأن درك الصواب في جميع أعيان الأحكام: إما متعذر أو متعسر](٢) .

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ أيضاً_: [كثير من العباد، والعلماء بل والأمراء قد يكون معذوراً فيما أحدثه لنوع اجتهاد، فالغرض أن يُعرف الدليل الصحيح وإن كان التارك له قد يكون معذوراً لاجتهاده](٣) .

وقال_ رحمه الله_ في شأن المجتهدين من الصديقين، والشهداء، والصالحين:

[وأما ما اجتهدوا فيه: فتارةً يصيبون، وتارةً يخطئون، فإذا اجتهدوا وأصابوا: فلهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطئوا: فلهم أجر على اجتهادهم، وخطؤهم مغفورٌ لهم](٤) .

* وعن ابن عمر_ رضي الله عنهما_، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لنا لما رجع من الأحزاب: " لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم: فلم يعنف واحداً "(٥).

---

(١) " الاستقامة١/٢٩٧ " .

(٢) " رفع الملام/٣٠ "، " ٢٠/٢٥٢ " .

(٣) " اقتضاء الصراط المستقيم/٢٨٢ " .

(٤) " الفتاوى٣٥/٦٩ " .

(٥) " البخاري١/٣٢١ "، وانظر: " مسلم٣/١٣٩١ " .

فأقر صلى الله عليه وسلم صنيع الفريقين، ولم يعنف أو يلُم أحداً منهم حيث اجتهد كل منهما بما يستطيع في فهم قوله صلى الله عليه وسلم، وما أراده به، فليس هناك من تقصير لتعنيف أو مجرد لوم .

قال النووي_ رحمه الله_: [وفيه: أنه لا يعنف المجتهد فيما فعله باجتهاده إذا بذل وسعه في الاجتهاد، وقد يستدل به على أن كل مجتهد مصيب، وللقائل الآخر أن يقول: لم يصرح بإصابة الطائفتين بل ترك تعنيفهم، ولا خلاف في ترك تعنيف المجتهد وإن أخطأ إذا بذل وسعه في الاجتهاد، والله أعلم](١) .

وقال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_ رداً على من استدل بهذا الحديث على أن كل مجتهد مصيب:

[ليس بواضح، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه ...

وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد لأنه صلى الله عليه وسلم لم يعنف أحدًا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم: لعنف من أثم](٢) .

ــ وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ بعض أسباب رفع الإثم عن مخالف الحق، فقال:

[وليس كل مَن خالف في شيء مِن هذا الاعتقاد: يجب أن يكون هالكاً، فإن المنازع قد يكون: مجتهداً مخطئاً يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته ...

وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له: لا يجب أن يدخل فيها المتأول، والقانت، وذو الحسنات الماحية، والمغفور له، وغير ذلك: فهذا أولى](٣) .

وقال_ كذلك_ رحمه الله_: [لكن شيوخ أهل العلم الذين لهم لسان صدق، وإن وقع في كلام بعضهم ما هو خطأ منكر: فأصل الإيمان بالله ورسوله إذا كان ثابتاً: غفر لأحدهم خطأه الذي أخطأه بعد اجتهاد](٤) .

وقال_ رحمه الله_ أيضاً_: [ليس كل مَن اجتهد واستدل: يتمكن من معرفة الحق، ولا يستحق الوعيد إلا مَن ترك مأمورًا أو فعل محظورًا، وهذا قول الفقهاء والأئمة، وهو القول المعروف عن سلف الأمة، وقول جمهور المسلمين](٥) .

ــ وقد نَسبَ شيخُ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ هذا الحكم بعدم تأثيم المجتهد إذا أخطأ في مسائل علمية أو عملية_ وأولى من ذلك: عدم تكفيره أو تفسيقه_: نسب هذا الحكم إلى السلف، وأئمة الفتوى: كأبي حنيفة، والشافعي، والثوري، وداود بن علي، وغيرهم: أنهم كانوا لا يؤثمون مجتهداً أخطأ في المسائل الأصولية

---

(١) " شرح مسلم١٢/٩٨ " .

(٢) " فتح الباري٧/٤١٠ " .

(٣) " الفتاوى٣/١٧٩ " .

(٤) " الصفدية لابن تيمية١/٢٦٥ " .

(٥) " الفتاوى١٩/٢١٣ " .

والفروعية، وذكر ذلك عنهم ابن حزم، وغيره، وأنهم قالوا:

[هذا هو القول المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين: أنهم لا يكفرون، ولا يفسّقون، ولا يؤثمون أحداً من المجتهدين المخطئين، لا في مسألة عملية ولا علمية، قالوا: والفرق بين مسائل الأصول والفروع إنما هو من أقوال أهل البدع من أهل الكلام من المعتزلة والجهمية، ومن سلك سبيلهم، وانتقل هذا القول إلى أقوام تكلموا بذلك في أصول الفقه، ولم يعرفوا حقيقة هذا القول ولا غَوره][1] .

ـــــ وأهل الطائفة المنصورة في ذلك: يأخذون الحق من طرفيه: فيعلمون أن الحق: واحد في نفس الأمر، يطلبونه من مظانه بدليله وحجته، فلا يتبعون غير الحق، ولا يطلبون غيره من أقوال الرجال انتصاراً لها، وتقديماً لها على الحق الذي تعبدهم الله بطلبه واتباعه كما أنهم في نفس الوقت: لا يؤثمون كل مخالف للحق: أخطأ في طلبه .

وهم في ذلك وسط: بين من ضل في أحد هذين الطرفين أو فيهما معاً ممن: جعل قبلته أقوال الرجال: معرضاً عمّا أمر الله به من طلب الحق وتحريه بزعم أن الأقوال كلها حق في نفس الأمر أو ذهب إلى الحكم بالإثم، والفسق، والضلال_ وربما الكفر_ على كل من خالف الحق وأخطأ طلبه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [وأهل الضلال يجعلون الخطأ والإثم متلازمين، فتارة: يغلون فيهم، ويقولون: إنهم معصومون، وتارة: يجفون عنهم، ويقولون: إنهم باغون بالخطأ، **وأهل العلم والإيمان لا يعصمون، ولا يؤثمون**، ومن هذا الباب تولد كثير من فرق أهل البدع والضلال][2] .

ـــــ تنبيه هام:

ما قررناه من رفع الإثم، والمؤاخذة عند الطائفة المنصورة عمّن اجتهد في طلب الحق فأخطئة: مقيد عندهم بما إذا وقع الخطأ فيما يسوغ فيه الاجتهاد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [وإن حصل بينهم تنازع في شيء ممّا يسوغ فيه الاجتهاد: لم

---

(١) " الفتاوى١٩/٢٠٧ " .

(٢) " الفتاوى٣٥/٦٩ " .

يُوجب ذلك لهم تفرقاً، ولا اختلافاً بل هم يعلمون أن المصيب منهم له أجران، وأن المجتهد المخطيء له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور له][(١)] .

ــ وإنما كان العذر فيما يسوغ فيه الاجتهاد دون غيره: لأن كل حكم ظهر دليله من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أو إجماع المسلمين: فلا يجوز فيه الاجتهاد بحال إجماعاً إذ لا اجتهاد مع النص، وكل اجتهاد يخالف النص: فهو اجتهاد باطل، فنصوص الكتاب والسنة: حاكمة على كل المجتهدين غير محكومة باجتهاداتهم، ومن ثم: فليس لأحد منهم مخالفتها كائناً من كان عند بلوغها لهم صحيحة، صريحة .

ولذا فمن أخطأ مخالفًا (**الكتاب المستبين، والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة: خلافًا لا يعذر فيه، فهذا: يُعامل بما يُعامل به أهل البدع**)[(٢)] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فمَن كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن والإيمان مثلاً أو لتعديه حدود الله بسلوك السبيل التي نُهي عنها أو لاتباع هواه بغير هدىً من الله: فهو الظالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد، بخلاف المجتهد في طاعة الله ورسوله باطنًا وظاهرًا: الذي يطلب الحق باجتهاده كما أمره الله ورسوله: فهذا مغفور له خطؤه][(٣)] .

ويُعلم بذلك: أن (العذر بالخطأ: حكم شرعي فكما أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، والواجبات تنقسم إلى أركان وواجبات ليست أركانا، فكذلك الخطأ ينقسم إلى مغفور وغير مغفور)[(٤)] .

ــ كما أن الحكم برفع الإثم، المؤاخذة عن المخطئ مُقيد_ كذلك_ عند أهل الطائفة المنصورة بمن كان أهلاً للاجتهاد، صادقَ النية والعزم في طلب الحق، باذلاً غاية جهده، وأقصى وسعه في ذلك، متبعاً سبيل المؤمنين إذ يجب التفريق هنا بين خطأين: خطأ مؤاخذ عليه، وخطأ معفوٍ عنه .

وقد قال الحافظ ابن حجر في شرحه لحديث: " إذا اجتهد الحاكم: فأصاب ... " الحديث، قال:

[لكن لو أقدم فحكم أو أفتى بغير علم: لحقه الإثم، قال ابن المنذر: وإنما يؤجر الحاكم إذا أخطأ إذا كان عالماً بالإجتهاد فاجتهد، وأما إذا لم يكن عالماً: فلا، واستدل بحديث " القضاة ثلاثة "](٥) .

* والحديث المشار إليه: هو قوله صلى الله عليه وسلم: " القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة: رجلٌ علم الحق، فقضى به: فهو في الجنة، ورجلٌ علمَ الحق، فقضى بغيره: فهو في النار، ورجلٌ قضى للناس على جهل: فهو في النار "[(٦)] .

---

(١) " اقتضاء الصراط المستقيم/٤٥٧ " .

(٢) " الفتاوى لابن تيمية١٧٢/٢٤ " .

(٣) " الفتاوى٣١٧/٣: ٣١٨ " .

(٤) " الفتاوى لابن تيمية٤٩٦/١٢ " .

(٥) " فتح الباري٣١٩/١٣ " .

(٦) صحيح: " المستدرك١٠١/٤ "، " الترمذي٦١٣/٣ "، " أبو داود٢٩٩/٣ "، " النسائي الكبرى٤٦١/٣ "، "ابن ماجه٧٧٦/٢ "، " البيهقي

قال الخطابي_ رحمه الله_: [فأما من لم يكن محلاً للاجتهاد: فهو متكلف، ولا يعذر بالخطأ في الحكم بل يخاف عليه من أعظم الوزر بدليل حديث ابن بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " القضاة ثلاثة " الحديث](١) .

بل قد قال الإمام الشافعي_ رحمه الله_: " ومن تكلف ما جهل، وما لم تثبته معرفته: كانت موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة، والله أعلم، وكان بخطئه غير معذور إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه "(٢) .

وقد قرّر الشاطبي_ رحمه الله_ أن: [الاجتهاد الواقع فى الشريعة: ضربان؛ أحدهما: الاجتهاد المعتبر شرعاً، وهو: الصادر عن أهله الذين اضطلعوا بمعرفة ما يفتقر إليه الاجتهاد وهذا هو الذى تقدم الكلام فيه .

والثاني: غير المعتبر، وهو: الصادر عمن ليس بعارف بما يفتقر الاجتهاد إليه لأن حقيقته أنه رأى بمجرد التشهي، والأغراض، وخبط فى عماية، واتباع للهوى، فكل رأي صدر على هذا الوجه: فلا مرية فى عدم اعتباره لأنه ضد الحق الذى أنزل الله](٣) .

ـ ولذلك، قال ابن القيم_ رحمه الله_: [الاختلاف في كتاب الله: نوعان ...

والنوع الثاني: اختلاف ينقسم أهله إلى: محمود، ومذموم: فمن أصاب الحق: فهو محمود، ومن أخطأه مع اجتهاده في الوصول إليه: فاسم الذم موضوع عنه، وهو محمود في اجتهاده، معفو عن خطئه، **وإن أخطأ مع تفريطه وعدوانه: فهو مذموم**](٤) .

ـ وفي جميع الأحوال إذا قامت الحجة على مَنْ طلب الحق، فأخطئه: فعاند، وجحد الحجة تقليداً، وتعصباً أو انتصاراً لنفسه، وهواه: فهو من أهل الوعيد بلا شك .

قال ابن حزم_ رحمه الله_: [وأما إن قامت عليه الحجة، فعاند تقليداً: ففاسق](٥) .

وقال ابن تيمية_ رحمه الله_: [وكذلك من تبين له في مسألة من المسائل الحق الذي بعث اللهُ به رسوله ثم عدل عنه إلى عادته: فهو من أهل الذم والعقاب](٦) .

ـ وبناء على ما سبق: فلا يدخل في رفع الإثم، والمؤاخذة، والأجر أجراً واحداً عند الخطأ في الاجتهاد، (لم

الكبرى١٠/١١٦ "، " المعجم الأوسط٤/٦٣ "، " المعجم الكبير٢/٢٠، ٢١ "، وانظر: " المجمع٤/١٩٦ " .

(١) " معالم السنن٥/٢٠٥ " .

(٢) " الرسالة/٥٣ " .

(٣) " الموافقات٤/١٦٧ " .

(٤) " الصواعق المرسلة٢/٥١٥ " .

(٥) " الإحكام٦/٢٩٨ " .

(٦) " الفتاوى٢٠/٢٢٥ " .

يدخل في هذا: من يغلبه الهوى ويصرعه حتى ينصر ما يعلم أنه باطل أو من يجزم بصواب قول أو خطئه من غير معرفة منه بدلائل ذلك القول نفياً أو إثباتاً، فإن هذين في النار كما قال صلى الله عليه وسلم: "القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة، فأما الذي في الجنة: فرجل علم الحق: فقضى به، وأما اللذان في النار: فرجل قضى للناس على جهل، ورجل علم الحق: وقضى بخلافه "، والمفتون: كذلك لكن لحوق الوعيد للشخص المعين_ أيضاً_ له موانع)[1] .

الفصل الثالث

المعلم الثالث

---

(١) " رفع الملام /٣٥ "، " الفتاوى لابن تيمية٢٠/٢٥٦ " .

الحق لا يعرف بالرجال

فالطائفة المنصورة لا تعرف الحق بالرجال، وإنما تعرف الرجال بالحق، فالرجال ما هم إلا وسيلة لمعرفة الحق ببيان دليله وما يقوم عليه(١) لا أن الحق يُعرف بهم: فيُدار معهم في جميع أقوالهم، وأفعالهم إذ اتباع الرجال_ أيّاً كان شأنهم من الدين علماً وعملاً_ بغير حجة قائمة، وجعلهم أنفسهم دلائل على الحق: من أوسع أودية الباطل، ومن أعظم أسباب الضلال فضلاً عن كونه: سبيل ضعاف العقول(٢) .

وقد قال ابن عبد البر_ رحمه الله_:

يا سائلي عن موضع التقليد خـــذ — عني الجواب بفهم لب حاضـــــر
وأصخ إلى قولـــي ودن بنصيحتي — واحفظ علي بوادري ونــــوادري
لا فرق بين مقلـد وبهيــمـــــــة — تنقاد بين جنادل ودعائـــــــــر
تباً لقاض أو لمفـت لا يــــــرى — عللاً ومعنى للمقال السائـــــــر
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنة الــــ — مبعوث بالدين الحنيف الطاهــــر
ثم الصحابة عند عدمك سنـــــة — فأولاك أهل نــــهى وأهل بصائـــر
وكـــذاك إجماع الذين يلونـــهم — من تابعيهم كابـــراً عن كابـــر(٣)

ــــ وقد اتفق أهل العلم كافة على أن معرفة الحق بالرجال_ وهو: التقليد_: خارج عن طرق العلم وسبله، ممّا هو دال على كون من عرف الحق بالرجال: على غير بصيرة من أمره، وإنما هو لم يزل بعد: في ظلمات الجهل يتخبط:

إذ أجمع العلماء أن مقلـــداً — للناس كالأعمى همـــا أخوان
والعلم معرفة الهدى بدليله — مـــا ذاك والتقليـــد مستويان

قال الغزالي_ رحمه الله_: [التقليد: هو قبول قولٍ بلا حجة: **وليس ذلك طريقاً إلى العلم لا في الأصول، ولا في الفروع**](٤) .

---

(١) مع كون الاتباع هنا على التحقيق: لدليل الحق الذي قام عليه لا لذات من قال به .

(٢) إلا أن يكون معذوراً يجوز له التقليد مع عدم اتباعه لهواه، وتحريه للحق بحسب طاقته، فجاز للضرورة ما لم يظهر له أن الحق بخلافه ما هو عليه، قال ابن تيمية: [أما إن كان المتبع عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد: فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة، وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق: فهذا من أهل الجاهلية] . " الفتاوى٧/٧١: ٧٢ "

(٣) " جامع بيان العلم٢/١١٥ " .

(٤) " المستصفى/٣٧٠ " .

وقال القاضي عبد الوهاب المالكي_ رحمه الله_: [التقليد لا يُثمر علماً: فالقول به ساقط، **وهذا الذي قلناه قول كافة أهل العلم**][1] .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [التقليد: ليس طريقا للعلم، ولا موصلاً له: لا في الأصول، ولا في الفروع، وهو قول جمهور العقلاء والعلماء خلافاً لما يحكى عن جهال الحشوية، والثعلبية من أنه طريق إلى معرفة الحق ...][2] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [لا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم، وأن المقلد لا يطلق عليه اسم عالم][3].

وقال ابن القيم_ رحمه الله_: [التقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم][4] .

وإنما كانت معرفة الحق بالرجال: خارجة عن طرق العلم وسبله، لأن (العلم: ما قام عليه الدليل)[5] .

ـ وإذا كان الأمر كذلك، فاتباع الرجال بغير حجة قائمة: قطعاً ليس بعلم، وهذا لا خلاف عليه بين العلماء: سواء منهم من أوجب التقليد أو حَرَّمه إذ (حد العلم: التَّبيُّن، وإدراك المعلوم على ما هو به، فمن بان له الشئ: فقد علمه، والمقلّد لا علم له، ولم يختلفوا في ذلك)[6] .

ولما كان العلم: هو ما قام عليه الدليل، وكانت معرفة الحق بالرجال: خارجة عن طرق العلم وسبله: كان (من عَدَلَ عن الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة، وعن معرفة الحق بالدليل مع تمكنه منه إلى التقليد: كمن عَدَل إلى المَيْتَة مع قُدْرته على المُذكّي، فإن الأصل أن لا يقبل قول الغير إلا بدليل إلا عند الضرورة)[7] .

ـــ وقد ذم الشرع اتباع الرجال بغير حجة قائمة غاية الذم بل وجعل ذلك من أظهر أسباب الأعراض عن دينه الذي أنزله وارتضاه .

* قال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }

[البقرة: ١٧٠_ ١٧١] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله

---

(١) " الرد على من أخلد إلى الأرض/١٢٦ " .

(٢) " تفسير القرطبي٢/٢١٢ " .

(٣) " إعلام الموقعين١/٤٥ " .

(٤) " إعلام الموقعين٢/١٨٨ " .

(٥) " مجموع الفتاوي١٣/١٣٦ " .

(٦) " جامع بيان العلم٢/١١٧ " .

(٧) " إعلام الموقعين٢/٢٦٠ " .

ممّا تقدم وصفه: رغبوا عن ذلك، وقالوا: { بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا }، فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا: فآباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالاً، **وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسنَ قصدهم: لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره: تبين له الحق قطعاً واتبعه إن كان منصفاً]**(١).

قال القرطبي_ رحمه الله_: [مسألة: قال علماؤنا: وقوة ألفاظ هذه الآية: تعطي إبطال التقليد، ونظيرها: {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا } الآية](٢) .

وقال الشوكاني_ رحمه الله_ في تفسيره للآية السابقة: [وفي ذلك دليل على قبح التقليد، والمنع منه](٣) .

وقال الألوسي_ رحمه الله_: [وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر، وأما اتباع الغير في الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق: فاتباع في الحقيقة لما أنزل الله تعالى وليس من التقليد المذموم في شيء](٤).

* وقال تعالى_ كذلك_: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ } [المائدة: ١٠٤] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [فإذا دعوا { إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ }: أعرضوا: فلم يقبلوا، و {قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } من الدين، ولو كان غير سديد، ولا ديناً ينجي من عذاب الله، ولو كان في آبائهم كفاية، ومعرفة، ودراية: لهان الأمر، ولكن آباءهم { لا يعقلون شيئاً }، أي: ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء، فتباً لمن قلد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله الذي يملأ القلوب: علماً، وإيماناً، وهدى، وإيقاناً](٥) .

قال الشوكاني_ رحمه الله_ في قولهم: { حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا }:

[وقد صارت هذه المقالة التى قالتها الجاهلية نصب أعين المقلدة، وعصاهم التي يتوكئون عليها إن دعاهم داعي الحق، وصرخ لهم صارخ الكتاب والسنة، فاحتجاجهم بمن قلدوه ممّن هو مثلهم في التعبد بشرع الله مع مخالفة قوله لكتاب الله أو لسنة رسوله هو كقول هؤلاء، وليس الفرق إلا في مجرد العبارة اللفظية لا في المعنى الذى عليه تدور الإفادة والاستفادة، اللهمّ غفرا](٦) .

* وقال تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ

---

(١) " تفسير السعدي/٣٨ " .

(٢) " تفسير القرطبي٢/٢١١ " .

(٣) " فتح القدير١/١٦٧ " .

(٤) " روح المعاني٢/٤٠: ٤١ " .

(٥) " تفسير السعدي/١٥٥ " .

(٦) " فتح القدير٢/٨٢: ٨٣ " .

لهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [الأنبياء: ٥١_٥٤] .

* وقال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذَابِ السَّعِيرِ } [لقمان: ٢١] .

قال الشوكاني_ رحمه الله_ في قوله: { أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذَابِ السَّعِيرِ }:

[ما أقبح التقليد، وأكثر ضرره على صاحبه، وأوخم عاقبته، وأشأم عائدته على من وقع فيه، فإن الداعي له إلى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق: فتأبى ذلك، وتتهافت في نار الحريق، وعذاب السعير](١) .

* وقال تعالى: { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى ممّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ }

[الزخرف: ٢٢_ ٢٤] .

قال الألوسي_ رحمه الله_: [وقوله جل وعلا: { بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون}: إبطال لأن يكون لهم حجة أصلاً، أي: لا حجة لهم على ذلك عقلية، ولا نقلية وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم] .

ــ وهذه الآيات السابقة وإن كانت قد نزلت أساساً في الكفار إلا أنها تشمل بعمومها كل من عرف الحق بالرجال موافقة لهم وتقليداً بغير حجة من الله وبرهان أياً كان محل التقليد وموضعه إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب مع اختلاف الحكم تبعاً لمحل التقليد وموضعه .

قال ابن عبد البر_ رحمه الله_: [ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء، وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما، وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجل: فكفر، وقلد آخر: فأذنب، فقلد آخر في مسألة دنياه: فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً وإن اختلفت الآثام فيه](٢).

ـــ ومعرفة الحق بالرجال موافقة لهم وتقليداً بغير حجة: هو دين أهل الكتاب الذي حذرنا الله تعالى من الوقوع فيه، وهو ممّا كان سبباً في خروجهم عن الملة التي أنزلها الله إليهم :

* قال تعالى: { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله } [التوبة: ٣١] .

وعن عدي بن حاتم_ رضي الله عنه_ وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وهو نصراني: فسمعه يقرأ هذه الآية: { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمّا يُشركون } .

---

(١) " فتح القدير ٢٤٢/٤ " .

(٢) " جامع بيان العلم١٠٩/٢: ١١٠ " .

قال: فقلت يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم .

قال صلى الله عليه وسلم: " أليس يُحرّمون ما أحلّ الله: فتحرّمونه، ويُحلّون ما حرّم الله: فتُحلّونه " ؟ .

قال: قلت: بلى .

قال صلى الله عليه وسلم: " فتلك عبادتهم "(١) .

قال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: " كيف كانت الربوبية في بني إسرائيل ؟ .

قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به، ونهوا عنه، فقالوا: **لن نسبق أحبارنا بشيء**، فما أمرونا به: ائتمرنا، وما نهونا عنه: انتهينا لقولهم، **فاستنصحوا الرجال**، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم "(٢).

قلتُ: جاء في تفسير الرازي_ رحمه الله_ عند آية التوبة السابقة: [قال شيخنا، ومولانا خاتمة المحققين، والمجتهدين_ رضي الله عنه_: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات: فلم يقبلوا تلك الآيات، ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إليّ كالمتعجب، يعني: كيف يُمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها، ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا](٣) .

قال الشوكاني_ رحمه الله_: [وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز، والسنة المطهرة ...

ثم قال_ رحمه الله_ بعد ذكر صفة اتخاذ اليهود، والنصارى لأحبارهم، ورهبانهم أرباباً:

وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء](٤).

وقال الألوسي الحنفي_ رحمه الله_: [والآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله تعالى، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحق أحق بالاتباع، فمتى ظهر: وجب على المسلم اتباعه وإنْ أخطأه اجتهادُ مقلده](٥) .

ــ قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [من علم هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول: فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله لا سيما إن اتبع في ذلك هواه، ونصره

---

(١) " البيهقي١١٦/١٠ "، " المعجم الكبير٩٢/١٧ "، " الترمذي٢٧٨/٥ " .

(٢) " تفسير الطبري١١٥/١٠ " .

(٣) " التفسير الكبير٣٧/١٦ " .

(٤) " فتح القدير٣٥٣/٢ " .

(٥) " روح المعاني٨٤/١٠ " .

باللسان، واليد مع علمه أنه مخالف للرسول؛ فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه](1) .

ـ ومن لطيف ما ينشد هنا في بيان حال أمثال هؤلاء ممن يعرف الحق بالرجال: وقوفاً عندهم، وإعراضاً عن الكتاب والسنة: قولُ المنذر بن سعيد البلوطي_ رحمه الله_ حيث قال:

عذيري من قوم يقولون كلمـــــــا   طلبت دليلاً: هكذا قال مالـــــك

فإن عدتُ: قالوا: هكذا قال أشهـــب   وقد كان لا تخفى عليه المسالك

فإن زدتُ: قالوا: قال سحنون قبلـــه   ومَن لم يقل مقاله فهو آفـــــك

فإن قلتُ: قال الله: ضجوا وأكثـــروا   وقالوا جميعاً أنت قرن مماحك

وإن قلتُ: قد قال الرسول: فقولهـــم: أتت مالكاً في ذاك المسالــــــك(2)

ـ وهذا لسان حال بل ولسان مقال كل من عرف الحق بالرجال: (أتت فلاناً في ذاك المسالكُ): وهي شبهة لرد الحق واهية، ومفادها: تعطيل الدين بالكلية، وتفريغ النصوص من محتواها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رد هذه الشبهة:

[ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض عن أمر الله ورسوله، ويبقى كل أمام في أتباعه بمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم في أمته، وهذا تبديل للدين، ويشبه ما عاب الله به النصارى في قوله: { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ... }](3) .

ـ ونحن وإن جوزنا هذا_ أتت فلاناً في ذاك المسالكُ_: فلا يجوز ألبتة العدول عن قول ظهرت حجته بدليل صحيح صريح من الكتاب أو السنة أو الإجماع إلى قول فلان من الناس بزعم أنه قد أتته في ذاك المسالك إذ أننا مأمورون أساساً باتباع النصوص لا باتباع فلان الذي أتته في ذاك المسالك ! .

وبالإضافة لما سبق ذكره: فإن (تطرق الخطأ إلى آراء العلماء: أكثر من تطرقه إلى الأدلة الشرعية، فإن الأدلة الشرعية: حجة الله على جميع عباده بخلاف رأي العالم .

والدليل الشرعي: يمتنع أن يكون خطأ إذا لم يعارضه دليل آخر، ورأي العالم: ليس كذلك .

ولو كان العمل بهذا التجويز جائزاً: لما بقي في أيدينا شيء من الأدلة التي يجوز فيها مثل هذا)(4) .

وللشيخ ولي الله الدهلوي_ رحمه الله_ هنا كلام نفيس حقاً حيث يقول: [أن يَظُنّ(1) بفقيه أنه بلغ الغاية

---

(1) " الفتاوى7/71 " .

(2) انظر: " الروض المعطار للحميري " .

(3) " الفتاوى20/216 " .

(4) " رفع الملام/27: 28 "، " الفتاوى لابن تيمية20/250: 251 " .

القصوى فلا يمكن أن يخطيء، فمهما بلغه حديثُ صحيح صريح يخالف مقالته: لم يتركه أو ظن أنه لمّا قلده: كلفه الله بمقالته، وكان كالسفيه المحجور عليه، فإن بلغه حديث واستيقن بصحته: لم يقبله لكون ذمته مشغولة بالتقليد: **فهذا اعتقاد فاسد، وقول كاسد ليس له شاهد من النقل والعقل، وما كان أحد من القرون السابقة يفعل ذلك، وقد كذب في ظنه من ليس بمعصوم من الخطأ معصوماً حقيقةً أو معصوماً في حق العمل بقوله، وفي ظنه أن الله تعالى كلفه بقوله، وأن ذمته مشغولةٌ بتقليده، وفي مثله نزل قول تعالى: { وإنا على آثارهم مقتدون }، وهل كان تحريفات الملل السابقة إلا من هذا الوجه ؟!!!**][٢] .

ـــ قلتُ: ومن المقطوع به عند الجميع: أن (الحق لا يدور مع معين إلا النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لو كان كذلك: لوجب اتباعه في كل ما قال)[٣] .

(ولذلك، قال علي_ رضي الله عنه_: " خيرنا: أتبعنا لهذا الدين " لَمَّا قيل له: خالفت فلاناً)[٤] .

ومن ثمين كلام ابن حزم_ رحمه الله_ فيمن يتبع الرجال دون عرض ما جاءوا به على الكتاب والسنة، قال:

[قال أبو محمد: وهذا خطأ، لأننا إنما أمرنا تعالى بطاعة أولي الأمر فيما نقلوه إلينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما أن يقولوا من عند أنفسهم بحكم لا نص فيه: فما جاز هذا قط لأحد أن يفعله، ولا حلّ لأحد قط أن يطيع من فعله، وقد توعد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على هذا أشد الوعيد، فكيف على من دونه، قال تعالى: { ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين }: فصح أن من قال في الدين بقول أضافه إلى الله تعالى[٥]: فقد كذب وتقوّل على الله تعالى الأقاويل، وإن لم يضفه إلى الله تعالى: فليس من الدين أصلاً][٦] .

قال الشيخ ولي الله الدهلوي_ رحمه الله_: [وهذا الذي أشار اليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام حيث قال: ومن العجب العجاب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، وهو مع ذلك يقلده فيه، ويترك من شهد الكتاب، والسنة، والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جموداً على تقليد إمامه بل يتحيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة، ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلده][٧] .

ـــ قلتُ: وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: " لا تَكونوا إمَّعَةً، تَقولونَ: إنْ أحسَنَ النّاسُ: أحسَنّا، وإنْ

(١) أي: المقلد .

(٢) " عقد الجيد في الاجتهاد والتقليد للدهلوي/٢٨ " .

(٣) " الفتاوى لابن تيمية٤/٤١٨ " .

(٤) " إحياء علوم الدين للغزالي١/٩٥ " .

(٥) أي: بغير علم وبرهان، والقياس_ بشرطه_ من العلم المعتبر عند جماهير أهل السنة .

(٦) " الإحكام٥/١١٦: ١١٧ " .

(٧) " الإنصاف للدهلوي/٩٩ " .

ظَلَموا: ظَلَمنا، ولكن وَطِّنوا أنفُسَكُم إنْ أحسَنَ النّاسُ: أنْ تُحسِنُوا، وإنْ أساؤوا: فَلا تَظلِموا "[١] .

قال الخلال_ رحمه الله_: " أخبرني حرب بن إسماعيل الكرماني، قال: قلت لإسحاق_ يعني: ابن راهويه_: ما معنى قوله: " لا يكون أحدكم إمعة "، قال: يقول: إن ضل الناس: ضللت، وإن اهتدوا: اهتديت "[٢] .

قال الإمام أبو عبيد_ رحمه الله_: " أصل الإمعة هو الرجل الذي لا رأي له، ولا عزم، فهو يتابع كل أحد على رأيه، ولا يثبت على شيء "[٣] .

وقال ابن الأثير_ رحمه الله_: [الإمّعة: بكسر الهمزة، وتشديد الميم: الذي لا رَأى له، فهو يُتابع كل أحد على رَأيه، والهاء فيه للمبالغة ...، وقيل: هو الذي يقول لكل أحد أنا معك][٤] .

قال في " الفائق ": [ومعناه: المقلد الذي جعل دينه تابعاً لدين غيره: بلا رؤية، ولا تحصيل برهان][٥] .

فحال المقلد في الباطل:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[٦]

ـــ وقد رسم أئمة الطائفة المنصورة عبر تاريخها المتصل هذا المَعْلَم الهام من معالم الحق، وأمروا به، ونهوا عن ضده:

* فعن علي بن أبي طالب_ رضي الله عنه_ حين قال له الحارث بن عبد الله الأعور: أتظن أن طلحة والزبير_ رضي الله عنهما_ كانا على الباطل ؟! .

قال علي_ رضي الله عنه_: " يا حارث، إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق: تعرف أهله "[٧] .

* وعن مروان بن الحكم، قال: " شهدت علياً وعثمان بين مكة والمدينة: وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما فلما رأى ذلك عليّ: أهلّ بهما جميعاً، فقال: لبيك بحجة، وعمرة معاً .

فقال عثمان_ رضي الله عنه_: تراني أنهي الناس عن شيء، وأنت تفعله .

---

(١) " الترمذي٤/٣٦٤ " .

(٢) " السنة للخلال٣/٥٦٠ " .

(٣) " الغريب لأبي عبيد٤/٤٩: ٥٠ " .

(٤) " النهاية في غريب الحديث١/٦٧ " .

(٥) " الفائق١/٥٧ " .

(٦) " ديوان الحماسة١/٣٣٧ " .

(٧) " تفسير القرطبي١/٣٤٠ "، " فيض القدير١/٢١٠، ٤/١٧ " .

فقال علي_ رضي الله عنه_: ما كنت لأدع سنة رسول الله لقول أحد من الناس "[١] .

* وقال عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_: " لا يكون أحدكم إمعة، قالوا: وما الإمعة يا أبا عبد الرحمن . قال: يقول: إنما أنا مع الناس: إن اهتدوا: اهتديت، وإن ضلوا: ضللت ألا ليوطن أحدكم نفسه على إنْ كفر الناس: أن لا يكفر "[٢] .

* وكان_ رضي الله عنه_ يقول: " إذا وقع الناس في الشر، فقل: لا أسوة لي بالشر "[٣] .

* وقال ابن مسعود_ رضي الله عنه_ أيضاً_: " ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً: إن آمن: آمن، وإن كفر: كفر، فإنه لا قدوة في الشر "[٤] .

* وقال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " ليس أحدٌ إلا يؤخذ من عمله، ويترك إلا الرسول صلى الله عليه وسلم "[٥] .

* وكان ابن عباس_ رضي الله عنهما_ يقول: " يُوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر، وعمر ! "[٦] .

* وعن ابن أبي مليكة_ رحمه الله_ أن عروة بن الزبير_ رحمه الله_، قال لابن عباس: " أضللتَ الناس، قال: وما ذاك يا عريّة ؟، قال: تأمر بالعمرة في هؤلاء العشر وليستْ فيهنّ عمرة !، فقال: أولا تسأل أمّك عن ذلك ؟ .

فقال عروة: فإنّ أبا بكر، وعمر لم يفعلا ذلك ؟ .

فقال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: هذا الذي أهلككم، والله ما أرى إلاّ سيعذّبكم، إنّي أحدّثكم عن النّبي صلى الله عليه وسلم، وتجيئوني بأبي بكر وعمر ! "[٧] .

* وفي لفظ: " أراهم سيهلكون، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويقولون: قال أبو بكر وعمر"[٨].

* وكان عبد الله بن عمر_ رضي الله عنهما_ أيضاً_ يقول: " أفكتاب الله عز وجل أحق أن يُتبع أم

---

(١) " البخاري٢/٥٦٧ "، " مسلم٢/٨٩٧ "، واللفظ للبخاري .

(٢) " المعجم الكبير٩/١٥٢ "، " مجمع الزوائد١/١٨٠: ١٨١ " .

(٣) " المعجم الكبير٩/١٢٨ " .

(٤) " البيهقي١٠/١١٦ "، " المعجم الكبير٩/١٥٢ "، وانظر: " المجمع١/١٨٠ " .

(٥) " الإحياء للغزالي١/٧٥ "، وانظر: " المعجم الكبير١١/٣٣٩ " .

(٦) " الفتاوى لابن تيمية٢٠/٢٥١ " .

(٧) " جامع بيان العلم وفضله٢/١٩٥: ١٩٦ " .

(٨) " أحمد١/٣٣٧ "، " المطالب العالية١/٣٦٠ "، " الفقيه والمتفقه١/١٤٥ "، " جامع بيان العلم وفضله٢/١٩٥: ١٩٦ " .

عمر ؟!"[1].

* وفي رواية: " أفرسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن تتبعوا سنته أو عمر **؟!** "[2] .

هذا وأبو بكر: أبو بكر_ رضي الله تعالى عنه وأرضاه_، وعمر: عمر_ رضي الله تعالى عنه وأرضاه_، فهل بقي بعد ذلك مَنْ تتبعه الطائفة المنصورة غير المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه **؟!!!** .

* وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ أيضاً_ أن معاوية_ رضي الله عنه_، قال له: " أنت على ملة علي ؟. فقال: لا، ولا على ملة عثمان، أنا على ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم "[3] .

* وعنه_ رضي الله عنه_، قال: " أما تخافون أن تُعذبوا أو يُخسف بكم أن تقولوا: قال رسول الله، وقال فلان**!!!** "[4] .

ــــ وقد تتابع على: الأمر بمعرفة الرجال بالحق، وطلب الحق من مظانه، والنهي عن معرفة الحق بالرجال موافقة لهم وتقليداً من بعد الصحابة الكرام_ رضوان الله عليهم_: التابعون ومن بعدهم من علماء المسلمين، وأئمة الدين لاسيما الأئمة الأربعة رحمة الله تعالى عليهم جميعاً:

* عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه_ رضي الله عنه_، قال: قال عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_:

" إذا رميتم الجمرة، وذبحتم، وحلقتم: فقد حلّ لكم كل شيء حرم عليكم إلا النساء، والطيب " .

قال سالم بن عبد الله: وقالت عائشة_ رضي الله عنها_: " طيبتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لحرمه قبل أن يحرم، ولحله بعد ما رمى الجمرة وقبل أن يزور " .

قال سالم_ رحمه الله_: " **وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحق أن تتبع** "[5] .

* وفي لفظ: قال سالم: " فسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أحق ان ينفذ بها من قول عمر** "[6] .

* وسأل رجلٌ سالماً عن شيء، فقال سالم: " لم أسمع في هذا شيء، فقال له الرجل: إني أرضى برأيك، فقال له سالم_ رحمه الله_: لعلي أخبرك برأي ثم تذهب فأرى بعدك رأياً آخر غيره: فلا أجدك "[7] .

---

(١) " البيهقي٥/٢١ " .

(٢) " المرجع السابق " .

(٣) " السير٣/٣٤٢ "، " الحلية١/٣٩٢ "، " اللالكائي١/٩٤ " .

(٤) " الدارمي١/١٢٥ " .

(٥) " مسند الحميدي١/١٠٤ "، " ابن خزيمة٤/٣٠٣ "، " سنن البيهقي٥/١٣٥ "، " مسند الشافعي١/١١٩ "، " جامع بيان العلم٢/١٩٦ " .

(٦) " أحمد٦/١٠٦ " .

(٧) " جامع بيان العلم٢/٣٢ " .

* وعن مجاهد_ رحمه الله_، قال: " ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك: إلا النبي صلى الله عليه وسلم "(١).

* وكان ابن سيرين_ رحمه الله_ إذا سئل عن شيء، قال: " ليس عندي فيه إلا رأي اتهمه، فيقال له: قل فيه برأيك: فيقول: لو أعلم أن رأيي يثبت: لقلتُ فيه، ولكني أخاف أن أرى اليوم رأياً، وأرى غداً غيره: فأحتاج أن اتبع الناس في دورهم "(٢) .

* وجاء رجل إلى القاسم بن محمد، فسأله عن شيء: فأجابه، فلما ولى الرجل، دعاه، فقال له_ رحمه الله:

" لا تقل إن القاسم زعم أن هذا هو الحق، ولكن إن اضطررتَ إليه: عملت به "(٣) .

* وكتب عمر بن عبد العزيز_ رحمه الله_ إلى الناس: " إنه لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم "(٤) .

* وفي لفظٍ عنه_ رحمه الله_، قال: " إنه لا رأي لأحد في كتاب، وإنما رأي الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب، ولم تمض به سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا رأى لأحد في سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم "(٥) .

* وكان يحيى بن آدم_ رحمه الله_ يقول: " لا يحتاج مع قول النبي صلى الله عليه وسلم إلى قول أحد "(٦) .

* وعن ابن خزيمة_ رحمه الله_ قال: " ليس لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قولٌ إذا صح الخبر عنه "(٧) .

ــــ وهذا هو عينه المروي عن الأئمة الأربعة جميعاً_ رحمهم الله_ لا يختلفون فيه:

* قال الإمام أبو حنيفة_ رحمه الله_: " لا يحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت "(٨) .

* وقال_ رحمه الله_: " إذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: نختار من أقوالهم، وإذا جاء عن التابعين: زاحمناهم "(٩) .

---

(١) " الحلية٣/٣٠٠ "، " المدخل للبيهقي/١٠٧ "، " مفتاح الجنة للسيوطي/٤٤ " .

(٢) " جامع بيان العلم٢/٣٢ " .

(٣) " جامع بيان العلم٢/١٤٤ " .

(٤) " جامع بيان العلم٢/٣٤ " .

(٥) " الدارمي١/١٢٥ " .

(٦) " المدخل للبيهقي/١٠٦ " .

(٧) " المدخل للبيهقي/١٠٦ " .

(٨) " الانتقاء لابن عبد البر/١٤٥ "، " إعلام الموقعين٢/٢١١ "، " إيقاظ الهمم/١٢٧ " .

(٩) " أخبار أبي حنيفة للصيمري/١٠ "، " مناقب الأئمة الأربعة/٦٨، ٧١ "، " إيقاظ همم أولي الأبصار/٧٠ "، " مختصر المؤمل/٦٢:

* وقال لتلميذه أبي يوسف_ رحمه الله_: " ويحك يا يعقوب، لا تكتب عني كل ما أقول: فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً، ونقول القول غداً ونرجع عنه بعد غد "(١) .

* وعن الحسن بن صالح قال: " كان أبو حنيفة النعمان بن ثابت فهماً متثبتاً؛ فإذا صح عنده الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يعده إلى غيره "(٢) .

* وقال_ رحمه الله_: " إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله، وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم: فاتركوا قولي"(٣) .

* وذكر ابن الشحنة في نهاية النهاية أنه صح عن أبي حنيفة أنه قال: " إذا صح الحديث: فهو مذهبي "(٤) .

* وعن الحسن بن زياد اللؤلؤي_ رحمه الله_ يقول: سمعت أبا حنيفة يقول: " قولنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا: فهو أولى بالصواب منا "(٥) .

ـ وقال الإمام مالك_ رحمه الله_: " إنما أنا بشرٌ: أخطئ، وأُصيب: فانظروا في رأيي: فكل ما وافق الكتاب والسنة: فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة: فاتركوه "(٦) .

* وكان يقول_ رحمه الله_: " إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين "(٧) .

* ودخل القعنبي_ رحمه الله_ على مالك فرآه يبكي فسأله: ما الذي يبكيك ؟ .

فقال الإمام_ رحمه الله_: " يا ابن قعنب ومالي لا أبكي، ومن أحقُّ بالبكاء مني !، لوددتُ أني ضربتُ سوطاً، وقد كانت لي السعة فيما سبقت إليه، وليتني لم أفتِ بالرأي "(٨) .

* والإمام مالك_ رحمه الله_ هو صاحب المقولة السائرة الجامعة لكل ما يُمكن أن يُقال هنا: " كل أحد يؤخذ من قوله، ويترك إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم "(٩) .

٦٣".

(١) " الانتقاء لابن عبد البر/١٤٦ "، " تاريخ بغداد١٣/٤٢٤ "، " تاريخ ابن معين٣/٥٠٤ " .

(٢) " مناقب الأئمة الأربعة لابن عبدالهادي/٦٨ " .

(٣) " إيقاظ الهمم/٦٢ " .

(٤) " إيقاظ الهمم/٥٢، ٦٢ "، " حاشية ابن عابدين١/٣٨٥ "، " الآيات البينات في عدم سماع الأموات/٣٥، ٣٨ " .

(٥) " تاريخ بغداد١٣/٣٥٢ "، " الإنصاف للدهلوي/١٠٤ "، " عقد الجيد للدهلوي/٣٢ " .

(٦) " جامع بيان العلم٢/٣٢ " .

(٧) " جامع بيان العلم٢/٣٣ " .

(٨) " جامع بيان العلم٢/١٤٥ "، " الإحكام٦/٢٢٤ " .

(٩) " سير أعلام النبلاء٨/٩٣ "، " مختصر المؤمل لأبي شامة/٦٦ " .

ـ وأمّا الإمام المطلبي الشافعي_ رحمه الله_، فقد قال: " لا يُقلّدُ أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم "(١) .

* وقال_ كذلك_ رحمه الله_: " ما قلتُ وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال بخلاف قولي: فما صحّ من حديث النبي أولى، ولا تقلدوني "(٢) .

* وكان كثيراً ما يردد_ رحمه الله_ قولته المشهورة: " إذا صح الحديث: فهو مذهبي "(٣) .

* وما أروع، وأورع، وأصدق كلمته_ رحمه الله_ لتلميذه المزني؛ حيث قال له: " يا أبا إبراهيم، لا تقلدني في كل ما أقول، **وانظر في ذلك لنفسك: فإنه دين** "(٤) .

* وقال_ رحمه الله_: " ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة للنبي صلى الله عليه وسلم أو تعزب عنه، فمهما قلتُ من قولٍ أو أصّلتُ من أصلٍ فيه عن رسول الله خلاف ما قلتُ: فالقول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قولي، وجعل يردد هذا الكلام "(٥) .

* وعن الربيع بن سليمان، قال: سمعتُ الشّافعي وسأله رجل عن مسألة، فقال: " يُروى فيها كذا، وكذا عن النّبي صلى الله وسلم، فقال له السّائل: يا أبا عبد الله، ما تقول فيه ؟ .

فرأيت الشّافعي أرعد، وانتفض، فقال: ما هذا ؟!، أيّ أرض تقلني، وأيّ سماء تظلني إذا رويت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حديثًا فلم أقلْ به ؟!!!، نعم على السّمع والبصر، نعم على السّمع والبصر"(٦).

* وعن الربيع_ أيضاً_، قال: سمعت الشّافعي وقد روى حديثاً، وقال له بعض من حضر: تأخذ بهذا ؟ .

فقال_ رحمه الله_: " إذا رويتُ عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً صحيحاً، فلم آخذْ به: فأنا أشهدكم أنّ عقلي قد ذهب، ومدّ يديه "(٧) .

* وكان الإمام الشافعي_ رحمه الله_ يقول: " اعرف الحق لذي الحق إذا أحق الله الحق "(٨) .

---

(١) " الرد على من أخلد إلى الأرض/١٣٨ " .

(٢) " آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم الرازي/٩٣ " .

(٣) " سير أعلام النبلاء١٠/٣٥ "، " طبقات الشافعية الكبرى١٣٩/٦، " إيقاظ الهمم/٩٨، ١٠٧ "، " عقد الجيد للدهلوي/٣٢ "، " الإنصاف للدهلوي/١٠٤ " .

(٤) " حجة الله البالغة١/٢٩٢ "، " الإنصاف للدهلوي/١٠٥ " .

(٥) " إعلام الموقعين٢/٢٨٦ " .

(٦) " مناقب الشافعي للبيهقي١/٤٧٤: ٤٧٥ "، " الحلية٩/١٠٦ "، وانظر: " الفقيه والمتفقه١/١٥٠ "، " مناقب الأئمة الأربعة لابن عبد الهادي/١١٣ " .

(٧) " المراجع السابقة "، " آداب الشافعي/٦٧، ٩٣ " .

(٨) " حلية الأولياء٩/١١٩ " .

ــ وأما الإمام أحمد_ رحمه الله_، فقال: " لا تقلد دينك الرجال، فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا "(١) .

* وقال_ رحمه الله_ أيضاً_: " لا تقلدني، ولا تقلد مالكاً، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري: وخذ من حيث أخذوا "(٢) .

* وقال أبو داود: قلت لأحمد: " الأوزاعي أتبع أم مالكاً ؟ " .

فقال: " لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء، ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: فخذ به "(٣) .

* وقيل له_ رحمه الله_: " إنَّ قوماً يدعون الحديث، ويذهبون إلى رأي سفيان " .

فقال_ رحمه الله_: " أعجب لقومٍ سمعوا الحديث، وعرفوا الإسناد وصحته؛ ويدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره !؛ قال الله: { فليحذرِ الذين يُخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذابٌ أليم } .

وتدري ما الفتنة ؟: الكفر، قال الله تعالى: { والفتنة أكبر من القتل }، فيدعون الحديث عن رسول الله، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي "(٤) .

ــ قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ حكايةً عن جملة أئمة العلم والدين:

[واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوماً في كل ما يأمر به، وينهى عنه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قـــال غير واحد من الأئمة: كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهؤلاء الأئمة الأربعة_ رضي الله عنهم_ قد نهوا الناس عن تقليدهم، وذلك هو الواجب عليهم، فقال أبو حنيفة: " هذا رأيي فمن جاء برأي خير منه: قبلناه "، ومالك كان يقول: " إنما أنا بشر أصيب وأخطئ، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة " أو كلاماً هذا معناه، والشافعي كان يقول: " إذا صح الحديث: فاضربوا بقولي الحائط "، و" إذا رأيت الحجة موضوعه على الطريق: فهي قولي "، وفي مختصر المزني ممّا ذكر أنه اختصره من مذهب الشافعي لمن أراد معرفة مذهبه، قال: " مع إعلامه نهيه عن تقليده، وتقليد غيره من العلماء "، والإمام أحمد كان يقول: " لا تقلدوني، ولا تقلدوا مالكاً، ولا الشافعي، ولا الثوري، وتعلموا كما تعلمنا "](٥) .

ــ وإذا كان هؤلاء الأئمة الأعلام، الكبار، العظام، حماة الإسلام وحملته قد نهوا الناس عن معرفة الحق بهم_وهم مَنْ هم علماً وعملاً_، فهل يُعرف الحق بمن دونهم ممن لا نسبة بينه وبينهم في علم أو عمل ؟!!!،

---

(١) " المسوّدة لآل تيمية/٤١٦ " .

(٢) " إعلام الموقعين٢/٢٠١ "، " شرح النونية١/٤٩٢ " .

(٣) " إعلام الموقعين٢/٢٠٠ " .

(٤) " شرح النونية١/٤٩٢ " .

(٥) " الفتاوى٢٠/٢١٠: ٢١٢ " .

اللهم لا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [والمقصود: أن مَنْ نصب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً: اعتقاداً أو حالاً: فقد ضل في ذلك كأئمة الضلال الرافضة الأمامية ...

وكذلك من دعا لاتباع شيخ من مشايخ الدين في كل طريق من غير تخصيص، ولا استثناء ...

وكذلك من دعا إلى اتباع إمام من أئمة العلم فيما قاله، وأمر به، ونهى عنه مطلقاً كالأئمة الأربعة، وكذلك من أمر بطاعة الملوك، والأمراء، والقضاة في كل ما يأمرون به، وينهون عنه من غير تخصيص، ولا استثناء][(١)] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [اتخاذ أقوال رجل بعينه بمنزلة نصوص الشارع لا يلتفت إلى قول من سواه بل ولا إلى نصوص الشارع إلا إذا وافقت نصوص قوله: فهذا_ والله_ هو الذي أجمعت الأمة على أنه محرم في دين الله، ولم يظهر في الأمة إلا بعد انقراض القرون الفاضلة][(٢)] .

وقال أبو حامد الغزالي_ رحمه الله_: [وهذه عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق، والعاقل يقتدي بسيد العقلاء: علي بن أبي طالب_ رضي الله عنه_ حيث قال: " لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق: تعرف أهله "][(٣)] .

وقال_ رحمه الله_ أيضاً_: [فاعلم أن من عرف الحق بالرجال: حار في متاهات الضلال، فاعرف الحق: تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس: فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم][(٤)] .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [فالحاصل ممّا تقدم: أن تحكيم الرجال من غير التفات إلى كونهم وسائل للحكم الشرعي المطلوب شرعاً: ضلال، وما توفيقي إلا بالله، وأن الحجة القاطعة، والحاكم الأعلى: هو الشرع لا غير][(٥)] .

ـــ فأهل الطائفة المنصورة يتلمسون الحق من مظانه، فما أعياهم من حكم أو نزل بهم من نازلة: طلبوا الحقَ من أصوله المستقرة بغير نظر منهم لما عليه الرجال من ذلك_ أحياءً كانوا أم أمواتاً_ .

كما أن أهل الطائفة المنصورة أول ما يحاكمون إلى هذا الأصل_ معرفة الرجال بالحق لا الحق بالرجال_: يحاكمون أنفسَهم قبل أن يحاكموا غيرهم، فحاشاهم أن يكونوا أصحاب دعوى هم أول من يخالفها !، وهم_لذلك_ يضعون على هذا المحك أقوال، وأفعال أقرب الناس، وأحبهم إليهم من شيخ، وعالم أو أمير،

---

(١) " الفتاوى١٩/٦٩: ٧٠ " .

(٢) " إعلام الموقعين٢/٢٣٦ " .

(٣) " "، وانظر: " الإحياء١/٥٣ " .

(٤) " الإحياء١/٢٨ " .

(٥) " الاعتصام٢/٥١١ " .

وزعيم أو غير ذلك من كل مطاع لهم، ومتبع .

فعند أهل الطائفة المنصورة_ وبناء على ما سبق_(**الأمور**: تُعطى حقها من الكتاب والسنة، فما جاء به الكتاب والسنة من الخبر، والأمر، والنهي: وجب اتباعه، **ولم يُلْتَفت إلى مَن خالفه كائناً مَن كان، ولم يجز اتباع أحد في خلاف ذلك كائنًا مَن كان كما دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة من اتباع الرسول وطاعته ...**

فإن كل أحد من الناس قد يؤخذ من قوله وأفعاله ويُترك إلا رسول الله صلى الله عليه و سلم)(1) .

ــــ غير أن أهل الطائفة المنصورة مع معرفتهم الرجال بالحق دون الحق بالرجال: يوقنون (أن الداخل في هذا الأمر اليوم: فاقد المساعد، عديم المعين، فالموالي: لم يخلد به إلى الأرض، ويلقي له باليد إلى العجز عن بث الحق بعد رسوخ العوائد في القلوب .

والمعادي: يريسه بالأردبيس، ويروم أخذه بالعذاب البئيس لأنه يرد عوائده الراسخة في القلوب المتداولة في الأعمال: ديناً يتعبد به، وشريعة يسلك عليها **لا حجة له إلا عمل الآباء والأجداد مع بعض الأشياخ العالمين: كانوا من أهل النظر في هذه الأمور أم لا .**

ولم يلتفتوا إلى أنهم عند موافقتهم للآباء والأشياخ: مخالفون للسلف الصالح، فالمعترض لمثل هذا الأمر ينحو نحو عمر بن عبد العزيز_ رضي الله عنه_ في العمل، حيث قال: " ألا وإني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله: قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره " .

وكذلك ما نحن بصدد الكلام عليه .

غير أنه أمر لا سبيل إلى إهماله، ولا يسع أحداً ممن له منة إلا الأخذ بالحزم والعزم في بثه بعد تحصيله على كماله وإن كره المخالف: فكراهيته لا حجة فيها على الحق ألا يرفع مناره، ولا تكشف وتجلى أنواره)(2) .

ــ فشعار أهل الطائفة المنصورة: " لا نقيل، ولا نستقيل "، وعندهم (المؤمن لدى الحق: أسير)(3) .

فيدور مع قول الرســـول وفعله   نفيــاً واثباتــاً بــلا روغان
ويحكم الوحي المبين على الذي   قـــال الشيوخ فعنده حكمـــان
لا يحكمان ببـــاطل أبــداً وكل   العدل قد جاءت به الحكمـــان
وهما كـــتاب الله أعـــدل حاكم   فـــيه الشـــفا وهدايـــة الحيران

---

(1) " الفتاوى١٠/٣٨٣ " .

(2) " الاعتصام١/٢٤ " .

(3) " حلية الأولياء١٠/٣١ " .

والحاكم الثاني كــلام رســوله   مــا ثــم غيرهما لذي إيــمان
فإذا دعوك لغير حكمهمــا فلا   سمعاً لداعـــي الكفر والعصيان
قل لا كرامة لا ولا نعــما ولا   طــوعاً لمن يدعو إلى طغيان
وإذا دعيت إلى الرسول فقل لهم   سمعاً وطوعاً لست ذا عصيان

ـ وأخيراً، فأهل الطائفة المنصورة في معرفتهم الرجال بالحق دون معرفة الحق بالرجال: يترنمون بقول الحسين بن علي: نصحاً، وتحذيراً لمن عكس: فانتكس في زمان كما قال ابن القيم_ رحمه الله_:

[إنما يحرص أشباه الناس فيه على ما قاله الآخر، فالآخر، وكلما تأخر الرجل: أخذوا كلامه][1] .

تريد تنام علـــي ذي الشبه   وعلك إن نمـــت لا تنتبه
فجاهد وقلد كتـــاب الإله   لتلقى الإله إذا مـــت بـــه
فقد قلد الناس رهبـــانهم   وكل يجادل عـــن راهبه
وللـــحق مستنبط واحد   وكل يرى الحق في مذهبه
ففيما أرى عجب غير أن   بيان التفرق مـــن أعجبه[2]

ـــ فائدة مناسبة:

قال ابن رجب_ رحمه الله_: [وهاهنا أمر خفي ينبغي التفطن له: وهو أن كثيراً من أئمة الدين قد يقول قولاً مرجوحاً، ويكون مجتهداً فيه، مأجوراً على اجتهاده فيه، موضوعاً عنه خطؤه فيه، ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته في هذه الدرجة لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلا لكون متبوعه قد قاله، بحيث لو أنه قد قاله غيره من أئمة الدين: لما قبله، ولا انتصر له، ولا والي من يوافقه، ولا عادي من خالفه، وهو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه: وليس كذلك، فإن متبوعه إنما كان قصده الانتصار للحق وإن أخطأ في اجتهاده، وأما هذا التابع: فقد شاب انتصاره لما يظنه الحق: إرادة علو متبوعه، وظهور كلمته، وأنه لا ينسب إلى الخطأ، **وهذه دسيسة تقدح في قصد الانتصار للحق، فافهم هذا فإنه مهم عظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**][3] .

(١) " إعلام الموقعين٢/٢٦٦ " .

(٢) " جامع بيان العلم٢/١١٤ " .

(٣) " جامع العلوم والحكم/٣٢٨ " .

ـــــ مسألة:

الطائفة المنصورة ووجوب اجتناب زلة العالِم .

* قال صلى الله عليه وسلم: " كل بني آدم: خطّاء، وخير الخطّائين: التوابون "(١) .

فلمّا كانت العصمة منتفية عن غير الأنبياء، وكان الحق لا يعرف بالرجال: وجب اجتناب زلات الرجال، وعدم متابعتهم، والاقتداء بهم فيها بل حقها أن تطرح، وتبعد، وإن كان صاحبها قد يكون معذوراً بل مأجوراً كما سبق بيانه .

قال ابن عبد البر_ رحمه الله_: [وإذا صح، وثبت أن العالم يزل، ويخطيء: لم يجز لأحد أن يفتي، ويدين بقول لا يعرف وجهه](٢) .

ـــــ وقد حذّر أئمة الطائفة المنصورة من زلة العالم، وبينوا خطرها، ووجوب اجتنابها، وطرحها، وعدم متابعته فيها:

* قال عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_: " ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق، وأئمة مضلون"(٣).

* وقال معاذ بن جبل_ رضي الله عنه_: " إنما أخشى عليك ثلاثة من بعدي: زلة عالم، وجدال منافق في القرآن_ والقرآن حق_، وعلى القرآن منار كمنار الطريق، فما عرفتم منه فخذوه، وما لم تعرفوا: فكلوه إلى عالمه ... "(٤) .

* وقال_ أيضاً_ رضي الله عنه_: " وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق " .

قال الراوي: قلت لمعاذ: ما يدريني_ رحمك الله_ أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ .

قال_ رضي الله عنه_: " بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشبهات التي يُقال لها: ما هذه ؟!، ولا يثنيك ذلك عنه

---

(١) " المستدرك٤/٢٧٢ "، " الترمذي٤/٦٥٩ "، " ابن ماجه٢/١٤٠٢ " .

(٢) " جامع بيان العلم٢/١١١ " .

(٣) صحيح: " الدارمي١/٧١ "، " حلية الأولياء٤/١٩٦ "، وانظر في المرفوع: " المجمع للهيثمى١/١٨٦، ٥/٢٣٩، ٧/٢٠٣ "، " العلل المتناهية ١/١٣٩ "، " كشف الخفاء١/٤١ " .

(٤) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/ ١٢٢ "، " جامع بيان العلم٢/١١١ "، " الإحكام لابن حزم٦/٣١٨ " .

فإنه لعله أن يراجع، وتلقّ الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً "(١) .

* وفي لفظ: " قالوا: وكيف زيغة الحكيم ؟ .

قال_ رضي الله عنه_: " هي الكلمة تروعكم، وتنكرونها، وتقولون: ما هذه ؟!، فاحذروا زيغته ... "(٢) .

* وقال معاذ_ رضي الله عنه_ أيضاً_ عند موته في وصيته للحارث بن عميرة:

" وأحذرك: زلة العالم ... "(٣) .

* وكان أبو الدرداء_ رضي الله عنه_، يقول:

" إن ممّا أخشى عليكم: زلة العالم، وجدال منافق بالقرآن، والقرآن حق، وعلى القرآن منار كمنار الطريق..."(٤) .

* وعن سلمان_ رضي الله عنه_، قال لزيد بن صوحان، وأبي قرة:

" كيف أنتما عند زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن_ والقرآن حق_، ودنيا مطغية تقطع الأعناق، قال: أما زلة العالم، فإن اهتدى: فلا تحملوه دينكم، وإن زل: فلا تقطعوا منه أناتكم، وأما جدال المنافق بالقرآن_ والقرآن حق_، فإن للقرآن مناراً كمنار الطريق، فما أضاء لكم: فاتبعوه، وما شبه عليكم: فكلوه إلى الله عز وجل"(٥).

قال المناوي_ رحمه الله_ في بيان المراد من التحذير من زلة العالم:

[" احذروا زلة العالم "، أي: احذروا الاقتداء به فيها، ومتابعته عليها: كلبسه الإبريسم، وركوبه مراكب العجم، وأخذه ما فيه شبهة من مال السلطان وغيره، ودخوله عليه، والتردد إليه، ومساعدته إياه بترك الإنكار، وتمزيقه الأعراض، وتعديه باللسان في المناظرة، واستخفافه بالناس، وترفعه عليهم، واشتغاله بالعلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، وكتساهله في الإفتاء، وفي الإجازة به، وكتقصير في بذل الجهد في الاجتهاد وإعطائه النظر حقه فيما يسأل عنه، وتسارعه إلى الجواب من رأس القلم أو اللسان، وإجماله في محل التفصيل والبيان: فهذه ذنوب يتبع العالِم فيها: العالَم، فيموت العالِم: ويبقى شره مستطيراً في العالم](٦) .

ـــــ وإنما كانت زلة العالم بهذه المثابة من الخطورة لأن شأن العالم ليس كشأن غيره، وقد قيل:

---

(١) " أبو داود٢٠٢/٤ " .

(٢) " جامع بيان العلم١١١/٢ " .

(٣) " البزار١١٥/٧ "، وانظر: " مجمع الزوائد٣١٣/٢ " .

(٤) " الزهد لأحمد/١٤٣ "، " حلية الأولياء٢١٩/١ "، " جامع بيان العلم١١٠/٢ " .

(٥) " الإحكام لابن حزم٢٩٤/٦ "، " جامع بيان العلم١١١/٢ " .

(٦) " فيض القدير١٨٧/١ " .

" زلة العالم: يُضرب بها الطبل، وزلة الجاهل: يخفيها الجهل "(١) .

وذلك لأن الجاهل: غير محتج به، غير متبع في أمره، وعلى العكس من ذلك: العالم، ولله درّ القائل:

العيب في الجاهل المغمور: مغمور   وعيب ذي الشرف المذكور: مذكور

كفوفة[٢]الظفر: تخفى من حقارتها   ومثلها في سواد العين: مشـــهور[٣]

ــ فالعالِم: منظورٌ إليه، مُحْتجٌّ به، متبع في أمره، ولذا كانت زلة العالم: زلة له، ولمن يقتدي به، فأثرها: متعدٍ لا لازم .

(فإن العلماء: هم القدوة، وإليهم المرجع في الأحكام، وهم حجة الله تعالى على العوام، وقد يراقبهم للأخذ عنهم من لا ينظرون، ويقتدي بهم من لا يعلمون، وإذا لم ينتفع العالم بعلمه: فغيره أبعد من الانتفاع به كما سبق من قول الشافعي_ رحمه الله_: " ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع " .

ولهذا عظمت زلة العالم لما يترتب عليها من المفاسد لاقتداء الناس به)(٤) .

(فأمر العلماء: خطر، وعليهم وظيفتان: ترك الذنب ثم إخفاؤه إن وقع، وكما يتضاعف ثوابهم على الحسنات: فيضاعف عقابهم على الذنوب والسيئات إذا اتبعوا ...

فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان: تتضاعف آثارها إما بربح أو خسران)[٥] .

* وقد روي عن عيسى عليه السلام أنه سئل: من أشد الناس فتنة ؟ .

فقال: " زلة عالِم إذا زل: زل بزلته عالم "(٦) .

* وقال معاذ_ رضي الله عنه_: " احذروا زلة العالم، لأنه قدره عند الخلق عظيم: فيتبعونه على زلته "(٧) .

* وقال عمر_ رضي الله عنه_: " إذا زل العالم: زل بزلته عالَمٌ من الخلق "(١) .

---

(١) " الأمثال للميداني/٣٠٨ "، " المستطرف للأبشيهي١/٤٩ "، " ربيع الأبرار للزمخشري " .

(٢) قال في " اللسان٩/٢٧٣ ": [الفوف: البياض الذي يكون في أظفار الأحداث، وكذلك الفوف واحدته: فوفة، يعني بواحده: الطائفة منه، ومنه قيل: برد مفوف] .

(٣) " درة الغواص في أوهام الخواص للحريري "، " قرى الضيف٥/٢٩ " .

(٤) " آداب العلماء والمتعلمين للحسن بن المنصور بالله " .

(٥) " فيض القدير ١/١٤١ " .

(٦) " قوت القلوب للمكي "، " الزهد لابن المبارك/٥٢٠ " .

(٧) " إحياء علوم الدين١/ ٨٦ " .

قال الزبيدي_ رحمه الله_: [وفي الكلام المشهور: زلة العالِم: زلة العالَم](٢) .

قال المناوي_ رحمه الله_: [" اتقوا زلة العالم "، أي: سقطته، وهفوته، وفعلته الخطيئة جهراً، إذ بزلته: يزل عالم كثير لاقتدائهم به، فهفوته: يترتب عليها من المفاسد ما لا يحصى، وقد يراقبه للأخذ عنه: من لا يراه، ويقتدي به من لا يعلمه، فاحذروا متابعته عليها، والاقتداء به فيها، ولكن مع ذلك احملوه على أحسن المحامل، وابتغوا له عذراً ما وجدتم لذلك سبيلاً، وعلم من ذلك أنه لا عذر لنا في قولنا إن أكلنا الحرام: فالعالم الفلاني يأكله مثلاً، قال الغزالي: في هذا جهل، وكيف يُعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به، فإن من خالف أمر الله تعالى: لا يقتدى به كائناً من كان، ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها: فلا عذر لك في موافقته](٣) .

ـــــ بل إن ضرر زلة العالم على الأتباع: أعظم من ضررها على العالم نفسه إذ العالم ما يلبث_ إذا شاء الله_ أن يفئ إلى الحق لعلمه بمواطن الحق والصواب، ويمضي الأتباع على ما مضى من زلته لوقوفهم عند الرجال، وعدم طلبهم الحق من مظانه .

* قال تميم الداري لما سأله عمر ما زلة العالم ؟.

قال: " العالم يزل بالناس: فيؤخذ به، فعسى أن يتوب منه العالم، والناس يأخذون به "(٤) .

* وقال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " ويل للأتباع من زلة العالم " .

قيل: وكيف ؟ .

قال: " يقول العالم الشيء برأيه، فيلقى من هو أعلم منه برسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره: فيرجع، ويقضي الأتباع بما حكم "(٥) .

فـ(زلة العالم: سبب لفتنة الناس)(٦)، ومن هنا قيل بأن (العالم: أولى الناس بالتثبت، والاحتياط لنفسه ولغيره، وقد قالت الحكماء: لا تقال زلة العالم لأنه يزل بزلته العالم)(٧) .

(وكان بعض السلف يقول: مثل العالم إذا زل: مثل سفينة إذا غرقت: غرق معها خلق كثير، ومثل كسوف

---

(١) " المرجع السابق " .

(٢) " تاج العروس/١٠٣٢٨ "، وانظر: " المستقصى في أمثال العرب للزمخشري١١٠/٢ " .

(٣) " فيض القدير ١٤٠/١ " .

(٤) " الزهد لابن المبارك/٥٠٨ "، " الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع٢١١/١: ٢١٢ " .

(٥) " جامع بيان العلم٢١٢/٢ " بسند حسن .

(٦) " المبسوط " .

(٧) " جامع ابن البيطار/٤٣٠٥ "، وانظر: " التمثيل والمحاضرة للثعالبي" .

الشمس، يصيح الناس: يا غافلون الصلاة، وإنها عند العامة آية يفزع منها)(١) .

قال ابن عبد البر_ رحمه الله_: [شبّه الحكماء زلة العالم: بانكسار السفينة لأنها إذا غرقت: غرق معها خلق كثير](٢) .

ـــــ قال ابن القيم_ رحمه الله_: [المصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله، وبيان زلة العالم: ليبينوا بذلك فساد التقليد، وأن العالم قد يزل ولا بد إذ ليس بمعصوم: فلا يجوز قبول كل ما يقوله، وينزل قوله منزلة قول المعصوم.

فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض، وحرموه، وذموا أهله، وهــو أصل بلاء المقلدين، وفتنتهم: فهم يقلدون العالم فيما زل فيه، وفيما لم يزل فيه، وليس لهــم تمييز بين ذلك .

فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد: فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون ما لم يشرع، ولا بد لهم من ذلك إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه: فالخطأ واقع منه ولا بد](٣) .

ورحم الله ابن عبد البر إذ يقول:

والشر ما فيه فديتك أسوة   فانظر ولا تحفل بزلة ماهر(٤)

ـــــ وأهل العلم بعد أن حذروا من زلة العالم، وأمروا بطرحها، واجتنابها: بينوا موقعها من دين الله: فنصوا على كونها: خارجة عن موارد الاجتهاد المعتبرة، منقطعة الصلة بمدارك الحق ومسالكه، ولذا: كانت باطلة النسبة لدين الله وشرعه .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [زلة العالم: لا يصح اعتمادها من جهة، ولا الأخذ بها تقليداً له، وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع ولذلك عُدت زلة، وإلا فلو كانت معتداً بها: لم يجعل لها هذه الرتبة، ولا نسب إلى صاحبها الزلل ...

فإذا كان بيناً ظاهراً أن قول القائل: مخالف للقرآن أو للسنة: لم يصح الاعتداد به، ولا البناء عليه ولأجل هذا: ينقض قضاء القاضي إذا خالف النص أو الإجماع ...

ومنها: أنه لا يصح اعتمادها خلافاً فى المسائل الشرعية لأنها لم تصدر فى الحقيقة عن اجتهاد، ولا هى من مسائل الاجتهاد، وإن حصل من صاحبها اجتهاد: فهو لم يُصادف فيها محلاً: فصارت فى نسبتها إلى الشرع كأقوال غير المجتهد، وإنما يُعدّ فى الخلاف: الأقوال الصادرة عن أدلة معتبرة فى الشريعة كانت ممّا يقوى أو يضعف وأما إذا صدرت عن مجرد خفاء الدليل أو عدم مصادفته: فلا، فلذلك قيل: إنه لا يصح أن يعتد بها

---

(١) " قوت القلوب للمكي/٣١٠ "، وانظر: " نثر الدرر للآبي "، " التمثيل والمحاضرة للثعالبي " .

(٢) " جامع بيان العلم٢/١١١ " .

(٣) " إعلام الموقعين٢/١٩٢ " .

(٤) " جامع بيان العلم٢/١١٥ " .

في الخلاف ...][1] .

الفصل الرابع

المَعْلَمُ الرابع

الحق لا يعرف بكثرة عدد أو عدة

إذا كان الحق عند أهل الطائفة المنصورة لا يُعرف بالرجال، فهو_ كذلك_ لا يُعرف عندهم بكثرة الأتباع، ولا بما عندهم من قوة مادية من مال، وعتاد، وإنما علامة الحق ودليله: موافقته لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا، وهذا وحده: علامة الصدق، ودليل الصحة والصواب .

ـــ وقد امتلأ الشرع المطهر ببيان أن الحق لا يعرف بالكثرة، ولا بالقوة المادية بل قد جاء الشرع بذم هذه الأمور، وبيان أنها أعراض خارجية: لا تُحق حقاً، ولا تُبطل باطلاً بل بيّن الله تعالى أن هذه الأعراض من الكثرة، والمال، والعتاد: هي_غالباً_: قرينة الباطل، والعلامة عليه؛ ومن ذلك:

* قوله تعالى: { إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ **أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** } [البقرة: ٢٤٣] .

* وقال تعالى: { وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ الله مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ **أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ } [الأنعام:] .

* وقال تعالى: { **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا** إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } .

* وقال تعالى: { وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ **أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ** } .

* وقال تعالى: { فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ **أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** } .

* وقال تعالى: { وَالله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ **أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** } .

* وقال تعالى: { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِالله مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ الله عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ **أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** } .

* وقال تعالى: { إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ **أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** } .

---

(١) " الموافقات ٤/١٧٠: ١٧٢ " .

* وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ **أَكْثَرُهُمْ** بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] .

* وقال تعالى: { ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن **أكثرهم يجهلون** } .

* وقال تعالى: { وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى **أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا** } .

* وقال تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً **وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ** } .

* وقال تعالى: { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ **وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** } .

* وقال تعالى: { لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ **أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** } .

ـ والآيات في ذم الكثرة، وأنها_ غالباً_ جند الباطل، وحزبه: كثيرة جداً، وكلها ظاهرة في تقرير حقيقة قدرية، وهي كون الكثرة_ غالباً_: منحرفةً عن الصراط المستقيم، معرضةً عن الهدى، رافضةً للحق، كارهةً له .

* قال ابن كثير_ رحمه الله_ في قوله تعالى: { وإن كثيراً من الناس لفاسقون }:

[أي: إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق، ناكبون عنه كما قال تعالى: { وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين }، وقال تعالى: { وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله } الآية](1) .

* وقال ابن كثير_ رحمه الله_ كذلك_ في تفسير قوله تعالى: { وَإِنْ تُطِعْ **أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ** يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }[الأنعام: ١١٦]، قال:

[يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه: الضلال كما قال تعالى: { ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين }، وقال تعالى: { وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين }، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة، وحسبان باطل إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون](2) .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسيره لنفس الآية:

[يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم محذراً عن طاعة أكثر الناس: { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ }، فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم، وأعمالهم، وعلومهم، فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة: فحري أن يُحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم لأن هذا وإن كان خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم: فإن أمته تبع له في

---

(١) " تفسير ابن كثير ٦٨/٢ " .

(٢) " المرجع السابق ١٦٩/٢ " .

سائر الأحكام التي ليست من خصائصه .

والله تعالى: أصدق قيلاً، وأصدق حديثاً، و{ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ }، وأعلم بمن يهتدي ويهدي: فيجب عليكم أيها المؤمنون أن تتبعوا نصائحه، وأوامره، ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم .

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور: أن يكون غير حق بل الواقع بخلاف ذلك: فإن أهل الحق: هم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً وأجراً بل الواجب أن يستدل على الحق، والباطل بالطرق الموصلة إليه][(١)] .

* وفي قوله تعالى: { قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ **وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** } [الأعراف: ١٦_ ١٧] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ }، أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم، ولمّا علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم: ظن وصدق ظنه، فقال: { وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ }، فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به][(٢)] .

* وفي قوله تعالى: { وَمَا وَجَدْنَا **لِأَكْثَرِهِمْ** مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا **أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** } [الأعراف: ١٠٢] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ }، أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والتزام لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على ألسنة رسله .

{ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ }، أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب وأمرهم باتباع عهده وهداه: فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة، وأما أكثر الخلق: فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عمّا جاءت به الرسل: فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل][(٣)] .

* وفي قوله تعالى: { وَمَا **أَكْثَرُ** النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [يوسف: ١٠٣] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ } على إيمانهم { بِمُؤْمِنِينَ }، فإن مداركهم، ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم، ولو عدمت الموانع بأنهم كانوا يعلمونهم، ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم

---

(١) " تفسير السعدي/١٧٤ " .

(٢) " تفسير السعدي/١٨٥ " .

(٣) " تفسير السعدي/١٩٧ " .

من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد، والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا](1) .

* وفي قوله تعالى: { المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ **أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** } [الرعد: ١]:

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [قوله: { ولكن أكثر الناس لا يؤمنون } كقوله: { وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين }، أي: مع هذا البيان، والجلاء، والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق، والعناد، والنفاق](2).

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يخبر تعالى: أن هذا القرآن: هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه: هو الحق المبين، لأن أخباره: صدق، وأوامره ونواهيه: عدل مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة، فمن أقبل عليه، وعلى علمه: كان من أهل العلم بالحق الذي يوجب لهم علمهم به: العملَ بما أوجب الله .

{ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } بهذا القرآن: إما جهلاً، وإعراضاً عنه، وعدم اهتمام به، وإما عناداً، وظلماً، فلذلك: أكثر الناس غير منتفعين به لعدم السبب الموجب للانتفاع](3) .

* وفي قوله تعالى: { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى **أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا** }

[الإسراء: ٨٩] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [قوله: { ولقد صرفنا للناس } الآية، أي: بينا لهم الحجج، والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق، وشرحناه، وبسطناه ومع هذا { فأبى أكثر الناس إلا كفوراً }، أي: جحوداً للحق، ورداً للصواب](4) .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يقول تعالى: { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ }، أي: نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثنينا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد لأجل أن يتذكروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة، وأعانهم الله بتوفيقه، وأما أكثر الناس: فأبوا إلا كفوراً لهذه النعمة التي هي أكبر من جميع النعم، وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات غير آياته يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة](5) .

* وفي قوله تعالى: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ **أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** } [الروم: ٣٠] .

---

(١) " تفسير السعدي/٢٨٢ " .

(٢) " تفسير ابن كثير٢/٤٩٩ " .

(٣) " تفسير السعدي/٢٨٦ " .

(٤) " تفسير ابن كثير٣/٦٣ " .

(٥) " تفسير السعدي/٣٢٨: ٣٢٩ " .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { ذلك الدين القيم }، أي: التمسك بالشريعة، والفطرة السليمة: هو الدين القيم المستقيم، { ولكن أكثر الناس لا يعلمون }، أي: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس: فهم عنه ناكبون كما قال تعالى: { وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين }، وقال تعالى: { وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله } الآية][(١)] .

ــــ وقد بين تعالى أن الاستدلال على الحق بالكثرة والقوة المادية: سبيل عباده الأخسرين الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، فهم الذين يستدلون بذلك: على أن ما هم عليه: هو الحق، وقد ردّ الله تعالى عليهم هذا الاستدلال، وبين بطلانه، وتهافته، وأن مظاهر القوة المادية من: الكثرة، والمال، والعتاد: هي عينها_ غالباً_: سبب الإعراض عن الحق، والصدّ عنه، فكيف تكون هي دليل الحق وحجته ؟! .

* قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ } [سبأ: ٣٥_ ٣٧] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها }، قال قتادة: أي: أغنياؤها، ورؤساؤها، وجبابرتها، وقادة الشر للرسل: { إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً }، أي: فضلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضياً بما نحن عليه من الدين والفضل: لم يخولنا ذلك، { وما نحن بمعذبين } لأن من أحسن إليه: فلا يعذبه: فرد الله عليهم قولهم، وما احتجوا به من هذا، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: { قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء }، أي: يوسعه { ويقدر }، أي: يقتر، أي: إن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحاناً لهم: **فلا يدل شيء من ذلك على ما في العواقب، فسعة الرزق في الدنيا: لا تدل على سعادة الآخرة، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغني عنكم غداً شيئاً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا لأنهم لا يتأمّلون** ثم قال تأكيداً: { وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى } ...][(٢)] .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآيات: [{ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ } إلى الله { زُلْفَى }، وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى: الإيمان بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح][(٣)] .

* وقال تعالى: { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا **أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا** وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً } [مريم: ٧٣_ ٧٤] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات }، أي: على الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: { أئذا ما مت لسوف أخرج أحيا }، وقال فيهم: { ونذر الظالمين فيها جثيا }، أي: هؤلاء إذا

---

(١) " تفسير ابن كثير٤٣٤/٣ " .

(٢) " تفسير القرطبي٣٠٥/١٤ " .

(٣) " تفسير السعدي/٤٩٦ " .

قريء عليهم القرآن: تعززوا بالدنيا، وقالوا: فما بالنا إن كنا على باطل: أكثر أموالاً، وأعز نفراً، **وغرضهم: إدخال الشبهة على المستضعفين، وإيهامهم أن من كثر ماله: دل ذلك على أنه المحق في دينه** ...][1] .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_: [يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله: ظاهرةَ الدلالة، بينة الحجة، واضحة البرهان: أنهم يصدون، ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل: بأنهم { خير مقاماً وأحسن ندياً }، أي: أحسن منازل، وأرفع دوراً، وأحسن ندياً، وهو مجتمع الرجال للحديث، أي: ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، **يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة: على باطل، وأولئك الذين هم مختفون، مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور: على الحق** كما قال تعالى مخبراً عنهم: { وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه}، وقال قوم نوح: { أنؤمن لك وأتبعك الأرذلون }، وقال تعالى: { وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين }، ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: { وكم أهلكنا قبلهم من قرن }، أي: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم { هم أحسن أثاثاً ورئياً }، أي: كانوا أحسن من هؤلاء: أموالاً، وأمتعةً، ومناظر، وأشكالاً ...][2] .

وقد قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ عن احتجاج الكفار على المؤمنين بقولهم: { أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا }، قال: [أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة بسبب أنهم أكثر مالاً، وأولاداً، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم مزخرفة، مزوقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال: فهم خير من المؤمنين .

وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال، والأولاد، وحسن المنظر: كثيراً ما يكون سببا لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال تعالى: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا }، أي: متاعاً من أوان، وفرش، وبيوت، وزخارف، { وَرِئْياً }، أي: أحسن مرأى، ومنظراً من نضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور][3] .

ـــــ وقد نصّ تعالى على أن هذه القوة المادية من كثرة العدد، والمال، والعتاد: كانت سبب ضلال من ضل، وهلاكه:

* قال تعالى: { كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [التوبة: ٦٩] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يقول تعالى واصفا حال المنافقين: إن حالكم_ أيها المنافقون_: كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر، وقد كانوا أقوى منكم، وأكثر أموالاً، وأولادا،: استمتعوا بما قدر لهم من حظوظ الدنيا، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف، وسخروا منهم فيما بينهم وبين

---

(١) " تفسير القرطبي١١/١٤١: ١٤٢ " .

(٢) " تفسير ابن كثير٣/١٣٥ " .

(٣) " تفسير السعدي/٣٥٣ " .

أنفسهم، وقد استمتعتم بما قدر لكم من ملاذ الدنيا كما استمتعوا، وخضتم فيما خاضوا فيه من المنكر والباطل؛ إنهم قد بطلت أعمالهم، فلم تنفعهم في الدنيا، ولا في الآخرة، وكانوا هم الخاسرين: وأنتم مثلهم في سوء الحال، والمآل، والعاقبة الوخيمة](1) .

ـــــ كما نص تعالى على أن هذه القوة المادية بمظاهرها المختلفة لا تُغني عن أصحابها شيئاً:

* قال تعالى: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا **أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ** فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ **فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [غافر: ٨٢_ ٨٣] .

ففي هذه الآية: (يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم، وقلوبهم، وسؤال العالمين: {فَيَنْظُرُوا } نظر فكر، واستدلال لا نظر غفلة، وإهمال: { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } من الأمم السالفة كعاد، وثمود، وغيرهم ممن { كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ } من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيقة، والزروع الكثيرة { فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } حين جاءهم أمر الله: فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم)(2) .

* وقال تعالى_ كذلك_: { وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ **مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ }

[الحاقة: ٢٥_٣١] .

فعموم قوله: { مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ }: دال بما فيه الكفاية على أن أسباب القوة المادية من العَدد والعُدد، والمال والسلطان: لا تغني أصحابها شيئاً .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [{ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ }، أي: لم يدفع عني مالي، ولا جاهي عذاب الله، وبأسه بل خَلَص الأمر إلي وحدي، فلا معين لي، ولا مجير](3) .

ـــــ بل إن الله سبحانه وتعالى_ وهو أحكم الحاكمين_ قد نص على أن هذه المظاهر للقوة المادية، من: عدد، وعدة، ومال إنما يعطيها للمعرضين عن هديه، المنحرفين عن سبيله: استدراجاً لهم، ومكراً بهم ليتمادوا في ضلالهم وغيهم: فتتم خسارتهم، ويتحقق هلاكهم، والجزاء من جنس العمل، وما ربك بظلام للعبيد.

فكانت حقيقة هذة القوة المادية، من عدد، وعدة، ومال حالَ الإعراض عن هدي الله، والانحراف عن سبيله: أنها عقوبة قدرية لا منحة ربانية .

* قال تعالى: { قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ **فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا** حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا } [مريم: ٧٥] .

---

(١) " تفسير السعدي/٢٣٢ " .

(٢) " تفسير السعدي/٥٤٥ " .

(٣) " تفسير ابن كثير٤/٤١٧ " .

فـــ(أخبر هنا أن من كان في الضلالة بأن رضيها لنفسه، وسعى فيها: فإن الله يمده منها، ويزيده فيها حباً: عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ }، { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } .

{ حَتَّى إِذَا رَأَوْا }_ أي: القائلون: { أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا }_: { مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ } بقتل أو غيره، { وَإِمَّا السَّاعَةَ } التي هي باب الجزاء على الأعمال: { فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْداً}، أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر، { وَأَضْعَفُ جُنْداً}، ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا فيعملون غير عملهم الأول)(١) .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، المدعين: أنهم على الحق، وأنكم على الباطل: { من كان في الضلالة }، أي: منا ومنكم، { فليمدد له الرحمن مداً }، أي: فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه، وينقضي أجله: إما العذاب يصيبه، وإما الساعة بغتة تأتيه، { فسيعلمون } حينئذ {من هو شر مكاناً وأضعف جنداً } في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام، وحسن الندي](٢).

* وقال تعالى: { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ** } [المؤمنون: ٥٣_ ٥٦] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [قوله: { فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً }، أي: الأمم الذين بعثت اليهم الأنبياء، { كل حزب بما لديهم فرحون }، أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال مهدداً لهم، ومتوعداً: { فذرهم في غمرتهم }، أي: في غيهم وضلالهم، { حتى حين }، أي إلى حين حينهم، وهلاكهم كما قال تعالى: { فمهل الكافرين أمهلهم رويداً }، وقال تعالى: { ذرهم يأكلوا ويتمعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون }، وقوله: { أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون }، يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا، ومعزتهم عندنا: كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: { نحن أكثر أموالاً، وأولاداً وما نحن بمعذبين }، لقد أخطأوا في ذلك، وخاب رجاؤهم بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً، وإنظاراً، وإملاءً، ولهذا قال: { بل لا يشعرون } كما قال تعالى: { فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا } الآية، وقال تعالى: { إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً }، وقال تعالى: { فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم } الآية، وقال: { ذرني ومن خلقت وحيداً_ إلى قوله_ عنيداً }، وقال تعالى: { وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً } الآية، والآيات في هذا كثيرة .

قال قتادة في قوله: { أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون }، قال: مُكِرَ_ والله_ بالقوم في أموالهم، وأولادهم، **يا ابن آدم: فلا تعتبر الناس بأموالهم، وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان، والعمل الصالح**](٣) .

---

(١) " تفسير السعدي/٣٥٣ " .

(٢) " تفسير ابن كثير٣/١٣٥ " .

(٣) " تفسير ابن كثير٣/٢٤٨ " .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ }، أي: أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال، والأولاد: دليل على أنهم من أهل الخير، والسعادة، وأن لهم خير الدنيا، والآخرة ؟!!!، وهذا مُقدّم لهم: ليس الأمر كذلك { بَل لَا يَشْعُرُونَ } أنما نملي لهم، ونمهلهم، ونمدهم بالنعم: ليزدادوا إثماً، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا { حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً}][(١)].

* وقال تعالى: { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**} [القلم: ٤٤_ ٤٥] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن عليّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم: { سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } فنمدهم بالأموال، والأولاد، ونمدهم في الأرزاق، والأعمال: ليغتروا، ويستمروا على ما يضرهم، وهذا من كيد الله لهم][(٢)].

ـــ وقد بين تعالى أن أهل الباطل وحزبه على اختلاف أعصارهم، وتنوع أمصارهم: كانوا يذمون أهل الحق، ويعترضون عليهم بقلة عَددهم، وضعف عُددهم: تنفيراً للناس عن دعوتهم، وتوصلاً بذلك لإبطال ما هم عليه من الحق علماً، وعملاً .

* قال تعالى: { فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ **إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُون } [الشعراء: ٥٤_ ٥٦] .

فلم يجد فرعون ما يصف به موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين ذماً لهم وتنقيصاً إلا أنهم: شرذمة، قليلون .

* وقال تعالى: { ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا **أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** } [المؤمنون: ٤٥_ ٤٧] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ فَقَالُوا } **كبراً وتيهاً، وتحذيراً لضعفاء العقول وتمويهاً:** { أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا } كما قاله مَن قبلهم سواء بسواء، وتشابهت قلوبهم في الكفر: فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منة الله عليهما بالرسالة، { وَقَوْمِهِمَا }، أي: بنو إسرائيل { لَنَا عَابِدُونَ }، أي: معبدون بالأعمال، والأشغال الشاقة كما قال تعالى: { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }، فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين ؟!!، وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا ؟!!.

ونظير قولهم: قولُ قوم نوح: { أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ }، { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ } .

ومن المعلوم أن هذا: لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب، ومعاندة][(٣)] .

---

(١) " تفسير السعدي/٣٩٦ " .

(٢) " تفسير السعدي/٦٤٦ " .

(٣) " تفسير السعدي/٣٩٥: ٣٩٦ " .

* وقال تعالى في حكاية قول قوم نوح عليه السلام له ولمن معه من المؤمنين: { قالوا أنؤمن لك واتبعك **الأرذلون** } [الشعراء: ١١١] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ }، أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس، وأراذلهم، وسقطهم: **بهذا يُعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق: لقالوا_ إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته_: بيّن لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك**، ولو تأملوا حق التأمل: لعلموا أن أتباعه: هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل: من سلب خاصية عقله: فاستحل عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها، ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمّل .

وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل: يُعرف فسادُ ما عنده بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: { أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ } فبنوا على هذا الأصل الذي كل أحد يعرف فساده: ردّ دعوته: عرفنا أنهم ضالون، مخطئون ولو لم نشاهد من آيات نوح، ودعوته العظيمة ما يفيد الجزم، واليقين بصدقه، وصحة ما جاء به][1] .

* وقال تعالى_ أيضاً_ حكاية عن كفرة قوم نوح عليه السلام في وصف المؤمنين به وبدعوته: { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ **أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ** } [هود: ٢٧] .

فلم يجدوا ما يردوا به حجج المؤمنين، وبراهين دعوتهم إلا أن يشغبوا عليهم، ويعترضوا بأنهم: { أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }، وكل عاقل يعلم أن هذا الجواب: حيدة، وهروب أساسه: الكبر، والعناد إذ الحجة: لا تواجه إلا بالحجة، وما ذكروه: خارج عن مضمون الحجج، وموضوعها.

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآية: [{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ }، أي: الأشراف والرؤساء رادين لدعوة نوح عليه السلام كما جرت العادة لأمثالهم أنهم أول من رد دعوة المرسلين: { مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا }، وهذا مانع_ بزعمهم_ عن اتباعه مع أنه_ في نفس الأمر_: هو الصواب الذي لا ينبغي غيره لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه، ويراجعوه في كل أمر بخلاف الملائكة .

{ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا }، أي: ما نرى اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة بزعمهم، وهم_ في الحقيقة_ الأشراف، وأهل العقول الذين انقادوا للحق، ولم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم الملأ الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر يتقربون إليها ويسجدون، فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس ؟! .

وقولهم: { بَادِيَ الرَّأْيِ }، أي: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية بل بمجرد ما دعوتهم: اتبعوك، يعنون بذلك: أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين: تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الألباب: يعرفونه ويتحققونه لا كالأمور الخفية التي تحتاج إلى تأمل، وفكر طويل .

---

(١) " تفسير السعدي/٤٢٨ " .

{ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ }، أي: لستم أفضل منا: فننقاد لكم، { بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }، وكذبوا في قولهم هذا: فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه][(١)] .

* وقد قال كفار قريش في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم: { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ **عَظِيمٍ** } [الزخرف: ٣١] .

فهم لا يَعرفون الحق إلا بالمنصب، والجاه، والسلطان، وغير ذلك من مظاهر القوة المادية، أما ما جاءهم به من البينات، والهدى، والنور، والحجج الظاهرة، القاهرة: فلا تساوي في ميزانهم المنكوس شيئاً .

وفي هذا إشارة ظاهرة إلى أن أرواح، وأنفس أهل الباطل: أرواح، وأنفس مادية، غلبتها ثقلة الطين: فارتبطت بالأرض وعالمها السفلي، وانقطعت صلتها بالسماء وعالمها العلوي: فصارت لا تعرف " حقاً " خارج المادة، ومظاهرها .

* وقال تعالى_ كذلك_ عن كفار قريش في حق أشرف الخلق، وسيدهم_ بأبي هو وأمي_ صلوات ربي وسلامه عليه: { وَإِذَا رَآَوكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ الله رَسُولًا } [الأنبياء: ٣٦] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يُعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله، وعند خلقه: لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم: هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزرهم علماً، وأجلهم رأياً، وعزماً، وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم، وأتقاهم، وهو: قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال ألا وهو: رجل العالم على الإطلاق][(٢)] .

ــ ولقد كان كفار قريش يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد الذين أسلموا معه من الضعفاء، من الفقراء، والعبيد، وهم قد كانوا مادة الإسلام ولبناته الأولى: فأنزل الله تعالى قوله:

{ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ الله عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا** أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } [الأنعام: ٥٢_٥٣] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }، أي: لا تطرد عنك، وعن مجالستك: أهلَ العبادة والإخلاص رغبة في مجالسة غيرهم من الملازمين لدعاء ربهم: دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل، فهؤلاء: ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم بل مستحقون لموالاتك إياهم، ومحبتهم، وإدنائهم، وتقريبهم **لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء، والأعزاء_ في الحقيقة_ وإن كانوا_ عند الناس_ أذلاء**، { مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ }، أي: كل له حسابه، وله عمله الحسن، وعمله القبيح، { فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ }،

---

(١) " تفسير السعدي/٢٦١ " .

(٢) " تفسير السعدي/٥٦٢ " .

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين: صبّر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسّن خلقه، وقربهم منه بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سبب نزول هذه الآيات: أن أناساً من قريش أو من أجلاف العرب قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك: فاطرد فلاناً وفلاناً_ أناساً من فقراء الصحابة_، فإنا نستحي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم، واتباعهم له: فحدثته نفسه بذلك: فعاتبه الله بهذه الآية ونحوها .

{ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ الله عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا }، أي: هذا من ابتلاء الله لعباده حيث جعل بعضهم غنياً، وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم وضيعاً، **فإذا مَنّ الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع: كان محل محنة للغني والشريف، فإن كان قصده الحق واتباعه: آمن وأسلم، ولم يمنعه من ذلك مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقا في طلب الحق: كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق .**

وقالوا_ محتقرين لمن يرونهم دونهم_: { أَهَؤُلَاءِ مَنَّ الله عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا }: فمنعهم هذا من اتباع الحق لعدم زكائهم، قال الله مجيباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هداية الله إياهم: { أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح: فيضع فضله، ومنته عليهم دون من ليس بشاكر، فإن الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له أهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف بخلاف من مَنَّ الله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم، فإنهم هم الشاكرون][(١)].

* وأنزل الله تعالى_ كذلك_ قوله: { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا } [الكهف: ٢٨_٢٩] .

فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يصبر نفسه مع هؤلاء النفر الضعاف لأنهم هم أهل الحق وإن كانوا فقراء، ضعفاء، مستضعفين كما نهى الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن طاعة أهل الباطل وعدم السماع لهم وإن كانوا هم أهل الجاه، والمال، والشرف، والمنصب .

وتأمّل قوله سبحانه وتعالى بعد هذا الأمر، والنهي: { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...}: تستيقن أن " الحق " لا يُعرف بأمر خارج عن ذاته، فلا يعرف بكثرة و قوة أو شرف و جاه أو غنىً ومال أو غير ذلك ممّا هو أجنبي عن ذات الحق وماهيته .

ـــــ وحقيقة الحال: أن الوقوف عند هذه الأعراض الخارجية من العَدد، والعُدد، والمال، والمنصب، والجاه، وغير ذلك من مظاهر القوة المادية، وجعلها حكماً بين ما هو حق، وما هو باطل: دليل ضعف العقل وتفاهته، وخواء النفس وفراغها من الحقائق، ومن ثم: تتعلق بهذه الامور لتداري بذلك نقصها، وتستر سوءاتها .

---

(١) " تفسير السعدي/١٦٣: ١٦٤ " .

ولو صدق أصحاب هذه الدعاوى مع أنفسهم: لاعترفوا أن هذه الدعاوى التي يهرفون بها في وجه الحق وأهله ما هي إلا نتاج الشهوات التي صرعتهم وأسَرَتْهم، وغطّت قلوبهم وعقولهم: فانطلقوا يَرُدّون الحق بمثل هذه الترّهات، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

هذا، مع كون هذه الدعاوى منهم: أكبر دليل على عدم زكاة نفوسهم، وعدم صلاحها لتكون محلاً للحق المقدس الذي أكسبه الله اسمه .

* قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في قوله تعالى: { وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا } [الكهف: ٣٤]، قال: [فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان الكلام بينهما في بعض المجريات المعتادة مفتخراً عليه: { أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً }، فخرَ بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد، وخدم، وأقارب، **وهذا: جهل منه وإلا فأي افتخار بأمر خارجي: ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية وإنما هو بمنزله فخر الصبي بالأماني التي لا حقائق تحتها** ثم لم يكفه هذا الإفتخار على صاحبه حتى يحكم بجهله، وظلمه، وظنه لمّا دخل جنته، فــ{ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ }، أي: تنقطع، وتضمحل { هَذِهِ أَبَدًا }: فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضى بها، وأنكر البعث، فقال: { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّي_ على ضرب المثل_ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَباً }، أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين .

وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالما بحقيقة الحال: فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره .

وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة: فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظاً من العقل، فأي تلازم بين عطاء الدنيا، وعطاء الآخرة حتى يظن بجهله أن من أعطى في الدنيا: أعطى في الآخرة بل الغالب أن الله تعالى يَزوي الدنيا عن أوليائه، وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيب](١) .

ــــ وفي مقابل ما سبق: بيّن تعالى أن القلة: عدداً، وعدة_ غالباً_: هم جند الحق، وحزبه، وأنصاره:

* قال تعالى: { فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا **قَلِيلًا** مِنْهُمْ وَالله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } .

* وقال تعالى: { فلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا **قَلِيلًا** مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو الله كَمْ مِنْ فِئَةٍ **قَلِيلَةٍ** غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ } .

* وقال تعالى: { وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا **قَلِيلٌ** مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خيراً لهم وأشد تثبيتاً } .

* وقال تعالى: { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا **قَلِيلٌ** } .

---

(١) " تفسير السعدي/٣٣٦ " .

* وقال تعالى: { **وَقَلِيلٌ** مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } .

* وقال تعالى: { وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **وَقَلِيلٌ** مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ } .

ــ وهذه الآيات ظاهرة في كون القلة: هم جند الحق، وحزبه، وأتباعه، وأنصاره، وأنهم_ على قلتهم: عدداً وعدة_: هم القائمون بدين الله، والحق الذي يحبه ويرضاه: علماً، وعملاً .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [وهذه سنة الله في الخلق: إن أهل الحق في جنب أهل الباطل: قليل لقوله تعالى: { وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين }، وقوله تعالى: { وقليل من عبادي الشكور }، ولينجز الله ما وعد به نبيه صلى الله عليه وسلم من عَود وصف الغربة إليه، فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم][1].

* وفي قوله تعالى: { فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا **قَلِيلًا** مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ } [هود: ١١٦] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_:

[يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير: ينهون عمّا كان يقع بينهم من الشرور، والمنكرات، والفساد في الأرض، وقوله: { إلا قليلاً }، أي: قد وجد منهم من هذا الضرب: قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيره، وفجأة نقمته][2] .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [لما ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال: ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير: يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى، فحصل من نفعهم، وأبقيت بهم الأديان، ولكنهم قليلون جداً، وغاية الأمر: أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة][3] .

ــــ وقد دلت السنة على ما دل عليه القرآن من كون الحق لا يعرف بكثرة أتباعه، ولا بقوتهم المادية من مال وعتاد، ومنصب وجاه، ونحوه:

* قال صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تعالى: يا آدم أخرج بعث النار؟ " .

قال: " **من كل ألف: تسعمائة وتسعة وتسعين،** فعنده: يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى

---

(١) " الاعتصام ١٨/١ " .

(٢) " تفسير ابن كثير ٤٦٥/٢ " .

(٣) " تفسير السعدي/٢٧٠ " .

الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد "[١] .

* وعن أنس بن مالك_ رضي الله عنه_، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبياً ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد "[٢] .

* وفي لفظ: " ما صُدق نبي من الأنبياء ما صُدقت، إن من الأنبياء من لم يُصدقه من أمته إلا **رجل واحد**"[٣].

* ومن حديث ابن عباس_ رضي الله عنهما_، قال صلى الله عليه وسلم: " عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي **ومعه الرجل والرجلان**، والنبي **ليس معه أحد** "[٤] .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم: " بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً: فطوبى للغرباء "[٥] .

* ومن حديث ابن عباس_ رضي الله عنهما_ في قصة سؤالات هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه:

" فقال هرقل: هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، قالوا: نعم، قال أبو سفيان: فدعيت في نفر من قريش: فدخلنا على هرقل: فأجلسنا بين يديه، فقال أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ .

فقال أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي ثم دعا بترجمانه: فقال له: قل لهم إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني: فكذبوه .

قال: فقال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب: لكذبت ثم قال لترجمانه سله، كيف هو فيكم؟.

قال: قلت: هو فينا ذو حسب، قال: فهل كان من آبائه ملك ؟، قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟، قلت: لا .

قال: ومن يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ .

قال: قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون ؟، قال: قلت: لا بل يزيدون. قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟، قال: قلت: لا .

قال: فهل قاتلتموه ؟، قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه ؟.

قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً: يصيب منا، ونصيب منه .

قال: فهل يغدر ؟، قلت: لا، ونحن منه في مدة: لا ندري ما هو صانع فيها، قال: فوالله ما أمكنني من كلمة

---

(١) " البخاري٣/١٢٢١، ٥/٢٣٩٢ "، " مسلم١/٢٠١ " .

(٢) " مسلم١/١٨٨ " .

(٣) " صحيح ابن حبان١٤/١٣٦ " .

(٤) " مسلم١/١٩٩ " .

(٥) " مسلم١/١٣٠ " .

أدخل فيها غير هذه .

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله ؟، قال: قلت: لا .

قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه: فزعمت أنه ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها .

وسألتك: هل كان في آبائه ملك: فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك: قلت رجل يطلب ملك آبائه .

وسألتك عن أتباعه: أضعفاؤهم أم أشرافهم: فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل .

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال: فزعمت أن لا: فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله .

وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له: فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب .

وسألتك هل يزيدون أو ينقصون: فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتك: هل قاتلتموه: فزعمت أنكم قد قاتلتموه: فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً: ينال منكم، وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة .

وسألتك: هل يغدر: فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله: فزعمت أن لا: فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله: قلت رجل إئتم بقول قيل قبله .

قال: ثم قال: بم يأمركم ؟، قلت: يأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصلة، والعفاف .

قال: إن يكن ما تقول فيه حقاً: فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه: لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي "(١) .

وهذا الحديث: حديث جليل القدر، عظيم النفع، كثير الفائدة، ولذا أحببت سوقه على هذا الوجه، وهو دال على ما نحن فيه من وجوه عدة تعلم بالتأمّل، والتدبّر، والله يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم .

ــــ والقول بأن الحق لا يعرف بكثرة أتباعه، ولا بقوتهم المادية من مال وعتاد، ومنصب وجاه، ونحوه: هو من المقطوع به عند سلفنا الصالح، وقد مرت معنا جملة من الآثار الدالة على ذلك، وقد تكرر معنا:

* قول عبد الله بن مسعود_رضي الله عنه_ لعمرو بن ميمون: " جمهور الجماعة هم الذين فارقوا الجماعة، والجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك "(٢) .

* وفي رواية حسنة: " ويحك إن جمهور الناس فارقوا الجماعة: إن الجماعة ما وافق طاعة الله عز

---

(١) " البخاري١/٧: ٨، ١٠٦١/٣ "، " مسلم١٣٩٤/٣: ١٣٩٥ "، واللفظ له .

(٢) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١٠٨/١، ١٦٩ " ، " تاريخ دمشق ابن عساكر٦٤٢/١٣: ٦٤٣ "، "تهذيب الكمال٢٦٤/٢٢ "، " إغاثة اللهفان " .

وجل"(١).

* وقال علي بن أبي طالب_ رضي الله عنه_ في وصيته للكميل بن زياد والتي غدت من عيون الحكم:

" لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله، وبيناته، أولئك: **الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً**، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم "(٢) .

قال ابن القيم_ رحمه الله_ تعليقاً على قول الإمام علي السابق: [يعني: هذا الصنف من الناس أقل الخلق عدداً، وهذا سبب غربتهم، فإنهم قليلون في الناس، والناس على خلاف طريقهم، فلهم نبأ، وللناس نبأ ...

وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون، فإنهم يقولون: لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عدداً، والناس على خلافهم، فاعلم: **أن هؤلاء هم الناس ومن خالفهم: فمشبهون بالناس وليسوا بناس، فما الناس إلا اهل الحق وإن كانوا أقلهم عدداً**](٣) .

* وسُئلَ عبدُ الله بن المبارك_ رحمه الله_: " مَن الجماعة ؟ .

فقال: أبو بكر، وعُمر .

قيل له: قد مات أبو بكر و عمر، قال : فلانٌ، وفلانٌ .

قيل له : قد مات فلانٌ و فلان .

فقال: عبد الله بن المبارك: أبو حمزة السكري(٤): جماعة "(٥) .

* وعن سفيان بن عيينة_ رحمه الله_، قال: " كان يقال: اسلكوا سبل الحق، ولا تستوحشوا من قلة أهلها"(٦).

* وكان إبراهيم بن أدهم_ رحمه الله_ يقول: " لا يَقِلُّ مع الحق: فريد، ولا يَقوى مع الباطل: عديد "(٧) .

* وعن الفضيل بن عياض_ رحمه الله_، قال: " لا تستوحش طريق الهدى لقلة أهله، ولا تغتر بكثرة الناس"(٨) .

* وفي لفظ عنه: " اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة

---

(١) " تاريخ دمشق٦٤٣/١٣ "، " تهذيب الكمال٢٦٥/٢٢ " .

(٢) " تاريخ بغداد "، " الحلية٨٠/١ "، " تذكرة الحفاظ١٢/١ "، " تهذيب الكمال٢٢١/٢٤ "، " صفوة الصفوة٣٢٩/١ " .

(٣) " مفتاح دار السعادة١٤٧/١ " .

(٤) أبو حمزة السكري، هو: محمد بن ميمون المروزي، الإمام، الحافظ، الحجة، توفي سنة ١٦٧ هـ، وانظر: " تذكرة الحفاظ٢٣٠/١ " .

(٥) " سنن الترمذي٤٦٦/٤ "، " تاريخ بغداد٣/ ٢٦٩ "، وهو: صحيح .

(٦) " الحلية٣٠٦/٧ "، " صفوة الصفوة٢٣٥/٢ " .

(٧) " حلية الأولياء١٦/٨ " .

(٨) " الزهد للبيهقي/١٣١ " .

الهالكين"[1] .

ــ وقد سبق معنا: قول ابن القيم_ رحمه الله_: [اعلم أن الإجماع، والحجة، والسواد الأعظم: هو العالم صاحب الحق **وإن كان وحده**، وإن خالفه أهل الأرض][2] .

وقال_ رحمه الله_ كذلك_: [لا يوحشنك من قد أقر على نفسه هو وجميع أهل العلم أنه ليس من أولي العلم، فإذا ظفرت برجل واحد من أولي العلم، طالبٍ للدليل، محكم له، متبع للحق حيث كان، وأين كان، ومع من كان: زالت الوحشة، وحصلت الألفة، ولو خالفك: فإنه يخالفك ويعذرك، والجاهل الظالم: يخالفك بلا حجة ويكفرك أو يبدعك بلا حجة، وذنبك: رغبتك عن طريقته الوخيمة، وسيرته الذميمة، **فلا تغتر بكثرة هذا الضرب فإن الآلاف المؤلفة منهم لا يعدلون بشخص واحد من أهل العلم، والواحد من أهل العلم يعدل بملء الأرض منهم**][3] .

ولابن قدامة المقدسي كلام جامع هنا، قال_ رحمه الله_:

[ومن العجب أن أهل البدع يستدلون على كونهم أهل الحق: بكثرتهم، وكثرة أموالهم، وجاههم، وظهورهم، ويستدلون على بطلان السنة: بقلة أهلها، وغربتهم، وضعفهم .

فيجعلون ما جعله النبي صلى الله عليه وسلم: دليل الحق، وعلامة السنة: دليل الباطل، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا: بقلة أهل الحق في آخر الزمان، وغربتهم، وظهور أهل البدع، وكثرتهم .

ولكنهم سلكوا سبيل الأمم في استدلالهم على أنبيائهم، وأصحاب أنبيائهم: بكثرة أموالهم، وأولادهم، وضعف أهل الحق :

فقال قوم نوح له: { ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين }، وقال قوم صالح فيما أخبر الله عنهم بقوله: { قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما ارسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون }، وقال قوم نبينا صلى الله عليه وسلم: { وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين }، وقال الله عز وجل: { وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا }، {وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه } .

ونسوا قول الله تعالى: { وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع }، وقوله سبحانه: {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا }، وقوله سبحانه: { واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ... } الآيات كلها، وقوله: { لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم }، وقال تعالى: { ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة_ إلى قوله_:

---

(١) " الاعتصام١/٦٢ " .

(٢) " إعلام الموقعين٣/٣٩٧ " .

(٣) " إعلام الموقعين٣/٣٩٦ " .

وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين } .

وقد كان قيصر ملك الروم_ وهو كافر_ أهدى منهم؛ فإنه حين بلغه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم: سأل عنه أبا سفيان؛ فقال: يتبعه ضعفاء الناس أو أقوياؤهم ؟، فقال: بل ضعفاؤهم .

فكان هذا ممّا استدل به على أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال: إنهم أتباع الرسل في كل عصر، وزمان .

وفي الآثار: أن موسى عليه السلام لمّا كلمه ربه تعالى: قال له: يا موسى لا يغرنكما زينة فرعون، ولا ما متع به: فإنني لو شئت أن أزينكما بزينة يعلم فرعون أن مقدرته تعجز عن أقل ما أوتيتما: لفعلت، ولكنني أضن بكما عن ذلك، وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، وقديماً ما خرت لهم: إني لأذودهم عن الدنيا كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وإني لأجنبهم سلوتها، ونعيمها كما يجنب الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة، وما ذلك لهوانهم علي ولكن ليستكملوا نصيبهم من الآخرة: سالماً، موفراً، لم تكلمه الدنيا، ولم يطغه الهوى](١) .

ومن أبيات ابن القيم اللطيفة في نونيته، قوله_ رحمه الله_:

والحق منصور وممتــحن فلا	تعجب فهذي سنة الرحمن
وبذاك يظـــهر حزبه من حزبه	ولا جل ذاك الناس طائفتان
ولأجل ذاك الحرب بين الرسل	والكفار مذ قام الورى سجلان
لكنما العقبى لأهل الحـــق إن	فاتت هنا كانت لدى الديـــان(٢)

ــ ولنختم الكلام هنا بقوله تعالى: { قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ **وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [المائدة: ١٠٠] .

---

(١) " المناظرة في القرآن/٥٧: ٥٩ " .

(٢) " شرح النونية١/١٢٤: ١٢٥ " .

الفصل الخامس

المَعْلَمُ الخامس

الحق يقبل من كل من جاء به كائناً من كان

فالحق عند أهل الطائفة المنصورة: مطلوب لذاته، ومن ثم: لا فرق عندهم أن يأتي الحق من: قريب أو بعيد، من حبيب أو بغيض، من موافق أو مخالف، من صديق أو عدو .

إذ ولاء أهل الطائفة المنصورة إنما هو للحق وحده دائماً وأبداً، ولذا كان هتافهم عند عرض الحق عليهم أيّاً كان مَنْ جاء به: بضاعتنا ردّت إلينا، ومن ثم: يسابقون غيرهم في اتباع الحق، والعمل به بل يرون أنفسهم أولى باتباع الحق، والعمل به من غيرهم .

ــ وقد أمر الله تعالى باتباع ما أنزله إلينا في جملة وفيرة من الآيات، وهو أمر مطلق غير مقيد: فدل على وجوب اتباع الحق أياً كان قائله والداعي إليه، والآيات الآمرة باتباع ما أنزل إلينا_ وهو الحق_: كثيرة جداً؛ ومنها:

* قال تعالى: { اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ } [الأعراف: ٣] .

فأمر تعالى أمراً مطلقاً باتباع ما أنزل إلينا من عنده سبحانه_ وهو الحق_، ونهى عن اتباع ما دون ذلك من الأولياء .

* وقال تعالى: { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا **اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ** كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } [محمد: ١_ ٣] .

فوصف تعالى الذين آمنوا بأنهم قد اتبعوا الحق من ربهم، وفي هذا إشارة إلى أنهم يتبعون الحق لذاته، ومن ثم: يقبلون الحق من كل من جاء به .

* وقال تعالى: { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } [الزمر: ٥٥] .

فمن جاء بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا: وجب اتباعه كائناً من كان، ولا يُردّ ما جاء به من الحق لأمر خارج عن الحق ذاته ككون القائل به: بعيداً أو مخالفاً أو بغيضاً .

* وقال تعالى: { الَّذِينَ **يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ** الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ **وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ** أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

[الأعراف: ١٥٧] .

فالاتباع_ أساساً_: إنما هو للحق الموافق لما جاء به صلوات ربي وسلامه عليه لا لشخص قائله والداعي إليه.

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ }، أي: عظموه، وبجلوه، { وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ }، وهو: القرآن الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات .

{ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الظافرون بخير الدنيا والآخرة، والناجون من شرهما لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح .

وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعزره، وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه: فأولئك هم الخاسرون][(١)] .

ــــ وقد بين الله سبحانه وتعالى أن من أسباب ضلال المشركين، وأهل الكتاب وبعدهم عن الحق: كونهم حصروا مصدر تلقي الحق ومعرفته في من يهوون:

* قال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } [البقرة: ١٧٠] .

* وقال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ

---

(١) " تفسير السعدي/٢٠٣ " .

يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السَّعِيرِ } [لقمان: ٢١] .

فرفضوا الحق وأعرضوا عنه مع وضوح دلائله، وظهور بيناته بل ومع إقرارهم في دواخلهم بأنه الحق لكونه لم يأتهم من طريق خاصتهم من الآباء ونحوهم .

وقد سبقت معنا هذه الآيات ونحوها عند حديثنا عن كون الحق لا يعرف بالرجال، ومن المعلوم أن من أسباب فساد التقليد: كونه يحصر الحق ويختزله في معينين من أشخاص أو طوائف، وهذا من أعظم الظلم للحق ذاته.

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [وهذه شبهة لرد الحق: واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسن قصدهم: لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره: تبين له الحق قطعاً واتبعه إن كان منصفاً][(١)] .

* وقال تعالى عن أهل الكتاب: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ الله قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ الله مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [البقرة: ٩١] .

فجعلوا سبب إعراضهم عن الحق ورده: أنه لم يأتهم من طريقهم هم .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله، وهو القرآن: استكبروا وعتوا، و{ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ }، أي: بما سواه من الكتب مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله مطلقاً: سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع: الإيمان بما أنزل الله على جميع رسله، وأما التفريق بين الرسل والكتب، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان بل هو الكفر بعينه، ولهذا قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالله وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا } .

ولهذا ردّ عليهم تبارك وتعالى هنا: رداً شافياً، وألزمهم إلزاماً لا محيد لهم عنه، فردّ عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال: { وَهُوَ الْحَقُّ }، فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات، والأوامر، والنواهي، وهو من عند ربهم فالكفر به_بعد ذلك_: كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله .

ثم قال: { مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ }، أي: موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق، ومهيمناً عليه، فلِمَ تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره ؟، هل هذا إلا تعصب، واتباع للهوى لا للهدى ؟!][(٢)] .

* وقال تعالى_ أيضاً_ عن أهل الكتاب: { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الْكَافِرِينَ } [البقرة: ٨٩] .

عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ قوله: { وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا }، يقول:

" يستنصرون بخروج محمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب، يعني بذلك: أهل الكتاب، فلما بعث الله

---

(١) " تفسير السعدي/٣٨ " .

(٢) " تفسير السعدي/٢٠ " .

محمداً صلى الله عليه وسلم، **ورأوه من غيرهم: كفروا به وحسدوه** " .

وعن قتادة_ رحمه الله_ قوله: { وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا }: " كانت اليهود تستفتح بمحمد صلى الله عليه وسلم على كفار العرب من قبل، وقالوا: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده في التوراة: يعذبهم ويقتلهم: فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم: **فرأوا أنه بُعث من غيرهم: كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** " .

ونفس المعني مروي عن أبي العالية، والسدي، وابن جريج، ومجاهد، وغيرهم(١) .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: ولما جاءهم من عند الله على يد أفضل الخلق، وخاتم الأنبياء: الكتابُ المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به، وتيقنوه على أنهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب: استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا: كفروا به بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده: فلعنهم الله، وغضب عليهم غضباً بعد غضب لكثرة كفرهم، وتوالى شكهم وشركهم](٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ في الآية السابقة: [فوصف اليهود بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، فلما جاءهم من غير طائفة يهوونها: لم ينقادوا له .

وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة في العلم أو الدين أو إلى رئيس معظم عندهم، فإنهم لا يقبلون من الدين: لا فقهاً، ولا رواية إلا ما جاءت به طائفتهم](٣) .

ـــــ وقبول الحق من كل مَنْ جاء به أياً كان: هو من مقتضى القسط الذي أُمرنا به أمراً مطلقاً ولو مع أبغض الناس إلينا:

* قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة: ٨] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } بما أُمِرُوا بالإيمان به: قوموا بلازم إيمانكم بأن تكونوا { قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ }: بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة، وأن يكون ذلك القيام لله وحده لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل: لا الإفراط، ولا التفريط في أقوالكم، ولا في أفعالكم، وقوموا بذلك: على القريب والبعيد، والصديق والعدو، { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ}، أي: لا يحملنكم { شَنَآنُ قَوْمٍ }، أي: بُغْضهم { عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا } كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط بل كما تشهدون لوليكم: فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم: فاشهدوا له، فلو كان كافراً أو مبتدعاً: فإنه يجب العدل فيه، **وقبول ما يأتي به من الحق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله: فإن هذا**

---

(١) انظر آثارهم: " تفسير الطبري١/٤١١: ٤١٢ " .

(٢) " تفسير السعدي/٢٠ " .

(٣) " اقتضاء الصراط المستقيم/٨ " .

ظلم للحق .

{ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }، أي: كلما حرصتم على العدل، واجتهدتم في العمل به: كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل: كملت التقوى، { إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } فمجازيكم بأعمالكم: خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها جزاءً عاجلاً وآجلاً][1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [والله قد أمرنا ألا نقول إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط: فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني_ فضلاً عن الرافضي_ قولاً فيه حق: أن نتركه أو نرده كله بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق][2] .

ـــــ كما أن قبول الحق_ كذلك_ من كل من جاء به أياً كان: هو مقتضى، ولازم ما أمرنا به من إخلاص الدين لله وحده لا شريك له، فمن أخلص دينه لله حقاً: كان الحق مطلبه، ومقصده دائماً وأبداً على يد من جاءه ولو كان أبغض بغيض لنفسه .

أما من كان لا يقبل الحق إلا من خاصته أو مَنْ يهوى مِن فرد أو طائفة؛ فإخلاصه: مدخول بل إخلاصه ليس للحق ذاته بقدر ما هو لمن حصر تلقي الحق فيه من فرد أو طائفة .

* قال تعالى: { وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين } [البينة: ٥] .

* وقال تعالى: { قل إني أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين } [الزمر: ١١]

قال إبراهيم بن أدهم_ رحمه الله_: " الإخلاص: صدق النية مع الله تعالى " .

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس ؟، فقال: " الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب " .

وقيل: " الإخلاص: دوام المراقبة، ونسيان الحظوظ كلها " .

قال الغزالي_ رحمه الله_: [وهذا هو البيان الكامل][3] .

* وقد مر معنا قول الإمام الشافعي_ رحمه الله_: " ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحداً إلا ولم أبال بَيّن الله الحق على لساني أو لسانه "[4] .

ـــ وقد دلت السنة_ كذلك_ على أن من جاء بالحق_ وهو الموافق للكتاب والسنة_: قُبِلَ منه أياً كان:

* فعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " **أصدق كلمة قالها الشاعر**: كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم "[5] .

---

(١) " تفسير السعدي/١٣٧: ١٣٨ " .

(٢) " منهاج السنة٢/٣٤٢ " .

(٣) " إحياء علوم الدين٤/ ٤٠٢ : ٤٠٣ " .

(٤) " الحلية٩/١١٨ "، " صفوة الصفوة٢/٢٥١ " .

(٥) " البخاري٣/١٣٩٥ "، " مسلم٤/١٧٦٨ " .

* ومن حديث عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_، قال:

" جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، إنّا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع: فيقول: أنا الملك .

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه: تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ { وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة } "(١) .

* ومن حديث قتيلة بنت صيفي_ رضي الله عنها_، قالت: " أتى حبر من الأحبار رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون .

قال: سبحان الله !، وما ذاك ؟ .

قال: تقولون إذا حلفتم: والكعبة .

قالت: فأمهل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ثم قال: إنه قد قال، فمن حلف، فليحلف برب الكعبة .

قال: يا محمد، نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله نداً .

قال: سبحان الله !، وما ذاك ؟ .

قال: تقولون: ما شاء الله وشئت .

قالت: فأمهل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ثم قال: إنه قد قال، فمن قال ما شاء الله، فليفصل بينهما: ثم شئت "(٢) .

ففي هذين الحديثين الأخيرين: قبول الحق من كل من جاء به أياً كان: فقد قَبِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهوديين: الحقَ الذي جاء به كل منهما، ولم يمنعه صلى الله عليه وسلم كونهما يهوداً من قبول ما جاءا به من الحق الموافق للكتاب والسنة .

* وأبلغ من ذلك، وأظهر في أن الحق يقبل من كل من جاء به أياً كان: ما جاء من حديث أبي هريرة_رضي الله عنه_ في قصته الشهيرة مع الشيطان عندما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ الزكاة، وفي آخره، فقال له: " إذا أويت إلى فراشك: فاقرأ آية الكرسي فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح " .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب يا أبا هريرة منذ

---

(١) " البخاري٤/١٨١٢ "، " مسلم٤/٢١٤٧، ٢١٤٨ " .

(٢) " أحمد٦/٣٧١ "، " المستدرك٤/٣٣١ "، " النسائي الكبرى٣/١٢٤، ٦/٢٤٥ "، " البيهقي الكبرى٣/٢١٦"، " المعجم الكبير٢٥/١٣، ١٤"، والحديث: صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ ابن حجر في " الإصابة٨/٧٩ " في ترجمة قتيلة_ رضي الله عنها_، والحديث مروي عن ابن مسعود_ رضي الله عنه_، انظر: " المجمع٤/١٧٧ " .

ثلاث " .

فقال: لا، قال صلى الله عليه وسلم: " ذلك شيطان "(١) .

فكونه شيطاناً لم يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبول ما جاء به من الحق هنا، هذا مع قوله صلى الله عليه وسلم في نفس المقام: " وهو كذوب ": ممّا هو صريح في أن الحق مطلوب لذاته بغض النظر عن قائله .

* وقد رُوي عنه صلى الله عليه وسلم: " الحكمة: ضالة المؤمن، حيثما وجد المؤمن ضالته: فليجمعها إليه"(٢).

ـــــ وهناك من الآثار عن السلف: ما هو دال على ذلك، منها:

* عن علي بن أبي طالب_ رضي الله عنه_: " العلمُ: ضالّةُ المؤمن؛ فخذوه ولو من أيدي المشركين، ولا يأنفُ أحدكم أن يأخذ الحكمة ممَّن سمعها منه "(٣) .

* وعنه_ رضي الله عنه_، قال: " الحكمة: ضالة المؤمن، فحيث وجدها: فهو أحق بها "(٤) .

* وعنه_ رضي الله عنه_ أيضاً_: " لا تَنظُر إلى مَن قالَ، وَانظُر إلى ما قالَ "(٥) .

* وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، قال: أتاه رجل، فقال: يا أبا عبد الرحمن، علمني كلمات جوامع نوافع .

فقال عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_ " أعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وزل مع القرآن حيث زال، **ومن جاءك بالحق: فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل: فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً** "(٦) .

* وروي عن أبي بن كعب_ رضي الله عنه_، قال: " اقبل الحق ممن جاءك به وإن كان بعيداً بغيضاً، واردد الباطل على من جاءك به وإن كان حبيباً قريباً "(٧) .

* وقال_ معاذ بن جبل_ رضي الله عنه_: " وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، **وقد يقول المنافق: كلمة الحق** " .

---

(١) " البخاري٢/٨١٢، ٣/١١٩٤ " .

(٢) " مسند الشهاب١/١١٨ " مرسل من حديث زيد بن أسلم، ورواه الترمذي " ٥/٥١ "، وابن ماجه "٢/١٣٩٥ " بلفظ قريب عن أبي هريرة بسند ضعيف، ويروى نحوه عن أنس، وابن عمر، وانظر: " كشف الخفاء١/٤٣٥: ٤٣٦ " .

(٣) " جامع بيان العلم " .

(٤) " التدوين في أخبار قزوين٤/٩٥ "، " تاريخ بغداد٨/٢٥١ "، " لسان الميزان٤/١٣٥ " .

(٥) " كنز العمال "، وانظر: " المصنوع للقاري/٢٠٦ " .

(٦) " حلية الأولياء١/١٣٤ " .

(٧) " الحلية٩/١٢١ " .

قال الراوي: قلت لمعاذ: ما يدريني_ رحمك الله_ أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ .

قال_ رضي الله عنه_: " بلى ، اجتنب من كلام الحكيم المشبهات التي يقال لها: ما هذه ؟!، ولا يثنينك ذلك عنه فإنه لعله أن يراجع، **وتلقّ الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً** "(١).

* وفي لفظ عنه_ رضي الله عنه_، قال: " اقبلوا الحق من كل من جاء به، وإن كان كافرًا_ أو قال: فاجراً_، واحذروا زيغة الحكيم " .

قالوا: كيف نعلم أن الكافر يقول الحق ؟.

قال معاذ_ رضي الله عنه_: " على الحق نور "(٢) .

* وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_، قال: " خذ الحكمة ممن سمعت، فإن الرجل يتكلم بالحكمة وليس بحكيم: فتكون كالرمية خرجت من غير رام "(٣) .

* وعن سعيد بن أبي بردة_ رحمه الله_، قال: " كان يقال: الحكمة: ضالة المؤمن: يأخذها إذا وجدها "(٤) .

* وعن عبد الله بن عبيد بن عمير_ رحمه الله_، قال: " كان يقال: العلم: ضالة المؤمن، يغدو في طلبه، فإذا أصاب منه شيئاً: حواه "(٥) .

ــ فسبيل أهل الطائفة المنصورة: اتباع الحق_ علماً وعملاً_ مطلقاً: أياً كان قائله والداعي إليه، فولاؤهم للحق وحده دون غيره، وإخلاصهم في ذلك: صادق غير مدخول، وهم في ذلك:

يقبلون الحق من كل مَنْ جاء به أياً كان وإن كان أبعد بعيد عنهم، وأبغض بغيض إلى نفوسهم .

ويردون الباطل على كل مَنْ جاء به أياً كان وإن كان أقرب قريب منهم، وأحب حبيب إلى نفوسهم .

وقد طبّق شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ هذا المنهج القسط في التعامل مع الغير عموماً، وهو يتحدث عن مرويات المخالفين وآثارهم ممثلاً لها بما جمعه أبو عبد الرحمن السلمي ونحوه في تاريخ أهل الصُّفَّة، وأخبار زهّاد السلف، وطبقات الصوفية، فقال_ رحمه الله_:

[يُستفاد منه فوائد جليلة، ويتجنب منه ما فيه من الروايات الباطلة، ويتوقف فيما فيه من الروايات الضعيفة .

وهكذا كثير من أهل الروايات، ومن أهل الآراء، والأذواق: من الفقهاء، والزهاد، والمتكلمين، وغيرهم: يوجد فيما يأثرونه عمن قبلهم، وفيما يذكرونه معتقدين له: شيء كثير، وأمر عظيم من الهدى، ودين الحق الذي

---

(١) " أبو داود٤/٢٠٢ " .

(٢) " الفتاوى لابن تيمية٥/١٠٢ " .

(٣) " المدخل للبيهقي/٤٤٧ " .

(٤) " مصنف ابن أبي شيبة٧/٢٤٠ "، " المدخل للبيهقي/٤٤٧ " .

(٥) " مصنف ابن أبي شيبة٧/٢٤٤ "، " الحلية٣/٣٥٤ "، " المدخل للبيهقي/٢٨٣ " .

بَعث الله به رسوله، ويوجد أحيانًا عندهم من جنس الروايات الباطلة أو الضعيفة، ومن جنس الآراء، والأذواق الفاسدة أو المحتملة: شيء كثير](١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ أيضاً_: [تجد كثيراً من المتفقهة إذا رأى المتصوفة أو المتعبدة: لا يراهم شيئاً، ولا يعدهم إلا جهالاً، وضلالاً، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدى شيئاً، وترى كثيراً من المتصوفة، والمتفقرة: لا يرى الشريعة، ولا العلم شيئاً بل يرى أن المتمسك بها: منقطع عن الله، وأنه ليس عند أهلها ممّا ينفع عند الله شيئاً .

والصواب: أن ما جاء به الكتاب والسنة من هذا وهذا: حق، وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا: باطل](٢) .

فأهل العدل والإنصاف: هم (الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح بل قبلوا ما يُقبل، وردوا ما يُردّ)(٣) .

ــ وإذا كان هذا هو الواجب في تعامل أهل السنة مع غيرهم من المخالفين عموماً: فلا شك أنه أوجب في تعامل أهل السنة مع بعضهم البعض .

ــ وقد نص ابن القيم_ رحمه الله_ على أن كراهية القائل بالحق وبغضه من الأسباب المانعة من قبول الحق، فقال: [والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جداً، فمنها: الجهل به، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس، فإن من جهل شيئاً: عاداه، وعادى أهله، فإن انضاف إلى هذا السبب: **بغض من أمره بالحق ومعاداته له وحسده: كان المانع من القبول أقوى**](٤) .

وبالإضافة إلى أن رد الحق، وعدم قبوله بغضاً لقائله، وعدواةً له من مظاهر الجهل، وعلاماته، فهو_أيضاً_: حالة مرضية، ومنهج جاهلي في التربية، وكلاهما: ممّا تبرىء منه الطائفة المنصورة .

ومن لطيف كلام ابن القيم_ رحمه الله_: قوله في آخر كتابه مدارج السالكين:

[فيا أيها القارئ له: لك غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، لك ثمرته، وعليه تبعته؛ فما وجدت فيه من صواب وحق: فاقبله ولا تلتفت إلى قائلة بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال .

وقد ذمّ الله تعالى من يرد الحق إذا جاء به من يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه: فهذا خلق الأمة الغضبية، قال بعض الصحابة: " أقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورد الباطل على من قاله وإن كان حبيباً "](٥) .

---

(١) " الفتاوى١١/٤٣ " .

(2) " اقتضاء الصراط المستقيم/١٠ " .

(٣) " مدارج السالكين لابن القيم٢/٤٠ " .

(٤) " هداية الحيارى/١٦ " .

(٥) " مدارج السالكين٣/٥٢٢ " .

وقد سبق معنا قوله_ رحمه الله_ : [عادتنا في مسائل الدين كلها_ دقها، وجلها_ أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نتعصب لطائفة على طائفة بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق، لا نستثني من ذلك طائفة، ولا مقالة](1) .

وقوله_ أيضا_: [فإن كل طائفة معها حقٌ وباطل وتتفاوت في ذلك، فالواجب: موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذا الطريق: فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسّر عليه فهم الأسباب](2) .

ـــــ لطيفة:

* قال تعالى في قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ: { قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } [النمل: ٣٤] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [{ وكذلك يفعلون }: قيل: هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادته .

وقال ابن عباس: **هو من قول الله عز وجل مُعرفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم، وأمته بذلك، ومخبراً به،** وقال وهب: لما قرأت عليهم الكتاب ...

فعندما قالت: أفتوني في أمري: فقالوا { نحن أولو قوة }: في القتال، { وأولو بأس شديد }: قوة في الحرب واللقاء، { والأمر إليك }: ردوا أمرهم إليها لما جربوا على رأيها من البركة: فانظري ماذا تأمرين: فــ{قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة }: أهانوا شرفاءهم لتستقيم لهم الأمور: **فصدق الله قولها: { وكذلك يفعلون }** .

قال ابن الدفع: { وجعلوا أعزة أهلها أذلة }: هذا وقف تام: فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها: { وكذلك

---

(١) " طريق الهجرتين/٥٨٢ " .

(٢) " طريق الهجرتين/٥٧٠ " .

يفعلون } ...][١] .

وعلى القول الثاني، أي: أن { وكذلك يفعلون }: من قول الله تعالى تحقيقاً لقول بلقيس: { إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة }: فمناسبة الآية لما نحن فيه ظاهرة لا تخفى، والله أعلى وأعلم .

وهذا القول الثاني: هو اختيار ابن جرير_ رحمه الله_ حتى أنه لم يذكر غيره:

قال_ رحمه الله_: [القول في تأويل قوله تعالى: { قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون }: يقول تعالى ذكره: قالت صاحبة سبأ للملأ من قومها إذا عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان إن أمرتهم بذلك: إن الملوك إذا دخلوا قرية عنوة، وغلبة: { أفسدوها }، يقول: خربوها، {وجعلوا أعزة أهلها أذلة }: وذلك باستعبادهم الأحرار، واسترقاقهم إياهم .

وتناهى الخبر منها عن الملوك في هذا الموضع: فقال الله: { وكذلك يفعلون }، يقول تعالى ذكره: وكما قالت صاحبة سبأ: تفعل الملوك إذا دخلوا قرية عنوة][٢] .

وبنحو ما فعل ابن جرير: فعل ابن كثير_ رحمه الله_، فذكر هذا القول ولم يذكر غيره[٣] .

الفصل السادس

المَعْلَمُ السادس

الحـــق قـــديـــم

والمراد: أن الحق عند الطائفة المنصورة: هو الأصل المحفوظ، الذي لا يبطله علو الباطل، وانتفاشه من زبالات آراء البشر، ونحاتة أفكارهم وأوهامهم، فالخطأ: لا يُبطل الصواب ويرفعه، والبدعة: لا تبطل السنة وترفعها كما أن الكفر لا يبطل الإيمان ويرفعه، وهيهات .

فمهما عظم الباطل، واشتدت وطأته على الحق وأهله: لا يتحول الخطأ: إلى صواب، ولا تتحول البدعة: إلى سنة كما لا يتحول الكفر إلى إيمان، فيظل الخطأ: خطأ، وتظل البدعة: بدعة كما يظل الكفر: كفراً .

وبالمقابل: يظل الصواب، والسنة_ فضلاً عن الإيمان_: أصولاً محفوظة، راسخة كالشم الراسيات: مكانها؛ من ابتغاها: وجدها رغم أنف الباطل وأهله .

---

(١) " تفسير القرطبي١٣/١٩٥ " .

(٢) " تفسير الطبري١٩/١٥٤ " .

(٣) انظر: " تفسير ابن كثير٣/٣٦٣ " .

فيبقى الباطل: باطلاً، ويبقى الحق: حقاً .

* وممّا قيل للإمام أحمد أيام المحنة: " يا أبا عبد الله، أوَ لا ترى الحقَ كيف ظهر عليه الباطلُ ؟! .

فقال الإمام الرباني: كلا، إن ظهور الباطل على الحق: أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، **وقلوبنا بعد: لازمة للحق** "(١) .

كذلك، فالباطل مهما علا وارتفع، وكان له صولة وجولة في دنيا الناس إلا أن هذا كله: أمرٌ مؤقت_ طال أمده أم قصر_: فما يلبث الباطل: أن يندثر ويفنى إذ الباطل لا جذور له، وما يلبث الحق: أن يعلو ويظهر إذ هو الأصل المحفوظ الضارب بجذوره في أعماق الأعماق .

فالباطل: نبتة شيطانية، غريبة عن الوجود، دخيلة عليه، أمّا الحق: فهو حقيقة الوجود، وأساسه، ومصدره، ولذا كان (الحق: هو قوام هذا الوجود، فإذا حاد عنه: فسد وهلك: { ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن }، ومن ثم: فلا بد للحق أن يظهر، ولا بد للباطل أن يزهق، ومهما تكن الظواهر غير هذا: فإن مصيرها إلى تكشف صريح: { بل نقذف بالحق على الباطل فإذا هو زاهق })(٢) .

وأنّى للحق أن يحول أو أن يزول: وهو مستمد من " الحق " سبحانه وتعالى، فـ(لن تخلد الكلمة على الأجيال إلا إن اتصلت بالحق والخير، وكان لها من قوانين الله في خلقه: سند، ومن إلهامه لعباده: مدد .

ورب بارقة يرمي بها سلطان مسلط أو صنم مشهور: فتدوي حيناً، وتأتلق زمناً ثم تصمت وتنطفئ، وتكون كالشهاب يحور رماداً بعد التهاب بما كان دويها من صوت الباطل لا الحق، وائتلاف من زخرف الكذب لا الصدق)(٣) .

وهذا مكتسب من اسم الحق ولفظه فضلاً عن كونه مكتسباً من حقيقته ومعناه_ وقبل ذلك كله: فهو مكتسب من مصدره وأساسه_، فالحق: هو الثابت، المستقر، والباطل: هو الزائل، المضمحل .

ـــــ وكون الحق: هو القديم: حقيقة قرآنية: سجلها الله في كتابه على مر الدهور، وكر العصور: يقيناً راسخاً لأهل الطائفة المنصورة لا يختلجه ريب، ولا يدفعه واقع مهما ثقلت وطأته .

* قال تعالى: { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ومِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ } [الرعد: ١٧] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [شبّه تعالى الهدى الذي أنزل على رسوله لحياة القلوب والأرواح: بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبّه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد: بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها: بالأودية التي تسيل فيها السيول: فوادٍ كبير يسع

---

(١) " سير أعلام النبلاء١١/٢٣٨ " .

(٢) " مقدمة الظلال/ ١٤ " .

(١) " الشوارد لعزام / ٣٤٠ " .

ماءً كثيراً: كقلب كبير يسع علماً كثيراً، ووادٍ صغير يأخذ ماءً قليلاً: كقلب صغير يسع علماً قليلاً، وهكذا .

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات، والشبهات عند وصول الحق إليها: بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يُراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي، والحلية الخالصة .

كذلك الشبهات والشهوات: لا يزال القلب يكرهها، ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة حتى تذهب وتضمحل، ويبقى القلب: خالصاً، صافياً ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق، وإيثاره، والرغبة فيه .

فالباطل يذهب، ويمحقه الحق { إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا }، وقال هنا: { كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ } ليتضح الحق من الباطل، والهدى والضلال](١) .

ــ وفي قوله تعالى: { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ }: دليل لما ذكرناه من قبل من أن الباطل مهما انتفخ وانتفش: ما هو إلا قشرة رقيقة جداً على سطح الوجود ليس لها امتداد، ولا جذور، وهو مع ذلك: لا حقيقة له كالزبد: ظاهر بلا مضمون، وشكل بغير موضوع مثله تماماً كفقاعة: تراه منتبراً وليس فيه شيء .

أو هو: كمثل دخان:

يرقى إلى الأوج الرفيع وبعده   يهوي إلى قعر الحضيض الداني(٢)

ــ ولذا: فما يلبث أن يذهب هباءً، منثوراً، { جفاء }: لَفَظَه الوجودُ ورماه وكأنه لم يكن يوماً في دنيا الناس: {فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين } .

أمّا الحق: فهو الثابت، المستقر، الماكث في الأرض_ رغم أنف كل طغاة الأرض_: لا يزول، ولا يحول: يفيء إليه الوجودُ، ويرجع وإن طالت غربته عنه، فــ(الحق: حقٌ أبداً)(٣) .

{ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ }: (وهو أن المثلين ضربهما الله: للحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، فالباطل وإن علا في بعض الأحوال: فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد، والخبث)(٤) .

قال ابن جرير الطبري_ رحمه الله_: [وهذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر: يقول تعالى ذكره: مثل الحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله: مثل ماء أنزله الله من السماء إلى الأرض: { فسالت أودية بقدرها }، يقول: فاحتملته الأودية بملئها: الكبير بكبره، والصغير بصغره: { فاحتمل السيل زبداً رابياً }، يقول: فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء: زبداً عالياً فوق السيل .

---

(١) " تفسير السعدي/٢٨٩ " .

(٢) " شرح النونية لابن القيم١/١٢٨ " .

(٣) " تفسير القرطبي٧/٣٦٩ " .

(٤) " المرجع السابق٩/٣٠٥ " .

فهذا أحد مثلى الحق والباطل، فالحق: هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به: هو الباطل .

والمثل الآخر: { وممّا يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية }، يقول جل ثناؤه: ومثل آخر للحق والباطل: مثل فضة أو ذهب يوقد عليها الناس في النار طلب حلية يتخذونها أو متاع، وذلك من النحاس، والرصاص، والحديد يوقد عليه ليتخذ منه متاع ينتفع به: { زبد مثله }، يقول تعالى ذكره: وممّا يوقدون عليه من هذه الأشياء: { زبد مثله }، يعني: مثل زبد السيل لا ينتفع به، ويذهب باطلاً كما لا ينتفع بزبد السيل، ويذهب باطلاً .

ورفع الزبد بقوله: { وممّا يوقدون عليه في النار }، ومعنى الكلام: وممّا يوقدون عليه في النار زبد مثل زبد السيل في بطول زبده، وبقاء خالص الذهب والفضة .

يقول الله تعالى: { كذلك يضرب الله الحق والباطل }، يقول: كما مَثّل الله الإيمان، والكفر في بطول الكفر وخيبة صاحبه عند مجازاة الله بالباقي النافع من ماء السيل، وخالص الذهب والفضة: كذلك يمثل الله الحق والباطل .

{ فأما الزبد فيذهب جفاء }، يقول: فأما الزبد الذي علا السيل، والذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص عند الوقود عليها: فيذهب بدفع الرياح، وقذف الماء به، وتعلقه بالأشجار، وجوانب الوادي .

{ وأما ما ينفع الناس } من الماء، والذهب، والفضة، والرصاص، والنحاس: فالماء يمكث في الأرض فتشربه، والذهب، والفضة: تمكث للناس .

{ كذلك يضرب الله الأمثال }، يقول: كما مثل هذا المثل للإيمان والكفر: كذلك يمثل الأمثال][(١)] .

* وقد قال تعالى_ كذلك_: { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } [الإسراء: ٨١] .

عن قتادة_ رحمه الله_ قوله: { وقل جاء الحق }، قال: " الحق: القرآن "، { وزهق الباطل }، قال: " هلك الباطل، وهو: الشيطان " .

وعن ابن جريج_ رحمه الله_ قوله: { وقل جاء الحق }، قال: " دنا القتال "، { وزهق الباطل }، قال: "الشرك، وما هم فيه "[(٢)] .

ولا تعارض بين هذه الأقوال إذ " القرآن " شامل لكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك: "القتال" كما أن " الشيطان ": هو رأس الباطل، وأساسه، و" الشرك ": أظهر مظاهر الباطل، وأقبحها .

وهذا من قبيل تفسير الشيء ببعض مفرداته، وهو كثير في كلام السلف_ رحمهم الله_، فـ " الحق ": هو كل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، (وهو ما بعثه الله به من القرآن، والإيمان، والعلم النافع)[(٣)]،

---

(١) " تفسير الطبري١٣/١٣٤ " .

(٢) انظر: " تفسير الطبري١٥/١٥٢ " .

(٣) " تفسير ابن كثير٣/٦٠ " .

و"الباطل ": هو كل ما خالف ذلك .

* وقد جاء عن ابن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ثلاث مئة وستون صنماً: فجعل يطعنها، ويقول: { جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً } "(١) .

قال القرطبي_ رحمه الله_ بعد أن ذكر الأقوال الواردة في الآية:

[والصواب: تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير: **جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه**](٢).

وقال ابن جرير_ رحمه الله_ بعد أن ذكر الأقوال السابقة في الآية:

[وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أمر الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يخبر المشركين: أن الحق قد جاء، وهو: كل ما كان لله فيه رضاً وطاعة، وأن الباطل قد زهق، يقول: وذهب كل ما كان لا رضا لله فيه، ولا طاعة ممّا هو له معصية، وللشيطان طاعة .

وذلك أن الحق: هو كل ما خالف طاعة إبليس، وأن الباطل: هو كل ما وافق طاعته، ولم يخصص الله عز ذكره بالخبر عن بعض طاعاته، ولا ذهاب بعض معاصيه بل عم الخبر عن مجيء جميع الحق، وذهاب جميع الباطل .

وبذلك جاء القرآن والتنزيل، وعلى ذلك قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الشرك بالله، أعني: على إقامة جميع الحق، وإبطال جميع الباطل .

وأما قوله عز وجل: { وزهق الباطل }، فإن معناه: ذهب الباطل من قولهم زهقت نفسه: إذا خرجت، وأزهقتها أنا، ومن قولهم: أزهق السهم: إذا جاوز الغرض فاستمر على جهته، يقال منه: زهق الباطل: يزهق: زهوقا يردوهم الله، أي: أذهبه](٣) .

وتأمّل التركيب القرآني والذي حشدت فيه جملة من المؤكدات في قوله: { وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً }: تستشعر أن هذه هي فعلاً الصفة الحقيقية للباطل: أنه كان زهوقاً .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [أي: لا بقاء له، والحق الذي يثبت](٤) .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [قوله: { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ }: **والحق هو: ما أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم:** فأمره الله أن يقول ويعلن: قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، { وزهق الباطل }، أي: اضمحل وتلاشى .

{ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا }، أي: **هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة ورواج إذا لم يقابله الحق، فعند**

---

(١) " البخاري٢/٨٧٦ "، " مسلم٣/١٤٠٨ " .

(٢) " تفسير القرطبي١٠/٣١٥ " .

(٣) " تفسير الطبري١٥/١٥٢ " .

(٤) " تفسير القرطبي١٠/٣١٥ " .

مجيء الحق: يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك، ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان، والأمكنه الخالية من العلم بآيات الله وبيناته][1] .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ ممّا تَصِفُونَ } [الأنبياء: ١٨] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { بل نقذف بالحق على الباطل }، القذف: الرمي، أي: نرمي بالحق على الباطل { فيدمغه }، أي: يقهره، ويهلكه، وأصل الدمغ: شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه الدامغة .

والحق هنا: القرآن، والباطل: الشيطان في قول مجاهد، قال: وكل ما في القرآن من الباطل: فهو الشيطان .

وقيل: الباطل: كذبهم، ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من الولد، وغيره، وقيل: أراد بالحق: الحجة، وبالباطل: شبههم، وقيل: الحق: المواعظ، والباطل: المعاصي .

والمعنى: متقارب، والقرآن: يتضمن الحجة، والموعظة .

{ فإذا هو زاهق }، أي: هالك، وتالف][2] .

ـــ وقد سبق معنا أن " الحق ": عام في كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وأن " الباطل ": كل ما خالف ذلك .

ـــ وفي قوله تعالى: { بل نقذق بالحق } حيث نسب سبحانه وتعالى الفعل { نقذف } لنفسه المقدّسة: إشارة ظاهرة إلى أن الله سبحانه وتعالى هو نفسه الذي يدير الصراع بين الحق والباطل؛ وإذا كان الأمر كذلك: فلا شك في بقاء الحق، وثباته، وفي فناء الباطل، واضمحلاله .

والتعبير القرآني هنا في قوله تعالى: { **نقذف** }: تعبير عجيب، بديع حيث تُلقي هذه الكلمة: " **نقذف** ": بظلال، وإيحاءات عديدة حول صولة الحق، وسطوته، فهي تُصوّر الحقَ: مندفعاً في اتجاه الباطل: بقوة، وسرعة، مُنصبّاً عليه من علٍ بدَوِيٍّ، وصوتٍ له وقعٌ مهيب، وهذه القوة، والسرعة، والاندفاع، والعلو، والدوي، والصوت المهيب: كلها من ذات الحق وماهيته كما أودعها الله فيه وإن رآه الناس بخلاف ذلك .

أما الباطل: فهو جامد، ضعيف، سافل، يقبع خاسئاً، خائفاً، مذعوراً، مرتجفاً: ينتظر ما الذي سيفعله به الحق، وهذه الصفات: هي صفات الباطل الحقيقية كما أودعها الله فيه وإن سُترت حيناً بمظاهر المادة الزائفة التي تخدع الناس عن حقيقة ما بداخله .

وقوله تعالى: { **فيدمغه** }: يَملأ النفس شعوراً بذهاب الباطل، واضمحلاله بصورة تامة: فلم يعد شيئاً، وصار أثراً بعد عين: { فإذا هو زاهق } .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [{ فيدمغه }، يقول: فيهلكه كما يدمغ الرجلُ الرجلَ بأن يشجه على رأسه شجة تبلغ الدماغ، وإذا بلغت الشجة ذلك من المشجوج: لم يكن له بعدها حياة .

---

(١) " تفسير السعدي/٣٢٧: ٣٢٨ " .

(٢) " تفسير القرطبي١١/٢٧٧ " .

وقوله: { فإذا هو زاهق }، يقول: فإذا هو هالك، مضمحل][1] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإن كل باطل: قيل وجُودل به: فإن الله ينزل من الحق، والعلم، والبيان: ما يدمغه: فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه: { فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ }، أي: مضمحل، فانٍ .

وهذا عام في جميع المسائل الدينية: لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو رد حق: إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية، والنقلية: ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه: فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد، وهذا يتبين باستقراء المسائل: مسألة، مسألة: فإنك تجدها كذلك][2] .

* وقال تعالى: { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ }

[سبأ: ٤٨_ ٤٩] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [" ما ": نفي، ويجوز أن يكون استفهاماً، بمعنى: أي شيء، أي: جاء الحق فأي شيء بقي للباطل حتى يعيده ويبدئه، أي: فلم يبق منه شيء كقوله: { فهل ترى لهم من باقية }، أي: لا ترى][3] .

وقال ابن كثير_رحمه الله_: [قوله تبارك وتعالى: { قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد }، أي: جاء الحق من الله، والشرع العظيم، وذهب الباطل، وزهق، واضمحل كقوله تعالى: { بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق }، ولهذا لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة: جعل يطعن الصنم منها بسيّة قوسه، ويقرأ: { وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا }، { قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد }، أي: لم يبق للباطل مقالة، ولا رياسة، ولا كلمة][4] .

قلت: والآية متضمنة: (أن هذه سنته، وعادته أن: { نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق })[5] .

ـ وقد قال تعالى: { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ الله يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ **وَيَمْحُ الله الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الشورى: ٢٤] .

فأخبر تعالى: أن (من حكمته، ورحمته، وسنته الجارية: أنه يمحو الباطل، ويزيله وإن كان له صولة في بعض الأوقات: فإن عاقبته الاضمحلال .

---

(١) " تفسير الطبري١٧/١٠: ١١ " .

(٢) " تفسير السعدي/٣٧٠ " .

(٣) " تفسير القرطبي١٤/٣١٣ " .

(٤) " تفسير ابن كثير٣/٥٤٥ " .

(٥) " تفسير السعدي/٤٩٧ " .

{ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ } الكونية التي لا تُبدل، ولا تُغير، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تُحقق ما شرعه من الحق، وتُثبته في القلوب، وتُبصر أولي الألباب)[١] .

* وقال تعالى: { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله **أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ **كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا **اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ** وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا **اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ** كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } .

ــ وهذه الآية نص بينٌ من الله تعالى بأن أعمال أهل الباطل: كالسراب: مضمحلة، متلاشية، لا حقيقة لها وإن خُدع بها أصحابُها ردحاً من الزمن، فإذا طلبوها أحوج ما يكونون إليها: لم يجدوا شيئاً بل وجدوا الحسرة والندامة .

وما ذاك إلا لأن أعمالهم: متعلقة بالباطل المضمحل، المتلاشي، الذي لا حقيقة له، وما بني على الباطل: لا شك أنه باطل مثله: ماهيةً، وصفةً .

أما أعمال أهل الحق: فهي متعلقة بالحق، ومن ثم: اكتسبت ماهيته، وصفته، فكانت: ثابتة، مستقرة، أصلها ثابت، وفرعها في السماء: تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

* وقد قال تعالى: { هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله } .

فهذا نص من الله تعالى في كون العلو والظهور إنما هما لــ " دين الحق "، وهو: الدين المُنَزَّل، السالم من البدع والمحدثات .

وفي الآية: بشارة ظاهرة لأهل الاتباع: فقوله تعالى: { على الدين كله }: يشمل تلك الأديان المحرّفة، المؤوّلة، المنتسبة _ ظلماً وزوراً _ لدين الله الحق .

وقد كان الإمام سفيان بن عيينة _ رحمه الله _ يقول في قوله تعالى: { فأما الزبد فيذهب جفاء }: " هو قول أهل البدع والأهواء "[٢] .

ــ بل إن الله سبحانه وتعالى بلطيف صنعه الذي يخفى على أكثر الناس، وببديع حكمته التي تعجز العقول: يسلط الباطل على الحق تسليطاً قدرياً، ويقيمه في وجهه: ليظهر الحق، ويعلو، ويزداد: ظهوراً، وبيناً، وعلواً، وليفتضح الباطل، ويظهر وجهُه القبيح، وينكشف: فيزهق، ويضمحل .

ولولا هذه المواجهة: لخفي الحق أو بعضه على كثير من الناس أو على أكثرهم، ولراج الباطل أو بعضه على كثير من الناس أو على أكثرهم، فكان في هذه المواجهة من صنع الله للحق وأهله: ما تُحمد معه هذه المواجهة، وتُعدّ من نعم الله، ومننه لأهل الحق_ أهل الطائفة المنصورة_ المستوجبة لشكر المنعم، المنان: الحكيم، العليم .

فتكون هذه المواجهة والمعارضة من الباطل للحق: من أعظم أسباب هداية الخلق للحق، ولله الحكمة البالغة،

---

(١) " تفسير السعدي/٥٥٦ " .

(٢) " حلية الأولياء٧/٢٧٧ " .

(فالله تبارك وتعالى_ من رحمته_ بالعباد: قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبيين حتى أن في جملة ذلك: أنه يقيض للحق: المعاندين له: فيجادلون فيه: فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه .

ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق: لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها: تتبين الأشياء، فلولا الليل: ما عُرف فضل النهار، ولولا القبيح: ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة: ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل: ما اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً، فلله الحمد على ذلك)[(١)] .

* وقد قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } [الأنعام: ١١٢] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يقول تعالى مسلياً الرسول صلى الله عليه وسلم: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك، ويحسدونك: فهذه سنتنا أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق: أعداء من شياطين الإنس، والجن: يقومون بضد ما جاءت به الرسل: { يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا }، أي: **يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة: ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة: فيعتقدون الحق باطلاً، والباطل حقاً**، ولهذا قال تعالى: { وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } ...

ومن حكمته تعالى في جعله للأنبياء أعداءً، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه: أن يحصل لعباده الابتلاء، والامتحان: ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى .

ومن حكمته: أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح: إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه_ حينئذ_ يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون][(٢)] .

* وقال تعالى_ كذلك_: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا }

[الفرقان: ٣١] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ}، أي: من الذين لا يصلحون للخير، ولا يزكون عليه: يعارضونهم، ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل .

من بعض فوائد ذلك: أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق، ويتضح اتضاحاً عظيماً لأن معارضة الباطل للحق: ممّا تزيده وضوحاً، وبياناً، وكمال استدلال ...][(٣)].

---

(١) " تفسير السعدي/٣٢ " .

(٢) " تفسير السعدي/١٧٣: ١٧٤ " .

(٣) " تفسير السعدي/٤١٨ " .

ـــــ وقد سجّل لنا القرآن الكريم كثيراً من جولات الصراع بين الحق والباطل، وكيف أن الحق لا بد أن يعلو الباطل ويزهقه، ومن هذه الجولات التي قصها الله علينا: جولة: هي آية ذاتها، ونسيج وحدها حيث دمغ الحقُ الباطلَ وأزهقه مع سطوة الباطل، وعنفه، وعظيم مكره وكيده، وسعيه الشرس في إعدام الحق من الوجود .

ولم يقف نور الحق الساطع عند حد دمغ الباطل، وإزهاقه بل قهرت أنواره أنفس، وقلوب أعدائه الساعين في إبطاله ودحضه: فلم يتمالكوا أنفسهم من أن يخروا له سُجداً: خضوعاً له وإذعاناً .

* قال تعالى في قصة موسى عليه السلام مع فرعون: { فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ **فَجَمَعَ كَيْدَهُ** ثُمَّ أَتَى قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى** قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا **إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** } [طه: ٦٠_٧٠] .

* وقال تعالى_ كذلك_ عن هذا الموقف البديع: { قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يأتوك بكل سحّارٍ عليم وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا **إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي **تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون** فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون }

[الأعراف: ١١٧_١٢٢] .

قال سيد_ رحمه الله_ ولله درُّ ما قال: [إنه الباطل: ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه محق، وما هو إلا أن يواجه الحق الهاديء، الواثق: حتى ينفثيء كالفقاعة، وينكمش كالقنفد، وينطفيء كشعلة الهشيم، وإذا الحق: راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور.

والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال وهو يصور الحق: واقعاً ذا ثقل: { فوقع الحق }، وثبت، واستقر، وذهب ما عداه، فلم يعد له وجود: { وبطل ما كانوا يعملون}، وغُلبَ الباطلُ، والمبطلون، وذلوا، وصغروا، وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون: { فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين } .

ولكن المفاجأة: لم تختم بعد، والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة كبرى: { وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون } .

إنها صولة الحق في الضمائر، ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق، والنور، واليقين](١) .

---

(١) " في ظلال القرآن/١٣٥٠ " .

ـــــ تنبيه هام جداً:

ما ذكرناه هنا من صفات الحق، وصفات الباطل: هي الصورة الحقيقية لكل منهما كما أودعها الله فيهما غير أن رؤية أكثر الناس دائماً قاصرة عن درك الأمور على ما هي عليه، فحقائق أكثر الناس: أوهام، وعلومهم: خيالات، ويقينهم: ظنون كاذبة لكونهم عن المنهج الحق، والميزان القسط بمعزل، فأنّى لهم وقد فسدت تصوراتهم، وموازينهم أن يروا الحقائق على ما هي عليه، وقد سبق معنا أن سنة الله قد جرت بقلة أتباع الحق وأنصارة، وأن أكثر الناس: منحرفون عن الحق بل معاندون له، كارهون .

قال الإمام ابن القيم_ رحمه الله_: [وأكثر الخلق: صبيان العقول، أطفال الأحلام، لم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد، والمألوفات فضلاً عن البلوغ الذي يميز به بين خير الخيرين: فيؤثره، وشر الشرين: فيجتنبه][(١)] .

* ورحم الله الإمام مالك بن دينار حيث قال:

" يا هؤلاء: إن الكلب إذا طرح اليه الذهب والفضة: لم يعرفهما، وإذا طرح اليه العظم: أكبّ عليه: كذلك

(١) " الروح/٢٢٩ " .

سفهاؤكم: لا يعرفون الحق "(١) .

فالناس أسرى المادة إلا مَنْ رحم ربي .

* وقد كان عمر بن عبد العزيز_ رحمه الله_ يقول: " ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً "(٢) .

* وعن ميمون بن مهران_ رحمه الله_ أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز_رحمه الله_، قال له: " يا أبتي، ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل، فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك .

فقال عمر بن عبد العزيز_ رحمه الله_: يا بني، إنما أنا أروض الناس رياضة الصعب: إني لأريدُ أن أُحيي الأمرَ من العدل: فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا: فينفروا من هذه، ويسكنوا لهذه "(٣) .

وإذا كان هذا: هو حال الناس_ إلا من رحم ربي_ في تلك القرون الموصوفة بالخيرية: فكيف يا ترى حالهم الآن ؟!!!، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

* وقد قال الحسن البصري_ رحمه الله_: " إن هذا الحق: جَهَدَ الناسَ، وحال بينهم وبين شهواتهم، فوالله ما صبر عليه إلا من عرف فضله، ورجا عاقبته "(٤) .

ـ وإذا كان الأمر في معرفة الحق وتمييزه من الباطل كما يقول الإمام الرباني إبراهيم بن أدهم_ رحمه الله_: " كثرة النظر إلى الباطل: تُذهب بمعرفة الحق من القلب "(٥) .

فأنّى للمنغمسين في الباطل صباح مساء أن يميزوا بين الحق، والباطل، وأن يعرفوا كلاً منهما بصفته التي هو عليها ؟! .

* وقد تعالى: { أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم } بعد قوله: { سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه } [المائدة: ٤١] .

فدل ذلك على (أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل، وقبوله: أكسبه ذلك تحريفا للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل: أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه: رده وكذبه إن قدر على ذلك وإلا حرفه)(٦) .

ـ وما أصدق الكلمة التي نقلها محمد بن وضاح_ رحمه الله_ عن بعض مَنْ مضى أنه قال: " كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكراً عند من مضى، وكم من متحبب إلى الله تعالى بما يبغضه الله،

---

(١) " حلية الأولياء٢/٣٦٠ " .

(٢) " حلية الأولياء٥/٢٩٠ " .

(٣) " الحلية٥/٣٥٤ " .

(٤) " الحلية٦/١٩٨ " .

(٥) " الحلية٨/٢٢ " .

(٦) " إغاثة اللهفان١/٥٥ " .

ومتقرب إلى الله بما يبعده الله منه، وكل بدعة عليها زينة وبهجة "(١) .

* وقد كان عمار بن ياسر_ رضي الله عنه_ يقول: " لو قاتلونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر: لعرفتُ أننا على الحق، وأنهم على الباطل "(٢) .

* وعن أحمد بن أبي الحواري_ رحمه الله_، قال: سمعت أبا سليمان الداراني_رحمه الله_ يقول: " لو شك الناس كلهم في الحق: ما شككت فيه وحدي " .

قال أحمد: " كان قلبه في هذا مثل قلب أبي بكر الصديق يوم الردة "(٣) .

ـ فأهل الحق: يعرفون الحق بصفته الذاتية لا بعَرَضٍ آخر، وعامة الخلق: صبيان لا يقنعون إلا بما تراه أعينهم بل وتقبض عليه أيديهم ! .

وقد أجاد القائل:

الطرق شتَّى وطرق الحقِّ مفردة ... والسالكون طريق الحقِّ أفراد

لا يُعرفون ولا تُدرى مقاصدهم ... فهم على مهل يمشون قصاد

والناس في غفلة عمّا يُراد بهم ... فجلُّهم عن سبـــيل الحقِّ رقاد(٤)

(وعلى الجملة؛ فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل، والأوفق لطباعهم، فإن الحق: مرّ، والوقوف عليه: صعب، وإدراكه: شديد، وطريقه: مستوعر)(٥) .

ـ ومع هذا كله، فــ(الإسلام يضع الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، يضع الكتاب قاعدة للحياة البشرية ثم تمضي الحياة، فإما اتفقت مع هذه القاعدة، وظلت قائمة عليها: فهذا هو الحق، وإما خرجت عنها، وقامت على قواعد أخرى: فهذا هو الباطل .

هذا هو الباطل ولو ارتضاه الناس جميعاً في فترة من فترات التاريخ، فالناس ليسوا هم الحكم في الحق والباطل، وليس الذي يقرره الناس هو الحق، وليس الذي يقرره الناس هو الدين .

إنَّ نظرة الإسلام تقوم ابتداءً على أساس أن فعل الناس لشيء، وقولهم لشيء، وإقامة حياتهم على شيء: لا تحيل هذا الشيء حقاً إذا كان مخالفاً للكتاب، ولا تجعله أصلاً من أصول الدين، ولا تجعله التفسير الواقعي لهذا الدين، ولا تبرره لأن أجيالاً متعاقبة قامت عليه)(٦) .

---

(١) " البدع والنهي عنها لابن وضاح/٥٠ "، وانظر: " الحوادث والبدع للطرطوشي/٢٩٥: ٢٩٦ " .

(٢) " سير أعلام النبلاء١/٤٠٨ " .

(٣) " الحلية٩/٢٥٦ " .

(٤) " الإحياء للغزالي١/٧٥ " .

(٥) " الإحياء للغزالي١/٧٥ " .

(٦) " في ظلال القرآن/٢١٧ " .

فــ(الحق: حق وإن استقبحه الناس، والباطل: باطل وإن استحسنه الناس)[1]، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ــــ **مسألة:**

وجوب الرجوع إلى الحق عند الطائفة المنصورة .

لما كان الحق: هو القديم عند أهل الطائفة المنصورة: كان هو معينهم: منه يعلون، ومنه ينهلون، ومنه يصدرون، وإليه يردون، ومن ثَمّ: كان واجب الرجوع إليه، والبحثِ عنه عند مجانبته، والخطأ في إصابته .

* وقد قال عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ في رسالته الشهيرة في القضاء إلى أبي موسى الأشعري_رضي الله عنه_: " لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك: أن تراجع الحق: فإن الحق قديم، وإن الحق: لا يبطله شيء، ومراجعة الحق: خير من التمادي في الباطل "[2] .

قال السرخسي_ رحمه الله_: [قوله: " الحق: قديم "، يعني: هو الأصل المطلوب](٣) .

* وكان عمر بن عبد العزيز_ رحمه الله_، يقول: " ما من طينة أهون علي فكاً، وما من كتاب أيسر عليّ

([1]) " الإحكام لابن حزم٦/١٩٣ " .

(٢) " البيهقي١٠/١٥٠،١١٩ "، " الدارقطني٤/٢٠٦: ٢٠٧ "، وانظر: " تلخيص الحبير٤/١٩٤ "، " نصب الراية٤/٨١ " .

(٣) " المبسوط١٦/٦٢ " .

رداً: من كتاب قضيتُ به ثم أبصرتُ أن الحق في غيره: ففسخته "[١] .

وقد عقد الإمام البخاري_ رحمه الله_ في كتاب الأحكام من صحيحه باباً، فقال:

" باب: إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم: فهو رد "[٢] .

ثم ساق البخاري_ رحمه الله_ حديث بعث خالد بن الوليد_ رضي الله عنه_ إلى بني جذيمة، وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: " اللهم إني أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد مرتين "(٣) .

ثم عقد البخاري_ رحمه الله_ كذلك_ في كتاب الاعتصام من صحيحه باباً، فقال:

" باب: إذا اجتهد العامل_ أو الحاكم_: فأخطأ خلاف الرسول صلى الله عليه وسلم من غير علم: فحكمه مردود لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا: فهو رد "[٤] .

قال ابن بطال_ رحمه الله_: [مراده أن من حكم بغير السنة جهلاً أو غلطاً: يجب عليه الرجوع إلى حكم السنة، وترك ما خالفها امتثالاً لأمر الله تعالى بايجاب طاعة رسوله، وهذا هو نفس الاعتصام بالسنة](٥) .

قال ابن قدامة_ رحمه الله_ في كتاب القضاء من " المغني ": [ولا يَنْقُض من حكم غيره إذا رفع إليه إلا ما خالف نص كتاب أو سنة أو إجماع ...](٦).

ـ وقد نقل ابن عبد البر_ رحمه الله_ " الإجماع " على ذلك، فقال: [أجمع العلماء أن الجور البين، والخطأ الواضح المخالف للإجماع، والسنة الثابتة المشهورة التي لا معارض لها: مردود على كل من قضى به][٧].

ـــ وقد ضرب سلفنا الصالح أروع نماذج الرجوع إلى الحق، والانتصار له وحده، وإيثاره على حظوظ النفس ورغباتها، وعدم الاستنكاف من الإقرار بالخطأ، والعدول عنه:

* جاء رجل إلى عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ فقال: " يا أمير المؤمنين، إني غبت عن امرأتي سنتين: فجئت وهي حبلى؛ فشاور عمر_ رضي الله عنه_ ناساً في رجمها .

فقال معاذ بن جبل_ رضي الله عنه_ يا أمير المؤمنين، إن كان لك عليها سبيل: فليس لك على ما في بطنها سبيل، فاتركها حتى تضع .

---

(١) " البيهقي١١٩/١٠ " .

(٢) " البخاري٢٦٢٨/٦ " .

(٥) انظر: " فتح الباري١٨١/١٣: ١٨٢ " .

(٤) " البخاري٢٦٧٥/٦ " .

(٧) " فتح الباري٣١٧/١٣ " .

(١) " المغني والشرح الكبير ٤٠٣/١١ " .

(٧) " البيهقي٤٤٣/٧ "، " الدارقطني٣٢٢/٣ "، " مصنف ابن أبي شيبة٥٤٣/٥ " .

فتركها: فولدت غلاماً قد خرجت ثناياه: فعرف الرجل الشبه فيه: فقال: ابني ورب الكعبة .

فقال عمر_ رضي الله عنه_: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ، **لولا معاذ: لهلك عمر** "(١) .

* وعن الشعبي، قال: " أتى عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ بامرأة تزوجت في عدتها: فأخذ مهرها: فجعله في بيت المال، وفرّق بينهما، وقال: لا يجتمعان، وعاقبهما .

فقال علي_ رضي الله عنه_: ليس هكذا، ولكن هذه الجهالة من الناس، ولكن يفرق بينهما ثم تستكمل بقية العدة من الأول ثم تستقبل عدة أخرى، وجعل لها علي_ رضي الله عنه_ المهر بما استحل من فرجها .

قال: فحمد الله عمر_ رضي الله عنه_ وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس، ردوا الجهالات إلى السنة "(٢) .

* وعن الحسن_ رحمه الله_ : " أن امرأة ولدت لستة أشهر؛ فأتى بها عمر بن الخطاب_ رضى الله عنه_: فهم برجمها .

فقال له على_ رضي الله عنه_: ليس ذاك لك، إن الله عز وجل يقول فى كتابه: { وحمله وفصاله ثلاثون شهراً }؛ فقد يكون فى البطن ستة أشهر، والرضاع: أربعة وعشرين شهراً: فذلك تمام ما قال الله: ثلاثون شهراً .

فخلّى عنها عمر "(٣) .

* " وأتى عثمان_ رضي الله عنه_ في امرأة ولدت فى ستة أشهر: فأمر برجمها .

فقال ابن عباس_ رحمه الله_: أدنونى منه: فأدنوه: فقال: إنها تخاصمك بكتاب الله: يقول الله عز وجل: {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين }، ويقول فى آية أخرى: { وحمله وفصاله ثلاثون شهراً } .

فسردها عثمان، وخلى سبيلها "(٤) .

* وعن العباس بن الوليد بن مزيد، قال: سمعت أبى وعقبة بن علقمة يذكران، قالا: " ما رأينا أحداً أسرع رجوعاً إلى الحق إذا سمعه من الأوزاعي "(٥) .

* وعن عبد الرحمن بن مهدي_ رحمه الله_، قال: " كنا في جنازة فيها عبيد الله بن الحسن العنبري وهو على القضاء، فلما وضع السرير: جلس وجلس الناس حوله، قال: فسُئلَ عن مسألة: فغلط فيها .

فقلت: أصلحك الله، القول في هذه المسألة: كذا، وكذا إلا أني لم أرد هذه، إنما أردت أن أرفعك إلى ما هو أكبر منها .

---

(١) " التمهيد٩/٩١ " .

(٢) " البيهقي٧/٤٤٢ " .

(٣) " سنن سعيد بن منصور٢/٩٣ "، وانظر: " مصنف عبد الرزاق٧/٣٥٠، ٣٥٢ " .

(٤) " سنن سعيد بن منصور٢/٩٣ "، وانظر: " الموطأ٢/٨٢٥ "، " مصنف عبد الرزاق٧/٣٥١ " .

(٥) " الجرح والتعديل لابن أبي حاتم١/٢٠٣ "، وانظر: " تهذيب التهذيب٦/٢١٨ " .

فأطرق ساعة ثم رفع رأسه، فقال: **إذاً: أرجع وأنا صاغر، إذاً: أرجع وأنا صاغر، لأن أكون ذنباً في الحق: أحب إلي من أن أكون رأساً في الباطل** "(١) .

* وعن عبد الرحمن بن مهدي_ أيضاً_، قال: " دخلت على محمد بن الحسن_ صاحب الرأي_: فرأيت عنده كتاباً موضوعاً، فأخذته، ونظرت فيه، فإذا هو قد أخطأ، وقاس على الخطأ، فقلت: ما هذا ؟، فقال: حديث أبي خلدة عن أبي العالية في الدود يخرج من الدبر، وقد تأوله تأويله، وقاس عليه، فقلت: هذا ليس هكذا، قال كيف هو ؟، فأخبرته، فقال: صدقت، ودعا بمقراض: فقرض من كتابه كذا، وكذا ورقة "(٢) .

* و " لمّا اجتمع أبو يوسف بمالك_ رحمهما الله_ فسأله عن الصاع، وصدقة الخضروات، ومسألة الأجناس، فأخبره مالك بما تدل عليه السنة في ذلك، قال: رجعتُ إلى قولك يا أبا عبد الله، ولو رأى صاحبي ما رأيت: لرجع إلى قولك كما رجعت "(٣) .

* وعن ابن أبي ذئب_ رحمه الله_، قال: " قضى سعد بن إبراهيم على رجل برأي ربيعة، فأخبرته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف ما قضى به، فقال سعد لربيعة: هذا ابن أبي ذئب وهو عندي ثقة يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف ما قضيتُ به، فقال له ربيعة: قد اجتهدتَ ومضى حكمُك، فقال سعد: **واعجبا، أنفذ قضاء سعد ابن أم سعد، وأردّ قضاءً قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم** بل أردّ قضاء سعدٍ، وأنفذ قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعا بكتاب القضية: فشقّه، وقضى للمقضي عليه"(٤) .

* وقال ابن حبان_ رحمه الله_ في ترجمة زفر بن الهذيل_ رحمه الله_:

" زفر بن الهذيل: القيّاس: أبو الهذيل من متورعة الفقهاء لم يسلك سبيل صاحبيه في الروايات، وكان إذا لاح له الحق: يرجع اليه من غير أن يتمادى في باطله "(٥) .

* ومن روائع النماذج في الرجوع للحق: ما جرى للحسن بن زياد اللؤلؤي_ رحمه الله_، فقد: " استفتى في مسألة، فأخطأ فيها، ولم يعرف الذي أفتاه به: فاستأجر منادياً ينادي أن الحسن بن زياد استفتى في يوم كذا، وكذا في مسألة: فأخطأ، فمن كان أفتاه الحسنُ بن زياد بشيء: فليرجع إليه ثم لبث أياماً لا يفتي حتى جاء صاحب الفتوى: فأعلمه أنه قد أخطأ، وأن الصواب خلاف ما أفتاه به "(٦) .

* وروى الحافظ أبو نصر اليونارتي بسنده إلى الدوري عن يحيى بن معين أنه:

---

(٣) " تهذيب الكمال١٩/٢٥ "، " تهذيب التهذيب٧/٧ " .

(٢) " الحلية٩/١٠ " .

(٣) " الفتاوى لابن تيمية٢٠/٢١١ " .

(٤) " سير أعلام النبلاء٥/٤١٩: ٤٢٠ " .

(٥) " مشاهير علماء الأمصار/١٧٠ "، وانظر: " الثقات٦/٣٣٩ " .

(٦) " إعلام الموقعين٤/٢٢٥ " .

" حضر نعيم بن حماد_ رحمه الله_ بمصر: فجعل يقرأ كتاباً من تصنيفه: فمرّ له حديث عن ابن المبارك عن ابن عون .

قال ابن معين_ رحمه الله_: فقلتُ له ليس هذا عن ابن المبارك: فغضب وقام ثم أخرج صحائف: فجعل يقول: **أين الذين يزعمون أن يحيى ليس بأمير المؤمنين في الحديث، نعم يا أبا زكريا: غلطتُ** .

قال اليونارتي: فهذا يدل على ديانة نعيم، وأمانته لرجوعه إلى الحق "(١) .

* وقال أبو حامد بن الشرقي: " سمعت محمد بن يحيى الذهلي وأملى حديثاً: فردّ عليه أبو بكر الجارودي، فزبره محمد بن يحيى، فلما كان المجلس الثاني، قال الذهلي: ها هنا أبو بكر ؟، قال: نعم، قال: الصواب ما قلتَ فإني رجعت إلى كتابي، فوجدته على ما قلتَ "(٢) .

* وعن قاسم بن أصبغ، قال: " لما رحلت إلى المشرق: نزلت القيروان فأخذت على بكر بن حماد حديث مسدد ثم رحلت إلى بغداد ولقيت الناس فلما انصرفت: عدت إليه لإتمام حديث مسدد، فقرأت عليه فيه يوماً حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قدم قوم من مضر مجتابي النمار(٣) .

فقال لي: إنما هو: " مجتالي النمار " .

فقلت له: إنما هو " مجتابي النمار ": هكذا قرأتُه على كل من قرأتُ عليه بالأندلس، وبالعراق .

فقال لي: بدخولك العراق تعارضنا، وتفجر علينا أو نحو هذا، ثم قال لي: قم بنا إلى ذلك الشيخ_ لشيخ كان بالمسجد_ فإن له بمثل هذا علماً .

فقمنا إليه وسئلناه عن ذلك، فقال: إنما هو: " مجتابي النمار " كما قلت، وهم: قوم كانوا يلبسون ثياباً مشققة جيوبهم أمامهم، والنمار: جمع نمرة(٤) .

فقال بكر بن حماد **وأخذ أنفه: رغم أنفي للحق، رغم أنفي للحق**، وانصرف "(٥) .

* وممّا ذُكِرَ في سيرة العز بن عبد السلام_ رحمه الله_ أنه: " أفتى مرة بشيء ثم ظهر له أنه خطأ: فنادى في مصر، والقاهرة على نفسه من أفتى له فلان بكذا: فلا يعمل به فإنه خطأ "(٦) .

والأمثلة في ذلك كثيرة، وفيما ذكر: كفاية ومقنع لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ـــــ ولذا، فقد كثر كلامُ أئمة الطائفة المنصورة عبر تاريخها: في الأمر بالرجوع إلى الحق، والانتصار له

---

(١) " تهذيب التهذيب١٠/٤١٠ "، وانظر: " تهذيب الكمال٢٩/٤٧١ " .

(٢) " سير أعلام النبلاء١٣/٥٤٣ " .

(٣) انظر: " مسلم٢/٧٠٥، ٧٠٦ " .

(٤) انظر: " شرح مسلم للنووي٧/١٠٢ " .

(٥) " جامع بيان العلم١/١٣٣: ١٣٤ " .

(٦) " طبقات الشافعية للسبكي٨/٢١٤ " .

وحده دون غيره، وإيثاره على النفس وما تهوى، والإنصاف من النفس، وعدم الاستنكاف من الإقرار بالخطأ والعدول عنه:

* روي عن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ قوله: " إن لله عباداً **يميتون الباطل: بهجره، ويحيون الحق: بذكره،** رُغّبوا: فرغبوا، ورُهّبوا: فرهبوا ... "(١).

* وعن عمر_ رضي الله عنه_ أنه كتب إلى معاوية_ رضي الله عنه_: " أما بعد: فالزم الحقَ: ينزلك الحقُ منازل أهل الحق يوم لا يقضي إلا بالحق "(٢) .

* وعن علي_ رضي الله عنه_، قال: " أشد الأعمال: ثلاثة: **إعطاء الحق من نفسك،** وذكر الله على كل حال، ومواساة الأخ في المال "(٣) .

* وعن عمار بن ياسر_ رضى الله عنه_ أنه قال: " ثلاث من جمعهن: فقد جمع الإيمان: **الإنصاف من نفسك،** وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الاقتار "(٤) .

* وفي رواية: " ثلاث من كن فيه: وجد بهن حلاوة الإيمان: الإنفاق من الإقتار، **وإنصاف الناس من نفسك،** وبذل السلام للعالم "(٥) .

قال الصنعاني_ رحمه الله_: [يا لها من كلمات: ما أجمعَها للخير](٦) .

* وقال عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_: " الحق: ثقيل، مريء، والباطل: خفيف، وبيء، ورب شهوة: تورث حزناً طويلاً "(٧) .

* وعن حذيفة بن اليمان_ رضي الله عنه_، قال: " إن الحق: ثقيل، وهو مع ثقله: مريء، وإن الباطل: خفيف، وهو مع خفته: وبيء "(٨) .

* وقال بعض القوم للحسن البصري_ رحمه الله_ أخبرنا صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: فبكى، وقال_ رحمه الله_: " ظهرت منهم علامات الخير في السيماء، والسمت، والهدى، والصدق، وخشونة

---

(١) " الحلية١/٥٥ " .

(٢) " السير ٢٣٣/١١ " .

(٣) " الحلية١/٨٥ " .

(٤) " البخاري١/١٩ " معلقاً، وانظر: " تغليق التعليق١/٣٦: ٣٨ "، " مصنف ابن أبي شيبة٦/١٧٢ "، "الحلية١/١٤١ "،" المجمع١/٥٦: ٥٧".

(٥) " الجامع لمعمر بن راشد١٠/٣٨٦ " .

(٦) " سبل السلام٤/١٤٨ " .

(٧) " الحلية١/١٣٤ " .

(٨) " تهذيب الكمال٥/٥٠٨ " .

ملابسهم: بالاقتصاد، ومماشاهم: بالتواضع، ومنطقهم، ومعناه، ومطعمهم ومشربهم: بالطيب من الرزق، وخضوعهم: بالطاعة لربهم تعالى، **واستقادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا، وإعطاؤهم الحق من أنفسهم** .

ظمئت هواجرهم، ونحلت أجسامهم، واستخفوا بسخط المخلوقين في رضى الخالق .

لم يفرطوا في غضب، ولم يحيفوا في جور، ولم يجاوزوا حكم الله تعالى في القرآن.

شغلوا الألسن بالذكر، بذلوا دماءهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم ... "(١) .

* وكتب عمر بن عبد العزيز_ رحمه الله_ إلى بعض عماله: " أما بعد ...

ولن تدرك العلم: حتى تؤثره على الجهل، **ولا الحق: حتى تذر الباطل**، فنسأل الله لنا ولك حسن معونته، وأن يدفع عنّا وعنك بأحسن دفاعه برحمته "(٢) .

* وعن يحيى بن يمان_ رحمه الله_، قال: " بلغني أن عمر بن عبد العزيز_رحمه الله_: كتب إلى عامل له: أما بعد؛ فالزم الحق: ينزلك الحق منازل أهل الحق يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق، وهم لا يظلمون "(٣).

* وعن عمرو بن مهاجر_ رحمه الله_، قال: قال لي عمر بن عبد العزيز_رحمه الله_: " إذا رأيتني قد ملت عن الحق: فضع يدك في تلبابي ثم هزني ثم قل: يا عمر، ما تصنع "(٤) .

* وكان جعفر الصادق_ رحمه الله_ يوصي ابنه قائلاً: " يا بني؛ قل الحق لك أو عليك: تستشار من بين أقرانك "(٥) .

* وكان الإمام الشافعي_ رحمه الله_ يقول: " ما أوردتُ الحقَ والحجة على أحد فقبلها مني: **إلا هبته، واعتقدت مودته**، ولا كابرني أحد على الحق ودفع الحجة الصحيحة: **إلا سقط من عيني ورفضته** "(٦) .

* وقد سبق معنا قول الإمام الشافعي_ رحمه الله_: " ما ناظرت أحدا قط: إلا أحببت أن يوفق، ويسدد، ويعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحداً إلا ولم أبال: بَيّنَ الله الحقَ على لساني أو لسانه"(٧) .

---

(١) " حلية الأولياء٢/١٥٠ "، " تهذيب الكمال٦/١١٥ " .

(٢) " الحلية٥/٢٦٨ " .

(٣) " الحلية٥/٣٠٧ " .

(٤) " الحلية٥/٢٩٢ "، " تاريخ بغداد٥/٩٨ "، " صفوة الصفوة٢/١٢٢ " .

(٥) " الحلية٣/١٩٥ "، " السير٦/٢٦٣ "، " تهذيب الكمال٥/٩٠ " .

(٦) " الحلية٩/١١٧ "، " السير١٠/٣٣ "، " صفوة الصفوة٢/٢٥١ " .

(٧) " الحلية٩/١١٨ " .

* وقوله_ أيضاً_ رحمه الله_: " اعرف الحق لذي الحق: إذا أحق الله الحق "(١) .

* وقال_ رحمه الله_: " ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة للنبي صلى الله عليه وسلم أو تعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصّلت من أصل فيه عن رسول الله خلاف ما قلت: **فالقول: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قولي، وجعل يردد هذا الكلام** "(٢) .

* وقال_ كذلك_ رحمه الله_: " ما قلتُ وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال بخلاف قولي: **فما صحّ من حديث النبي: أولى، ولا تقلدوني** "(٣) .

* ومن عجيب قول الشافعي_ رحمه الله، وطيب ثراه_ في كون الرجوع إلى الحق دوماً: دينه، وديدنه: قوله: " إن أصبتم الحجة في الطريق مطروحة: **فاحكوها عني: فإني قائل بها** "(٤) .

* وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي_ رحمه الله_: " ألْزمُ الحق: إنصافُك الناس من نفسك، وقبولك الحق ممن هو دونك ... "(٥) .

* وعنه_ رحمه الله_ كذلك_: " أفضل الجهاد: مجاهدتك نفسك لتردها إلى قبول الحق ... "(٦) .

* وسئل عبد الله بن خبيق_ رحمه الله_ بماذا ألزَمُ الحقَ في أحوالي ؟ .

قال: " بإنصاف الناس من نفسك، وقبول الحق ممن هو دونك "(٧) .

ـــــ فسبيل أهل الطائفة المنصورة في الرجوع إلي الحق:(أن لا يلهيهم باطل من الفعال والمقال، وأن لا يثنيهم في توجههم إلى الحق: حال من الأحوال، وأن يكونوا مع الحق على أكمل حال)(٨) .

فهم_ لله هم_:(قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض)(٩) .

ــ وقد اتفقت كلمةُ أهل العلم على ذم التعصب، والتشنيع عليه، ورأس التعصب: عدم الرجوع إلى الحق

---

(١) " الحلية٩/١١٩ " .

(٢) " إعلام الموقعين٢/٢٨٦ " .

(٣) " آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم الرازي/٩٣ " .

(٤) " الحلية٩/١٢٤ " .

(٥) " الحلية٩/٢٨٢ " .

(٦) " حلية الأولياء٩/٢٨٣ " .

(٧) " المرجع السابق١٠/١٦٩ " .

(٨) " نفس المرجع١/٤٧"

(٩) " الحلية١/٣٣٧ " .

إصراراً على التمسك بالباطل بعد تبيّنه انتصاراً للنفس أو من تهوى من فرد أو طائفة .

* عن أنس_ رضي الله عنه_ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ثلاث: كفارات، وثلاث: درجات، وثلاث: منجيات، وثلاث: مهلكات ...

وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه "(١) .

* ومن حديث أبي ثعلبة الخشني_ رضي الله عنه_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، **وإعجاب كل ذي رأي برأيه: فعليك** نفسك، ودع أمر العوام، فإن من ورائكم أياماً: الصبر فيهن: مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله .

قيل: يا رسول الله، أجر خمسين منهم .

قال: خمسين منكم "(٢) .

قال أبو نعيم_ رحمه الله_: [قاتل الله التعصب، ما أشنع إخساره في الميزان](٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_:[وأما التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله: فهو من عمل الجاهلية، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله](٤) .

وقال ابن القيم_ رحمه الله_ وهو يعدد مظاهر الجاهلية:

[ومنها: الدعاء بدعوى الجاهلية، والتعزي بعزائهم كالدعاء إلى القبائل، والعصبية لها، وللأنساب، ومثله: التعصب للمذاهب، والطرائق، والمشايخ، وتفضيل بعضها على بعض بالهوى والعصبية، وكونه منتسباً إليه: فيدعو إلى ذلك، ويوالي عليه، ويعادي عليه، ويزن الناس به، كل هذا: من دعوى الجاهلية](٥) .

وما ألطف قول ابن عبد الهادي الحنبلي_ رحمه الله_: [وما تحلى طالب العلم بأحسن من الإنصاف، وترك التعصب](٦) .

وقال الشوكاني_ رحمه الله_ ناعياً على التعصب وأهله: [والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً؛ فبصيرته:

---

(١) قال المنذري في " الترغيب والترهيب١/١٧٤ ": [رواه البزار، واللفظ له، والبيهقي، وغيرهما، وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى] .

(٢) " ابن حبان٢/١٠٨: ١٠٩ "، " الترمذي٥/٢٥٧ "، " أبو داود٤/١٢٣ "، " البيهقي١٠/٩١ "، وانظر: "المستدرك٤/٥٨٣ "، " ابن ماجه٢/١٣٣٠ " .

(٣) " حلية الأولياء٩/١١ " .

(٤) " مجموع الفتاوى١١/٢٨ " .

(٥) " زاد المعاد٢/٤٧١ " .

(٦) " نصب الراية ١/٣٥٥ " .

عمياء، وأذنه عن سماع الحق: صماء؛ يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلةً منه، وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم، وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق: مرتجاً، وطريق الإنصاف: مستوعرة، والأمر لله سبحانه، والهداية منه:

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح](١) .

وقد أحسن ابن القيم_ رحمه الله_ حيث يقول في نونيته:

وتعرّ من ثوبين مـــن يلبسهما ... يـــلقى الردى بمذمة وهوان
ثوب من الجهل المركب فوقه ... ثوب التعصب بئست الثوبان
وتحلّ بالإنصاف أفـــخر حلة ... زينت بها الأعطاف والكتفان(٢)

---

(١) " تفسير فتح القدير٢/ ٢٤٣ " .

(٢) " شرح القصيدة النونية١/١٢٤ " .

الباب الثالث

الصـــفة الثالثـــة

الـــعلـــم

الفصل الأول

بيان العلم وفضله

ــــــ أولاً: بيان " العلم " .

المراد بالعلم هنا: العلم بأمر الله: دينِه وشرعِه، وما يحبه ويرضاه، وما يبغضه ويأباه: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً، وهو العلم الموحى من السماء إلى الأرض، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة ثم ما تفرّع عنهما من العلوم الشرعية .

* قال تعالى: { وكذلك **أوحينا إليك روحاً** من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن **جعلناه نوراً** نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم } [الشورى: ٥٢].

* وقال تعالى: { وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة **وعلّمك ما لم تكن تعلم**، وكان فضلُ الله عليك عظيما } [النساء: ١١٣] .

* وقال تعالى: { فمن حاجك فيه من بعد ما **جاءك من العلم** } [آل عمران: ٦١] .

فبين الحق سبحانه وتعالى أن هذا العلم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو علمٌ مُوحىً به، مُنزلٌ من عنده سبحانه .

قال ابن كثير_ رحمه الله_ في قوله تعالى: { قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون }، قال:

[هذه الآية إنما دلّت على مدح العالمين **العلم الشرعي**](١) .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_:

[والمراد بالعلم: العلم الشرعي الذي يُفيد معرفة ما يجب على المكلّف من أمر دينه في عباداته، ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير، والحديث، والفقه](٢) .

ـــــ وأصول هذا العلم المُنَزَّل: الكتاب، والسنة، وما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والإجماع ثم القياس بعد_ بشرطه_ على تلك الأصول .

وهذا العلم: هو العلم مطلقاً، وهو العلم الحق، وما سواه: فإنما يكون حقاً بقدر قربه منه، ويكون باطلاً: بقدر بعده عنه، أما الأرآء المجردة أو المبنية علي غير هذه الأصول: فليست من العلم في شيء وإن تزخرفت للناظرين .

* قال تعالى: { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ }

[العنكبوت: ٤٩] .

فنصّت الآية على أن الذين أوتوا " العلم ": هم الذين أوتوا " القرآن " علماً، وفهماً، وحفظاً، فكانت الآية نصاً في كون " العلم ": هو العلم المنزل لا غير، وأن " أهل العلم ": هم أهل هذا " العلم المنزل " لا غيرهم .

* وقال تعالى_ كذلك_: { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [سبأ: ٦] .

فالذين أوتوا " العلم ": هم الذين يعرفون أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الكتاب، والسنة: هو الحق المطلق، وهو وحده طريق النجاة في الدنيا، والآخرة، فهذه الآية كالتي قبلها في بيان أن " العلم ": إنما هو العلم المنزل لا غير، وأن " أهل العلم ": هم أهل ذلك العلم لا غيرهم .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا **لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** مَاذَا قَالَ

---

(١) " تفسير ابن كثير ١/١٤٦ " .

(٢) " فتح الباري ١/١٤ " .

آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [محمد: ١٦] .

والذين أوتوا العلم هنا: هم الصحابة_ رضوان الله عليهم_، والصحابة: لم يؤتوا غير الكتاب، والسنة، وقد شهد الله تعالى لهم شهادة مطلقة بأنهم قد أوتوا " العلم "، ومدحهم بذلك: فدل على أن الكتاب، والسنة: هما "العلم " لا غيرهما من آراء البشر، وأهوائهم وإن استحسنتها العقول، وقنعت بها، ورأت فيها ما رأت .

وسواء قلنا: إن اللام في قوله تعالى: { الْعِلْمَ } للاستغراق أم للعهد، فــ" العلم " هنا لا يخرج عن العلم المنزل من الكتاب، والسنة إذ هو علم الصحابة .

* وقد جاء في حديث حذيفة الجليل في رفع الأمانة، قال: " حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين: قد رأيتُ أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن: **فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة** ... " الحديث(١) .

* وجاء من حديث ابن عمر_ رضي الله عنهما_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " بينما أنا نائم إذ أتيت بقدح لبن، فقيل لي: اشرب: فشربت منه حتى إني لأرى الري يجري في أظفاري ثم أعطيت فضلتي عمر، قالوا: فما أولت ذلك، قال: **العلم** "(٢) .

* وعن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " عليكم **بالعلم** قبل أن يقبض، وقبضه: أن يذهب أهله، وإنكم ستجدون قوماً يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم: **فعليكم بالعلم**، وإياكم والبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، **وعليكم بالعتيق** "(٣) .

فنص على أن العلم: هو العتيق، والعتيق: هو ما جاء عن السلف الصالح دون سواهم .

فــ" العلم ": ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه، وما عداه: أوهام، وخيالات .

ــــ وقد قال تعالى: { وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ } [البقرة: ١٢٠] .

* وقال تعالى_ كذلك_: { وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ } [البقرة: ١٤٥] .

فجعل الله تعالى " الهوى " في مقابل " العلم المنزل "، فدل على أن كل ما كان بخلاف هذا العلم المنزل: فهو هوى مجرد أياً كانت صورته، وأياً كان بريقه .

* وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: " العلم ثلاثة، فما

---

(١) " مسلم١/١٢٦ " .

(٢) " البخاري١/٤٣ " .

(٣) " السنة للخلال١/٢٩: ٣٠ "، " ذم التأويل/٣١ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٦ " .

سوى ذلك: فهو فضل: آية محكمة، وسنة قائمة، وفريضة عادلة "[١] .

قال الخطابي_ رحمه الله_: [الآية المحكمة: هي كتاب الله تعالى، واشترط فيها الإحكام: لأن من الآي ما هو منسوخ لا يعمل به وإنما يعمل بناسخه .

والسنة القائمة: هي الثابتة ممّا جاء عنه صلى الله عليه وسلم من السنن الثابتة .

وقوله: " أو فريضة عادلة ": يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما أن يكون من العدل في القسمة: فتكون معدلة على الأنصباء، والسهام المذكورة في الكتاب والسنة .

والوجه الآخر: أن تكون مستنبطة من الكتاب، والسنة، ومن معناهما: فتكون هذه الفريضة تعدل ما أخذ من الكتاب، والسنة إذ كانت في معنى ما أخذ عنهما نصاً][٢] .

وقال صديق حسن خان_ رحمه الله_: [اللام في قوله صلى الله عليه وسلم: " العلم ": قيل: للعهد، أي: علم الدين، وقيل: للاستغراق كما في قوله تعالى: { الحمد لله }، وهو الراجح، والمراد بالآية: الكتاب العزيز، وبالسنة: علم الحديث الشريف، وبالفريضة: علم الميراث، وهو جزء من علم الكتاب والسنة .

وما سوى هذين الأصلين: " فضل "، أي: زائد لا ضرورة فيه كائناً ما كان، ولا سيما العلوم التي جاءت من كفرة اليونان، وليست مبنية على أساس شرعي ولا على عرفان بل حدثت هي في الإسلام بعد انقراض القرون الثلاثة المشهود لها بالخير فإنها ليس فيها من الخير شيء بل كلها كما قيل: علم لا ينفع، وجهل لا يضر .

ومَنْ تمسّك بأذيال الكتاب الإلهي، والحديث النبوي: فقد استغنى عن جميع العلوم والفنون، وكل الصيد في جوف الفرا، ومن لم يستغن بما جاء عن الله تعالى ورسوله، ولم يره كافياً، وافياً لأمور الدنيا والاخرة: فلا أغناه الله، ولا حيّاه .

والمعرض عن هذين العلمين الكريمين، والأصلين الشريفين الجامعين للعلوم النافعة في المعاش، والمعاد إلى الخوض في الفنون الأجنبية، والاشتغال بها ليلاً ونهاراً، والاستغراق فيها بأوقاته كلها: ليس أهلاً للتخاطب، ولا محلاً للالتفات، ولا موفقاً للخير، ولا موقعاً للنجاة .

وفي حديث معاوية_ رضي الله عنه_، قال: " إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الأغلوطات "، رواه أبو داود .

وهذه الفنون غالبها من هذا القبيل، ونهى_ أيضاً_ عن النظر في الكتب السماوية المنزلة على الانبياء عليهم السلام من قبله في هذه الجهالات، والخرافات التي سموها علوماً وفنوناً، وجعلوها من مواسم الفضيلة، وربطوا بها كمال الشخص، وحصروه في اكتسابها الذي لا ينبغي التعبير عنه إلا بإضاعة الأوقات، وإهلاك النفس الناطقة بإلقائها في الموبقات، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين المتبعين عمّا يكره، ولا يرضاه، وصاننا

---

(١) " المستدرك٤/٣٦٩ "، " أبو داود٣/١١٩ "، " ابن ماجه١/٢١ "، " البيهقي٦/٢٠٨ "، " الدارقطني٤/٦٧".

(٢) " تفسير القرطبي٥/٥٦ "، وانظر: " معالم السنن للخطابي٤/٨٣ " .

وإياهم عمّا يضر في دين الإله إنه قريب، مجيب، وبالله التوفيق، وهو المستعان][(١)] .

ـــــ ويدخل فيما ذكره صديق حسن خان_ رحمه الله_ من تلك الجهالات التي يسميها أربابها: علماً: ما فُتن به كثير من رجالات الدعوة اليوم وظنوه طريقاً للتمكين لدين الله وشرعه ممّا يُعرف: بـــ" علم السياسة " المأخوذ عن كفرة الغرب والشرق، وفتنته اليوم كفتنة علم الكلام يوم ظهر في الصد عن دين الله الحق، والإعراض عن هدي الكتاب والسنة، وكلاهما ممّا جاءنا من كفرة الغرب_ أساساً_ مع فسادهما في أنفسهما .

واستمع لشيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ وهو يقول مزلزلاً:

[قال تعالى: { ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً }، وقال تعالى: { ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا } .

فذمّ الذين أوتوا قسطاً من الكتاب لمّا آمنوا بما خرج عن الرسالة، وفَضّلوا الخارجين عن الرسالة على المؤمنين بها كما يفعل ذلك بعض من يُفضل الصابئة من الفلاسفة، **والدول الجاهلية_ جاهلية الترك، والديلم، والعرب، والفرس، وغيرهم_ على المؤمنين بالله وكتابه ورسوله** كما ذمّ المدّعين الإيمان بالكتب كلها وهم يَتركون التحاكم إلى الكتاب، والسنة ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعى الاسلام وينتحله فى تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم **أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الاسلام من ملوك الترك، وغيرهم .**

وإذا قيل لهم: تعالوا إلى كتاب الله، وسنة رسوله: أعرضوا عن ذلك إعراضاً، وإذا أصابتهم مصيبة فى عقولهم، ودينهم، ودنياهم بالشبهات، والشهوات أو فى نفوسهم، وأموالهم عقوبةً على نفاقهم، قالوا: إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق، **ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقلية** التى هي فى الحقيقة ظنون وشبهات أو الذوقية التى هى فى الحقيقة أوهام وخيالات { أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً_ إلى قوله_ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا ممّا قضيت ويسلموا تسليماً }][(٢)] .

ـــ ولعمري إن نسبة هذا المأخوذ عن كفرة الغرب، والشرق إلى " العلم ": كنسبة الكفر إلى الإيمان، فما هو إلا ظنون وأخيلة، وما كان فيه من خير مع قلته: ففي الكتاب والسنة: أضعافه مع صفاء ونقاء، أما غالبه: فمحاداة لشرع الله، وصدٌ عن سبيله، واستبدال ظاهر للكتاب والسنة، والأمر كما قال ابن القيم_ رحمه الله_:

ما عندهم والله خير غير ما أخذوه عمّـــن جاء بالقرآن

---

(١) " أبجد العلوم١/٣٥٩: ٣٦٠ " .

(٢) " الفتاوى١٢/٣٣٩: ٣٤٠ " .

والكل بعد: فبدعة أو فرية   أو بحث تشكيك ورأي فلان[1]

ولا والله ما كان المسلمون ألبته في حاجة لما يسوسون به دنياهم بما يحقق لهم خير الدين والدنيا بشيء خارج عن الكتاب والسنة وهم من أقام أعظم مملكة عرفها تاريخ البشر قاطبة: سياسةً، ونظاماً، وحكماً، وعدلاً، وكيف للمسلمين أن يستبدلوا بالكتاب والسنة غيرهما هنا: وهما ما أنْزلا أصلاً إلا لسياسة الدنيا بشرع الله المُطهَّر ؟!!!.

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة، وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل، وكل ذلك تقسيم باطل بل السياسة، والحقيقة، والطريقة، والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح، وفاسد، فالصحيح: قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها، والباطل: ضدها، ومنافيها، وهذا الأصل من أهم الأصول، وأنفعها، وهو مبنى على حرف واحد، وهو: عموم رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى كل ما يحتاج اليه العباد في معارفهم، وعلومهم، وأعمالهم، وأنه لم يُحوج أمته إلى أحد بعده][2] .

والمراد بقولنا: (لا سياسة إلا ما وافق الشرع، أي: لم يخالف ما نطق به الشرع)[3] .

(ولا نقول: إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة بل هي جزء من أجزائها، وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة: أمر اصطلاحي وإلا فإذا كانت عدلاً: فهى من الشرع)[4] .

(وإنما يُعرف العدل من الظلم بالشرع، فليكن دين الله، وشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو المفزع، والمرجع في كل ورد، وصدر)[5] .

قال في " مفتاح السعادة ": [وأما الذين يقولون: لا بد للشرع من انضمام السياسة: فهذا خطأ الجهلة، والعوام إذ الشرع لا يحتاج إلى غيره، ومضمون قولهم هذا: أن الشرع لم يَرِد بما يكفي في السياسة، فاحتجنا إلى تتمة من آرائنا ...

وهذا اتعاط على الشريعة بما يشبه المراغمة به، أولئك الذين ينتصف الله منهم في الدنيا، والآخرة، قاتلهم الله، وخذلهم .

وكيف يحتاج الشرع إلى السياسة والأنبياء تَكمل بهم أمورُ الدارين، وما يصلح به البشر كلياً: علمياً، وعملياً، وذوقياً، وكشفياً، وشهوداً سيما ولا أكمل، ولا أفضل ممّا نطق به خير البشر، وأشار إليه سيد الأنبياء حتى لو اجتمع عقول العقلاء، وفهوم الحكماء، والأصفياء: لم يقدروا المزيد عليها ولو بجزء من ألف ألف جزء من

---

(١) " شرح النونية١/١٢٩ " .

(٢) " إعلام الموقعين لابن القيم٤/٣٧٥ " .

(٣) " إعلام الموقعين٤/٣٧٢ " .

(٤) " إعلام الموقعين لابن القيم٤/٣٧٢: ٣٧٣ " .

(٥) " فضائح الباطنية للغزالي/٢٠٥ " .

ذرة صغيرة !](١) .

ــ وإنما أعرض مَنْ أعرض عن الكتاب والسنة هنا: فتنة بهذه الجهالات أولاً ثم جهلاً بالكتاب والسنة وما فيهما من خيرٍ، وهدىً، ورشاد ثانياً، ومَنْ جهل شيئاً: عاداه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل أو عجز أو غرض فاسد](٢) .

و(قد قيل: جميع العلم في القرآن لكن   تقاصر عنه أفهام الرجال)(٣) .

قلت: وقد جاء عن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " من أراد العلم: فليقرأ القرآن فإن فيه علم الأولين، والآخرين "(٤) .

وقد أحسن القائل:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة   إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا   وما سواه فوسواس الشــياطين

فــ(العلماء إذا أقاموا كتب الله، وفقهوا ما فيه من البينات التي هي حجج الله، وما فيه من الهدى الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، وأقاموا حكمة الله التي بَعث اللهُ بها رسوله صلى الله عليه وسلم وهي سنته: لوجدوا فيها من أنواع العلوم النافعة ما يُحيط بعلم عامة الناس، ولمَيّزوا حينئذ بين المحق، والمبطل من جميع الخلق بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة حيث يقول عز وجل: { وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس } .

ولاستغنوا بذلك عمّا ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينــصرون بهــا أصــل الدين، ومن الرأي الفاسد الذي يزعم القياسيون أنهم يتمون به فروع الدين)(٥) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [لكن المقصود أن يُعرف أن الصحابة خير القرون وأفضل الخلق بعد الأنبياء: فما ظهر فيمن بعدهم ممّا يُظن أنها فضيلة للمتأخرين ولم تكن فيهم: فإنها من الشيطان وهي نقيصة لا فضيلة سواء كانت من جنس العلوم أو من جنس العبادات أو من جنس الخوارق والآيات **أو من جنس السياسة والملك** بل خير الناس بعدهم: أتْبَعهم لهم](٦) .

---

(١) " مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده١/٣٨٢ " .

(٢) " الفتاوى١١/٦٢٥ " .

(٣) " أبجد العلوم٢/٨ " .

(٤) " مصنف ابن أبي شيبة٦/١٢٦ " .

(٥) " اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية/٢٨١ " .

(٦) " الفتاوى٢٧/٣٩٠ " .

وقال_ رحمه الله_ كذلك_: [شريعة الإسلام ومعرفتها: ليست موقوفة على شيء يُتعلم من غير المسلمين أصلاً **وإن كان طريقاً صحيحاً**][(١)] .

وتأمّل قوله: " وإن كان طريقاً صحيحاً ": فكيف بالطرق الفاسدة، الباطلة الممتلئة بالفسق، والظلم، والبدعة بل والكفر البواح .

تنزيل رب العالمين ووحيه مع فطرة الرحمن والبرهان
أنى يعارضها كناسة هذه الأذهان بالشبهات والهذيان
وجعاجع وفراقع ما تحتها إلا الســراب لوارد ظمآن[(٢)]

* وعن ابن عمر_ رضي الله عنه_، قال: " العلم ثلاثة أشياء: كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدري "[(٣)] .

* وقال قتادة_ رحمه الله_ في قوله تعالى: { ويرى الذين **أوتوا العلم** الذي أنزل إليك من ربك هو الحق }، قال: " أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم "[(٤)] .

* وقال الإمام الأوزاعي_ رحمه الله_: " العلم: ما جاء عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وما لم يجيء عن واحد منهم: فليس بعلم "[(٥)] .

* وعن الإمام العلم سفيان الثوري_ رحمه الله_، قال: " إنما العلم: بالآثار "[(٦)] .

* وقال الإمام الشافعي_ رحمه الله_: " ليس لأحد أن يقول في شيء: حلال أو حرام إلا من جهة العلم، **وجهة العلم:** ما نص في الكتاب أو في السنة أو في الإجماع أو في القياس على هذه الأصول ما في معناها"[(٧)] .

ـــــ فــ" العلم ": هو الكتاب، والسنة، والآثار، وما يقوم عليها قياماً صحيحاً، أما الرأي المجرد: فليس بعلمٍ ألبتة، ورحم الله مصعب الزبيري في قوله:

---

(١) " الفتاوى٩/٢١٥ " .

(٢) " شرح النونية٢/٢٢ " .

(٣) " المعجم الأوسط١/٢٩٩ " من طريق نافع عن ابن عمر، وانظر: " المجمع١/١٧٢ "، وهو في "الإحكام لابن حزم٨/٥٠٩ " من طريق طاوس عن ابن عمر، وأخرجه في " جامع بيان العلم٢/٢٤ " من الطريقين .

(٤) " جامع بيان العلم٢/٢٩ " .

(٥) " جامع بيان العلم٢/٢٩ " .

(٦) " الحلية٦/٣٦٧ " .

(٧) " جامع بيان العلم٢/٢٦ " .

فأثرك ما علمتُ لرأي غيري **وليس الرأي كالعلم اليقين**[(١)]

وقد قيل_ كذلك_، ونعم ما قيل:

ديـــن النبي محـــمد أخبار نـــعم المطية للفـــتى آثار

لا تعدلن عن الحديث وأهله فالرأي ليل والحديث نهار[(٢)]

قال ابن عبد البر_ رحمه الله_: [لا أعلم بين متقدمي علماء هذه الأمة، وسلفها خلافاً أن الرأي: **ليس بعلم حقيقة**، وأفضل ما روي عنهم في الرأي أنهم قالوا: نعم **وزير العلم**: الرأي الحسن][(٣)] .

قال ابن رجب_ رحمه الله_: [ومن ذلك_ أعني محدثات العلوم_: ما أحدثه فقهاء أهل الرأي من ضوابط وقواعد عقلية، وردّ فروع الفقه إليها سواء أخالفت السنة أم وافقتها طرداً لتلك القواعد المقررة وإن كان أصلها ممّا تأوّلوه على نصوص الكتاب والسنة لكن بتأويلات يخالفهم غيرهم فيها .

وهذا هو الذي أنكره أئمة الإسلام على من أنكروه من فقهاء أهل الرأي بالحجاز والعراق، وبالغوا في ذمّه وإنكاره][(٤)] .

ــــ وقد ذكر ابن القيم أن أكثر الناس متخبطون، غالطون في مسمى العلم وماهيته، فقال_ رحمه الله_ وكأنه يصف حال الناس اليوم إلا من رحم:

[**فائدة عظيمة:** أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة فى الدنيا والآخرة: هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه فى قوله: { وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث }، وقوله: { يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}، وهؤلاء: هم خلاصة الوجود، ولبه، والمؤهلون للمراتب العالية .

ولكن أكثر الناس: غالطون فى حقيقة مسمى العلم، والايمان اللذين بهما السعادة، والرفعة، وفى حقيقتهما حتي أن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والإيمان: هو هذا الذي به تنال السعادة .

وليس كذلك بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي، ولا علم يرفع بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان اللذين جاء بهما الرسول صلى الله عليه وسلم، ودعا إليهما الأمة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده، وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم .

فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها، وفرحت، وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، وأكثر ما عندهم: كلام، وآراء، وخرص، والعلم: وراء الكلام كما قال حماد بن زيد: قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو

(١) " جامع بيان العلم٢/٢٦، ٩٤ " .

(٢) " مفتاح الجنة/٦٦ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/١٤٩ " .

(٣) "جامع بيان العلم٢/٣٣ " .

(٤) " بيان فضل علم السلف على علم الخلف/٥٧ " .

فيما تقدم ؟

فقال: الكلام اليوم أكثر، والعلم: فيما تقدم أكثر .

ففرق هذا الراسخ بين العلم، والكلام، فالكتب: كثيرة جداً، والكلام، والجدال، والمقدرات الذهنية: كثيرة، والعلم: بمعزل عن أكثرها، وهو: ما جاء به الرسول عن الله، قال تعالى: { فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم }، وقال: { ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم }، وقال فى القرآن: { أنزله بعلمه}، أى: وفيه علمه .

ولمّا بعد العهد بهذا العلم: آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الافكار، وسوانح الخواطر، والآراء: علماً، ووضعوا فيها الكتب، وأنفقوا فيها الأنفاس: فضيعوا فيها الزمان، وملأوا بها الصحف مداداً، والقلوب سواداً حتى صرّح كثير منهم: أنه ليس فى القرآن، والسنة: علم، وأن أدلتهما لفظية لا تفيد يقيناً، ولا علماً، وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم، وأذّن بها بين أظهرهم حتي أسمعها دانيهم لقاصيهم: فانسلخت بها القلوب من العلم، والإيمان كانسلاخ الحية من قشرها والثوب عن لابسه .

ولقد أخبرني بعض أصحابنا عن بعض أتباع أتباع تلاميذ هؤلاء: أنه رآه يشتغل في بعض كتبهم ولم يحفظ القرآن؛ فقال له: لو حفظتَ القرآن أولاً: كان أولي، فقال: وهل فى القرآن علم ؟! .

وقال لي بعض أئمة هؤلاء: إنما نسمع الحديث لأجل البركة لا لنستفيد منه العلم لأن غيرنا قد كفانا هذه المؤونة؛ فعمدتنا على ما فهموه وقرروه .

ولا شك أن من كان هذا مبلغه من العلم: فهو كما قال القائل:

نزلوا بمكة فى قبائل هاشم　　　　ونزلت بالبطحاء أبعد منزل

وقال لي شيخنا مرة فى وصف هؤلاء: إنهم طافوا على أرباب المذاهب: ففازوا بأخس المطالب، ويكفيك للتسليم على أن هذا الذى عندهم ليس من عند الله: ما ترى فيه من التنقاض، والاختلاف، ومصادمة بعضه لبعض؛ قال تعالي: { ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً }، وهذا يدل على أن ما كان من عنده سبحانه: لا يختلف، وأن ما اختلف، وتناقض: فليس من عنده، وكيف تكون الآراء، والخيالات، وسوانح الافكار: ديناً يدان به، ويحكم به على الله ورسوله؛ سبحانك هذا بهتان عظيم .

وقد كان علم الصحابة الذى يتذاكرون فيه غير علوم هؤلاء المختلفين الخراصين كما حكى الحاكم فى ترجمة أبى عبد الله البخارى، قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا: إنما يتذاكرون كتاب ربهم، وسنة نبيهم ليس بينهم: رأي، ولا قياس][(١)] .

ـــ قال مقيّده_ عفا الله عنه_: وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يتقارب الزمان، وينقص العلم، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج .

قيل: يا رسول الله : أيْمَ هو ؟ .

---

(١) " الفوائد لابن القيم/١٠٣: ١٠٥ " .

قال : القتل، القتل "[١] .

فأخبر صلوات ربي وسلامه عليه بأن العلم المُنزّل: ينقص مع مرور الزمن، فدل على أن ما يتداوله الناس من الكلام، والرأي، والذي هو في زيادة: شيءٌ آخر يختلف في حقيقته عن هذا العلم المنزل .

قال ابن حبان_ رحمه الله_:

[هذا الخبر كالدليل على أن ما لم ينقص من العلم: ليس بعلم الدين في الحقيقة إذ أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم أن العلم ينقص عند تقارب الزمان، وفيه دليل على أن ضد العلم: يزيد، وكل شيء زاد ممّا لم يكن مرجعه إلى الكتاب والسنة: فهو ضد العلم][٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [لكن جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه في تلقي العلم **الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم**، فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علماً، وما سواه: إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً، وإما أن لا يكون علماً وإن سمي به، ولئن كان علماً نافعاً: فلا بد أن يكون من ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ما يغنى عنه ممّا هو مثله، وخير منه، ولتكن همته فهمَ مقاصد الرسول في أمره، ونهيه، وسائر كلامه، فإذا اطمأنَّ قلبه أن هذا هو مراد الرسول: فلا يعدل عنه][٣] .

وقال_ رحمه الله_ كذلك_: [العلم المشروع، والنسك المشروع: مأخوذ عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأمّا ماجاء عمن بعدهم: فلا ينبغي أن يجعل أصلاً، وإن كان صاحبه معذوراً بل مأجوراً لاجتهاد أو تقليد .

فمن بنى الكلام في العلم_ الأصول، والفروع_ على الكتاب، والسنة، والآثار المأثورة عن السابقين: فقد أصاب طريق النبوة، وكذلك من بنى الإرادة، والعبادة، والعمل، والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية، والأعمال البدنية على الإيمان، والسنة، والهدي الذي كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه: فقد أصاب طريق النبوة، وهذه طريق أئمة الهدى][٤] .

ومن قيم كلام ابن القيم_ رحمه الله_ قوله: [ولما كان كمال الإرادة: بحسب كمال مرادها، وشرف العلم: تابع لشرف معلومه: كانت نهاية سعادة العبد الذي لا سعادة له بدونها، ولا حياة له إلا بها: أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت، وعزمات هِمته: مسافرة إلى حضرة الحي الذي لا يموت، ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى والحظ الأوفى: **إلا بالعلم الموروث عن عبده، ورسوله، وخليله، وحبيبه الذي بعثه لذلك داعياً، وأقامه على هذا الطريق هادياً، وجعله واسطة بينه وبين الأنام، وداعياً له بإذنه إلى دار السلام، وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه، أو يقبل من أحد منهم سبباً إلا أن يكون مبتدأ منه، ومنتهياً**

---

(١) " البخاري٦/٢٥٩٠ "، " مسلم٤/٢٠٥٧ " عن ابي هريرة_ رضي الله عنه_ .

(٢) " المجروحين لابن حبان/١٢ " .

(٣) " الفتاوى١٠/٦٦٤ " .

(٤) " الفتاوى١٠/٣٦٢: ٣٦٤ " .

إليه .

فالطرق كلها إلا طريقه صلى الله عليه وسلم: مسدودة، والقلوب بأسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة إليه عن الله: محبوسة، مصدودة](1) .

ـــــ ثانياً: فضل هذا العلم .

ـــــ وهذا العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم: هو العلم الممدوح بإطلاق، وهو الذي وردت الأدلة ببيان فضله، وفضل أهله، وهو العلم الموصوفة به الطائفة المنصورة لا غيره .

* وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا العلم بأنه روح ونور كما مر معنا من قوله تعالى: { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم } [الشورى: ٥٢] .

وإنما كان هذا العلم روحاً ونوراً: لأنه يُحيي القلوب الميتة، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور .

* قال تعالى: { أوَ مَن كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مَثَلُه في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون } [الأنعام: ١٢٢].

وكلما زاد نصيب العبد من هذا العلم: زاد نصيبه من الروح، والنور، وبضد ذلك: الجهل؛ فأهله في ظلماته يتخبطون:

* قال تعالى: { أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق: كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولوا الألباب }

[الرعد: ١٩] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [إنه سبحانه جعل أهل الجهل: بمنزلة العميان الذين لايُبصرون، فقال: { أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى }، فما ثَمَّ إلا: عالم أو أعمى، وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم: صم، بكم، عمي في غير موضع من كتابه](2).

فالتسوية منتفية بين الفريقين لا محالة، وأنى للجهل أن يُساوى بالعلم والفرق بينهما مركوز في الفطر والطباع كالفرق بين البياض والسواد بل أشد

* قال تعالى: { قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولوا الألباب } [الزمر: ٩] .

---

(١) " مفتاح دار السعادة١/٤٦ " .

(٢) " مفتاح دار السعادة/٤٩ " .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [إنه سبحانه نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فقال تعالى:{ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة }، وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم][(١)] .

بل العلم لا يساويه شئ مطلقاً، وكيف يُساوى شئ بالعلم وقد استشهد الله بأهل العلم دون سواهم، واستشهد بهم على أجل مشهود عليه: توحيده سبحانه وتعالى بل وقرن شهادتهم بشهادته سبحانه، وشهادة ملائكته .

* قال الله تعالى: { شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} [آل عمران: ١٨] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [استشهد سبحانه بأولى العلم على أجلّ مشهود عليه، وهو: توحيده، فقال: { شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط}، وهذا يدل علي فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر، والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته، والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته، والرابع: أن في ضِمن هذا: تزكيتهم، وتعديلهم فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم: " يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدوله: ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين " ...

إلى أن قال_ رحمه الله_: السادس: أنه سبحانه استشهد بنفسه_ وهو: أجَلّ شاهد_ ثم بخيار خلقه، وهم: ملائكته، والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً][(٢)] .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [في هذه الآية: دليل على فضل العلم، وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء: لقرنهم الله باسمه، واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء][(٣)] .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم: " من سلك طريقاً يطلب فيه علماً: سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما وَرَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر"(٤) .

* وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ مرفوعاً: " ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً: سهل الله له به طريقاً إلى

---

(١) " مفتاح دار السعادة١/٤٩ " .

(٢) " مفتاح دار السعادة١/٤٨: ٤٩ " .

(٣) " تفسير القرطبي٤/٤١ " .

(٤) صحيح: " أبو داود٣/٣١٧ "، " الترمذي٥/٤٨ "، " ابن ماجه١/٨١ "، " أحمد٥/١٩٦ "، "الدارمي١/١١٠ "، "ابن حبان١/٢٨٩ "، وغيرهم عن أبي الدرداء_ رضي الله عنه_، وانظر: "الترغيب١/٥٢ " .

الجنة " الحديث[1] .

ــ فالعلم: ميراث النبوة، وأهله: ورثة الأنبياء في تبليغ الدين بالعلم، والقيام بحقه، فلا غرو أن يكون طلب العلم: من الطرق الموصلة إلى الجنة، وأن يكون العلم: مفتاح دار السعادة .

قال ابن القيم_ رحمه الله_ عن العلم وفضله: [هو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله: عصبتهم وورّاثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال، والأعمال، والأحوال، وهو الحاكم المفرّق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال](٢) .

وقال_ كذلك_ رحمه الله_: [وهو حجة الله في أرضه بين عباده، وقائدهم، ودليلهم إلى جنته، ومُدنيهم من كرامته](٣) .

---

(١) " البخاري١/٣٧ "، " مسلم٤/٢٠٧٤ " عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ .

(٢) " مدارج السالكين٢/٤٦٩ " .

(٣) " المرجع السابق ٢/٤٧٠ " .

الفصل الثاني

العلم وصفات الطائفة المنصورة

كون العلم المنزل من السماء إلى الأرض من صفات الطائفة المنصورة: أمرٌ ظاهر، بدهي، وهو مقرر من وجوه:

ـــ أولاً:

أن النبي صلى الله عليه وسلم_ كما مر معنا_ شهد لهذه الطائفة ووصفها بأنها: " على الحق "، ومن لازم ذلك ومقتضاه الظاهر: العلم إذ العلم: رائد الحق ودليله، فلا حق بغير علم، وهيهات، فالحق هو العلم بل العلم هو الحق .

* قال الله تعالى: { وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم، وكان فضلُ الله عليك عظيما } [النساء: ١١٣] .

* وقال تعالى: { فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم } [آل عمران: ٦١] .

فبين المولى سبحانه وتعالى: أنه أنزل على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم وآتاه: العلم ثم بين تعالى أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وأُرسلَ: هو الحق المنزل من عنده سبحانه، فقال تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ **بِالْحَقِّ** بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ } [البقرة: ١١٩] .

* وقال تعالى: { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ **الْحَقُّ** مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } [محمد: ٢_٣] .

فدل هذا على أن العلم المنزل: هو الحق المنزل، ولله الفضل والمنة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ـــ ثانياً:

أن المهام التي اضطلعت هذه الطائفة بالقيام بها، والتي أجملها لنا الشارع في قوله حال وصفه لهذه الطائفة: "قائمة بأمر الله ": هذه المهام العظيمة، والواجبات الجسيمة_ والتي ترجع إلى القيام بأمر الدين_: لا بد لها من علم يضبط ويوجّه، ويصحح ويرشد وإلا كانت هذه الطائفة تفسد أكثر ممّا تصلح ممّا ينافي وصفها بأنها "على الحق " .

بل انتفاء صفة العلم: ينفي عنها كونها " قائمة بأمر الله " إذ هذه القوامة بأمر الله_ الذي هو دينه وشرعه_ حقيقتها_ إجمالاً_: العلم والعمل، ومن ثم: فالعلم هو ركن هذه القوامة وجزء ماهيتها بل هو الركن الأعظم والأساس_ حال كونه نافعاً_، ومن ثم: فلا قوامة بغير علم .

* قال الله تعالى { اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين } .

وأجمع وأقوم ما قيل في وصف الصراط المستقيم: أنه الجمع بين العلم، والعمل، وهذا ما يناسب تحذيره تعالى بعد ذلك من المغضوب عليهم، والضالّين إذ المغضوب عليهم: مَنْ عَلمَ ولم يعمل_ ورأسهم: اليهود_، والضالّون: مَنْ عمل بغير علم_ ورأسهم: النصارى_، وقد سبق معنا بيان ذلك .

ولذا:(كان السلف يرون أن من انحرف من العلماء عن الصراط المستقيم: ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العباد: ففيه شبه من النصارى .

كما يُرى فى أحوال منحرفة أهل العلم من: تحريف الكلم عن مواضعه، وقسوة القلوب، والبخل بالعلم، والكبر، وأمر الناس بالبر ونسيان أنفسهم، وغير ذلك .

وكما يرى في منحرفة أهل العبادة والأحوال من: الغلو في الأنبياء والصالحين، والابتداع في العبادات من: الرهبانية، والصور، والأصوات ...)(١) .

ـــ ثالثاً:

أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف هذه الطائفة بالظهور والنصر، والظهور والنصر على نوعين: بالحجة والبرهان، وبالسيف والسنان، وكلاهما: العلم من أسبابه الشرعية، ومن مقومات وجوده .

* قال الله تعالى: { إن تنصروا الله: ينصركم } .

ونصر الله لا يكون إلا باتباع أمره_ فعلاً وتركاً_، ومن المعلوم أن الاتباع الحق: فرع العلم الحق، إذاً: فلا نصر بغير علم .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [والله سبحانه إنما ضمن نصر دينه، وحزبه، وأوليائه القائمين بدينه: علماً، وعملاً لم يضمن نصرة الباطل ولو اعتقد صاحبه أنه محق، وكذلك العزة والعُلُوّ إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو: علم، وعمل، وحال، قال تعالى: { وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}.

فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان، وقال تعالى: { ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين }، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه فإذا فاته حظ من العلو والعزة ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان: علماً وعملاً، ظاهراً وباطناً](٢) .

ـــ رابعاً:

أن العلم قبل القول والعمل، وهذا من أعظم الأصول المنهجية عند أهل السنة والجماعة الذين هم أصل الطائفة المنصورة بل الطائفة المنصورة خيرة أهل السنة وصفوتهم .

* قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من عَمِل عملاً ليس عليه أمرنا: فهو رَد "(٣) .

وهذا الحديث رواه البخاري معلقاً في كتاب الاعتصام من صحيحه، فقال_ رحمه الله_: [باب إذا اجتهد العامِل أو الحاكم فأخطأ خِلاف الرسول من غير علم: فحكمه مردود، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " من عَمِل عملاً ليس عليه أمرنا: فهو رد "](٤) .

---

(١) " فتاوى ابن تيمية١/٦٥ " .

(٢) " إغاثة اللهفان٢/١٨١ " .

(٣) " مسلم٣/١٣٤٣ " عن عائشة_ رضى الله عنها_ .

(٤) " البخاري٦/٢٦٧٥ " .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [هذا الحديث معدود من أصول الإسلام، وقاعدة من قواعده][(١)] .

وإنما كان لهذا الحديث هذه المكانة العظيمة لأنه أصل في وجوب الاتباع كما أنه أصل_ كذلك_ في فساد الابتداع إذ الحديث نص في بطلان كل عمل مخالف للدليل الشرعي، ومن ثم: وجب معرفة حكم الشريعة في كل عمل قبل الشروع فيه .

وإذا وجب معرفة حكم الشريعة في كل عمل قبل الشروع فيه: دل هذا على وجوب العلم قبل العمل، لكونه_أي: العلم_ شرطاً في صحته[(٢)] .

ــ خامساً:

أن الأحاديث الواردة في وصف الطائفة المنصورة، والحديث عنها: نصت على أن العلم من صفات هذه الطائفة:

* فمن حديث معاوية_ رضى الله عنه_، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين، وإنما أنا قاسمٌ والله يُعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله "[(٣)] .

* ورواه مسلم بلفظ: " من يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة "[(٤)] .

فقوله صلى الله عليه وسلم: " ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله " في رواية البخاري .

وفي رواية مسلم: " ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة " .

بعد قوله صلى الله عليه وسلم: " من يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ": يدل على أن العلم صفة ملازمة لهذه الطائفة القائمة على أمر الله، المقاتلة على الحق .

قال القرطبي _ رحمه الله _ بعد أن ذكر هذا الحديث بلفظ مسلم:

[وظاهر هذا المساق أن أوله: مرتبط بآخره ، والله أعلم][(٥)] .

ــ ولذلك اسْتُدِلَ بهذا الحديث على أن الفقهاء حملة العلم العاملين به لن يزالوا في هذه الأمة، وأن الزمان لا

---

(١) " فتح البارى٥/٣٠٢ " .

(٢) سيأتي_ إن شاء الله_ مزيد بيان لهذه المسألة الهامة .

(٣) " البخاري١/٣٩، ٣/١١٣٤ " .

(٤) " مسلم٣/١٥٢٤ " .

(٥) " تفسير القرطبي٨/٢٩٧ " .

يخلو عن مجتهد، وأن الاجتهاد في الدين لا ينقطع حتى يأتي أمر الله .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_ عن حديث معاوية_ رضي الله عنه_ السابق:

[قد أورده المؤلف في " الاعتصام " لالتفاته إلى مسألة عدم خلو الزمان عن مجتهد][١] .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في شرح حديث الطائفة المنصورة: [واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع مادامت هذه الطائفة موجودة][٢] .

وقال السيوطي_ رحمه الله_: [" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق "، قال البخاري: هم أهل العلم، أي: المجتهدون، فلا يخلو الزمان من مجتهد حتى تأتي أشراط الساعة الكبرى، والطائفة: تطلق لغة على الواحد فصاعداً][٣] .

وهذا يستلزم_ بلا شك _ بقاء العلماء العاملين .

قال علي بن أبي طالب_ رضي الله عنه_: " لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة "[٤].

والقائمون بالحجة هم بلا ريب: العلماء العاملون .

ــ سادساً:

أن الجهل_ وهو نقيض العلم _: مجمع الفتن والآثام والشرور وأساسها، فكما أن العلم: أساس كل خير، فالجهل: أساس كل شر .

وقد قرن الله تعالى في كتابه كل شر: بالجهل، فقرن به: المعاصي، والشرك، والكفر، والنفاق، والإعراض عن الحق، والضلال، وغير ذلك من كل شر وفساد[٥].

قال ابن القيم_ رحمه الله_:

[فما خراب العالم إلا بالجهل، وَ لا عمارته إلا بالعلم، وَإذا ظهر العلم في بلد أو محلة: قلّ الشر في أهلها، وَإذا خفي العلم هناك: ظهر الشر وَالفساد، ومَنْ لم يعرف هذا: فهو ممن لم يجعل الله له نوراً .

قال الإمام أحمد: ولولا العلم كان الناس كالبهائم، وَقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاثا، والعلم يحتاج إليه كل وَقت][٦] .

---

(١) " فتح البارى١/ ١٦٤ "، وانظر: " الفتح١٣/٢٨٦ " .

(٢) " فتح المجيد/٢٧٧ " .

(٣) " الديباج٤/٥١١ " .

(٤) " إعلام الموقعين٤/١٥٠ "، " الفقيه والمتفقه١/٥٠ " .

(٥) سيأتي_ إن شاء الله_ الكلام عن " الجهل "، وأثره بصورة مستقلة في الفصل الختامي من هذه الرسالة.

(٦) " إعلام الموقعين٢/٢٣٧: ٢٣٨ " .

ولما كان " الجهل " بهذا الحال، وهذه المنزلة: كان اجتماعه ووصف: " الحق " ، و" القيام بأمر الله ": من المحال: شرعاً، وعقلاً، وطبعاً، وهذا من الوضوح بالمحل الأعلى ممّا يقطع بنفي الجهل عن الطائفة المنصورة، وإذا انتفى الجهل: ثبت العلم .

ـــــ هذا؛ وقد نص السلف على أن العلم من ألزم صفات الطائفة المنصورة:

* قال الإمام الكبير عبد الله بن المبارك_ رحمه الله_ في بيان الطائفة المنصورة:

" هم عندي أصحاب الحديث "(١) .

* وقال يزيد بن هارون_ رحمه الله_: " إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم ؟! "(٢) .

* وسئل الإمام أحمد عن هذه الطائفة المنصورة، فقال: " إن لم تكن أهل الحديث فلا أدري من هي ؟ "(٣) .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [أخرج الحاكم في علوم الحديث بسند صحيح عن أحمد: " إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم ؟ "](٤) .

* وقال الترمذي: قال محمد بن إسماعيل: قال علي بن المديني_ رحمه الله_: " هم أصحاب الحديث "(٥) .

* وقال الإمام البخاري_ رحمه الله_ : [باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق "، وهم: أهل العلم](٦) .

* وقال أحمد بن سنان الثقة الحافظ_ رحمه الله_: " هم أهل العلم، وأصحاب الآثار "(٧) .

ـــــ لطيفة:

قال القرطبي_ رحمه الله_:

---

(١) " شرف أصحاب الحديث للخطيب/٢٦ " .

(٢) " المرجع السابق " .

(٣) " معرفة علوم الحديث/٢ "، " شرف أصحاب الحديث/٢٥، ٢٧ " .

(٤) " فتح الباري ٣٥٩/١٣ " .

(٥) " سنن الترمذي٤٨٥/٤ "، " شرف أصحاب الحديث/٢٧ " .

(٦) " صحيح البخاري٢٦٦٧/٦ " .

(٧) " شرف أصحاب الحديث/٢٧ " .

[سمعت شيخنا الأستاذ المقرئ النحوي المحدث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي المعروف بابن أبي حجة_ رحمه الله_ يقول في تأويل قوله عليه السلام: { لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة }(1):

إنهم العلماء، قال: وذلك أن الغرب لفظ مشترك يطلق على الدلو الكبيرة، وعلى مغرب الشمس، ويطلق على فيضة من الدمع، فمعنى " لا يزال أهل الغرب " أي: لا يزال أهل فيض الدمع من خشية الله عن علم به وبأحكامه: ظاهرين؛ الحديث .

قال الله تعالى: { إنما يخشى الله من عباده العلماء } [فاطر: ٢٨] .

قلت: وهذا التأويل يعضده قوله عليه السلام في صحيح مسلم:

" من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة " .

وظاهر هذا المساق أن أوله مرتبط بآخره، والله أعلم](2) .

الفصل الثالث

مفهوم العلم وحقيقته عند الطائفة المنصورة

---

(1) " مسلم١٥٢٥/٣ " .

(2) " تفسير القرطبي٢٩٧/٨ " .

ذكرنا من قبل أن العلم الذي هو من صفات الطائفة المنصورة: هو العلم المُنَزَّل من السماء إلى الأرض، المُوحى من الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم، ومن ثم: فهو أشرف من أن يَسومه كلُ مفلس أو أن يُتاجر به أو أن يَتلاعب به كلُ جبار عنيد أو أن يكون كمّاً مهملاً أو حبيس الصدور والجدران .

كيف ؟!!!، وهو أثمن درة في تاج الشرع المطهر .

كيف ؟!!!، وهو مِنّة الله على أشرف خلقه: أنبيائه ورسله، وعلى أتباعهم من عباد الله المؤمنين .

* قال الله تعالى: { وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً } [النساء: ١١٣] .

فامتنَّ الله تعالى على خير خلقه، وخير أنبيائه ورسله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بنعمة العلم .

وكما امتن الله سبحانه وتعالى على محمد صلى الله عليه وسلم بنعمة العلم: كذلك امتنَّ علي سائر الأنبياء:

* فقال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: { يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا } [مريم: ٤] .

* وقال تعالى في حق يعقوب عليه السلام: { وإنه لذو علم لما علَّمناه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون } [يوسف: ٦٨] .

* وقال تعالى في حق يوسف عليه السلام: { وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث }[يوسف: ٦].

* وقال تعالى في حق داود عليه السلام: { وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه ممّا يشاء } [البقرة: ٢٥١] .

* وقال تعالى عن سليمان عليه السلام: { وَوَرِثَ سليمان داود، وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين } [النمل: ١٦] .

* وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: { إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوارة والإنجيل }

[المائدة: ١١٠] .

ــ وكما امتنَّ الله تعالى على أنبيائه ورسله بنعمة العلم: فكذلك امتنَّ على عباده المؤمنين: أتباع الأنبياء والرسل عليهم السلام، فقال تعالى: { ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون } [البقرة: ١٥٠_ ١٥١] .

* وقال تعالى: { لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } [آل عمران: ١٦٤] .

ــ فهذا العلم الذي يمتنّ الله تعالى به على خير خلقه وصفوتهم: هو العلم الشريف؛ الشريف في مادته ومعناه، الشريف في قلبه وقالبه، الشريف في شكله ومضمونه، وإنما يكون كذلك: حين يكون واقعاً حياً ملموساً، يراه الناس، ويحسون به، وهكذا أراده من أنزله من السماء إلى الأرض .

فالعلم الشريف، الوارد فضلُه، الممدوح أهلُه، الموصوفُة به الطائفة المنصورة: هو العلم النافع، ولا يكون نافعاً إلا إذا كان العمل صاحبه وقرينه .

فــ(المراد بالعلم في هذه الأخبار: النافع، المُخمد للهوى القامع، الذي تكتنفه الخشية، ويكون معه الخوف والإنابة أما علم معه الرغبة في الدنيا، والتملق لأبنائها، وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع في الادخار، والمباهاة، والاستكثار، وطول الأمل: فما أبعده من ذلك)(١) .

قال الشاطبي_ رحمه الله_:

[العلم وسيلة من الوسائل، ليس مقصوداً لنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل، وكل ما ورد في فضل العلم **فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلَّف بالعمل به**](٢) .

* وقد قال الإمام سفيان الثوري_ رحمه الله_: " إنما يُتعلم العلم ليُتقى به الله، وإنما فُضِّل العلم على غيره لأنه يُتقى به الله "(٣) .

* وقد قال تعالى لأشرف خلقه صلوات ربي وسلامه عليه: { فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا، إنه بما تعملون بصير } [هود: ١١٢] .

فالعبد مأمور بالاستقامة بقدر ما تواردت عليه حجج الشرع وأوامره، ولأهل العلم من ذلك النصيب الأوفر، ولذا: كانوا أحق الناس بالاستقامة على أمر الله، وهم في ذلك: تبعاً لصاحب ميراثهم صلوات ربي وسلامه عليه .

وقد كان الحسن_ رحمه الله_، يقول: " الذي يفوق الناس في العلم: جدير أن يفوقهم في العمل "(٤) .

* وقد قال تعالى: { كَبُر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون } [الصف: ٣].

فمن كان حظه من علمه: القول دون الفعل: كان من أهل المقت لا من أهل الفضل وإن كان خزانة للعلم .

فعُلم بذلك: أن أهل العلم الذين وردت الأدلة ببيان فضلهم: هم العلماء العاملون بعلمهم لا غيرهم .

وهذه الآية مع قوله صلى الله عليه وسلم: " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ": يدلان على أن التفقه في الدين: هو العلم والعمل به جميعاً إذ لا يجتمع المقت وإرادة الخير .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [ومن فقَّهه في دينه فقد أراد به خيراً إذا أريد بالفقه: **العلم المستلزم للعمل**، وأما إن أريد به مجرد العلم: **فلا يدل على أن من فقه في الدين فقد أريد به خيراً**](٥) .

---

(١) " فيض القدير ٣٨٩/٤ " .

(٢) " الموافقات ٦٥/١ " .

(٣) " جامع بيان العلم ١٩٢/١ " .

(٤) " جامع بيان العلم ١٠/٢ " .

(٥) " مفتاح دار السعادة ٦٠/١ " .

ــ فمن وقف عند مجرد العلم ولم يَعْمل بعلمه: لم يُرد به الخير كما أنه في الحقيقة: لم يفقه في الدين .

* وقد قال تعالى: { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وممّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ } [الرعد: ١٧] .

فدلت هذه الآية: على أن العلم الذي أنزله الله من السماء: هو العلم الذي تصفو به النفوس وتزكو، وتتخلص به من أدرانها كما أن في تشبيه الله سبحانه وتعالى لهذا العلم بالماء الجاري في الأودية: إشارة لطيفة إلى أن هذا العلم المنزل من السماء إلى الأرض: هو العلم المتحرك، المتفاعل مع الواقع، المتصارع مع الباطل حتى يُغالبه ويُذهبه، ومن ثم: تظهر آثاره في الحياة، وفي النفوس كأثر الماء المتحرك في إزالة العوائق، واكتساح الشوائب .

أما ذاك العلم الجامد، المستكين، الذليل أو حبيس الصدور والجدران هروباً وخوفاً من مواجهة الباطل في معترك الواقع: فحاشا أن يكون هو العلم المنزّل من السماء إلى الأرض .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط بشاشته القلوب، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة: فيطفو على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادي زبداً يعلو فوق الماء، وأخبر سبحانه وتعالى أنه راب يطفو ويعلو على الماء: لا يستقر في أرض الوادي زبداً، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم: ربت فوق القلوب، وطفت، فلا تستقر فيه، بل تجفى وترمى، فيستقر في الوادي: الماء الصافي، ويذهب الزبد جفاء، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون](١) .

ــ وقد تكرر معنا أن الصراط المستقيم الذي أمر العبد بتكرار طلب الهداية إليه في قوله: { اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين }: أنه هو: معرفة الحق، والعمل به، أي أنه: الجمع بين العلم، والعمل، فإذا تخلف أحدهما: لم يكن العبد على الصراط المستقيم .

* قال الإمام سفيان بن عيينة_ رحمه الله_: " كانوا يقولون: من فَسَد من العلماء: ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من العُبَّاد: ففيه شبه من النصارى "(٢) .

* وقال الإمام الشعبي_ رحمه الله_: " اتقوا الفاجر من العلماء، والجاهل من المتعبدين، فإنهما آفة لكل مفتون"(٣) .

(وكان السلف يقولون: احذروا فتنة العَالِم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما: فتنة لكل مفتون(٤) .

فطالب العلم إن لم يقترن بطلبه: فِعْلُ ما يجب عليه، وتَرْكُ ما يحرم عليه من الاعتصام بالكتاب والسنة: وإلا

---

(١) " مفتاح دار السعادة١/١٦ " .

(٢) " تفسير ابن كثير٢/٣٥١ " .

(٣) " المدخل للبيهقي/٣٣٥ " .

(٤) انظر: " تهذيب الكمال١١/١٦٨ "، " العلل للإمام أحمد٣/١١٨ "، " المدخل للبيهقي/٣٣٥ " عن الإمام سفيان الثوري_ رحمه الله_ .

وقع في الضلال)[1] .

ولذا، فـــ(لو اعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب: كان غاوياً)[2] .

ـــــ وقد جاء عن أبي برزة الأسلمي_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزولُ قدما عبدٍ حتَّى: يُسألَ عن عُمْرِهِ فيما أفناهُ، **وعنْ علمهِ فيم فعل**، وعن مالهِ: منْ أينَ اكتسبه، وفيما أنفقه، وعنْ جسمهِ فيما أبْلاهُ "[3] .

* وعن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا ينعقد قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمسة: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، **وماذا عمل فيما علم** "[4].

فقوله صلى الله عليه وسلم: " وعن علمه: فيم فعل "، أو " وماذا عمل فيما علم ": وفي حديث معاذ عند الطبراني: " وعن علمه: ماذا فعل فيه ": نص في أن العمل: هو المراد من العلم، وأن العلم على شرفه: وسيلة لا غاية، والتشمير عن ساعد الجد لإدراك الغاية وإحكامها ترجمةٌ للوسيلة: هو ما أمرَ الله به، وعلق عليه الفلاح والنجاة، ومن عكس_ فوقف عند الوسيلة وضيع الغاية_: فقد انتكس، ومتى كانت الوسيلة مخالفة للغاية أو لا تحققها: فهي وسيلة فاسدة .

ــ وهذا هو العلم غير النافع الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم:

* فمن حديث زيد بن أرقم_ رضي الله عنه_ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها "[5] .

* ومن حديث أنس بن مالك_ رضي الله عنه_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وعمل لا يرفع، وقلب لا يخشع، وقول لا يسمع "[6] .

* ومن حديث أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو، فيقول: " اللهم

---

(١) " الفتاوى لابن تيمية٢٢/٣٠٧ " .

(٢) " الفتاوى لابن تيمية٢٢/٣٠٧ " .

(٣) " الترمذي٤/٦١٢ "، " الدارمي١/١٤٤"، وقال الترمذي: حسن، صحيح .

(٤) " الترمذي٤/٦١٢ "، " المعجم الصغير٢/٤٩ "، " البزار٤/٢٦٦ "، وفيه لين، والحديث مروي عن معاذ بن جبل_ رضي الله عنه_ مرفوعاً عند " البزار٧/٨٨ "، " المعجم الكبير٢٠/٦٠ "، وانظر: "المجمع١٠/٣٤٦ "، ويروى عنه موقوفاً عند " الدارمي١/١٤٥ "، " مصنف ابن أبي شيبة٧/١٢٥ " .

(٥) " صحيح مسلم٤/٢٠٨٨ " .

(٦) صحيح: " صحيح ابن حبان١ /٢٨٣ "، " المستدرك١/١٨٥ "، "المختارة٥/٢٦٢: ٢٦٣، ٦/٣٤٦: ٣٤٧"، "الكبرى للنسائي٤/٤٤٥ "، " أحمد٣/٢٥٥، ٢٨٣ " .

إني أعوذ بك من الأربع: من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع "(١) .

* وعن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ونفس لا تشبع "(٢) .

* وعن عبد الله بن عمرو_ رضي الله عنهما_، قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من: علم لا ينفع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع "(٣) .

قال في " تحفة الأحوذي ": [" ومن علم لا ينفع "، أي: علم لا أعمل به، ولا أعلم الناس، ولا يهذب الأخلاق، والأقوال، والأفعال أو علم لا يحتاج إليه أو لم يرد في تعلمه إذن شرعي](٤) .

وقال المناوي_ رحمه الله_: [" اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ": وهو ما لم يؤذن في تعلمه شرعاً أو ما لا يصحبه عمل أو ما لا يهذب الأخلاق الباطنة فيسري منها إلى الأفعال الظاهرة، ويفوز بها إلى الثواب الآجل، وأنشد:

يا من تقاعد عن مكارم خلقه   ليس التفاخر بالعلوم الزاخره
مـــن لم يهذب علمه أخلاقه   لم ينتفع بعلومه في الآخره](٥) .

وقد ترجم المنذري_ رحمه الله_ لحديث زيد بن أرقم السابق بقوله: " الترهيب من أن يعلم ولا يعمل بعلمه، ويقول ولا يفعل "(٦) .

وترجم ابن ماجه_ رحمه الله_ لحديث أبي هريرة السابق بقوله: " باب: الانتفاع بالعلم، والعمل به "(٧) .

قال الطيبي_ رحمه الله_: [اعلم أن في كل من القرائن الأربع ما يشعر بأن **وجوده: مبني على غايته، وأن الغرض منه: تلك الغاية**، وذلك أن تحصيل العلوم إنما هو للانتفاع بها، فإذا لم ينتفع به: لم يخلص منه كفافاً بل يكون وبالاً ولذلك استعاذ ...](٨) .

وقال السندي_ رحمه الله_: [" من علم لا ينفع "، أي: صاحبَه فإن من العلم ما لا ينفع صاحبه بل يصير

---

(١) " المستدرك١/١٨٥ "، " أبوداود٢/٩٢ "، " الكبرى للنسائي٤/٤٤٥ "، " ابن ماجه١/٩٢ "، "أحمد٢/٣٤٠، ٣٦٥، ٤٥١ " .

(٢) " المستدرك١/٧١٦ " .

(٣) " المستدرك١/٧١٧ "، " الترمذي٥/٥١٩ "، " الكبرى للنسائي٤/٤٤٦ "، " أحمد٢/١٦٧، ١٩٨ "، وانظر: " علل ابن أبي حاتم٢/٢٠٠"،" فيض القدير٤/٣٨٦: ٣٨٧ " .

(٤) " تحفة الأحوذي٩/٣١٩ " .

(٥) " فيض القدير٢/١٠٢ " .

(٦) " الترغيب والترهيب١/٧٢ " .

(٧) " أبو داود١/٩٢ " .

(٨) " عون المعبود٤/٢٨٥ " .

عليه حجة][1] .

ـ فغاية العلم: العمل، وعلمٌ لا يُعمل به: حجة على صاحبه، ولذلك كان من دأب النبي صلى الله عليه وسلم وديدنه: الاستعاذة من العلم الذي لا ينفع: فيكون وبالاً على صاحبه، فيستعيذ صلوات ربي وسلامه عليه من علم: يعود كَلاً، ويورث ذُلاً، ويصير في رقبة صاحبه غِلاً بعدم عمله به .

ــــ وفي المقابل: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: يسأل ربه سبحانه وتعالى: العلم النافع:

* فعن جابر_ رضي الله عنه_ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " اللهم إني أسألك علماً نافعاً، وعملاً متقبلاً "[2] .

* وعن أم سلمة_ رضي الله عنها_ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا صلى الصبح حين يسلم: "اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً "[3] .

ـ وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين سؤال العلم النافع، والاستعاذة بالله من العلم غير النافع:

* فعن عائشة_ رضي الله عنها_ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: " اللهم إني اسألك علماً نافعاً، وأعوذ بك من علم لا ينفع "[4] .

* وجاء من حديث جابر بن عبد الله_ رضي الله عنهما_، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " اللهم إني أسألك علماً نافعاً، وأعوذ بك من علم لا ينفع "[5] .

* وعن جابر_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سلوا الله علماً نافعاً، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع "[6] .

قال المناوي_ رحمه الله_: [" سلوا الله علماً نافعاً "، أي: شرعياً، **معمولاً به**، "وتعوذوا بالله من علم لا ينفع"، قال الحافظ ابن رجب: هذا كالسحر وغيره من العلوم المضرة في الدين أو الدنيا ...

وأقول_ أي: المناوي_: هذا وإن كان محتملاً لكن أقرب منه أن يُراد في الحديث المشروح: **العلم الذي لا**

---

(١) " الحاشية٨/٢٥٥ " .

(٢) " المجمع١٠/١٨٢"، وقال: رجاله وثقوا .

(٣) " الكبرى للنسائي٦/٣١ "، " ابن ماجه١/٢٩٨ "، " أحمد٦/٣٠٥، ٣١٨، ٣٢٢ "، " مصنف ابن أبي شيبة٦/٣٣ "، وانظر: " مصباح الزجاجة١/١١٤ " .

(٤) " المعجم الأوسط٧/١٥٤ " .

(٥) " صحيح ابن حبان١/٢٨٣ "، " الأوسط٩/٣٢ "، وحسنه في " المجمع١٠/١٨٢ " .

(٦) " ابن ماجه٢/١٢٦٣ "، " الكبرى للنسائي٤/٤٤٤ "، " معجم أبي يعلى١/١٩٣ "، وهو عنده في المسند: " ٣/٤٣٧، ٤٦٩، ٤/١٣٩"، وهو حسن من طريق أسامة بن زيد، وهو الليثي، المدني، وانظر: " مصباح الزجاجة٤/١٤٠ " .

عمل معه نافع لصاحبه بل ضار له بل يهلكه فإنه حجة عليه](١) .

قال مُقيّده: وقد قال مطر_ رحمه الله_: " خير العلم: ما نفع، وإنما ينفع الله بالعلم: من علمه وعمل به، ولا ينفع من علمه ثم تركه "(٢) .

* وقال سفيان بن عيينة_ رحمه الله_: " ليس شيء أنفع من علم ينفع، وليس شيء أضر من علم لا ينفع"(٣).

ــ ومن صيحات الشيخ عبد القادر الجيلاني المتتالية في المنتسبين للعلم المُفرّطين في العمل قوله_ رحمه الله_: " ويلك، لا تجئ بمحض العلم فحسب؛ كما لا تنفع دعوى بلا بينة: لا ينفع علم بلا عمل "(٤) .

ــــ وقد بين صاحب الشرع المطهر صلوات ربي وسلامه عليه مفهوم العلم المعتبر شرعاً وحقيقته بما يرفع كل لبس أو غموض، وأنه هو العلم النافع بالعمل به:

* فعن أبي الدرداء_ رضي الله عنه_، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: " هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء .

قال: فقال زياد بن لبيد الأنصاري: يا رسول الله، وكيف يختلس منا، وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرأنه، ولنقرئنه نساءنا، وأبناءنا .

فقال صلى الله عليه وسلم: ثكلتك أمك يا زياد، إني كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذا التوراة، والإنجيل عند اليهود والنصارى: فماذا يغني عنهم "(٥) .

* وعن زياد بن لبيد الأنصاري_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هذا أوان ذهاب العلم .

قال: قلت: كيف، وفينا كتاب الله يعلمه أبناؤنا أبناءهم ؟! .

قال صلى الله عليه وسلم: ثكلتك أمك ابن لبيد، ما كنت أحسبك إلا من أعقل أهل المدينة، أليس اليهود والنصارى فيهم كتاب الله التوراة والإنجيل: لم ينتفعوا منه بشيء "(٦) .

وقد ترجم الدارمي لهذا الحديث بقوله: " باب: من قال العلم: التقوى، وخشية الله "(٧) .

---

(١) " فيض القدير ١٠٨/٤ " .

(٢) " المدخل للبيهقي/٣٢٦ " .

(٣) " جامع بيان العلم١٦٣/١ " .

(٤) " الفتح الرباني/١٠٥ " .

(٥) " المستدرك١٧٩/١ "، " الترمذي٣١/٥ "، " الدارمي٩٩/١ "، وانظر: " المجمع٢٠١/١ " .

(٦) " المستدرك١٨٠/١ "، " أحمد٢١٩/٤ " .

(٧) " الدارمي٩٩/١ " .

فنصّ النبي صلى الله عليه وسلم على أن ذهاب العلم: هو ذهاب العمل به وإن بقيت العلوم في الصدور والسطور .

وهذا بيان من النبي صلى الله عليه وسلم بأن حد العلم شرعاً: هو معرفة الحق، والعمل به، وأن المعرفة وحدها بغير عمل مهما اتسعت وعظمت: ليست_ شرعاً _ بعلم ألبتة .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: " ثكلتك أمك ابن لبيد، ما كنت أحسبك إلا من أعقل أهل المدينة، أليس اليهود والنصارى فيهم كتاب الله التوراة والإنجيل: لم ينتفعوا منه بشيء ": استنكار شديد، بليغ على من ظن أن العلم: هو المعرفة المجردة عن العمل بل وتعَجُّب من هذا الفهم لمفهوم العلم، وحده، وحقيقته .

قال جبير بن نفير_ رحمه الله_ وهو الراوي للحديث الأسبق عن أبي الدرداء:

" فلقيت عبادة بن الصامت_ رضي الله عنه_، فقلت له: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء، وأخبرته بالذي قال .

قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد الجماعة: فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً "(١) .

فرَفْعُ علم الخشوع: ليس رفع المعرفة به من آيات، وأحاديث، وما جاء فيه: وإنما هو: رفع العمل به إذ المعرفة وحدها: ليست بعلم، وإنما العلم: المعرفة، والعمل جميعاً .

ـــــ وقد قام الدليل على أن من لم ينتفع بعلمه: جاهل لم يخرج عن حد الجهل، ومسماه:

* قال تعالى: { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } [الأعراف: ١٣٨] .

فقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام في رده علي بني إسرائيل: { إنكم قوم تجهلون }: دليل على أن أعظم الجهل: ترك العمل بالعلم إذ أن بني إسرائيل هؤلاء لا يجهلون أبداً معرفة الله، ولا كونه وحده المستحق للعبادة، وهم قد خرجوا لتوهم من معجزة مادية، محسوسة تخضع لها الجبال قبل البشر بل هم أنفسهم كانوا جزءاً من هذه المعجزة، فأقدامهم لم تجف بعد من ماء البحر .

وقد (حكي أن ابن عباس لقيه رجل من اليهود: فقال اليهودي: ممن أنت ؟، قال: من قريش، فقال: أنت من القوم الذين قالوا: { اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك } الآية: فهلا عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك: فاهدنا له، إن هؤلاء قوم يجهلون .

قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيلي من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه حتى قالوا: { اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة }، فقال لهم موسى: { إنكم قوم تجهلون}: فأطرق اليهودي مُفحماً)(٢) .

---

(١) " المستدرك١/١٧٩ "، " الترمذي٥/٣١ "، " الدارمي١/٩٩ "، وانظر: " المجمع١/٢٠١ " .

(٢) " تفسير القرطبي٧/٣٩٨ " .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [يقول تعالى ذكره: وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد الآيات التي أريناهموها، والعبر التي عاينوها على يدي نبي الله موسى: فلم تزجرهم تلك الآيات، ولم تعظهم تلك العبر والبينات حتى قالوا مع معاينتهم من الحجج ما يحق أن يذكر معها البهائم إذ مروا على { قوم يعكفون على أصنام لهم }: يقومون على مثل لهم يعبدونها من دون الله: اجعل لنا يا موسى إلهاً يقول مثالاً نعبده، وصنماً نتخذه إلهاً كما لهؤلاء القوم أصنام يعبدونها، ولا تنبغي العبادة لشيء سوى الله الواحد القهار](1) .

وفي " تفسير الجلالين ": [{ قال إنكم قوم تجهلون }: حيث قابلتم نعمة الله عليكم بما قابلتموه](2) .

فليس الجهل هنا ألبتة: عدم المعرفة، وإنما هو: عدم الانتفاع بتلك المعرفة بالإتيان بمقتضاها، ولازمها من العمل استجابة لأهوآء النفس وحظوظها .

* وقال تعالى: { ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون } [النمل: ٥٤_٥٥] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: واذكر عبدنا، ورسولنا: لوطاً، ونبأه الفاضل حين قال لقومه_ داعياً إلى الله وناصحاً_: { أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ }، أي: **الفعلة الشنعاء التي تستفحشها العقول، والفطر، وتستقبحها الشرائع، { وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ } ذلك، وتعلمون قبحه: فعاندتم، وارتكبتم ذلك: ظلماً منكم، وجرأةً على الله** .

ثم فسر تلك الفاحشة فقال: { أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ }، أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال: فصارت شهوتكم للرجال وأدبارهم: محل الغائط، والنجو، والخبث: وتركتم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطيبة التي جبلت النفوس على الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر: فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن، { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }: **متجاوزون لحدود الله، متجرئون على محارمه**](3) .

فالقوم لا يجهلون أن ما يفعلون: فاحشة، منكرة، شنيعة كما يدل عليه عموم قوله تعالى في نفس الآية: {أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون }؛ فهم مُبصرون لما يفعلون، قاصدون له، وكما يدل عليه إنكار نبي الله المتكرر عليهم هذا الصنيع، وتذكيره لهم بعظيم جرمه، وبشاعته، ولذا: استحقوا ما نزل بهم من العذاب .

وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا جواباً لنبيهم: { أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون } .

(أي: يتنزهون عن اللواط، وأدبار الذكور، فقبحهم الله: جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات)(4) .

ومن ثم: دل قوله تعالى في وصف هؤلاء القوم: { بل أنتم قوم تجهلون }: على أن جهلهم: إنما هو خضوعهم لشهواتهم وأهوائهم، وتركهم العمل بمقتضى ما هو مقرر عندهم_ من وجوه عدة_ من جرم هذا الفعل، وحرمته، وفحشه .

---

(١) " تفسير الطبري٩/٤٥ " .

(٢) " تفسير الجلالين١/٢١٢ " .

(٣) " تفسير السعدي/٤٣٨ " .

(٤) " تفسر السعدي/٤٣٩ " .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [قوله: { بل أنتم قوم تجهلون }: يقول: ما ذلك منكم إلا أنكم قوم سفهاء، جهلة بعظيم حق الله عليكم: فخالفتم لذلك أمره، وعصيتم رسوله][(١)] .

ـــ فدلت هذه الآية على ما دلت عليه الآية السابقة من أن أعظم الجهل: ترك العمل بالعلم: خضوعاً لشهوات النفس، وأهوائها، وضعفاً عن كبح النفس وإلجامها بأمر الله .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ممّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ **وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ** } [يوسف: ٣٣] .

والآية ظاهرة في أن الجهل الذي خافه يوسف عليه السلام، وطلب من ربه سبحانه أن يصرفه عنه: هو خوف الزلل: فيفارق العلمَ: العمل .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ }: فإن هذا جهل لأنه آثر لذة قليلة منغصة على لذات متتابعات، وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن آثر هذا على هذا: فمَنْ أجهل منه ؟!!، فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين، وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة][(٢)] .

* وقال تعالى: { ولقد علموا لَمَن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون } [البقرة: ١٠٢] .

فبدأ الله بوصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمي: { ولقد علموا } ثم نفي العلم عنهم: { لو كانوا يعلمون } حيث لم يعملوا بعلمهم: فأنزلهم منزلة الجهال[(٣)].

والآيات في هذا المعنى: كثيرة .

ـــ وقد قال تعالى_ كذلك_: { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ **بِجَهَالَةٍ** ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [النحل: ١١٩] .

* وقال في الآية الأخرى: { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ **بِجَهَالَةٍ** ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء: ١٧] .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا **بِجَهَالَةٍ** ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الأنعام: ٥٤] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { للذين يعملون السوء بجهالة }، السوء في هذه الآية، والأنعام: {أنه من عمل منكم سوءا بجهالة }: يعم الكفر والمعاصي، فكل من عصى ربه: فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته .

---

(١) " تفسير الطبري١٩/١٧٥ " .

(٢) " تفسير السعدي/٢٧٥ " .

(٣) انظر: " تفسير الطبري١/٤٦٤: ٤٦٥ " .

قال قتادة: **أجمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على أن كل معصية: فهي بجهالة عمداً كانت أو جهلاً،** وقاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، ومجاهد، والسدي، وروى عن الضحاك، ومجاهد أنهما قالا: **الجهالة هنا: العمد**، وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة، يريد: الخاصة بها الخارجة عن طاعة الله، وهذا القول جار مع قوله تعالى: { إنما الحياة الدنيا لعب ولهو }، وقال الزجاج: يعني قوله: { بجهالة }: **اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية** .

وقيل: { بجهالة }، أي: لا يعلمون، ذكره ابن فورك، قال ابن عطية: **وضُعّف قولُه هذا، ورُدَّ عليه**][1] .

قال الشيخ السعدي_رحمه الله_: [{ بِجَهَالَةٍ } أي: جهالة منه لعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه لنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تئول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، **فكل عاص لله: فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالما بالتحريم بل العلم بالتحريم: شرط لكونها معصية معاقباً عليها**][2] .

وقال ابن القيم_رحمه الله_: [الجهالة ههنا: جهالة العمل وإن كان عالماً بالتحريم][3] .

ـــــ فالجهالة في هذه الآيات كلها: الوقوع في أسر الهوى، والشهوة بالإقدام على الذنب مع العلم بحرمته، وقبحه، فلم ينفع العلم والحال ما ذُكِرَ، ولمّا لم ينفع العلم: لم يَمنع من وصف الجهل، والوصم، والوسم به، وعلى هذا: انعقد إجماع خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين: أصحاب الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ورضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ولما كان الشيء: ينتفي بانتفاء ثمرته، وكان العمل: هو ثمرة العلم، فلا جرم إذاً أن ينتفي العلم بانتفاء العمل .

(فإن العلم يُراد للعمل فإنه بمنزلة الدليل للسائر، فإذا لم يسر خلف الدليل: لم ينتفع بدلالته فنزل منزلة من لم يعلم شيئاً لأن من علم ولم يعمل: بمنزلة الجاهل الذي لا يعلم كما أن من ملك ذهباً وفضة، وجاع وعرى ولم يشتر منها ما يأكل ويلبس: فهو بمنزلة الفقير العادم كما قيل:

ومن ترك الانفاق عند احتياجه مخافة فقر فالذي فعل الفقر

والعرب تسمى الفحش والبذاء: جهلاً، إما لكونه ثمرة الجهل فيسمى باسم سببه وموجبه؛ وأما لأن الجهل: يقال في جانب العلم والعمل، قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا)[4] .

ــ(وممّا يبين ذلك: قوله: { إنما يخشى الله من عباده العلماء }، وكل من خشيه: فأطاعه بفعل أوامره، وترك نواهيه: فهو عالم كما قال تعالى: { أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون }، وقال رجل للشعبي: أيها العالم، فقال: لسنا بعلماء، إنما العالم

---

(١) " تفسير القرطبي٥/٩٢ " .

(٢) " تفسير السعدي/٩٦: ٩٧ " .

(٣) " مدارج السالكين١/٢٨٤ " .

(٤) " مفتاح دار السعادة١/١٠٠: ١٠١ " .

من يخشى الله، وقال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علماً، وبالإغترار بالله جهلاً .

وقوله: { إنما يخشى الله من عباده العلماء }: يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالماً: إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم: إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم: انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية: دلت على انتفاء العلم .

لكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية حيث يظن أنه يحصل بدونها: وهذا ممتنع فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النارَ، والأسدَ، والعدوَ من هو عالم بها، مواجه لها، وأنه لا يخشى الموتَ من ألقى نفسه من شاهق، ونحو ذلك، فأَمْنُه في هذه المواطن: دليل عدم علمه، وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني .

فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس، فإنها كانت عن علم لا عن جهل وبقوله: { وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى }، وقال: { وآتينا ثمود الناقة مبصرة }، وقال عن قوم فرعون: { وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً }، وقال: { وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين }، وقال موسى لفرعون: { لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر }، وقال: { وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون }، وقال: { والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم }، يعني: القرآن أو محمداً صلى الله عليه وسلم، وقال: { يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون }، وقال: { فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بأيات الله يجحدون }، والجحود: إنكار الحق بعد معرفته، وهذا كثير في القرآن .

قيل: حجج الله لا تتناقص بل كلها حق: يصدق بعضها بعضاً، وإذا كان سبحانه قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء، وقد أقر به، وبرسالته، وبأنه حَرّم ذلك، وتوعد عليه بالعقاب، ومع ذلك يحكم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء: فكيف بمن أشرك به، وكفر بآياته، وعادى رسله: أليس ذلك أجهل الجاهلين ؟!، وقد سمى تعالى أعداءه: جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم، فقال: { خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين }، فأمره الأحزاب عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة وعلموا أنه صادق وقال: { وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً}، فالجاهلون: هم الكفار الذين علموا أنه رسول الله، فهنا العلم: لا ينافي الحكم على صاحبه بالجهل بل يُثبت له العلم، وينفى عنه في موضع واحد كما قال تعالى عن السحرة من اليهود: { ولقد علموا لمن في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون }: فأثبت لهم العلم الذي تقوم به عليهم الحجة، ونفى عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار، وهذا نكتة المسألة، وسر الجواب: فما دخل النار إلا عالم، ولا دخلها إلا جاهل، وهذا العلم يجتمع مع الجهل في الرجل الواحد، يوضحه: أن الهوى، والغفلة، والإعراض: تصد عن كماله، واستحضاره، ومعرفة موجبه على التفصيل، وتقيم لصاحبه شبهاً، وتأويلات: تعارضه: فلا يزال المقتضى يضعف، والعارض يعمل عمله: حتى كأنه لم يكن، ويصير صاحبه بمنزلة **الجاهل من كل وجه)**[1].

ــ قال الراغب الأصفهاني_ رحمه الله_: [الجهل على ثلاثة أضرب:

---

(١) " شفاء العليل١٧٢/١ " .

الأول: وهو خلو النفس من العلم ...

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه .

والثالث: **فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواءً اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً كمن يترك الصلاة متعمداً**][(١)] .

وقال ابن القيم_ رحمه الله_ [الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه، فكلاهما: جهل: **لغةً، وعرفاً، وشرعاً، وحقيقةً ...**

وسمى عدم مراعاة العلم: جهلاً، إما لأنه لم ينتفع به: فنزل منزلة الجاهل، وإما لجهله بسوء ما تجني عواقب فعله][(٢)] .

ولذلك، قال المناوي_ رحمه الله_: [العالم: من يعمل، ومن لا يعمل: فهو والجاهل سواء بل الجاهل خير منه لأن علمه حجة عليه، فأُسُّ الطريق: العلم، ونتيجته: العمل، وفائدة العلم إنما هي العمل به لأن العلم بلا عمل: عاطل، والعمل بغير علم: باطل][(٣)] .

ـــ فمن لم يعمل بعلمه: ليس بعالم أصلاً، فهو خارج_ ولا كرامة_ عن زمرة علماء هذا الدين بل هو لم يخرج بعد عن حد الجهل، ومسماه: لغة، وعرفاً، وشرعاً، وحقيقة بل قد قام الدليل الصحيح الصريح على أنه منحط عن رتبة بني آدم ملتحق برتبة الحيوان البهيم .

* قال تعالى: { مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوه كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين } [الجمعة: ٥] .

قال ابن جرير الطبري_ رحمه الله_: [يقول تعالى ذكره: مثل الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى فحملوا العمل بها، { ثم لم يحملوها }، يقول: ثم لم يعملوا بما فيها، وكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد أمروا بالإيمان به فيها، واتباعه، والتصديق به: { كمثل الحمار يحمل أسفاراً }، يقول: كمثل الحمار يحمل على ظهره كتباً من كتب العلم: لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها: فكذلك الذين أوتوا التوراة التي فيها بيان أمر محمد صلى الله عليه وسلم، مثلهم إذا لم ينتفعوا بما فيها: كمثل الحمار الذي يحمل أسفاراً فيها علم: فهو لا يعقلها، ولا ينتفع بها][(٤)] .

* قال ابن عباس_ رضي الله عنه_: " قوله: { مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً }، والأسفار: الكتب، فجعل الله مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يتبع ما فيه: كمثل الحمار يحمل كتاب الله

---

(١) " مفردات ألفاظ القرآن/٢٠٩ " .

(٢) " المدارج١/٤٦٩: ٤٧٠ " .

(٣) " فيض القدير٤/٣٩٠ " .

(٤) " تفسير الطبري٢٨/٩٧ " .

الثقيل لا يدري ما فيه ثم قال: { بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله } "(١) .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فقاس من حمله سبحانه كتابه ليؤمن به، ويتدبره ويعمل به، ويدعو إليه ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب؛ فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، وعمل بموجبه: كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها: حمله على ظهره ليس إلا فحظه من كتاب الله: كحظ الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإن كان قد ضُرب لليهود: فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن: فترك العمل به ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته](٢) .

فشبه الله سبحانه وتعالى من آتاه العلم: فلم يعمل به: بالحمار الذي يحمل الكتب الكثيرة النافعة في ذاتها ولكنه لا ينتفع بها لصفته البهيمية: فكذلك من حمل علماً ولم يعمل به، وكما أن حمل الحمار لهذه الأسفار لا يغير من حقيقته شيئاً: فكذلك من حُمّل علماً ثم لم يحمله، والجزاء من جنس العمل .

بل من حمل العلم، ولم يعمل به:(أسوأ حالاً من الحمير لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء: لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: { أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون }، وقال تعالى ههنا: { بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين })(٣) .

* وقد قال تعالى_ أيضاً_: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف: ١٧٦] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا}، أي: علمناه كتاب الله: فصار العالم الكبير، والحبر النحرير { فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ }، أي: انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله فإن العلم بذلك: يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات؛ فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس، فلما انسلخ منها: أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين: فأزّه إلى المعاصي أزّاً: { فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ } بعد أن كان من الراشدين المرشدين .

وهذا، لأن الله تعالى خذله، ووكله إلى نفسه، فلهذا قال تعالى: { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا } بأن نوفقه للعمل بها: فيرتفع في الدنيا والآخرة: فيتحصن من أعدائه، { وَلَكِنَّهُ } فعل ما يقتضي الخذلان إذ { أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ }، أي: إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية، { وَاتَّبَعَ هَوَاهُ }، وترك طاعة مولاه .

{ فَمَثَلُهُ } في شدة حرصه على الدنيا، وانقطاع قلبه إليها: { كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ}، أي: لا يزال لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال حريصاً حرصاً قاطعاً قلبه لا يسد فاقته شيء من

---

(١) " المرجع السابق٢٨/٩٨ " .

(٢) " إعلام الموقعين١/١٦٥ " .

(٣) " تفسير ابن كثير٤/٣٦٥ " .

الدنيا...

وفي هذه الآيات: الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان .

والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه: أن اتباع الهوى، وإخلاد العبد إلى الشهوات: يكون سبباً للخذلان][(١)] .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل: عام في كل من أوتي القرآن: فلم يعمل به، وقيل: هو في كل منافق، والأول: أصح .

قال مجاهد في قوله تعالى: { فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث}، أي: إن تحمل عليه بدابتك أو برجلك: يلهث أو تتركه: يلهث، **وكذلك من يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه**][(٢)] .

* وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_، قال: " آتاه الله آياته: فتركها، فجعل الله مثله كمثل الكلب: إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث "[(٣)] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فشبّه سبحانه من أتاه كتابه، وعلمه العلم الذي منعه غيره: فترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق: بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدراً، وأخسها نفساً، وهمته: لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهاً، وحرصاً، ومن حرصه: أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح حرصاً، وشرهاً، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه وإذا رميت إليه بحجر: رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المطروحة: أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة: أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب: لم يدع كلباً واحداً يتناول منها شيئاً إلا هر عليه، وقهره لحرصه، وبخله، وشرهه، ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذا رأى ذا هيئة رثة، وثياب دنية، وحال زرية: نبحه وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة، وثياب جميلة، ورياسة: وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه][(٤)] .

ولا شك أن للمشبه: نصيب وحظ من المشبه به، ومن أصدق من الله قيلاً، ومن أحسن من الله حديثاً .

ومن كان هذا حاله: فمن أمحل المحال أن ينسب لدرة تاج الشرع المطهر: مِنَّةِ الله على رسله وأنبيائه: العلم الشريف .

ـــــ فتحصّل معنا ممّا سبق بدلالة الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة_ رضوان الله عليهم أجمعين_ أن هذا المصطلح الشرعي: " العلم ": لا يطلق إلا على معرفة الحق، والعمل به، وأما المعرفة المجردة عن العمل:

---

(١) " تفسير السعدي/٢٠٦ " .

(٢) " تفسير القرطبي٧/٣٢٣ "، وانظر: " تفسير الطبري٩/١٢٨: ١٢٩ " .

(٣) " تفسير الطبري٩/١٢٩ " .

(٤) " إعلام الموقعين١/١٦٥: ١٦٦ "، وانظر: " الفوائد/١٠١: ١٠٢ " .

فليست في اصطلاح الشرع بعلم ألبتة بل هي: جهل: لغة، وشرعاً، وحقيقة، وعرفاً .

أما إطلاق " العلم " على المعرفة المجردة عن العمل مهما عظمت هذه المعرفة واتسعت: فهو اصطلاح حادث، باطل، مخالف مخالفة بينة للكتاب، والسنة، والإجماع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مصطلحات المتأخرين التي يتغير بها المعنى المراد من كلام الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم: فيحصل اللبس، قال:

[ومثل هذه البدع كثير جداً: يُعَبّر بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراده الله ورسوله بتلك الألفاظ، ولا يكون أصحاب تلك الأقوال تلقوها ابتداءً عن الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم **بل عن شُبه حصلت لهم، وأئمة لهم، وجعلوا التعبير عنها بألفاظ الكتاب والسنة حجةً لهم، وعمدةً لهم ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول صلى الله عليه وسلم لا مخالفون**](1) .

وكلامه_ رحمه الله_ منطبق تمام الانطباق على ما نحن فيه هنا إذ أن مصطلح " العلم ": مصطلح شرعي، وردت به نصوص الكتاب، والسنة بل هو من أشرف المصطلحات الشرعية التي جاء بها الوحي، وبيّن المرادَ والمقصود منها، وما كان هذا شأنه: فلا تُتلقى دلالته إلا من طريق الوحي لا غير .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ كذلك_: [ومن هنا غلط كثير من الناس: فإنهم قد تعوّدوا ما اعتادوه إما من خطاب عامّتهم، وإما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ في معنى، فإذا سمعوه في القرآن والحديث: ظنّوا أنه مستعمل في ذلك المعنى: فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم النبطيّة، وعاداتهم الحادثة، وهذا: ممّا دخل به الغلط على طوائف .

بل الواجب: أن تُعرف اللغة، والعادة، والعُرف الذي نزل في القرآن والسنة، وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الألفاظ، فبتلك اللغة، والعادة، والعُرْف: خاطبهم الله ورسوله لا بما حدث بعد ذلك](2).

فكان استعمال هذا المصطلح الشريف في غير معناه الذي جاء به الوحي، وإسقاط نصوص الكتاب، والسنة على هذا المعنى الفاسد: من التلبيس، والتحريف، والتعبير بألفاظ الكتاب، والسنة عن معان مخالفة لما أراده الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بتلك الألفاظ .

ــ وقد نتج عن استعمال هذا المصطلح الشريف في غير معناه: ما لا يوصف من الفساد في الدين، والدنيا ممّا هو في الحقيقة ابتلاءٌ من الله ليتبين مَنْ يرى دينه: لحمَه، ودمَه مِمّن دينه عنده أهون عليه من أن يتحرّى فيه .

قال أبو شامة_ رحمه الله_: [وأكثر ما أُتي الناس في البدع بهذا السبب: يُظَنّ في شخص أنه من أهل العلم والتقوى، وليس هو في نفس الأمر كذلك، فيَرْمقون أقواله، وأفعاله، فيَتَّبعونه في ذلك: فتفسد أمورهم ففي الحديث عن ثوبان_ رضي الله عنه_ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إنّ ممّا أتخوَّف على أمتي الأئمة

---

(1) " الفتاوى١٧/٣٥٢ " .

(2) " الفتاوى٧/١٠٨ " .

المُضلِّين " أخرجه ابن ماجه، والترمذي، وقال: هذا حديث صحيح، وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يَقبض العلم بقبض العلماء، وحتى إذا لم يَبق عالمٌ اتَّخذ الناسُ رؤوساً جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا " .

قال الإمام الطرطوشي_ رحمه الله_: فتدبَّروا هذا الحديث؛ فإنه يدلّ على أنه لا يُؤتَى الناسُ قط من قِبَل علمائهم، وإنما يُؤتَوْن من قِبل أنه إذا مات علماؤهم أفتَى مَن ليس بعالم، فيُؤتَى الناسُ من قِبَله، قال: وقد صرَّف عمر_ رضي الله عنه_ هذا المعنى تصريفاً، فقال: " ما خان أمين قط، ولكن ائتُمن غير أمين: فخان"، قال: ونحن نقول: ما ابتدع عالِم قطّ، ولكن استُفتي مِن ليس بعالم: فضلّ، وأضلّ، وكذلك فعل ربيعة؛ قال مالك: بكى ربيعةُ يوماً بكاءً شديداً، فقيل له: أمصيبة نزلت بك ؟، فقال: لا، ولكن استُفتي مَن لا عِلم عنده، وظهر في الإسلام أمر عظيم](١).

* وقد قال أبو حازم_ رحمه الله_: " إذا كنت في زمان يُرضى فيه بالقول من الفعل، وبالعلم من العمل: فأنت في شر زمان، وشر ناس "(٢) .

ولله درّ ابن إدريس_ رحمه الله_ حيث قال:

والعلـــم ليـــس بنـــافع أربابه ... ما لم يفد عملاً وحسن تبصر

سيان عندي علم من لم يستفد ... عملاً به وصلاة من لم يطهر(٣)

ــــ والآثار عن أئمة الطائفة المنصورة في نفي العلم عمن لم يعمل بعلمه، وأن العالم حقيقة: هو العامل بعلمه: أكثر من أن تحصى:

* قال علي_ رضي الله عنه_: " يا حملة العلم: اعملوا به، **فإن العالم من علم ثم عمل، ووافق عملُه علمَه،** وسيكون أقوام: يحملون العلم، لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف علمهم عملهم: يقعدون حلقاً: يباهي بعضهم بعضاً حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل "(٤) .

* وعن ابن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " كونوا للعلم رعاة، ولا تكونوا له رواة، فإنه قد يرعوي ولا يروي، وقد يروي ولا يرعوي، **إنكم لن تكونوا عالمين: حتى تكونوا بما علمتم عاملين** "(٥) .

---

(١) " الباعث على إنكار البدع والحوادث/١٧٥: ١٧٩ " .

(٢) " المدخل للبيهقي/٣٢٨ " .

(٣) " جامع بيان العلم٢/٩ " .

(٤) " الدارمي١/١١٨ "، " الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع١/٨٩ "، " جامع بيان العلم٢/٧ " .

(٥) " فيض القدير٥/٥٧ "، وانظر: " الحلية٧/٢٦٢ "، " جامع بيان العلم٢/٧ " .

* وعن ابن مسعود_ رضي الله عنه_ أيضاً_: " ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم: الخشية "(١) .

* وقال ابن مسعود_ رضي الله عنه_: " ويل لمن لا يعلم ولو شاء الله لعلمه، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات "(٢) .

* وعن أبي الدرداء_ رضي الله عنه_، قال: " لا تكون تقياً حتى تكون عالماً، ولا تكون بالعلم جميلاً حتى تكون به عاملاً "(٣) .

* وعن أبي الدرداء_ رضي الله عنه_ أيضاً_، قال: " لا تكون عالماً حتى تكون متعلماً، **ولا تكون بالعلم عالماً حتى تكون به عاملاً** "(٤) .

* وكان أبو الدرداء_ رضي الله عنه_ يقول: " إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب: أن يقال لي: قد علمتَ فما عملت فيما علمت "(٥) .

* وقال_ أيضاً_ رضي الله عنه_: " أخوف ما أخاف: أن يقال لي يوم القيامة: يا عويمر: أعلمتَ أم جهلت: فإن قلت: علمتُ: لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أُخِذَت بفريضتها الآمرة: هل ائتمرت، والزاجرة: هل ازدجرت، وأعوذ بالله من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع "(٦) .

* ولَقِيَ عبدُ الله بن سلام_ رضي الله عنه_ كعبَ الأحبار_ رحمه الله_ عند عمر_ رضي الله عنه_، فقال له: " يا كعب من أرباب العلم ؟ .

فقال: **الذين يعملون به** .

قال: ما يَذهب بالعلم من قلوب العلماء بعد أن حفظوه وعقلوه ؟

قال: يذهبه الطمع، وشَرَه النفس، وتطلّب الحاجات إلى الناس .

قال: صدقت "(٧) .

* وعن الحسن_ رحمه الله_، قال: " **العالم: الذي وافق علمَه عمُله**، ومن خالف علمه عمله: فذلك راوية

---

(١) " الزهد لأحمد/١٥٨ "، " الحلية١/١٣١ "، " صفوة الصفوه١/٤١٦: ٤١٧ " .

(٢) " الزهد لأحمد/١٥٨ "، " الحلية١/١٣١ " .

(٣) " الحلية١/٢١٣ "، " جامع بيان العلم٢/٧ " .

(٤) " الدارمي١/١٠٠ "، " اقتضاء العلم العمل/٢٦ " .

(٥) " الحلية١/٢١٣ "، " جامع بيان العلم٢/٢ " .

(٦) " الحلية١/٢١٤ "، " جامع بيان العلم٢/٣ " .

(٧) " جامع العلوم والحكم/٣٠٠ "، " تهذيب الكمال٢٤/١٩٢ "، " الدارمي١/١٥٢ " .

حديث؛ سمع شيئا فقاله "(١) .

* وعنه_ رحمه الله_ في قول الله تعالى: { وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم }، قال : " عُلمتم: فعَلمتم ولم تعملوا، **فوالله: ما ذلكم بعلم** "(٢) .

* وقال يزيد بن ميسرة_ رحمه الله_: " **العلماء:** إذا علموا: عملوا، فإذا عملوا: شغلوا، فإذا شغلوا: فقدوا، فإذا فقدوا: طلبوا، فإذا طلبوا: هربوا "(٣) .

* وما أفقه مقولة الزهري_ رحمه الله_ حيث قال: " لا يُرضى للناس: قولُ عالم لا يعمل، ولا قول عامل لا يعلم "(٤) .

* وقال الإمام العلم سفيان الثوري_ رحمه الله: " العلم يهتف بالعمل: فإن أجابه وإلا ارتحل "(٥) .

* وقال سفيان الثوري_ رحمه الله_ أيضاً_: " ليس طلبُ العلم فلان عن فلان إنما طلب العلم: الخشية لله عز وجل "(٦) .

* وكان_ رحمه الله_ يقول: " إنما يُطلب العلم: ليتقى به وجه الله عز وجل فمن ثم فُضّل على غيره ولوْلا ذلك لكان كسائر الأشياء "(٧) .

* وعن سفيان بن عيينة_ رحمه الله_، قال: " إنما أرباب العلم الذين هم أهله: الذين يعملون به "(٨) .

* وقال_ رحمه الله_: " **مِنْ شرط العالم:** أن لا تخطر محبة الدنيا على بالِه " .

* وكان_ رحمه الله_ يقول_ أيضاً_: " كيف يَدّعي رجلٌ أنه أكثر علماً **وهو أقلّ خوفاً وزهداً** " .

* وقال الفضيل بن عياض_ رحمه الله_: " بلغني أن **العلماء** فيما مضى: كانوا إذا تعلموا: عملوا، وإذا

---

(١) " جامع بيان العلم٢/٧ " .

(٢) " جامع بيان العلم٢/١٠ " .

(٣) " الحلية٥/٢٣٥ "، " الكامل٥/٣٥٩ "، وروي نحوه عن الثوري: " جامع بيان العلم٢/٨ " .

(٤) " المدخل للبيهقي/٣٢١ "، " اقتضاء العلم العمل/٢٤، ٢٥ " .

(٥) " جامع بيان العلم٢/١٠ " .

(٦) " الحلية٦/٣٧٠ " .

(٧) " الحلية٦/٣٦٢ " .

(٨) " الحلية٧/٢٧١ " .

عملوا: شغلوا، وإذا شغلوا: فقدوا، وإذا فقدوا: طلبوا، فإذا طلبوا: هربوا "(1) .

* وقال الفضيل بن عياض_ رحمه الله_ كذلك_: " لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل به، فإذا عمل به: كان عالماً "(2) .

* وعن الأوزاعي، قال: سمعت يحيى بن أبي كثير_ رحمه الله_ يقول: " **العالم:** من خشي الله، وخشية الله: الورع "(3) .

* وعن الإمام مالك بن أنس_ رحمه الله_، قال: " إن حقاً على من طلب العلم: أن يكون له: وقار، وسكينة، وخشية، وأن يكون متبعاً لأثر من مضى قبله "(4) .

* وقال الإمام الشافعي: " ليس العلم ما حفظ: العلم ما نفع "(5) .

* وكان الإمام الشافعي_ رحمه الله_ يقول: " لا يُحمل العلم ولا يحسن إلا بثلاث خلال: تقوى الله، وإصابة السنة، والخشية "(6) .

* وقال بشر بن الحارث_ رحمه الله_: " طلب العلم: **يدل على الهرب من الدنيا لا على حبها** "(7) .

* وعن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل_ رحمهما الله_ أنه قال: قلت لأبي:

" هل كان مع معروف الكرخي شيء من العلم ؟ .

فقال لي: يا بني، كان معه **رأس العلم:** خشية الله تعالى "(8) .

* وقال إبراهيم الخواص_ رحمه الله_: " ليس العالم بكثرة الرواية، وإنما العالم من اتبع العلم، واستعمله، واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم "(9) .

ـ والآثار هنا: كثيرة جداً، وكلها منسجمة مع ما قررته النصوص السابقة من كون العلم: معرفة الحق

---

(1) " السير٨/٤٤٠ "، " المدخل للبيهقي/٣٣١ " .

(2) " اقتضاء العلم العمل/٣٧ " .

(3) " المدخل للبيهقي/٣٢٢ " .

(4) " المدخل للبيهقي/٣٢٤ " .

(5) " المدخل للبيهقي/٣٢٥ " .

(6) " المدخل للبيهقي/٣٢٥ " .

(7) " الحلية٨/٣٤٧ " .

(8) " تاريخ بغداد١٣/٢٠١ "، " المقصد الأرشد٣/٣٧ " .

(9) " الاعتصام١/٧٢ "، " اقتضاء العلم العمل/٣٠ " .

والعمل به، وأن العالم: هو من عرف الحق، وعمل به، فإن عرف الحق ولم يعمل به: فهو جاهل لم يخرج بعد عن حد الجهل ورسمه بل هو أسوأ حالاً ممن لم يعلم أصلاً .

وقد أحسن القائل:

وما العلم عند العالمين بحده　　　　سوى خشية الباريء وحسن لقائه

وتأمّل قول الشاطبي_ رحمه الله_:

[العلم الذي هو العلم المعتبر شرعا_ أعنى: الذي مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق_: هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يُخَلّى صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان **بل هو المقيِّد لصاحبه بمَقتضاه، الحاملُ له علي قوانينه طوعاً أو كرهاً**][(١)] .

ـــــ وعليه؛ فليس العلم_ العلم الشريف_: عند أهل الطائفة المنصورة بحفظ المتون، وجمع الفنون، وكثرة التصنيف، ومجالس الوعظ والتدريس والإفتاء مع ترك القيام لله بالأمر الذي يحبه ويرضاه من: صدع بحق، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وغضب صادق إذا انتهكت محارم الله، وإعلاء لكلمة الله: دعوةً، وجهاداً .

فمَنْ كان حظه من العلم ما ذُكر مع تضييعه لواجبات الدين الكبار: إيثاراً للسلامة أو إخلاداً للراحة والدعة أو حباً للدنيا وتثاقلاً للأرض أو ركوناً للذين ظلموا: فقد خان الرسالة، وضيع الأمانة، ومن ثم: خرج عن حد العلم الشريف ورسمه، وفارق تلك القافلة المباركة: قافلة العلم الشريف التي يقف على رأسها: الأنبياء والمرسلون، فأنى أن ينتظمه رسمهم أو أن يشمله حدّهم أو أن يجمعه وإياهم وصف واحد .

ولمثل هذا يقال:

لست والله عالماً أو حكيماً　　　　إنما أنت تاجر في العلوم[(٢)]

* بل قد قال محمد بن الفضل البلخي_ رحمه الله_: " **ذهاب الإسلام** من أربعة: **لا يعملون بما يعلمون،** ويعملون بما لا يعلمون، ولا يتعلمون، ويمنعون الناس من التعلم "[(٣)] .

فأول مَنْ ذكر: مَنْ علم ولم يعمل ! .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [ومَنْ له خبرة بما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، وبما كان عليه هو وأصحابه: رأى أن أكثر من يُشَار إليهم بالدين: هم أقل الناس ديناً، والله المستعان .

وأيُّ دينٍ، وأيُّ خير فيمن يرى محارم الله تُنْتَهكُ، وحدودَه تُضَاع، ودينه يُتْرَك، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرْغَبُ عنها، وهو: بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس كما أن المتكلم بالباطل: شيطان ناطق .

---

(١) " الموافقات١/ ٦٩ " .

(٢) " ديوان المثاني لعزام/٩٨ " .

(٣) " الاعتصام١/٧٢ " .

وهل بَلِيَّة الدين إلا من هؤلاء: الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم: فلا مُبَالاة بما جرى على الدين .

وخيارهم: المتحزن، المتلمظ، ولو نُوزِعَ في بعض ما فيه غَضَاضة عليه في جاهه أو ماله: بذل وتبدَّل، وجَدَّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وُسعِهِ .

وهؤلاء_ مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم_ قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو: موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل](1).

ــ فالعَالِمُ الشريف العلم:(إنما هو: حياة تلبسها الحقيقة لتكون به شيئاً في الحياة، والعمل لا شيئاً في القول، والتوهم، فيكون إلهامها فيه: كحرارة النار في النار، من واتاها: أحسها .

ولعمري كم من فقيه يقول للناس: هذا حرام، فلا يزيد الحرام إلا ظهوراً وانكشافاً ما دام لا ينطق إلا نطق الكتب، ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع، وقد خلى من القوة التي تجعله روحاً تتعلق الأرواح بها، وتضعه بين الناس في موضع يكون به في اعتبارهم كأنه: آتٍ من الجنة منذ قريب، راجع إليها بعد قريب)(2) .

وهؤلاء الذين يصلون بين النفس، والشرع: هم وحدهم: ورثة الأنبياء والمرسلين، ولذا كانوا هم وحدهم: المختصين بحدّ العلم، ورسمه، ووصفه، فإذا قيل: " **علماء** ": لم ينصرف الإطلاق إلا لهم دون سواهم، وسواهم مهما عظمت معارفهم واتسعت: في ظلمات الجهل يتخبطون، وبحده، ورسمه، ووصفه: ينعمون، وبهذا، وبهذا وحده: يُحفظ الدين، ويَظهر .

قال المناوي_ رحمه الله_ عمن لا يعمل بعلمه: [وهذا لا ينصرف إليه اسم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء إذ هم: العلماء العاملون، الأبرار، المتقون الذين آل إليهم العلمُ الموروث بالصفة التي كان عليها عند المُوَرّث لا مَنْ علمه حجة عليه، وقد منعه سوء ما لديه من خبث نيته، وسوء طويته، واتباع شهوته أن يلج نورُ العلم قلبَه، ويخالط لبه: فأورده النار، وبئس الورد المورود](3) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ :

[**ومن المستقر في أذهان المسلمين:** أن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء: هم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً، ودعوة إلى الله والرسول، فهؤلاء أتباع الرسول حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التى زَكَت: فقبلت الماء: فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت فى نفسها، وزَكَّى الناس بها .

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين، والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله فيهم: { واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار}؛ فالأيدي: القوة في أمر الله، والأبصار: البصائر في دين الله، فبالبصائر: يدرك الحق ويعرف، وبالقوة: يتمكن من تبليغه، وتنفيذه،

---

(١) " إعلام الموقعين٢/١٥٧: ١٥٨ " .

(٢) " وحي القلم للرافعي٢/٢٠١ " .

(٣) " فيض القدير٤/٣٩٠ " .

والدعوة إليه](١) .

ــ وهؤلاء الذين جمعوا بين البصيرة في أمر الله، والقوة عليه: يجاهدون أنفسهم في ذات الله، ويتعبونها لنيل رضاه ببذل وسعٍ، واستفراغ جهدٍ لا لهواً ولعباً إذ جهاد النفس: أربع مراتب:

(إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه: شقيت في الدارين .

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله .

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله .

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع: صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم، وعمل، وعلّم: فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات)(٢) .

ـــ والعبرة هنا بما كان في أرض الواقع: حقيقة ماثلة للعيان لا يختلف فيها اثنان، ولا ينتطح عليها عنزان: قياماً لله بحق هذا العلم: علماً وتعليماً، بلاغاً وتبيناً، دعوةً وجهاداً، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، صدعاً بالحق وابتلاءً في سبيله.

أما الدعاوى المغلوطة: ظاهرة العجز، والكلام الإنشائي الهزيل: ظاهر التلبيس: فهذا شئ في التوهم والخيال؛ مَنْ قدم عليه: كمن قدم على السراب يحسبه ماء: فلم يجده شيئاً، ولا يغير من حقيقة السراب: رؤية الرائي له أنه ماء، وكيف والناقد بصير ؟!، وقد قضى أنه لا يروج عنده إلا الخالص .

قال الإمام الكبير الحسن البصري_ رحمه الله_: " اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا قولهم، فإن الله لم يدع قولاً: إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه .

فإذا سمعت قولاً حسناً: فرويداً بصاحبه، فإذا وافق قوله عمله: فنعم ونعمت عين: فآخه، وأحببه، وأودده .

وإن خالف قولَه عملُه: فماذا يشبه عليك منه أو ماذا يخفى عليك منه ؟!، إياك وإياه، لا يخدعنك "(٣) .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [إن الحق إذا لاح وتبين: لم يحتج إلى شاهد يشهد به، والقلب يبصر الحق كما تبصر العين الشمس، فإذا رأى الرائي الشمس: لم يحتج في علمه بها، واعتقاده أنها طالعة إلى من يشهد

---

(١) " مجموع الفتاوى٤/٩٢: ٩٣ " .

(٢) " زاد المعاد لابن القيم٣/١٠ " .

(٣) " الزهد لابن المبارك/٢٦ "، " جامع بيان العلم٢/٦: ٧ " .

بذلك، ويوافقه عليه][1] .

ــ وتأمّل ما قاله الشيخ عماد الدين الواسطي_ رحمه الله_ في حق شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ثناء طويل جميل: [فوالله ثم والله ثم والله: لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية: علماً، وعملاً، وحالاً، وخلقاً، واتباعاً، وكرماً، وحلماً، **وقياماً في حق الله عند انتهاك حرماته** .

أصدق الناس عقداً، وأصحهم علماً وعزماً، **وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه هِمّة**، وأسخاهم كفاً، وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله، وأفعاله إلا هذا الرجل، **يشهد القلب الصحيح:** أن هذا هو الاتباع حقيقة][2] .

ــ وهؤلاء النفر الأسوة، والنموذج القدوة أهل الاتباع حقيقة، والذين هم العلماء وحدهم: يعلمون أن العلم هو وديعة الله لهم، وأمانته عندهم، وأنه سبحانه قد تكرّم عليهم بأن جعلهم أهلاً لوديعته، ومحلاً لأمانته، فالعلم في صدورهم: أجلّ، وأعظم، وأعز من أن تدنسه شهوة أو تشوهه شبهة أو أن يفقد مصدقيته بموقف ريبة أو تهمة فضلاً عن أن يكون مطية لظالم وجبار، كيف، وهو تركة سيد البشر صلى الله عليه وسلم وميراثه ؟!!!.

فأدركوا أنهم أعزّ الناس نفساً بعلمهم وبما حملوه، وأنّ ذلّهم_ سكوتاً عن الحق، ومداهنة فيه_: ذلٌ للتركة للشريفة، والميراث المطهر، فأيقنوا أنه لا يسعهم إلا أن يُعِزّوا العلم: صدعاً بالحق، وأمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وجهاداً في سبيل الله لا تأخذهم في ذلك لومة لائم .

فنأوا بأنفسهم عن مواطن الفتن، وكبحوها عن مواقف التهم، وأطروها على قول الحق والعمل به، وألزموها الصبر على ذلك كله وإن تلفت في ذلك أو فاتت: صوناً للعلم، وحفظاً للوديعة، وأداءً للأمانة، لسان حال أحدهم:

يقولون لي فـيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما كل برق لاح لى يستفزنى ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
وإنى إذا ما فاتنى الأمر لم أبت ... أقلب كــفى إثــره مــتندما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته لى ســلما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الــظما(٣)

ــ وهؤلاء وحدهم هم من عَناهم الإمام الحسن البصري_ رحمه الله_ بقوله: " كانوا يقولون: موت العالم:

---

(١) " إغاثة اللهفان١/٦٩ " .

(٢) " شذرات الذهب٣/٨٣ " .

(٣) " طبقات الشافعية الكبرى٣/٤٦٠: ٤٦١ "، وانظر" المنتظم ٧/٢٢١ "، " طبقات الفقهاء١/١٢٩: ١٣٠"، " شذرات الذهب٢/٥٦: ٥٧ "، " سير أعلام النبلاء١٧/٢٠ "، " البداية والنهاية١١/٣٣١ " .

ثلمة في الإسلام لا يسدّها شيء ما اختلف الليل والنهار "[1] .

* قال الإمام الشافعي_ رحمه الله_: " إن لم يكن الفقهاء **العاملون** أولياء الله: فما لله ولي "[2] .

ـ وأخيراً، فليُعلم: أنّ (العلم: جوهرٌ شفاف، نوري، يُكدّره أدنى مكدر، ويذهب برونقه أيسرُ شيء وما ذاك إلا لشرفه)[3] .

(١) " سنن الدارمي١/١٠٦ "، " الزهد للإمام أحمد/٢٦٢ "، ويروى مرفوعاً، انظر: " مجمع الزوائد١/٢٠١ "، " كشف الخفاء١/١٠٥ " .

(٢) " سير أعلام النبلاء١٠/٥٣ "، " المدخل للبيهقي/١٧٤ " .

(٣) " أبجد العلوم للقنوجي١/١٤٧ " .

الفصل الرابع

مراتب أفراد الطائفة المنصورة في العلم

أشرنا من قبل إلى أن أهل الطائفة المنصورة متفاوتون فيما بينهم بحسب نصيب كل منهم من صفات هذه الطائفة، ومن تلك الصفات التي هم متفاوتون فيها: العلم، فأهل الطائفة المنصورة هنا على مراتب .

ــــ ونقدم لهذه المسألة الهامة بمقدمتين:

المقدمة الأولى:

بيان حاجة الناس إلى الشرع .

* قال الله تعالى: { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو رب العرش الكريم } [المؤمنون: ١١٥_ ١١٦] .

فالخلق لم يخلقوا عبثاً، ولم يتركوا هملاً كما قال تعالى: { أيحسب الإنسان أن يترك سُدى } [القيامة: ٣٦] .

وإنما خلقوا لأجَلِّ غاية، وأعظمها، وهي: عبادة الله وحده بامتثال ما شرعه لهم على ألسنة رسله من الأوامر، والنواهي .

قال الإمام الشافعي_ رحمه الله_ في الآية السابقة: " فلم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمت أن السُدَى: الذي لا يؤمر، ولا يُنهى "(١).

وقد رتب الله تعالى على تحقيق العبادة بفعل أوامره، واجتناب نواهيه: الفوز بالجنة، والنجاة من النار، ومعلوم أن فعل المأمور، واجتناب المحظور لا يمكن إلا بعد معرفتهما، ومعرفتهما ليس لها من طريق غير الشرع .

* قال تعالى: { ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين } [النساء: ١٣_ ١٤] .

فعلق المولى سبحانه وتعالى: الفوزَ بالجنة، والنجاة من النار على طاعته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم: وهو الشرع، وطاعة الشرع: هي فعل الأوامر، واجتناب النواهي، والأوامر والنواهي: هي حدوده سبحانه التي بينت الآية أن من تعدّها: فهو من أهل الوعيد .

فدلّ ذلك على وجوب معرفة حدود ما أنزل الله من الأوامر والنواهي من طريق مَنْ أُمرنا بطاعته لمن أراد الفوز بالوعد، والنجاة من الوعيد، وليس ثَمّ طريق آخر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [لا بد من الإيمان بالشرع، وهو الإيمان بالأمر والنهي، والوعد

---

(١) " الأم٧/٢٩٨ " .

والوعيد كما بعث الله بذلك رسله، وأنزل كتبه .

والإنسان مضطر إلى شرع في حياته الدنيا، فإنه لا بد له من حركة يجلب بها منفعته، وحركة يدفع بها مضرته، والشرع هو الذي يميّز بين الأفعال التي تنفعه، والأفعال التي تضره، وهو عدل الله في خلقه، ونوره بين عباده، فلا يمكن للآدميين أن يعيشوا بلا شرع يميزون به بين ما يفعلونه ويتركونه](١) .

وقال_ رحمه الله_ كذلك_: [والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة: فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة .

فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبيِّن ما ينفعه، وما يضره، والشرع: نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنا.

وليس المراد بالشرع: التمييز بين الضار والنافع بالحس، فإن ذلك يحصل للحيوانات العُجْم، فإن الحمار والجمل يميز بين الشعير والتراب بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده كنفع: الإيمان، والتوحيد، والعدل، والبر، والتصدق، والإحسان، والأمانة، والعفة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى المماليك، والجار، وأداء الحقوق، وإخلاص العمل لله، والتوكل عليه، والاستعانة به، والرضا بمواقع القدر به، والتسليم لحكمه، والانقياد لأمره، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وخشيته في الغيب والشهادة، والتقوى إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، واحتساب الثواب عنده، وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وطاعته في كل ما أمروا به ممّا هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضد ذلك: شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته .

ولولا الرسالة: لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده، وأشرف منّة عليهم: أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبيّن لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك: لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشرّ حالاً منها، فمن قَبلَ رسالة الله واستقام عليها: فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها: فهو من شر البرية، وأسوأ حالاً من الكلب، والخنزير، والحيوان البهيم](٢) .

ـــــ فإذا ثبت وجوب اتباع الشرع، وحاجة الناس إليه، وأنه الطريق الوحيد للفوز بالوعد، والنجاة من الوعيد: ثبت بالمقابل وجوب العلم كطريق لمعرفة الشرع الواجب اتباعه في حق العبد، ويوضحه الآتي:

المقدمة الثانية:

وجوب العلم، قبل القول والعمل .

* قال تعالى: { قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون } [الأعراف: ٣٣] .

---

(١) " مجموع الفتاوى٣/١١٣: ١١٤ " .

(٢) " الفتاوى١٩/٩٩: ١٠٠ " .

فالآية نص في تحريم نسبة قول أو عمل إلى الله_ أي: إلى شرعه ودينه_ بغير علم بل وبيان عظم هذا الأمر إذ أدرجه الله عز وجل مع تلك المحرمات الكبار بل وجعله في مرتبة من التحريم فوق مرتبة الشرك، وهذا ظاهر في وجوب العلم قبل القول والعمل .

وقد بين تعالى أن نسبة قول أو فعل بغير علم له سبحانه: إنما هو من وحي الشيطان وأمره:

* قال تعالى: { ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون } [البقرة: ١٦٨_١٦٩] .

كما نهي المولى سبحانه وتعالى نهياً مطلقاً عن اتباع العبد ما ليس له به علم: قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً:

* قال تعالى: { ولاَ تَقْفُ ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً } [الإسراء:٣٦] .

فدلّ ذلك دلالة واضحة على وجوب العلم قبل أن يقفو العبد شيئاً من: القول أو الفعل أو الاعتقاد .

* وقد سبق معنا الكلام في قوله عز وجل: { يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله، واتقوا الله إن الله سميع عليم } [الحجرات: ١] .

وأنها نص في حرمة تقديم العبد شيئاً من القول أو الفعل أو الاعتقاد بين كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن القيم_ رحمه الله_ في نفس الآية: [أي: لا تقولوا: حتى يقول، ولا تأمروا: حتى يأمر، ولا تُفْتُوا: حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً: حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويُمضِيه .

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " لا تقولوا خِلافَ الكتاب والسنة، وروى العوفي عنه، قال: " نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه " .

والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول، ولا فعل قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يفعل](١).

وإذا كان الأمر بهذه المثابة الظاهرة من حرمة التقديم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: وجب على العبد قبل أن يُقدم على شئ من: القول أو العمل أو الاعتقاد: أن يَعلم قولَ الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم فيما هو مقدم عليه حتى لا يتقدم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

* وبنحو الآية السابقة: قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} [الحجرات: ٢] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم: فكيف تقديم آرائهم، وعقولهم، وأذواقهم، وسياساتهم، ومعارفهم على ما جاء به، ورفعها عليه ؟!، أليس هذا أولى أن يكون مُحبْطاً

---

(١) " إعلام الموقعين ٥١/١ " .

لأعمالهم ؟!!!][1] .

* وقوله تعالى_ أيضاً_: { إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه } [النور: ٦٢] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه: فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول، ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنُه يُعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذِنَ فيه][2] .

* وقال تعالى_ كذلك_: { وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم } [الأحزاب_ ٣٦] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخيَّر بعد ذلك: فقد ضل ضلالاً مبيناً][3] .

فدلت هذه الآيات السابقة كلها بدليل الخطاب: على وجوب وقوف العبد على حكم الشرع، وإذنه، وقضائه في أي قول أو فعل أو اعتقاد قبل أن يقوم به .

* وقد سبق معنا قوله صلى الله عليه وسلم: " من عَمِل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ "[4] .

وبينّا أن هذا الحديث يدل على وجوب معرفة حكم الشرع في كل عمل قبل الشروع فيه ممّا يدل على وجوب العلم قبل القول والعمل .

وقد عقد البخاري_ رحمه الله_ في كتاب العلم من صحيحه: باباً، فقال: [باب: العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: { فاعلم أنه لا إله إلا الله }، فبدأ بالعلم][5].

قال ابن حجر_ رحمه الله_: [قال ابن المنيّر: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يُعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما][6] .

ـ وقد نقل الإجماع على وجوب العلم قبل القول والعمل: القرافي_ رحمه الله_، فقال:

[إن الغزالي حكى الإجماع في إحياء علوم الدين، والشافعي في رسالته حكاه_ أيضاً_ في: أن المكلّف لا يجوز له أن يُقدم على فعلٍ حتى يعلم حكم الله فيه؛ فمن باع: وجب عليه أن يتعلم ما عيّنه الله وشرعه في

---

(١) " المرجع السابق " .

(٢) " إعلام الموقعين ١/٥١ " .

(٣) " المرجع السابق " .

(٤) مسلم .

(٥) " البخاري ١/٣٧ " .

(٦) " فتح الباري ١/١٥٩: ١٦٠ " .

البيع، ومن آجر: وجب عليه أن يتعلم ما شرعه الله تعالى في الإجارة، ومن قارض: وجب عليه أن يتعلم حكم الله تعالى في القراض، ومن صلى: وجب عليه أن يتعلم حكم الله تعالى في تلك الصلاة، وكذلك الطهارة، وجميع الأقوال، والأعمال .

فمَنْ تعلّم وعمل بمقتضى ما علِم: فقد أطاع الله طاعتين، ومن لم يعلم ولم يعمل: فقد عصى الله معصيتين، ومن علِم ولم يعمل بمقتضى علمه: فقد أطاع الله طاعة، وعصاه معصية .

ويدل على هذه القاعدة_ أيضاً_ من جهة القرآن: قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: { إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم } [هود: ٤٧]، ومعناه: ما ليس لي بجواز سؤاله علم: فدلّ ذلك على أنه لا يجوز له أن يقدم على الدعاء، والسؤال إلا بعد علمه بحكم الله تعالى في ذلك السؤال وأنه جائز، وذلك سبب كونه عليه السلام عوتب على سؤال الله عز وجل لابنه أن يكون معه في السفينة لكونه سأل قبل العلم بحال الولد، وأنه ممّا ينبغي طلبه أم لا ؟؛ فالعتب، والجواب كلاهما يدلّ على أنه لا بد من تقديم العلم بما يريد الإنسان أن يشرع فيه .

إذا تقرر هذا فمثله_ أيضاً_ قوله تعالى: { ولا تقف ما ليس لك به علم } [الإسراء ٣٦]، نهى الله تعالى نبيّه عليه السلام عن اتباع غير المعلوم فلا يجوز الشروع في شئ حتى يعلم، فيكون طلب العلم واجبا في كل حالة .

ومنه قوله عليه السلام: " طلب العلم فريضة على كل مسلم "[١] .

قال الشافعي_ رحمه الله_: " طلب العلم قسمان: فرض عين، وفرض كفاية، ففرض العين: علمك بحالتك التي أنت فيها، وفرض الكفاية ما عدا ذلك][٢] .

ـــــ وبناء على ما سبق من هاتين المقدمتين: يتقرر معنا أن العلم الشرعي فرض على كل مسلم مكلف إلا أن منه ما هو فرض عين لا يسع المكلف تركه، ومنه ما هو فرض كفاية .

وعلى تقسيم العلم الشرعي إلى فرض عين، وفرض كفاية: اتفق أهل العلم .

---

(١) ورد هذا الحديث عن علي، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وجابر، وأنس، وأبي سعيد، وقد أخرج هذه الأحاديث ابن الجوزي في " العلل المتناهية١/٦٤: ٧٥ " كما أخرج ابن عبد البر في " جامع بيان العلم١/٢٣: ٣٨ " حديث أنس من طرق عدة، وقد حسّن هذا الحديث بعض الأئمة، وصححه بعضهم، قال السخاوي في " المقاصد الحسنة/٢٧٦ ": [قال العراقي: قد صحح بعض الأئمة بعض طرقه كما بينته في تخريج الإحياء، وقال المزي: إن طرقه تبلغ به رتبة الحسن] .

ونقل العجلوني في " كشف الخفاء١/١٥٤ " قول الذهبي عن الحديث: [روي من عدة طرق واهية وبعضها صالح] كما نقل في " ٢/٥٦: ٥٧ " تحسين الحافظ ابن حجر له من طريق أنس عند ابن ماجه وهي الطريق التي سكت عليها المنذري في " الترغيب١/٥٢ "، والحديث حسّنه السيوطي في " الدرر المنتثرة/١٣٠ "، وقال المناوي في " فيض القدير٤/٢٦٧ ": [قال المصنف_ أي: السيوطي_ جمعتُ له خمسين طريقاً، وحكمت بصحته لغيره ولم أصحح حديثاً لم أسبق لتصحيحه سواه، وقال السخاوي: له شاهد عند ابن شاهين بسند رجاله ثقات عن أنس ورواه عنه نحو عشرين تابعياً] .

(٢) " الفروق٢/١٤٨: ١٤٩ " .

قال ابن حزم_ رحمه الله_: [قال الله تعالى: { وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم }: فبيّن الله عز وجل في هذه الآية وجه التفقه كله، وأنه ينقسم قسمين:

أحدهما: يخص المرء في نفسه، وذلك مبين في قوله تعالى: { ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم }: فهذا معناه تعليم أهل العلم لمن جهل حكم ما يلزمه .

والثاني: تفقه من أراد وجه الله تعالى بأن يكون منذراً لقومه وطبقته، قال تعالى: { فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون } ...][(١)] .

وقال الغزالي_ رحمه الله_: في الباب الثاني من " كتاب العلم " في الإحياء في بيان: " العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما " .

قال_ رحمه الله_: [وفيه بيان ما هو فرض عين، وما هو فرض كفاية ...][(٢)] .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [طلب العلم ينقسم قسمين:

فرض على الأعيان: كالصلاة، والزكاة، والصيام، وفي هذا المعنى جاء الحديث المروي: " إن طلب العلم فريضة " .

روى عبد القدوس بن حبيب أبو سعيد الوحاظي عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم النخعي قال سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " طلب العلم فريضة على كل مسلم " .

قال إبراهيم: لم أسمع من أنس بن مالك إلا هذا الحديث .

وفرض على الكفاية: كتحصيل الحقوق، وإقامة الحدود، والفصل بين الخصوم ونحوه إذ لا يصلح أن يتعلمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سراياهم وتنقص أو تبطل معايشهم، فتعين بين الحالين أن يقوم به البعض من غير تعيين، وذلك بحسب ما يسره الله لعباده، وقسمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته][(٣)] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [وطلب العلم الشرعي فرض على الكفاية إلا فيما يتعين ...][(٤)].

فدلت هذه النصوص_ وغيرها كثير_ على اتفاق أهل العلم على أن العلم منه ما هو فرض عين لا يسع المكلف تركه، ومنه ما هو فرض كفاية .

وقد حكى ابن عبد البر على ذلك: الإجماع، فقال_ رحمه الله_: [أجمع العلماء على أن من العلم ما هو

---

(١) " الإحكام٥/١١٣ " .

(٢) " إحياء علوم الدين١/٢٥ " .

(٣) " تفسير القرطبي ٨/ ٢٩٥ " .

(٤) " الفتاوى٢٨/٨٠ " .

فرض متعين على كل إمريء في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع][1] .

ــــ وعليه؛ فأفراد الطائفة المنصورة بالنسبة للعلم الشرعي على مرتبتين إجمالاً:

المرتبة الأولى: من وقفوا عند حد فرض العين من العلم الشرعي .

المرتبة الثانية: من سعوا في تحصيل فرض الكفاية من العلم الشرعي بعد تحصيلهم فرض العين منه من العلماء، وطلبة العلم .

وسوف نتكلم_ إن شاء الله_ عن العلم الشرعي المتعلق بأهل كل مرتبة من هاتين المرتبتين، فنقول:

(١) " جامع بيان العلم١/١٠ " .

ـــــ أولاً:

العلم الشرعي المتعلق بأهل المرتبة الأولى:

وهذه المرتبة كما سبق معنا: هي مرتبة الفرضية العينية، وقد تكلم العلماء على هذه الفرضية العينية من العلم، وبينوا مفرداتها أو أغلبها بياناً شافياً لا مزيد عليه:

ـ قال الإمام الشافعي_ رحمه الله_: [فقال لي قائل: ما العلمُ ؟، وما يجب على الناس في العلم ؟ .

فقلت له: العلمُ علمانِ: علم عامَّةٍ لا يَسَعُ بالغاً غيرَ مغلوبٍ على عقله جهلُه .

قال: ومِثْلُ ماذا ؟ .

قلتُ: مِثلُ الصلواتِ الخمسِ، وأن لله على الناس صوم شهرِ رمضان، وحَجَّ البيتِ إذا استطاعوه، وزكاةً في أموالهم، وأنه حَرَّم عليهم: الزِّنا، والقتل، والسرقة، والخمرَ، وما كان في معنى هذا ممّا كُلِّفَ العِبادُ أن يعقلوه ويعملوه ويُعطوه من أنفسهم وأموالهم، وأن يكفوا عن ما حرَّم عليهم منه .

وهذا الصنف كله من العلم موجود نصًّا في كتاب اللهِ، وموجود عامًّا عند أهل الإسلام، ينقُلهُ عوامُّهم عن من مضى من عوامهم، يحكونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم.

وهذا العلم العام الذي لا يُمكن فيه الغلطُ من الخبر، ولا التأويلُ، ولا يجوزُ فيه التنازعُ ...][1] .

ـ وقال ابن حزم_ رحمه الله_: " الباب الحادي والثلاثون: في صفة التفقه في الدين، وما يلزم كل إمريء طلبه من دينه " .

[قال الله تعالى: { وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم }؛ فبين الله عز وجل في هذه الآية وجه التفقه كله، وأنه ينقسم قسمين:

أحدهما: يخص المرء في نفسه، وذلك مبين في قوله تعالى: { ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم }: فهذا معناه تعليم أهل العلم لمن جهل حكم ما يلزمه .

والثاني: تفقه من أراد وجه الله تعالى بأن يكون منذراً لقومه وطبقته، قال تعالى: { فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون } .

ففرض على كل أحد طلب ما يلزمه على حسب ما يقدر عليه من الاجتهاد لنفسه في تعرّف ما ألزمه الله تعالى إياه، وقد بينا قبل أن الاجتهاد هو افتعال من الجهد: فهو في الدين إجهاد المرء نفسه في طلب ما تعبده

(١) " الرسالة/٣٥٦ " .

الله تعالى به في القرآن، وفيما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لا دين غيرهما، فأقلهم في ذلك درجة مَنْ هو في غمار العامة، ومن حدث عهده بالجلب من بلاد الكفر وأسلم من الرجال والنساء.

وقد ذكرنا كيف يطلب هؤلاء علم ما يلزمهم من شرائع الإسلام في باب إبطال التقليد من كتابنا هذا فأغنى عن ترداده، ونذكر منه هاهنا ما لا بد من ذكره.

وهو أن كل مسلم عاقل بالغ من ذكر أو أنثى حر أو عبد يلزمه: الطهارة، والصلاة، والصيام فرضاً بلا خلاف من أحد من المسلمين، وتلزم الطهارة، والصلاة: المرضى، والأصحاء، ففرض على كل من ذكرنا أن يعرف فرائض صلاته، وصيامه، وطهارته، وكيف يؤدي كل ذلك .

وكذلك يلزم كل من ذكرنا أن يعرف ما يحل له، ويحرم عليه من: المآكل، والمشارب، والملابس، والفروج، والدماء، والأقوال، والأعمال، فهذا كله لا يسع جهله أحداً من الناس: ذكورهم وإناثهم، أحرارهم وعبيدهم وإمائهم .

وفرض عليهم أن يأخذوا في تعلم ذلك من حين يبلغون الحلم وهم مسلمون أو من حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم، ويجبر الإمام أزواج النساء، وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا، إما بأنفسهم وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتب أقواماً لتعليم الجهال .

ثم قال_ رحمه الله_:

ثم فرض على كل ذي مال: تعلم حكم ما يلزمه من الزكاة، وسواء الرجال والنساء، والعبيد والأحرار، فمن لم يكن له مال أصلاً: فليس تعلم أحكام الزكاة عليه فرضاً، ثم من لزمه فرض الحج: ففرض عليه تعلم أعمال الحج، والعمرة، ولا يلزم ذلك مَن لا صحة لجسمه، ولا مال له .

ثم فرض على قواد العساكر: معرفة السير، وأحكام الجهاد، وقسم الغنائم والفيء، ثم فرض على الأمراء والقضاة: تعلم الأحكام، والأقضية، والحدود، وليس تعلم ذلك فرضاً على غيرهم .

ثم فرض على التجار وكل من يبيع غلته: تعلم أحكام البيوع، وما يحل منها، وما يحرم، وليس ذلك فرضاً على مَن لا يبيع، ولا يشتري][(١)] .

ـــ وروى الخطيب بإسناده عن علي بن أبي طالب، وعن أنس_ رضي الله عنهما_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " طلب الفقه فريضة على كل مسلم " .

ثم قال الخطيب_ رحمه الله_: [قال بعض أهل العلم: إنما عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا القول: علم التوحيد، وما يكون العامل به مؤمناً، وأن العلم بذلك فريضة على كل مسلم، ولا يسع أحداً جهله إذ كان وجوبه على العموم دون الخصوص .

وقيل: معناه إن طلب العلم فريضة على كل مسلم: إذا لم يقم بطلبه من كل سقع وناحية مَن فيه الكفاية، وهذا القول يروى عن سفيان بن عيينة .

---

(١) " الإحكام٥/١١٣: ١١٤ " .

ثم ساق بسنده عن ابن عيينة_ رحمه الله_ قوله:

" ليس على كل المسلمين فريضة إذا طلب بعضهم: أجزأ عن بعض؛ مثل الجنازة: إذا قام بها بعضهم: أجزأ عن بعض. ونحو ذلك " .

قلت_ الخطيب_: والذي أراد ابن عيينة معرفة الأحكام الفقهية المتعلقة بفروع الدين، فأما الأصول التي هي معرفة الله سبحانه، وتوحيده، وصفاته، وصدق رسله: فمما يجب على كل أحد معرفته ولا يصح أن ينوب فيه بعض المسلمين عن بعض .

وقيل: معنى قوله عليه السلام: " طلب العلم فريضة على كل مسلم ": أن على كل أحد فرضاً أن يتعلم ما لا يسعه جهله من علم حاله .

وقد بيّن ذلك عبد الله بن المبارك ...

ثم ساق بسنده عن ابن المبارك_ رحمه الله_ قوله: " إنما طلب العلم فريضة: أن يقع الرجل في شئ من أمر دينه يسأل عنه حتى يعلمه " .

ثم ساق الخطيب بسنده عن علي بن الحسن بن شقيق، قال سألت عبد الله بن المبارك: ما الذي يجب على الناس من تعلم العلم ؟ .

قال: أن لا يقدم الرجل على الشيء إلا بعلم: يسأل، ويتعلم: فهذا الذي يجب على الناس من تعلم العلم " .

وفسّره، قال: " لو أن رجلاً ليس له مال: لم يكن عليه واجباً أن يتعلم الزكاة، فإذا كان له مائتا درهم: وجب عليه أن يتعلم: كم يخرج، ومتى يخرج، وأين يضع، وسائر الأشياء على هذا " .

قلتُ_ الخطيب_: وهكذا روى عن علي بن أبي طالب أنه أمر تاجراً بالتفقه قبل التجارة .

ثم ساق الخطيب بسنده عن علي_ رضي الله عنه_: أنه جاءه رجل فقال يا أمير المؤمنين أريد أن أتجر .

فقال له: الفقه قبل التجارة، إنه من تجر قبل أن يفقه: ارتطم في الربا ثم ارتطم .

ثم ساق الخطيب بسنده عن مالك_ رحمه الله_ وذكر العلم، فقال: " إن العلم لحسن، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي ومن حين تمسي إلى حين تصبح: فالزمه ولا تؤثر عليه شيئاً " .

ثم أسند الخطيب عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: سألت أبي عن الرجل يجب عليه طلب العلم ؟ .

فقال: " أمّا ما يقيم به الصلاة، وأمر دينه من: الصوم، والزكاة، وذكر شرائع الإسلام، قال: " ينبغي له أن يعلم ذلك " .

قلتُ_ الخطيب_: فواجب على كل أحد: طلبُ ما يلزمه معرفته ممّا فرض الله عليه على حسب ما يقدر عليه من الاجتهاد لنفسه، وكل مسلم بالغ عاقل من ذكر وأنثى، حر وعبد: تلزمه الطهارة، والصلاة، والصيام فرضاً: فيجب على كل مسلم تعرف علم ذلك .

وهكذا يجب على كل مسلم أن يعرف ما يحل له، وما يحرم عليه من: المآكل، والمشارب، والملابس، والفروج، والدماء، والأموال: فجميع هذا لا يسع أحداً جهله، وفرض عليهم أن يأخذوا في تعلم ذلك حتى

يبلغوا الحلم وهم مسلمون أو حين يسلمون بعد بلوغ الحلم .

ويجبر الإمام أزواج النساء، وسادات الإماء على تعليمهن ما ذكرنا، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، ويرتب أقواماً لتعليم الجهال، ويفرض لهم الرزق في بيت المال، ويجب على العلماء تعليم الجاهل ليتميز له الحق من الباطل](١) .

ـــ وروى ابن عبد البر بإسناده عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " طلب العلم فريضة على كل مسلم " .

ثم روى_ رحمه الله_ بسنده عن إسحاق بن راهويه_ رحمه الله_، قال:

" طلب العلم واجب، ولم يصح فيه الخبر(٢) إلا أن معناه: أنه يلزمه طلب علم ما يحتاج إليه من: وضوئه، وصلاته، وزكاته إن كان له مال، وكذلك الحج، وغيره، قال: وما وجب عليه من ذلك: لم يستأذن أبويه في الخروج إليه، وما كان فضيلة: لم يخرج إليه حتى يستأذن أبويه " .

قال ابن عبد البر: [يريد إسحاق_ والله أعلم_ أن الحديث في وجوب طلب العلم في أسانيده مقال لأهل العلم بالنقل، ولكن معناه صحيح عندهم] .

ثم روى ابن عبد البر بإسناده عن ابن وهب قال:

" سُئِل مالك عن طلب العلم؛ أهو فريضة على الناس ؟، قال: " لا، ولكن يطلب من المرء ما ينتفع به في دينه".

وروى ابن عبد البر عن الحسن بن الربيع، قال سألت ابن المبارك قلت: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم " .

قال: " ليس هو الذي يطلبونه، ولكن فريضة على من وقع في شئ من أمر دينه: أن يسأل عنه حتى يعلمه " .

وروى ابن عبد البر بإسناده عن سفيان بن عيينة، قال: " طلب العلم، والجهاد: فريضة على جماعتهم، ويجزيء فيه بعضهم عن بعض، وتلا هذه الآية: { فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم } ".

وبعد ذكره لأقوال الأئمة_ رحمهم الله_، قال ابن عبد البر:

[أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل إمريء في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع ...

ثم قال_ رحمه الله_:

والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك: ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه، نحو:

---

(١) سبق الكلام حول صحة الحديث، وذكر من صححه أو حسنه من العلماء .

(٢) " الفقيه والمتفقه١/٤٣: ٤٦ " .

الشهادة باللسان، والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له: لا شبه له ولا مثل، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، خالق كل شيء، وإليه مرجع كل شيء، المحيي، المميت، الحي الذي لا يموت، والذي عليه جماعة أهل السنة أنه لم يزل بصفاته، وأسمائه، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، وهو على العرش استوى .

والشهادة بأن محمداً عبده ورسوله، وخاتم أنبيائه: حق، وأن البعث بعد الموت للمجازاة بالأعمال، والخلود في الآخرة لأهل السعادة بالإيمان والطاعة في الجنة، ولأهل الشقاوة بالكفر والجحود في السعير: حق، وأن القرآن: كلام الله، وما فيه: حق من عند الله يجب الإيمان بجميعه واستعمال محكمه، وأن الصلوات الخمس: فرض، ويلزمه من عِلْمها: علم ما لا تتم إلا به من: طهارتها، وسائر أحكامها، وأن صوم رمضان: فرض، ويلزمه عِلْم ما يفسد صومه، وما لا يتم إلا به .

وإن كان ذا مال وقدرة على الحج: لزمه فرضاً أن يعرف ما تجب فيه الزكاة، ومتى تجب، وفي كم تجب، ويلزمه أن يعلم بأن الحج عليه فرض مرة واحدة في دهره إن استطاع إليه سبيلاً .

إلى أشياء يلزمه معرفة جملها، ولا يعذر بجهلها، نحو تحريم: الزنا، والربا، وتحريم الخمر، والخنزير، وأكل الميتة، والأنجاس كلها، والغصب، والرشوة على الحكم، والشهادة بالزور، وأكل أموال الناس بالباطل، وبغير طيب من أنفسهم إلا إذا كان شيئاً لا يتشاح فيه، ولا يرغب في مثله، وتحريم الظلم كله، وتحريم نكاح الأمهات، والأخوات، ومن ذكر معهن، وتحريم قتل النفس المؤمنة بغير حق، وما كان مثل هذا كله ممّا قد نطق الكتاب به وأجمعت الأمة عليه][(١)] .

ـــ وقال الغزالي_ رحمه الله_: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " طلب العلم فريضة على كل مسلم "، وقال_ أيضاً_ صلى الله عليه وسلم: " اطلبوا العلم ولو بالصين "، واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم ...

إلى أن قال_ رحمه الله_:

والذي ينبغي أن يقطع به المحصِّل ولا يستريب فيه ما سنذكره، وهو أن العلم كما قدّمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة، وعلم مكاشفة، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة، والمعاملة التي كُلِّف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة: اعتقاد، وفعل، وترك .

فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار_ مثلاً_: فأول واجب عليه: تعلم كلمتي الشهادة، وفهم معناهما، وهو قول: " لا إله إلا الله، محمد رسول الله "، وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة بل يكفيه أن يصدّق به، ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث، ولا برهان إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل .

فإذا فعل ذلك: فقد أدى واجب الوقت، وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت: تعلم الكلمتين وفهمهما، وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت بدليل أنه لو مات عقيب ذلك: مات مطيعاً لله عز وجل، غير

---

(١) " جامع بيان العلم١/٧: ١١ " .

عاص له، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض، وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص بل يتصوّر الانفكاك، وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل، وإما في الترك، وإما في الاعتقاد .

أما الفعل: فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر: تعلم الطهارة، والصلاة، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم، والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعليم: فلا يبعد أن يقال: الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت، ويحتمل أن يقال: وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال، وهكذا في بقية الصلوات، فإن عاش إلى رمضان: تجدّد بسببه وجوب تعلم الصوم: وهو أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس، وأن الواجب فيه: النية، والإمساك عن الأكل، والشرب، والوقاع، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين، فإن تجدّد له مال أو كان له مال عند بلوغه: لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة، ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام، فإن لم يملك إلا الإبل: لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل، وكذلك في سائر الأصناف، فإذا دخل في أشهر الحج: فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور، ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكاً حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة، فعند ذلك إذا عزم عليه: لزمه تعلم كيفية الحج، ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله، فإن فِعْل ذلك نفل: فعِلْمُه_ أيضاً_ نفل فلا يكون تعلمه فرض عين، وفي تحريم السكوت على التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه .

وهكذا التدرج في علم سائر الأفعال التي هى فرض عين .

وأما التروك: فيجب تعلم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن، فذلك_ أيضاً_ واجب بحسب ما يقتضيه الحال، فما يعلم أنه ينفك عنه: لا يجب تعلمه، وما هو ملابس له: يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لابساً للحرير أو جالساً في الغصب أو ناظراً إلى غير ذي محرم، فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملابساً له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب: فيجب تعليمه، حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير: فيجب تعليمه ذلك، وتنبيهه عليه، وما وجب تعليمه: وجب عليه تعلمه .

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب: فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة: فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك، فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم، وأنه مرئي، وأنه ليس محلاً للحوادث إلى غير ذلك ممّا يذكر في المعتقدات، فقد مات على الإسلام إجماعاً، ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع، وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد، فإن كان في بلد شاع فيه الكلام، وتناطق الناس بالبدع: فينبغي أن يصان في أول بلوغه عنها بتلقين الحق، فإنه لو ألقي إليه الباطل: لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا: وجب عليه تعلم الحذر من الربا، وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين، ومعناه: العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه: فقد علم العلم الذي هو فرض عين ...

إلى أن قال_ رحمه الله_:

ومما ينبغي أن يبادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى: الإيمان بالجنة والنار، والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق، وهو من تتمة كلمتي الشهادة، فإنه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولاً ينبغي أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها: وهو أن من أطاع الله ورسوله: فله الجنة، ومن عصاهما: فله النار .

فإذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا، وتحققت أن كل عبد هو في مجاري أحواله في يومه وليلته: لا يخلو من وقائع في عبادته، ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه: فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر، ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً](1) .

ـ وقال النووي_ رحمه الله_: [الأول: فرض العين، وهو: تعلم المكلَّف ما لا يتأدي الواجب الذي تعين عليه فعله إلا به: ككيفية الوضوء، والصلاة، ونحوهما، وعليه حمل جماعات الحديث المروي في مسند أبي يعلى الموصلي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: " طلب العلم فريضة على كل مسلم " .

وهذا الحديث وإن لم يكن ثابتاً، فمعناه: صحيح، وحمله آخرون على فرض الكفاية .

وأما أصل واجب الإسلام، وما يتعلق بالعقائد: فيكفي فيه التصديق بكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتقاده اعتقاداً جازماً سليماً من كل شك ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين، هذا هو الصحيح الذي أطبق عليه السلف، والفقهاء، والمحققون من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطالب أحداً بشيء سوى ما ذكرناه، وكذلك الخلفاء الراشدين، ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأول ...

إلى أن قال:

(فرع): لا يلزم الإنسان تعلم كيفية الوضوء والصلاة وشبههما إلا بعد وجوب ذلك الشيء، فإن كان بحيث لو صبر إلى دخول الوقت لم يتمكن من تمام تعلمها مع الفعل في الوقت؛ فهل يلزمه التعلم قبل الوقت ؟: تردد فيه الغزالي، والصحيح ما جزم به غيره أنه يلزمه تقديم التعلم كما يلزم السعي إلى الجمعة لمن بعد منزله قبل الوقت ثم إذا كان الواجب على الفور: كان تعليم الكيفية على الفور، وإن كان على التراخي كالحج: فعلى التراخي ثم الذي يجب من ذلك كله: ما يتوقف أداء الواجب عليه غالباً دون ما يطرأ نادراً، فإن وقع: وجب التعلم حينئذ، وفي تعلم أدلة القبلة: أوجه؛ أحدها: فرض عين، والثاني: كفاية، وأصحهما: فرض كفاية إلا أن يريد سفراً: فيتعين لعموم حاجة المسافر إلى ذلك .

(فرع) أما البيع، والنكاح، وشبههما ممّا لا يجب أصله؛ فقال إمام الحرمين، والغزالي، وغيرهما: يتعين على من أراده: تعلم كيفيته وشرطه، وقيل: لا يقال يتعين بل يقال يحرم الإقدام عليه إلا بعد معرفة شرطه وهذه العبارة أصح، وعبارتهما محمولة عليها، وكذا يقال في صلاة النافلة يحرم التلبس بها على من لم يعرف كيفيتها، ولا يقال يجب تعلم كيفيتها .

(فرع) يلزمه معرفة ما يحل، وما يحرم من: المأكول، والمشروب، والملبوس، ونحوها ممّا لا غنى له عنه

---

(1) " إحياء علوم الدين ٢٥/١: ٢٧ " .

غالباً، وكذلك أحكام عشرة النساء إن كان له زوجة، وحقوق المماليك إن كان له مملوك ونحو ذلك ...

إلى أن قال:

(فرع) أما علم القلب، وهو معرفة أمراض القلب: كالحسد، والعجب، وشبههما، فقال الغزالي: معرفة حدودها، وأسبابها، وطبها، وعلاجها: فرض عين، وقال غيره: إن رُزق المكلَّف قلباً سليماً من هذه الأمراض المحرمة: كفاه ذلك، ولا يلزمه تعلم دوائها، وإن لم يَسلم: نظر إن تمكن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلم: لزمه التطهير كما يلزمه ترك الزنا ونحوه من غير تعلم أدلة الترك، وإن لم يتمكن من الترك إلا بتعلم العلم المذكور: لزمه ذلك حينئذ، والله أعلم][(١)] .

ـــــ ويتجمع لنا من كلام أهل العلم السابق_ وغيره_ أن العلم الذي هو فرض عين: على صور ثلاث:

الأولى:

ما يلزم كل مكلف ابتداءً، وقد مرّ معنا قول الإمام الشافعي_ رحمه الله_ في بيان فرض العين من العلم بأنه: " علم عامَّةٍ لا يَسَعُ بالغاً غيرَ مغلوبٍ على عقله جهلُه ".

كما مر معنا_ كذلك_ قول ابن عبد البر_ رحمه الله_: [والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك: ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه ...] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ في تعريف فرض العين من العلم: [طلبُ كل واحدٍ عِلم ما أمره اللهُ به، وما نهاه عنه، فإن هذا فرض على الأعيان][(٢)].

الثانية:

ما لا يلزم ابتداءً، وإنما يلزم بالشروع فيه، وهو ما يعرف بعلم الحال، أي: الحال التي يكون عليه المكلف، فإذا كان في حال ما: وجب عليه تعلم أحكامه:

قال ابن المبارك_ رحمه الله_: " إن على كل أحد فرضاً أن يتعلم ما لا يسعه جهله من علم حاله "[(٣)] .

وقد مر معنا قول إسحاق بن راهويه_ رحمه الله_: " طلب العلم: واجب، ولم يصح فيه الخبر إلا أن معناه: أنه يلزمه طلب علم ما يحتاج إليه ... "[(٤)] .

وقال الغزالي_ رحمه الله_: [وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين، ومعناه: العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه: فقد علم العلم الذي هو فرض عين ...][(٥)] .

---

(١) " المجموع١/٢٤: ٢٦ " .

(٢) " مجموع الفتاوى٢٨/٨٠ " .

(٣) " الفقيه والمتفقه١/٤٥ " .

(٤) " جامع بيان العلم١/٩ " .

(٥) " الإحياء١/٢٦ " .

وقال النووي_ رحمه الله_: [فرض العين، وهو: تعلم المكلَّف ما لا يتأدي الواجب الذي تعين عليه فعله إلا به ...][(١)] .

الثالثة:

ما يلزم المكلف نادراً، وهي النوازل التي قد تنزل به، فإذا نزلت به نازلة: وجب عليه السؤال عن أحكامها، وقد مرّ معنا قول الغزالي: [كل عبد هو في مجاري أحواله في يومه وليلته: لا يخلو من وقائع في عبادته، ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه: فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر، ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً] .

وقال النووى_ رحمه الله_: [ويجب عليه الاستفتاء إذا نزلت به حادثة يجب عليه علم حكمها، فإن لم يجد ببلده من يستفتيه: وجب عليه الرحيل إلى من يفتيه وإن بَعُدت داره، وقد رحل خلائق من السلف فى المسألة الواحدة الليالى والأيام][(٢)].

ــ ويجمع كل هذه الصور في بيان فرض العين من العلم في حق المكلف: قول الإمام عبد الله بن المبارك_ رحمه الله_: " إنما طلب العلم فريضة: أن يقع الرجل في شئ من أمر دينه: يسأل عنه حتى يعلمه "[(٣)] .

وقوله_ رحمه الله_: " أن لا يقدم الرجل على الشيء إلا بعلم: يسأل، ويتعلم؛ فهذا الذي يجب على الناس من تعلم العلم "[(٤)] .

ـــــ وعليه؛ فالعلم الشرعي المتعلق بأفراد الطائفة المنصورة من أهل المرتبة الأولى يشمل: مفردات ما يجب على المكلف علمه ابتداءً، و تتضمن مفردات هذه الصورة: أصول هذا الدين ومسائله الكبار التي يقوم عليه بناء الإسلام من الأوامر والنواهي المتعلقة: بالقلب، واللسان، والجوارح، وقد مرت معنا نصوص أهل العلم في بيان هذه المفردات بما يغني عن إعادته إلا أنّا نجمل كلامهم في الآتي:

أولاً: معرفة أركان الإسلام، وأركان الإيمان، ومعنى التوحيد، ومعنى الشرك والكفر .

ثانياً: معرفة أحكام الطهارة، والصلاة، والصوم .

ثالثاً: معرفة أحكام المناهي والمحرمات الشرعية: الظاهرة والباطنة .

رابعاً: معرفة الواجبات، والآداب الشرعية: الظاهرة والباطنة .

ثم يتعلق بكل فرد من أفراد الطائفة المنصورة من أهل المرتبة الأولى بعد ذلك معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بكل عمل يشرع فيه، من: زكاة أو حج أو جهاد أو بيع وشراء أو رهن أو إجارة أو نحو ذلك مع

---

(١) " المجموع١/٢٤ " .

(٢) " المجموع١/٥٤ " .

(٣) " الفقيه والمتفقه١/٤٦ "، وانظر: " جامع بيان العلم١/١٠ " .

(٤) " الفقيه والمتفقه١/٤٦ " .

دوام سؤاله عمّا ينزل به ممّا ليس له به عهد، فلا يقدم على شئ من القول أو الفعل أو الاعتقاد إلا عن علم .

والمراد بالعلم الواجب في هذه المرتبة: العلم المجمل دون المفصل، فلا يجب العلم بالأدلة التفصيلية في كل مسألة، وإنما يكفي العلم بحكم الشرع مجملاً في كل مسألة واجبة، وأن يعلم أن هذا هو حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وإن لم يعرف دليله المفصل .

ـــ تنبيه هام:

أهل هذه المرتبة والعلم بالتوحيد .

التوحيد: هو أصل الإسلام، وأسه، وأساسه، فلا إسلام بغير توحيد، فهو: الأصل الأصيل، والركن الركين، والغاية من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وخَلق العالمين، وله: كان سوق الجنة، وسوق النار، وعليه: انقسم الناس: فريقاً نجا، وفريقاً حق عليه البوار .

وسائر أحكام الدين: ما هي إلا فرع بالنسبة للتوحيد، فهو أساس قبول الأعمال أو ردها، وأساس صحتها أو فسادها، وقد قيل:

إذا اختلّ شيئاً بناء الأساس تضاعف في الصرح ذاك الخلل

ولذا؛ كان التوحيد أول ما أمر الشرع بعلمه وتعلمه:

* قال تعالى: { فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك } .

فأمر بالعلم أولاً بتوحيده سبحانه وتعالى .

والآيات التي يأمر الله تعالى فيها بتوحيده، وعبادته وحده: يمتلىء بها كتاب الله من أوله إلى آخره بل القرآن كله توحيد .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه إلى أهل اليمن:

" إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم: إلى أن يوحِّدوا الله تعالى " الحديث(١) .

وفي رواية: " فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله " الحديث(٢) .

وفي رواية أخرى: " فإذا جئتهم: فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله "الحديث(٣).

فالتوحيد: أول واجب، وأول مأمور به، وهو أهم ما تعلق به العلم .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [بدأ بالشهادتين لأنهما أصل الدين، الذي لا يصح شيء إلا بهما، فمــن

---

(١) " البخاري٦/٢٦٨٥ " .

(٢) " البخاري٢/٥٢٩ " .

(٣) " البخاري٢/٥٤٤، ٤/١٥٨٠ " .

كان غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين، ومن كان موحداً فالمطالبة لـــه بالجمع بين الإقرار والوحدانية ...

ثم قال:

بدأ **بالأهم، فالأهم**، وذلك من التلطف في الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع لأول مرة لم يأمن النفرة](١) .

ـــ فـــ" التوحيد ": هو أهم ما يبدأ به .

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن_ رحمه الله_ وهو يتحدث عن طلب العلم:

[وأما كيفية الطلب: ففي حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً إلى اليمن فقال: "إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ... " الحديث .

فيه بيان كيفيته، والبداءة بالأهم: فالأهم من واجبات الإيمان، وأركان الإسلام .

وينتقل درجة، درجة من الأعلى إلى ما دونه ثم بعد ذلك يتعلم ما يجب من الحقوق بخلاف ما يفعله بعض الطلبة من الاشتغال بالفروع والذيول، وفي كلام شيخ الإسلام_ قدس الله روحه_ **من ضيع الأصول: حرم الوصول**، ومن ترك الدليل: ضل السبيل](٢) .

قلت: وقد (قال صالح بن عبد القدوس:

لن تبلغ الفرع الذي رمته إلا ببحث منك عن أسّه

وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: إذا ثبتت الأصول في القلوب: نطقت الألسن بالفروع)(٣) .

* وقد حكى الله تعالى عن لقمان أن أول ما قاله لابنه في وصيته له وهو أشفق الناس به، وأحرصهم عليه: أن قال: { يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } .

فكان تحقيق التوحيد: بصرف العبادة لله وحده، ونفيها عن كل ما سواه: أول ما أوصاه به، فدل على أن ذلك: أول، وأعظم ما يُوصى به، ويُحرص عليه: دعوةً، وعلماً، وتعليماً .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقول تعالى مُخبراً عن وصية لقمان لولده ... الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيقٌ أن يمنحه أفضل ما يَعرف، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ثم قال محذراً له: { إن الشرك لظلم عظيم }، أي: هو أعظم الظلم](٤) .

* وقد حكى الله تعالى_ كذلك_ عن يعقوب عليه السلام أنه قال لبنيه عندما حضره الموت: موصياً، وآمراً،

---

(١) " الفتح٣/٣٥٧ " .

(٢) " مجموع الرسائل والمسائل النجدية٣/٢٩٠ " .

(٣) " جامع بيان العلم٢/٣٦ " .

(٤) " تفسير ابن كثير٣/٤٤٥ " .

ومحذراً: { ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون } .

فكان تحقيق التوحيد: بصرف العبادة لله وحده، ونفيها عن كل ما سواه: آخر ما أوصى به نبي الله يعقوب أبناءه، وأهم، وأعظم ما حرص عليه السلام أن يترك أبناءه عليه .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [مقام التوحيد: أولى المقامات أن يبدأ به كما أنه أول دعوة الرسل كلهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: " فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله "، وفي رواية: " إلى أن يعرفوا الله "، **ولأنه لا يصح مقام من المقامات، ولا حال من الأحوال إلا به...**](1).

وقال_ رحمه الله_ أيضاً_: [التوحيد: أول دعوة الرسل، وأول منازل السلام، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى، قال تعالى: { لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره }، وقال هود لقومه: { اعبدوا الله مالكم من إله غيره }، وقال صالح لقومه: { اعبدوا الله ما لكم من إله غيره }، وقال شعيب لقومه: { اعبدوا الله ما لكم من إله غيره }، وقال تعالى: { ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } .

فالتوحيد: مفتاح دعوة الرسل، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لرسوله معاذ بن جبل_ رضي الله عنه_، وقد بعثه إلى اليمن: " إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله وحده، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة "، وذكر الحديث، وقال صلى الله عليه وسلم: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " .

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم.

فالتوحيد: أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة "، فهو: أول واجب، وآخر واجب، فالتوحيد: أول الأمر، وآخره](2).

ـــــ وعلى ذلك: فأفراد الطائفة المنصورة من أهل مرتبة العلم العيني: أول وأهم ما يحققون من العلم: العلم بالتوحيد: نفياً وإثباتاً(٣) .

* قال تعالى: { **فاعلم** أنه لا إله إلا الله } [محمد: ١٩] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسيره للآية السابقة: [وهذا العلم الذي أمر الله به_ وهو العلم بتوحيد

---

(١) " المدارج١/١٣٤: ١٣٥ " .

(٢) " المرجع السابق٣/٤٤٣: ٤٤٤ " .

(٣) والعلم هنا: هو علم مجمل، يكفي في ثبوت الإيمان وتحقيقه، ويمنع_ بإذن الله_ من الوقوع في شئ من نواقضه .

الله_: فرض عين على كل مسلم لا يسقط عن أحد كائناً من كان بل كل مضطر إلى ذلك][1] .

* وقال تعالى_ كذلك_: { هذا بلاغ للناس ولينذروا به **وليعلموا** أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب } [إبراهيم: ٥٢] .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { إلا من شهد بالحق **وهم يعلمون** } [الزخرف: ٨٦] .

* وقال صلى الله عليه وسلم: " من مات وهو **يعلم** أنه لا إله إلا الله: دخل الجنة "[2] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به قال الله تعالى: { إلا من شهد بالحق وهم يعلمون }][3] .

فـــ(الشاهد المقبول عند الله: هو الذي يشهد بعلم وصدق، فيخبر بالحق مستنداً إلى علمه به كما قال تعالى: {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون }، فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقاً من غير علمه به، وقد يعلمه ولا يُخبر به، فالشاهد المقبول عند الله: هو الذي يخبر به عن علم)[4] .

---

(١) " تفسير السعدي/٥٧٩ " .

(٢) " مسلم١/٥٥ " .

(٣) " المدارج٣/٤٥١ " .

(٤) " إعلام الموقعين٤/١٣٣ " .

ـــــ ثانياً:

العلم الشرعي المتعلق بأهل المرتبة الثانية:

وهذه المرتبة: هي مرتبة من سعوا في تحصيل فرض الكفاية من العلم الشرعي بعد تحصيلهم فرض العين منه: من العلماء، وطلبة العلم .

وقد بيّنّا آنفا أن العلم الشرعي من صفات الطائفة المنصورة بل من أهم صفاتها بل هو أساس قيامها بأمر الله، ولازم هذا الذي لا ينفك عنه: وجود أهل العلم إذ وجود العلم: وجود أهله، وذهاب العلم: ذهاب أهله .

وأهل العلم هؤلاء: هم القائمون بفرض الكفاية منه، ونصوص الأئمة في بيان هذه المرتبة الكفائية من العلم، وبيان مفرداتها: كثيرة جداً، منها :

ــ قال الإمام الشافعي_ رحمه الله_ بعد بيان النوع الأول من العلم، وهو فرض العين منه، قال:

[قال: فما الوجه الثاني ؟ .

قلت له: ما ينوبُ العبادَ من فروع الفرائض، وما يُخصُّ به من الأحكام وغيرها، ممّا ليس فيه نصُ كتاب، ولا في أكثره نصُ سنةٍ، وإن كانت في شيء منه سنة فإنما هى من أخبار الخاصّة لا أخبار العامّة، وما كان منه يحتملُ التأويلَ، ويُستدركُ قياساً .

قال: فيعدو هذا أن يكون واجباً وجوب العلم قبله أو موضوعاً عن الناس علمُه، حتى يكون مَن عَلِمَه مُنتفلاً، ومن ترك عِلمه غير آثمٍ بتركه أو من وجه ثالثٍ، فتوجدناهُ خبراً أو قياساً ؟ .

فقلت له: بل هو من وجه ثالثٍ.

قال: فصفه واذكر الحجَّة فيه، ما يلزمُ منه، ومن يلزمُ، وعن مَّن يسقطُ ؟ .

فقلت له: هذه درجة من العلم ليس تبلغها العامةُ، ولم يُكلفها كل الخاصَّة، ومن احتمل بلوغها من الخاصة: فلا يسعهم كلهم كافةً أن يُعطلوها، وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية: لم يحرج غيره ممن تركها_ إن شاء الله_، والفضلُ فيها لمن قام بها على من عطلها.

فقال: فأوجدني هذا خبراً أو شيئاً في معناه، ليكون هذا قياساً عليه ؟ .

فقلت له: فرض الله الجهاد في كتابه وعلى لسان نبيه، ثم أكد النفير من الجهاد فقال: { إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من اللهِ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم }.

وقال: { وقاتلوا المشركين كافةً كما يقاتلونكم كافةً، واعلموا أن الله مع المتقين } ...

إلى أن قال الشافعي_ رحمه الله_:

وقال: { انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون } .

قال: فاحتملت الآيات أن يكون الجهاد كله_ والنَّفير خاصة منه_: على كل مُطيقٍ له، لا يسع أحداً منهم التخلفُ عنه كما كانت الصلواتُ، والحجُّ، والزكاةُ، فلم يخرج أحدُ وجب عليه فرض منها من أن يُؤدي غيرُه الفرض عن نفسه لأن عمل أحدٍ في هذا لا يُكتبُ لغيره .

واحتملت أن يكون معنى فرضها غير معنى فرض الصلوات، وذلك أن يكون قُصد بالفرض فيها: قصد الكفاية فيكون من قام بالكفاية في جهاد من جُوهد من المشركين مُدركاً تأدية الفرض، ونافلة الفضل، ومخرجاً مَن تخلف من المأثم .

ولم يُسوي الله بينهما، فقال اللهُ: { لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلا وعد اللهُ الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً }، فأما الظاهرُ في الآيات: فالفرضُ على العامة .

قال: فأين الدلالة في أنه إذا قام بعض العامة بالكفاية أخرج المتخلفين من المأثم ؟ .

فقلت له: في هذه الآية .

قال: وأين هو منها ؟ .

قلت: قال اللهُ: { وكلا وعد اللهُ الحسنى }: فوعد المتخلفين عن الجهاد على الإيمان، وأبان فضيلة المجاهدين على القاعدين، ولو كانوا آثمين بالتخلف إذا غزا غيرهم: كانت العقوبةُ بالإثم إن لم يعفو الله: أولى بهم من الحسنى .

قـــال: فهل تجدُ في هذا غير هذا ؟ .

قلت: نعم، قال اللهُ: { وما كان المؤمنون لينفروا كافةً، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون } .

وغزا رسول الله، وغزا معه من أصحابه جماعة، وخلف أخرى حتى تخلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك، وأخبرنا الله أن المسلمين لم يكونوا لينفروا كافةً: { فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة }؛ فأخبر أن النفير على بعضهم دون بعض، وأن التفقه إنما هو على بعضهم دون بعضٍ .

وكذلك ماعدا الفرض في عظم الفرائض التي لا يسع جهلها، والله أعلم .

وهكذا كلُّ ما كان الفرضُ فيه مقصوداً به قصدَ الكفاية فيما ينوبُ، فإذا قام به مِن المسلمين مَن فيه الكفاية: خرج مَن تخلف عنه مِن المأثم .

ولو ضيعُوه معاً: خفتُ أن لا يخرج واحدٌ منهم مطيقٌ فيه من المأثم][(١)] .

ـــ وقال ابن حزم_ رحمه الله_: [قال الله تعالى: { وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم }: فبين الله عز وجل في هذه الآية وجه التفقه كله، وأنه ينقسم قسمين:

أحدهما: يخص المرء في نفسه، وذلك مبين في قوله تعالى: { ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم }، فهذا معناه تعليم أهل العلم لمن جهل حكم ما يلزمه .

والثاني: تفقه من أراد وجه الله تعالى بأن يكون منذراً لقومه وطبقته، قال تعالى: { فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون } .

ثم قال_ رحمه الله_ بعد أن بين فرض العين من العلم:

ثم فرض على كل جماعة مجتمعة في: قرية أو مدينة أو دسكرة_ وهى المجشرة عندنا_ أو حلة أعراب أو حصن: أن ينتدب منهم لطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها، ولتعلم القرآن كله، ولكتاب كل ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث الأحكام أولها عن آخرها، وضبطها بنصوص ألفاظها، وضبط كل ما أجمع المسلمون عليه، وما اختلفوا فيه: من يقوم بتعليمهم وتفقيههم من القرآن، والحديث، والإجماع .

ويكتفى بذلك على قدر قلتهم أو كثرتهم بالآية التي تلونا في أول هذا الباب بحسب ما يقدر أن يعمهم بالتعليم، ولا يشق على المستفتي قصده، فإذا انتدب لذلك من يقوم بما ذكرنا: فقد سقط عن باقيهم إلا ما يلزمه خاصة نفسه فقط على ما ذكرنا آنفا، ولا يحل للمفقه أن يقتصر على آراء الرجال دون ما ذكرنا .

فإن لم يجدوا في محلتهم مَن يفقههم في ذلك كله كما ذكرنا: ففرض عليهم الرحيل إلى حيث يجدون العلماء المحتوين على صنوف العلم، وإن بعدت ديارهم ولو أنهم بالصين، لقوله تعالى: { فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم }: والنفار والرجوع لا يكون إلا برحيل .

ومن وجد في محلته من يفقهه في صنوف العلم كما ذكرنا: فالأمة مجمعة على أنه لا يلزمه رحيل في ذلك، إلا القصد إلى مسجد الفقيه أو منزله فقط كما كان الصحابة يفعلون مع النبي صلى الله عليه وسلم .

وهكذا القول في حفظ القرآن وتعليمه: ففرض على كل مسلم حفظ أم القرآن، وقرآن ما، وفرض على جميع المسلمين أن يكون في كل قرية أو مدينة أو حصن مَن يحفظ القرآن كله، ويعلمه الناس، ويقرؤه إياهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقراءته .

فصح بكل ماذكرنا أن النفار المذكور فرض على الجماعة كلها حتى يقوم بها بعضهم فيسقط عن الباقين][(٢)]

وقال_ كذلك_رحمه الله _ في حديثه عن " صفة المفتي الذى له أن يفتي فى الدين وصفة الاجتهاد الواجب على أهل الإسلام "، قال: [وأما المنتصبون لطلب الفقه وهم النافرون للتفقه، الحاملون لفرض النفار عن

---

(١) " الرسالة للشافعي/٣٥٩: ٣٦٦ " .

(٢) " الإحكام٥/١١٣: ١١٥ " .

جماعتهم، المتأهبون لنذرة قومهم، ولتعليم المتعلم، وفتيا المستفتى، وربما للحكم بين الناس: ففرض عليهم تقصي علوم الديانة على حسب طاقتهم؛ من: أحكام القرآن، وحديث النبى صلى الله عليه وسلم، ورُتَبِ النقل، وصفات النقلة، ومعرفة المسند الصحيح ممّا عداه من مرسل وضعيف، هذا فرضه اللازم له، فإن زاد إلى ذلك: معرفة الإجماع، والاختلاف، ومن أين قال كل قائل، وكيف يرد أقاويل المختلفين المتنازعين إلى الكتاب والسنة: فحسن .

وفرض عليه تعلم كيفية البراهين التى يتميز بها الحق من الباطل، وكيف يعمل فيما ظاهره التعارض من النصوص، وكل هذا منصوص فى القرآن .

قال تعالى: { ليتفقّهوا فى الدين }: فهذا إيجاب لتعلم أحكام القرآن، وأحكام أوامر النبى صلى الله عليه وسلم، لأن هذين: أصل الدين .

وقال تعالى: { إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا }: فوجب بذلك تعرّف عدول النّقلة من فسّاقهم، وفقهائهم ممن لم يتفقه منهم .

وأما معرفة الإجماع فقد زعم قوم أن هذا يجب بقوله تعالى: { أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}؛ قال ففرض علينا معرفة ما اتفق عليه أولو الأمر منا لأننا مأمورون بطاعتهم، ولا يمكننا طاعتهم إلا بعد معرفة إجماعهم الذي يلزمنا طاعتهم فيه .

وأما معرفة الاختلاف، ومعرفة ما يتنازعون فيه، ومعرفة كيفية الرد إلي الكتاب والسنة: فبقوله تعالى: { فإن تنازعتم فى شئ فردّوه إلي الله والرسول }؛ ففرض علينا معرفة ما يتنازعون فيه، ومعرفة كيف يرد ذلك إلى الكتاب والسنة لأننا إن لم نعرف الاختلاف: ظننا أن القول الذي نسمعه من بعض العلماء لا خلاف فيه، فنتبعه دون أن نعرضه على القرآن والسنة، فنخطئ، ونعصى الله تعالى إذ أخذنا قولاً نهينا عن اتباعه .

قال أبو محمد: وهذا خطأ، لأننا إنما أمرنا تعالى بطاعة أولي الأمر فيما نقلوه إلينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما أن يقولوا من عند أنفسهم بحكم لا نص فيه: فما جاز هذا قط لأحد أن يفعله، ولا حل لأحد قط أن يطيع من فعله، وقد توعد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على هذا أشد الوعيد، فكيف على من دونه؛ قال تعالى: { ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين }؛ فصح أن من قال في الدين بقول أضافه إلى الله تعالى: فقد كذب وتقوّل على الله تعالى الأقاويل، وإن من لم يضفه إلى الله تعالى: فليس من الدين أصلا، لكن معرفة الاختلاف علم زائد، قال سعيد بن جبير: أعلم الناس: أعلمهم بالاختلاف، وصدق سعيد، لأنه علم زائد، وكذلك معرفة من أين قال كل قائل؟.

فأما معرفة كيفية إقامة البرهان فبقوله تعالى: { قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين } .

وقال تعالى: { ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها }؛ ففرض علينا معرفة الناسخ من المنسوخ.

وفرض على من قصد التفقه في الدين كما ذكرنا أن يستعين على ذلك من سائر العلوم بما تقتضيه حاجته إليه في فهم كلام ربه تعالى، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: { وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم }؛ ففرض على الفقيه أن يكون عالماً بلسان العرب ليفهم عن الله عز وجل، وعن النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون عالماً بالنحو الذي هو ترتيب العرب لكلامهم الذي به نزل القرآن، وبه يفهم معاني الكلام التي يعبر عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ، فمن جهل اللغة وهى الألفاظ الواقعة على المسميات، وجهل

النحو الذي هو علم اختلاف الحركات الواقعة لاختلاف المعاني: فلم يعرف اللسان الذي به خاطبنا الله تعالى ونبينا عليه السلام، ومن لم يعرف ذلك اللسان: لم يحل له الفتيا فيه، لأنه يفتي بما لا يدري، وقد نهاه الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى: { ولا تقف ما ليس لك به علم }، وبقوله تعالى: { ومن الناس من يجادل في الله بغير علم }، وبقوله تعالى: { ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم }، وقال تعالى: { وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم } .

وفرض على الفقيه أن يكون عالماً بسِيَر النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم آخر أوامره وأولها، وحربه عليه السلام لمن حارب، وسِلمه لمن سالم، وليعرف على ماذا حارب، ولماذا وضع الحرب، وحرم الدم بعد تحليله، وأحكامه عليه السلام التي حكم بها .

فمن كانت هذه صفته، وكان وَرِعاً في فتياه، مشفقاً على دينه، صليباً في الحق: حلت له الفتيا، وإلا: فحرام عليه أن يفتي بين اثنين أو أن يحكم بين اثنين، وحرام على الإمام أن يقلده حكماً أو يتيح له فتيا، وحرام على الناس أن يستفتوه لأنه إن لم يكن عالماً بما ذكرنا: فلم يتفقه في الدين، وإن لم يكن مشفقاً على دينه: فهو فاسق، وإن لم يكن صليباً: لم يأمر بمعروف، ولا نهى عن منكر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: فرضان على الناس، قال تعالى: { ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}: وهذا متوجه إلى العلماء بالمعروف، وبالمنكر لأنه لا يجوز أن يدعو إلى الخير إلا مَنْ علمه، ولا يمكن أن يأمر بالمعروف إلا مَنْ عرفه، ولا يقدر على إنكار المنكر إلا مَن مَيّزه .

فان كان مع ما ذكرنا قوياً على إنفاذ الأمور، حَسَن السياسة: حَلّ له القضاء والإمارة، وإلا: فلا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف "، وقال عليه السلام لأبي ذر: "يا أبا ذر إني أحب لك ماأحب لنفسي إنك ضعيف فلا تأمّرن على اثنين ولا تولين مال يتيم "، وكان أبو ذر_رضي الله عنه_ ممن له أن يفتي، ولم يكن ممن له أن يقضي .

فحدّ الفقه: هو المعرفة بأحكام الشريعة من: القرآن، ومن كلام المرسَل بها الذي لاتؤخذ إلا عنه، وتفسير هذا الحد كما ذكرنا: المعرفة بأحكام القرآن، وناسخها، ومنسوخها، والمعرفة بأحكام كلام الرسول صلى الله عليه وسلم: ناسخه، ومنسوخه، وما صح نقله ممّا لم يصح، ومعرفة ما أجمع العلماء عليه، وما اختلفوا فيه، وكيف يُرد الاختلاف إلى القرآن، وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم: فهذا تفسير العلم بأحكام الشريعة .

وكل من علم مسألة واحدة من دينه على الرتبة التي ذكرنا: جاز له أن يفتي بها، وليس جهله بما جهل: بمانع من أن يفتي بما علم، ولا علمه بما علم: بمبيح له أن يفتي فيما جهل، وليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا وقد غاب عنه من العلم كثير هو موجود عند غيره، فلو لم يُفْتِ إلا من أحاط بجميع العلم: لما حل لأحد من الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفتي أصلاً، وهذا لا يقوله مسلم، وهو إبطال للدين، وكفر من قائله، وفي بعثة النبي صلى الله عليه وسلم الأمراء إلى البلاد ليعلموا الناس القرآن، وحكم الدين ولم يكن أحد منهم يستوعب جميع ذلك لأنه قد كان تتنزل بعدهم الآيات والأحكام: بيان صحيح بأن العلماء وإن فاتهم كثير من العلم: فإنّ لهم أن يُفْتُوا ويقضوا بما عرفوا][(١)] .

---

(١) " الإحكام٥/١١٥: ١١٩ " .

ــ وقال ابن عبد البر_ رحمه الله_ بعد أن ذكر فرض العين من العلم:

[ثم سائر العلم، وطلبه، والتفقه فيه، وتعليم الناس إياه، وفتواهم به في مصالح دينهم ودنياهم: فهو فرض على الكفاية، يلزم الجميع فرضه، فإذا قام به قائم: سقط فرضه عن الباقين لا خلاف بين العلماء في ذلك، وحجتهم فيه: قول الله عز وجل: { فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم }: فألزم النفير في ذلك: البعض دون الكل، ثم ينصرفون: فيعلمون غيرهم، والطائفة في لسان العرب الواحد فما فوقه](١) .

وقال_ رحمه الله_ في بيان صفة الكفاية من العلم:

[طلب العلم: درجات، ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة: فقد تعدى سبيل السلف_ رحمهم الله_، ومن تعدى سبيلهم عامداً: ضلّ، ومن تعداه مجتهداً: زلّ .

فأول العلم: حفظ كتاب الله جل وعز، وتفهمه، وكل ما يعين على فهمه: فواجب طلبه معه، ولا أقول إن حفظه كله: فرض، ولكن أقول: إن ذلك واجب لازم على من أحب أن يكون عالماً ليس من باب الفرض؛ حدثنا عبد الوارث بن سفيان، قال: حدثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا أحمد بن زهير، قال: حدثنا سعيد بن سليمان، قال: حدثنا ميمون أبو عبد الله عن الضحاك في قوله: { كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب }، قال: حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً .

فمن حفظه قبل بلوغه ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب: كان له ذلك عوناً كبيراً على مراده منه، ومن سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينظر في ناسخ القرآن، ومنسوخه، وأحكامه، ويقف على اختلاف العلماء واتفاقهم في ذلك، وهو أمر قريب على من قرّبه الله عليه ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فبها يصل الطالب إلى مراد الله جل وعز في كتابه، وهى تفتح له أحكام القرآن فتحا، وفي سير رسول الله صلى الله عليه وسلم: تنبيهٌ على كثير من الناسخ والمنسوخ في السنن.

ومن طلب السنن فليكن معوله على حديث الأئمة الثقات الحفاظ الذين جعلهم الله خزائن لعلم دينه، وأمناء على سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما يُستعان به على فهم الحديث ما ذكرناه من العون على كتاب الله: وهو العلم بلسان العرب، ومواقع كلامها، وسِعَة لغتها، واستعارتها، ومجازها، وعموم لفظ مخاطبتها، وخصوصه، وسائر مذاهبها لمن قدر فهو شئ لا يستغنى عنه، وكان عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ يكتب إلى الآفاق أن يتعلموا السنة، والفرائض، واللحن_ يعني: النحو_ كما يتعلم القرآن، وقد تقدم ذكر هذا الخبر عنه فيما سلف من كتابنا .

ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤدين للدين عن نبيهم صلى الله عليه وسلم، ويعني بسيرهم وفضائلهم، ويعرف أحوال الناقلين عنهم، وأيامهم وأخبارهم حتى يقف على العدول منهم من غير العدول، وهو أمر قريب كله على من اجتهد، فمن اقتصر على علم إمام واحد، وحفظ ما كان عنده من السنن، ووقف

---

(١) " جامع بيان العلم١/١١ " .

على غرضه ومقصده في الفتوى: حصل على نصيب من العلم وافر، وحظ منه حسن صالح، فمن قنع بهذا: اكتفى، والكفاية غير الغنى، والاختيار له أن يجعل إمامه في ذلك: إمام أهل المدينة: دار الهجرة: ومعدن السنة .

ومن طلب الإمامة في الدين، وأحب أن يسلك سبيل الذين جاز لهم الفتيا: نظر في أقاويل الصحابة، والتابعين، والأئمة في الفقه إن قدر على ذلك: نأمره بذلك كما أمرناه بالنظر في أقاويلهم في تفسير القرآن، فمن أحب الاقتصار على أقاويل علماء الحجاز: اكتفى واهتدى_ إن شاء الله_، وإن أحب الإشراف على مذاهب الفقهاء: متقدميهم، ومتأخريهم: بالحجاز، والعراق، وأحب الوقوف على ما أخذوا، وتركوا من السنن، وما اختلفوا في تثبيته وتأويله من الكتاب والسنة: كان ذلك له مباحاً، ووجهاً محموداً إن فهم وضبط ما علم أو سلم من التخليط: نال درجة رفيعة، ووصل إلى جسيم من العلم، واتسع، ونبل إذا فهم ما اطلع، وبهذا يحصل الرسوخ لمن فقهه الله وصبر على هذا الشأن، واستحلى مرارته، واحتمل ضيق المعيشة فيه][(١)] .

ــ وقال الغزالي_ رحمه الله_: [وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمّن يقوم بها: حَرِج أهل البلد، وإذا قام بها واحد وكفى: سقط الفرض عن الآخرين ...

إلى أن قال_ رحمه الله_:

وهي أربعة أضرب:

الضرب الأول: الأصول: وهي أربعة: كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله عليه السلام، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة، والإجماع: أصل من حيث إنه يدل على السنة، فهو أصل في الدرجة الثالثة، وكذا: الأثر فإنه أيضا يدل على السنة لأن الصحابة_ رضي الله عنهم_ قد شاهدوا الوحي والتنزيل، وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه ...

إلى أن قال:

الضرب الثاني: الفروع: وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول: فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به: غيره كما فهم من قوله عليه السلام: " لا يقضي القاضي وهو غضبان ": أنه لا يقضي إذا كان خائفاً أو جائعاً أو متألماً بمرض، وهذا على ضربين:

أحدهما: يتعلق بمصالح الدنيا، ويحويه كتب الفقه، والمتكفل به: الفقهاء، وهم علماء الدنيا .

الثاني: ما يتعلق بمصالح الآخرة، وهو علم أحوال القلب، وأخلاقه المحمودة والمذمومة، وما هو مرضي عند الله تعالى، وما هو مكروه، وهو الذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب_ أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين_، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها، وهو الذي يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب .

والضرب الثالث: المقدمات، وهي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم: اللغة، والنحو، فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وليست اللغة، والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما، ولكن يلزم

---

(١) انظر: " جامع بيان العلم٢/١٦٦: ١٦٩ " .

الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب، وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة: فيصير تعلم تلك اللغة: آلة .

إلى أن قال:

الضرب الرابع: المتممات؛ وذلك في علم القرآن فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات، ومخارج الحروف، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير، فإن اعتماده_ أيضاً_ على النقل إذ اللغة بمجردها لا تستقل به، وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والنص والظاهر، وكيفية استعمال البعض منه مع البعض_ وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه_، ويتناول السنة_ أيضاً_ .

وأما المتممات في الآثار والأخبار: فالعلم بالرجال، وأسمائهم، وأنسابهم، وأسماء الصحابة وصفاتهم، والعلم بالعدالة في الرواة، والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوي، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند، وكذلك ما يتعلق به .

فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها مِن فروض الكفايات] (١) .

ــ وقال النووي_ رحمه الله_: [فرض الكفاية: وهو تحصيل ما لا بد للناس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعية كحفظ القرآن، والأحاديث وعلومها، والأصول، والفقه، والنحو، واللغة، والتصريف، ومعرفة رواة الحديث، والإجماع، والخلاف ...

إلى أن قال_ رحمه الله_:

وفرض الكفاية: المراد به تحصيل ذلك الشيء من المكلفين أو بعضهم، ويعم وجوبه جميع المخاطبين به، فإذا فعله من تحصل به الكفاية: سقط الحرج عن الباقين، وإذا قام به جمع تحصل الكفاية ببعضهم: فكلهم سواء في حكم القيام بالفرض في الثواب وغيره، فإذا صلى على جنازة جمع ثم جمع ثم جمع: فالكل يقع فرض كفاية، ولو أطبقوا كلهم على تركه: أثم كل مَن لا عذر له ممن علم ذلك وأمكنه القيام به أو لم يعلم وهو قريب أمكنه العلم بحيث ينسب إلى تقصير، ولا يأثم من لم يتمكن لكونه غير أهل أو لعذره ...

إلى أن قال:

واعلم أن للقائم بفرض الكفاية: مزية على القائم بفرض العين لأنه أسقط الحرج عن الأمة، وقد قدمنا كلام إمام الحرمين في هذا في فضل ترجيح الاشتغال بالعلم على العبادة القاصرة](٢) .

---

(١) " الإحياء١/٢٥: ٢٨ " .

(٢) " المجموع١/٢٦: ٢٧ " .

الفصل الخامس

أهل العلم العاملون هم رأس الطائفة المنصورة

أهل العلم العاملون: هم رأس الطائفة المنصورة وأصحاب أمرها، ومَنْ وراءهم لهم تبع .

ـــــ وقد جعل الله طاعة العلماء أفرض على الناس من طاعة الآباء والأمهات:

* قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } [النساء:٥٩] .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [واختلف فى المراد بأولي الأمر في الآية، فعن أبي هريرة قال: هم الأمراء، أخرجه الطبرى بإسناد صحيح، وأخرج عن ميمون بن مهران، وغيره نحوه .

وعن جابر بن عبد الله، قال: هم أهل العلم والخير، وعن مجاهد، وعطاء، والحسن، وأبي العالية: هم العلماء](١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فلهذا كان أولو الأمر: صنفين: العلماء والأمراء، فإذا صلحوا: صلح الناس، وإذا فسدوا: فسد الناس](٢) .

ـ والتحقيق: أن الطاعة إنما هي لورثة الأنبياء والمرسلين، وما طاعة الأمراء إلا لأمرهم بمقتضى العلم وحكمه، فإذا خرجوا عن ذلك: فلا طاعة لهم .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول

---

(١) " فتح الباري٨/ ٢٥٤ " .

(٢) " الفتاوى ١٧٠/٢٨ "، ومثله فى: " ٣٥٤/١٠: ٣٥٥، ٥٥١/١١: ٥٥٢ " .

صلى الله عليه وسلم: فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء][1] .

كما أن قول من قال: إن أولي الأمر: هم الأمراء يرجع إلى قول من قال: هم العلماء إذ أن العلم شرط الولاية كما كان عليه الحال زمن النبوة، والخلافة الراشدة، وهذا هو الأصل الذي تُرد إليه الأمور، وهو الأصل الذي يجب أن ترد إليه الأمة كما سيأتي .

ـــ وقد دل كتاب الله على أن العلماء: هم أولوا الأمر الذين ينبغى أن تُرَدَّ إليهم النوازل، ويُصدَر عن أمرهم فيها .

* قال تعالى: { وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم } [النساء: ٨٣] .

فـــ{ الذين يستنبطونه }: هم العلماء دون غيرهم .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [العالِم بكتاب الله، وسنة رسوله، وأقوال الصحابة: فهو المجتهد في النوازل، فهذا النوع الذي يَسوغ لهم الإفتاء، ويَسوغ استفتاؤهم، ويتأدى بهم فرضُ الاجتهاد، وهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها "][2] .

ــ وقد قال تعالى: { فإن تنازعتم فى شيء فردّوه إلى الله والرسول } [النساء: ٥٩] .

والرد إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم: هو الرد إلى الكتاب والسنة، والرد إلى الكتاب والسنة: هو الرد إلى العلماء العالمين بهما .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [فأمر تعالى برد المتنازع فيه إلى كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وليس لغير العلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب، والسنة][3] .

فالعلماء: هم الحكام على الحقيقة بقولهم هذا يجوز وهذا لا يجوز، وهذا صواب وهذا خطأ .

* قال علي بن أبي طالب_ رضي الله عنه_: " العلم خير من المال لأن المال تحرسه، والعلم يحرسك، والمال تفنيه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة "[4] .

فنص علي_ رضي الله عنه_ على أن العلم: حاكم .

* وقال أبو الأسود الدؤلي_ رحمه الله_: " ليس شيء أعز من العلم، الملوك: حكام على الناس، والعلماء:

---

(١) " إعلام الموقعين ١/١٠ " .

(٢) " إعلام الموقعين ٤/٢١٢ " .

(٣) " تفسير القرطبي٥/٢٦٠ " .

(٤) جزء من وصية علي_ رضي الله عنه_ المشهورة للكميل بن زياد: " جامع بيان العلم١/٥٧ "، " الحلية١/٨٠ "، " تذكرة الحفاظ١/١١"، " تهذيب الكمال٢٤/٢٢٠ "، "تاريخ بغداد٦/٣٧٩ "، " صفوة الصفوة١/٣٣٠ " .

حكام على الملوك "(١) .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [فأهل العلم: أشرف الناس، وأعظم منزلة بلا إشكال ولا نزاع وإنما وقع الثناء في الشريعة على أهل العلم من حيث اتصافهم بالعلم لا من جهة أخرى، ودل على ذلك وقوع الثناء عليهم مقيداً بالاتصاف به، فهو إذاً العلة في الثناء، ولولا ذلك الاتصاف لم يكن لهم مزية على غيرهم، ومن ذلك صار العلماء حكاماً على الخلائق أجمعين قضاء أو فتيا أو إرشاداً لأنهم اتصفوا بالعلم الشرعي الذي هو **حاكم بإطلاق**](٢) .

فالعلم حاكم بإطلاق: كان الأمر بيد أهله أم لا، وذلك لأن السلطان المطلق على التحقيق: هو سلطان العلم، وليس السلطان: سلطان من بيده أسباب السلطة المادية أياً كانت، وأياً كان .

* ورحم الله الأحنف بن قيس إذ يقول: " كاد العلماء أن يكونوا أرباباً، وكل عزٍّ لم يؤكَّد بعلم: فإلى ذلٍ ما يصير "(٣) .

ـــــ وقد وصف الله تعالى العلم: بالسلطان في غير آية:

* قال تعالى: { قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا، أتقولون على الله ما لا تعلمون } [يونس: ٦٨] .

* وقال تعالى: { أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نَزَّل الله بها من سلطان } [الأعراف: ٧١].

* وقال تعالى: { هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً } [الكهف: ١٥] .

* وقال تعالى: { ويعبدون من دون الله مالم يُنَزِّل به سلطاناً وما ليس لهم به علم } [الحج: ٧١] .

* وقال تعالى: { ألا إنهم من إفكهم ليقولون وَلَد الله وإنهم لكاذبون، أصطفى البنات على البنين، مالكم كيف تحكمون، أفلا تذكرون، أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين } [الصافات: ١٥١_ ١٥٧] .

ففي كل هذه الآيات السابقة: وصف الله تعالى العلم بـــ " السلطان ":

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [والمقصود أن الله سبحانه سمى علم الحجة: سلطاناً، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده، وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة: فقلبه خاضع لها، ذليل مقهور تحت سلطانها بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يُساس به: فهو بمنزلة سلطان السباع، والأسوُد، ونحوها: قدرة بلا علم، ولا رحمة بخلاف سلطان

---

(١) " إحياء علوم الدين١/١٨ " .

(٢) " الاعتصام٢/٥٠١ " .

(٣) " جامع بيان العلم١/٦٠ " .

الحجة فإنه قدرة بعلم، ورحمة، وحكمة][١] .

ــ ولما كان العلم هو السلطان، فإن أصحابه " العلماء ": هم أصحاب السلطان الحقيقى، والرياسة الحقيقية على الناس، ولما كان الأمر كذلك: كان تسليم الأمر إليهم، والتعويل بعد الله عليهم: هو رسم الطائفة الظاهرة المنصورة .

ــــ ولقد كان هذا هو نهج الأوائل من هذه الطائفة الظاهرة المنصورة_ في عهد النبوة، وعهود الخلافة الراشدة_، وكان هذا هو هديهم، وسيرتهم، وسنتهم، فلم يكن " الأمر" إلا بيد أهل العلم، وفي أيديهم هم فقط، وغيرهم لهم تبع .

وقد أمرنا صلى الله عليه وسلم عند الاختلاف، والتفرق بالتمسك بسنته، وسنة الخلفاء الراشدين، فقال: " فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي: عضوا عليها بالنواجذ، **وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة: ضلالة** "[٢] .

قال ابن رجب_ رحمه الله_:

[هذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه، وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات، وهذا موافق لما روي عنه من افتراق أمته على بضع وسبعين فرقة، وأنها كلها في النار إلا فرقة واحدة، وهي ما كان عليه وأصحابه .

ولذلك في هذا الحديث أمر عند الافتراق والاختلاف بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، والسنة: هي الطريق المسلوك، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من: الاعتقادات، والأعمال، والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله، وروي معنى ذلك عن الحسن، والأوزاعي، والفضيل بن عياض][٣] .

وقال ابن رجب_ رحمه الله_: [قوله: " عضوا عليها بالنواجذ ": كناية عن شدة التمسك بها، والنواجذ: الأضراس ...][٤] .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: " وإياكم ومحدثات الأمور ": تحذير شديد من الأمور المحدثة المخالفة لما كانت عليه سنته صلى الله عليه وسلم، وسنة الخلفاء الراشدين .

قال ابن رجب_ رحمه الله_: [قوله: " إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة": تحذير للأمة من اتباع

---

(١) " مفتاح دار السعادة١/ ٥٩ " .

(٢) " ابن ماجه١/١٦ "، " أحمد٤/١٢٦ "، " المستدرك١/١٧٥ "، " الكبير١٨/٢٤٧،٢٥٧ "، "اللالكائي١/٧٤،٢٢ "، " السنة لابن أبي عاصم١/١٩: ٢٠، ٢٧ " .

(٣) " جامع العلوم والحكم/٢٦٣ " .

(٤) " جامع العلوم والحكم/٢٦٦ " .

الأمور المحدثة المبتدعة ...][(١)] .

ـ ومن أعظم هذه الأمور المحدثة، المبتدعة، المخالفة لما كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه التي ابتليت بها الأمة: تنحية أهل العلم، وإبعادهم عن الحكم والأمر .

وما دخل الدخل على الأمة، وما اضطرب حالها، وفسد نظامها إلا من جراء هذا الفصام النكد الذي مُنيت به بين " العلم "، و" الأمر " .

ــــ ومن قطعيات أهل الإسلام: أن الله لم ينزل هذا الدين إلا للحكم: فيكون له المرجع، وإليه وحده الأمر في كل صغيرة وكبيرة، وإذا كان ذلك كذلك: كان من البدهي اختصاص " الأمر " بأهل العلم دون سواهم إذ هم وحدهم أعلم الناس بالدين المنزل .

* قال تعالى: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ **فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله** وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عمّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } .

* وقال تعالى: { وَأَنِ **احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله** وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ الله إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ الله أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } .

* وقال تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ **لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله** وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } .

ـ والآيات في تقرير هذا الأصل: كثيرة جداً، وأهل العلم: هم أعلم الناس بما أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم، ولذا كانوا هم: ورثته في القيام به بين الناس: فوجب كونهم رأس الطائفة المنصورة، وأصحاب أمرها بغير مدافع .

قال الغزالي_ رحمه الله_: [فالفقيه: هو العالم بقانون السياسة، وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات: فكان الفقيه معلم السلطان، ومرشده إلى طرق سياسة الخلق، وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا][(٢)] .

قلت: وقد قال تعالى: { إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء } .

فجعل الله تعالى " الحكم "_ بعد النبيين_ للربانيين، والأحبار، وهم: أهل العلم العاملون كما يدل عليه قوله: {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء } .

كما جاء وصف الربانيين بـــ" العلم " في قوله تعالى: { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لي مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّـــينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُون } .

---

(١) " جامع العلوم والحكم/٢٦٦ " .

(٢) " إحياء علوم الدين١/١٧ " .

* وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كانت بنو إسرائيل تسوسُهم الأنبياءُ؛ كلما هَلَك نبيٌّ: خَلَفَه نبيٌّ وإنّه لا نبيَّ بعدي "(١) .

فسياسة الناس بشرع الله: صناعة الأنبياء، والمرسلين، وأولى الناس، وأحقهم بممارستها بعد الأنبياء، والمرسلين: هم ورثتهم .

* وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنّ العلماء: ورثة الأنبياء "(٢) .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [فإذا بلغ الإنسان مبلغاً فَهِمَ عن الشارع فيه قَصْدَه في كل مسألة من مسائل الشريعة، وفي كل باب من أبوابها: فقد حصل له وصفٌ هو السبب في تنزّله منزلة الخليفة للنبي صلى الله عليه وسلم في التعليم، والفتيا، والحكم بما أراه الله](٣) .

ـــــ وممّا يبين_ كذلك_ أن أهل العلم العاملين: هم رأس الطائفة المنصورة، وأصحاب أمرها، وأنهم أحق بها وأهلها: أن هذه الشريعة_ والتي هم أعلم الناس بها_ جاءت وافية بمصالح العباد جميعها إلى يوم القيامة، ومن ثم: وجب الأخذ بقول أهل هذه الشريعة_ الذين هم العلماء العاملون_، وتسليم الأمر لهم، والاعتماد_بعد الله_ عليهم، وهذا لا يدفعه إلا صاحب هوى وحظ نفس .

* قال تعالى: { ونَزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء } [النحل: ٨٩] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [وهذ الأصل من أهم الأصول وأنفعها، وهو مبني على حرف واحد، وهو عموم رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم، وعلومهم، وأعمالهم، وأنه لم يُحوج أمته إلى أحدٍ بعده، وإنما حاجتهم إلى من يبلغهم عنه ما جاء به .

فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة إلى المرسَل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من بُعث إليه في أصول الدين وفروعه، فرسالته: كافية، شافية، عامة، لا تُحْوِج إلى سواها.

ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عمّا جاء به.

وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً، وعلّمهم كل شيء حتى آداب التخلي، وآداب الجماع، والنوم، والقيام، والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، والسفر والإقامة، والصَّمْت والكلام، والعزلة والخلطة، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت، ووصف لهم العرش والكرسي، والملائكة والجن، والنار والجنة، ويوم القيامة، وما فيه حتى كأنه رأي عين .

---

(١) " البخاري٣/١٢٧٣ "، " مسلم٣/١٤٧١ " .

(٢) " صحيح ابن حبان١/٢٨٩ "، " الترمذي٥/٤٨ "، " أبو داود٣/٣١٧ "، " ابن ماجه١/٨١ "، " أحمد٥/١٩٦ "، " الدارمي١/١١٠ " .

(٣) " الموافقات٤/١٠٦: ١٠٧ " .

وعرَّفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعَرَّفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم، وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم .

وعرفهم من طرق الخير والشر: دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله، وعرفهم صلى الله عليه وسلم من أحوال الموت، وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما لم يُعَرّف به نبي غيره .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أدلة التوحيد، والنبوة، والمعاد، والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده، اللهم إلا إلى مَنْ يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد الحروب، ولقاء العدو، وطرق النصر والظفر ما لو عَلموهُ وعَقَلوه ورَعَوْه حق رعايته: لم يقم لهم عدو أبداً .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها، وما يتحرزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أحوال نفوسهم، وأوصافها، ودسائسها، وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه .

وكذلك عرفهم صلى الله عليه وسلم من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه: لاستقامت لهم دنياهم أعْظَمَ استقامة.

وبالجملة: فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برُمَّته، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى: **سياسة خارجة عنها تكملها**، أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها ؟!.

ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وَفَّقَ الله له أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عمّا ما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم، وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يشتغل الناسُ به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزَبَد أفكارهم وزُبالة أذهانهم عن القرآن والحديث ؟!!! فالله المستعان .

وقد قال الله تعالى: { أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتْلَى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون}، وقال تعالى: { وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين }، وقال تعالى: { يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين }][(١)].

ـ وإذا كان الأمر كذلك؛ بأن كانت هذه الشريعة وافية بمصالح العباد والبلاد، وكان أهل العلم هم أعلم الناس بها: وجب تسليم الأمر إليهم، واتباعهم على ذلك، وجعلهم متبوعين لا تابعين .

---

(١) " إعلام الموقعين٤/٣٧٥: ٣٧٧ " .

ـــــ والعلماء: هم أخشى الناس لله وأتقاهم له، ولذا كانوا هم خير البرية:

* قال تعالى: { إنما يخشى الله من عباده العلماء } [فاطر_٢٨]، وقد قال تعالى: { أولئك هم خير البرية_إلى قوله_ ذلك لمن خشي ربه } [البينة: ٧_ ٨] .

قال ابن جماعة_ رحمه الله_: [فاقتضت الآيتان أن العلماء: هم الذين يخشون الله، وأن الذين يخشون الله تعالى: هم خير البرية، فينتج أن العلماء: هم خير البرية](١) .

وإذا كان العلماء هم خير البرية: فمقتضى ذلك ولازمه الذي لا ينفك عنه: كونهم أولى الناس بحمل الأمانة، والقيام عليها، وغير ذلك: تضييع للأمانة، وتفريط فيها.

ـــــ وقد قال تعالى: { قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم }[البقرة: ٢٤٧].

فدلت هذه الآية على أن العلم من أول أسباب التقديم، واستحقاق الأمر .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { أنى يكون له الملك علينا }، أي: كيف يملكنا ونحن أحق بالملك منه: جروا على سنتهم في تعنيتهم الأنبياء، وحيدهم عن أمر الله تعالى؛ فقالوا: { أنى }، أي: من أي جهة، فـــ " أنى " في موضع نصب على الظرف، ونحن من سبط الملوك، وهو ليس كذلك، وهو فقير: فتركوا السبب الأقوى، وهو: قدر الله تعالى وقضاؤه السابق حتى احتج عليهم نبيهم بقوله: { إن الله اصطفاه }، أي: اختاره، وهو الحجة القاطعة، وبيّن لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت، وهو: بسطته في العلم الذي هو ملاك الإنسان، والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء؛ فتضمنت بيان صفة الإمام، وأحوال الإمامة، وأنها مستحقة بالعلم والقوة لا بالنسب، فلا حظ للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس، وأنها متقدمة عليه لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته وإن كانوا أشرف منتسباً، وقد مضى في أول السورة من ذكر الإمامة وشروطها ما يكفي ويغني، وهذه الآية أصل فيها .

قال ابن عباس: كان طالوت يومئذ **أعلم رجل في بني إسرائيل**، وأجمله، وأتمه](٢) .

* وقد عقد الإمام البخاري_ رحمه الله_ في كتاب الصلاة من صحيحه باباً، فقال: "باب: **أهل العلم والفضل أحق بالإمامة** "(٣) .

ثم ساق بسنده عن أبي موسى_ رضي الله عنه_، قال: " مرض النبي صلى الله عليه وسلم، فاشتد مرضه: فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس .

قالت عائشة: إنه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطيع أن يصلي بالناس .

قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس .

---

(١) " تذكرة السامع والمتكلم/٦ " .

(٢) " القرطبي٣/٢٤٦ " .

(٣) " البخاري١/٢٤٠ " .

فعادت: فقال: مري أبا بكر فليصل بالناس: فإنكن صواحب يوسف .

فأتاه الرسول: فصلى بالناس في حياة النبي صلى الله عليه وسلم "[١] .

وإذا كان العلم من أسباب استحقاق إمامة الصلاة: فهو_ كذلك_ من أسباب استحقاق الإمامة العامة، وقد استدل الصحابة_ رضوان الله عليهم_ بتقديمه صلى الله عليه وسلم أبا بكر_ رضي الله عنه_ لإمامة الصلاة على استحقاقه_ رضي الله عنه_ للإمامة العامة .

ولمّا (قال أبو بكر: أقيلوني بيعتي، فقال علي: والله لا نقيلك، ولا نستقيلك، رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا: أفلا نرضاك لدنيانا، **فقاس الإمامة على الصلاة**)[٢] .

* ومن حديث ابن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قالت الأنصار منا أمير، ومنكم أمير: فبلغ ذلك عمر، فأتاهم؛ فقال لهم: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مُروا أبا بكر أن يصلي بالناس ؟، قالوا: نعم، قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟! .

فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر "[٣] .

قال البيهقي_ رحمه الله_: [فقد قاس عمر الإمامة في سائر الأمور على إمامة الصلاة، وقبله منه جميع الصحابة: المهاجرين، والأنصار][٤] .

وقال البيهقي_ رحمه الله_ أيضاً_ عند الحديث عن نصب الإمام: [وحين لم يكن نص: استدلوا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر بالصلاة بالمسلمين في مرضه على إمامته مع **ما عرفوا من آلته، وكفايته، واستجماعه شرائط الإمامة**][٥] .

* وقد جاء عن الإمام أحمد_ رحمه الله_ أنه قال: " إنما قوله لأبي بكر عندي: يصلي بالناس: للخلافة، إنما أراد الخلافة "[٦] .

قال السندي_ رحمه الله_: [قوله: " قد أمر أبا بكر أن يصلي بالناس ": الباء للتعدية، وفيه: **تقديم أهل الفضل والعلم في الإمامة الصغرى، والكبرى جميعاً**، وأنهم فهموا من تقديم أبي بكر في الصغرى تقديمه في الكبرى

---

(١) " البخاري١/٢٤٠ " .

(٢) " تفسير القرطبي٧/١٧٢ " .

(٣) " المستدرك٣/٧٠ "، " المختارة١/٣٣٦، ٣٣٧ "، " النسائي الكبرى١/٢٧٩ "، " أحمد١/٢١ "، " البيهقي الكبرى٨/١٥٢ "، وانظر: " المجمع٥/١٨٣ " .

(٤) " نصب الراية٤/٦٣ " .

(٥) " شعب الإيمان٦/٦ " .

(٦) " السنة للخلال٢/٣٠٢ " .

أيضاً بعد بيان عمر لهم ذلك، وليس ذلك لقياس الكبرى على الصغرى حتى يقال إنه قياس باطل بل لأن الصغرى يومئذ كانت من وظائف الإمام الكبير فتفويضها إلى أحد عند الموت دليل على نصبه للكبرى، فليتأمّل][(١)] .

ــ وقد كان الصديق_ رضي الله عنه_ أعلم الصحابة، وأفقههم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن أبا بكر أعلم الأمة بالباطن والظاهر، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد][(٢)] .

وقال_ رحمه الله_ أيضاً_: [بل أبو بكر الصديق لا يُحفظ له فتيا أفتى فيها بخلاف نص النبي صلى الله عليه وسلم، وقد وُجِد لعَلِيّ وغيره من الصحابة أكثر ممّا وُجد لعمر][(٣)] .

ـــــ وقد اتفق أهل العلم قاطبة بغير خلاف على أن العلم من شروط الإمامة العامة:

قال القرطبي_ رحمه الله_: [الحادية عشرة: في شرائط الإمام، وهي إحدى عشر:

الأول: أن يكون في صميم قريش لقوله صلى الله عليه وسلم: " الأئمة من قريش"، وقد اختلف في هذا .

الثاني: أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين، مجتهداً لا يحتاج إلى غيره في الإستفتاء في الحوادث، وهذا: متفق عليه .

الثالث: أن يكون ذا خبرة، ورأي حصيف بأمر الحرب، وتدبير الجيوش، وسد الثغور، وحماية البيضة، وردع الأمة، والإنتقام من الظالم، والأخذ للمظلوم .

الرابع: أن يكون ممن لا تلحقه رقة في إقامة الحدود، ولا فزع من ضرب الرقاب، ولا قطع الأبشار .

والدليل على هذا كله: **إجماع الصحابة_ رضى الله عنهم_**، لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بد من أن يكون ذلك كله مجتمع فيه، ولأنه هو الذي يولي القضاة، والحكام، وله أن يباشر الفصل والحكم، ويتفحص أمور خلفائه، وقضاته، ولن يصلح لذلك كله إلا من كان **عالماً** بذلك كله، قيّماً به، والله أعلم ...

الحادي عشر: أن يكون عدلاً لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق .

ويجب أن يكون من أفضلهم في العلم لقوله عليه السلام: "أئمتكم شفعاؤكم، فانظروا بمن تستشفعون "، وفي التنزيل في وصف طالوت: { إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم }؛ **فبدأ بالعلم** ثم ذكر كل ما يدل على القوة وسلامة الأعضاء][(٤)] .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_ في ذكر شروط الإمام: [ويجب أن يكون: ذكراً، حراً، بالغاً، عاقلاً، مسلماً،

---

(١) " حاشية السندي٢/٧٥ "، وانظر للفائدة: " الإحكام لابن حزم٧/٤٢٧: ٤٢٨ " .

(٢) " الفتاوى١٣/٢٣٧ " .

(٣) " الفتاوى٣٥/١٢٤ " .

(٤) " القرطبي١/٢٧٠: ٢٧١ " .

عدلاً، **مجتهداً**، بصيراً، سليم الأعضاء، خبيراً بالحروب والآراء، قرشياً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمي، ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة الروافض](١) .

وقد قال الشاطبي_ رحمه الله_: [إنّ العلماء نقلوا الاتّفاق على أنّ الإمامة الكبرى لا تنعقد إلا لمن نال رتبة الاجتهاد، والفتوى في علوم الشرع](٢) .

ـــــ وإذا عُرف أن (الإمامة: نيابة عن الله ورسوله)(٣): كان من البدهي اختصاصها بأهل العلم وحدهم .

قال الماوردي_ رحمه الله_: [الإمامة: موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا](٤) .

ثم قال_ رحمه الله_: [وأما أهل الإمامة، فالشروط المعتبرة فيهم سبعة: ...

والثاني: العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل، والأحكام ...](٥) .

ـــــ وإذا كان العلم: شرط الإمامة، فهو_ كذلك_: شرط الولاية العامة دون الإمامة العظمى:

* عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً_ وهم ذوو عدد_: **فاستقرأهم، فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن**، فأتي على رجل من أحدثهم سناً، فقال صلى الله عليه وسلم: ما معك يا فلان ؟ .

فقال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة .

فقال صلى الله عليه وسلم: أمعك سورة البقرة ؟ .

قال: نعم .

قال صلى الله عليه وسلم: اذهب؛ فأنت أميرهم "(٦) .

وهذا الحديث ظاهر في تقديم أهل العلم على غيرهم، وأنهم أحق الناس_ لعلمهم_ بالولاية، وفيه: حرص النبي صلوات ربي وسلامه عليه على الوقوف على أعلم القوم لتوليته .

وقد ترجم ابن خزيمة_ رحمه الله_ لهذا الحديث بقوله: " باب: استحقاق الإمامة بالازدياد من حفظ القرآن وإن

---

(١) " تفسير ابن كثير ٧٣/١ " .

(٢) " الاعتصام٣٦٢/٢ " .

(٣) " فيض القدير ٣٣١/٣ " .

(٤) " الأحكام السلطانية/٢٩ " .

(٥) " المرجع السابق/٣١ " .

(٦) " الترمذي١٥٦/٥ "، " النسائي٢٢٧/٥ "، " المستدرك٦١١/١ "، " صحيح ابن خزيمة١٤٠/٥،٤/٣ "، "صحيح ابن حبان٤٩٩/٥، ٣١٦/٦"، وقال الترمذي: هذا حديث حسن .

كان غيره أسنّ منه وأشرف "(١) .

وترجم له أخرى بقوله: " باب: استحباب تأمير المسافرين أحدهم على أنفسهم، والبيان أن أحقهم بذلك: أكثرهم جمعاً للقرآن "(٢) .

وترجم له ابن حبان_ رحمه الله_ بقوله: " ذكر استحقاق الإمامة بالازدياد من حفظ القرآن على القوم وإن كان فيهم من هو أحسب وأشرف منه "(٣) .

وقد سبق معنا أن الإمامة الصغرى كانت عندهم_ في الأصل_ من خصائص الولاية العامة، فتَرجع إليها، وتُعلَق بها .

* وعن أبي بردة، قال: " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى، ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف_ قال: واليمن مخلافان_ ثم قال: يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا "(٤).

وقد ترجم الإمام البخاري_ رحمه الله_ لهذا الحديث بقوله: " باب: بعث أبي موسى، ومعاذ بن جبل_ رضي الله عنهما_ إلى اليمن قبل حجة الوداع "(٥) .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [واستُدلَ به على أن أبا موسى كان عالماً، فطناً، حاذقاً، ولولا ذلك لم يوله النبي صلى الله عليه وسلم الإمارة، ولو كان فوض الحكم لغيره لم يحتج إلى توصيته بما وصاه به ولذلك اعتمد عليه عمر ثم عثمان ثم علي](٦) .

وكلامه_ رحمه الله_ لطيف جداً من باب أنه جعل الأصل في صاحب الولاية العامة: العلم، وأن ذلك هو المعيار الذي يُحاكم إليه المتولي، فلمّا ولى النبي صلى الله عليه وسلم: أبا موسى مع كون المقرر أن صاحب الشرع لا يسند هذه الولاية إلا لمن كان عالماً: علمنا أن أبا موسى_ رضي الله عنه_ كذلك .

* وقد روى مسلم فى صحيحه عن نافع بن عبد الله الخزاعى_ وكان عامل عمر_ رضي الله عنه_ على مكة_ أنه لقيه بعُسْفان، فقال له: من استخلفت ؟ .

فقال: استخلفت ابن أبزى مولى لنا .

فقال عمر: استخلفت مولى ؟ .

---

(١) " صحيح ابن خزيمة٣/٥ " .

(٢) " المرجع السابق٤/١٤٠ " .

(٣) " صحيح ابن حبان٥/٤٩٩ " .

(٤) " البخاري٤/١٥٧٨ " .

(٥) " البخاري٤/١٥٧٨ " .

(٦) " فتح الباري٨/٦٢ " .

قال: إنه قارىء لكتاب الله، عالم بالفرائض .

فقال عمر: " أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: " إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين"(١) .

فكان علمُ ابن أبزى: مدعاة لتأميره، وتقديمه على غيره .

* قال معاذ بن جبل_ رضي الله عنه_: " عليكم بالعلم، فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته: خشية، والبحث عنه: جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه: صدقة، ومذاكرته: تسبيح، به يُعرف الله ويُعبد، وبه يُمجَّد الله ويُوَحَّد .

يرفع الله بالعلم أقواماً: يجعلهم للناس قادة وأئمة، يهتدون بهم، وينتهون إلى رأيهم "(٢) .

* وفي البخاري معلقاً عن عمر_ رضي الله عنه_: " تفقهوا قبل أن تُسَوّدوا "(٣) .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [أي: تُجعلوا سادة](٤) .

* وقد جاء عن تميم الداري_ رضي الله عنه_، قال تطاول: الناس في البنيان زمن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_، فقال: " يا معشر العرب: الأرض، الأرض، إنه لا إسلام إلا بجماعة، **ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة .**

ألا فمن سوده قومه على فقه: كان ذلك خيراً له، ومن سَوَّده قومه على غير فقه: كان ذلك هلاكاً له، ولمن اتبعه "(٥).

قال أبو يعلى_ رحمه الله_ في الفرق بين الإمارة الخاصة والعامة:

[وشروط الإمارة الخاصة تَقْصُر عن شروط الإمارة العامة بشرط واحد، **وهو العلم**، لأن لمن عَمّت إمارته أن يحكم وليس ذلك لمن خصت إمارته](٦) .

فمن عمّت إمارته اشتُرط له العلم، ومن تعليل ذلك: أن له سلطة الحكم بموجب هذه الولاية العامة، وقد يمارس هذا الحكم، ومن ثم: وجب أن يكون عالماً وإلا كان حاكماً بجهل .

وقد كان عمر بن عبد العزيز_ رحمه الله_ ينشد:

تعلم فليس المرء يولد عالماً   وليس أخو علم كمن هو جاهل

---

(١) " مسلم١/٥٥٩ " .

(٢) " الترغيب١/٥٢ "، " جامع بيان العلم١/٥٥ "، " فتاوى ابن تيمية١٠/٩٣ " .

(٣) " صحيح البخاري١/٣٩ " .

(٤) " فتح الباري١/١٦٦ " .

(5) " جامع بيان العلم١/٦٢ " .

(٦) " الأحكام السلطانية/٣٧ "، ونحوه تماماً في " الأحكام السلطانية للماوردي/٧٦ " .

وإنّ كبير القوم لا علم عنده   صغير إذا التفت عليه المحافل

ـــــ وقد حذّر صاحب الشرع المطهر صلوات ربي وسلامه عليه أشد تحذير وأصرحه من ترأس الجهلة الذين يسوسون الناس بآرائهم، وأوهامهم:

* فقال صلى الله عليه وسلم: " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً: اتخذ الناس رءوساً جُهّالاً، فسئلوا: فأفتوا بغير علم: فضلوا وأضلوا "[(١)] .

وفي هذا دلالة ظاهرة على وجوب تقديم العلماء فى الرياسة، والتحذير من ترأس الجهال، وبيان سوء عاقبتها.

قال الخطابي_ رحمه الله_: [قد أعلَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آفة العلم: ذَهَاب أهله، وانتحال الجهال، وترؤسهم على الناس باسمه، **وحَذَّر الناس أن يقتدوا بمن كان من أهل هذه الصفة، وأخبر أنهم ضلال، مُضلون**][(٢)] .

ثم روى الخطابي بسنده عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم:

" إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلمُ، ويظهر الجهل "[(٣)] .

قال_ رحمه الله_:

[يريد_ والله أعلم_ ظهور الجُهال: المنتحلين للعلم: المترئسين على الناس به **قبل أن يتفقّهوا في الدين، ويرسخوا في علمه**] [(٤)] .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم: " إذا ضيعت الأمانة: فانتظر الساعة " .

قيل: وكيف إضاعتها ؟ .

قال صلى الله عليه وسلم: " إذا وُسِّد الأمر لغير أهله "[(٥)] .

وتوسيد الأمر غير أهل العلم: من أعظم صور تضييع الأمانة، وإنما كان كذلك: لأنه مؤذن بثلم الإسلام وهدمه .

* عن ابن مسعود_ رضي الله عنه_ قال: " ليس عام إلا الذي بعده شر منه، لا أقول عام خير من عام، ولا

---

(١) " البخاري١/٥٠ "، " مسلم٤/٢٠٥٨ " .

(٢) " العزلة/٩٦ " .

(٣) " البخاري٦/٢٤٩٧ "، وانظر: " مسلم٤/٢٠٥٦ " .

(٤) " العزلة/٩٦ " .

(٥) " البخاري١/٣٣، ٥/٢٣٨٢ " عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ .

أمير خير من أمير، ولكن ذَهَاب العلم ثم يَحْدُثُ قوم يقيسون الأمور بآرائهم: فيُهدم الإسلام "(١) .

* ومن طريق الشعبي عن مسروق عنه قال: " لا يأتي عليكم زمان إلا وهو أشر ممّا كان قبله، أمَا إني لا أعني أميراً خيراً من أمير، ولا عاماً خيراً من عام، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خَلَفَاً، ويجيء قوم يُفتون برأيهم "(٢) .

* وفي لفظ عنه، قال: " وما ذاك بكثرة الأمصار وقلتها ولكن بذهاب العلماء، ثم يحدث قوم يُفتون في الأمور برأيهم: فَيَثْلمون الإسلام ويهدمونه "(٣) .

* ومرّ معنا قول عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_: " يا معشر العرب الأرض: الأرض، إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة .

ألا فمن سوده قومه على فقه: كان ذلك خيراً له، ومن سَوَّده قومه على غير فقه: كان ذلك **هلاكاً له، ولمن اتبعه** " .

* وما أعجب، وأدق ما جاء عن ابن مسعود_ رضي الله عنه_ في بيان عاقبة قيادة غير أهل العلم:

فعن عاتكة بنت جزء، قالت: أتينا عبد الله بن مسعود فسألناه عن الدجال، فقال لنا: " لغير الدجال أخوف عليكم من الدجال: أمور تكون من **كبرائكم**، فأيما مريّه أو رجيّل أدرك ذاك الزمان: فالسمت الأول، السمت الأول، فأما اليوم على السنة "(٤) .

* وقد روى ابن عبد البر عن هلال بن خباب، قال: " قلت لسعيد بن جبير: يا أبا عبد الله، ما علامة هلاك الناس ؟ .

قال: " إذا هلك فقهاؤهم: هلكوا "(٥) .

* وعن الزهري_ رحمه الله_، قال: " كان من مضى من علمائنا يقول: الاعتصام بالسنة: **نجاة**، والعلم يقبض سريعاً، **فنعش العلم: ثبات الدين والدنيا، وذهاب العلماء: ذهاب ذلك كله** "(٦) .

وقد قيل:

---

(١) " المدخل للبيهقي/١٨٦ "، " الإحكام لابن حزم٨/٥٠٩ "، " المعجم الكبير٩/١٠٥ "، وجود إسناده في " الفتح١٣/٢٠ "، وانظر: " فتح الباري١٣/٢٨٣ "، " كشف الخفاء٢/١٦١ " .

(٢) " الفتح١٣/٢١ " .

(٣) " فتح الباري١٣/٢١ " .

(٤) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٦: ٨٧ "، " ذم التأويل/٣١ " .

(٥) " جامع بيان العلم١/٣٧ " .

(٦) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٩٥ " .

لا يصلح الناس فوضى لا سُراة لهم   ولا سراة إذا جهالهم سادوا[(١)]

ـــ هذا، وقد نص السلف_ كما مر معنا_ على أن الطائفة المنصورة: هم أهل العلم:

* قال الإمام الكبير عبد الله بن المبارك_ رحمه الله_ في بيان الطائفة المنصورة:

" هم عندي أصحاب الحديث "[(٢)] .

* وقال يزيد بن هارون_ رحمه الله_: " إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري مَنْ هم ؟! "[(٣)] .

* وسئل الإمام أحمد عن هذه الطائفة المنصورة، فقال: " إن لم تكن أهل الحديث فلا أدري من هي ؟ "[(٤)] .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [أخرج الحاكم في علوم الحديث بسند صحيح عن أحمد: " إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم ؟ "][(٥)] .

* وقال الترمذي: قال محمد بن إسماعيل: قال علي بن المديني_ رحمه الله_: " هم أصحاب الحديث "[(٦)] .

* وقال الإمام البخاري_ رحمه الله_ : [باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق "، وهم: أهل العلم][(٧)] .

* وقال أحمد بن سنان الثقة الحافظ : " هم أهل العلم وأصحاب الآثار "[(٨)] .

ـ وممّا تفيده هذه الأقوال عن جلة السلف وأئمتهم: أن أهل العلم: هم رأس الطائفة المنصورة، وأصحاب أمرها على التحقيق، وأن غيرهم: تبعٌ لهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [ونحن لا نعني بأهل الحديث: المقتصرين على سماعه أو كتابته أو روايته بل نعني بهم كلَّ من كان أحقَّ بحفظه ومعرفته وفهمه: ظاهراً وباطناً، **واتباعه: باطناً وظاهراً**، وكذلك أهل القرآن، و أدنى خصلة في هؤلاء: محبة القرآن والحديث، والبحث عنهما، وعن معانيهما، **والعمل بما علموه من موجَبهما** .

ففقهاء الحديث: أخبر بالرسول من فقهاء غيرهم، وصوفيتهم: أتبع للرسول من صوفية غيرهم، **وأمراؤهم:**

---

(١) " الحماسة البصرية٢/٦٩ "، " أمالي القالي٢/٢٢٨ "، " مفردات الراغب/٨٩ " .

(٢) " شرف أصحاب الحديث للخطيب/٢٦ " .

(٣) " المرجع السابق " .

(٤) " معرفة علوم الحديث/٢ "، " شرف أصحاب الحديث/٢٥، ٢٧ " .

(٥) " فتح الباري ١٣/٣٥٩ " .

(٦) " سنن الترمذي٤/٤٨٥ "، " شرف أصحاب الحديث/٢٧ " .

(٧) " صحيح البخاري٦/٢٦٦٧ " .

(٨) " شرف أصحاب الحديث/٢٧ " .

أحق بالسياسة النبوية من غيرهم، وعامتهم أحق بموالاة الرسول من غيرهم](١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ أيضاً_: [ومن المعلوم أن أهل الحديث والسنة: أخص بالرسول وأتباعه، فلهم من فضل الله، وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم كما قال بعض السلف: أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل .

فهذا الكلام تنبيه على ما يظنه أهل الجهالة والضلالة من نقص الصحابة في العلم والبيان أو **اليد والسنان**](٢).

ــــ فأهل العلم: العاملون به، القائمون بأمر الله: علماً وعملاً، دعوةً وجهاداً: هم رأس الطائفة المنصورة، وأصحاب أمرها على الحقيقة، يُعلّمون، ويوجّهون، ويقودون، ويصححون ويقومون، ويعطون الأسوة والقدوة الحية لمن وراءهم إذ هم ورثة الأنبياء والمرسلين، وما أجله من ميراث، ويا لها من وراثة ! .

* قال الإمام أحمد: " دخل سفيان الثوري، والأوزاعي على مالك، فلما خرجا، قال: أحدهما أكثر علماً من صاحبه، ولا يصلح للإمامة، والآخر يصلح للإمامة، يعني: الأوزاعي للإمامة "(٣) .

* وعن علي بن بكار، قال: سمعت أبا إسحاق الفزاري يقول: " ما رأيت مثل الأوزاعي، والثوري، فأما الأوزاعي: فكان رجل عامة، وأما الثوري: فكان رجل خاصة نفسه، ولو خُيِّرت لهذه الأمة: لاخترت لها الأوزاعي، يريد الخلافة .

قال علي بن بكار: لو خيّرت لهذه الأمة: لاخترت لها أبا إسحاق الفزاري "(٤) .

* وعن نعيم بن حماد عن ابن المبارك، قال: " لو قيل لي اختر لهذه الأمة: لاخترت سفيان الثوري، والأوزاعي، ولو قيل لي اختر أحدهما: لاخترت الأوزاعي لأنه أرفق الرجلين "(٥) .

* وعن عبد الرزاق، يقول: سمعت الأوزاعي يقول: " لو قيل لي اختر رجلاً يقوم بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم: لاخترت لهما الثوري "(٦) .

* وقال عبيد بن جناد: سمعت العمري يقول: " ما رأيت في دهرنا هذا من يصلح لهذا الأمر_ يعني: الإمامة_ إلا ابن المبارك "(٧) .

---

(١) " الفتاوى ٩٥/٤ " .

(٢) " الفتاوى١٤٠/٤ " .

(٣) " السير١١٢/٧ " .

(٤) " السير١١٣/٧ " .

(٥) " سير أعلام النبلاء١١٢/٧: ١١٣ "، " تهذيب التهذيب٢١٨/٦ "، وانظر: " بحر الدم/٢٦٤ "، " الجرح والتعديل٢٠٦/١ " .

(٦) " حلية الأولياء٣٥٨/٦ "، " تاريخ بغداد١٦٢/٩ " .

(٧) " السير٣٩٨/٨ " .

* وقال ابن خراش بلغني عن أحمد بن حنبل، قال: " لو قيل لي اختر للأمة رجلاً استخلف عليهم: استخلفت سليمان بن داود "[١] .

وقد سبق معنا قول اللالكائي_ رحمه الله_ وهو يعدد مناقب أهل الحديث: [فإنهم السواد الأعظم، والجمهور الأضخم، فيهم: العلم، **والحكم**، والعقل، والحلم، **والخلافة، والسيادة، والملك، والسياسة**][٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [وفي الجملة؛ فالبحث في هذه الدقائق_ يعني: أحكام القتال_: من **وظيفة خواص أهل العلم**][٣] .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن_ رحمه الله_: [كل من قام بإزاء العدو وعاداه، واجتهد في دفعه: فقد جاهد ولا بد .

وكل طائفة تصادم عدو الله: فلا بد أن يكون لها أئمة ترجع إلى أقوالهم وتدبيرهم، وأحق الناس بالإمامة: **من أقام الدين: الأمثل، فالأمثل**][٤] .

ـــ هذا، وقد ذكر إمام الحرمين الجويني أنه في حال عدم وجود إمام شرعي للمسلمين: فإن الأمور تؤول_حلاً وعقداً_ لأهل العلم: الأمثل، فالأمثل دون غيرهم:

قال_ رحمه الله_: [وقد حان الآن أن أفرض خلو الزمان عن الكفاة ذوي الصرامة، خلوه عمن يستحق الإمامة ...

إلى قوله:

أما ما يسوغ استقلال الناس فيه بأنفسهم، ولكن الأدب يقتضي فيه مطالعة ذوي الأمر، ومراجعة مرموق العصر: كعقد الجُمَع، وجر العساكر إلى الجهاد، واستيفاء القصاص في النفس والطرف، فيتولاه الناس عند خلو الدهر ...

إلى أن قال:

وإذا لم يصادف الناس قواما بأمورهم يلوذون به: فيستحيل أن يؤمروا بالقعود عمّا يقدرون عليه من دفع الفساد، فإنهم لو تقاعدوا عن الممكن: عم الفساد البلاد والعباد...

إلى قوله:

وقد قال بعض العلماء: لو خلا الزمان عن السلطان فحق على قطان كل بلدة وسكان كل قرية أن يقدموا من ذوي الأحلام والنهى، وذوي العقول والحجا من يلتزمون امتثال إشاراته وأوامره، وينتهون عند مناهيه

---

(١) " تهذيب التهذيب٤/١٦٤ "، " تهذيب الكمال١١/٤١٢ "، " تاريخ بغداد٩/٣١ " .

(٢) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٢٥ " .

(٣) " منهاج السنة النبوية٤/٥٠٤ " .

(٤) " الدرر السنية٧/٩٨ " .

ومزاجره، فإنهم لو لم يفعلوا ذلك: ترددوا عند إلمام المهمات، وتبلدوا عند إظلال الواقعات ...

إلى أن قال:

فإذا شغر الزمان عن الإمام، وخلا عن سلطان ذي نجدة وكفاية ودراية: **فالأمور موكولة إلى العلماء، وحق على الخلائق على اختلاف طبقاتهم أن يرجعوا إلى علمائهم، ويصدروا في جميع قضايا الولايات عن رأيهم، فإن فعلوا ذلك: فقد هدوا إلى سواء السبيل، وصار علماء البلاد: ولاة العباد .**

فإن عسر جمعهم على واحد: استبد أهل كل صقع وناحية باتباع عالمهم، وإن كثر العلماء في الناحية: فالمتبع أعلمهم، وإن فرض استواؤهم ففرضهم نادر لا يكاد يقع، فإن اتفق: فإصدار الرأي عن جميعهم مع تناقض المطالب والمذاهب: محال، فالوجه: أن يتفقوا على تقديم واحد منهم، فإن تنازعوا وتمانعوا وأفضى الأمر إلى شجار وخصام: فالوجه عندي في قطع النزاع: الإقراع، فمن خرجت له القرعة: قُدِّم](١) .

ـ ونختم الكلام هنا بما ذكره الإمام ابن قدامة المقدسي_ رحمه الله_ في أول كتابه المغني، حيث قال_ رحمه الله_ وهو يتحدث عن فضل العلم وأهله:

[فقال تعالى وهو أصدق القائلين: { فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون }: ندبهم إلى إنذار بريته كما ندب إلى ذلك أهل رسالته، ومنحهم ميراث أهل نبوته، ورضيهم للقيام بحجته، والنيابة عنه في الإخبار بشريعته، واختصهم من بين عباده بخشيته فقال تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء }، ثم أمر سائر الناس بسؤالهم، والرجوع إلى أقوالهم، وجعل علامة زيفهم وضلالهم: ذهاب علمائهم، واتخاذ الرؤوس من جهالهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم: فضلوا وأضلوا "(٢) ...

إلى أن قال:

فإن الله برحمته وطوله، وقوته وحوله: **ضمن بقاء طائفة من هذه الأمة على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وجعل السبب في بقائهم: بقاء علمائهم، واقتداؤهم بأئمتهم وفقهائهم، وجعل هذه الأمة مع علمائها: كالأمم الخالية مع أنبيائها**(٣) ...](٤) .

---

(١) " الغياثي/٣٨٥: ٣٩١ " .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) من غير ادعاء عصمة أو اعتقادها .

(٤) " المغني ١٧/١ " .

ـــــ تنبيه:

بعد أن ذكر الجويني_ رحمه الله_ أن الأمور تؤول إلى أهل العلم المجتهدين: الأمثل: فالأمثل عند عدم وجود الإمام الشرعي: ذكر أنه إذا لم يبق إلا نقلة مذاهب الأئمة: فإنهم يقدمون، وينزلون في حق العامة منزلة الأئمة المجتهدين:

قال: [إن الفقيه الذي وصفناه يحل في حق المستفتي محل الإمام المجتهد الراقي إلى الرتبة العليا في الخلال المرعية](١) .

ــ وهذا مبني على أن التكليف إنما هو بحسب الطاقة كما هي قاعدة الشريعة، وما لا يُدرك كله: يُدرك منه المستطاع، وهذا المستطاع: هو الواجب حينئذ .

وقد قرر الإمام ابن القيم_ رحمه الله_ عين ما قرره الجويني، فقال:

[إذا تفقه الرجل وقرأ كتاباً من كتب الفقه أو أكثر، وهو مع ذلك قاصر في معرفة الكتاب والسنة، وآثار السلف، والاستنباط والترجيح، فهل يسوغ تقليده في الفتوى ؟ .

---

(١) " الغياثي/٤٢٧ " .

فيه للناس أربعة أقوال: الجواز مطلقاً، والمنع مطلقاً، والجواز عند عدم المجتهد ولا يجوز مع وجوده، والجواز إن كان مطلعاً على مأخذ من يفتي بقولهم والمنع إن لم يكن مطلعاً .

والصواب فيه: التفصيل، وهو أنه إذا كان السائل يمكنه التوصل إلى عالم يهديه السبيل: لم يحل له استفتاء مثل هذا، ولا يحل لهذا أن ينسب نفسه للفتوى مع وجود هذا العالم، وإن لم يكن في بلده أو ناحيته غيره بحيث لا يجد المستفتي من يسأله سواه: فلا ريب أن رجوعه إليه أولى من أن يقدم على العمل بلا علم أو يبقى مرتبكاً في حيرته، متردداً في عَماه وجهالته بل هذا هو المستطاع من تقواه المأمور بها .

ونظير هذه المسألة إذا لم يجد السلطان من يوليه القضاء إلا قاضياً عارياً من شروط القضاء: لم يُعطل البلد عن قاض وولي الأمثل][1] .

وقد سبق معنا قول الشيخ عبد الرحمن بن حسن: [كل من قام بإزاء العدو وعاداه، واجتهد في دفعه: فقد جاهد ولا بد .

وكل طائفة تصادم عدو الله: فلا بد أن يكون لها أئمة ترجع إلى أقوالهم وتدبيرهم، وأحق الناس بالإمامة: من أقام الدين: **الأمثل، فالأمثل]**[2] .

---

(١) " إعلام الموقعين٤/١٩٦: ١٩٧ "، وانظر: " مواهب الجليل٦/ ٨٩ " .

(٢) " الدرر السنية٧/٩٨ " .

الباب الرابع

الصفة الرابعة

الاعتصام بالكتاب والسنة

ـــــ تمهيـــد:

الطائفة المنصورة وهذه الصفة:

هذه الصفة: هي أهم وأعظم صفات الطائفة المنصورة بل هي أساس كل ما تحلّت به من صفات أخر: علماً، وعملاً .

فالاعتصام بالكتاب والسنة: أساس نجاة الطائفة المنصورة، وسبب نصرها وظهورها، ومصدر تميزها وتفردها، وهو عنوانها الظاهر، ورسمها الغالب، وإليه تفزع إذا ادلهم الخطب، وعلت موجة الفتن يوم يفزع غيرها إلى آرائهم وأهوائهم .

* قال تعالى: { وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ **اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ** رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } [التوبة: ١٠٠] .

فهي جادة مسلوكة، وطريق مُعبّد يقف على رأسها: الأولون: أهل الاتباع الأوّلُ من المهاجرين والأنصار، وعلى رأس رأس الطريق: الدليل الخريت، الرائد الناصح، الحريص الشفوق، الرؤوف الرحيم: صاحبُ

الشرع المطهر، الحبيب محمد صلوات ربي وسلامه عليه .

وأفاد قوله: { والذين **اتبعوهم** بإحسان }: أن " الاتباع " { اتبعوهم }: هو أساس السير على طريقهم، وسلوك جادتهم كما أنه شرط الانتساب إليهم، فمن عَدل: عُدل به .

وفي قوله تعالى: { **بإحسان** }: نكتة بديعة جداً، فهو اتباع مخصوص: اتباع بإحسان، ولا يكون الاتباع كذلك إلا بالمضي حيث مضوا، والوقوف حيث وقفوا، فالجادة: جادتهم، والطريق: طريقهم؛ فهم أعلم بالطريق ممن جاء بعدهم، ومن بعدهم: ليسوا إلا أتباعاً لهم .

وذلك أن (الدين: إنما هو كتاب الله عز وجل، وآثار، وسنن، وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة، القوية، المعروفة: يصدق بعضها بعضاً حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضوان الله عليهم، والتابعين، وتابع التابعين أو عمّن بعدهم من الأئمة المعروفين: المقتدى بهم: المتمسكين بالسنة، والمعلقين بالآثار)(١) .

ـــــ وكون الاعتصام بالكتاب والسنة من صفات الطائفة المنصورة: أمر ظاهر من وجوه، منها:

أولاً:

وصف هذه الطائفة بأنها على الحق إذ الحق محصور في الاعتصام بالكتاب والسنة _ علماً، وعملاً _:

* قال الله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ **بِالْحَقِّ** بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ } [البقرة: ١١٩] .

* وقال تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ **بِالْحَقِّ** وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [١٧٦] .

* وقال تعالى: { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ **بِالْحَقِّ** لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ **الْحَقِّ** بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } .

ـــ فالحق: هو ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة، والآيات في ذلك كثيرة، ولله الحمد، وقد سبق بيان ذلك .

فإذا كانت هذه الطائفة على الحق كما شهد لها الشرع بذلك؛ فهي _ إذاً _ على الكتاب والسنة غاية ما يكون الاتباع لهما، والاعتصام بهما .

ثانياً:

وصفُ هذه الطائفة بأنها " قائمة بأمر الله "، و " أمر الله ": هو دينه وشرعه: كتاباً وسنة، فالقيام بأمر الله: محصورٌ في القيام بالكتاب والسنة _ علماً، وعملاً _، فلزم ضرورة: اعتصام هذه الطائفة بكتاب ربها، وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً:

---

(١) " اعتقاد الإمام أحمد/٨١ "، " طبقات الحنابلة١/٣١ " .

وصف هذه الطائفة بأنها ظاهرة، ومنصورة إذ الظهور، والنصر_ سواء كانا بالحجة والبيان أم بالسيف والسنان_ أساسهما: الاعتصام بالكتاب والسنة، وعلى قدر اعتصام طائفة ما بالكتاب والسنة: يكون حظها من النصر والظهور، فلمّا شهد الشارع لهذه الطائفة بالنصر والظهور: علمنا أنها معتصمة بكتاب ربها، وسنة نبيها، وأنها من أهل الاتباع لا من أهل الابتداع إذ هذا هو شرط النصر والظهور .

* قال تعالى: { إن تنصروا الله ينصركم } .

ونصر الله لا يكون إلا باتباع أمره وفق ما جاء به نبيه صلى الله عليه وسلم، وهو الاعتصام بالكتاب والسنة.

* وقد قال تعالى في ذكر شروط أهل النصر والظهور:

{ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم } .

والآيات في تقرير هذا الأصل كثيرة، وسنفرده_ إن شاء الله_ بحديث خاص .

قال ابن القيم_ رحمه الله_:

[والله سبحانه إنما ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علماً وعملاً، لم يضمن نصرة الباطل ولو اعتقد صاحبه أنه محق .

وكذلك العزة والعُلُوّ إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنــزل به كتبه، وهو علم وعمل وحال، قال تعالى: { وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين } .

فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان، وقال تعالى: { ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين }، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظ من العلو والعزة: ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان: علماً وعملاً، ظاهراً وباطناً.

وكذلك الدفع عن العبد هو بحسب إيمانه، قال تعالى: { إن الله يدافع عن الذين آمنوا}، فإذا ضَعُفَ الدفع عنه: فهو من نقص إيمانه .

وكذلك الكفاية والحَسْب: هي بقدر الإيمان، قال تعالى: { يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين }، أي: الله حَسْبُك، وحَسْبُ أتباعك، أي: كافيك، وكافيهم، فكفايته لهم بحسب اتّباعِهم لرسوله، وانقيادهم له، وطاعتهم له، فما نقص من الإيمان: عاد بنقصان ذلك كله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص .

وكذلك ولاية الله تعالى لعبده بحسب إيمانه، قال تعالى: { الله ولي المؤمنين }، وقال الله تعالى: { الله ولي الذين آمنوا } .

وكذلك معيته الخاصة هي لأهل الإيمان كما قال تعالى: { وإن الله لمع المؤمنين}، فإذا نقص الإيمان وضعف: كان حظ العبد من ولاية الله له ومعيته الخاصة بقدر حظه من الإيمان .

وكذلك النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى: { إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد }، وقال: { فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين } .

فمن نقص إيمانه: نقص نصيبه من النصر، والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل مُحَرم، وهو من نقص إيمانه ...][1] .

ــ وسنتكلم_ إن شاء الله_ عن " الاعتصام بالكتاب والسنة " كصفة للطائفة المنصورة من خلال الفصول الآتية؛ فنقول:

---

(١) " إغاثة اللهفان٢/١٨١: ١٨٢ " .

الفصل الأول

الطائفة المنصورة ووجوب الاعتصام بالكتاب والسنة

وأدلة وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة: كثيرة جداً، يمتلىء بها الشرع المطهر؛ (فلم نجد في كتاب الله، وسنة رسوله، وآثار صحابته إلا الحث على الاتباع، وذم التكلف والاختراع)[1] .

* قال تعالى: { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } .

---

(١) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٢٢ " .

والآية نص ظاهر في وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، إذ هما حبل الله الذي أمرنا به .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه، وسنة نبيه، والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة: اعتقاداً وعملاً ...](١) .

* وقال تعالى: { وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله } [الأنعام: ١٥٣].

فأمر سبحانه باتباع سبيل واحد، وهو صراطه المستقيم، ونهى عن اتباع السبل المخالفة له من الآراء، والأهواء .

(والصراط: ما جمع خمسة أوصاف؛ أن يكون: طريقاً مستقيماً، سهلاً، مسلوكاً، واسعاً، موصلاً إلى المقصود، فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطاً، ولا الصعب المشق، ولا المسدود غير الموصل، ومن تأمّل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين ذلك)(٢) .

فكانت هذه الآية نص في أن (الطريق الموصلة إلى الله واحدة، وهو: ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه لا يصل اليه أحد الا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب: فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد؛ فإنه متصل بالله، موصل إلى الله)(٣) .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم؛ فإنه لمّا نهى وأمر: حذر هنا عن سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة، وأقاويل السلف ...

و" الصراط ": الطريق الذي هو دين الإسلام، " مستقيماً ": نصب على الحال، ومعناه: مستوياً، قويماً لا اعوجاج فيه .

فأمر باتباع طريقه الذي طَرّقه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه، ونهايته: الجنة، وتشعبت منه طرق، فمن سلك الجادة: نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق: أفضت به إلى النار](٤) .

قال ابن القيم_ رحمه الله_:

وتمسـكن بحـبله وبـوحيه	وتوكلن حقيقـة الـتكلان
فالحق وصف الرب وهو صراطه	الهادي إليه لصاحب الإيمان
وهوالصراط عليه رب العرش أيـ	ضاً ذا وذا قد جاء في القرآن(٥)

* وقال تعالى: { وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين } .

---

(١) " تفسير القرطبي٤/١٦٤ " .

(٢) " شرح النونية لابن عيسى١/١٢٥ " .

(٣) " المرجع السابق١/ ١٢٦ " .

(٤) " تفسير القرطبي٧/١٣٧ " .

(٥) " شرح النونية١/١٢٤ " .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { وعلى الله قصد السبيل }، أي: على الله بيان قصد السبيل، وهو: البيان، والسبيل: الإسلام، أي: على الله بيانه بالرسل، والحجج، والبراهين، وقصد السبيل: استعانة الطريق، يقال: قاصد، أي: يؤدي إلى المطلوب .

{ ومنها جائر }، أي: ومن السبيل جائر، أي: عادل عن الحق فلا يهتدى به، ومنه قول امرىء القيس:

ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ومنه ذو دخل ...

وفي التنزيل: { وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل }، وقد تقدم، وقيل: المعنى ومنهم جائر عن سبيل الحق، أي: عادل عنه فلا يهتدى إليه .

وفيهم قولان، أحدهما: أنهم أهل الأهواء المختلفة، قاله ابن عباس، الثاني: ملل الكفر من اليهودية، والمجوسية، والنصرانية ...

قوله تعالى: { ولو شاء لهداكم أجمعين }: بين أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية][(١)] .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_: [لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية: نبّه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية كقوله تعالى: { وتزودوا فإن خير الزاد التقوى }، وقال تعالى: { يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير } .

ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها، ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة، والأسفار الشاقة: شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه: فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: { وعلى الله قصد السبيل }، كقوله: { وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله }، وقال: { قال هذا صراط عليّ مستقيم } .

قال مجاهد في قوله { وعلى الله قصد السبيل }، قال: طريق الحق على الله، وقال السدي: { وعلى الله قصد السبيل }: الإسلام، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: { وعلى الله قصد السبيل }، يقول: وعلى الله البيان، أي: يبين الهدى والضلال، وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه، وكذا قال قتادة، والضحاك .

وقول مجاهد هاهنا: أقوى من حيث السياق لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالى: { ومنها جائر }، أي: حائد، مائل، زائغ عن الحق، قال ابن عباس، وغيره: هي الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية] [(٢)] .

والآية عامة كما هو ظاهرها فتشمل كل طريق بخلاف ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه سبحانه

---

(١) " تفسير القرطبي١٠/٨١: ٨٢ " .

(٢) " تفسير ابن كثير٢/٥٦٤ " .

وتعالى كما قال صلى الله عليه وسلم: " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد "[1] .

* وقد قال تعالى: { وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله فقد ضل ضلالاً مبيناً } .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء: فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ههنا، ولا رأي، ولا قول كما قال تبارك وتعالى: { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلموا تسليماً }، وفي الحديث: " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به "، ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: { ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً } كقوله تعالى: { فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم }][2] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخيَّر بعد ذلك: فقد ضلّ ضلالاً مبيناً] [3] .

* وقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله } .

عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_، قال: " لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة " .

وعن مجاهد_ رحمه الله_، قال: " لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه " .

وعن الضحاك_ رحمه الله_، قال: " يعني بذلك في القتال، وكان من أمورهم لا يصلح أن يقضى إلا بأمره ما كان من شرائع دينهم " .

وفي لفظ: " لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم " .

وقال ابن زيد_ رحمه الله_: " لا تقطعوا الأمر دون الله ورسوله " .

وعن سفيان_ رحمه الله_، قال: " لا تقضوا أمراً دون رسول الله " .

وعنه_ أيضاً_: " لا تقدموا بين يدي الله ورسوله بقول ولا فعل "[4] .

والآيه تعمّ كل ما ذكره هؤلاء الأئمة_ رضوان الله عليهم_، فالقول الجامع فيها: أن الله سبحانه وتعالى نهى عباده عن أن يقدموا شيئاً من آرائهم، وأهوائهم، وأفكارهم، وتصوراتهم، وسياساتهم، وأفعالهم، وغير ذلك من أمورهم على ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة .

---

(١) مسلم .

(٢) " تفسير ابن كثير٣/٤٩١ " .

(٣) " إعلام الموقعين١/٥١ " .

(٤) انظر هذه الآثار: " تفسير الطبري٢٦/١١٦: ١١٧ "، " القرطبي١٦/٣٠١"، " ابن كثير٤/٢٠٦ " .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [يقول: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله: فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله][(١)] .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [أي: لا تقدموا قولاً، ولا فعلاً بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا، ومن قدّم قوله أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم: فقد قدّمه على الله تعالى لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل][(٢)] .

ثم قال_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { لا تقدموا بين يدي الله ورسوله }: أصل في ترك التعرض لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه، والاقتداء به][(٣)].

وقال ابن القيم_ رحمه الله_: [أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تُفْتُوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويُمضِيه .

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " لا تقولوا خِلافَ الكتاب والسنة، وروى العوفي عنه، قال: " نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه " .

والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول، ولا فعل قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يفعل][(٤)] .

ـــ وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال "[(٥)] .

قال النووي_ رحمه الله_: [وأما الاعتصام بحبل الله: فهو التمسك بعهده، وهو اتباع كتابه العزيز وحدوده، والتأدب بأدبه، والحبل: يطلق على العهد، وعلى الأمان، وعلى الوصلة، وعلى السبب، وأصله: من استعمال العرب الحبل في مثل هذه الأمور لاستمساكهم بالحبل عند شدائد أمورهم، ويوصلون بها المتفرق، فاستعير اسم الحبل لهذه الأمور][(٦)] .

قلت: قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: " وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ": هو تماماً كقوله تعالى: { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا }، و" حبل الله ": هو الكتاب والسنة، فيشمل ذلك كل ما

---

(١) " تفسير الطبري٢٦/١١٦ " .

(٢) " تفسير القرطبي١٦/٣٠٠ " .

(٣) " المرجع السابق١٦/٣٠٢ " .

(٤) " إعلام الموقعين١/٥١ " .

(٥) " مسلم٣/١٣٤٠ " .

(٦) " شرح مسلم١٢/١١ "، وانظر: " التمهيد٢١/٢٧٢ " .

جاء به صلى الله عليه وسلم من: الاعتقاد، والقول، والعمل، وهذا ما أُمرنا بالاعتصام به .

وقد سبق معنا قول القرطبي_ رحمه الله_ في الآية السابقة: [فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه، وسنة نبيه، والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة: اعتقاداً وعملاً ...][1] .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم: " تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم "(٢) .

* وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني قد خلفت فيكم ما لن تضلوا بعدهما أبداً ما أخذتم بهما أو عملتم بهما: كتاب الله وسنتي، فلن يتفرقا حتى يردا على الحوض "[3] .

فالكتاب، والسنة: هما (الأصلان اللذان لا عدول عنهما، ولا هدى إلا منهما، والعصمة والنجاة لمن تمسك بهما، واعتصم بحبلهما، وهما: الفرقان الواضح، والبرهان اللائح بين المحق إذا اقتفاهما، والمبطل إذا خلاهما، فوجوب الرجوع إلى الكتاب، والسنة: متعين، معلوم من الدين بالضرورة)[4] .

* قال جابر_ رضي الله عنه_ " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب: احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبّحكم ومسّاكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد؛ **فإن خير الحديث: كتاب الله، وخير الهدي: هدي محمد،** وشر الأمور: محدثاتها، وكل بدعة ضلالة "[5] .

* ومن حديث ابن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنما هما اثنتان الكلام والهدي؛ **فأحسن الكلام: كلام الله، وأحسن الهدي: هدي محمد،** ألا وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن شر الأمور: محدثاتها، وكل محدثة: بدعة، وكل بدعة: ضلالة "[6] .

* وعن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً، ثم خطّ خطوطاً: يميناً وشمالاً، ثم قال: " هذه سبل: على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: { وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله } "[7] .

---

(١) " تفسير القرطبي٤/١٦٤ " .

(٢) " الحاكم ١/١٧١" ،" البيهقي١٠/١١٤"، " المروزي في السنة/٢٦ "، " الإحكام لابن حزم٦/٢٤٣ " عن ابن عباس، ورواه الإمام مالك في " الموطأ/٨٩٩ " بلاغاً .

(٣) " المستدرك١/١٧٢ "، " البيهقي الكبرى١٠/١١٤ "، " الدارقطني٤/٢٤٥ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٠ "، وانظر: " الترغيب١/٤١ " .

(٤) " فيض القدير٣/٢٤١ " .

(٥) " مسلم٢/٥٩٢ "، " ابن حبان١/١٨٦ "، " أبو يعلى٤/٨٥ "، وغيرهم .

(٦) " ابن ماجه١/١٨ "، " اللالكائي١/٧٧ "، " السنة لابن أبي عاصم١/١٦ "، " شعب الإيمان٤/٢٠١ "، وغيرهم .

(٧) حسن: " صحيح ابن حبان١/١٨٠ "، " النسائي الكبرى٦/٣٤٣ "، " أحمد١/٤٣٥ "، " الدارمي١/٧٨ "، " البزار٥/٩٩، ١١٣: ١١٤،

وقد أخرج ابن حبان_ رحمه الله_ هذا الحديث في صحيحه ثم ترجم له بقوله: " ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من لزوم سنته صلى الله عليه وسلم، وحفظه نفسه عن كل من يأباها من أهل البدع وإن حسنوا ذلك في عينه وزينوه "(١) .

ثم ترجم له أخرى بقوله: " ذكر ما يجب على المرء من ترك تتبع السبل دون لزوم الطريق الذي هو الصراط المستقيم "(٢) .

* وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في حديث العرباض بن سارية_رضي الله_:

" فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً: فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي: عضوا عليها بالنواجذ ... " الحديث(٣).

ومن فقه ابن حبان_ رحمه الله_ أنه بعد أن عقد باباً، فقال: " باب الاعتصام بالسنة وما يتعلق بها: نقلاً، وأمراً، وزجراً ": ذكر هذا الحديث وترجم له بقوله: " ذكر وصف الفرقة الناجية من بين الفرق التي تفترق عليها أمته صلى الله عليه وسلم "(٤) .

وهي إشارة واضحة منه: أن الفرقة الناجية هي التي قيّدها الاتباع عن الإحداث في دين الله بالأرآء، والأهوآء، والبدع؛ فكان منها التمسك بما جاء به صلى الله عليه وسلم دون سواه .

وقد قال_ رحمه الله_: [في قوله صلى الله عليه وسلم: " فعليكم بسنتي " عند ذكره الاختلاف الذي يكون في أمته: بيان واضح أن من واظب على السنن، وقال بها، ولم يعرج على غيرها من الآراء: من الفرق الناجية في القيامة جعلنا الله منهم بمنه](٥) .

قال ابن رجب_ رحمه الله_: [قوله: " عضوا عليها بالنواجذ ": كناية عن شدة التمسك بها، والنواجذ: الأضراس ...](٦) .

ــــ والآثار عن أئمة الطائفة المنصورة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان في وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، والتحذير من تنكب طريقهما: كثيرة جداً، جداً؛ منها:

١٣١، ٢٥١ "، " سنن سعيد بن منصور١١٢/٥ "، " الطيالسي/٣٣ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة٢٢/١ "، " السنة للمروزي/١٠ "، " الحلية٢٦٣/٦ "، وقد روي نحوه عن جابر_رضي الله عنه_ كما في " تاريخ بغداد٤٧/٢ "، وانظر: " المجمع٢٢/٧ " .

(١) " صحيح ابن حبان١٨٠/١ " .

(٢) " صحيح ابن حبان/١ ١٨١ " .

(٣) " الترمذي٤٤/٥ "، " أبو داود٢٠٠/٤ "، " ابن ماجه١٥/١: ١٦ "، " الدارمي٥٧/١ "، " ابن حبان١٧٨/١: ١٨٠ "، " الحاكم١٧٤/١: ١٧٧ "، وغيرهم .

(٤) " صحيح ابن حبان١٨٠/١ " .

(٥) " صحيح ابن حبان١٧٦/١ :٠ ١٨ " .

(٦) " جامع العلوم والحكم/٢٦٦ " .

* عن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ أنه خطب الناس، فقال: " أيها الناس، قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة إلا أن تضلوا بالناس يميناً وشمالاً، وصفق بإحدى يديه على الأخرى "[١] .

* قال عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_: " اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، وكل بدعة ضلالة "[٢] .

* وقال_ رضي الله عنه_: " الاقتصاد في السنة: خير من الاجتهاد في البدعة "[٣] .

* وفي لفظ: " اقتصاد في سنة: خير من اجتهاد في بدعة، وكل بدعة: ضلالة "[٤] .

* وقال_ رضي الله عنه_: " إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر "[٥] .

* وقال_ رضي الله عنه_: " عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه: أن يذهب أهله، وإنكم ستجدون قوماً يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم: فعليكم بالعلم، وإياكم والبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق "[٦].

* وقال_ رضي الله عنه_: " إنكم اليوم على الفطرة، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة: فعليكم بالهدي الأول "[٧] .

* وقال_ رضي الله عنه_: " أنا لغير الدجال: أخوف عليكم من الدجال: أمور تكون من كبرائكم، فأيما مرية أو رجيل أدركه ذلك الزمان: فالسمت الأول، فإنا اليوم على السنة "[٨] .

* وكان معاذ بن جبل_ رضي الله عنه_ يقول في كل مجلس يجلسه: " الله: حكم قسط، تبارك اسمه، هلك المرتابون، إن من ورائكم فتناً: يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه الرجل والمرأة، والحر والعبد، والصغير والكبير، فيوشك الرجل أن يقرأ القرآن؛ فيقول: قد قرأت القرآن، فما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ثم ما هم بمتبعين حتى ابتدع لهم غيره، وإياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع: ضلالة "[٩] .

* وقال حذيفة_ رضي الله عنه_: " يا معشر القراء: خذوا طريق من قبلكم، فوالله، لئن استقمتم: لقد سبقتم

---

(١) " الاعتصام للشاطبي١/٥٨ " .

(٢) " السنة للمروزي/٢٨ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٦ "، " ذم التأويل/٣١ "، " الاعتصام ١/٥٩ " .

(٣) " السنة للمروزي/٣٠ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٨ "، " الاعتصام ١/٦٠ " .

(٤) " السنة للمروزي/٣٠ " .

(٥) " ذم التأويل/٣١ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٦ " .

(٦) " السنة للمروزي/٢٩: ٣٠ "، " ذم التأويل/٣١ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٦ "، " الاعتصام ١/٦٠ " .

(٧) " السنة للمروزي/٢٩ " .

(٨) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٦: ٨٧ "، " ذم التأويل/٣١ " .

(٩) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٨: ٨٩ "، وانظر: " سنن أبي داود٤/٢٠٢ "، " الاعتصام١/٦١ " .

سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً: لقد ضللتم ضلالاً بعيداً "[1] .

* وفي لفظ: " يا معشر القراء: اسلكوا الطريق، فوالله، لئن سلكتموه: لقد سبقتم سبقاً بعيداً، وإن أخذتم يميناً وشمالاً: لقد ضلللتم ضلالاً بعيداً "[2] .

* وعن عبد الله بن عمر_ رضي الله عنهما_ أنه كان يقول: " خير الدين: دين محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور: محدثاتها، اتبعوا ولا تبتدعوا فإنكم لن تضلوا ما اتبعتم الأثر، إن تتبعونا: فقد سبقناكم سبقاً بعيداً، وإن تخالفونا: فقد ضللتم ضلالاً كبيراً، ما أحدثت أمة في دينها بدعة إلا رفع الله عنهم سنة هدى ثم لا تعود فيهم أبداً، ولأن أرى في ناحية المسجد ناراً تشتعل فيه احتراقاً: أحب إلي من أن أرى بدعة ليس فيه لها مغير "[3] .

* وعن أبي الدرداء_ رضي الله عنه_، قال: " اقتصاد في سنة: خير من اجتهاد في بدعة، إنك إن تتبع: خير من أن تبتدع، ولن تخطئ الطريق ما اتبعت الأثر "[4] .

* وقال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " عليكم بالاستقامة، واتباع الأمراء، والأثر، وإياكم والتبدع "[5] .

* وعنه_ أيضاً_، قال: " من أحدث رأياً ليس في كتاب الله، ولم تمض به سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يدر ما هو عليه إذا لقي الله عز وجل "[6] .

* وعن عاصم الأحول، قال: قال أبو العالية_ رحمه الله_: " تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتوه: فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الإسلام يميناً ولا شمالاً، وعليكم بسنة نبيكم والذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء " .

فحدثت الحسن، فقال: صدق ونصح، قال: فحدثت حفصة بنت سيرين، فقالت: يا باهلي أنت حدثت محمداً بهذا، قلت: لا، قالت: فحدثه إذاً "[7] .

* وعن محمد بن سيرين_ رحمه الله_، قال: " كانوا يقولون ما دام علي الأثر: فهو على الطريق "[8] .

---

(١) " صحيح البخاري٦/٢٦٥٦ "، " السنة للمروزي/٣٠"، " ذم التأويل/٣٢ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٩٠ "، "الاعتصام للشاطبي١/٥٨ " .

(٢) " السنة للمروزي/٣٠ "، " الاعتصام للشاطبي١/٥٩ " .

(٣) " السنة للمروزي/٢٩ " .

(٤) " السنة للمروزي/٣٢ "، وانظر: " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٨ " .

(٥) " السنة للمروزي/٢٩ "، " الاعتصام١/٦١ " .

(٦) " الاعتصام١/٦١ " .

(٧) " السنة للمروزي/١٣ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٥٦ "، " الاعتصام١/٦٤ " .

(٨) " المدخل للبيهقي/١٩٨ "، " مفتاح الجنة/٤٨ "، " الدارمي١/٦٦ " .

* وفي لفظ: " كانوا يرون أنهم على الطريق: ما كانوا على الأثر "[١] .

* وعن الزهري_ رحمه الله_، قال: " كان من مضى من علمائنا يقول: الاعتصام بالسنة: نجاة "[٢] .

* وما ألطف مقولة الإمام سفيان الثوري_ رحمه الله_: " وجدت الأمر: الاتباع "[٣] .

ــ قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [من طريقة أهل السنة والجماعة: اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم: باطناً، وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة: بدعة، وكل بدعة: ضلالة " .

ويعلمون أن أصدق الكلام: كلام الله، وخير الهدي: هدي محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد، **وبهذا سموا أهل الكتاب والسنة**][٤] .

ــ وما أحسن وصية ابن القيم_ رحمه الله_ في نونيته حيث يقول:

يا أيها الرجل المريد نجاته ... إسمع مقالة ناصح معوان

كن في أمورك كلها متمسكاً ... بالوحي لا بزخارف الهذيان

وانصر كتاب الله والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان[٥]

فأهل الطائفة المنصورة: يؤمنون (أن كتاب الله، وسنة نبيه: لم يتركا في سبيل الهداية لقائل ما يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالاً يعتد فيه، وأن الدين قد كمل، والسعادة الكبرى فيما وضع، والطلبة فيما شرع، وما سوى ذلك: فضلال وبهتان، وإفك وخسران، وأن العاقد عليهما بكلتا يديه: مستمسك بالعروة الوثقى، محصل لكليتي الخير: دنيا، وأخرى، وما سواهما: **فأحلام، وخيالات، وأوهام)**[٦] .

---

(١) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٧ " .

(٢) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٩٤، ٩٥ " .

(٣) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٨ " .

(٤) " الفتاوى ٣/١٥٧ " .

(٥) " شرح النونية١/١٢١ " .

(٦) " الاعتصام١/١٩ " .

ـــــ فرع هام جداً:

قاعدة قبول الأعمال عند الطائفة المنصورة .

لمّا كان الاعتصام بالكتاب والسنة: فرضاً لازماً، وواجباً متعيناً عند أهل الطائفة المنصورة: كان هو الأصل الذي تُبنى عليه الأعمال وتقوم، ومن ثم: كانت قاعدة قبول الأعمال عند أهل الطائفة المنصورة إذ لقبول الأعمال عندهم: شرطان لا محيد عنهما معاً، أولهما: الإخلاص، ثانيهما: المتابعة، وعلى هذا: دل الكتاب، والسنة، والإجماع .

* قال تعالى: { ومَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ **واتَّبَعَ** مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً واتَّخَذَ الله إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً } [النساء: ١٢٥] .

فنص تعالى على أنه لا أحد أحسن ديناً ممن جمع وصفين، الأول: إسلام الوجه لله، وهو: الإخلاص والاستسلام للتكليف، والثاني: الإحسان، وهو: إيقاع التكليف على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، وهو: الاتباع مع ما في قوله تعالى: { واتبع }: من دلالة على ذلك أيضاً .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [{ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله }، أي: أخلص العمل لربه عز وجل،

فعمل إيماناً وإحتساباً، { وهو محسن }، أي: اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق .

وهذان الشرطان: لا يصح عمل عامل بدونهما، أي: يكون خالصاً، صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون متابعاً للشريعة، فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص .

فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين: فسد، فمتى فقد الإخلاص: كان منافقاً، وهم الذين يراؤون الناس، ومن فقد المتابعة: كان ضالاً، جاهلاً، ومتى جمعهما: كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم، الآية، ولهذا قال تعالى: { واتبع ملة إبراهيم حنيفاً }، وهم: محمد وأتباعه إلى يوم القيامة كما قال تعالى: { إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي } الآية، وقال تعالى: { ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين }، والحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً، أي: تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد، ولا يرده عنه راد][١] .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو: إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب وتوجهه، وإنابته، وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله، { وهو } مع هذا الإخلاص والاستسلام: { محسن }، أي: متبع لشريعة الله التي أرسل الله بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقا لخواص خلقه وأتباعهم .

{ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ }، أي: دينه وشرعه، { حَنِيفاً }، أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق][٢] .

* وتأمّل ما ردّ الله تعالى به على أهل الكتاب حيث قالوا: { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ **أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة: ١١١] .

فجعل الله تعالى: تحقيق هذين الشرطين من الإخلاص، والمتابعة: برهان الإيمان الصادق، وعليهما معاً: علّق النجاة .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى: فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم .

وهذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى: لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا: فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان: لكان لا فرق بينهما، فالبرهان: هو الذي يصدق الدعوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان: عُلم كذبهم بتلك الدعوى .

---

(١) " تفسير ابن كثير ١/٥٦٠ " .

(٢) " تفسير السعدي/١٢٣ " .

ثم ذكر تعالى **البرهان الجلي العام لكل أحد،** فقال: { بَلَى }، أي: ليس بأمانيكم ودعاويكم، ولكن { مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ }، أي: أخلص لله أعماله، متوجهاً إليه بقلبه، { وَهُوَ } مع إخلاصه: { مُحْسِنٌ } في عبادة ربه: بأن عَبَدَه بشرعه، فأولئك: هم أهل الجنة وحدهم، { فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ }، وهو: الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، { وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }: فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب .

ويفهم منها: أن من ليس كذلك: فهو من أهل النار الهالكين، **فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول**][1] .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_: [قال تعالى: { بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن }، أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى: { فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن } الآية، وقال أبو العالية والربيع: { بلى من أسلم وجهه لله }، يقول: من أخلص لله، وقال سعيد بن جبير: { بلى من أسلم }: أخلص، {وجهه}، قال: دينه .

{ وهو محسن }، أي: اتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن للعمل المتقبل: شرطين، أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً، موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً: لم يتقبل ...

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله: فهو_ أيضاً_ مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى: { إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلاً }، وقال تعالى: { فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون }][2].

قال ابن القيم_ رحمه الله_:

وعبادة الـــرحمن غاية حبه ... مــع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلــك العبادة دائر ... ما دار حتـــى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمــر رسوله ... لا بالهوى والنفــس والشيطان
فقيام دين الله بــالإخلاص ... والإحسان إنهما لـــه أصلان
لم ينج من غضب الإله وناره ... إلا الذي قــامت به الأصلان
والناس بــعد فمشرك بإلهه ... أو ذو ابــتداع أو له الوصفان
والله لا يرضى بكثــرة فعلنا ... لكن بأحسنه مــع الإيمان[3]

* وقال تعالى بعد أن ذم النفاق وأهله غاية الذم، وتوعدهم بأسوأ عقاب وأشنعه: { إلا الذين تابوا **وأصلحوا**

---

(١) " تفسير السعدي/٢٣ " .

(٢) " تفسير ابن كثير ١/١٥٥ " .

(٣) " شرح النونية ١/٢٥٣ " .

واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً } .

ففي قوله تعالى: { وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله }: دلالة ظاهرة على ما نحن فيه من اشتراط الإخلاص، والمتابعة معاً بل قد جعلهما الله سبحانه وتعالى هنا من شرط التوبة من النفاق، وفي هذا أعظم العظة والعبرة لمن بنى عمله على غير المتابعة .

قال ابن جرير الطبري_ رحمه الله_: [وهذا استثناء من الله جل ثناؤه استثنى التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا، وأخلصوا الدين لله وحده، وتبرءوا من الآلهة والأنداد، وصدقوا رسوله أن يكونوا مع المصرين على نفاقهم حتى يوفيهم مناياهم في الآخرة، وأن يدخلوا مداخلهم من جهنم بل وعدهم جل ثناؤه: أن يحلهم مع المؤمنين محل الكرامة، ويسكنهم معهم مساكنهم في الجنة، ووعدهم من الجزاء على توبتهم: الجزيل من العطاء، فقال: { وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً } .

فتأويل الآية: { إلا الذين تابوا }، أي: راجعوا الحق، وأبوا إلا الإقرار بوحدانية الله، وتصديق رسوله، وما جاء به من عند ربه من نفاقهم، { وأصلحوا }، يعني: وأصلحوا أعمالهم، فعملوا بما أمرهم الله به، وأدوا فرائضه، وانتهوا عمّا نهاهم عنه، وانزجروا عن معاصيه .

{ واعتصموا بالله }، يقول: وتمسكوا بعهد الله، وقد دللنا فيما مضى قبل على أن الاعتصام: التمسك والتعلق، فالاعتصام بالله: التمسك بعهده، وميثاقه الذي عهد في كتابه إلى خلقه من طاعته، وترك معصيته .

{ وأخلصوا دينهم لله }، يقول: وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي يعملونها لله، فأرادوه بها ولم يعملوها رئاء الناس][(1)] .

* وقد قال تعالى: { فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً }

[الكهف: ١١٠] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_ [{ فمن كان يرجو لقاء ربه }، أي: ثوابه وجزاءه الصالح: { فليعمل عملاً صالحاً}، أي: ما كان موافقاً لشرع الله، { ولا يشرك بعبادة ربه أحداً }، وهو الذي يُراد به وجه الله وحده لا شريك له .

وهذان ركنا العمل المتقبل: لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم][(2)].

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا }، وهو: الموافق لشرع الله من واجب ومستحب، { وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }، أي: لا يرائي بعمله بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى .

فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة: هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك: فإنه خاسر في

---

(١) " الطبري٥/٣٣٩ " .

(٢) " تفسير ابن كثير٣/١٠٩ " .

دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه](1) .

* وقال تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النحل: ٩٧] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو: العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم { من ذكر أو أنثى } من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله: بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه الله بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت](2) .

* و عن عائشة_ رضى الله عنها_، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من عَمِل عملاً ليس عليه أمرنا: فهو رَد "(3) .

وهذا نص صحيح، صريح في عدم قبول كل عمل تخلفت منه المتابعة لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان صاحبه من أخلص أهل الأرض .

وقوله صلى الله عليه وسلم: " عملاً ": نكرة في سياق الشرط: فيعم كل ما يأتي به العبد من قول، وفعل، واعتقاد، فلا يخرج عن ذلك شيء أياً كان: دق أو جل، ظاهراً كان أم باطناً .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_: [هذا الحديث معدود من أصول الإسلام، وقاعدة من قواعده](4) .

وإنما كان لهذا الحديث هذه المكانة العظيمة لأنه أصل في وجوب الاتباع كما أنه أصل_ كذلك_ في فساد الابتداع إذ الحديث نص في بطلان كل عمل مخالف للدليل الشرعي .

فمن وقع عمله على غير أصل المتابعة؛ فعمله: فاسد، باطل، مردود على صاحبه .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قال عليه السلام: " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا: فهو رد "، أي: مردود، مفسوخ](5) .

وقد روى البخاري_ رحمه الله_ هذا الحديث معلقاً في كتاب الاعتصام من صحيحه، فقال:

[باب إذا اجتهد العامِل أو الحاكم فأخطأ خِلاف الرسول من غير علم: **فحكمه مردود** لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " من عَمِل عملاً ليس عليه أمرنا: فهو رد "](6) .

---

(١) " تفسير السعدي/٣٤٥ " .

(٢) " تفسير القرآن العظيم٢/ ٥٨٦ " .

(٣) مسلم .

(٤) " فتح البارى٥/٣٠٢ " .

(٥) " تفسير القرطبي٦/٢١٥ " .

(٦) " البخاري٦/٢٦٧٥ " .

وترجم النووي_ رحمه الله_ لهذا الحديث_ أيضاً_ بقوله: " باب: نقص الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور"(١) .

ثم قال_ رحمه الله_: [قوله صلى الله عليه وسلم: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه: فهو رد "، وفي الرواية الثانية: " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا: فهو رد " .

قال أهل العربية: الرد هنا: بمعنى المردود، ومعناه: فهو غير معتد به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم: فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات .

وفي الرواية الثانية: زيادة، وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها فإذا احتج عليه بالرواية الأولى: يقول أنا ما أحدثت شيئاً: فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها ...

وهذا الحديث ممّا ينبغي حفظه واستعماله في ابطال المنكرات واشاعة الاستدلال به](٢) .

وقال ابن القيم_ رحمه الله_: [والرد: فعل، بمعنى: المفعول، أي: فهو مردود، وعبر عن المفعول بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس الرد، وهذا تصريح بإبطال كل عمل على خلاف أمره، ورده، وعدم اعتباره في حكمه المقبول، ومعلوم أن المردود: هو الباطل بعينه بل كونه رداً أبلغ من كونه باطلاً إذ الباطل قد يقال لما لا نفع فيه أو لما منفعته قليلة جداً، وقد يقال لما ينتفع به ثم يبطل نفعه، وأما المردود: فهو الذي لم يجعله شيئاً، ولم يترتب عليه مقصوده أصلاً](٣) .

فـــ(هذا الحديث: أصل عظيم من أصول الإسلام كما أن حديث: " الأعمال بالنيات ": ميزان للأعمال في باطنها، وهو ميزان للأعمال في أن كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى: فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله: فهو مردود على عامله ...

فهذا الحديث بمنطوقه يدل على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع: فهو مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره: فهو غير مردود، والمراد بأمره ههنا: دينه، وشرعه كالمراد بقوله في الرواية الأخرى: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد "؛ فالمعنى إذاً: أن من كان عمله خارجاً عن الشرع، ليس متقيداً بالشرع: فهو مردود .

وقوله: " ليس عليه أمرنا ": إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها، ونهيها؛ فمن كان عمله جارياً تحت أحكام الشريعة، موافقاً لها: فهو مقبول، ومن كان خارجاً عن ذلك: فهو مردود)(٤) .

---

(١) " شرح مسلم١٢/١٦ " .

(٢) " شرح مسلم١٢/١٦ " .

(٣) " حاشية ابن القيم٦/١٦٩ " .

(٤) " جامع العلوم والحكم/٥٩: ٦٠ " .

ـ قال الحافظ الحكمي_ رحمه الله_ في منظومته " سلم الوصول ":

شرط قبول السعى أن يجتمعا فيـــه إصابة وإخلاص معا

لله رب العــرش لا ســـواه موافق الشرع الذي ارتضاه

وكل ما خـــالف للوحييـــن فإنـــه ردٌّ بغيـــر ميـــن

وكل ما فيه الخلاف نصبا فـــرده إليـــهما قد وجبا

فالدين إنمـــا أتى بالنقـــل ليس بالأوهام وحدس العقل(١)

ــــ وهذان الشرطان اللذان تقوم عليهما قاعدة قبول الأعمال عند أهل الطائفة المنصورة، أعني: الإخلاص، والمتابعة: هما تحقيق الشهادتين اللذين هما أصل الإسلام، وعليهما يقوم بناؤه، أعني: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله .

فتحقيق الشهادة الأولى: إفراد الله تعالى وحده بالعبادة، وتحقيق الشهادة الثانية: إفراد الرسول صلى الله عليه وسلم وحده بالمتابعة .

(فدين الإسلام: مبني على أصلين من خرج عن واحد منهما: فلا عمل له، ولا دين: أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وعلى أن نعبده بما شرع لا بالحوادث والبدع، وهو حقيقة قول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله)(٢) .

(وإذا كانت الشهادتان: هما أصل الدين، وفروعه وسائر دعائمه وشعبه: داخلة فيهما، **فالعبادة: متعلقة بطاعة الله ورسوله** كما قال تعالى: { ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين } [النساء:٦٩] .

وقال في الآية المشروعة في خطبة الحاجة: { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً } [الأحزاب: ٧٠_٧١] .

وفي الخطبة: " من يطع الله ورسوله: فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله: فقد غوى " رواه مسلم، وقال تعالى: { من يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون } [النور:٥٢] .

وقال تعالى: { ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين } [النساء:١٣_١٤] .

وكذلك علق الأمور بمحبة الله ورسوله كقوله تعالى: { أحب إليكم من الله ورسوله } [التوبة:٢٤]، وبرضا الله ورسوله كقوله: { والله ورسوله أحق أن يرضوه } [التوبة:٦٢]، وتحكيم الله ورسوله كقوله: { وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم} [النور:٤٨]، وقوله: { وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول }

---

(١) " معارج القبول ٤٤/١ " .

(٢) " الرد على البكري ١٤٠/١ " .

[النساء:٦١]، وأمر الله تعالى عند التنازع بالرد إلى الله والرسول، فقال: { وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول }، وجعل المغانم لله والرسول، فقال: {يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول } [الأنفال:١]، ونظائر هذا متعددة)(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [وبالجملة، فمعنا أصلان عظيمان؛ أحدهما: أن لا نعبد إلا الله، والثانى: أن لا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بعبادة مبتدعة، وهذان الأصلان: هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله كما قال تعالى: { ليبلوكم أيكم أحسن عملاً }، قال الفضيل بن عياض: أخلصه، وأصوبه، قالوا: يا أبا على، ما أخلصه، وأصوبه ؟ .

قال: إن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً: لم يقبل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً: لم يقبل حتى يكون خالصاً، صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة، وذلك تحقيق قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً } .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: يقول فى دعائه: " اللهم اجعل عملى كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً " .

وقال تعالى: { أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله }، وفى الصحيحين عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه: فهو رد "، وفى لفظ فى الصحيح: " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا: فهو رد "، وفى الصحيح وغيره_ أيضاً_: يقول الله تعالى: " أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيرى: فأنا منه برىء، وهو كله للذى أشرك " .

ولهذا قال الفقهاء: العبادات مبناها على التوقيف كما فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قبّل الحجر الاسود، وقال: " والله انى لأعلم أنك حجر: لا تضر، ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك لما قبلتك " .

والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول، وطاعته، وموالاته، ومحبته، وأن يكون الله ورسوله أحب الينا ممّا سواهما، وضمن لنا بطاعته، ومحبته: محبة الله، وكرامته: فقال تعالى: { قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم }، وقال تعالى: { وإن تطيعوه: تهتدوا }، وقال تعالى: { ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم }، وأمثال ذلك فى القرآن كثير، **ولا ينبغى لأحد أن يخرج فى هذا عمّا مضت به السنة، وجاءت به الشريعة**](٢) .

وقال_ رحمه الله_ كذلك_: [العبادات: مبناها على الشرع، والاتباع لا على الهوى، والابتداع، فإن الإسلام مبنى على أصلين؛ أحدهما: أن نعبد الله وحده لا شريك له، والثانى: أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لا نعبده بالأهواء، والبدع، قال الله تعالى: { ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا }، الآية، وقال تعالى: { أم لهم شركاء شرعوا لهم

---

(١) " الفتاوى٣/٣٤١ " .

(٢) " الفتاوى١/٣٣٣: ٣٣٤ " .

من الدين ما لم يأذن به الله } .

فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم من واجب، ومستحب لا نعبده بالأمور المبتدعة كما ثبت فى السنن من حديث العرباض بن سارية، قال الترمذى: حديث حسن صحيح، وفى مسلم أنه كان يقول فى خطبته: "خير الكلام: كلام الله، وخير الهدى: هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور: محدثاتها، وكل بدعة: ضلالة " ...][١] .

ـــــ وتحقيق هذين الأصلين: إفراد الله تعالى وحده بالعبادة، وإفراد الرسول صلى الله عليه وسلم وحده بالمتابعة: هما الهجرتان الواجبتان على العبد في كل زمان، ومكان .

فـــ(كما أن الإيمان فرض على كل أحد: ففرض عليه هجرتان في كل وقت:

هجرة إلى الله بالتوحيد، والإخلاص، والتوبة، والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة .

وهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على كل أمر غيره: " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله: فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها: فهجرته إلى ما هاجر إليه "، وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه .

فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد)[٢] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_:

واجـــعل لقـــلبك هجرتين ولا تنم فهما على كل امريء فرضان

فالهجرة الاولى إلى الرحمـــن بالـــ إخلاص في سر وفي إعلان

فالقصد وجه الله بالأقـــوال والـــ أعمال والطـــاعات والشكران

فبذاك ينجو العبـــد مـــن إشراكه ويصير حقاً عابـــد الرحمن

والهجرة الاخرى إلى المبعوث بالـــ حق المبين وواضح البرهان

فيدور مع قـــول الرسول وفعله نفياً واثباتـــاً بلا روغان

ويُحكم الوحـــي المبين على الذي قال الشيوخ فعنده حكمان

لا يحكمان ببـــاطل أبداً وكل العدل قد جاءت به الحكمان

وهما كـــتاب الله أعدل حاكم فـــيه الشـــفا وهداية الحيران

والحاكم الثاني كلام رسوله مـــا ثم غيرهما لذي إيمان

---

(١) " الفتاوى١/٨٠ " .

(٢) " زاد المعاد٣/١٢ " .

فإذا دعوك لغير حكمـــهما فلا سمعاً لداعـــي الكفر والعصيان

قل لا كرامـــة لا ولا نعما ولا طـــوعاً لمن يدعو إلى طغيان

وإذا دعيت إلى الرسول فقل لهم سمعاً وطوعاً لست ذا عصيان(١)

ـــــ وهذه القاعدة، أي: كون قبول الأعمال مشروطاً بتحقق الإخلاص، والمتابعة، وعدم كفاية الإخلاص وحده: ممّا قرره أئمة الطائفة المنصورة، ونصوا عليه بوضوح وبيان .

* فعن عمر بن يحيى، قال سمعت أبي يحدث عن أبيه، قال: " كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري، فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد ؟ .

قلنا: لا، حتى خرج، فلما خرج: قمنا إليه جميعاً، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد أنفا أمراً أنكرته، **ولم أر والحمد لله الا خيراً**، قال: فما هو، فقال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قوماً: حلقاً، جلوساً، ينتظرون الصلاة، في كل حلقة: رجل، وفي أيديهم: حصاً، فيقول: كبروا مائة: فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة: فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة: فيسبحون مائة.

قال: فماذا قلت لهم: قال: ما قلت لهم شيئاً، انتظار رأيك أو انتظار التابعين .

قال: أفلا أمرتهم ان يعدوا سيئاتهم، وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم .

ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق: فوقف عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟! .

قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصاً نعد به التكبير، والتهليل، والتسبيح .

قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد، ما أسرع هلكتكم !، هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم: متوافرون، وهذه ثيابه: لم تبل، وأنيته: لم تكسر، **والذي نفسي بيده: إنكم لعلي ملة هي أهدي من ملة محمد أو مفتتحوا باب ضلالة .**

قالوا: **والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا الا الخير .**

قال: **وكم من مريد للخير لن يصيبه،** إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا: أن قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله، ما أدري: لعل أكثرهم منكم ثم تولى عنهم .

فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج "(٢) .

ـــ فهؤلاء قوم ما أرادوا إلا الخير كما أقسموا على ذلك، وكما هو ظاهر حالهم كما شهد لهم به أبو موسى_رضي الله عنه_ إلا أن خيرهم هذا لما فَقَد المتابعة: كان مردوداً عليهم غير مقبول منهم بل كانوا مفتتحي باب ضلالة .

---

(١) " شرح النونية١/١٢٧ " .

(٢) صحيح: " الدارمي١/٨٠ "، وانظر: " مصنف عبد الرزاق٣/٢٢١: ٢٢٢ "، " المعجم الكبير٩/١٢٧ " .

وقد جاء قول ابن مسعود_ رضي الله عنه_: " كم من مريد للخير لن يصيبه ": نصاً ظاهراً في كون الإخلاص وحده لا يكفي لإصابة الخير وموافقته .

أما قول عمرو بن سلمة: " رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج ": فلا يحتاج إلى تعليق في الدلالة على مآلات الأعمال حين تفقد المتابعة وإن سُلّم بصحة النية ابتداءً .

* وكان عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ يقول فى دعائه: " اللهم اجعل عملى كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً "(١) .

* وعن أبي بن كعب_ رضي الله عنه_، قال: " عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما على الأرض عبد على السبيل والسنة وذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله عز وجل: فيعذبه، وما على الأرض عبد على السبيل والسنة وذكره_ يعني الرحمن_ في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها فهي كذلك إذ أصابتها ريح شديدة: فتحات عنها ورقها إلا حطّ عنه خطاياه كما تحات عن تلك الشجرة ورقها، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة: خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً أو اقتصاداً أن يكون ذلك على منهاج الأنبياء وسنتهم "(٢) .

* و" كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر، فقال له ابن عباس: اتركها .

قال: إنما نهي عنها أن تتخذ سلماً .

قال ابن عباس: فإنه قد نهي عن صلاة بعد العصر، فلا أدري أتعذب عليها أم تؤجر لأن الله يقول: { وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم } "(٣) .

* و" رأى سعيد بن المسيب رجلاً يصلي بعد العصر الركعتين يكثر، فنهاه .

فقال له: يا أبا محمد، أيعذبني الله على الصلاة ؟! .

قال: لا، ولكن يعذبك الله على خلاف السنة "(٤) .

* وكان الحسن_ رحمه الله_ يقول: " لا يصح القول إلا بعمل، ولا يصح قول وعمل إلا بنية، ولا يصح قول وعمل ونية إلا بالسنة "(٥) .

* وعن أيوب السختياني_ رحمه الله_ أنه كان يقول: " ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً إلا ازداد من الله

---

(١) " مجموع الفتاوى١/٣٣٤ " .

(٢) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٥٤ "، " الاعتصام١/٦١ " .

(٣) " الدارمي١/١٢٦ "، قال سفيان: " تتخذ سلماً "، يقول: يصلي بعد العصر إلى الليل .

(٤) " الدارمي١/١٢٦ "، وانظر: " مصنف عبد الرزاق٣/٥٢ "، " التمهيد٢٠/١٠٥ "، " مفتاح الجنة/٦١ " .

(٥) " الإبانة لابن بطة٢/٨٠٣ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/ ٥٧ " .

بعداً"[1] .

* وعن سعيد بن جبير_ رحمه الله_، قال: " لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يقبل عمل إلا بقول، ولا يقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بنية موافقة للسنة "[2] .

* وعن سعيد بن جبير_ رحمه الله_ أيضاً_ في قوله تعالى: { وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى }، قال: " ثم استقام، قال: لزوم السنة، والجماعة "[3] .

* وعن شمر بن عطية_ رحمه الله_ في قوله تعالى: { وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى }، قال: " لمن تاب من الشرك، وآمن بمحمد، وأدى الفرائض ثم اهتدى، قال: للسنة "[4] .

* وعن هشام بن حسان_ رحمه الله_، قال: " لا يقبل الله من صاحب بدعة صياماً، ولا صلاةً، ولا حجاً، ولا جهاداً، ولا عمرةً، ولا صدقةً، ولا عتقاً، ولا صرفاً، ولا عدلاً "[5] .

* وعن الإمام سفيان الثوري_ رحمه الله_، قال: " كان الفقهاء يقولون: لا يستقيم قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة "[6] .

* وعن الإمام الأوزاعي_ رحمه الله_، قال: " لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة "[7] .

* وقال عبد الرحمن بن عمر: " ذُكِرَ عند عبد الرحمن بن مهدي قومٌ من أهل البدع واجتهادهم في العبادة، فقال: لا يقبل الله إلا ما كان على الأمر والسنة، ثم قرأ: {ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم }[الحديد: ٢٧]، فلم يقبل ذلك منهم، ووبخهم عليه، ثم قال: إلْزَمْ الطريقَ، والسنة "[8] .

* وعن الفضيل بن عياض_ رحمه الله_ في قوله تعالى: { ليبلوكم أيكم أحسن عملاً} [الملك: ٢]، قال: "أخلصه، وأصوبه .

قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه، وأصوبه ؟ .

---

(١) " الاعتصام١/٦٣ " .

(٢) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/ ٥٧ "، وروى نحو هذا عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود_ رضي الله عنهما_، انظر: " الإبانة لابن بطة٢/٨٠٣ " .

(٣) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٧١ " .

(٤) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٧١ " .

(٥) " الاعتصام١/٦٣ " .

(٦) " الإبانة لابن بطة١/٣٣٣، ٢/٨٠٧ "، " الاعتصام١/٦٣ " .

(٧) " الإبانة لابن بطة ٢/٨٠٧ " .

(٨) " حلية الأولياء٩/٨ " .

فقال: إن العمل اذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً: لم يقبل، واذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً: لم يقبل، حتى يكون خالصاً، صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة "(١) .

* وقال أبو محمد بن عبد الوهاب الثقفي_ رحمه الله_: " لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان صواباً، ومن صوابها إلا ما كان خالصاً، ومن خالصها إلا ما وافق السنة "(٢) .

* وقال أبو الحسن الوراق_ رحمه الله_: " لا يصل العبد إلى الله إلا بالله، وبموافقة حبيبه صلى الله عليه وسلم في شرائعه، ومن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء: يضلّ من حيث أنه مهتد "(٣) .

* وقال أحمد بن أبي الحواري_ رحمه الله_: " من عمل عملاً بلا اتباع سنة: فباطل عمله "(٤) .

* بل قال أبو عثمان الجبري_ رحمه الله_: " خلاف السنة يا بني في الظاهر: علامة رياء في الباطن "(٥) .

* ومن عظيم فقه إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد_ رحمه الله_: أنه قيل له: " أحياك الله يا أبا عبد الله على الإسلام .

فقال: **والسنة** "(٦) .

ـ قال الإمام ابن القيم_ رحمه الله_: [إذا عُرف هذا، فلا يكون العبد متحققاً بـــ{ إياك نعبد وإياك نستعين } إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والثاني: الإخلاص للمعبود .

فهذا تحقيق: { إياك نعبد }، والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين_ أيضاً_ إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة، وهم: اهل { إياك نعبد } حقيقة، فأعمالهم: كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله ومنعهم لله، وحبهم لله وبغضهم لله، فمعاملتهم_ ظاهراً، وباطناً_ لوجه الله وحده ...

وكذلك أعمالهم كلها موافقة لأمر الله، وما يحبه، ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه...

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم على متابعة أمره، وما عدا ذلك: فهو مردود على عامله يردّه عليه أحوج ما هو إليه هباءً منثوراً، وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه

---

(١) " الحلية٨/٩٥ " .

(٢) " الاعتصام١/٦٩ " .

(٣) " الاعتصام١/٦٩ " .

(٤) " الاعتصام١/٧١ " .

(٥) " الاعتصام١/٧٢ " .

(٦) " طبقات الحنابلة١/١٣١ " .

وسلم: " كل عمل ليس عليه أمرنا: فهو رد " .

وكل عمل بلا اقتداء: فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً، فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره لا بالآراء، والأهواء.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له، ولا متابعة، فليس عمله موافقاً للشرع، وليس هو خالصاً للمعبود ...

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر ...

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله ...][1] .

وقال_ رحمه الله_ أيضاً_: [الأعمال: أربعة: واحد مقبول، وثلاثة مردودة، فالمقبول: ما كان لله خالصاً، وللسنة موافقاً، والمردود: ما فُقِدَ منه الوصفان أو أحدهما، وذلك أن العمل المقبول: هو ما أحبه الله ورضيه، وهو سبحانه إنما يحب ما أَمَرَ به وما عُمِلَ لوجهه، وما عدا ذلك من الأعمال: فإنه لا يحبها بل يمقتها، ويمقت أهلها ...][2] .

ـــــ وإذا كانت النيّة_ مهما بلغ إخلاص صاحبها_ لا تستقل بجعل العمل مقبولاً عند الله: فإنها لا تؤثر في العمل غير المشروع: فتجعله مشروعاً، متقرباً به عند الله سبحانه وتعالى .

قال أبو حامد الغزالي_ رحمه الله_: [اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول، وحركة وسكون، وجلب ودفع، وفِكْر وذِكْر، وغير ذلك ممّا لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه، فهى ثلاثة أقسام: معاص، وطاعات، ومباحات .

القسم الأول: المعاصي، وهى لا تتغير عن موضوعها بالنيّة، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام: " إنما الأعمال بالنيّات ": فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنيّة، كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره أو يُطعم فقيراً من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجداً أو رباطاً بمال حرام، وقصده الخير .

فهذا كله: جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً، وعدواناً، ومعصية بل قصده الخير بالشر_ على خلاف مقتضى الشرع_: شرٌّ آخر، فإن عرفه: فهو معاند للشرع، وإن جهله: فهو عاصٍ بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم .

والخيرات إنما يُعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ؟!: هيهات بل المروِّج لذلك على القلب: خفيّ الشهوة، وباطن الهوى ...

إلى أن قال:

والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل: فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعدُ مهلة للتعلم، وقد قال الله تعالى: { فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون } ...

---

(١) " مدارج السالكين١/٨٣: ٨٥ " .

(٢) " إعلام الموقعين٢/١٦٢: ١٦٣ " .

إلى أن قال:

فإذن قوله عليه السلام: " إنما الأعمال بالنيّات ": يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات، والمباحات دون المعاصي إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأما المعصية: فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً، نعم للنيّة دخل فيها، وهو: أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة: تضاعف وزرها، وعظم وبالها_ كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة_ .

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيّات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها، أما الأصل: فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء: صارت معصية، وأما تضاعف الفضل: فبكثرة النيّات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نيّة ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها. كما ورد به الخبر ....

إلى أن قال:

القسم الثالث: المباحات، وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نيّة أو نيّات يصير بها من محاسن القربات، ويُنال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران مَن يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهوٍ وغفلة](١) .

ـــــ وبميزان المتابعة، وبه وحده: يَزِن أهل الطائفة المنصورة أعمالَ الرجل أياً كان، فلا تغرهم الأعراض أو الظواهر الخارجة مهما كان بريقها وإن طار في الهواء أو مشى على الماء أو سُيِّرت له الجبال ! .

* عن يونس بن عبد الأعلى_ رحمه الله_، قال: قال صاحبنا_ يريد: الليث بن سعد_ رحمه الله: " لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء: ما قبلته " .

فقال الإمام الشافعي_ رحمه الله_: " قصّر، لو رأيته يمشي في الهواء: لما قبلته "(٢) .

* ومن عجيب قول أبي يزيد البسطامي؛ قوله: " لله خلق كثير يمشون على الماء: لا قيمة لهم عند الله، ولو نظرتم إلى من أعطي من الكرامات حتى يطير: فلا تغتروا به حتى تروا كيف هو عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود والشرع "(٣) .

* وعن أبي محمد عبد الله بن محمد النيسابوري_ رحمه الله_، وقد قيل له:

فلانٌ يمشي على الماء ! .

فقال: " عندي أن من مكنه الله من مخالفة هواه: فهو أعظم من المشي على الماء "(٤) .

---

(١) " إحياء علوم الدين٤/٣٨٨: ٣٩١ " .

(٢) " حلية الأولياء٩/١١٦ "، " سير أعلام النبلاء١٠/٢٣ " .

(٣) " السير١٣/٨٨ "، وانظر: " الاعتصام١/٧٠ " .

(٤) " صفوة الصفوة٢/٤٦٣ "، " السير١٥/٢٣١ " .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [ولهذا قال الأئمة: لو رأيتم الرجل يطير فى الهواء أو يمشى على الماء: فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهى][1] .

* وعن مقاتل بن حيان، قال: " أهل هذه الأهواء: آفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم: إنهم يذكرون النبي صلى الله عليه وسلم، وأهل بيته: فيتصيدون بهذا الذكر الحسن عند الجهال من الناس: فيقذفون بهم في المهالك، فما أشبههم بمن يسقي الصبر باسم العسل، ومن يسقي السم القاتل باسم الترياق .

فَأَبْصرهم، فإنك إن لا تكن أصبحت في بحر الماء: فقد أصبحت في بحر الأهواء الذي هو أعمق غوراً، وأشد اضطراباً، وأكثر صواعق، وأبعد مذهباً من البحر وما فيه، فتلك مطيتك التي تقطع بها سفر الضلال: **اتباع السنة** "[2] .

* وقال أبو الحسين النوري_ رحمه الله_: " من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي: **فلا تقربن منه** "[3] .

ـ فشأن العبد من أهل الطائفة المنصورة: أن (يزن جميع ما خاض الناس فيه من أقوال، وأعمال في الأصول، والفروع: الباطنة، والظاهرة بكتاب الله، وسنّة رسوله **غير متبعين لهوى: من عادة أو مذهب أو طريقة أو رئاسة أو سلف، ولا متبعين لظن: من حديث ضعيف أو قياس فاسد_ سواء كان قياس شمول أو قياس تمثيل_ أو تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله،** فإنّ الله ذم في كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم من الهدى)[4] .

---

(١) " الفتاوى١/٨٣ " .

(٢) " الاعتصام١/٦٤ " .

(٣) " الاعتصام١/٧٢ " .

(٤) " فتاوى ابن تيمية ١٢/٤٧٦ " .

الفصل الثاني

أركان الاعتصام بالكتاب والسنة عند الطائفة المنصورة

ـــ تمهيــد:

للاعتصام بالكتاب والسنة عند الطائفة المنصورة: أركان ثلاثة، وهي: الكتاب، والسنة ثم اتباع ما عليه السلف_ وهم: الصحابة_ رضوان الله عليهم_ من العلم، والعمل .

* قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً } [النساء: ٥٩] .

فقوله تعالى: { أطيعوا الله وأطيعوا الرسول }: دال على الركنين: الأول، والثاني، وهما: الاعتصام بالكتاب، والاعتصام السنة .

وقوله تعالى: { وأولي الأمر منكم }: دال على الركن الثالث .

وعلى هذه الأركان الثلاثة: تبني الطائفة المنصورة دينها: ظاهراً، وباطناً: قولاً، وفعلاً، واعتقاداً .

فأهل الطائفة المنصورة: يعتصمون في دينهم: بهذه الأركان الثلاثة، وهي عندهم: (أعظم مقول، وأوضح حجة ومعقول: كتاب الله: الحق المبين ثم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته الأخيار المتقين ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون ثم التمسك بمجموعها، والمقام عليها إلى يوم الدين ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها ممّا أحدثها المضلون .

فهذه: الوصايا الموروثة: المتبوعة، والآثار المحفوظة: المنقولة، وطرايق الحق المسلوكة، والدلائل اللائحة: المشهورة، والحجج الباهرة: المنصورة التي عملت عليها الصحابة، والتابعون، ومن بعدهم من خاصة الناس، وعامتهم من المسلمين واعتقدوها حجة فيما بينهم وبين الله رب العالمين)[١] .

ـــ وسنتكلم_ إن شاء الله_ عن كل ركن من هذه الأركان في المباحث التالية، فنقول:

---

(١) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٩ " .

المبحث الأول

المبحث الأول

الركن الأول

الكتـــاب

ــــ و" الكتاب " لغة: يطلق على كل كتابة، ومكتوب .

والمراد بـــ" الكتاب " هنا: القرآن الكريم: كتابُ الله العزيز، وكلامُه تعالى المُعْجز، المُتحدّى به، المُتعبّد بتلاوته، المُنزّل من السماء إلى الأرض بلسان عربي مبين على النبي الأمّي الأمين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم(١) .

ــــ وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الكتاب بأنه: هدى، وشفاء، ورحمة، وغير ذلك من الأوصاف الدالة على أن الفلاح، والنجاة في الدنيا والآخرة: محصورٌ في الاعتصام بهذا الكتاب والتمسك بما فيه .

* قال تعالى: { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ **هُدًى** لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة: ٢] .=قال ابن جرير_ رحمه الله_: [و" الهدى " في هذا الموضع: مصدر من قولك هديت فلاناً الطريق إذا أرشدته إليه، ودللته عليه، وبينته له، أهديه: هدى، وهداية](٢) .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [الهدى فى كلام العرب معناه: الرشد، والبيان، أى: فيه كشف لأهل المعرفة ورشد، وزيادة بيان وهدى ...] (٣) .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [قوله: { ذَلِكَ الْكِتَابُ }، أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين من العلم العظيم، والحق المبين، فهو: { لا رَيْبَ فِيهِ}، ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه: يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك: اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على اليقين المزيل للشك والريب ...

و" الهدى ": ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال: {هُدىً}، وحذف المعمول، فلم يقل: هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني: لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم: في دنياهم وأخراهم](٤) .

* وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ **مَوْعِظَةٌ** مِنْ رَبِّكُمْ **وَشِفَاءٌ** لِمَا فِي الصُّدُورِ **وَهُدًى وَرَحْمَةٌ** لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٥٧] .

---

(١) انظر: " المدخل لابن بدران/١٩٦ "، " إرشاد الفحول/٦٢ " .

(٢) " تفسير الطبري١/٩٨ " .

(٣) " تفسيرالقرطبي١/١٦٠ " .

(٤) " تفسير السعدي/٦ " .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يقول تعالى مرغباً الخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة، الضرورية للعباد، فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ }، أي: تعظكم، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها، { وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ}، وهو: هذا القرآن، شفاءٌ لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد: ممّا يوجب للعبد الرغبة والرهبة، وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرهبة عن الشر، ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن: أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله: أحب إلى العبد من شهوة نفسه، وكذلك ما فيه من البراهين، والأدلة التي صرفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان ممّا يزيل الشبه القادحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية: تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده .

{ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ }: فالهدى: هو العلم بالحق، والعمل به، والرحمة: هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به، فالهدى: أجل الوسائل، والرحمة: أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين، وإذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه: حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور][1] .

ـــ كما وصف الله تعالى كتابه بأنه: روح، ونور، وبرهان:

* قال تعالى: { وكذلك أوحينا إليك **روحاً** من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه **نوراً** نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم } [الشورى: ٥٢] .

* قال تعالى: { أوَ مَن كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له **نوراً** يمشي به في الناس كمن مَثَلُه في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون } [الأنعام: ١٢٢] .

* وقال تعالى: { يا أيها الناس قد جآءكم **برهان** من ربكم وأنزلنا إليكم **نوراً مبيناً** } [النساء: ١٧٤] .

قال ابن جرير_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآية: [{ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً }، يقول: وأنزلنا إليكم معه { نوراً مبيناً }، يعني: يبين لكم المحجة الواضحة، والسبل الهادية إلى ما فيه لكم النجاة من عذاب الله، وأليم عقابه إن سلكتموها واستنرتم بضوئه، وذلك النور المبين: هو القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم][2] .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقول تعالى مخاطباً جميع الناس، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزيلة للشبه، ولهذا قال: { وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً }، أي: ضياءً واضحاً

---

(١) " تفسير السعدي/٢٥٠ " .

(٢) " تفسير الطبري٦/٣٩ " .

على الحق، قال ابن جريج وغيره: هو القرآن](1) .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً }، وهو: هذا القرآن العظيم الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره](2) .

ـــــ وقد وصف سبحانه وتعالى كتابه_ القرآن الكريم_ الذي أنزله هادياً، ومرشداً، ومخرجاً من الظلمات إلى النور، ومفرقاً بين الحق والباطل في آيات كثيرة بأنه: **مبين**، أي: واضح، ظاهر، غاية في الوضوح والظهور، ومن ذلك .

* قال تعالى: { وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين **بلسان عربي مبين** } .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم { وإنه }، أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: { وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث } الآية: { لتنزيل رب العالمين }، أي: أنزله الله عليك وأوحاه اليك، { نزل به الروح الأمين }، وهو جبريل عليه السلام ...

وقوله تعالى: { بلسان عربي مبين }، أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي، الفصيح، الكامل، الشامل ليكون بيناً، واضحاً، ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة](3) .

* وقال تعالى: { الر تلك آيات **الكتاب المبين** إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين } [يوسف: ١_٣] .

* وقال تعالى: { طس تلك آيات القرآن وكتاب **مبين هدى وبشرى** للمؤمنين } [النمل: ١_٢]

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [يقول: هذه آيات القرآن: بيانٌ من الله بيّن به طريق الحق، وسبيل السلام، {وبشرى للمؤمنين }، يقول: وبشارة لمن آمن به، وصدق بما أنزل فيه بالفوز العظيم في المعاد](4) .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [وصفه بالمبين لأنه بيّن فيه أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، ووعده ووعيده ...

قوله تعالى: { هدى وبشرى للمؤمنين }، هدى في موضع نصب على الحال من الكتاب، أي: تلك آيات الكتاب

---

(١) " تفسير ابن كثير ٥٩٣/١ " .

(٢) " تفسير السعدي/١٣٢ " .

(٣) " ابن كثير ٣٤٨/٣ " .

(٤) " تفسير الطبري ١٣١/١٩ " .

هادية، ومبشرة][1] .

* وقال تعالى في أول الحجر: { الر تلك آيات الكتاب **وقرآن مبين** } .

* وقال تعالى: { وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا **ذكر وقرآن مبين** }.

والآيات هنا: كثيرة، ولله الحمد على ما أنزل .

ـ وجملة القول في هذا المقام: أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم بلسان عربي، فصيح، بين، واضح، جلي يفهمه كل عاقل، ذكي، زكي، فهو أشرف كتاب نزل من السماء، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان بأفصح لغة وأظهر بيان .

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية: ذكر أحسنها، وأبينها، وأظهر الحق ممّا اختلف الناس فيه، ودمغ الباطل وزيفه ورده .

وإن كان في الأوامر والنواهي: فأعدل الشرائع، وأوضح المناهج، وأبين حُكْماً، وأعدل حَكماً، فهو كما قال تعالى: { وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا }، يعني: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي .

ـــ كما بين الله تعالى أن هذا الكتاب نزل بالحق، فالحق: محصور فيه، وبه، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟!.

* قال تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّ الله نَزَّلَ الْكِتَابَ **بِالْحَقِّ** وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [البقرة: ١٧٦].

* وقال تعالى: { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ **بِالْحَقِّ** لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ **الْحَقِّ** بِإِذْنِهِ وَالله يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [البقرة: ٢١٣] .

* وقال تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ **بِالْحَقِّ** بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ } [البقرة: ١١٩] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآية الكريمة: [فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور: الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة، فالأول والثاني: قد دخلا في قوله: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ }، والثالث في قوله: { بِالْحَقِّ } ...

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الشرع العظيم، والقرآن الكريم، المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة][2] .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ **بِالْحَقِّ** بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر: ٢٤] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق ....، وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم، والصراط المستقيم: حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكر

---

(١) " تفسير القرطبي١٣/١٥٥ " .

(٢) " تفسير السعدي/٢٤ " .

الحكيم: حق، وصدق][1] .

* وقال تعالى: { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ **وَهُوَ الْحَقُّ** مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا **الْحَقَّ** مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ }[محمد: ٢_ ٣] .

قال السعدي_ رحمه الله_: [{ اتبعوا الحق } الذي هو الصدق، واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم...][2].

ـــــ كما نفى الله تعالى تطرق الباطل في أي صورة من صوره إلى هذا الكتاب:

* فقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ **الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ** تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } .

فهو كتاب: لا يأتيه الباطل من أي ناحية من نواحيه، ولا بأي وجه من الوجوه .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [{ وإنه لكتاب عزيز }، أي: منيع الجناب لا يرام أن يأتي أحد بمثله، { لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه }، أي: ليس للبطلان إليه من سبيل من رب العالمين، ولهذا قال: { تنزيل من حكيم حميد }، أي: حكيم في أقواله وأفعاله، { حميد } بمعنى: محمود، أي: في جميع ما يأمر به، وينهى عنه؛ الجميع: محمودةٌ عواقبه وغاياته][3] .

* وقال تعالى: { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } .

فبين تعالى أنه أنزل هذا الكتاب، وأوكل حفظه لنفسه سبحانه وتعالى، فمن أين يأتي الباطل أو يتصور ؟! .

قال الطبري_ رحمه الله_: [يقول تعالى ذكره: { إنا نحن نزلنا الذكر }، وهو: القرآن، { وإنا له لحافظون }، قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل ما ليس منه أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه، وحدوده، وفرائضه][4] .

ـــــ كما نفي سبحانه اللبس، والانحراف اللذين يمنعان وضوح الحق وظهوره عن كتابه، فقال تعالى: { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا **غَيْرَ ذِي عِوَجٍ** لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقول تعالى: { ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل }، أي: بيّنّا للناس فيه بضرب الأمثال { لعلهم يتذكرون }، فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان ...

وقوله جل وعلا: { قرآنا عربياً غير ذي عوج }، أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه، ولا

---

(1) " تفسير السعدي/٥٠١ " .

(2) " تفسير السعدي/٥٧٧ " .

(3) " تفسير ابن كثير٤/١٠٣ " .

(4) " تفسير الطبري١٤/٨ " .

انحراف، ولا لبس بل هو: بيان، ووضوح، وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك { لعلهم يتقون}، أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد][(١)] .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ **وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَاً** } .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [" الحمد ": هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق: إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فحمد نفسه، وفي ضمنه: إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما: نفي العوج عنه، وإثبات أنه مقيم، مستقيم ...][(٢)] .

* وقال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: { المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [الأعراف: ١_٢] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ }، أي: كتاب جليل حوى كلَّ ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً، مفصلاً .

{ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ }، أي: ضيق، وشك، واشتباه بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد، وأنه أصدق الكلام: لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه: فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائماً، ومعارضاً .

{ لِتُنْذِرَ بِهِ }: الخلق، وتعظهم، وتذكرهم، فتقوم الحجة على المعاندين، وليكن { وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } كما قال تعالى: { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }: يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد، وبين سلوكه][(٣)] .

ـــــ وقد بين تعالى أنه أنزل هذا الكتاب تبياناً لكل ما يحتاج إليه المسلمون، ممّا هو صلاح لهم في دينهم ودنياهم:

* قال تعالى: { ونزلنا عليك الكتب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين } [النحل: ٨٩] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [قال ابن مسعود: قد بُين لنا في هذا القرآن كلُّ علم، وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال، وكل حرام .

وقول ابن مسعود: أعمّ وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل

---

(١) " ابن كثير ٥٣/٤ " .

(٢) " تفسير السعدي/٣٣٠ " .

(٣) " تفسير السعدي/١٨٤ " .

حلال وحرام، وما الناس اليه محتاجون في أمر دنياهم، ودينهم، ومعاشهم، ومعادهم](1) .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [وقوله: { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ }: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة، ومعان جلية حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة، وأدلة متنوعة: لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح: معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى .

فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء: صار حجة اللة على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم: يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة، فالهدى: ما نالوا به من علم نافع، وعمل صالح، والرحمة: ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة: كصلاح القلب، وبره، وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة، والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم](2) .

* وقال تعالى: { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ الله وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [يونس: ٣٧] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يقول تعالى: { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ الله }، أي: غير ممكن، ولا متصور أن يُفترى هذا القرآن على الله لأنه الكتاب العظيم الذي { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ }، وهو الكتاب الذي { لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا }، وهو الكتاب الذي تكلم به رب العالمين، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه ؟!!، فإن كان أحد يماثل الله في عظمته، وأوصاف كماله: أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن .

ولو تنزلنا على الفرض والتقدير: فتقوله أحد على رب العالمين: لعاجله بالعقوبة، وبادره بالنكال، {وَلَكِنْ} الله أنزل هذا الكتاب: رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين، أنزله: { تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } من كتب الله السماوية بأن وافقها، وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت، { وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ } للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة، { لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } أي: لا شك، ولا مرية فيه بوجه من الوجوه بل هو الحق اليقين: { تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } الذي ربى جميع الخلق بنعمه، ومن أعظم أنواع تربيته: أن أنزل عليهم هذا الكتاب، الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على

---

(1) " تفسير ابن كثير ٢/٥٨٣ " .

(2) " تفسير السعدي/٣١٣ " .

مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال][1] .

ـــــ وكل ما سبق معنا ممّا جاء في وصف القرآن الكريم، وأنه: هدى، ونور، وضياء، وبيان، وبرهان، وذكرى، وبشرى، ورحمة، وأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه أنزل تبياناً لكل شيء، وغير ذلك: كثير ممّا وصف الله سبحانه وتعالى به كتابه: يَقضي قضاء لا مردّ له بأن: لا فلاح، ولا نجاة، ولا هدى، ولا توفيق، ولا رشاد، ولا صلاح في الدنيا والآخرة إلا باتباع هذا الكتاب، والتمسك به، وبما جاء فيه مع الاستسلام المطلق، وترك المعارضة على أي وجه من الوجوه .

* وقد قال تعالى: { قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين **يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** } .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم، فقال: { قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام }، أي: طريق النجاة والسلامة، ومناهج الإستقامة، { ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم }، أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك: فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة][2] .

* كما قال تعالى: { إن هذا القرآن يهدي **للتي هي أقوم** } [الإسراء: ٩] .

(أي: الطريقة التي هي أسد، وأعدل، وأصوب، فـ" التي ": نعت لموصوف محذوف، أي: الطريقة التي هي أقوم، وقال الزجاج: للحال التي هي أقوم الحالات)[3] .

قال ابن جرير الطبري_ رحمه الله_: [يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: يرشد ويسدد من اهتدى به: { للتي هي أقوم }، يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه، وهو: الإسلام .

يقول جل ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به كما حدثني يونس، قال أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: { إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم }، قال: للتي هي أصوب، هو: الصواب، وهو: الحق، قال: والمخالف: هو الباطل][4] .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_: [يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو: القرآن: بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل][5] .

---

(1) " تفسير السعدي/٢٤٨: ٢٤٩ " .

(2) " ابن كثير٢/٣٥ " .

(3) " تفسير القرطبي١٠/٢٢٥ " .

(4) " تفسير الطبري١٥/٤٦: ٤٧ " .

(5) " تفسير ابن كثير٣/٢٧ " .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه { يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ }، أي: أعدل، وأعلى من العقائد، والأعمال، والأخلاق؛ فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن: كان أكمل الناس، وأقومهم، وأهداهم في جميع الأمور](1) .

ـــــ وقد توعد الله سبحانه وتعالى المعرضين عن كتابه: المهتدين بغير هداه، والآيات في هذا: كثيرة جداً، منها:

* قوله تعالى: { كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً } [طه: ٩٩_ ١٠١] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا }، أي: عطية نفيسة، ومنحة جزيلة من عندنا، {ذِكْرًا}، وهو: وهذا القرآن الكريم: ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء .

وهذا ممّا يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام التي تشهد العقول، والفطر: بحسنها، وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها .

وإذا كان القرآن ذكراً للرسول، ولأمته: فيجب تلقيه بالقبول، والتسليم، والانقياد، والتعظيم، وأن يُهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم، وأما مقابلته بالإعراض أو ما هم أعم منه من الإنكار: فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك: فهو مستحق للعقوبة .

ولهذا قال: { مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ }: فلم يؤمن به أو تهاون بأوامره، ونواهيه أو بتعلم معانيه الواجبة: { فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا }، وهو: ذنبه الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران .

{ خَالِدِينَ فِيهِ }، أي: في وزرهم لأن العذاب: هو نفس الأعمال: تنقلب عذاباً على أصحابها بحسب صغرها، وكبرها، { وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا }، أي: بئس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة](2) .

* وقال تعالى: { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } [طه: ١٢٤] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي }، أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية وأن يتركه على وجه الإعراض عنه أو ما هو أعظم من ذلك بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به: { فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا }، أي فإن جزاءه أن نجعل معيشته ضيقة مشقة ولا يكون ذلك إلا عذاباً، وفسرت المعيشة الضنك: بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه، ويعذب جزاء لإعراضه عن ذكر ربه...

وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك: عامة في دار الدنيا بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم، والغموم، والآلام التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة

(1) " تفسير السعدي/٣١٩ " .

(2) " تفسير السعدي/٣٦٤ " .

الضنك، وعدم تقييدها](١) .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [{ ومن أعرض عن ذكري }، أي: خالف أمري وما أنزلته على رسولي؛ أعرض عنه، وتناساه، **وأخذ من غيره هداه:** { فإن له معيشة ضنكاً } في الدنيا فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره بل صدره ضيق، حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء: فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى: فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبه يتردد؛ فهذا من ضنك المعيشة](٢) .

وقد قال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية "(٣) .

(فمن اتبع ما بعث الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم من الكتاب والحكمة: هداه الله وأسعده، ومن أعرض عن ذلك: ضل، وشقي، وأضله الشيطان، وأشقاه)(٤) .

* ومن حديث زيد بن أرقم_ رضي الله عنه_، قال: " قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ، وذكر ثم قال: أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم: ثقلين، أولهما: **كتاب الله، فيه: الهدى، والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه**، ثم قال: وأهل بيتي إذكركم الله في أهل بيتي إذكركم الله في أهل بيتي إذكركم الله في أهل بيتي "(٥) .

* وعن جابر_ رضي الله عنه_، قال: " خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً، فقال: هذا سبيل، ثم خط خططاً، فقال: هذه سبل الشيطان، فما منها سبيل: إلا عليها شيطان يدعو إليه الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي: فأجيبه، وأنا تارك فيكم: الثقلين، **أولهما: كتاب الله عز وجل، فيه الهدى والنور، من استمسك به، وأخذ به: كان على الهدى، ومن تركه، وأخطأه: كان على الضلالة**، وأهل بيتي: أذكركم الله عز وجل في أهل بيتي، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا "(٦) .

* وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أبشروا، فإن هذا القرآن طرفه: بيد الله، وطرفه: بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبداً "(٧) .

---

(١) " تفسير السعدي/٣٦٦ " .

(٢) " تفسير ابن كثير٣/١٦٩ " .

(٣) " تفسير الطبري١٦/ ٢٢٥ "، " تفسير القرطبي١١/٢٥٨ " .

(٤) " فتاوى ابن تيمية١/٨٤ " .

(٥) " مسلم٤/١٨٧٣ " .

(٦) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨١ " .

(٥) صحيح: " المعجم الكبير٢/١٢٦ "، " البزار٨/٣٤٦ "، " السنة للخلال١/٣٥ "، والحديث مروي عن أبي شريح الخزاعي كما في

* وعن جابر_ رضي الله عنه_، قال صلى الله عليه وسلم: " القرآن: شافعٌ مُشفَّع، وماحِلٌ مُصدَّقٌ، من جعله أمامه: قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره: ساقه إلى النار "(١) .

* وعن أبي سعيد_ رضي الله عنه_، قال صلى الله عليه وسلم: " كتاب الله: هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض "(٢) .

* وعن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " إن هذا القرآن مأدبة؛ من دخل فيه: فهو آمن "(٣) .

* وعنه_ رضي الله عنه_ وقد قام خطيباً، فقال: " الزموا القرآن، وتمسكوا به حتى جَعَلَ يقبض على يديه صفاً كأنه آخذ بسبب شيء "(٤) .

* وعن أبي موسى_ رضي الله عنه_، قال: " إن هذا القرآن كائن لكم ذكرى، وكائن لكم أجراً أو كائن عليكم وزراً؛ فاتبعوا القرآن، ولا يتبعكم القرآن، فإنه من يتبع القرآن: يهبط به على رياض الجنة، ومن يتبعه القرآن: يزخ في قفاه، فيقذفه في جهنم "(٥) .

* " وخرج جندب البجلي في سفر له، فخرج معه ناس من قومه حتى إذا كانوا بالمكان الذي يُودع بعضهم بعضاً، قال: أي قوم، عليكم بتقوى الله، عليكم بهذا القرآن: فالزموه على ما كان من جهد وفاقة، فإنه نور بالليل المظلم، وهدى بالنهار "(٦) .

* وعن الحسن_ رحمه الله_، قال: " إن أغبط الناس: قوم قرأوا هذا القرآن، وعملوا بسننه، وإن أحق الناس بهذا: قوم عملوا بما فيه وإن كانوا لا يقرؤونه، وإن هذا القرآن: وثاق أوثق الله به المؤمنين "(٧) .

"صحيح ابن حبان١/٣٢٩"، " مصنف ابن أبي شيبة٦/١٢٥ "، " المعجم الكبير٢٢/١٨٨"، " مسند عبد بن حميد/١٧٥ "، وصححه عنه في "المجمع١/١٦٩ " كما يروى الحديث عن حذيفة بن أسيد الغفاري، انظر: " المجمع٩/١٦٥: ١٦٦، ١٠/٣٦٣ " .

(٦) " صحيح ابن حبان١/٣٣١ "، وجوّد المنذري إسناده في " الترغيب١/٤٢ "، ووثق رجاله في "المجمع١/١٧١": والحديث مروي عن ابن مسعود_ رضي الله عنه_ موقوفاً، ومرفوعاً، انظر: " مصنف ابن أبي شيبة٦/١٣١ "، " المعجم الكبير٩/١٣٢، ١٠/١٩٨ "، "المجمع١/١٧١، ٧/١٦٤ " .

(١) " تفسير الطبري٤/٣١ "، " تفسير ابن كثير١/٣٨٩: ٣٩٠ " .

(٣) " مصنف ابن أبي شيبة٦/١٢٦ " .

(٤) " مصنف ابن أبي شيبة٦/١٢٦ " .

(٥) " مصنف ابن أبي شيبة٦/١٢٦ " .

(٦) " مصنف ابن أبي شيبة٦/١٢٥ " .

(٧) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٠ " .

المبحث الثاني

الركن الثاني

السـنة

ـــــ و" السنة " لغة: السيرة، والطريق المسلوك .

والمراد بـ" السنة " هنا: كل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من: الاعتقادات، والأعمال، والأقوال، والتقريرات(١) .

فـ(السنة في الأصل: تقع على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما سنَّه أو أمر به من أصول الدين، وفروعه حتى الهَدْي، والسمت)(٢) .

ـــــ و" السنة " عند الطائفة المنصورة: صنو القرآن، وآخيته في الاحتجاج والاستدلال، فكما أن طاعة الله: فرض، لازم، فكذلك: طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم: فرض، لازم سواء بسواء .

* قال الإمام أحمد_ رحمه الله_: " طاعة النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب الله عز وجل في ثلاث وثلاثين موضعاً "(٣) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [قد ذكر الله طاعة الرسول واتباعَه في نحو من أربعين موضعاً من القرآن](٤) .

---

(١) انظر: " جامع العلوم والحكم/٢٦٣ "، " المدخل لابن بدران/١٩٩ "، وغيرهما .

(٢) " غاية الأماني للآلوسي١/٤٢٨ " .

(٣) " طبقات الحنابلة١/٩٧ " .

(٤) " الفتاوى١/٤ " .

ـــــ وقد قرن الله طاعة نبيه صلى الله عليه وسلم بطاعته سبحانه وتعالى في غير موضع من كتابه، ومن ذلك:

* قوله تعالى: { قل أطيعوا الله **والرسول** فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين } [آل عمران: ٣٢] .

* وقال تعالى: { ومن يطع الله **ورسوله** يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله **ورسوله** ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين } [النساء:١٣_ ١٤] .

* وقال تعالى: { يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله **وأطيعوا الرسول** وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً } [النساء:٥٩] .

* وقال تعالى: { وأطيعوا الله **وأطيعوا الرسول** واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين } [المائدة : ٩٢] .

* وقال تعالى: { وأطيعوا الله **ورسوله** ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين } [الأنفال : ٤٦] .

* وقال تعالى: { وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً } [النساء: ٨٠] .

* وقال سبحانه وتعالى: { إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله **ورسوله** ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله **ورسوله** ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون } [النور: ٥٢] .

* وقال تعالى: { قُلْ أَطِيعُوا الله **وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ **وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [النور: ٥٤] .

فأمر الله تعالى أمراً بيناً: لا لبس فيه، ولا غموض بطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم، وقرن طاعته صلى الله عليه وسلم: بطاعته سبحانه وتعالى، فقال: { وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول }، وأعاد الفعل: " وأطيعوا " مع "الرسول ": (إعلاماً بأن طاعته تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب بل إذا أمر: وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ممّا أُمرَ به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه: أوتي الكتاب ومثله معه)(١) .

ثم بيّن تعالى بأن الهداية المطلقة، المستمرة، التي تنقل من هداية لأخرى: إنما هي في طاعته صلى الله عليه وسلم، فقال: { وإن تطيعوه: **تهتدوا** } .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ [وأما الرسول عليه الصلاة والسلام، فوظيفته: أن يأمرهم وينهاكم، ولهذا قال: { قُلْ أَطِيعُوا الله وَالرَّسُولَ فَإِنْ } امتثلوا: كان حظهم وسعادتهم، وإن { تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ } من الرسالة، وقد أداها .

{ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } من الطاعة، وقد بانت حالكم وظهرت: فبان ضلالكم، وغيكم، واستحقاقكم العذاب .

{ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا } إلى الصراط المستقيم: قولاً، وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون

---

(١) " إعلام الموقعين ٥٤/١ " .

ذلك: لا يمكن بل هو محال](1) .

ـ فهذه النصوص السابقة كلها: (توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوصاً بعينه فى الكتاب كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد ما فى الكتاب منصوصاً بعينه فى حديث عن الكتاب، فعلينا أن نتبع الكتاب، وعلينا أن نتبع الرسول، واتباع أحدهما: هو اتباع الآخر، فإن الرسول بلّغ الكتاب، والكتاب أمر بطاعة الرسول، ولا يختلف الكتاب والرسول ألبتة كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضاً، قال تعالى: { ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً })(2) .

ـــ وقد ذكر تعالى أنه أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم بأمرين معاً؛ هما: الكتاب، والحكمة .

* قال تعالى: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ **الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } .

* وقال تعالى: { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ **الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } .

* وقال تعالى: { لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ **الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [آل عمران: ١٦٤] .

* وقال تعالى: { وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ **آيَاتِ الله وَالْحِكْمَةِ** إِنَّ الله كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا }

[الأحزاب: ٣٤] .

* وقال تعالى: { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ **الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } .

ـ وقد نص السلف على أن " الحكمة ": هي السنة .

* عن الحسن_ رحمه الله_، قال: " الكتاب: القرآن، والحكمة: السنة "(3) .

* وعن قتادة_ رحمه الله_، قال: " { ويعلمهم الكتاب والحكمة }: السنة "(4) .

* وقال قتادة_ رحمه الله_ أيضاً_: " { واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة }: القرآن، والسنة"(5) .

---

(1) " تفسير السعدي/٤١١ " .

(2) " الفتاوى لابن تيمية١٩/٨٤ " .

(3) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٧١ " .

(4) " المرجع السابق " .

(5) " البخاري٤/١٧٩٦ " .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [قد قال غير واحد من العلماء، منهم: يحيى بن أبي كثير، وقتادة، والشافعي، وغيرهم: الحكمة: هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة، والكتاب: القرآن، وما سوى ذلك ممّا كان الرسول يتلوه: هو السنة](١) .

ـ وقد قال تعالى_ أيضاً_: { وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمَا **أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ** يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } .

* وقال تعالى: { وَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ **وَأَنْزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا } .

فدل قوله تعالى: { وما **أنزل** عليكم من الكتاب **والحكمة** }، وقوله تعالى: { و**أنزل** الله عليك الكتاب **والحكمة**}: على أن " الحكمة "_ التي هي: السنة_ منزلة من عنده سبحانه وتعالى؛ مثلها في ذلك: مثل " الكتاب " سواء بسواء .

* وقد قال تعالى_ كذلك_: { و**أنزلنا** إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون } [النحل:٤٤] .

عن حسان بن عطية_ رحمه الله_، قال: " كان جبريل صلى الله عليه وسلم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل بالقرآن عليه يعلمه إياها كما يعلمه القرآن "(٢) .

قال العراقي_ رحمه الله_: [وصف السنة بالإنزال: صحيح، فقد كان يُنزل بها كما يُنزل بالقرآن كما في الحديث الصحيح في الرجل الذي أحرم لعمرة وهو متضمخ بخلوق: فنزل الوحي في ذلك بالسنة الثابتة من قوله: " ما كنت صانعاً في حجك: فاصنعه في عمرتك "، الحديث المشهور(٣)](٤).

ـ قلت: وقد قال صلى الله عليه وسلم كما جاء من حديث المقدام بن معدي كرب_رضي الله عنه_: " ألا إني أوتيت القرآن **ومثله معه**، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن: فما وجدتم فيه من حرام: فحرموه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه: فله أن يعقبهم بمثل قراه "(٥) .

---

(١) " الفتاوى١/٦ " .

(٢) " الدارمي١/١٥٣ "، " السنة للمروزي/٣٣ "، " السنة للخلال١/٣٣ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٣: ٨٤ "، " الكفاية في علم الرواية/١٤ " .

(٣) " البخاري٢/٦٣٤ "، " مسلم٢/٨٣٦: ٨٣٧ " عن يعلى بن أمية_ رضي الله عنه_ .

(٤) " طرح التثريب١/١٥ " .

(٥) صحيح، وله طرق عن المقدام: " صحيح ابن حبان١/١٨٨ "، " المستدرك١/١٩١ "، " أبو داود٤/٢٠٠"، " الترمذي٥/٣٨ "، "أحمد٤/١٣٠ "، " الدارمي١/١٥٣ "، " البيهقي الكبرى٩/٣٣٢ "، " الدارقطني٤/٢٨٧ "، " المعجم الكبير٢٠/٢٨٣ "، " السنة للمروزي/٧٠: ٧١، ١١١ "، " التمهيد لابن عبد البر١/١٥٠ "، " الكفاية في علم الرواية/٨: ٩ "، وصححه ابن القيم في " حاشيته على أبي داود١٠/٢٠٤".

فنصّ صلى الله عليه وسلم على أنه أوتي القرآن ومثله معه، فكان نصاً منه صلى الله عليه وسلم على أن السنة: منزلة، مثلها في ذلك: مثل القرآن سواء بسواء .

وقد ترجم الخطيب_ رحمه الله_ للحديث السابق بقوله: " باب: ما جاء في التسوية بين حكم كتاب الله تعالى وحكم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوب العمل، ولزوم التكليف "(١) .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا إنّي أوتيت القرآن ومثله معه "، يعني: السنة، والسنة_ أيضاً_ تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن](٢) .

ــ وقد قال تعالى: { والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا **وحي يوحى** } [النجم: ١_٤] .

فنص تعالى على أن ما ينطق به صلى الله عليه وسلم ما هو إلا وحي من عنده سبحانه، والآية شاملة بعمومها للكتاب، والسنة .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قد يحتج بهذه الآية من لا يجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الاجتهاد في الحوادث، وفيها_ أيضاً_ دلالة على أن **السنة كالوحي المنزل ومعناه**، وقد تقدم في مقدمة الكتاب حديث المقدام بن معدى كرب في ذلك والحمد لله](٣) .

* وقال تعالى: { قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما **يوحي إلي ربي** إنه سميع قريب } [سبأ: ٥] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فهذا نص صريح في أن هدي الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يحصل بالوحي](٤) .

ــ ومن قوله تعالى: { و**أنزلنا** إليك الذكر **لتبين** للناس **ما نزل** إليهم ولعلهم يتفكرون } [النحل: ٤٤] .

قال من قال من أهل العلم: بأن القرآن أحوج للسنة من السنة للقرآن .

* قال يحيى بن أبي كثير_: " السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب قاض على السنة "(٥) .

* وقال مكحول_ رحمه الله_: " القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن "(٦) .

* وقال مكحول_ رحمه الله_ أيضاً_: " السنة: سنتان، سنة: الأخذ بها فضيلة، وتركها إلى غيرها: حرج،

---

(١) " الكفاية في علم الرواية/٨: ٩ " .

(٢) " مقدمة تفسير ابن كثير١/٤ " .

(٣) " تفسير القرطبي١٧/٨٥ " .

(٤) " الرسالة التبوكية/٤٥ " .

(٥) " الدارمي١/١٥٣ "، " السنة للمروزي/٣٣ "، " تفسير القرطبي١/٣٩ "، " الكفاية في علم الرواية/١٤ " .

(٦) " مفتاح الجنة/٤٣ "، " السنة للمروزي/٣٣ "، " الكفاية في علم الرواية/١٤ " .

وسنة: الأخذ بها فريضة "[١] .

قال البيهقي_ رحمه الله_: [ومعنى ذلك: أن السنة مع الكتاب أقيمت مقام البيان عن الله كما قال الله: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم } لا أن شيئاً من السنن يخالف الكتاب][٢] .

* قال الإمام أحمد_ رحمه الله_: " السنة عندنا: آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسنة: تفسر القرآن، وهي دلائل القرآن "[٣] .

ــــ وقد نصّ الله تعالى على أن التحاكم: يكون إلى الله، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم لا فرق في ذلك بين ما نزل من عند الله، وبين ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فالمُعرض عن حكم الرسول صلى الله عليه وسلم: مُعرضٌ عن حكم الله ولا بد، والمعرضُ عن حكم الله: معلومٌ حكمه بالضرورة من دين الإسلام ! .

* قال تعالى: { ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله **وإلى الرسول** رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً } [النساء: ٦٠_٦١] .

* وقال تعالى: { وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله **ورسوله** أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً } [الأحزاب: ٣٦] .

فلم يفرق الله بين قضائه سبحانه، وقضاء رسوله صلى الله عليه وسلم، وجعل كُلاً منهما: ليس للمؤمن الخيرة في أن يخالفهما كما جعل عصيان الرسول صلى الله عليه وسلم كعصيانه تعالى، وأنه ضلال مبين .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخيَّر بعد ذلك: فقد ضلّ ضلالاً مبيناً][٤] .

* وقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله } .

فلا يجوز التقديم بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم: كما لا يجوز التقديم بين يدي الله تعالى .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { لا تقدموا بين يدي الله ورسوله }: أصل في ترك التعرض لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه، والاقتداء به][٥] .

وقال ابن القيم_ رحمه الله_: [أي: لا تقولوا: حتى يقول، ولا تأمروا: حتى يأمر، ولا تُفتُوا: حتى يفتي، ولا

---

(١) " الدارمي١/١٥٣ "، " السنة للمروزي/٣٣ "، " السنة للخلال١/٣٣ " .

(٢) " مفتاح الجنة/٤٣: ٤٤ " .

(٣) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/١٥٧ " .

(٤) " إعلام الموقعين ١/٥١ " .

(٥) " تفسير القرطبي١٦/٣٠٢ " .

تقطعوا أمراً: حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويُمضِيه .

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " لا تقولوا خِلافَ الكتاب والسنة، وروى العوفي عنه، قال: " نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه " .

والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول، ولا فعل قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يفعل](1) .

ـــــ ومن النصوص الخاصة هنا:

* قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق **صوت النبي** ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون } [الحجرات: ٢] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم: فكيف تقديم آرائهم، وعقولهم، وأذواقهم، وسياساتهم، ومعارفهم على ما جاء به، ورفعها عليه ؟!، أليس هذا أولى أن يكون مُحبْطاً لأعمالهم ؟!!!](2) .

* وقال تعالى_ أيضا_: { إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع **لم يذهبوا حتى يستأذنوه** } [النور: ٦٢] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه: فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول، ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنُه يُعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذِنَ فيه](3) .

* وقال تعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ }[الحشر: ٧].

فأمر تعالى بأخذ كل ما جاء به صلى الله عليه وسلم سواء كان في القرآن أو لم يكن .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_ في تفسيره لهذه الآية:

[وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول: يتعين الأخذ به، واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء: كنص الله تعالى لا رخصة لأحد، ولا عذر له في تركه،

---

(1) " إعلام الموقعين ٥١/١ " .

(2) " إعلام الموقعين ٥١/١ " .

(3) " إعلام الموقعين ٥١/١ " .

ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله][1] .

ولذا، (فكلُّ حكم سَنّه الرسول لأمته: قد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز بهذه الآية)[2] .

وكان إسماعيل بن عبيد الله_ رحمه الله_، يقول: " ينبغي لنا أن نحفظ ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله يقول: { وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا }، فهو عندنا: بمنزلة القرآن "[3] .

* وقال تعالى: { لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً } [الأحزاب: ٢١] .

فجعل الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم لأمته: أسوة حسنة، ونصُ الآيةِ أنه صلى الله عليه وسلم: أسوةٌ مطلقاً، أي: أنه عليه السلام أسوة للأمة في كل ما ورد عنه من قول، وفعل، واعتقاد بل وإقرار سواء كان ذلك ممّا في القرآن أو لا .

فـــ(الأسوة: ما يُتأسى به، أي: يتعزى به: فيقتدى به في جميع أفعاله، ويتعزى به في جميع أحواله)[4] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [هذه الآية الكريمة: أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله، وأفعاله، وأحواله][5] .

* وقد قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله **وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** } [الأنفال: ٢٤] .

فأمر بالاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم، وبَيّن أن " الحياة "_ وهي الحياة الحقيقية الكاملة للبدن، والقلب، والروح_ في الاستجابة لما دعا له صلى الله عليه وسلم .

(وقوله: { إذا دعاكم لما يحييكم }: وصف ملازم لكل ما دعا الله، ورسوله إليه، وبيان لفائدته، وحكمته)[6].

قال الشوكاني_ رحمه الله_: [ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله فى حكم من الأحكام الشرعية: أن يبادر إلى العمل به كائناً ما كان، ويدع ما خالفه من الرأي، وأقوال الرجال][7] .

ـــ قلتُ: وقد جاء عن أبي سعيد بن المعلى_ رضي الله عنه_، قال: " كنت أصلي، فمرّ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاني: فلم آته حتى صليت ثم أتيته، فقال: ما منعك أن تأتيني، ألم يقل الله: { يا أيها الذين

---

(1) " تفسير السعدي/٦٢٥ " .

(2) " فتح القدير للشوكاني٢/١١٤ " .

(3) " السنة للخلال١/٣٣ "، " السنة للمروزي/٣٢ " .

(4) " تفسيرالقرطبي١٤/١٥٥ " .

(5) " تفسيرابن كثير٣/٤٧٥ " .

(6) " تفسيرالسعدي/٢١٣ " .

(7) " فتح القدير٢/٢٩٩ " .

آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم } ... " الحديث[١] .

فهذا الحديث يبين أن الأمر بالاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم الوارد في الآية: أمر شامل لكل ما يدعو إليه صلى الله عليه وسلم .

وقد ترجم الإمام البخاري_ رحمه الله_ لهذا الحديث بقوله: " باب: يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون "[٢] .

* وقال تعالى_ كذلك_: { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله وَكَلِمَاتِهِ **وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** }

[الأعراف: ١٥٨] .

فجعل سبحانه وتعالى: الهداية في اتباعه صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا }، أي: عربيكم، وعجميكم، أهل الكتاب فيكم، وغيرهم، { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }: يتصرف فيها بأحكامه الكونية، والتدابير السلطانية، وبأحكامه الشرعية الدينية التي من جملتها: أن أرسل إليكم رسولاً، عظيماً: يدعوكم إلى الله، وإلى دار كرامته، ويحذركم من كل ما يباعدكم منه، ومن دار كرامته ...

{ فَآَمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ }: إيماناً في القلب: متضمناً لأعمال القلوب، والجوارح، { الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله وَكَلِمَاتِهِ }، أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده، وأعماله، { وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } في مصالحكم الدينية، والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه: ضللتم ضلالاً بعيداً][٣] .

* وقال تعالى: { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله } [آل عمران: ٣١] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [هذه الآية حاكمة على كلّ من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية: فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله، وأفعاله][٤].

عن الحسن_ رحمه الله_ في الآية السابقة، قال: " وكان علامة حبه إياهم: اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم "[٥] .

وقال أبو إسحاق الرقاشي_ رحمه الله_: " علامة محبة الله: إيثار طاعته، ومتابعة نبيه "[٦] .

([١]) " البخاري٤/١٦٢٣، ١٧٠٤، ١٧٣٨ " .

([٢]) " البخاري٤/١٧٠٤ " .

([٣]) " تفسير السعدي/٢٠٣ " .

([٤]) " تفسير ابن كثير ١/٣٥٩ " .

([٥]) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٧٠ " .

([٦]) " الاعتصام١/٧٣ " .

وقال ذو النون المصري_ رحمه الله_: " من علامة حب الله: متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه، وأفعاله، وأمره، وسنته "[١] .

وقال أبو الحسن الوراق_ رحمه الله_: " علامة محبة الله: متابعة حبيبه صلى الله عليه وسلم "[٢] .

وعن إبراهيم القمار_ رحمه الله_، قال: " علامة محبة الله: إيثار طاعته، ومتابعة نبيه "[٣] .

ـــــ وسر المسألة هنا: أن الله تعالى (إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له، والانقياد لأمره، وأصل العبادة: محبة الله بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه وإنما يحب لأجله، وفيه كما يحب أنبياءه، ورسله، وملائكته، وأولياءه، فمحبتنا لهم: من تمام محبته وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه، وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها: فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر، واجتناب النهي: تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله: عَلَماً عليها، وشاهداً لمن ادعاها، فقال تعالى: { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله }؛ فجعل اتباع رسوله: مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم، ووجود المشروط: ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققه: بتحققه، فعلم: انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله: لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة: ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل_ إذاً_: ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة)(٤) .

ـــــ وقد توعد الله تعالى مَنْ خالف أمره صلى الله عليه وسلم بأشد الوعيد:

* قال تعالى: { لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم } [النور: ٦٣] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [قوله: { فليحذر الذين يخالفون عن أمره }، أي: عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو: سبيله، ومنهاجه، وطريقته، وسنته، وشريعته، فتوزن الأقوال، والأعمال بأقواله، وأعماله، فما وافق ذلك: قُبلَ، وما خالفه: فهو مردود على قائله، وفاعله كائناً من كان كما ثبت في الصحيحين، وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " من عمل عملا ليس عليه أمرنا: فهو رد " .

أي: فليحذر، وليخش من يخالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً { أن تصيبهم فتنة }، أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة { أو يصيبهم عذاب أليم }، أي: في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك][٥] .

وقد جاء عن أبي بكر الصديق_ رضي الله عنه_ أنه قال: " لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه

---

(١) " الاعتصام ٦٨/١ " .

(٢) " الاعتصام ٦٩/١ " .

(٣) " الاعتصام ٦٩/١ " .

(٤) " مدارج السالكين ٩٩/١ " .

(٥) " تفسير ابن كثير ٣٠٨/٣ " .

وسلم يعمل به إلا عملت به إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ "(١) .

* وقال تعالى_ كذلك_: { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيم شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلموا تسليماً } [النساء: ٦٥] .

فنفى الله الإيمان عمّن لا يُحَكّم النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وأقسم على ذلك بنفسه المقدسة .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكّم الرسولَ صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور؛ **فيُسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة، ولا مدافعة، ولا منازعة**](٢) .

وقد جاء عن الإمام أحمد_ رحمه الله_ قوله: " نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو: { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ } .

وجعل يكررها، ويقول: وما الفتنة ؟: الشرك؛ لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ: فيزيغ قلبه: فيهلكه، وجعل يتلو هذه الآية: { فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ } "(٣) .

قال أبو شامة_ رحمه الله_: [متى جاء حديث ثابت صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فواجب المصير إلى ما دل عليه الظاهر ما لم يعارضه دليل آخر، وهذا هو الذي لا يسع أحدٌ غيره، قال الله عز وجل: { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا ممّا قضيت ويسلموا تسليماً }، فنفى سبحانه وتعالى الإيمان عمّن لم يحكم رسوله فيما وقع التنازع فيه، ولم يستسلم لقضائه](٤) .

قال ابن القيم_ رحمه الله_ في نونيته:

يا قوم ما أنتم على شيء إلى ... أن ترجعوا للوحي بالإذعان
وتحكموه في الجليل ودقه ... تحكيم تسليم مع الرضوان
قد أقسم الله العظيم بنفسه ... قسماً يبين حقيقة الايمان
أن ليس يؤمن من يكون محكماً ... غير الرسول الواضح البرهان
بل ليس يؤمن غير من قد ... حكم الوحيين حسب فذاك ذو إيمان
هذا وما ذاك المحكم مؤمناً ... إن كان ذا حرج وضيق بطان

---

(١) " الاعتصام١/٦٠ " .

(٢) " تفسير ابن كثير ١/٥٢١ " .

(٣) " الصارم المسلول لابن تيمية٢/١١٦ "، " تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد/٤٨٣: ٤٨٤ " .

(٤) " مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول/٦٤ " .

هــذا وليــس بــمؤمن حتــى يســلم للــذي يقضي بــه الوحيان[1]

ــــ وقد جاء عن أبي موسى_ رضي الله عنه_ عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " إن مثلي ومثل ما بعثني الله به: كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء: فأطاعه طائفة من قومه: فأدلجوا، فانطلقوا على مهلتهم، وكذبت طائفة منهم: فأصبحوا مكانهم: فصبحهم الجيش: فأهلكهم، واجتاحهم .

فذلك: مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق "[2] .

* وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنما مثلي ومثل أمتي: كمثل رجل استوقد ناراً: فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم، وأنتم تقحمون فيه "[3] .

وقد ترجم النووي_ رحمه الله_ لهذه الأحاديث الماضية بقوله: " باب: شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته، ومبالغته في تحذيرهم ممّا يضرهم "[4] .

* وعن أبي موسى_ رضي الله عنه_ أيضاً_ عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " إن مثل ما بعثني الله عز وجل من الهدى والعلم: كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها: طائفة طيبة، قبلت الماء: فأنبتت الكلأ، والعشب الكثير .

وكان منها: أجادب، أمسكت الماء: فنفع الله بها الناس: فشربوا منها، وسقوا، ورعوا.

وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان: لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ .

فذلك: مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به: فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به "[5] .

وقد ترجم النووي_ رحمه الله_ لهذا الحديث بقوله: " باب: بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم "[6] .

* وعن جابر بن عبد الله_ رضي الله عنهما_، يقول: " جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم_ وهو نائم_، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: مثله: كمثل

---

(1) " شرح النونية ٤٨٦/١ " .

(2) " البخاري ٢٣٧٨/٥، ٢٦٥٦/٦ "، " مسلم ١٧٨٨/٤ " .

(3) " البخاري ٢٣٧٩/٥ "، " مسلم ١٧٨٩/٤ "، واللفظ لمسلم .

(4) " مسلم ١٧٨٩/٤ " .

(5) " البخاري ٤٢/١ "، " مسلم ١٧٨٧/٤ " .

(6) " مسلم ١٧٨٧/٤ " .

رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً: فمن أجاب الداعي: دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي: لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة .

فقالوا: أولوها له: يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان .

فقالوا: فالدار: الجنة، والداعي: محمد صلى الله عليه وسلم، فمن أطاع محمداً صلى الله عليه وسلم: فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً صلى الله عليه وسلم: فقد عصى الله، ومحمد صلى الله عليه وسلم: فرق بين الناس"(١) .

* وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " من أطاعني: فقد أطاع الله، ومن يعصني: فقد عصى الله "(٢) .

* وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ أيضاً_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى .

قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى ؟! .

قال: من أطاعني: دخل الجنة، ومن عصاني: فقد أبى "(٣) .

* ومن حديث أنس بن مالك_ رضي الله عنه_، قال صلى الله عليه وسلم: " فمن رغب عن سنتي: فليس مني"(٤) .

* وعن أبي رافع_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

" لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري ممّا أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه "(٥) .

* وقد سبق معنا حديث المقدام بن معدي كرب_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن: فما وجدتم فيه من حرام: فحرموه، وإن ما حرّم رسول الله كما حرّم الله، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي

---

(١) " البخاري٦/٢٦٥٥ " .

(٢) " البخاري٣/١٠٨٠ "، " مسلم٣/١٤٦٦ " .

(٣) " البخاري٦/٢٦٥٥ " .

(٤) " البخاري٥/١٩٤٩ " .

(٥) صحيح: " المستدرك١/١٩٠، ١٩١ "، " ابن حبان١/١٩٠ "، " الترمذي٥/٣٧ "، " أبو داود٤/٢٠٠ "، "ابن ماجه١/٦ "، " أحمد٦/٨ " البيهقي الكبرى٧/٧٦ "، " المعجم الأوسط٨/٢٩٢ "، وغيرهم .

والحديث مروي عن جابر، وخالد، والعرباض بن سارية_ رضي الله عنهم_، انظر: " المجمع١/١٥٥ "، " أبو داود٣/١٧٠"، " البيهقي الكبرى٩/٢٠٤ "، وغيرها .

ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه: فله أن يعقبهم بمثل قراه "[١] .

قال الخطابي_ رحمه الله_: [قوله: " أوتيت الكتاب ومثله معه ": يحتمل وجهين من التأويل؛ أحدهما: أن معناه أنه أوتي من الوحي المتلو مثل ما أعطي من الظاهر المتلو، والثاني: أنه أوتي الكتاب وحياً يتلى، وأوتي من البيان مثله، أي: أُذن له أن يبين ما في الكتاب: فيعم، ويخص، ويزيد عليه، ويشرع ما ليس في الكتاب له ذكر، فيكون في وجوب العمل به، ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن .

وقوله: " يوشك رجل شبعان ... " الحديث: يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التي سنّها ممّا ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج، والروافض، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن، وتركوا السنن التي قد تضمنت بيان الكتاب، قال: فتحيروا، وضلوا][٢] .

ـــ قلت: (والمعنى: لا يجوز الإعراض عن حديثه عليه الصلاة والسلام لأن المعرض عنه معرض عن القرآن)[٣].

* وقد روي عن حذيفة_ رضي الله عنه_، أنه قال: " أول ما تفقدون من دينكم: الأمانة، وآخر ما تفقدون: الصلاة، ولتنقضن عرى الإسلام: عروةً، عروةً، وليطئن نساءكم وهن حيض، ولتسلكن طريق من كان قبلكم: حذو القذة بالقذة، وحذو النعل بالنعل، لا تخطئون طريقهم، ولا تخطىء بكم، وحتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة، تقول إحداهما: ما بال الصلوات الخمس ؟، لقد ضل من كان قبلنا، إنما قال الله: {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل }، لا تصلون إلا ثلاثاً .

وتقول الأخرى: إنما المؤمنون بالله كإيمان الملائكة، ما فيها: كافر، ولا منافق . حق على الله أن يحشرهما مع الدجال "[٤] .

قال الشاطبي_ رحمه الله_ تعليقاً على هذا الأثر: [وهذا المعنى موافق لما ثبت من حديث أبي رافع عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري ممّا أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه "[٥] .

فإن السنة جاءت مفسرة للكتاب؛ فمن أخذ بالكتاب من غير معرفة بالسنة: زلّ عن الكتاب كما زل عن السنة، فلذلك يقول القائل: لقد ضلّ من كان قبلنا إلى آخره][٦].

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) " تفسير القرطبي١/٣٨ "، " عون المعبود١٢/٢٣٢: ٢٣٣ " .

(٣) " تحفة الأحوذي٧/٣٥٤ " .

(٤) " المستدرك٤/٥١٦ "، " الاعتصام١/٥٩ "، وصححه الحاكم على شرطهما .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) " الاعتصام١/٥٩ " .

قال الإمام البربهاري_ رحمه الله_: " إذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر: فلا يريده، ويريد القرآن: فلا تشك أنه رجل قد احتوى على الزندقة، فقم من عنده ودعه "(١) .

ــــ وكما دلت النصوص المتقدمة من الكتاب والسنة دلالة ظاهرة، قاطعة على وجوب اتباع السنة اتباعاً مطلقاً في كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وعظيم إثم من تولى، وأعرض عن ذلك، فإن هذه النصوص (تدل بعموماتها، وإطلاقاتها على أمرين آخرين، هامين_ أيضاً_:

الأول:

أنها تشمل كل من بلغته الدعوة إلى يوم القيامة، وذلك صريح في قوله تعالى: { لأنذركم به ومن بلغ }، وقوله: { وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً }، وفسره صلى الله عليه وسلم بقوله في حديث: " وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة "(٢)، وقوله : " والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة، ولا يهودي، ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا كان من أهل النار "(٣) .

والثاني:

أنها تشمل كل أمر من أمور الدين، لا فرق بين ما كان منه عقيدة علمية أو حكماً عملياً أو غير ذلك)(٤) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فمحمد صلى الله عليه وسلم: أرسل إلى كل أحد من الإنس والجن: كتابيهم وغير كتابيهم، في كل ما يتعلق بدينه من الأمور الباطنة، والظاهرة في عقائده، وحقائقه، وطرائقه، وشرائعه، فلا عقيدة: إلا عقيدته، ولا حقيقة: إلا حقيقته، ولا طريقة: إلا طريقته، ولا شريعة: إلا شريعته، ولا يصل أحد من الخلق إلى الله تعالى، وإلى رضوانه، وجنته وكرامته، وولايته: إلا بمتابعته باطناً، وظاهراً في الأقوال، والأعمال: الباطنة، والظاهرة في أقوال القلب، وعقائده، وأحوال القلب، وحقائقه، وأقوال اللسان، وأعمال الجوارح](٥) .

ــــ وقد بين الله سبحانه وتعالى أن نبيه صلى الله عليه وسلم: قد أدى الرسالة، وبلغ الأمانة: خير أداء، وخير بلاغ، وهذا شامل لتبليغه صلى الله عليه وسلم ما أنزل إليه من الكتاب، والسنة .

* قال تعالى: { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس } .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم باسم الرسالة،

---

(١) " شرح السنة/٥٤ " .

(٢) " البخاري١/١٢٨ "، " مسلم١/٣٧٠ " عن جابر_ رضي الله عنه_ .

(٣) " مسلم١/١٣٤ " .

(٤) " الحديث حجة بنفسه/١٢ " .

(٥) " الفتاوى١٠/٤٣١ " .

وآمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك، وقام به أتم القيام][1] .

* وعن عائشة_ رضي الله عنها_، قالت: " من حدثك أن محمداً كتم شيئاً ممّا أنزل الله عليه: فقد كذب، وهو يقول: { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك }، الآية "[2] .

* وعن عائشة_ رضي الله عنها_ أيضاً_ أنها قالت: " لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً ممّا أنزل عليه: لكتم هذه الآية: { وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه } "[3] .

* وقال أنس_ رضي الله عنه_ في الآية السابقة: " لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً: لكتم هذه "[4] .

* وعن هارون بن عنترة عن أبيه، قال: كنت عند ابن عباس فجاء رجل، فقال له:

" إن ناساً يأتونا، فيخبرونا أن عندكم شيئاً: لم يبده رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس .

فقال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: ألم تعلم أن الله تعالى قال: { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك}، والله: ما ورثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء في بيضاء "[5] .

* وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي، قال: قلت لعلي بن أبي طالب_رضي الله عنه_: " هل عندكم شيء من الوحي ممّا ليس في القرآن ؟ .

فقال: لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة .

قلت: وما في هذه الصحيفة ؟ .

قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر "[6] .

قال الزهري_ رحمه الله_: " من الله: الرسالة، وعلى الرسول: البلاغ، وعلينا: التسليم "[7] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفا كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يومئذ: " أيها الناس إنكم

---

(1) " تفسير ابن كثير٢/٧٨ " .

(2) " البخاري٤/١٦٨٦، ٦/٢٧٣٩ "، " مسلم١/١٩٥ " .

(3) " مسلم١/١٦٠ " .

(4) " البخاري٦/٢٦٩٩ " .

(5) قال ابن كثير: [وهذا إسناد جيد] . " تفسير ابن كثير٢/٧٨ "

(6) " البخاري٣/١١١٠، ٦/٢٥٣١، ٢٥٣٤ " .

(7) " صحيح البخاري٦/٢٧٣٨ "، وانظر: " تغليق التعليق٥/٣٦٥: ٣٦٦ " .

مسؤولون عني؛ فما أنتم قائلون ؟ .

قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت .

فجعل يرفع أصبعه إلى السماء، وينكسها إليهم، ويقول: اللهم هل بلغت "](١) .

ـ بل قد شهد الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه قد بلغ البلاغ المبين: الذي تقوم به الحجة، وينقطع به العذر لمن بلغه: فلا لبس، ولا خفاء .

* قال تعالى: { وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا **الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** } [التغابن: ١٢] .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [{ فإن توليتم }، يقول: فإن أنتم لم تعملوا بما أمرناكم به، وتنتهوا عمّا نهيناكم عنه، ورجعتم مدبرين عمّا أنتم عليه من الإيمان والتصديق بالله وبرسوله، واتباع ما جاءكم به نبيكم: فاعلموا أنما { على رسولنا البلاغ المبين}، يقول: فاعلموا أنه ليس على من أرسلناه إليكم إلا إبلاغكم الرسالة التي أرسل بها إليكم: **مبينة لكم بياناً يوضح لكم سبيل الحق، والطريق الذي أمرتم أن تسلكوه**](٢) .

وقال الشيخ السعدي: [{ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم بلاغاً بيناً، واضحاً: فتقوم عليكم به الحجة](٣) .

* وقال تعالى: { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [النحل: ٨٢] .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فإن أدبر هؤلاء المشركون يا محمد عمّا أرسلتك به إليهم من الحق فلم يستجيبوا لك، وأعرضوا عنه: فما عليك من لوم، ولا عذل لأنك قد أديت ما عليك في ذلك، إنه ليس عليك إلاّ إبلاغهم ما أرسلت به، ويعني بقوله: { المبين }: **الذي يَبين لمن سمعه حتى يفهمه**](٤) .

* وقال تعالى: { قُلْ أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا **الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** } [النور: ٥٤] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [وأما الرسول عليه الصلاة والسلام: فوظيفته أن يأمرهم وينهاهم، ولهذا قال: { قُلْ أَطِيعُوا الله وَالرَّسُولَ } فإن امتثلوا: كان حظهم وسعادتهم، وإن { تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ } من الرسالة، وقد أداها، { وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } من الطاعة ...

{ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا } إلى الصراط المستقيم: قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته وبدون ذلك: لا يمكن بل هو محال .

---

(١) " تفسير ابن كثير ٧٨/٢ " .

(٢) " تفسير الطبري٧/٣٥: ٣٦ " .

(٣) " تفسير السعدي/٦٣٧ " .

(٤) " تفسير الطبري١٤/١٥٧ " .

{ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }، أي: تبليغكم البين الذي لا يُبقي لأحدٍ شكاً، ولا شبهة، وقد فعل صلى الله عليه وسلم: بلغ البلاغ المبين][1] .

ـــــ إذاً؛ فقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم: البلاغ المبين، (ويدخل في هذا: كل أمر تلقته الأمة عنه صلى الله عليه وسلم من العقائد، والأعمال، والأقوال، والأحكام الشرعية، والمطالب الإلهية .

فبلّغ صلى الله عليه وسلم أكمل تبليغ، ودعا وأنذر، وبشر ويسر، وعلّم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ: بقوله، وفعله، وكتبه، ورسله، فلم يبق خير: إلا دل أمته عليه، ولا شر: إلا حذرها عنه، وشهد له بالتبليغ: أفاضل الأمة من الصحابة فمن بعدهم من أئمة الدين، ورجال المسلمين)[2] .

ـــــ وهذا ممّا يقطع الطريق على كل مُعرض عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم طَلباً للهدى، والخير، والصلاح في غيرها .

* وقد قال صلى الله عليه وسلم كما جاء من حديث أبي الدرداء_ رضي الله عنه_: " **وأيم الله،** لقد تركتكم على مثل **البيضاء: ليلها، ونهارها: سواء** " .

قال أبو الدرداء_ رضي الله عنه_: " **صدق والله** رسول الله صلى الله عليه وسلم، تركنا **والله** على مثل البيضاء: ليلها، ونهارها: سواء "[3] .

* ومن حديث العرباض بن سارية_ رضي الله عنه_، قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة: ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله: إن هذه لموعظة مودع، فماذا تعهد إلينا .

قال صلى الله عليه وسلم: " قد تركتكم على **البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك،** ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين: **عضوا عليها بالنواجذ ...** " الحديث[4].

وهذا السياق له أهمية خاصة هنا: حيث أخبر صلى الله عليه وسلم بما هو حادث بعده من الفرقة والاختلاف، وقد بيّن صلى الله عليه وسلم بين يدي ذكره لذلك: أنه قد ترك أمته على المحجة: الواضحة، النقية: " على البيضاء: ليلها: كنهارها ": ممّا يقطع بأن النجاة في الاعتصام بالسنة دون سواها، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "عضوا عليها بالنواجذ " .

* وقد جاء عن أبي الدرداء_ رضي الله عنه_، قال: " لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما في

---

(1) " تفسير السعدي/٤١١ " .

(2) " تفسير السعدي/١٤٩ " .

(3) " ابن ماجه١/٤ "، " السنة لابن أبي عاصم١/٢٦ " .

(4) " ابن ماجه١/١٦ "، " أحمد٤/١٢٦ "، " المستدرك١/١٧٥ "، " الكبير١٨/٢٥٧،٢٤٧ "، " اللالكائي١/٧٤،٢٢ "، " السنة لابن أبي عاصم١/١٩: ٢٠، ٢٧ " .

السماء طائر يطير بجناحيه إلا ذكرنا منه علماً "(١) .

* وعن أبي ذر_ رضي الله عنه_، قال: " تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علماً، قال: فقال صلى الله عليه وسلم: **ما بقي شيء يقرب من الجنة، ويباعد من النار إلا وقد بُيّن لكم** "(٢) .

ـــ ولذا، (فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به، واتباعه منها إلى الطعام والشراب، فإن هذا إذا فات: حصل الموت في الدنيا، وذاك إذا فات: حصل العذاب؛ فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به، وطاعته إذ هذا: طريق النجاة من العذاب الأليم، والسعادة في دار النعيم، والطريق إلى ذلك: الرواية، والنقل إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدّامه فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة)(٣) .

فلم يكن هناك أي معنى في ترك الاعتصام بالسنة، وطلب الهدى والصلاح من غيرها إلا الهوى، وحظ النفس.

فـــ(ليجتهد أن يُعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم)(٤) .

قال ابن أبي العز الحنفي_ رحمه الله_: [فالواجب: اتباع المرسلين، واتباع ما أنزله الله عليهم، وقد ختمهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم، وجعل كتابه مهيمناً على ما بين يديه من كتب السماء، وأنزل الكتاب والحكمة، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين: الجن والإنس، وباقية إلى يوم القيامة، فانقطعت به حجة العباد على الله، وقد بيّن الله به كل شيء، وأكمل له ولأمته الدين: خبراً وأمراً، وجعل طاعته: طاعة له، ومعصيته: معصيةً له، وأقسم بنفسه لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم](٥) .

ـــ والآثار عن أهل العلم في الاعتصام بالسنة، والتمسك بها: ممّا تمتلىء به دواوين أهل الإسلام، وقد سبق معنا بعضها، ومنها:

* عن عروة بن الزبير_ رحمه الله_، قال: " السنن، السنن، فإن السنن: قوام الدين "(٦) .

* وقال أبو عثمان الجبري_ رحمه الله_: " من أمّر السنة على نفسه قولاً، وفعلاً: نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً، وفعلاً: نطق بالبدعة، قال الله تعالى: { وإن تطيعوه تهتدوا } "(٧) .

---

(١) قال في" المجمع٨/٢٦٤ ": [رواه الطبراني، ورجاله: رجال الصحيح] .

(٢) " المعجم الكبير٢/١٥٥ "، وانظر: " المجمع٨/٢٦٣: ٢٦٤ " .

(٣) " فتاوى ابن تيمية١/٥ " .

(٤) " فتاوى ابن تيمية١٠/٦٦٤ " .

(٥) " شرح الطحاوية/١٥ " .

(٦) " السنة للمروزي/٣٤ "، " جامع بيان العلم٢/١٣٨ " .

(٧) " الاعتصام١/٧٢ " .

* وعن عمر بن عبد العزيز_ رحمه الله_، أنه كتب إلى الناس: " لا رأي لأحد مع سنة سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم "(١) .

* وقال عمر بن عبد العزيز_ رحمه الله_ أيضاً_: " لا عذر لأحد بعد السنة في ضلالة ركبها يحسب أنها هدى "(٢) .

* وعن عبيد الله بن عمر: أن عمر بن عبد العزيز خطب، فقال: " يا أيها الناس إن الله لم يبعث بعد نبيكم نبياً، ولم يُنزل بعد هذا الكتاب الذي أنزله عليه كتاباً؛ فما أحلّ الله على لسان نبيه: فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرّم على لسان نبيه: فهو حرام إلى يوم القيامة إلا وإني لست بقاض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، ولست بخير ولكني أثقلكم حملاً إلا وإنه ليس لأحد من خلق الله أن يطاع في معصية الله ألا هل أسمعتُ"(٣) .

* وقال أبو العالية_ رحمه الله_: " من مات على السنة مستوراً: فهو صديق، والاعتصام بالسنة: نجاة "(٤) .

* وعن الزهري_ رحمه الله_، قال: " كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة: نجاة "(٥) .

* وقال الإمام النجم مالك_ رحمه الله_: " السنة: سفينة نوح؛ من ركبها: نجا، ومن تخلف عنها: هلك "(٦) .

قلت: فمن لم يكن في الفلك: أدركه الغرق .

* وعن الأوزاعي، قال القاسم بن مخيمرة_ رحمه الله_: " ما قبضَ اللهُ عليه نبيه صلى الله عليه وسلم وهو حرام: فهو حرام إلى يوم القيامة، وما قبض الله عليه رسوله صلى الله عليه وسلم وهو حلال: فهو حلال يعني إلى يوم القيامة "(٧) .

* وقال أبو القاسم الجنيد_ رحمه الله_: " الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم "(٨) .

* وقال أبو حمزة البغدادي_ رحمه الله_: " من علمَ طريق الحق: سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق

---

(١) " الدارمي١/١٢٥ "، " السنة للمروزي/٣١ "، " تعظيم قدر الصلاة٢/٦٧٩ " .

(٢) " السنة للمروزي/٣١ " .

(٣) " الدارمي١/١٢٦ "، " المدخل للبيهقي/١٠٨ " .

(٤) " شرح السنة/٥٩ " .

(٥) " الدارمي١/٥٨ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٩٤، ٩٥ "، " السير١٨/٣٤٣ " .

(٦) " الفتاوى لابن تيمية٤/٥٧، ١٣٧ "، " الأصفهانية لابن تيمية/١٦٦ " .

(٧) " المدخل للبيهقي/١٠٧ " .

(٨) " الاعتصام١/٧١ " .

إلى الله إلا متابعة سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله، وأفعاله، وأقواله "[١] .

* وقال الإمام أبو حنيفة_ رحمه الله_: " إذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: **فعلى الرأس والعين**، وإذا جاء عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: نختار من أقوالهم، وإذا جاء عن التابعين: زاحمناهم "(٢) .

* وعن الحسن بن صالح قال: " كان أبو حنيفة النعمان بن ثابت: فهماً، متثبتاً؛ فإذا صح عنده الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لم يعده إلى غيره** "(٣) .

* وذكر ابن الشحنة في نهاية النهاية أنه صح عن أبي حنيفة أنه قال: " إذا صح الحديث: فهو مذهبي "[٤] .

* وقال الإمام مالك_ رحمه الله_: " إنما أنا بشرٌ: أخطئ، وأُصيب: فانظروا في رأيي: فكل ما وافق الكتاب **والسنة:** فخذوا به ، وكل ما لم يوافق الكتاب **والسنة:** فاتركوه "(٥) .

* وقال_ رحمه الله_ قولته الشهيرة: " كلّ أحد يؤخذ من قوله، ويترك إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم "[٦] .

* وقال الإمام المطلبي الشافعي_ رحمه الله_: " لا يُقلدُ أحد **دون رسول الله صلى الله عليه وسلم** "(٧) .

* وقال_ كذلك_ رحمه الله_: " ما قلتُ وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال بخلاف قولي: **فما صحّ من حديث النبي: أولى**، ولا تقلدوني "(٨) .

* وكان كثيراً ما يردد_ رحمه الله_ قولته المشهورة: " إذا صح الحديث: فهو مذهبي "[٩] .

* وقال_ رحمه الله_: " ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة للنبي صلى الله عليه وسلم أو تعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصّلت من أصل فيه عن رسول الله خلاف ما قلت: **فالقول: قول رسول الله صلى الله عليه**

([١]) " الاعتصام١/٧٣ " .

(٢) " أخبار أبي حنيفة للصيمري/١٠ "، " إيقاظ الهمم للفلاتي/٧٠ "، " مختصر المؤمل/٦٢: ٦٣ " .

(٣) " مناقب الأئمة الأربعة لابن عبدالهادي/٦٨ " .

([٤]) انظر: " إيقاظ الهمم/٥٢، ٦٢ "، " حاشية ابن عابدين١/٣٨٥ "، " الآيات البينات في عدم سماع الأموات/٣٥، ٣٨ " .

(٢) " جامع بيان العلم٢/٣٢ " .

(٦) " سير أعلام النبلاء٨/٩٣ "، " مختصر المؤمل لأبي شامة/٦٦ " .

(٧) " الرد على من أخلد إلى الأرض/١٣٨ " .

(٨) " آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم الرازي/٩٣ " .

(٩) " سير أعلام النبلاء١٠/٣٥ "، " طبقات الشافعية الكبرى٦/١٣٩، " إيقاظ الهمم/٩٨، ١٠٧ "، " عقد الجيد للدهلوي/٣٢ "، " الإنصاف للدهلوي/١٠٤ " .

وسلم، وهو قولي، وجعل يُردد هذا الكلام "[١] .

* وعن الربيع بن سليمان، قال: سمعت الشّافعي وسأله رجل عن مسألة فقال: "يروى فيها كذا وكذا عن النّبي صلى الله وسلم، فقال له السّائل: يا أبا عبدالله ما تقول فيه ؟ .

فرأيت الشّافعي: **أرعد وانتفض، فقال: ما هذا ؟!، أيّ أرض تقلني، وأيّ سماء تظلني، إذا رويت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حديثًا فلم أقلْ به ؟!!!، نعم: على السّمع والبصر، نعم: على السّمع والبصر**"[٢] .

* وعن الربيع_ أيضاً_، قال: سمعت الشّافعي وقد روى حديثاً، وقال له بعض من حضر: تأخذ بهذا ؟ .

فقال_ رحمه الله_: " إذا رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً صحيحاً، فلم آخذْ به: **فأنا أشهدكم أنّ عقلي قد ذهب، ومدّ يديه** "[٣] .

* وقال الإمام أحمد_ رحمه الله_: " ليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الامثال، ولا تدرك بالعقول، ولا الأهواء؛ إنما هي: الاتباع، وترك الهوى "[٤] .

* وقيل له_ رحمه الله_: " إنَّ قوماً يدعون الحديث، ويذهبون إلى رأي سفيان .

فقال_ رحمه الله_: أعجب لقومٍ سمعوا الحديث، وعرفوا الإسناد وصحته؛ ويدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره !؛ قال الله: { فليحذرِ الذين يُخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذابٌ أليم } .

وتدري ما الفتنة ؟: الكفر، قال الله تعالى: { والفتنة أكبر من القتل }، فيدعون الحديثَ عن رسول الله، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي "[٥] .

* وجعل الإمام أحمد_ رحمه الله_ في اليوم الذي مات فيه أو مات في تلك الليلة التي تستقبل ذلك اليوم: يقول: " عليكم بالسنة، عليكم بالأثر، عليكم بالحديث، لا تكتبوا رأي فلان، ورأي فلان، فسمى أصحاب الرأي"[٦] .

ـــــ وهكذا يتتابع الأئمة على الأمر بالاعتصام بالسنة، والتمسك بها، (وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً: يتعمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من سنته دقيق، ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقيناً: على وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله

---

(١) " إعلام الموقعين٢/٢٨٦ " .

(٢) " مناقب الشافعي للبيهقي١/٤٧٤: ٤٧٥"، " الحلية٩/١٠٦"، وانظر:"الفقيه والمتفقه١/١٥٠" .

(٣) " مناقب الشافعي للبيهقي١/٤٧٤: ٤٧٥"، " الحلية٩/١٠٦"، وانظر:"الفقيه والمتفقه١/١٥٠" .

(٤) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/١٥٧ " .

(٥) " شرح النونية لابن عيسى١/٤٩٢ " .

(٦) " طبقات الحنابلة١/١٢٠ " .

ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه: فلا بد له من عذر في تركه، وجميع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله .

والثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول .

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة)(١) .

فجميع الأئمة يوقنون بأن (الطريق الموصلة إلى الله: واحدة، وهو: ما بَعث به رسله، وأنزل به كتبه لا يصل اليه أحد الا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب: فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله)(٢) .

كما أنهم مجتمعون على أن: (في لزوم سنته صلى الله عليه وسلم: تمام السلامة، وجماع الكرامة، لا تطفأ سُرُجها، ولا تدحض حججها؛ من لزمها: عصم، ومن خالفها: يُذم إذ هي: الحصن الحصين، والركن الركين الذي بان فضله، ومتن حبله، من تمسك به: ساد، ومن رام خلافه: باد، فالمتعلقون به: أهل السعادة في الآجل، والمغبوطون بين الأنام في العاجل)(٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [من طريقة أهل السنة والجماعة: اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم: باطناً، وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة: بدعة، وكل بدعة: ضلالة " .

ويعلمون أن أصدق الكلام: كلام الله، وخير الهدي: هدي محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد، وبهذا سموا: أهل الكتاب والسنة](٤).

وقال_ رحمه الله_: [والسنة التي يجب اتباعها، ويحمد أهلها، ويذم من خالفها: هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور الاعتقادات، وأمور العبادات، وسائر أمور الديانات، وذلك إنما يعرف بمعرفة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الثابتة في أقواله وأفعاله، وما تركه من قول وعمل] (٥) .

---

(١) " رفع الملام/١٠: ١١ " .

(٢) " شرح النونية لابن عيسى١/ ١٢٦ " .

(٣) " صحيح ابن حبان١/٨٦ " .

(٤) " الفتاوى ٣/١٥٧ " .

(٥) " الفتاوى ٣/٣٧٨ " .

ـــــ ولذا، فشأن أهل الطائفة المنصورة مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنهم يسيرون معها: أين سارت رَكَائِبُهُا، ويستقلون مع أحكامها: حيث استقلت مضاربها، وإذا بدت لهم بأخذتها: طاروا إليها زرافات ووحداناً، (وإذا دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمر: انتدبوا إليه، ولا يسألونه عمّا قال برهاناً، **ونصوصه: أجل في صدورهم، وأعظم في نفوسهم من أن يقدموا عليها: قول أحد من الناس أو يعارضوها برأي أو قياس**)[1] .

قال ابن أبي زمنين_ رحمه الله_: [اعلم_ رحمك الله_ أن السنة: دليل القرآن، وأنها لا تدرك بالقياس، ولا تؤخذ بالعقول، وإنما هي في الاتباع للأئمة، ولِما مشى عليه جمهور هذه الأمة، وقد ذكر الله عز وجل أقواماً أحسن الثناء عليهم، فقال: { فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب } [الزمر:١٨]، وأمرَ عباده فقال: { وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} [الأنعام:١٥١]][2].

وقال قوام السنة الأصبهاني_ رحمه الله_: [وينبغي للمرء أن يحذر محدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، والسنة: إنما هي التصديق لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك معارضتها بـــ: كيف، ولِمَ][3] .

([1]) " إعلام الموقعين ٦/١: ٧ " .

([2]) " أصول السنة/٣٥ " .

([3]) " الحجة في بيان المحجة٤٣٧/٢: ٤٣٨ " .

المبحث الثالث

الركن الثالث

اتباع ما عليه السلف من العلم والعمل

ـــ وهذا الركن: هو حقيقة الاعتصام بالكتاب والسنة، وذلك أن النصوص قد تُأوّل، وقد تُصرف عن وجهها، وما من زائغ عن الحق، مائلٍ عن الصراط إلا وهو يتكلف الاستدلال على باطله بالكتاب والسنة، فكان هذا الركن_ اتباع ما عليه السلف_: المُصدّق أو المُكذّب لدعوى الاتباع، وترك الابتداع، والمحك الحقيقي لهذه الدعوى .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [ولذلك؛ لا تجد فرقة من الفرق الضالة، ولا أحداً من المختلفين في الأحكام: لا الفروعية، ولا الأصولية يعجز عن الاستدلال على مذهبه بظواهر من الأدلة، وقد مَرّ من ذلك أمثلة بل قد شاهدنا ورأينا من الفُسّاق من يستدل على مسائل الفسق بأدلة ينسبها إلى الشريعة المُنزّهة، وفي كتب التواريخ والأخبار من ذلك أطراف ما أشنعها في الافتئات على الشريعة، وانظر في مسألة التداوي من الخُمار في دُرّة الغواص للحريري وأشباهها بل قد استدل بعض النصارى على صحة ما هم عليه الآن بالقرآن، ثم تحيّل فاستدل على أنهم مع ذلك كالمسلمين في التوحيد تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً .

فلهذا كله يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي: **مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به: فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل**][(١)] .

ـــ ولذا، كان هذا الركن_ اتباع ما عليه السلف من العلم والعمل_: هو المميز بين الفرقة الناجية، وصفوتها: الطائفة المنصورة، وبين الفرق، والطوائف الهالكة، المخذولة، والله يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم .

ومن ثم: لا ينطلق أهل الطائفة المنصورة في فهم الكتاب، والسنة من أصول محدثة فاسدة أو قواعد متكلفة

---

(١) " الموافقات٣/٧٦: ٧٧ " .

كاسدة أو مناهج آرائية باطلة يُحاكم لها الوحي ويخضع كما لا ينطلقون_ كذلك_ من ضغط واقع أثقل كاهلهم، وإنما ينطلق أهل الطائفة المنصورة في فهم نصوص الوحيين من اتباع ما كان عليه السلف الصالح من العلم، والعمل؛ فهذا: عمدتهم، وعليه_ بعد الله_: معولهم، فما عليه الصحابة_ رضوان الله عليهم_ من العلم والعمل: هو المُصحح، والمقوم للأفهام، والرافع للنزاع عند وجوده .

ـــ وقد دلّ على حجية ما عليه الصحابة_ رضوان الله عليهم_ من العلم، والعمل: الكتابُ، والسنة كما دلّ على ذلك: المنقول عن الصحابة أنفسهم ثم عمّن تبعهم بإحسان من أئمة العلم والدين بل وحُكي عليه الإجماع، ونبين ذلك_ بعون الله، وتوفيقه_؛ فنقول:

ـــ أولاً:

الأدلة من القرآن الكريم على حجية ما عليه الصحابة من العلم، والعمل .

* وعلى رأس هذه الأدلة: قوله تعالى الذي أمرنا بترديده في اليوم، والليلة: { اهدنا الصراط المستقيم } .

فقد (فَسَّر السلفُ: " الصراط المستقيم وأهله ": بأبي بكر، وعمر، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم)(1).

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [وهو كما فسروه، فإنه صراطهم الذي كانوا عليه، وهو عين صراط نبيهم، وهم الذين أنعم الله عليهم، وغضب على أعدائهم، وحكم لأعدائهم بالضلال](2) .

* وقال تعالى: { والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار **والذين اتبعوهم بإحسان** رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم } [التوبة: ١٠٠] .

فأثنى الله سبحانه وتعالى على من اتبع الصحابة_ رضوان الله عليهم_، ومعلوم أن اتباعهم المحمود: إنما هو اتباعهم فيما كانوا عليه في دينهم: علماً، وعملاً؛ فإذا قالوا قولاً أو عملوا عملاً: فاتّبعهم متبع في ذلك اقتداءً بهم وتأسياً: فهو متبع لهم بإحسان، مستحق للرضوان، موعود بالفوز العظيم والجنان .

أما من خالفهم فيما كانوا عليه من العلم، والعمل: فهو لم يتبعهم أصلاً؛ فضلاً عن أن يكون قد اتبعهم بإحسان.

والوعد المذكور في الآية بالرضوان، والفوز العظيم والجنان: حُكمٌ تعلق باتباعهم، فيكون الاتباع: سبباً له لأن

---

(1) " مدارج السالكين لابن القيم١/٧٢: ٧٣ "، وهذا القول لا يتعارض مع غيره ممّا قيل في تفسير " الصراط المستقيم " إذ كلها مفردات لأصل واحد مع كون تفسير " الصراط المستقيم " بالصحابة: أجمع من غيره من كافة الوجوه كونهم الترجمة العملية الظاهرة لمعرفة الحق، والعمل به .

(2) " المرجع السابق/٧٣ " .

الحكم المعلق بما هو مشتق: يقتضي أن ما منه الاشتقاق: سببٌ[(١)]، فإذا انتفى الاتباع: انتفى الوعد .

والآية ظاهرة لا تحتمل التأويل في أن المراد بها: مدح الصحابة_ رضوان الله عليهم_، وبيان عظيم منزلتهم في الدين والتي لا يشاركهم فيها غيرهم، ورأس ذلك: أنهم قدوة، وأسوة لمن بعدهم كونَ الحق_ مطلقاً_ فيما هم عليه من العلم والعمل، وإلا: فلا معنى لهذا المدح الظاهر، والثناء البالغ إذا جوّزنا أنهم جميعاً قد يُخطئون الحق، ويصيبه من بعدهم: فلزم ضرورة كون الحق لا يخرج عنهم، ولا يتعداهم فيما كانوا عليه من العلم، والعمل .

قال قتادة_ رحمه الله_: " وأما الذين اتبعوا المهاجرين الأولين والأنصار بإحسان، فهم: **الذين أسلموا لله إسلامهم، وسلكوا منهاجهم في الهجرة، والنصرة، وأعمال الخير** "[(٢)] .

ــ وقد اقتضت الآية الثناء على من اتبع كل واحد منهم كما أن قوله: { والسابقون الأولون ... والذين اتبعوهم}: يقتضي حصول الرضوان لكل واحد من السابقين، والذين اتبعوهم في قوله: { رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم }، وكذلك في قوله: {اتبعوهم } لأنه حكمٌ عُلق عليهم في هذه الآية: فقد تناولهم مجتمعين، ومنفردين .

والأصل في الأحكام المعلقة بأسماء عامة: ثبوتها لكل فردٍ من أفراد تلك المسميات[(٣)] .

فالآية: تقتضي، وتعمّ اتباعهم مطلقاً على أي حالة كانوا: مجتمعين أو منفردين فيما كانوا عليه من الدين: علماً وعملاً، فمن اتبع جماعتهم عند اجتماعهم، واتبع آحادهم فيما وجد عنهم_ ممّا لم يخالفهم فيه غيرهم منهم_: فهو من يَصدق عليه أنه متبع للسابقين_ وكل الصحابة: سابق بالنسبة لمن بعدهم_ .

ولذلك، جاء في " تفسير الجلالين ": [{ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار }، وهم: من شهد بدراً **أو جميع الصحابة**][(٤)] .

أمّا من خالف بعض السابقين_ فضلاً عن أن يخالفهم جميعاً_: فلا يصح أن يقال عنه: إنه متبع للسابقين لوجود مخالفته لبعضهم لا سيما إذا خالف هذا مرةً، وهذا مرةً .

ولو لم يكن اتباعهم إلا فيما أجمعوا عليه كلهم: لم يكن هناك فرق بينهم، وبين من بعدهم من أهل العلم والدين عند تحقق اجتماعهم كما أنه لو لم يكن اتباعهم إلا فيما أجمعوا عليه كلهم: لم يحصل اتباعهم إلا فيما قد علم أنه من دين الإسلام بالاضطرار، وكلا الأمرين: ممّا ينفيه ظاهر الآية بيقين .

وقد قيّد الله اتباعهم المطلوب بأنه: اتباع { بإحسان }، ومن خرج عن جملة ما كانوا عليه من العلم أو العمل:

---

(١) " إعلام الموقعين٤/١٢٦ "، وانظر: " شرح الكوكب المنير٤/٤٢: ٤٣ "، " جمع الجوامع مع حاشية البناني٢/٢٤٤ "، " نشر البنود٢/١٣٦ "، " ونثر الورود٢/٤٧١ " .

(٢) " تفسير الطبري١١/٨ " .

(٣) انظر: " شرح الكوكب المنير٣/١١٢"، " إجابة السائل/٣٠٠ "، " جمع الجوامع مع حاشية البناني١/٤٠٥ " .

(٤) " تفسير الجلالين١/٢٥٨ " .

لم يتبعهم بإحسان .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسان، ولم يرض عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان](١) .

* وقال تعالى: { لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً } [الفتح: ١٨] .

وهي تزكية مطلقة لظواهرهم، وبواطنهم، فالمحل: أصلح ما يكون لموافقة الحق، وإصابته، فكان من لوازم هذا الرضا، وهذه التزكية العالية: أن لا يخرج الحق عنهم جميعاً في مسألة ما: علماً أو عملاً، فإذا فات أحدَهم: أدركه آخرٌ منهم ولا بد إذ الله سبحانه وتعالى لا يرضى عن قوم إلا لقيامهم بالحق الذي يحبه ويرضاه: علماً، وعملاً .

قال جابر بن عبد الله_ رضي الله عنهما_ عن من بايع تحت الشجرة: " كنا ألفاً وأربعمائة "(٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [والرضا من الله: صفة قديمة، فلا يرضى إلا عن عبد علم أن يوافيه على موجبات الرضا، ومن رضي الله عنه: لم يسخط عليه أبداً ...

فكلّ من أخبر الله عنه أنه رضي عنه: فإنه من أهل الجنة، وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه، وعمله الصالح: فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح له، فلو علم أنه يتعقب ذلك بما يسخط الرب: لم يكن من أهل ذلك](٣) .

وقال ابن حزم_ رحمه الله_: [فمن أخبرنا الله عز وجل أنه علم ما في قلوبهم، ورضي عنهم، وأنزل السكينة عليهم: فلا يحلّ لأحد التوقف عن أمرهم أو الشك فيهم ألبتة](٤) .

* وقال تعالى: { محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكعاً سُجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مَثَلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً } [الفتح: ٢٩] .

قال الإمام مالك_ رحمه الله_: " بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة_ رضي الله عنهم_ الذين فتحوا الشام؛ يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها، وأفضلها: أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة، والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى هنا: { ذلك مثلهم في التوراة }، ثم قال:

---

(١) " الصارم المسلول٣/١٠٦٧ " .

(٢) " البخاري٤/١٥٢٦ "، " مسلم٣/١٤٨٤ " .

(٣) " الصارم المسلول٣/١٠٦٨: ١٠٦٩ " .

(٤) " الفصل في الملل والنحل٤/١١٦ " .

{ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه }، أي: فراخه، { فآزره }، أي: شده، { فاستغلظ }، أي: شب وطال، {فاستوى على سوقه يعجب الزراع }، أي: فكذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: آزروه، وأيدوه، ونصروه، فهو معهم كالشطء مع الزراع ليغيظ بهم الكفار "[١] .

قال ابن الجوزي_ رحمه الله_: [وهذا الوصف: لجميع الصحابة عند الجمهور][٢] .

* وقال تعالى: { ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق } [سبأ: ٦] .

فنصّ تعالى على أن الصحابة_ رضوان الله عليهم_: أوتوا العلم إذ هم من رأى، وشهد بأن ما أُنزلَ إلى محمد صلى الله عليه وسلم من ربه: هو الحق .

قال قتادة_ رحمه الله_ في قوله تعالى: { ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق }، قال: "أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم "[٣] .

* ويدل عليه_ كذلك_: قوله: { حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً }[محمد: ١٦].

قال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " أنا منهم، وقد سُئلتُ فيمن سُئلَ "[٤] .

وقال ابن زيد_ رحمه الله_: " { الذين أُوتُوا العلم }: الصحابة رضي الله عنهم "[٥] .

ـــ فالصحابة_ رضوان الله عليهم_: هم من أوتوا " العلم " الذي بُعث به صلى الله عليه وسلم .

وفي قوله تعالى: { أُوتُوا }: إشارة إلى أن هذا " العلم ": هو هبة الله لهم، ومنّته عليهم بما يُفيد أنّ أحداً لن يلحقهم فيه ! .

* وقد جاء من حديث ابن عمر_ رضي الله عنه_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " بينما أنا نائم إذ أتيت بقدح لبن، فشربت حتى إني لأرى الري يخرج في أظفاري ثم أعطيتُ فضلي عمر بن الخطاب .

قالوا: فما أولتَ ذلك ؟ .

قال صلى الله عليه وسلم: **العلم** "[٦] .

وعن ابن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " لا يزال الناس صالحين، متماسكين ما أتاهم العلم من أصحاب

---

(١) " الاستيعاب لابن عبد البر١/٦ "، " تفسير ابن كثير٢٠٤/٤ " .

(٢) " زاد المسير٢٠٤/٤ " .

(٣) " تفسير الطبري٦٢/٢٢ "، " جامع بيان العلم٢٩/٢ " .

(٤) " تفسير الطبري٥١/٢٦ " .

(٥) " تفسير الطبري٥١/٢٦ " .

(٦) " البخاري٤٣/١ "، " مسلم١٨٥٩/٤ " .

محمد صلى الله عليه وسلم "(١) .

* وفي قوله تعالى: { قُل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين }:

قال ابن عباس_ رضي الله عنهما_ { أنا ومن اتبعني }: " يعني: أصحاب محمد، كانوا على أحسن طريقة، وأقصد هداية: معدن العلم، وكنز الإيمان، وجُند الرحمن " .

وعن مجاهد_ رحمه الله_، قال: " العلماء: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم "(٢) .

وقال الإمام الأوزاعي_ رحمه الله_: " العلم: ما جاء عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وما لم يجيء **عن واحد منهم:** فليس بعلم "(٣) .

وإذا كان الصحابة_ رضوان الله عليهم_ هم من أوتوا العلم: كان من المحال أن يجهلوا جميعاً الحق: علماً أو عملاً، ويعلمه المتأخرون .

ومن ثم: كان اتباعهم واجباً، وكان من بعدهم: تبعاً لهم في ذلك، وهذا: حقيقة كونهم أوتوا العلم .

* وقد " سمع ابنُ مسعود_ رضي الله عنه_ بقوم يخرجون إلى البرية معهم قاص، يقول: سبحوا ثم قال: أنا عبد الله بن مسعود، **ولقد فضلتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم علماً أو لقد جئتم ببدعة ظلماء، وإن تكونوا قد أخذتم بطريقتهم: فقد سبقوا سبقاً بعيداً، وإن تكونوا خالفتموهم: فقد ضللتم ضلالاً بعيداً** على ما تعددون أمر الله "(٤) .

قال قوام السنة الأصبهاني_ رحمه الله_: [ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو الاتباع، والاستعمال: يقتدي بالصحابة والتابعين، وإن كان قليل العلم، ومن خالف الصحابة والتابعين: **فهو ضال**، وإن كان كثير العلم](٥).

* وقال تعالى: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } .

فـــ(أمرَ الرسولَ صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم لِما علمَ من: صدقهم، وصحة إيمانهم، وخالص مودتهم، ووفور عقلهم، ونبالة رأيهم، وكمال نصيحتهم، وتبيّن أمانتهم رضي الله عنهم أجمعين)(٦) .

* وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال لأبي بكر وعمر_ رضي الله عنهما_: " لو اجتمعتما في

---

(١) " الجامع لمعمر بن راشد١١/٢٤٦، ٢٥٧ "، " المعجم الكبير٩/١١٤ "، " الأوسط٧/٣١١ " .

(٢) " جامع بيان العلم وفضله٢/٢٩ " .

(٣) " جامع بيان العلم٢/٢٩ " .

(٤) " مصنف عبد الرزاق٣/ ٢٢١: ٢٢٢ "، " المعجم الكبير٩/١٢٥: ١٢٦ " .

(٥) " الحجة في بيان المحجة٢/٤٣٧: ٤٣٨ " .

(٦) " الإمامة والرد على الرافضة لأبي نعيم/٢٠٩: ٢١١ " .

مشورة: ما خالفتكما "[1] .

* وفي لفظ: " لو اجتمعتما: ما عصيناكما "[2] .

* وقال تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِالله }

[آل عمران: ١١٠] .

روي عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ في هذه الآية أنه قال: " لو شاء الله؛ لقال: أنتم خير أمة؛ فكنا كلنا ولكن قال: كنتم؛ فهى خاصة لأصحاب محمد، **ومن صنع مثل صنيعهم** "[3] .

وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ في قوله: { كنتم خير أمة أخرجت للناس }، قال: " أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا معه إلى المدينة "[4] .

فأولى من تنطبق عليهم هذه الشهادة بصورة مطلقة: هم الصحابة_ رضوان الله عليهم_، فتكون هذه: شهادة لهم من الله تعالى بأنهم يأمرون بكل معروف، وينهون عن كل منكر، وهذا يقضي بأن الحق لا يخرج عن جملة أحوالهم من العلم، والعمل إذ فرضُ وجود " منكر " في العلم أو العمل من آحادهم مع عدم قيام أحد منهم بما هو " معروفٌ " من ذلك: لا يستقيم ألبتة وهذه الشهادة .

* وقد صح من حديث عبادة بن الصامت_ رضي الله عنه_، وغيره: " بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، **وأن نقوم_ أو نقول_ بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم** "[5] .

والمؤمن يشهد بالله أن الصحابة_ رضوان الله عليهم_ وفوا بهذه البيعة، ولم يكتموا شيئاً ممّا علموه من الحق: علماً، وعملاً، ولم يداهنوا في دين الله أو تأخذهم فيه لومة لائم .

* وقد قال تعالى: { وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً }

[البقرة: ١٤٣] .

والقول في هذه الآية: كالقول في الآية السابقة، فهذه الشهادة بصورتها المطلقة أولى من تنطبق عليهم: هم الصحابة_ رضوان الله عليهم_، وهذا إنْ لم نقل: إنها لا تنطبق بصورتها المطلقة إلا عليهم .

وكونهم: " وسط "_ أي: خيار، عدول_، و " شهداء على الناس ": ممّا يقضي بوجوب اتباعهم فيما كانوا عليه من العلم، والعمل إذ غياب الحق_ علماً أو عملاً_ عن جملتهم: ينافي هذه الأوصاف ولا شك: فلزم ضرورة

---

(١) " مسند أحمد٤/٢٢٧ " .

(٢) " المعجم الكبير١١/٤٣٨ "، " المعجم الأوسط٦/١٧ "، وانظر: " المجمع٩/٦٨ " .

(٣) " فتح الباري٨/٢٢٥ "، " تفسير الطبري٤/٣٤ " .

(٤) " مسند أحمد١/٣٢٤ "، " تفسير الطبري٤/٣٤ "، وجوّد إسناده الحافظ في " فتح الباري٨/٢٢٥ " .

(٥) " البخاري٦/٢٦٣٣ " .

عدم خروج الحق عمّا كانوا عليه من العلم، والعمل، فإذا أخطئه واحد منهم: أصابه آخر ولا بد؛ (وإذا كان كذلك: فقولهم معتبر، وعملهم مقتدى به)[١] .

* وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: " من أثنيتم عليه خيراً: وجبت له الجنّة، ومن أثنيتم عليه شراً: وجبت له النّار، الملائكة: شهداء الله في السماء، وأنتم: **شهداء الله في الأرض،** أنتم: **شهداء الله في الأرض،** أنتم: **شهداء الله في الأرض** "[٢] .

قال ابن أبي حاتم الرازي_ رحمه الله_: [فأمّا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، ونصرته، وإقامة دينه، وإظهار حقه، فرضيهم له: صحابةً، وجعلهم لنا: أعلاماً وقدوةً، فحفظوا عنه صلى الله عليه وسلم ما بلّغهم عن الله عز وجل، وما سنّ، وما شرع، وحكم وقضى وندب، وأمر ونهى وأدّب، ووعوه، وأتقنوه: ففقهوا في الدين، وعلموا أمر الله ونهيه، ومراده بمعاينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومشاهدتهم منه تفسيرَ الكتاب وتأويله، وتلقفهم منه، واستنباطهم عنه .

فشرّفهم الله عز وجل بما مَنَّ عليهم، وأكرمهم به من وضعه إياهم: موضعَ القدوة: فنفى عنهم الشكَ، والكذب، والغلط، والريبة، والغمز، وسماهم عدول الأمة، فقال عز ذكره في محكم كتابه: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } .

ففسّر النبي صلى الله عليه وسلم عن الله عز ذكره قولَه: { وسطاً }، قال: " عدلاً "؛ فكانوا: عدول الأمة، وأئمة الهدى، وحجج الدين، ونقلة الكتاب والسنة، وندب الله عز وجل إلى التمسك بهديهم، والجري على منهاجهم، والسلوك لسبيلهم، والاقتداء بهم فقال: { وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى }][٣] .

* ونحو الآية السابقة؛ قوله تعالى: { وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس } [الحج: ٧٨] .

والقول في هذه الآية: كالقول فيما سبق؛ فالصحابة_ رضوان الله عليهم_: هم أئمة المجتبين، وأئمة الشهداء على الناس عند الله سبحانه وتعالى، وإذا كانوا بهذه المنزلة: فمن المحال أن يُحرموا جميعاً الحق في أمر ما من العلم، والعمل ثم يصيبه من بعدهم .

* وقد قال تعالى_ أيضاً_: { قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى } [النمل: ٥٩] .

قال ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم "[٤] .

---

(١) " الموافقات ٧٦/٤ " .

(٢) " البخاري ٤٦٠/١ "، " مسلم ٦٥٥/٢ " عن أنس_ رضي الله عنه_، واللفظ لمسلم .

(٣) " الجرح والتعديل ٧/١ " .

(٤) " تفسير ابن كثير ٣٨١/٣ "، " فتح القدير ١٤٨/٤ " .

وعن وكيع، قال: سمعت سفيان يقول في قوله تعالى : { قل الحمد لله وسلم على عباده الذين اصطفى }، قال: " هم: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم "[1] .

فإذا كان الصحابة_ رضوان الله عليهم_: هم من تتمثل فيهم الحقيقة الكاملة للاصطفاء من الله سبحانه وتعالى بعد الأنبياء والمرسلين: كان حرمانهم جميعاً من الحق، ومجاوزة الحق لهم لمن بعدهم ممن هم_ إجماعاً_ دونهم: علماً، وعملاً، وفضلاً: ممّا يضادّ حقيقة الاصطفاء، وينافيه إذ ليس للاصطفاء من معنى إذا تجرّد عن إصابة الحق، وموافقته .

* وقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين } [التوبة: ١١٩] .

ولا ريب أن هذا الوصف " الصادقين ": أولى من ينطبق عليهم بحقيقته الكاملة_ كذلك_: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

عن نافع_ رحمه الله_، { اتقوا الله وكونوا مع الصادقين }، قال: " مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه ".

وعنه، قال: " قيل للثلاثة الذين خلفوا: { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين }: محمد، وأصحابه".

وعن الضحاك_ رحمه الله_، قال: " مع أبي بكر، وعمر، وأصحابهما_ رحمة الله عليهم_ " .

وعن سعيد بن جبير_ رحمه الله_، قال: " مع أبي بكر، وعمر_ رحمة الله عليهما_ " .

وعن ابن جريج_ رحمه الله_، قال: " مع المهاجرين الصادقين "[2] .

فأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: هم الصادقون في علمهم، وعملهم أتمّ ما يكون الصدق، وأكمله، وقد أمر الله تعالى بالكون معهم: { وكونوا مع الصادقين }، وظاهر أن المراد بالكون معهم: إنما هو اتباعهم، وموافقتهم فيما كانوا عليه من العلم، والعمل .

وإذا أمرنا الله بالكون معهم: فمعلوم أن المراد من ذلك: الإتيان بالحقيقة الكاملة المستوعبة لكل أفرادها، فهو أمر بالاتباع المطلق لا مطلق الاتباع .

ـــ ثانياً:

الأدلة من السنة على حجية ما عليه الصحابة من العلم، والعمل .

قد وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث تفيد حجية ما عليه الصحابة من العلم، والعمل، منها ما ورد عاماً في حق عامتهم، ومنها ما ورد خاصاً في حق بعضهم، ومن ذلك:

* عن عمران بن الحصين_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **خير أمتي:** قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " .

([1]) " الطبري٢٠/٣ "، " ابن كثير٣/٣٦٩ "، " الإصابة١/٢٠: ٢٢ " .

([2]) انظر: " تفسير الطبري١١/٦٢ " .

قال عمران: " فلا أدري: أذكر بعد قرنه: قرنين أو ثلاثاً "[١] .

فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن قرنه: هو **خير أمته** مطلقاً، ومن البدهي القول بأن هذه الخيرية تعني_أساساً_: موافقة الحق وإصابته فيما هو من أمر الدين: علماً، وعملاً، فكان هذا كالقطع باستحالة تخلف الحق عنهم جميعاً، وموافقة من بعدهم له دونهم .

* وعن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " أكرموا أصحابي، فإنهم: **خياركم** "[٢] .

* وفي لفظ: " احفظوني في أصحابي "[٣] .

* وفي لفظ آخر: " احفظوني في أصحابي، فإنهم: **خيار أمتي** "[٤] .

وهذه الخيرية: لا معنى لها إن لم تكن هي خيريتهم على من بعدهم في القيام بالدين: علماً وعملاً، فإذا فرض عدم إصابتهم جميعاً الحق في أمر ما من الدين: علماً وعملاً، وانقراض عصرهم على ذلك، وإدراك من بعدهم للحق الذي فاتهم، وأخطئوه جميعهم: كان من بعدهم خيراً منهم، وهو باطل بيقين، فلزم: عدم خلو عصرهم عن قائم بالحق في كل مسألة من مسائل الدين: علماً، وعملاً .

* وقد جاء من حديث أبي موسى الأشعري_ رضي الله عنه_، قال: " صلينا المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء: فجلسنا، فخرج علينا صلى الله عليه وسلم، فقال: ما زلتم ههنا .

فقلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء .

قال صلى الله عليه وسلم: أحسنتم وأصبتم، ورفع رأسه إلى السماء_ وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء_، فقال: النجوم: أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم: أتى السماء ما توعد، وأنا: أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ: أتى أصحابي ما يوعدون، **وأصحابي: أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي: أتى أمتي ما يوعدون** "[٥] .

وهذا الحديث: منسجم تمام الانسجام مع إخباره صلى الله عليه وسلم بأن قرنهم: خير الأمة كما أنه مُؤكِّد، موضح حقيقة هذه الخيرية، وأنها سبقهم_ رضي الله عنهم_ في موافقة الحق وإصابته في الدين: علماً،

([١]) " البخاري، حديث/٣٦٥٠ "، " مسلم، حديث/٢٥٣٥ " .

([٢]) " الجامع لمعمر ٣٤١/١١ "، " مسند ابن حميد/٣٧ "، " المعجم الأوسط٢٧٧/٦ "، " الاعتقاد للبيهقي/٣٢٠ "، ورواه أحمد، والنسائي، والحاكم، والضياء المقدسي، وغيرهم بلفظ قريب، وسنده صحيح، وانظر: " مشكاة المصابيح١٦٩٥/٣ "، " مسند الإمام أحمد بتحقيق أحمد شاكر ١١٢/١ " .

([٣]) " ابن ماجه٧٩١/٢ "، " الحاكم١٩٩/١ "، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في " زوائد ابن ماجه ٥٣/٣": إسناد رجاله ثقات .

([٤]) " مسند الشهاب٤١٨/١ " .

([٥]) " مسلم١٩٦١/٤ " .

وعملاً.

وقد ترجم النووي_ رحمه الله_ لهذا الحديث بقوله: " باب: بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم: أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه: أمان للأمة "[١] .

فقد جعل صلى الله عليه وسلم نسبة أصحابه إلى من بعدهم: كنسبته إلى أصحابه، وكنسبة النجوم إلى السماء.

وقوة هذا التشبيه تعطي من وجوب اهتداء الأمة بهم فيما لم يرد إلا عنهم: ما هو نظير اهتدائهم بنبيهم صلى الله عليه وسلم، ونظير اهتداء أهل الأرض بالنجوم .

كما أن قوله صلى الله عليه وسلم: " وأصحابي: أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي: أتى أمتي ما يوعدون ": نص في أن وجودهم، وبقاءهم في الأمة: حرز، ووقاية للأمة من المحدثات، والفتن، والشرور، ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجعلهم بهذه المثابة إلا لقيامهم بالحق من دينهم: علماً، وعملاً، ولذا؛ كانوا هم: السد بين الأمة، وبين المحدثات، والفتن، والشرور .

وفي هذا الحديث: نكتة لطيفة، هامة، وهي أن الصحابة_ رضي الله عنهم_ لم ينالوا هذه المنزلة بأشباحهم، وشخوصهم، وإنما نالوها بهديهم: علماً، وعملاً، وهذا الهدي: مكانه؛ من ابتغاه: وجده، فكان الحديث: دعوة لاتباعهم الاتباع المطلق، والتمسك بغرزهم خاصة عند هبوب ريح الفتن وعواصفها .

فـــ(الدين إنما جاء من قبل الله تعالى: لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم السنة لأمته، وأوضحها لأصحابه، فمن خالف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من الدين: **فقد ضل**)[٢] .

* وقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعين ملَّة، وتفترق أُمَّتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة .

قالوا: ومَن هي يا رسول الله ؟ .

قال: ما أنا عليه وأصحابي "[٣] .

([١]) " المرجع السابق " .

([٢]) " الحجة في بيان المحجة٢/٤٤٠ " .

(٣) من حديث عبد الله بن عمرو_ رضي الله عنهما_: " المستدرك١/٢١٨ "، " الترمذي٥/٦ "، " البدع والنهي عنها لابن وضاح/٨٥ "، " الشريعة للآجري/١٥، ١٦ "، "السنة للمروزي/٢٣ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٩٩ "، " الإبانة لابن بطة١/٢١٩: ٢٢١ "، وغيرهم، وهو حسن لشواهده الكثيرة، والله أعلم .

والحديث حسنه الترمذي كما في " تحفة الأحوذي٧/٣٣٤ "، وكما نقله العراقي في " تخريج الإحياء٣/١٩٨ "، وابن القيم في " حاشيته على أبي داود١٢/٢٢٢ "، والعجلوني في " كشف الخفاء١/١٧٠ ".

وقد رويت هذه الزيادة عن أنس_ رضي الله عنه_، انظر: "المختارة٧/٢٧٨"، " المعجم الأوسط٨/٢٢ "، "المعجم الصغير٢/٢٩ "، " مجمع

فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته ستفترق في دينها: مللاً، وشيعاً، وفرقاً، و(بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: الفرقة الناجية منها، فقال: ما أنا عليه وأصحابي، فهذا هو الشفاء، والبيان، والأمر الواضح، والمنار المستقيم)(١) .

قال ابن قدامة_ رحمه الله_: [فأخبر النبي أن الفرقة الناجية: هي التي تكون على ما كان عليه هو وأصحابه، فمتبعهم_ إذاً_: يكون من الفرقة الناجية لأنه على ما هم عليه، ومخالفهم: من الاثنتين والسبعين التي في النار](٢) .

فكانت النجاة في اتباع أصحابه صلى الله عليه وسلم، والتمسك بما كانوا عليه من العلم، والعمل، ودون ذلك: الهلاك ! .

وذلك أنهم_ رضي الله عنهم_ قد (أخذوا الاسلام عنه مباشرة، وشرائعه مشاهدة، وأحكامه معاينة من غير واسطة، ولا سفير بينهم وبينه واصلة؛ فجاولوها عياناً، وحفظوا عنه شفاهاً، وتلقفوه من فيه رطباً، وتلقنوه من لسانه عذباً، واعتقدوا جميع ذلك حقاً، وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقيناً .

فهذا دين: أخذ أوله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشافهة: لم يشبه لبس، ولا شبهة ثم نقلها العدول عن العدول من غير تحامل، ولا ميل ثم الكافة عن الكافة، والصافة عن الصافة، والجماعة عن الجماعة: أخذ كف بكف، وتمسك خلف بسلف: كالحروف يتلو بعضها بعضاً، ويتسق أخراها على أولاها: رصفاً، ونظماً)(٣) .

* وعن واثلة_ رضي الله عنه_، يرفعه: " لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآني وصحبني، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأي من رآني وصاحبني "(٤) .

ومقرر أن قوله صلى الله عليه وسلم: " لا تزالون بخير "، أي: في دينكم، ولا يكون الخير في الدين: إلا بموافقة الحق والصواب، وإدراكهما، واجتناب الباطل والخطأ، والبعد عنهما .

وقوله صلى الله عليه وسلم: " والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأي من رآني وصاحبني ": فيه إشارة لطيفة تقرر ما نحن فيه، وذلك أن هؤلاء الذين رأوا الصحابة_ رضي الله عنهم_ إنما نزلوا هذه المنزلة: لاهتدائهم بهدي الصحابة_ رضي الله عنهم_، واستنانهم بسنتهم: علماً وعملاً لا غير .

فـــ(كل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان، والإسلام، والقرآن، والعلم، والمعارف، والعبادات، ودخول الجنة، والنجاة من النار، وانتصارهم على الكفار، وعلو كلمة الله: فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة

الزوائد١/١٨٩ " .

(١) " السنة للبربهاري/٤٥ " .

(٢) " ذم التأويل/٢٩ " .

(٣) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/ ٢٢: ٢٣ " .

(٤) " ابن أبي شيبة١٢/١٧٨ "، " السنة لابن أبي عاصم٢/٦٣٠ "، " المعجم الكبير ٢٢/٨٥ "، " معرفة الصحابة لأبي نعيم١/١٣٣ "، وحسنه الحافظ في " الفتح ٧/٥"، وقال الهيثمي في " المجمع١٠/٢٠ ": رواه الطبراني من طرق رجال أحدها: رجال الصحيح .

الذين بلغوا الدين، وجاهدوا في سبيل الله، وكل مؤمن آمن بالله: فللصحابة_ رضي الله عنهم_ الفضل إلى يوم القيامة)[١] .

* ومن حديث العرباض بن سارية، قال: " وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب .

فقال قائل: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ .

فقال: " عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، وعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي: تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة "[٢] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فقرن سنة خلفائه: بسنته، وأمر باتباعها كما أمر باتباع سنته، وبالغ في الأمر بها حتى أمر بأن يعض عليها بالنواجذ .

وهذا يتناول ما أفتوا به، وسنوه للأمة وإن لم يتقدم من نبيهم فيه شئ وإلا كان ذلك سنته، ويتناول ما أفتى به جميعهم أو أكثرهم أو بعضهم، لأنه علق ذلك بما سنه الخلفاء الراشدون، ومعلوم أنهم لم يسنوا ذلك وهم خلفاء في آن واحد: فعلم أن ما سنه كل واحد منهم في وقته فهو من سنة الخلفاء الراشدين][٣] .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: " وإياكم ومحدثات الأمور " بعد أن أمر بالتمسك بسنته صلى الله عليه وسلم، وسنة أصحابه، والعض عليها بالنواجذ: دلالة ظاهرة على أن المحدثات: هي ما كان مخالفاً لسنته صلى الله عليه وسلم، ولِما كان عليه أصحابه_ رضي الله عنهم_ من العلم، والعمل، وهذا موافق لقوله صلى الله عليه وسلم في بيان الفرقة الناجية: " ما كان على ما أنا عليه وأصحابي " .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [فقرن عليه السلام كما ترى: سنة الخلفاء الراشدين بسنته، وإن من اتباع سنته: اتباع سنتهم، **وإن المحدثات: خلاف ذلك،** ليست منها في شيء، لأنهم_ رضي الله عنهم_ فيما سنوه: إما متبعون لسنة نبيهم عليه السلام نفسها، وإما متبعون لما فهموا من سنته صلى الله عليه وسلم في الجملة، والتفصيل على وجه يخفى على غيرهم مثله لا زائد على ذلك][٤] .

ـــوقد (تلقت الهداة، والعقلاء: وصية نبيهم صلى الله عليه وسلم بالقبول، ولزموا التوطين على سنته، وسنة الهداة المرشدة من الخلفاء: فلم يرغبوا عنه بل علموا أن الثبوت غير ممكن إلا بتتبع ما سنه صلى الله عليه وسلم، وسنه بعده أئمة الهدى: الذين هم خلفاؤه في أمته، فتركوا الاشتغال بهواجس النفوس، وخواطر القلوب، وما يتولد من الشبهات التي تولد آراء النفوس، وقضايا العقول: خوفاً من أن يزيغوا عن المحجة التي فارقهم

---

(١) " منهاج السنة لابن تيمية٣٧٦/٦ " .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) " إعلام الموقعين١٤٠/٤ " .

(٤) " الاعتصام٦٦/١ " .

عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي شبّه ليلها: بنهارها)[١] .

* وعن أبي سعيد الخدري_ رضي الله عنه_، قال: كان بين خالد بن الوليد_ رضي الله عنه_ وبين عبد الرحمن بن عوف_ رضي الله عنه_ شئ: فسبه خالد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً: ما أدرك مُد أحدِهم ولا نصيفَه "[٢] .

والشاهد منه: أنه إذا كانت النسبة بين خالد_ رضي الله عنه_ وهو من هو من الصحابة: نصرةً للدين، ودفاعاً عنه، وبين السابقين الأولين كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: " لو أنفق مثل أحد ذهباً: ما أدرك مُد أحدِهم ولا نصيفَه ": فكيف هي النسبة بين الصحابة، وبين من لم يكن منهم أصلاً ؟!!!.

فـــ(من لم يصحبه قط: نسبته إلى مَنْ صحبه كنسبة خالد إلى السابقين، وأبعد)[٣] .

بل على التحقيق ليس هناك نسبة أصلاً بين مَنْ لم يصحبه صلى الله عليه وسلم قط، وبين مَنْ صحبه، (فإذا كان جبل أحد ذهباً لا يبلغ نصف مد أحدهم: كان فى هذا من التفاضل ما يبين أنه لم يبلغ أحد مثل منازلهم التى أدركوها بصحبة النبى صلى الله عليه وسلم)[٤] .

* وقد كان ابن عمر_ رضي الله عنهما_ يقول: " لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فلمقام أحدهم ساعة: **خير من عمل أحدكم عُمرَه** "[٥] .

* وسئل الإمام أحمد_ رحمه الله_: هل يقاس بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحد ؟ .

فقال: " معاذ الله !!! "[٦] .

قال النووي_ رحمه الله_: [وفضيلة الصحبة_ ولو: لحظة_: لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بالقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء][٧] .

قلت: وقد (قال غير واحد من الأئمة: إن كل مَنْ صحب النبى صلى الله عليه وسلم: أفضل ممّن لم يصحبه

---

(١) " مقدمة أبي نعيم الأصبهاني للمسند المستخرج على صحيح مسلم١/٣٧ " .

(٢) " البخاري٣/١٣٤٣ "، " مسلم٤/١٩٦٧ "، ويرى البعض أن ما ورد من قصة خالد مع عبد الرحمن_ رضي الله عنهما_ شاذ مردود للمخالفة لما هو أصح .

(٣) " الصارم المسلول لابن تيمية٣/١٠٧٨ " .

(٤) " الفتاوى لابن تيمية٤/٥٢٧ " .

(٥) " فضائل الصحابة لأحمد١/٥٧ "، " ابن ماجه١/٥٧ "، " مصنف ابن أبي شيبة٦/٤٠٥ "، " السنة لابن أبي عاصم٢/٤٨٤ "، وصححه في " مصباح الزجاجة١/٢٤ " .

(٦) " السنة للخلال٢/٤٣٥ " .

(٧) " شرح مسلم١٦/٩٣ " .

مطلقاً)[1] .

ـ ومع هذا البون الشاسع، والفارق الواسع بين الصحابة وبين من جاء بعدهم، فهل من الممكن أن يُحرم الصحابة جميعهم إصابة الحق في أمر ما ممّا كانوا عليه من العلم، والعمل، ويدركه من بعدهم ؟؛ اللهم: لا، بملء قلوبنا، وأفواهنا .

ورحم الله الإمام محمد بن صُبيح بن السماك[2] حيث قال: " والله، لواحد من السلف: خير من ألف من الخلف"[3] .

ـ وقد جاء عن ابن مسعود_ رضي الله عنه_، أنه قال: " ليس عام إلا الذي بعده شر منه، لا أقول عام خير من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذَهَاب العلم ثم يَحْدُثُ قوم يقيسون الأمور بآرائهم: فيُهدم الإسلام"[4].

* ومن طريق الشعبي عن مسروق عنه قال: " لا يأتي عليكم زمان إلا وهو أشر ممّا كان قبله، أمَا إني لا أعني أميراً خيراً من أمير، ولا عاماً خيراً من عام، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خَلَفاً، ويجيء قوم يُفتون برأيهم "[5] .

* وفي لفظ عنه، قال: " وما ذاك بكثرة الأمصار وقلتها ولكن بذهاب العلماء، ثم يحدث قوم يُفتون في الأمور برأيهم: فَيَثْلمون الإسلام ويهدمونه "[6] .

فالبعد عن خير القرون: قرن الصحابة_ رضوان الله عليهم_: مظنة البعد عن الصواب، وإدراك الحق لا العكس .

* وعن حذيفة_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر، وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد "[7] .

---

(1) " الفتاوى لابن تيمية٤/٥٢٧ " .

(٢) انظر ترجمته في " تاريخ بغداد٥/٣٦٨ " .

(٣) انظر: " الجليس الصالح٢/٣٩٢ "، " حلية الأولياء٨/٢١١ " .

(٤) " المدخل للبيهقي/١٨٦ "، " الإحكام لابن حزم٨/٥٠٩ "، " المعجم الكبير٩/١٠٥ "، وجوّد إسناده في "الفتح١٣/٢٠ "، وانظر: " فتح الباري١٣/٢٨٣ "، " كشف الخفاء٢/١٦١ " .

(5) " فتح الباري١٣/٢١ " .

(6) " فتح الباري١٣/٢١ " .

(7) صحيح: " المستدرك٣/٧٩ "، " الترمذي٥/٦٠٩، ٦٧٢ "، " المعجم الكبير٩/٧٢ "، " أحمد٥/٣٨٢، ٣٩٩ "، " البيهقي الكبرى٥/٢١٢، ٨/١٥٣"، " مصنف ابن أبي شيبة٦/٣٥٠ "، والحديث مروي عن ابن مسعود_ رضي الله عنه_ كما في " المستدرك١/٨٠ " كما يروى نحوه عن أبي الدرداء، انظر: " كشف الخفاء١/١٨١ "، " تلخيص الحبير٤/١٩٠ " .

وهذا نص من النبي صلى الله عليه وسلم في الاقتداء بأبي بكر، وعمر_ رضي الله عنهما_، والاهتداء بهدي عمار_ رضي الله عنه_، والتمسك بعهد ابن مسعود_ رضي الله عنه_: فتعين اتباع هؤلاء الصحابة_ رضي الله عنهم_ فيما ورد عن أحدهم من العلم، والعمل ممّا لم يخالف نصاً من الكتاب أو السنة، ولم يخالفه فيه غيره من الصحابة_ رضي الله عنهم جميعاً_ .

وكان المخالف حينئذ: متجاوزاً، معتدياً، متبعاً لغير سبيل المؤمنين، ردا على النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم، والتمسك بعهدهم .

قال عبد الله بن محمد بن هارون الفريابي: سمعت الشافعي_ رضي الله عنه_ يقول: " سلوني عمّا شئتم: أخبركم من كتاب الله تعالى، وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم .

قال: فقلت له: ما تقول_ أصلحك الله_ في المحرم يقتل الزنبور ؟ .

قال: فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: { وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا }، وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر، وعمر " .

حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب_رضي الله عنه_ أنه أمر بقتل الزنبور "[١] .

قال القرطبي_ رحمه الله_ تعليقاً على جواب الإمام الشافعي_ رحمه الله_: [قال علماؤنا: وهذا جواب في نهاية الحسن، أفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام، وبين أنه يقتدى فيه بعمر، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالاقتداء به، وأن الله سبحانه أمر بقبول ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم: فجواز قتله مستنبط من الكتاب، والسنة][٢] .

* وقد جاء عن أبى قتادة_ رضي الله عنه_ أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " إنْ يطع القوم أبا بكر، وعمر: **يرشدوا** " الحديث[٣] .

فنص النبي صلى الله عليه وسلم على أن الرشد في طاعة أبي بكر، وعمر_رضي الله عنهما_: فكان اتباعهما، والاقتداء بهما_ علماً، وعملاً_: رشداً، ورشاداً بنص قول النبي صلى الله عليه وسلم، وكان المتأخر المخالف لهما: زاعماً أن الرشد، والرشاد فيما جاء به دونهما_ رضي الله عنهما_، وكفى بهذا باطلاً .

* وقد روي من حديث عبد الله بن حنطب_ رضي الله عنه_ أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى أبي بكر، وعمر، فقال: " هذان: السمع، والبصر "[٤] .

---

(١) " البيهقي الكبرى٥/٢١٢ " .

(٢) " تفسير القرطبي١٨/١٧: ١٨ " .

(٣) " مسلم١/٤٧٢ " .

(٤) " الترمذي٥/٦١٣ "، " المستدرك٣/٧٣ "، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وانظر: " الإصابة٤/٦٤ " .

فمن أبطل الباطل أن لا يوفق من بلغ هذه المنزلة من النبي صلى الله عليه وسلم، ومن دينه إلى الحق: علماً، وعملاً فيما كان عليه، ويُوفق له من بعدهم .

* وعن أبي سعيد الخدري_ رضي الله عنه_ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر، فقال: "إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده: فاختار ما عنده .

فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا، وأمهاتنا .

فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يُخبر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا، وأمهاتنا .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو المخير، وكان أبو بكر: **هو أعلمنا به .**

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته، وماله: أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي: لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة: إلا خوخة أبي بكر "(١) .

* وفي لفظ: " لا يبقين في المسجد باب إلا سد: إلا باب أبى بكر "(٢) .

فإذا كان أبو بكر_ رضي الله عنه_ أعلم بالنبي صلى الله عليه وسلم ومراده من غيره من الصحابة: فلا شك في كونه_ رضي الله عنه_ أعلم به صلى الله عليه وسلم وبمراده ممن جاء بعده ممن ليس من الصحابة أصلاً، فكيف مع تباعد الأعصار والدهور ؟! .

ونحن بقوله صلى الله عليه وسلم في حق أبي بكر_ رضي الله عنه_ نقول: لا يبقى قول أو عمل إلا رد: إلا ما كان عليه أبو بكر_ رضي الله عنه_ من القول والعمل ممّا لم يخالف الكتاب والسنة، ولم يُعرف له مخالف من الصحابة_ رضي الله عنه_ .

* وعن عائشة_ رضي الله عنها_، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قد كان فيمن خلا من الأمم: أناس **مُحَدّثون**، فإن يكن في أمتي أحد: فهو عمر"(٣) .

قال ابن قتيبة_ رحمه الله_: [قوله: " مُحدَّثين ": يريد قوماً يُصيبون إذا ظَنُّوا، وإذا حدَسوا، يقال: رجل مُحَدَّث، وإنَّما قيل له ذلك لأنه يصيب رأيه، ويصدق ظنّه إذا توهَّم، فكأنَّه حُدِّث بشيء: فقاله](٤) .

وقال ابن الأثير_ رحمه الله_: [تفسيره: أنهم المُلْهَمُون، والمُلْهَم: هو الذي يُلْقَيَ في نفسه الشيء: فيُخْبر به حَدْساً، وفراسة، وهو نوع يَخْتَصُّ به الله عز وجل من يشاء من عبادة الذين اصْطَفَى مِثْلُ عُمر، كأنَّهم حُدِّثوا

---

(١) " البخاري٣/١٤١٧"، " مسلم٤/١٨٥٤ " .

(٢) " البخاري١/١٧٧ " .

(٣) " مسلم٤/١٨٦٤ " .

(٤) " الغريب١/٣١٢ " .

بشيء: فقالوه][1] .

فبالله، مَنْ كان بهذه المنزلة التي شهد له بها صاحبُ الشرع صلوات ربي وسلامه عليه، وورد عنه شيء من العلم أو العمل ممّا لم يخالف نصاً من الكتاب أو السنة، ولم يُعرف عن أحد من الصحابة_ رضي الله عنهم_ خلافه ثم خالفه فيه المتأخرون: أيشك عاقل فضلاً عن عالم أن الحق هنا فيما عليه عمر_ رضي الله عنه_؟!!! .

* وقد جاء عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله جعل الحق على لسان عمر، وقلبه "[2] .

* وقد جاء عن عقبة بن عامر_ رضي الله عنه_، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لو كان بعدي نبي: لكان عمر "[3] .

وهذا ممّا لا يحتاج إلى تعليق لوضوحه الشديد في تقرير المراد، ورضي الله عن أئمة الهدى والرشاد، وحشرنا معهم بلطفه ومنه إنه البر، الكريم، الجواد .

قال المناوي_ رحمه الله_: [ففيه إبانة عن فضل ما جعله الله لعمر **من أوصاف الأنبياء، وخلال المرسلين وقرب حاله منهم**][4] .

* وعن عمرو بن حريث_ رضي الله عنه_ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن مسعود: " اِقرأ عليَّ .

قال: أقرأ وعليك أنزل ! .

قال: إني أحب أن أسمعه من غيري .

فافتتح سورة النساء حتى إذا بلغ: { فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً }: فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكف عبد الله بن مسعود .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتكلم: فحمد الله، وأثنى عليه في أول كلامه، وأثنى على الله وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم، وشهد شهادة الحق، وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، ورضيت لكم: **ما**

---

(1) " النهاية لابن الأثير ٣٥٠/١ " .

(2) " صحيح ابن حبان٣١٢/١٥"، " مصنف ابن أبي شيبة٣٥٥/٦"، والحديث مروي عن ابن عمر: "الترمذي٦١٧/٥ "، " ابن حبان٣١٨/١٥"، " الأوسط٨٥/١"، كما يروى عن أبي ذر: " أبو داود١٣٩/٣"، "ابن ماجه٤٠/١"، " المستدرك٩٣/٣ "، وهو مروي_كذلك_ عن بلال، ومعاوية، وعائشة، انظر: "المجمع٦٦/٩: ٦٧ "، ورواه في " الأوسط٧/٧: ٨ " من حديث عمر نفسه .

(3) " المستدرك٩٢/٣ "، " الترمذي٦١٩/٥ "، " المعجم الكبير٢٩٨/١٧، ٣١٠ "، والحديث حسنه الترمذي .

(4) " فيض القدير ٣٢٥/٥ " .

رضي لكم ابن أم عبد "(١) .

فمن لم يرَ فيما كان عليه ابن مسعود_ رضي الله عنه_ حجة ممّا لم يخالف الكتاب والسنة، ولم يُعرف له مخالف من الصحابة_ رضي الله عنهم_: لم يرض لنا ما رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قدّم عليه فهمَه أو اجتهاده: كان هذا عين الظلم، والبغي، والعدوان .

* وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_: " أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الخلاء، فوضعتُ له وضوءاً .

فقال صلى الله عليه وسلم: مَنْ وضع هذا ؟

فأخبر، فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم فقهه في الدين "(٢) .

* وعن عكرمة، قال ابن عباس: " ضمّني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره، وقال: " اللهم علّمه الحكمة"(٣) .

* وفي رواية: " علمه الكتاب "(٤) .

ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس_ رضي الله عنهما_: قد استجيبت قطعاً، فكان مجرد نصب الخلاف بين ما ورد عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ من العلم أو العمل ممّا لا يخالف الكتاب والسنة، ولم يعرف له مخالف من الصحابة_ رضي الله عنهم_، وبين ما ذهب إليه المتأخر: ضربٌ من السفه المزري بأهله، والله أعلم .

وقد قال الإمام البخاري_ رحمه الله_ بعد أن ذكر الحديث السابق: " والحكمة: الإصابة في غير النبوة "(٥) .

ـــــ وقد وردت آثار كثيرة عن أئمة العلم والدين من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم: ظاهرة الدلالة في حجية ما ورد عن الصحابة_ رضي الله عنهم_ من العلم والعمل، ولزوم اتباعهم فيما كانوا عليه، والتحذير من مخالفتهم، وسلوك غير سبيلهم .

* فعن حارثة بن مضرب، قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_: "إني قد بعثت إليكم عمار بن ياسر: أميراً، وعبد الله بن مسعود: معلماً، ووزيراً، وهما: من النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من أهل بدر، **فاسمعوا قولهما**، وقد جعلت ابن مسعود على بيت مالكم، فتعلموا منهما، **واقتدوا بهما**، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي "(٦) .

---

(١) " المستدرك٣/٣٦٠ "، " المدخل للبيهقي/١٤٠ "، " السير للذهبي١/٤٧٩ "، وصححه الحاكم .

(٢) " البخاري١/٦٦ " .

(٣) " البخاري٣/١٣٧١ " .

(٤) " المرجع السابق " .

(٥) " البخاري٣/١٣٧١ " .

(٦) صحيح: " المستدرك٣/٤٣٨ "، " المختارة١/٢٠٨: ٢٠٩ "، " المعجم الكبير٩/٨٦ "، " مصنف ابن أبي شيبة٦/٣٨٤ "، وانظر: "

* وعن عبد الله بن عمر_ رضي الله عنه_ أن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ رأى على طلحة بن عبيد الله_ رضي الله عنه_ ثوباً مصبوغاً وهو محرم، فقال له عمر_ رضي الله عنه_: " ما هذا الثوب المصبوغ يا طلحة ؟! .

فقال طلحة_ رضي الله عنه_: يا أمير المؤمنين، إنما هو مدر .

فقال عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_: إنكم أيها الرهط، **أئمة يقتدي بكم الناس،** فلو أن رجلاً جاهلاً رأى هذا الثوب، لقال: إن طلحة بن عبيد الله قد كان يلبس الثياب المصبغة في الإحرام، فلا تلبسوا أيها الرهط شيئاً من هذه الثياب المصبغة "(١) .

* وكتب عمر_ رضي الله عنه_ إلى شريح: " إذا أتاك أمر في كتاب الله: فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال، فإن لم يكن في كتاب الله: فبما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يكن في كتاب الله، ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: **فاقض بما قضى به أئمة الهدى**، فإن لم يكن في كتاب الله عز وجل، ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا فيما قضى به أئمة الهدى، فأنت بالخيار: إن شئت أن تجتهد رأيك، وإن شئت أن تؤامرني، ولا أرى مؤامرتك إياي إلا خيراً لك "(٢) .

* وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، قال: " كان أبي إذا صلى في المسجد: تجوّز، وأتم الركوع والسجود، وإذا صلى في البيت: أطال الركوع والسجود، والصلاة، قلت: يا أبتاه إذا صليت في المسجد: جوّزت، وإذا صليت في البيت: أطلت ؟! .

قال: يا بني، **إنّا أئمة يُقتدى بنا** "(٣) .

* وعن ابن مسعود_ رضى الله عنه_، قال: " إن الله عز وجل نظر في قلوب العباد، فاختار محمداً، فبعثه برسالته، وانتخبه بعلمه، ثم نظر في قلوب الناس بعده، فاختار له أصحابه، فجعلهم أنصار دينه، ووزراء نبيه صلى الله عليه وسلم، فما رآه المؤمنون حسناً: فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحاً فهو عند الله قبيح "(٤) .

* وعنه_ أيضاً_، قال: " من كان متأسياً: فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا: أبر هذه الأمة: قلوباً، وأعمقها: علماً، وأقلها: تكلفاً، وأقومها: هدياً، وأحسنها: حالاً، قوم: اختارهم الله لصحبه

المجمع٩/٢٩١ " .

(١) " الموطأ١/٣٢٦ "، " الكبرى للبيهقي٥/٦٠ " .

(٢) " البيهقي الكبرى١٠/ ١١٠ "، " الإحكام لابن حزم٦/٢٠٣ "، " سير أعلام النبلاء٤/١٠١ " .

(٣) " ابن أبي شيبة١/٤٠٦ "، وقال الهيثمي " المجمع١/١٨٢ ": [رواه الطبراني في الكبير، ورجاله: رجال الصحيح] .

(٤) حسن، " مسند الطيالسي/٣٣ "، " مسند أحمد١/٣٧٩ "، " الفقيه والمتفقه١/ ١٦٦: ١٦٧"، " اللالكائي١/٣٢٢"، " الحلية١/٣٧٥"، " المدخل للبيهقي/١١٤"، وهو عند " البزار٥/٢١٢" من طريق آخر عن ابن مسعود، وانظر: " المجمع١/١٧٧: ١٧٨ "، " كشف الخفاء٢/٢٤٥ ".

نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم "[١] .

* وعن عبد الله بن عمر_ رضي الله عنهما_، قال: " من كان مستناً: فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير هذه الأمة: أبرها: قلوباً، وأعمقها: علماً، وأقلها: تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، ونقل دينه .

فتشبهوا بأخلاقهم، وطرائقهم، فهم: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا على الهدي المستقيم والله ربّ الكعبة "[٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية _رحمه الله_: [وقول عبد الله بن مسعود: " كانوا أبر هذه الأمة: قلوباً، وأعمقها: علماً، وأقلها: تكلفاً ": كلام جامع، بيّنَ فيه حسن قصدهم ونياتهم: ببر القلوب، وبين فيه كمال المعرفة ودقتها: بعمق العلم، وبين فيه تيسر ذلك عليهم، وامتناعهم من القول بلا علم بقلة التكلف][٣] .

* وعن جندب بن عبد الله_ رضي الله عنه_ وقد دخل عليه بعض الخوارج، فقالوا:

" ندعوك إلى كتاب الله .

فقال: أنتم ! .

قالوا: نحن .

قال: أنتم ! .

قالوا: نحن .

فقال: يا أخابيث خلق الله، **في اتباعنا: تختارون الضلالة أم في غير سنتنا: تلتمسون الهدى**، أخرجوا عني"[٤] .

* وعن ابن مسعود_ رضي الله عنه_، قال: " لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير .

فأتاهم عمر، قال: ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يؤم الناس .

قالوا : بلى، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟!.

فقالوا : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر "[٥] .

---

(١) " جامع بيان العلم لابن عبد البر٢/٩٧ "، وفيه انقطاع .

(٢) رواه أبو نعيم في " الحلية١/٣٠٥ " بسند ضعيف .

(٣) " منهاج السنة٢/٧٩ " .

(٤) " إعلام الموقعين٤/١٣٩ " .

(٥) حسن، " أحمد١/٣٩٦، ٤٠٥ "، " المستدرك٣/٧٠ "، " المختارة١/٣٣٦، ٣٣٧ "، وانظر: "المجمع٥/١٨٣"

قال ابن القيم– رحمة الله عليه_: [ونحن نقول لجميع المفتين أيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر إذا أفتى بفتوى وأفتى من قلدتموه بغيرها، ولا سيما من قال من زعمائكم إنه يجب تقليد من قلدناه ديننا ولا يجوز تقليد أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

اللهم إنا نشهدك أن أنفسنا لا تطيب بذلك ونعوذ بك أن نطيب به نفساً][1] .

* وعن علي_ رضي الله عنه_، قال: " ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر "[2] .

* وعن أبى ذر_ رضي الله عنه_، قال: " مرّ فتى على عمر_ رضي الله عنه_، فقال عمر: نعم الفتى .

فتبعه أبو ذر، فقال: يا فتى، استغفر لي .

فقال: يا أبا ذر، استغفر لك، وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال: استغفر لي .

قال: لا أو تخبرني .

قال: إنك مررت على عمر، فقال: نعم الفتى، وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه "[3] .

* وعن الأعمش عن شقيق، قال: قال عبد الله: " والله لو أن علم عمر وضع في كفة ميزان، وجعل علم أهل الأرض في كفة: لرجح علم عمر " .

فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي، فقال: قال عبد الله: " والله إني لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم "[4] .

* وعن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_ أيضاً_، قال: " ما رأيت عمر_ رضي الله عنه_ إلا وكأن بين عينيه ملكاً يسدده "[5] .

* وقيل لعلي_ رضي الله عنه_ حينما دخل الكوفة: اِنزل بالقصر الأبيض .

([1]) " إعلام الموقعين٤/١٤٥ " .

([2]) حسن، وهو مروي عن علي من طرق، انظر: " أحمد١/١٠٦"، " الجامع لمعمر بن راشد١١/٢٢٢"، "المختارة٢/١٧١ "، " الأوسط٥/٣٥٩ "، " المدخل للبيهقي/١٢٥ " .

والأثر مروي عن ابن مسعود كما في " المعجم الكبير٩/١٦٧"، وحسن إسناده في " المجمع٩/٦٧"، ومروي_كذلك_ من حديث طارق بن شهاب كما في " مصنف ابن أبي شيبة٦/٣٥٨"، " الكبير٨/٣٢٠ "، وقال في" المجمع٩/٦٧ ": رجاله ثقات .

([3]) " المستدرك٣/٩٣ "، " مسند الشاميين٢/٣٨٢ "، " المدخل للبيهقي/١٢٥ " .

([4]) صحيح: " المستدرك٣/٩٢ "، " التمهيد٣/١٩٨ "، " المدخل للبيهقي/١٢٦ " .

([5]) " فضائل الصحابة١/٢٤٧"، " مصنف ابن أبي شيبة٦/٣٥٤، ٣٥٥"، " المعجم الكبير٩/١٦٤، ١٦٨"، "المدخل للبيهقي/١٢٦ " .

فقال: " لا؛ إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكرهه لذلك، فنزل في الرحبة "[1] .

* و" كان ابن عباس_ رضي الله عنهما_ إذا سئل عن شئ، فكان في كتاب الله: قال به، فإن لم يكن في كتاب الله، وكان من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيء: قال به، فإن لم يكن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيء: قال بما قال أبو بكر، وعمر، فإن لم يكن لأبي بكر، وعمر فيه شيء: قال برأيه "[2] .

* وفي مناظرة ابن عباس_ رضي الله عنهما_ للخوارج، قال لهم: " جئتكم من عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، **وعليهم: نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله** "[3] .

ـ وقد جاء عن علي_ رضي الله عنه_ أنه قال: " لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة لكيلا تبطل حجج الله وبيناته "[4] .

وهذا وإن كان على عمومه: فلا شك أن أولى القرون والأعصار به: قرن الصحابة، وعصرهم الذي هو خير قرون الأمة، وخير أعصارها بنص كلام النبي صلى الله عليه وسلم: فتعين عدم خروج الحق: علماً، وعملاً عن جملة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

ـ وقد قال ابن عباس_ رضي الله عنه_: " عليك بالاستقامة، اتبع ولا تبتدع، اتبع الأثر الأول، ولا تبتدع"[5].

وما جاء عن أحد الصحابة من العلم أو العمل، ولم يكن ثمة غيره: أثر يجب اتباعه.

وبنحو ما جاء عن ابن عباس_ رضي الله عنه_ هنا:

* قال ابن مسعود_ رضي الله عنه_: " إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا **بالأثر**"[6].

* وقال حذيفة_ رضي الله عنه_: " يا معشر القراء: **خذوا طريق من قبلكم**، فوالله، لئن استقمتم: لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً: لقد ضللتم ضلالاً بعيداً "[7] .

* وعن أبي الدرداء_ رضي الله عنه_، قال: " اقتصاد في سنة: خير من اجتهاد في بدعة، إنك إن تتبع: خير

---

(1) " البداية والنهاية٧/٢٥٤ " .

(2) " المستدرك١/٢١٦ "، " المدخل للبيهقي/١٢٧ " .

(3) " جامع بيان العلم٢/١٠٤ " .

(4) " الحلية١/٨٠ "، " تذكرة الحفاظ١/١٢ "، " تهذيب الكمال٢٤/٢٢١ "، " صفوة الصفوة١/٣٣١ " .

(5) " طبقات الحنابلة١/٧١ "، " ذم الكلام " .

(6) " ذم التأويل/٣١ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٦ " .

(7) " صحيح البخاري٦/٢٦٥٦ "، " السنة للمروزي١/٣٠"، " ذم التأويل/٣٢ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٩٠ "، "الاعتصام للشاطبي١/٥٨ " .

من أن تبتدع، **ولن تخطئ الطريق ما اتبعت الأثر** "[١] .

* وعن عبد الله بن عمر_ رضي الله عنهما_ أنه كان يقول: " خير الدين: دين محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور: محدثاتها، اتبعوا ولا تبتدعوا فإنكم لن تضلوا ما اتبعتم الأثر، **إن تتبعونا: فقد سبقناكم سبقاً بعيداً، وإن تخالفونا: فقد ضللتم ضلالاً كبيراً** "[٢] .

* وعن شريح_ رحمه الله_، قال: " إنما اقتفي الأثر، فما وجدت في الأثر: حدثتكم به "[٣] .

* وعن ابن المسيب_ رحمه الله_ أنه سئل عن شيء، فقال: " اختلف فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أرى لي معهم: قولاً "[٤] .

قال ابن وضاح_ رحمه الله_ تعليقاً على قول ابن المسيب: هذا هو الحق .

وقال ابن عبد البر_ رحمه الله_: معناه: ليس له أن يأتي بقول يخالفهم به "[٥] .

* وعن الشعبي_ رحمه الله_، قال: " ما حدثوك عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: فخذه، وما حدثوك عن رأيهم: فألقه في الحش "[٦] .

* وعن إبراهيم النخعي_ رحمه الله_، قال: " لو بلغني أنهم_ يعنى الصحابة_ لم يجاوزوا بالوضوء ظفراً: لما جاوزته به، **وكفى بنا على قوم إزراءً أن نخالف أعمالهم** "[٧] .

* وقال_ أيضاً_ رحمه الله_: " لو أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مسحوا على ظفر: لما غسلته التماس الفضل في اتباعهم "[٨] .

* وكان_ رحمه الله_ يقول: " إن القوم لم يُدّخر عنهم شيء خبيء لكم لفضل عندكم "[٩] .

* وذكر الحسن البصري_ رحمه الله_ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " إنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه، فتشبهوا بأخلاقهم،

---

(١) " السنة للمروزي١/٣٢"، وانظر: " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/٨٨ " .

(٢) " السنة للمروزي١/٢٩ " .

(٣) " تهذيب الكمال١٢/٤٤٢ " .

(٤) " جامع بيان العلم٢/٢٩ " .

(٥) " المرجع السابق " .

(٦) " العلل للإمام أحمد١/٢٨٣ "، " تأويل مختلف الحديث/٥٧ "، " الجامع للخطيب٢/١٩٠ "، " الإحكام لابن حزم٦/٢٢٢ " .

(٧) " الإبانة١/٣٦٢ "، " الطبقات الكبرى٦/٢٧٤ " .

(٨) " الإبانة١/٣٦١ " .

(٩) " السنة لعبد الله١/١٣٨ "، " السير ١١/٢٨٥ "، " المدخل للبيهقي/١٩٩"، " ذم التأويل/٣٢ " .

وطرائقهم، فإنهم_ ورب الكعبة_ على الهدى المستقيم "(1) .

* وكتب عمر بن عبد العزيز_ رحمه الله_ إلى بعض عماله: " أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وترك ما أحدث المحدثون بعده فيما قد جرت به سنته، وكفوا مؤونته، واعلم أنه لم يبتدع إنسان بدعة: إلا قدم قبلها ما هو دليل عليها، وعبرة فيها، فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة، واعلم أن من سن السنن: قد علم ما في خلافها من الخطأ، والزلل، والتعمق، والحمق، فإن السابقين عن علم وقفوا، وببصر نافذ قد كفوا، وكانوا هم أقوى على البحث ولم يبحثوا "(2) .

* وعنه_ أيضاً_ رحمه الله_، قال: " قف حيث وقف القوم، وقل كما قالوا، واسكت كما سكتوا، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فإنهم السابقون .

ولئن كان الهدى ما أنتم عليه: فلقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم حدث بعدهم حدث: فما أحدثه إلا من خالف سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، ولقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفى، فما دونهم: مَقصر، ولا فوقهم: محسر، ولقد قصّر عنهم أقوام: فجفوا، وطمح عنهم آخرون: فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك: لعلى هدىً مستقيم "(3) .

* وقال_ كذلك_ رحمه الله_: " سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سنناً، الأخذ بها: تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعته، وقوة على دينه، ليس لأحد تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خالفها .

فمن اقتدى بما سنوا: اهتدى، ومن استنصر بها: نصر، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين: ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً "(4) .

* وعن الإمام الأوزاعي_ رحمه الله_، قال: " عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال، وإن زخرفوه لك بالقول، فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم "(5) .

* وقال_ أيضاً_ رحمه الله_: " اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عمّا كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم ...

ولو كان هذا خيراً: ما خصصتم به دون أسلافكم، فإنه لم يدخر عنهم خير خبئ لكم دونهم لفضل عندكم، وهم أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، اختارهم الله، وبعثه فيهم، ووصفهم بما وصفهم به، فقال:

---

(1) " جامع بيان العلم "، " ذم التأويل/٣٢ " .

(2) " الزهد لأحمد/٢٩٦ "، " الإبانة١/٣٢١: ٣٢٢ "، " الحلية٥/٣٣٨ " .

(3) " الإبانة١/٣٢٢ "، " الحلية٥/٣٣٩ "، " ذم التأويل/٣٣: ٣٤ " .

(4) " اللالكائي١/٩٤ "، " السنة لعبد الله١/٣٥٧ "، " مفتاح الجنة/٤٠ " .

(5) " تذكرة الحفاظ١/١٨٠ "، " سير أعلام النبلاء٧/١٢٠ "، " المدخل للبيهقي/١٩٩ "، " ذم التأويل/٣٤ " .

{محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم } الآية "(١) .

* وعن الإمام مالك_ رحمه الله_، قال: قال لي ابن شهاب_ رحمه الله_: " لا تعدلن برأى ابن عمر فإنه أقام ستين سنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلم يخف عليه شيء من أمره، **ولا من أمر اصحابه** "(٢) .

ــــ هذا، وقد اتفق الأئمة المتبوعون: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد_ رحمهم الله جميعاً_ على حجية ما كان عليه الصحابة_ رضوان الله عليهم_ من العلم، والعمل، ونصوصهم، ومسالكهم في ذلك واضحة أشد الوضوح:

* قال الإمام أبو حنيفة_ رحمه الله_: " إني آخذ بكتاب الله إذا وجدته، فما لم أجده فيه: أخذت بسنة رسول الله والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات عن الثقات، فإذا لم أجد في كتاب الله، ولا سنة رسول الله: أخذت بقول أصحابه من شئت، وأدع قول من شئت **ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم**، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، وسعيد بن المسيب: فلي أن أجتهد كما اجتهدوا "(٣) .

* وعنه_ أيضاً_، قال_ رحمه الله_: " ما بلغني عن صحابي أنه أفتى به: فأقلده **ولا أستجيز خلافه** "(٤) .

* وعن أبي يوسف_ رحمه الله_، قال: سمعت أبا حنيفة_ رحمه الله_ يقول: " إذا جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الثقات: أخذنا به، فإذا جاء عن أصحابه: **لم نخرج عن أقاويلهم**، فإذا جاء عن التابعين: زاحمتهم "(٥) .

* وقال الحسن بن صالح_ رحمه الله_: " كان أبو حنيفة شديد الفحص عن الناسخ من الحديث والمنسوخ، فيعمل بالحديث إذا ثبت عنده عن النبي صلى الله عليه وسلم، **وعن أصحابه** "(٦) .

* وعن ابن المبارك، قال: سمعت أبا حنيفة يقول: " إذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة: نختار **من قولهم**، وإذا جاء عن التابعين: زاحمناهم "(٧) .

* بل ورد عنه_ رحمه الله_ قوله: " من كان من أئمة التابعين، وأفتى في زمن الصحابة، وزاحمهم في الفتوى، و سوغوا له الاجتهاد: فأنا أقلده، مثل: شريح، والحسن، ومسروق بن الأجدع، وعلقمة "(٨) .

---

(١) " اللالكائي١/١٥٥ "، " الحلية٨/٢٥٥ "، " ذم التأويل/٣٤ " .

(٢) " تذكرة الحفاظ١/٣٩ " .

(٣) " أخبار أبي حنيفة للصيمري/١٠ " .

(٤) " شرح أدب القاضي١/١٨٥: ١٨٧ " .

(٥) " أخبار أبي حنيفة للصيمري/١٠: ١١ " .

(٦) " أخبار أبي حنيفة للصيمري/١١ " .

(٧) " إعلام الموقعين٤/١٢٣ "، " المدخل للبيهقي/١١١ "، " أخبار أبي حنيفة للصيمري/١٠ "، " إيقاظ همم أولي الأبصار/٧٠ " .

(٨) " ذم الكلام وأهله٥/٢٠٧ " .

فإذا كان هذا مسلكه_ رحمه الله_ مع أئمة التابعين، فلا شك حينئذ في تقليده للصحابة_ رضوان الله عليهم_، واتباعهم فيما ورد عنهم من العلم، والعمل .

* قال محمد بن حمدان بن الصباح عن أبي حنيفة: " كان إذا وردت عليه مسألة فيها حديث صحيح: اتبعه، وإن كان عن **الصحابة والتابعين**، وإلا: قاس وأحسن القياس "[١] .

* وقد كان_ رحمه الله_ يقول: " عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة "[٢] .

ــــ وأما الإمام مالك_ رحمه الله_: فقد " شحن " موطئه بآثار الصحابة_ رضي الله عنهم_، وأكثر من الاحتجاج بهم .

* قال_ رحمه الله_ وقد ذُكرَ له كتابُه الموطأ_: " فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، **وقول الصحابة، والتابعين ورأيهم**، وقد تكلمت برأيي على الاجتهاد، وعلى ما أدركت عليه أهل العلم ببلدنا، **ولم أخرج عن جملتهم إلى غيره** "[٣] .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [ولما بالغ مالك في هذا المعنى[٤] بالنسبة إلى الصحابة أو من اهتدى بهديهم، واستن بسنتهم: جعله الله تعالى قدوة لغيره في ذلك، فقد كان المعاصرون لمالك: يتبعون آثاره، ويقتدون بأفعاله ببركة اتباعه لمن أثنى الله ورسوله عليهم، وجعلهم قدوة][٥] .

وقال ابن القيم_ رحمه الله_: [وأما مالك: فإنه يقدم الحديث المرسل، والمنقطع، والبلاغات، **وقول الصحابي** على القياس][٦] .

* وقد سئل الإمام مالك_ رحمه الله_: لمن تجوز الفتوى ؟ .

فقال: لا تجوز الفتوى إلا لمن علم ما اختلف الناس فيه .

قيل له: اختلاف أهل الرأي ؟ .

قال: لا، **اختلاف أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم**، والناسخ والمنسوخ من القرآن، ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا يفتي "[٧].

ــ وإنما يجب معرفة اختلاف الصحابة_ رضي الله عنهم_ فيما اختلفوا فيه: لأن الحق لا يخرج عن أقوالهم

([١]) " تاريخ بغداد١٣/٣٣٩: ٣٤٠ " .

([٢]) " ذم التأويل/٣٣ " .

([٣]) " ترتيب المدارك١/١٠٢ " .

([٤]) أي: الاحتجاج بما ورد عن السلف من العلم، والعمل .

([٥]) " الموافقات٤/٨٠ " .

([٦]) " إعلام الموقعين١/٣٣ " .

([٧]) " جامع بيان العلم وفضله١/٤٧ " .

كما مرّ من كلام ابن المسيب_ رحمه الله_ .

* قال أبو محمد عبد الله ابن أبي زيد القيرواني المالكي المشهور بمالك الصغير في سياقه للأمور التي أجمعت عليها الأمة من أمور الديانة، ومن السنن التي خلافها بدعة وضلالة: " التسليم للسنن: لا تعارض برأي، ولا تدافع بقياس، وما تأوله منها السلف الصالح: تأولناه، وما عملوا به: عملناه، وما تركوه: تركناه، ويسعنا أن نمسك عمّا أمسكوا، ونتبعهم فيما بينوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج عن جماعتهم فيما اختلفوا فيه أو تأويله .

وكل ما قدّمنا ذكره: فهو قول أهل السنة، وأئمة الناس في الفقه والحديث على ما بيناه، وكله: قول مالك"(١) .

ـــــ وأما الإمام الشافعي_ رحمه الله_: فمذهبه_ القديم، والجديد_: الاحتجاج بما ورد عن الصحابة_ رضي الله عنهم_:

ـــ فأما قوله في القديم:

فقال البيهقي_ رحمه الله_: [ذكر الشافعي_ رضي الله عنه_ في كتاب الرسالة القديمة بعد ذكر الصحابة_رضي الله عنهم_، والثناء عليهم بما هم أهله، فقال:

وهم فوقنا في كل علم، واجتهاد، وورع، وعقل، وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا: أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا، والله أعلم .

ومن أدركنا ممن أرضي أو حكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه سنة: إلى قولهم إن اجتمعوا، **وقول بعضهم إن تفرقوا**، فهكذا نقول: إذا اجتمعوا أخذنا باجتماعهم، **وإن قال واحدهم ولم يخالفه غيره: أخذنا بقوله، فإن اختلفوا: أخذنا بقول بعضهم، ولم نخرج من أقاويلهم كلهم .**

قال الشافعي_ رضي الله عنه_: وإذا قال الرجلان منهم في شيء: قولين مختلفين: نظرت، فإن كان قول أحدهما أشبه بكتاب الله أو أشبه بسنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخذت به لأن معه شيئاً يقوى بمثله ليس مع الذي يخالفه مثله، فإن لم يكن على واحد من القولين دلالة بما وصفت: كان قول الأئمة أبي بكر أو عمر أو عثمان_ رضي الله عنهم_: أرجح عندنا من واحد لو خالفهم غير إمام، وذلك ذكره في موضع آخر من هذا الكتاب .

وقال: فإن لم يكن على القول دلالة من كتاب، ولا سنة: كان قول أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي_ رضي الله عنهم_: أحب إلي أن أقول به من قول غيرهم إن خالفهم من قبل أنهم أهل علم وحكام ...

إلى أن قال: فإن اختلف الحكام: استدللنا من الكتاب والسنة في اختلافهم: فصرنا إلى القول الذي عليه الدلالة من الكتاب والسنة، وقل ما يخلو اختلافهم من دلائل كتاب أو سنة، وإن اختلف المفتون_ يعني من الصحابة_ بعد الأئمة بلا دلالة فيما اختلفوا فيه: نظرنا إلى الأكثر، فإن تكافؤوا: نظرنا إلى أحسن أقاويلهم مخرجاً عندنا، وإن وجدنا للمفتين في زماننا أو قبله اجتماعاً في شيء لا يختلفون فيه: تبعناه، وكان أحد طرق الأخبار

---

(١) " الجامع لابن أبي زيد القيرواني/١١٧ " .

الأربعة، وهي: كتاب الله ثم سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثم **القول لبعض أصحابه** ثم اجتماع الفقهاء][1] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [ونحن نشهد بالله أنه لم يرجع عنه بل كلامه في الجديد مطابق لهذا موافق له][2] .

ــ وأما عن قوله في الجديد:

* فقد قال_ رحمه الله_ في " الأم " _ و هو من كتبه الجديدة_:

" ما كان الكتاب أو السنة موجودين: فالعذر على من سمعهما: مقطوع إلا باتباعهما، فإن لم يكن ذلك: صرنا إلى أقاويل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أو **واحد منهم**، ثم كان قول الأئمة: أبي بكر أو عمر أو عثمان_ رضي الله عنهم_ إذا صرنا فيه إلى التقليد: أحب إلينا، وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة: فنتبع القول الذي معه الدلالة لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزمه الناس، ومن لزم قوله الناس: كان أشهر ممن يفتي الرجل أو النفر، وقد يأخذ بفتياه ويدعها ...

فإذا لم يوجد عن الأئمة: **فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين في موضع الأمانة: أخذنا بقولهم، وكان اتباعهم: أولى بنا من اتباع من بعدهم** "[3] .

* وقال_ رحمه الله_: " العلم طبقات:

الأولى: الكتاب، والسنة_ إذا ثبتت السنة_ .

الثانية: الإجماع فيما ليس فيه كتاب، ولا سنة .

الثالثة: **أن يقول بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولا نعلم له مخالفاً منهم .**

الرابعة: اختلاف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم .

الخامسة :- القياس على بعض هذه الطبقات "[4] .

قال ابن القيم_ رحمه الله تعالى_: [هذا كله كلامه في الجديد][5] .

وقال_ أيضاً_: [أما القديم: فأصحابه: مقرون به، وأما الجديد: فكثير منهم يحكي عنه فيه أنه ليس بحجة .

وفي هذه الحكاية عنه: نظر ظاهر جداً، فإنه لا يحفظ له في الجديد حرف واحد أن قول الصحابي ليس بحجة، وغاية ما يتعلق به من نقل ذلك أنه يحكي أقوالاً للصحابة في الجديد ثم يخالفها، ولو كانت عنده حجة:

---

(1) " المدخل للبيهقي/١١٠: ١١١ "، وانظر: " إعلام الموقعين٤/١٢٠: ١٢٣ " .

(2) " إعلام الموقعين٤/١٢٢ " .

(3) " الأم٧/٢٦٥ "، " المدخل للبيهقي/١٠٩ "، " إعلام الموقعين٤/١٢١ " .

(4) " الأم٧/٢٦٥ "، " المدخل للبيهقي/١١٠ "، " إعلام الموقعين٤/١٢١: ١٢٢ " .

(5) " إعلام الموقعين٤/١٢٢ " .

لم يخالفها .

وهذا تعلق: ضعيف جداً، فإن مخالفة المجتهد الدليل المعين لِما هو أقوى في نظره منه: لا يدل على أنه لا يراه دليلاً من حيث الجملة بل خالف دليلاً لدليلٍ أرجح عنده منه .

وقد تعلق بعضهم بأنه يراه في الجديد إذا ذكر أقوال الصحابة موافقاً لها لا يعتمد عليها وحدها كما يفعل بالنصوص بل يعضدها بضروب من الأقيسة، فهو تارة يذكرها ويصرح بخلافها، وتارة يوافقها ولا يعتمد عليها بل يعضدها بدليل آخر.

وهذا_ أيضاً_ تعلق أضعف من الذي قبله، فإن تظاهر الأدلة، وتعاضدها، وتناصرها من عادة أهل العلم قديماً وحديثاً، ولا يدل ذكرهم دليلاً ثانياً، وثالثاً على أن ما ذكروه قبله ليس بدليل][1] .

* وعن الربيع بن سليمان_ رحمه الله_، قال الشافعي: " لا يكون أن تقول إلا عن أصل أو قياس على أصل .

والأصل: كتاب أو سنة أو **قول بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم** أو إجماع الناس "[2] .

* وقال يونس بن عبد الأعلى_ رحمه الله_: قال لي محمد بن إدريس الشافعي:

" لا يقال للأصل : لم ولا كيف "[3] .

ـــــ وأما الإمام أحمد_ رحمه الله_: فهو أكثر الأئمة اتباعاً لما ورد عن الصحابة_ رضي الله عنهم_ من العلم، والعمل إذ قد جعل_ رحمه الله_ ما ورد عن الصحابة_ رضي الله عنهم_ من العلم، والعمل: الأصل الثاني الذي بنى عليه مذهبه بعد نصوص الكتاب والسنة .

* قال_ رحمه الله_: " إذا كان في المسألة عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث: لم نأخذ فيها بقول أحد من الصحابة، ولا من بعدهم خلافه .

وإذا كان في المسألة عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قول مختلف: نختار من أقاويلهم، ولم نخرج عن أقاويلهم إلى قول غيرهم .

وإذا لم يكن فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن الصحابة قول: نختار من أقوال التابعين ... "[4] .

* وعن الفضل بن زياد، حدثنا أبو طالب إملاءً عليّ؛ قال أبو عبد الله_ الإمام أحمد_: " إنما على الناس اتباع الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعرفة صحيحها من سقيمها ثم يتبعها إذا لم يكن لها مخالف ثم بعد ذلك: **قول أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكابر وأئمة الهدى يُتّبعون على ما قالوا، وأصحاب**

---

(1) " إعلام الموقعين٤/١٢٠ " .

(2) " مناقب الشافعي للبيهقي١/٣٦٧ " .

(3) " المرجع السابق " .

(4) " المسوّدة/٢٤٨: ٢٤٩ " .

النبي صلى الله عليه وسلم كذلك لا يخالفون إذا لم يكن قول بعضهم لبعض مخالفاً، فإذا اختلفوا: نظر في الكتاب بأي قولهم كان أشبه بالكتاب: أخذ به أو كان أشبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخذ به، فإن لم يأت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: نظر في قول التابعين، فأي قولهم كان أشبه بالكتاب والسنة: أخذ به، وترك ما أحدث الناس بعدهم "(١) .

* وعن الفضل بن زياد_ أيضاً_، قال: " سمعت أبا عبد الله وسئل عن الرجل يسأل عن الشيء من المسائل، فيرشد صاحب المسألة إلى رجل يسأله عنها، هل عليه شيء في ذلك ؟ .

فقال: إذا كان الرجل متبعاً: أرشده إليه، فلا بأس .

قيل له: فيفتي بقول مالك وهؤلاء ؟ .

قال لا، إلا الكتاب، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره، **وما روى عن أصحابه، فإن لم يكن روى عن أصحابه شيء، فعن التابعين** "(٢) .

قال ابن القيم_ رحمه الله_ وهو يتحدث عن الأصول التي قام عليها فقه الإمام أحمد:

[الأصل الثاني من أصول فتاوى الإمام أحمد: ما أفتى به الصحابة، فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى لا يُعرف له مخالف منهم فيها: لم يعدها إلى غيرها ...

وإذا وجد الإمام أحمد هذا النوع عن الصحابة: **لم يقدم عليه عملاً، ولا رأياً، ولا قياساً** .

فصل: الأصل الثالث: الاختيار من أقوال الصحابة إذا اختلفوا .

الأصل الثالث من أصوله إذا اختلف الصحابة: تخير من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب، والسنة، **ولم يخرج عن أقوالهم**، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال: حكي الخلاف فيها ولم يجزم بقول](٣) .

* وقد كان الإمام أحمد_ رحمه الله_ يردد: " أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة: فهي ضلالة، وترك الخصومات، وترك الجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين "(٤) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [تجد الإمام أحمد إذا ذكر أصول السنة قال: هي التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكَتَبَ: كُتب التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة، والتابعين، وكتب الحديث والآثار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة، والتابعين، وعلى ذلك يعتمد في أصوله العلمية، وفروعه حتى قال في رسالته إلى خليفة وقته المتوكل: " لا أحب الكلام

---

(١) " طبقات الحنابلة٢/١٥: ١٦ " .

(٢) " طبقات الحنابلة٢/١٥ "، " الإنصاف٨/٤٢٨ "، " المسودة/٤٥٧ " .

(٣) " إعلام الموقعين١/٣٠: ٣١ " .

(٤) " ذم التأويل/٣٤ "، " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/١٥٦ " .

في شيء من ذلك إلا ما كان في كتاب الله أو في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصحابة أو التابعين، فأمّا غير ذلك: فالكلام فيه غير محمود " .

وكذلك في الزهد، والرقاق، والأحوال، فإنه اعتمد في كتاب الزهد على المأثور عن الأنبياء صلوات الله عليهم من آدم إلى محمد ثم على طريق الصحابة، والتابعين ولم يذكر من بعدهم، وكذلك وصفه لأخذِ العلم: أن يكتب ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم عن الصحابة ثم عن التابعين](١) .

ـ بل قد جاء عن الإمام أحمد_ رحمه الله_ تقديمُ ما ورد عن الصحابة_رضي الله عنهم_ على الحديث المرسل:

* قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ_ رحمه الله_: قلت لأبي عبد الله: " حديث عن رسول الله مرسل برجال ثبت: أحبُّ إليك أو حديث عن الصحابة والتابعين متصل برجال ثبت ؟ .

قال أبو عبد الله_ رحمه الله_: عن الصحابة أعجب إليّ "(٢) .

ـ وبما سبق معنا: يظهر لنا بجلاء: أن (أئمة الإسلام كلهم: على قبول قول الصحابي)(٣) .

ــــ هذا، وقد نقل العلائي_ رحمه الله_: إجماع التابعين على الاحتجاج بقول الصحابي، فقال:

[الوجه السادس_ وهوالمعتمد_: أن التابعين أجمعوا على اتباع الصحابة فيما ورد عنهم، والأخذ بقولهم، والفتيا به من غير نكير من أحد، وكانوا من أهل الاجتهاد_ أيضاً_ ...

ومن أمعن النظر في كتب الآثار: وجد التابعين لا يختلفون في الرجوع إلى أقوال الصحابي فيما ليس فيه كتاب ولا سنة ولا إجماع .

ثم هذا مشهور_ أيضاً_ في كل عصر لا يخلو عنه: مستدل بها أو ذاكر لأقوالهم في كتبه](٤) .

ـ وقد سبق العلائي_ رحمه الله_ في حكاية الإجماع هنا: أبو الحسن الأشعري_رحمه الله_، حيث قال في رسالته إلى أهل الثغر:

[الإجماع التاسع والأربعون: وأجمعوا على أن ما كان بينهم من الأمور الدنيا: لا يسقط حقوقهم كما لا يسقط ما كان بين أولاد يعقوب النبي عليه السلام من حقوقهم، **وعلى أنه لا يجوز لأحد أن يخرج عن أقاويل السلف فيما أجمعوا عليه، وعما اختلفوا فيه أو في تأويله لأن الحق لا يجوز أن يخرج عن أقاويلهم**](٥) .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [لم يزل أهل العلم في كل عصر، ومصر يحتجون بما هذا سبيله في فتاوى

---

(١) " الفتاوى١٠/٣٦٢: ٣٦٤ " .

(٢) " مسائل ابن هانئ٢/١٦٥ " .

(٣) " إعلام الموقعين٤/١٢٣ "، وقد استوفى العلائي الرد على الاعتراضات الواردة هنا، فلينظر: " إجمال الإصابة/٦٧: ٧٨ " .

(٤) " إجمال الإصابة/٦٦: ٦٧ " .

(٥) " رسالة إلى أهل الثغر/٣٠٦: ٣٠٧ " .

الصحابة وأقوالهم، ولا ينكره منكر منهم، وتصانيف العلماء: شاهدة بذلك، ومناظرتهم: ناطقة به .

قال بعض علماء المالكية: أهل الأعصار: مجمعون على الاحتجاج بما هذا سبيله، وذلك مشهور في رواياتهم، وكتبهم، ومناظراتهم، واستدلالاتهم .

ويمتنع والحالة هذه: إطباق هؤلاء كلهم على الاحتجاج بما لم يشرع الله ورسوله الاحتجاج به، ولا نصبَه دليلاً للأمة، فأي كتاب شئت من كتب السلف والخلف المتضمنة للحكم والدليل: وجدتَ فيه الاستدلال بأقوال الصحابة، ووجدت ذلك طرازها وزينتها، ولم تجد فيها_ قط_: ليس قول أبي بكر، وعمر: حجة، ولا يحتج بأقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفتاويهم، ولا ما يدل على ذلك .

وكيف يطيب قلب عالم يُقدم على أقوال من وافق ربه تعالى في غير حكم، فقال، وأفتى بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ونزل القرآن بموافقة ما قال_ لفظاً ومعنىً_: قولَ متأخر بعده، ليس له هذه الرتبة، ولا يدانيها، وكيف يظن أحد أن الظن المستفاد من فتاوى السابقين الأولين الذين شاهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا التأويل، وكان الوحي ينزل خلال بيوتهم، وينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرهم .

قال جابر: كنا نعزل، والقرآن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يعرف تأويله، فما عمل به من شئ: عملنا به، في حديث حجة الوداع .

فمستندهم في معرفة مراد الرب تعالى من كلامه: ما يشاهدونه من فعل رسوله، وهديه الذي هو يفصل القرآن ويفسره .

فكيف يكون أحد من الأمة بعدهم: أولى بالصواب منهم في شيء من الأشياء؛ هذا عين المحال][1] .

وقال الشاطبي_ رحمه الله_: [وذلك أن السلف والخلف من التابعين ومن بعدهم: يهابون مخالفة الصحابة، ويتكثرون بموافقتهم، وأكثر ما تجد هذا المعنى في علوم الخلاف الدائر بين الأئمة المعتبرين، فتجدهم إذا عينوا مذاهبهم: قووها بذكر من ذهب إليها من الصحابة، وما ذاك إلا لما اعتقدوا في أنفسهم وفي مخالفيهم من: تعظيمهم، وقوة مآخذهم دون غيرهم، وكبر شأنهم في الشريعة، وأنهم ممّا تجب: متابعتهم، وتقليدهم فضلاً عن النظر معهم فيما نظروا فيه][2] .

ــــ ولذلك كله، كان اتباع السلف، والتمسك بما جاء عنهم: شعارَ أهل السنة والجماعة، وطريقهم، وهديهم الفارق بينهم، وبين طوائف الضلال المختلفة .

قال أبو المظفر السمعاني_ رحمه الله_: [إنا أمرنا بالاتباع، وندبنا إليه، ونهينا عن الابتداع، وزجرنا عنه، **وشعار أهل السنة: اتباعهم للسلف الصالح**، وتركهم كل ما هو مبتدع محدث][3] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [من طريقة أهل السنة والجماعة: اتباع آثار رسول الله صلى الله

---

(1) " إعلام الموقعين٤/١٥٣ " .

(2) " الموافقات٤/٧٧ " .

(3) " الانتصار لأهل الحديث للسمعاني عن صون المنطق والكلام/١٥٨ " .

عليه وسلم: باطناً، وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: " عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة: بدعة، وكل بدعة: ضلالة " ...](١) .

ـــ وممّا ينبني على ما سبق: بطلانُ كل فهم لنصوص الكتاب، والسنة وردَ مخالفاً لما كان عليه السلف الصالح_ رضي الله عنهم_ إذ مثل هذا: خطأ قطعاً .

قال الإمام السجزي_ رحمه الله_ : [فأهل السنة: هم الثابتون على اعتقاد ما نقله إليهم السلف الصالح_ رحمهم الله_ عن الرسول صلى الله عليه وسلم **أو عن أصحابه_ رضي الله عنهم_ فيما لم يثبت فيه نص في الكتاب، ولا عن الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم رضي الله عنهم أئمة أمرنا باقتداء آثارهم، واتباع سنتهم، وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى إقامة برهان ...**

إلى أن قال_ رحمه الله_:

وإذا كان الأمر كذلك، فكل مدع للسنة يجب أن يُطالب بالنقل الصحيح بما يقوله، فإن أتى بذلك: علم صدقه، وقبل قوله، **وإن لم يتمكن من نقل ما يقوله عن السلف:** عُلم أنه محدِث، زائغ، وأنه لا يستحق أن يصغى إليه أو يناظر في قوله](٢) .

ــ(فإن هؤلاء الذين أدركوا هذه المدارك، وعبروا على هذه المسالك(٣): إما أن يكونوا قد أدركوا من فهم الشريعة ما لم يفهمه الأولون أو حادوا عن فهمها، وهذا الأخير: هو الصواب إذ المتقدمون من السلف الصالح: هم كانوا على الصراط المستقيم ولم يفهموا من الأدلة المذكورة وما أشبهها إلا ما كانوا عليه، وهذه المحدثات: لم تكن فيهم، ولا عملوا بها: فدل على أن تلك الأدلة لم تتضمن هذه المعاني المخترعة بحال، وصار عملهم بخلاف ذلك: دليلاً إجماعياً على أن هؤلاء في استدلالهم وعملهم: مخطئون، ومخالفون للسنة...

فيقال لمن استدل بأمثال ذلك: هل وجد هذا المعنى الذي استنبطت في عمل الأولين أو لم يوجد ؟ .

فإن زعم أنه لم يوجد، ولا بد من ذلك: فيقال له: أفكانوا غافلين عمّا تنبهت له أو جاهلين به أم لا ؟ .

ولا يسعه أن يقول بهذا لأنه فتحٌ لباب الفضيحة على نفسه، وخرقٌ للإجماع، وإن قال: إنهم كانوا عارفين بمآخذ هذه الأدلة كما كانوا عارفين بمآخذ غيرها .

قيل له: فما الذي حال بينهم، وبين العمل بمقتضاها على زعمك حتى خالفوها إلى غيرها ؟ .

ما ذاك إلا لأنهم اجتمعوا فيها على الخطأ دونك أيها المتقول، والبرهان الشرعي، والعادي دال على عكس القضية، فكل ما جاء مخالفاً لما عليه السلف الصالح: **فهو الضلال بعينه**)(٤) .

---

(١) " الفتاوى٣/١٥٧ " .

(٢) " رسالة السجزي لأهل زبيد فيمن أنكر الحرف والصوت/٩٩ " . طُبع بالمجلس العلمي بالجامعة الإسلامية سنة ١٤١٣هــ.

(٣) أي: مدارك، ومسالك فهم النصوص المحدثة، المخالفة لما ورد عن السلف الصالح_ رضي الله عنهم_ .

(٤) " الموافقات٣/٧٣ " .

قال ابن رجب_ رحمه الله_: [من عرف قدر السلف: عرف أن سكوتهم عمّا سكتوا عنه من ضروب الكلام، وكثرة الجدال والخصام، والزيادة في البيان على مقدار الحاجة: لم يكن عيّاً، ولا جهلاً، ولا قصوراً، و إنما كان ورعاً، وخشيةً لله، واشتغالاً عمّا لا ينفع بما ينفع، وسواء ذلك كلامهم في أصول الدين وفروعه][1] .

وقال_ رحمه الله_ أيضاً_: [وأما ما كان مخالفاً لكلامهم: فأكثره باطل أو لا منفعة فيه، وفي كلامهم في ذلك: كفاية وزيادة، فلا يوجد في كلام من بعدهم من حق: إلا و هو في كلامهم موجود بأوجز لفظ، وأقصر عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم باطل: إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمّله][2] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [من فسّر القرآن أو الحديث وتأوّله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين: فهو مفتر على الله، ملحد في آيات الله، محرِّف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالإضطرار من دين الإسلام][3] .

ـــــ ومن ثم: فأهل الطائفة المنصورة يولّون وجوههم شطر ما عليه الصحابة_رضي الله عنهم_، ويحرصون أشد الحرص على موافقتهم، ومتابعتهم ولو خالفوا في ذلك أهلَ الأرض كافة .

قال الغزالي_ رحمه الله_ فيما يجب على طالب العلم: [ومنها أن يكون شديد التّوقي من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور، فلا يغرّنه إطباق الخلق على ما أُحدث بعد الصحابة_ رضي الله عنهم_، وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة، وسيرتهم، وأعمالهم ...

إلى أن قال:

واعلم_ تحقيقاً_ أن أعلم أهل الزمان، وأقربهم إلى الحق: أشبههم بالصحابة، وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أُخِذَ الدين ...

إلى قوله:

فلا ينبغي أن يكترث بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم][4] .

ـــــ وكما يدرك أهل الطائفة المنصورة أن التمسك بما كان عليه الصحابة_ رضي الله عنهم_ من العلم، والعمل: من أركان الاعتصام بالكتاب والسنة: فإنهم يدركون بالمقابل: أن جهل المتأخرين بما كان عليه الصحابة_ رضي الله عنهم_ من العلم، والعمل من أعظم اسباب الضلال، والانحراف، والأحداث في دين الله كما سبق معنا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [وأما المتأخرون الذين لم يتحروا متابعتهم، وسلوك سبيلهم، ولا لهم خبرة بأقوالهم، وأفعالهم بل هم في كثير ممّا يتكلمون به في العلم، ويعملون به: لا يعرفون طريق

---

(1) " فضل علم السلف لابن رجب/١٦١ " .

(2) " المرجع السابق/١٤٧ " .

(3) " مجموع الفتاوى١٣/٢٤٣ " .

(4) " إحياء علوم الدين١/٩٥ " .

الصحابة والتابعين في ذلك ...

إلى أن قال:

كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك: يحكون إجماعاً، ونزاعاً، ولا يعرفون ما قال السلف في ذلك ألبته بل قد يكون قول السلف خارجاً عن أقوالهم ...

إلى أن قال:

لأن كثيراً من أصول المتأخرين: مُحدَثٌ، مبتدع في الإسلام، مسبوق بإجماع السلف على خلافه، والنزاع الحادث بعد إجماع السلف: خطأ قطعاً][١] .

وقال_ رحمه الله_: [وقد عدلت المرجئة في هذا الأصل عن بيان الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، واعتمدوا على رأيهم، وعلى ما تأوّلوه بفهمهم اللغة، **وهذه طريقة أهل البدع**، ولهذا كان الإمام أحمد يقول: أكثر ما يخطيء الناس من جهة التأويل، والقياس .

ولهذا نجد المعتزلة، والمرجئة، والرافضة، وغيرهم من أهل البدع: يفسرون القرآن برأيهم، ومعقولهم، وما تأوّلوه من اللغة، ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين، فلا يعتمدون لا على السنة، ولا على إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون على العقل، واللغة][٢] .

(وإذا كان الأمر كذلك؛ فكل مدع للسنة يجب أن يطالب بالنقل الصحيح بما يقوله، فإن أتى بذلك: علم صدقه، وقبل قوله، وإن لم يتمكن من نقل ما يقوله عن السلف: علم أنه محدِث زائغ، وأنه لا يستحق أن يصغى إليه أو يناظر في قوله)(٣) .

ــ(فانظر_ رحمك الله_ كل من سمعت كلامه من أهل زمانك خاصة: فلا تعجلن، ولا تدخلن في شيء منه حتى تسأل، وتنظر هل تكلم فيه أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد من العلماء، فإن أصبت فيه أثراً عنهم: فتمسك به، ولا تجاوزه لشيء، ولا تختر عليه شيئاً: فتسقط في النار)[٤] .

ـــــ وبهذا؛ نكون قد انتهينا_ بحمد الله_ من الحديث عن أركان الاعتصام بالكتاب، والسنة، وهذه الأركان الثلاثة: هي الأصول التي تبني عليها الطائفة المنصورة دينها: علماً، وعملاً دون سواها، (فمن أخذ في مثل هذه المحجة، وداوم بهذه الحجج على منهاج الشريعة: أَمِنَ في دينه التبعة في العاجلة والآجلة، وتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، واتقى بالجنة التي يتقي بمثلها: ليتحصن بحمايتها، ويستعجل بركتها، ويحمد عاقبتها في المعاد، والمآل_ إن شاء الله_، ومن أعرض عنها، وابتغى في غيرها ممّا يهواه أو يروم

---

(١) " الفتاوى١٣/٢٥: ٢٦ "

(٢) " الفتاوى٧/١١٨: ١١٩ " .

(٣) " رسالة السجزي لأهل زبيد فيمن أنكر الحرف والصوت/٩٩ " .

(٤) " شرح السنة/٢٣ " .

سواها ممّا تعداه: أخطأ في اختيار بغيته، وأغواه وسلكه سبيل الضلالة، وأرداه في مهاوي الهلكة)[1] .

ـ وبقي معنا هنا الحديث عن شيء من قواعد الاعتصام بالكتاب، والسنة، وهو موضوع الفصل التالي؛ فنقول بحول الله، وطوله:

الفصل الثالث

من قواعد الاعتصام بالكتاب والسنة عند الطائفة المنصورة

ــــ توطئة:

لأهل الطائفة المنصورة جملة من القواعد التي يتمسكون بها في اعتصامهم بالكتاب والسنة، وهذه القواعد_بإذنه تعالى_ عاصمة من الزلل، واقية من الخلل، مجنبة للسبل التي حذّر الشرع منها، وأمر باجتنابها .

وهذه القواعد: هي قواعد أهل السنة والجماعة التي تميزوا بها عن غيرهم في تعاملهم مع الكتاب والسنة، والتي تمثل بمجموعها: منهج أهل السنة والجماعة في النظر والاستدلال، ومن أهم هذه القواعد ما يلي:

([1]) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة١/١٠ " .

المبحث الأول

القاعدة الأولى

التسليم المطلق للنصوص والإذعان لها

وهذا التسليم: هو عمدة أهل الطائفة المنصورة، وأعظم ما يميزهم في تعاملهم مع نصوص الوحيين، فلا ينطلق أهل الطائفة المنصورة في تعاملهم مع الكتاب والسنة من مقررات سابقة من نتاج عقول البشر، وآرائهم، وأوهامهم يُحاكم لها الوحي ويَخضع كما لا ينطلقون من إرادات قد فُرغ منها: فتُطوّع لها النصوص، وتلوى لها أعناقها بل وتكسر لتنطق_ ظلماً وزوراً_ بتلك الإرادات المبيّتة، وهو: عين اتباع

الهوى .

فلئن كان منهج الطائفة المنصورة: التسليم المطلق للنصوص، والإذعان، والانقياد لها، فإن المبتدعة_ قديماً، وحديثاً_ على اختلاف بدعهم (سلكوا طريقاً آخر ابتدعوها، اعتمدوا عليها، ولا يذكرون الحديث بل ولا القرآن في أصولهم إلا للاعتضاد لا للاعتماد)(١) .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [ولذلك سمي أهل البدع: أهل الأهواء، لأنهم اتبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية: مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها حتى يصدروا عنها بل قدموا أهوآءهم، واعتمدوا على آرائهم ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك .

وأكثر هؤلاء: هم أهل التحسين والتقبيح، ومن مال إلى الفلاسفة، وغيرهم، ويدخل في غمارهم من كان منهم يخشى(٢) السلاطين لنيل ما عندهم أو طلباً للرياسة: فلا بد أن يميل مع الناس بهواهم، ويتأوّل عليهم فيما أرادوا](٣) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن، والإيمان، فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف، صار أهل التفرق والاختلاف: شيعاً؛ صار هؤلاء عمدتهم في الباطن: ليست على القرآن، والإيمان ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم، عليها يعتمدون في التوحيد، والصفات، والقدر، والإيمان بالرسول، وغير ذلك، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن: احتجوا به، وما خالفها: تأولوه .

فلهذا، تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث: لم يعتنوا بتحرير دلالتهما، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر على غير ذلك، والآيات التي تخالفهم: يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن، **ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها**](٤) .

وتأمّل قول شيخ الإسلام_ رحمه الله_: [والآيات التي تخالفهم: يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها]: تجد أنه الغاية في الانطباق على كثير من أهل الإسلام اليوم لا من عوامهم بل من خواصهم: أهلِ العلم والديانة، ولله الأمر من قبل، ومن بعد .

ـــــ والاستسلام، والإذعان، والانقياد المطلق للوحي: هو حقيقة دين الله_ الإسلام_ الذي جاء به جميع الأنبياء، والمرسلين من لدن آدم إلى محمد صلوات ربي وسلامه عليهم جميعاً:

* قال تعالى: { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ الله فَإِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا

(١) " منهاج السنة النبوية٧/٣٧ " .

(٢) الأشبه بالسياق: يغشى ! .

(٣) " الاعتصام٢/٣٩٨: ٣٩٩ " .

(٤) " الفتاوى١٣/٥٨: ٥٩ " .

الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } [آل عمران: ١٩_٢٠] .

قال ابن جرير الطبري_ رحمه الله_: [ومعنى الدين في هذا الموضع: الطاعة، والذلة من قول الشاعر:

ويوم الحزن إذ حشدت معد   وكان الناس إلا نحن دينا .

يعني بذلك: مطيعين على وجه الذل، ومنه قول القطامي: كانت نوار تدينك الأديانا .

يعني: تذلك، وقول الأعشى_ ميمون بن قيس_: هو دان الرباب إذ كرهوا   الدين دراكا بغزوة وصيال .

يعني بقوله: دان: ذلل، وبقوله: كرهوا الدين: الطاعة .

وكذلك الإسلام، وهو: **الانقياد بالتذلل، والخشوع**، والفعل منه: أسلم، بمعنى: دخل في السلم كما يقال أقحط القوم: إذا دخلوا في القحط، وأربعوا: إذا دخلوا في الربيع: فكذلك أسلموا: إذا دخلوا في السلم، وهو: **الانقياد بالخضوع، وترك الممانعة**](1) .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يخبر تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ }، أي: الدين الذي لا دين له سواه، ولا مقبول غيره: هو { الْإِسْلَامُ }، وهو: **الانقياد لله وحده: ظاهراً، وباطناً بما شرعه على ألسنة رسله،** قال تعالى: { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }، فمن دان بغير دين الإسلام: فهو لم يدن لله حقيقة لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على ألسنة رسله ...

{ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } .

لمّا بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبي صلى الله عليه وسلم بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة، فعاندوها؛ أمره الله تعالى عند ذلك أن يقول ويعلن: أنه أسلم وجهه، أي: **ظاهره، وباطنه لله، وأن من اتبعه: كذلك قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص ...**](2) .

* وقال تعالى: { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ **فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** } [الحج: ٣٤] .

قال ابن جرير_ رحمه الله_: [وقوله: { فله أسلموا }، يقول الباري: فاخضعوا بالطاعة، وله فذلوا بالإقرار بالعبودية، وقوله: { وبشر المخبتين }، يقول تعالى ذكره: وبشر يا محمد الخاضعين لله بالطاعة، المذعنين له بالعبودية، المنيبين إليه بالتوبة](3) .

وقال القرطبي_ رحمه الله_: [قوله تعالى: { فله أسلموا }، معناه: لِحقه، ولوجهه، وإنعامِه: آمنوا وأسلموا،

---

(1) " تفسير الطبري٣/٢١١: ٢١٢ " .

(2) " تفسير السعدي/٦٩ " .

(3) " تفسير الطبري١٧/١٦١ " .

ويحتمل أن يريد الاستسلام، أي: له أطيعوا، وانقادوا .

قوله تعالى: { وبشر المخبتين }، المخبت: المتواضع، الخاشع من المؤمنين، والخبت ما انخفض من الأرض][1] .

وقال ابن كثير_ رحمه الله_: [{ فله أسلموا }، أي: أخلصوا، واستسلموا لحكمته، وطاعته، { وبشر المخبتين}، قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين، وقال السدي: الوجلين، وقال عمرو بن إدريس: المخبتين: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا: لم ينتصروا، وقال الثوري: { وبشر المخبتين }، قال: المطمئنين، الراضين بقضاء الله، المستسلمين له][2] .

وقد قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ فَلَهُ أَسْلِمُوا }، أي: **انقادوا، واستسلموا له لا لغيره**، فإن الإسلام: طريق الوصول إلى دار السلام، { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } بخير الدنيا، والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده][3] .

* وقال تعالى: { **وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ** مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } [الزمر: ٥٤_٥٥] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ }: بقلوبكم، { وَأَسْلِمُوا لَهُ }: بجوارحكم][4] .

* وقال تعالى: { قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [غافر: ٦٦] .

فأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه: إني ({ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } بقلبي، ولساني، وجوارحي بحيث تكون منقادة لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق)[5] .

* وقال تعالى: { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ الله اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ **إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

* وقال تعالى: { ومَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ **أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلَّهِ** وهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً واتَّخَذَ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً } .

---

(1) " تفسير القرطبي١٢/٥٨ " .

(2) " تفسير ابن كثير٣/٢٢٢ " .

(3) " تفسير السعدي/٣٨٤ " .

(4) " تفسير السعدي/٥٣٢ " .

(5) " تفسير السعدي/٥٤٤ " .

* وقال تعالى: { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ **أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ** وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

والآيات في الأمر بالاستسلام لله وحده، والانقياد لأمره، ووحيه: كثيرة جداً .

ــ وقد قال تعالى: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } .

وقوة ألفاظ هذه الآية لا تدع شكاً في وجوب الاستسلام، والإذعان، والانقياد المطلق لكلام الله سبحانه وتعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم مع ترك المعارضة برأي أو قياس أو سياسة أو مصلحة لم يشهد لها الشرع، وإنما هو: الرضا، والتسليم التام لا غير .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكّم الرسولَ صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور: **فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة، ولا مدافعة، ولا منازعة**][(1)] .

وقال ابن القيم_ رحمه الله_: [أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يُحكّموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول، والفروع، وأحكام الشرع، وأحكام المعاد، وسائر الصفات، وغيرها، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم: حتى ينتفي عنهم الحرج، وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح، وتنفسح له كل الانفساح، وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك_أيضاً_ **حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى، والتسليم، وعدم المنازعة، وانتفاء المعارضة، والاعتراض**][(2)] .

* وقد قال تعالى: { وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله فقد ضل ضلالاً مبيناً } .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء: **فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ههنا، ولا رأي، ولا قول** كما قال تبارك وتعالى: { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلموا تسليماً }، وفي الحديث: " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به "، ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: { ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً }، كقوله تعالى: { فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم }][(3)] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخيَّر

---

(1) " تفسير ابن كثير ٥٢١/١ " .

(2) " التبيان في أقسام القرآن/٢٧٤ " .

(3) " تفسير ابن كثير ٤٩١/٣ " .

بعد ذلك: فقد ضل ضلالاً مبيناً](١) .

ــ وقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا بأفواههم لكلام الله سبحانه وتعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم: " سمعنا " مع كونها في حقيقة الأمر: دعوى لا تتجاوز الفم، فحقيقة الحال: أنهم: " لا يسمعون " بل هم: معرضون .

* قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } [الأنفال: ٢٠_٢١] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [لمّا أخبر تعالى أنه مع المؤمنين: أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون معيته، فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ } بامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، { وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ }، أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله، { وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكم في هذه الحال: من أقبح الأحوال .

{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ }، أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها، فإنها حالة لا يرضاها الله، ولا رسوله؛ فليس الإيمان بالتمني والتحلي ولكنه ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال](٢) .

فأنزل الله تعالى مَنْ سمع كلامَه سبحانه، وكلامَ رسوله صلى الله عليه وسلم ثم أعرض وتولى، ولم يذعن ويخضع ويسلم: منزلة من لم يسمع أصلاً إذ لم يفده سمعه، وعقله: الإذعانَ، والخضوع، والاستسلام، والتسليم لكلام الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فهي أسماع، وعقول: كعدمها .

* وقد قال تعلى: { لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [الأعراف: ١٧٩] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا }، أي: لا يصل إليها فقه، ولا علم إلا مجرد قيام الحجة، { وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا } ما ينفعهم بل فقدوا منفعتها، وفائدتها، { وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا} سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم، { أُولَئِكَ } الذين بهذه الأوصاف القبيحة { كَالْأَنْعَامِ }، أي: البهائم، التي فقدت العقول](٣) .

فوظيفة العقول: أن تعقل عن الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم لا غير .

ــ كما دلّ قوله تعالى: { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [البقرة: ١٤٢] .

(على أنه لا يعترض على أحكام الله: إلا سفيه، جاهل، معاند، وأما الرشيد، المؤمن، العاقل: فيتلقى أحكام

---

(١) " إعلام الموقعين ٥١/١ " .

(٢) " تفسير السعدي/٢١٣ " .

(٣) " تفسير السعدي/٢٠٦ " .

ربه بالقبول، والانقياد، والتسليم)[1] .

ـ وقد وصف الله المؤمنين بأن حالهم مع الكتاب، والسنة: هو الاستسلام، والانقياد التام، فما أن يسمعوا كلام الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم إلا بادروا قائلين: " سمعنا وأطعنا " مع الإنابة، والإخبات لرب الأرض والسموات .

* قال تعالى: { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ **وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** } [البقرة: ٢٨٥] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [وقوله: { وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا }: هذا التزام من المؤمنين **عام لجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه: سماعَ قبول، وإذعان، وانقياد**][2] .

* وقال تعالى_ أيضاً_: { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ **يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ الله وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } [النور: ٥١] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ } حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم { إِذَا دُعُوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ } سواء وافق أهواءهم أو خالفها: { أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا }، أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج، { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}: حَصَرَ الفلاحَ فيهم لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حَكّم اللهَ ورسوله، وأطاع الله ورسوله][3] .

* وقد قال تعالى: { ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً } [النساء: ١١٥] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_ في تفسيره للآية السابقة: [أي: ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق، وتبين له، واتضح له][4] .

ولا شك في أن من عارض نصوص الوحي بمعقوله، ورأيه، واستحسانه، ولم يذعن للنصوص، ويستسلم: فقد صار في شق، والشرع في شق آخر .

قال القرطبي_ رحمه الله_: [والمشاقة: المعاداة، والآية وإن نزلت في سارق الدرع أو غيره: **فهي عامة في كل من خالف طريق المسلمين، والهدى، والرشد، والبيان**][5] .

([1]) " تفسير السعدي/٢٩ " .

([2]) " تفسير السعدي/٦٧ " .

([3]) " تفسير السعدي/٤١٠ " .

([4]) " تفسير ابن كثير ١/٥٥٥: ٥٥٦ " .

([5]) " تفسير القرطبي٥/٣٨٥: ٣٨٦ " .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أي: ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعانده فيما جاء به { مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى } بالدلائل القرآنية، والبراهين النبوية، { وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ }، وسبيلهم: هو طريقهم في عقائدهم، وأعمالهم.

{ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى }، أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله، فلا نوفقه للخير لكونه رأى الحق وعَلِمه، وتركه، فجزاؤه من الله عدلاً: أن يبقيه في ضلاله حائراً، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله](١) .

* وفي قوله تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا الله وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال:١٣] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [{ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله }، أي: خالفوهما، فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق، ومأخوذ_ أيضاً_ من شق العصا، وهو جعلها فرقتين، { ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب }، أي: هو الطالب، الغالب لمن خالفه وناوأه: لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء: تبارك وتعالى، لا إله غيره، ولا رب سواه](٢) .

ـ وإنما كان من عارض نصوص الوحي بمعقوله، ورأيه، واستحسانه، ولم يذعن للنصوص، ويستسلم: مشاقاً لله ورسوله صلى الله عليه وسلم لأن التسليم: (هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر أو شهوة تعارض الأمر أو إرادة تعارض الإخلاص أو اعتراض يعارض القدر، والشرع، وصاحب هذا التوجه هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، فإن التسليم ضد المنازعة)(٣) .

ولذا؛ كان من عقد أهل السنة: أنه (لا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم، والاستسلام)(٤) .

قال ابن أبي العز الحنفي_ رحمه الله_: [أي: لا يثبت إسلام من لم يسلّم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها، ولا يعارضها برأيه، ومعقوله، وقياسه](٥) .

ـــ وقد ضرب أئمة الطائفة المنصورة من الصحابة، والتابعين، ومن اتبعهم بإحسان أروع صور الإذعان، والخضوع، والانقياد، والاستسلام التام لكلام الله سبحانه وتعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم:

* عن رافع بن خديج_ رضي الله عنه_، قال: " كنا نحاقل الأرض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: فنكريها بالثلث، والربع، والطعام المسمى، فجاءنا ذات يوم رجل من عمومتي، فقال: نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم **عن أمر كان لنا نافعاً، وطواعية الله ورسوله: أنفع لنا،** نهانا أن نحاقل الأرض، فنكريها على الثلث، والربع، والطعام المسمى، وأمر رب الأرض أن يَزْرَعها أو يُزْرِعها، وكره كراءها، وما

---

(١) " تفسير السعدي/١٢٠ " .

(٢) " تفسير ابن كثير٢/٢٩٤ " .

(٣) " مدارج السالكين٢/١٤٧ " .

(٤) " شرح العقيدة الطحاوية/٢٠١ " .

(٥) " شرح العقيدة الطحاوية/٢٠١ " .

سوى ذلك "[١] .

فتأمّل قول الصحابي_ رضي الله عنه_: " عن أمر كان لنا نافعاً، وطواعية الله ورسوله: أنفع لنا ": فالصحابي يصرح بأنهم كانوا يرون ما نهىهم عنه صلى الله عليه وسلم: " نافعاً " إلا أنهم رغم ذلك تركوه استجابة لكلامه صلى الله عليه وسلم وإن كان في ذلك مخالفة لما يستحسنون أو يستصلحون إذ هم يوقنون بأن " طواعية الله ورسوله: أنفع لهم "، فما كان لهم_ رضي الله عنهم_ أن يقابلوا كلامَ الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم باستحسان أو استصلاح أو غير ذلك من المعارضات، فقد رسخ في قلوبهم، واستقر: أن الخير كل الخير في الدنيا، والآخرة: إنما هو في اتباع المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه، ومن ثم: فليس إلا: الإذعان، والانقياد، والتسليم المطلق، وهو: سرّ عظمتهم، وسؤددهم .

* وفي رواية: عن رافع أن ظهير بن رافع_ وهو عمه_، قال: " أتاني ظهير، فقال: لقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن **أمر كان بنا رافقاً .**

فقلت: وما ذاك ؟، **ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهو حق** ... " الحديث[٢] .

فهو اليقين الكامل بأن كلام الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم: هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه .

ـــــ ولذا، لم يكونوا_ رضي الله عنهم_ يقبلون من أحدٍ أيّاً كان أن يعارض النص برأيه أو معقوله أو قياسه أو استحسانه أو استصلاحه أو غير ذلك من المعارضات التي ترد من أجلها النصوص بل كانوا_ رضوان الله عليهم_ ينكرون، ويشتد نكيرهم على كل من عارض النصوص برأي أو تأويل .

* عن أبي قتادة، حدث قال: " كنا عند عمران بن حصين في رهط منا، وفينا بشير بن كعب، فحدثنا عمران يومئذ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحياء خير كله، قال: أو قال: الحياء كله خير .

فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة: أن منه سكينة ووقاراً لله، ومنه ضعف .

قال: **فغضب عمران حتى احمرتا عيناه، وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعارض فيه .**

قال: فأعاد عمران الحديث، قال: فأعاد بشير .

فغضب عمران .

قال: فما زلنا نقول فيه: **إنه منا يا أبا نجيد، إنه لا بأس به** "[٣] .

* وفي رواية: فقال عمران: " أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحدثني عن صحفك "[١] .

([١]) " مسلم٣/١١٨١ " .

([٢]) " مسلم٣/١١٨٢ " .

([٣]) " مسلم١/٦٤ " .

قال النووي_ رحمه الله_: [وأما إنكار عمران_ رضى الله عنه_ فلكونه قال: " منه ضعف " بعد سماعه قول النبي صلى الله عليه وسلم أنه خير كله، ومعنى تعارض: تأتى بكلام في مقابلته، وتعترض بما يخالفه .

وقولهم: " إنه منا، لا بأس به "، معناه: **ليس هو ممن يتهم بنفاق أو زندقة أو بدعة أوغيرها ممّا يخالف به أهل الاستقامة**](٢) .

فالمقرر عندهم أنه لا يعارض النصوص من كلام الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ويدفع في صدورها بالمعارضة إلا من كان متهماً في دينه بنفاق أو زندقة أو بدعة، أما أهل الاستقامة: فحاشاهم ثم حاشاهم .

* وعن عبادة بن الصامت_ رضي الله عنه_ أنه غزى مع معاوية_ رضي الله عنه_ أرض الروم، فنظر إلى الناس وهم يتبايعون: كسر الذهب بالدنانير، وكسر الفضة بالدراهم، فقال: " يا أيها الناس، إنكم تأكلون الربا، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تبتاعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل لا زيادة بينهما، ولا نظرة .

فقال له معاوية_ رضي الله عنه_: يا أبا الوليد، لا أرى الربا في هذا إلا ما كان من نظرة .

فقال عبادة_ رضي الله عنه_: أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحدثني عن رأيك، لئن أخرجني الله: لا أساكنك بأرض لك عليّ فيها إمرة .

فلمّا قفل، لحق بالمدينة، فقال له عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_: ما أقدمك يا أبا الوليد، فقص عليه القصة، وما قال من مساكنته .

فقال: ارجع يا أبا الوليد إلى أرضك، فقبح الله أرضاً ليست فيها أمثالك، وكتب إلى معاوية: لا إمرة لك عليه، واحمل الناس على ما قال، فإنه هو الأمر "(٣) .

* وعن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر، قال: " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها .

قال: فقال بلال بن عبد الله بن عمر: والله لنمنعهنَّ .

قال: فأقبل عليه عبد الله: فسبَّه سبّاً سيئاً ما سمعته سبَّه مثله قط، وقال: أُخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقول والله لنمنعهنّ "(٤) .

قال النووي_ رحمه اله_: [" فسبه سباً سيئاً "، وفي رواية: " فزبره "، وفي رواية: " فضرب في صدره ":

---

(١) " مسلم١/٦٤ " .

(٢) " شرح مسلم٢/٨ " .

(٣) " سنن ابن ماجه١/٨ " .

(٤) " مسلم١/٣٢٧ " .

فيه تعزير المعترض على السنة، والمعارض لها برأيه][1] .

* وعن الزبير بن عربي، قال: " سأل رجلٌ ابن عمر_ رضي الله عنهما_ عن استلام الحجر، فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه، ويقبله .

فقال الرجل: أرأيت إن زحمت ؟!، أرأيت إن غلبت ؟! .

فقال ابن عمر_ رضي الله عنهما_: اجعل أرأيت باليمن، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله"[2] .

قال الحافظ ابن حجر_ رحمه الله_ في قول ابن عمر للرجل: " اجعل أرأيت باليمن":

[وإنما قال له ذلك لأنه **فهم منه معارضة الحديث بالرأي**: **فأنكر عليه ذلك، وأمره إذا سمع الحديث: أن يأخذ به، ويتقي الرأي**][3] .

* وعن سعيد بن جبير_ رحمه الله_ أن قريباً لعبد الله بن مغفل_ رضي الله عنه_ خذف، قال: " فنهاه، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف، وقال: إنها لا تصيد صيداً، ولا تنكأ عدواً، ولكنها: تكسر السن، وتفقأ العين .

قال: فعاد، فقال: أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه ثم تخذف، لا أكلمك أبداً "[4] .

قال النووي_ رحمه الله_: [قوله: " أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف ثم تخذف، لا أكلمك أبداً ": فيه هجران أهل البدع، والفسوق، ومنابذى السنة مع العلم، وأنه يجوز هجرانه دائماً، والنهى عن الهجران فوق ثلاثة أيام إنما هو فيمن هَجرَ لحظ نفسه، ومعايش الدنيا، وأما أهل البدع ونحوهم: فهجرانهم دائماً، وهذا الحديث ممّا يؤيده مع نظائر له كحديث كعب بن مالك، وغيره][5] .

* وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_، قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: توضؤوا ممّا مست النار، ولو من ثور أقط .

فقال ابن عباس[6]_ رضي الله عنه_: يا أبا هريرة، فإنا ندهن بالدهن وقد سخن بالنار، ونتوضأ بالماء وقد

([1]) " شرح مسلم٤/١٦٢ " .

([2]) " البخاري٢/٥٨٣ " .

([3]) " الفتح٣/٤٧٦ " .

([4]) " مسلم٣/١٥٤٨ "، " البخاري٥/٢٠٨٨ " .

([5]) " شرح مسلم١٣/١٠٦ " .

(٦) وابن عباس_ رضي الله عنهما_ لم يقصد أبداً معارضة حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو_ رضي الله عنه_ يُدلل على ما ثبت عنده عن النبي صلى الله عليه وسلم من نسخ ذلك ممّا لم يبلغ أبا هريرة_ رضي الله عنه_، انظر: " صحيح مسلم١/٢٧٣: ٢٧٥ " .

وفي " المسند المستخرج على صحيح مسلم١/٣٩٦ " عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: كنت مع ابن عباس في بيت ميمونة، فجعل

سخن بالنار ! .

فقال أبو هريرة_ رضي الله عنه_: يا ابن أخي إذا سمعت الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم: **فلا تضرب له الأمثال** "(١) .

* وقال أبو السائب: كنا عند وكيع، فقال لرجل عنده ممن ينظر في الرأي: " أشعر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ويقول أبو حنيفة(٢): هو مُثلة .

قال الرجل: فإنه قد رُوي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الإشعار مُثلة .

قال: فرأيت وكيعاً **غضب غضباً شديداً**، وقال: أقول لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقول: قال إبراهيم، ما أحقك بأن تحبس ثم لا تخرج حتى تنزع من قولك هذا "(٣) .

قال المباركفوري_ رحمه الله_: [وإنما غضب وكيع على ذلك الرجل الذي كان ينظر في الرأي لأنه عارض الحديث النبوي بقول ابراهيم النخعي](٤) .

* وعن الإمام أحمد_ رحمه الله_، قال: " بلغ ابنَ أبي ذئب أن مالكاً لم يأخذ بحديث: " البيعان بالخيار "، فقال: يستتاب في الخيار فإن تاب وإلا ضربت عنقه "(٥) .

* وعن إسحاق بن راهويه_ رحمه الله_ أنه قال: " من بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر يقر بصحته ثم ردّه بغير تقيَّة: فهو كافر "(٦) .

* وعن الإمام البخاري_ رحمه الله_، قال: " دخلت على الحميدي، وأنا ابن ثمان عشرة سنة وبينه وبين آخر اختلاف في حديث، فلما بصر بي الحميدي، قال: قد جاء من يفصل بيننا، فعرضا عليّ: فقضيتُ للحميدي على من يخالفه، ولو أن مخالفه أصر على خلافه ثم مات على دعواه: لمات كافراً "(٧) .

يتعجب ممن يزعم أن الوضوء ممّا مست النار ثم قال: لقد رأيتني في هذا البيت عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد توضأ، ولبس ثيابه، فجاءه المؤذن فخرج إلى الصلاة حتى إذا كان في الحجرة خارجاً من البيت، لقيه هدية عضو من شاة: فأكل منه لقمة أو لقمتين ثم صلى ولم يتوضأ " .

(١) " شرح معاني الآثار ٦٣/١ "، وانظر: " سنن ابن ماجه١/١٠، ١٦٣ "، " مصنف عبد الرزاق١/١٧٤ "

(٢) أبو حنيفة، ومثله إبراهيم النخعي_ رحمهما الله_ لم يبلغهما ثبوت الإشعار عن النبي صلى الله عليه وسلم، انظر: " تحفة الأحوذي٣/٥٥٧ " .

(٣) " الترمذي٣/٢٤٩ "، " الفقيه والمتفقه١/١٤٩ " .

(٤) " تحفة الأحوذي٣/٥٥٧ " .

(٥) " طبقات الحنابلة١/٢٥١ "، قال أبو يعلى_ رحمه الله_: [ومالك لم يردَّ الحديث ولكن تأوله على غير ذلك] .

(٦) " الإحكام لابن حزم١/٩٧ " .

(٧) " سير أعلام النبلاء١٢/٤٠١ " .

* وقال البربهاري_ رحمه الله_: " إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار أو يرد الآثار أو يريد غير الآثار: فاتهمه على الإسلام، ولا تشك أنه صاحب هوى، مبتدع "(١) .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [كان السلف الطيب يشتد نكيرهم، وغضبهم على من عارض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي أو قياس أو استحسان أو قول أحد من الناس كائناً من كان، ويهجرون فاعل ذلك، وينكرون على من يضرب لهم الأمثال، ولا يسوِّغون غير الانقياد له، والتسليم، والتلقي بالسمع والطاعة، ولا يخطر بقلوبهم التوقُّف في قبوله حتى يشهد له عمل أو قياس أو يوافق قول فلان وفلان بل كانوا عاملين بقوله تعالى: { وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم }، وبقوله تعالى: { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلموا تسليما }، وأمثالها](٢) .

ـــ ولقد كان السلف_ رضوان الله عليهم_ يسارعون إلى العمل بالنصوص، والانقياد، والإذعان، والتسليم لها: ظهر لهم وجه الحكمة أم لا، فقهوا معناه أم جهلوه إذ هو اليقين الذي تنشرح به الصدور، وتطمئن أن الحق، كل الحق في الدين المنزل .

* عن معاذة، قالت: " سألت عائشة_ رضي الله عنها_، فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة ؟ .

فقالت_ رضي الله عنها_: **أحرورية أنت ؟!** .

قلت: لست بحرورية، ولكني أسأل .

قالت: كان يصيبنا ذلك: فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة "(٣) .

* وعن الشعبي، قال: جاء رجل إلى شريح، فسأله عن دية الأصابع، فقال:

" في كل أصبع عشرة إبل .

فقال الرجل: سبحان الله !، هذه وهذه: سواء_ مشيراً إلى الإبهام، والخنصر_ . فقال شريح: ويحك!، إن السنة منعت القياس، اتبع ولا تبتدع "(٤) .

* وعن ربيعة، قال: " سألت سعيد بن المسيب: كم في أصبع المرأة ؟ .

قال: عشرة من الإبل .

قلت: ففي أصبعين ؟ .

---

(١) " شرح السنة/٥١ " .

(٢) " إعلام الموقعين٤/٢٤٤: ٢٤٥ " .

(٣) " مسلم١/٢٦٥ "، " البخاري١/١٢٢ " .

(٤) صححه الحافظ في " الفتح١٢/٢٢٦ " .

قال: عشرون .

قلت: ففي ثلاث ؟ .

قال: ثلاثون .

قلت: ففي أربع ؟ .

قال: عشرون .

قلت: حين عظم جرحها، واشتدت مصيبتها: نقص عقلها_ أي: ديتها_ .

فقال سعيد: أعراقي أنت ؟! .

فقال ربيعة: بل عالم متثبت أو جاهل متعلم .

قال سعيد: هي السنة يا ابن أخي "(١) .

* وقال رجل للزهري: " يا أبا بكر، حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس منا من لطم الخدود، وليس منا من لم يوقر كبيرنا، وما أشبه هذا الحديث ؟! .

فأطرق الزهري_ رحمه الله_ ساعة ثم رفع رأسه، فقال: " من الله عز وجل العلم، وعلى الرسول: البلاغ، وعلينا: **التسليم** "(٢) .

* وكان أبو معاوية الضرير يحدث هارون الرشيد بحديث أبي هريرة: " احتج آدم وموسى ... " الحديث .

فقال أحد الحاضرين: كيف هذا ؟!، وبين آدم وموسى ما بينهما ! .

فوثب هارون، وقال: يحدثك عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعارض بكيف؟!، فما زال يقول حتى سكت عنه "(٣) .

* وفي رواية: " فغضب الرشيد، وقال: النطع والسيف: زنديق يطعن في الحديث، فما زال أبو معاوية يُسكنه، ويقول: بادرةٌ منه يا أمير المؤمنين حتى سكن "(٤) .

قال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الصابوني_ رحمه الله_ تعليقاً على هذه القصة:

[هكذا ينبغي للمرء أن يعظم أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقابلها بالقبول، والتسليم، والتصديق، وينكر أشد الإنكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون الرشيد_ رحمه الله_ مع من

---

(١) " الموطأ٢/٨٦٠ "، " مصنف ابن أبي شيبة٥/٤١٢ "، وانظر تعليق الحافظ في " الفتح١٢/٢٢٦ " .

(٢) " السنة للخلال٣/٥٧٩ "، " تعظيم قدر الصلاة١/٤٨٧ "، " صحيح ابن حبان١/٤١٤ "، وانظر: "الحلية٣/٣٦٩ "، " السير٥/٣٤٦ "، " فتح الباري١٣/٥٠٤ " .

(٣) " عقيدة السلف للصابوني/١١٧ " .

(٤) " سير أعلام النبلاء٩/٢٨٨ " .

اعترض على الخبر الصحيح الذي سمعه بــ " كيف " على طريق الإنكار له، والابتعاد عنه، ولم يتلقه بالقبول كما يجب أن يتلقى جميع ما يرد عن الرسول صلى الله عليه وسلم][(١)] .

* وكان الإمام عبد الله ابن المبارك_ رحمه الله_ يحدث بحديث: " لا يزني الزاني وهو مؤمن ... " الحديث .

فقال قائل: ما هذا ؟_ على معنى الإنكار_ .

فغضب ابن مبارك، وقال: يمنعنا هؤلاء الأنان أن نحدث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلما جهلنا معنى حديث: تركناه ؟!، لا بل نرويه كما سمعنا، ونلزم الجهل أنفسنا "[(٢)] .

* وعن عبد الله بن الإمام أحمد، قال: حدثني أبي، ثنا أبو المثني معاذ بن معاذ العنبري، قال: ثنا حماد بن سلمة، ثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك_ رضي الله عنه_ عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {فلما تجلى ربه للجبل }، قال: قال هكذا_ يعني: أنه أخرج طرف الخنصر_، قال أبي: أرانا معاذ .

قال: فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد ؟! .

قال: **فضرب صدره ضربة شديدة، وقال: من أنت يا حميد !!!، وما أنت يا حميد!!!، يحدثني به أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم، فتقول أنت ما تريد إليه ؟!!!** .

قال عبد الله: حدثني أبي، قال: حدثني من سمع معاذاً يقول: وددت أنه حبسه شهرين، يعني لحميد "[(٣)] .

ـــــ فعند أهل الطائفة المنصورة: (مبنى العبودية، والإيمان بالله، وكتبه، ورسله على التسليم، وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر، والنواهي، والشرائع، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت نبيها، وآمنت بما جاء به: أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فما أمرها به أو نهاها عنه أو بلّغها عن ربها بل انقادت، وسلمت، وأذعنت، وما عرفت من الحكمة: عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها، وإيمانها، واستسلامها على معرفته .

وقد كانت هذه الأمة التي هي أكمل الأمم: عقولاً، ومعارفاً، وعلوماً: لا تسأل نبيها: لمَ أمر الله بذلك ؟، ولمَ نهى عن ذلك ؟، ولَم فعل ذلك ؟: لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان، والاستسلام)[(٤)] .

* قال الإمام الأوزاعي_ رحمه الله_: " من الله تعالى: التنزيل، وعلى رسوله: التبليغ، وعلينا: التسليم "[(٥)] .

* وقال الطحاوي_ رحمه الله_: " ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم، والاستسلام "[(٦)] .

---

(١) " عقيدة السلف/١١٧ " .

(٢) " تعظيم قدر الصلاة١/٥٠٤ " .

(٣) صحيح: " السنة لعبد الله١/٢٦٩ "، " مسند أحمد٣/١٢٥ " .

(٤) " الصواعق المرسلة٤/١٥٦٠ "، وانظر: " شرح الطحاوية/٢٩٠ " .

(٥) " التمهيد٦/١٤ " .

(٦) " شرح الطحاوية/٢٠١ " .

وقال أبو القاسم الأصفهاني_ رحمه الله_: [ليس لنا مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الاتباع والتسليم، ولا عُذر لأحد يتعمد ترك السنة، ويذهب إلى غيرها لأنه لا صحة لقول أحد مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صحّ](١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_ عن السلف_ رضي الله عنهم_:

[وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم: اعتصامُهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة، والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن: لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقولة، ولا قياسه، ولا وجده، فإنهم ثبت عندهم بالبراهين القطعيات، والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى، ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم][٢] .

فـــ(جماع الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، وطريق السعادة والنجاة وطريق الشقاوة والهلاك: أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه: هو الحق الذي يجب اتباعه، وبه يحصل: الفرقان، والهدى، والعلم، والإيمان، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس: يُعرض عليه، فإن وافقه: فهو حق، وإن خالفه: فهو باطل)[٣] .

(١) " الحجة في بيان المحجة للأصبهاني٢/٣٩٨ " .

(٢) " الفتاوى١٣/٢٨ " .

(٣) " الفتاوى١٣/١٣٥: ١٣٦ " .

المبحث الثاني

القاعدة الثانية

ردّ الخلاف والنزاع إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

وهذه القاعدة من القواعد المستقرة عند أهل الطائفة المنصورة، وهي الصورة الظاهرة للاعتصام بالكتاب والسنة كما أنها متفرعة على ما سبق تقريره من وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، وحرمة التقديم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فعند حدوث الخلاف والنزاع في مسألة ما من مسائل الديانة_ قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً_: فإن ملجأ أهل الطائفة المنصورة، ومفزعهم: الكتابُ، والسنة طلباً للحق المتعين من قضاء الله، وقضاء رسوله صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة محل الخلاف والنزاع .

ومن ثم، لا يفزع أهل الطائفة المنصورة_ وحاشاهم_ عند الخلاف والنزاع إلى رأي أو عقل أو استحسان أو استصلاح أو قول شيخ أو زعيم أو غير ذلك من متبوع ومطاع .

فحدوث الخلاف والنزاع في مسألة ما من مسائل الديانة_ قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً_: ليس مبرراً عند أهل الطائفة المنصورة للاختيار بالتشهي أو تقليد الرجال بغير حجة بينة أو أخذ ما يلائم النفس ويوافقها أو الميل مع الأسهل أو غير ذلك ممّا يمثل جسارة الانتقاء تحقيقاً لأغراض وحظوظ بغير قصد للحق في ذاته بحجة أن المسألة: محل خلاف .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [فربما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع، فيقال: لِمَ تمنع، والمسألة: مختلف فيها ؟، فيجعل الخلاف حجة في الجواز لمجرد كونها مختلفاً فيها **لا لدليل يدل على صحة مذهب الجواز**][1] .

وقال_ رحمه الله_ أيضاً_: [ويقول_ أي: القائل بهذا القول_: إن الاختلاف رحمة، وربما صرّح صاحب هذا القول: بالتشنيع على من لازم القول المشهور أو الموافق للدليل أو الراجح عند أهل النظر، والذي عليه أكثر المسلمين، ويقول له: لقد حجَّرت واسعاً، وملت بالناس إلى الحرج، وما في الدين من حرج، وما أشبه ذلك][2] .

ـــ وهذا القول بالانتقاء من الأقوال المختلفة تبعاً لأغراض النفس، وحظوظها بغير طلباً للحق المترجح: قول ساقط، متهافت، مشعر برقة دين صاحبه، وغلبة نفسه الأمارة بالسوء وقهرها له إذ من له أدنى تأمل في دين الله وشرعه: يعلم أن الشريعة ما جاءت إلا لإخراج المكلف عن داعية نفسه وهواه، وذلك بقهره لسلطان الشرع: فيكون محكوماً لا حاكماً، والقول بالانتقاء بغير طلب للحق ذاته تحقيقاً لأغراض النفس وحظوظها: ممّا يضاد ذلك بل ويرفعه من أساسه إذ هذا الانتقاء المزعوم: لا يخفى أنه هو عين اتباع الهوى .

قال الشاطبي_ رحمه الله_ وهو يتحدث عن فساد الاختيار من الأقوال المختلفة بغير بحث عن الحق المترجح: [وأيضاً: فإن ذلك يفضي إلى تتبع رُخَص المذاهب من غير استناد إلى دليل شرعي، وقد حكى ابن حزم **الإجماع على أن ذلك فسق لا يحل**، وأيضاً: فإنه مؤدٍّ إلى إسقاط التكليف في كل مسألة مختلف فيها، لأن حاصل الأمر مع القول بالتخيير: أن للمكلف أن يفعل إن شاء، ويترك إن شاء، **وهو عين إسقاط**

([1]) " الموافقات٤/١٤٠ " .

([2]) " الموافقات٤/١٤٢ " .

التكليف، بخلاف ما إذا تقيد بالترجيح فإنه متبع للدليل، فلا يكون متبعا للهوى، ولا مسقطاً للتكاليف][1] .

وقال الباجي_ رحمه الله_: [وكثيراً ما يسألني مَنْ تقع له مسألة من الأيمان، ونحوها: " لعل فيها رواية ؟ " أو: " لعل فيها رخصة ؟ "، وهم يَرَوْنَ أن هذا من الأمور الشائعة الجائزة، ولو كان تكرر عليهم إنكار الفقهاء لمثل هذا: لما طولبوا به، ولا طلبوه مني ولا من سواي، **وهذا ممّا لا خلاف بين المسلمين ممن يُعتدّ به في الإجماع أنه لا يجوز، ولا يسوغ، ولا يحلّ لأحد أن يفتي في دين الله إلا بالحق الذي يعتقد أنه حق، رضي بذلك من رضيه، وسخطه من سخطه**][2] .

ـــ وقد دل الشرع على وجوب رد الخلاف والنزاع إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لا غير طلباً للحق ذاته الموافق للكتاب والسنة بل وتوعد الله سبحانه وتعالى المعرض عن هذا السبيل بأليم العقاب، وعظيم العذاب، فلو كان الخلاف حجة لترك الحق المترجح: لم يكن لهذا الرد معنىً، وهذا: ظاهر، بيّن .

* قال تعالى: { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ **لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَالله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [البقرة: ٢١٣] .

فدلت الآية على أن الحكم فيما يختلف فيه الناس إنما هو للكتب المنزلة على الرسل من عنده سبحانه، وأن هذا ممّا أرسل له الرسل، وأنزلت له الكتب .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ }، وهو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب الإلهية: فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع أن يرد الاختلاف والتنازع إلى الله، وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه، وسنة رسوله: فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما][3] .

* وقد قال تعالى_ أيضاً_ لنبيه صلى الله عليه وسلم: { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله ولا تكن للخائنين خصيماً } [النساء: ١٠٥] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله: الكتاب بالحق، أي: محفوظاً في إنزاله من الشياطين أن يتطرق إليه منهم باطل بل نزل بالحق، ومشتملاً_ أيضاً_ على الحق، فأخباره: صدق، وأوامره ونواهيه: عدل، { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا }، وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس، وفي الآية الأخرى: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ }؛ فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبيين جميع الدين: وأصوله، وفروعه، ويحتمل أن الآيتين كلتيهما معناهما واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا: يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأعراض، والأموال، وسائر الحقوق، وفي العقائد، وفي جميع مسائل الأحكام .

---

(1) " الموافقات٤/١٣٤ " .

(2) " الموافقات٤/١٤٠ " .

(3) " تفسير السعدي/٤٩ " .

وقوله: { بِمَا أَرَاكَ الله }، أي: لا بهواك بل بما علّمك الله وألهمك، كقوله تعالى: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى }، وفي هذا دليل على عصمته صلى الله عليه وسلم فيما يُبَلِّغ عن الله من جميع الأحكام، وغيرها، وأنه يشترط في الحكم: العلم، والعدل لقوله: { بِمَا أَرَاكَ الله } ولم يقل: بما رأيت، ورتب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب](1) .

* وقال تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّ الله نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }

[البقرة: ١٧٦] .

فأخبر تعالى أنه أنزل الكتاب بالحق، ومقتضى ذلك ولازمه: كونه الحَكَم الفصل عند الخلاف والنزاع ثم ذم تعالى الذين اختلفوا في الكتاب بأنهم في شقاق بعيد، ولا شك أن من أعرض عن هذا الكتاب، ولم يحكمه عند الخلاف، والنزاع: لا شك أنه من هؤلاء الذين اختلفوا في الكتاب والذين هم في شقاق بعيد .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ ذَلِكَ } المذكور، وهو مجازاته بالعدل، ومنعه أسباب الهداية، ممن أباها، واختار سواها، { بِأَنَّ الله نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ }، ومن الحق: مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وأيضاً: ففي قوله: { نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده: فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة .

{ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }، أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب: فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه، والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم { لَفِي شِقَاقٍ }، أي: محادة، { بَعِيدٍ } من الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض: فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به، وحكموه في كل شيء: فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه](2) .

* وقال تعالى: { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

[النحل: ٦٤] .

والآية ظاهرة الدلالة على المراد، فالله سبحانه وتعالى ينص على أنه ما أنزل الكتاب على رسوله صلى الله عليه وسلم إلا لبيان الحق الفصل فيما اختلف فيه العباد .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يقول تعالى: وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن إلا لتبين للناس الحق فيما كان موضع اختلافهم من: التوحيد، والقدر، وأحكام الأفعال، وأحوال المعاد، وليكون هداية تامة، ورحمة عامة، لقوم يؤمنون بالله، وبالكتاب الذي أنزله](3) .

* وقال تعالى: { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلى الله ذَلِكُمُ الله رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }

---

(1) " تفسير السعدي/١١٨ " .

(2) " تفسير السعدي/٣٩ " .

(3) " تفسير السعدي/٣١١ " .

[الشورى: ١٠] .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [{ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ } من اصول دينكم، وفروعه ممّا لم تتفقوا عليه: { فَحُكْمُهُ إلى الله }: يرد إلى كتابه، وسنة رسوله، فما حكما به: فهو الحق، وما خالف ذلك: فباطل .

{ ذَلِكُمُ الله رَبِّي }، أي: فكما أنه تعالى الرب، الخالق، الرازق، المدبر: فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم][١].

* وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } [النساء: ٥٩] .

عن عطاء_ رحمه الله_ قوله: { أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم }، قال: " أولى الفقه، وأولى العلم، وطاعة الرسول: اتباع الكتاب، والسنة "[٢] .

وعن ميمون بن مهران_ رحمه الله_ { فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول } ما دام حياً، فإذا قبض: فإلى سنته "[٣] .

وعن مجاهد_ رحمه الله_: قال: { أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}، قال:

" أهل العلم، وأهل الفقه، { فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول }، قال: كتاب الله، وسنة نبيه، ولا تردوا إلى أولي الأمر شيئاً "[٤] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [قوله: { فإن تنازعتم في شيء: نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين: دقّه وجله، جليّهُ وخفيه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله[٥] بيان حكم ما تنازعوا فيه، ولم يكن كافياً: لم يأمر بالرد إليه إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع .

ومنها: أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه: هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: هو الرد إليه نفسه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

ومنها: أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد: انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء

---

(١) " المرجع السابق/٥٥٣ " .

(٢) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٧٢/١ " .

(٣) " المرجع السابق ٧٣/١ " .

(٤) " نفس المرجع ٧٣/١ " .

(٥) الأشبه: وسنة رسوله .

الآخر](1) .

* وقد قال تعالى_ كذلك_: { فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً ممّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [النساء: ٦٥] .

قال ابن كثير_ رحمه الله_: [يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكّم الرسول صلى الله عليه وسلم **في جميع الأمور**، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة، ولا مدافعة، ولا منازعة](2) .

وقال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [أقسم تعالى بنفسه الكريمة: أنهم لا يؤمنون حتى يُحكّموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: **في كل شيء يحصل فيه اختلاف** بخلاف مسائل الإجماع فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى يسلموا لحكمه تسليماً بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن .

فالتحكيم: في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان، والتسليم: في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب، وكملها: فقد استكمل مراتب الدين كلها، ومن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له: فهو كافر، ومن تركه مع التزامه: فله حكم أمثاله من العاصين](3) .

قال ابن القيم_ رحمه الله_:

والله ما خوفي الذنوب وإنها	لعلى سبيل العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخ القلب عن	تحكيم هذا الوحي والقرآن
ورضاً بآراء الرجال وخرصها	لا كان ذاك بمنَّة الديان(4)

* وقال تعالى: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [آل عمران: ١٠٥] .

ومن طلب الحق من أهل الإسلام فيما اخْتُلِفَ فيه من غير الكتاب، والسنة: هو ممن تفرقوا، واختلفوا من بعد جاءهم البينات .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين الذين جاءهم الدين والبينات الموجب لقيامهم به، واجتماعهم: فتفرقوا، واختلفوا، وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل، وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيئ، وبغي من بعضهم على بعض، ولهذا قال: { وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }](5) .

---

(1) " إعلام الموقعين ٤٩/١: ٥٠ " .

(2) " تفسير ابن كثير ٥٢١/١ " .

(3) " تفسير السعدي/١٠٧ " .

(4) " شرح النونية ٦٠٢/٢ " .

(5) " تفسير السعدي/٧٦ " .

* وقد قال تعالى: { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ **مُعْرِضُونَ** وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } [النور: ٤٧_٥١] .

فكان ترك التحاكم إلى الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم عند الخلاف، والنزاع: من علامات مرض القلب، وريبه، وشكه، وسوء ظنه بالله، ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ السعدي_ رحمه الله_: [يخبر تعالى عن حالة الظالمين ممن في قلبه مرض، وضعف إيمان أو نفاق وريب، وضعف علم: أنهم يقولون بألسنتهم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تولياً عظيماً، بدليل قوله: { وَهُمْ مُعْرِضُونَ }، فإن المتولي قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا المتولي: معرض لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه، وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله، وهو ضعيف الإيمان، وتجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً: العبادات التي تشق على كثير من النفوس كالزكاة، والنفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك .

{ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ }، أي: إذا صار بينهم وبين أحد حكومة، ودعوا إلى الله ورسوله: { إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ } يريدون أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع .

{ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ }، أي: إلى حكم الشرع { مُذْعِنِينَ }، وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا ممدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين لأن العبد حقيقة: من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويُقدم الهوى على الشرع: فليس بعبد لله على الحقيقة .

قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: { أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ }، أي: علة أخرجت القلب عن صحته، وأزالت حاسته فصار بمنزلة المريض الذي يعرض عمّا ينفعه، ويقبل على ما يضره، { أَمِ ارْتَابُوا }، أي: شكوا أو قلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق، { أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ}، أي: يحكم عليهم حكماً، ظالماً، جائراً، وإنما هذا وصفهم: { بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }، وأما حكم الله ورسوله: ففي غاية العدالة، والقسط، وموافقة الحكمة، { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } .

وفي هذه الآيات: دليل على أن الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترن به العمل، ولهذا نفى الإيمان عمن تولى عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله، ورسوله في كل حال، وإن لم ينقد له: دلّ على مرض في قلبه، وريب في إيمانه، **وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة** .

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي: ذكر حالة المؤمنين الممدوحين، فقال: { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ } إلى { الْفَائِزُونَ }، أي: { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ } حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم { إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ } سواء وافق أهواءهم أو خالفها: { أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا }، أي: سمعنا حكم

الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج، { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } حصر الفلاح فيهم لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله][(١)] .

ـــ فهذه النصوص السابقة كلها ظاهرة الدلالة في وجوب رد النزاع، والخلاف في أي أمر كان إلى الكتاب، والسنة، ووجوب التسليم، والانقياد لحكمهما .

قال ابن حزم_ رحمه الله_: [مسألة: والواجب إذا اختلف الناس أو نازع واحد في مسألة ما أن يرجع إلى القرآن، وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا إلى شيء غيرهما، ولا يجوز الرجوع إلى عمل أهل المدينة، ولا غيرهم .

برهان ذلك: قول الله عز وجل: { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر } .

فصح أنه لا يحل الرد عند التنازع إلى شيء غير كلام الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، **وفي هذا تحريم الرجوع إلى قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن من رجع إلى قول إنسان دونه عليه السلام: فقد خالف أمر الله تعالى بالرد إليه، وإلى رسوله لا سيما مع تعليقه تعالى ذلك بقوله: {إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر }، ولم يأمر الله تعالى بالرجوع إلى قول بعض المؤمنين دون جميعهم**][(٢)] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [{ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول }، فالأمور المشتركة بين الأمة: لا يحكم فيها إلا الكتاب، والسنة ليس لأحد أن يلزم الناس بقول عالم، ولا أمير، ولا شيخ، ولا ملك، ومن اعتقد أنه يحكم بين الناس بشيء من ذلك، ولا يحكم بينهم بالكتاب والسنة: فهو كافر، وحكام المسلمين يحكمون في الأمور المعينة لا يحكمون في الأمور الكلية، وإذا حكموا في المعينات: فعليهم أن يحكموا بما في كتاب الله، فإن لم يكن: فبما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يجدوا: اجتهد الحاكم برأيه .

وهذا واجب على الأمة في كل ما تنازعت فيه من الأمور الاعتقادية أو العملية، قال تعالى: { كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم }، وقال تعالى: { وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله }][(٣)] .

ــ فالعبد من أهل الطائفة المنصورة عند الخلاف، والنزاع (يزن جميع ما خاض الناس فيه من أقوال، وأعمال في الأصول، والفروع: الباطنة، والظاهرة بكتاب الله، وسنّة رسوله غير متبعين لهوى: من عادة أو

---

(١) " تفسير السعدي/٤١٠ " .

(٢) " المحلى١/٥٥ " .

(٣) " منهاج السنة٥/١٣٢ " .

مذهب أو طريقة أو رئاسة أو سلف، ولا متبعين لظن: من حديث ضعيف أو قياس فاسد_ سواء كان قياس شمول أو قياس تمثيل_ أو تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله، فإنّ الله ذم في كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم من الهدى)[1] .

ـ فلا يثني أهلَ الطائفة المنصورة شيءٌ عند الخلاف، والنزاع عن طلب الحق المترجح بدليله من الكتاب، والسنة إذ هو الواجب المتعين عليهم كما دل عليه ما تقدم، فالخلاف ليس بحجة أو عذر لترك طلب الحق المترجح من الكتاب، والسنة برد ما اختلف فيه إليهما بل الخلاف على التحقيق عند أهل الطائفة المنصورة يزيد وجوب الاعتصام بالكتاب، والسنة وجوباً إذ قد تقرر معنا أن من معالم الحق عند الطائفة المنصورة: أنه واحد في نفس الأمر، ومن ثم: وجب البحث عنه، والاجتهاد في إصابته، وطلبه من مظانه إرضاءً لله، ومحبةً له سبحانه، ونجاةً من سخطه، ووعيده .

* عن الفضل بن زياد، حدثنا أبو طالب إملاءً عليّ؛ قال أبو عبد الله_ الإمام أحمد_: " إنما على الناس اتباع الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعرفة صحيحها من سقيمها ثم يتبعها إذا لم يكن لها مخالف ثم بعد ذلك قول أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكابر وأئمة الهدى يُتّبعون على ما قالوا، وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كذلك لا يخالفون إذا لم يكن قول بعضهم لبعض مخالفاً، فإذا اختلفوا: **نظر في الكتاب بأي قولهم كان أشبه بالكتاب: أخذ به أو كان أشبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخذ به،** فإن لم يأت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: نظر في قول التابعين، فأي قولهم كان أشبه بالكتاب والسنة: أخذ به وترك ما أحدث الناس بعدهم "[2] .

* وعن ابن هانيء، قال: " وقيل لأبي عبد الله: يكون الرجلُ في قرية، فيُسأل عن الشئ الذي فيه اختلاف، قال: يفتي بما وافق الكتاب والسنة، وما لم يوافق الكتاب والسنة: أمسك عنه "[3] .

قال ابن عبد البر_ رحمه الله_: [وأما مالك، والشافعي، ومن سلك سبيلهما من أصحابهما، وهو قول الليث بن سعد، والأوزاعي، وأبي ثور، وجماعة أهل النظر: أن الاختلاف إذا تدافع: فهو خطأ، وصواب، والواجب عند اختلاف العلماء: طلب الدليل من الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس على الأصول منها، وذلك لا يُعدَم، فإن استوت الأدلة: وجب الميل مع الأشبه بما ذكرنا بالكتاب، والسنة، فإذا لم يبين ذلك: وجب التوقف، ولم يجز القطع إلا بيقين، فإن اضطر أحد إلى استعمال شئ من ذلك في خاصة نفسه: جاز له ما يجوز للعامة من التقليد، واستعمل عند افراط التشابه والتشاكل، وقيام الأدلة على كل قول بما يعضده قوله صلى الله عليه وسلم: " البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في الصدر، فدع ما يريبك لما لا يريبك "، هذا حال من لا يمعن النظر .

وأما المفتون: فغير جائز عند أحد ممن ذكرنا قوله أن يفتي، ولا يقضي حتى يتبين له وجه ما يفتي به من الكتاب أو السنة أوالإجماع أو ما كان في معنى هذه الأوجه ...

([1]) " مجموع الفتاوى١٢/٤٧٦ " .

([2]) " طبقات الحنابلة٢/١٥: ١٦ " .

([3]) " إعلام الموقعين٤/٢٠٦ " .

إلى أن ساق ابن عبد البر_ رحمه الله_ بإسناده عن أشهب، قال:

سُئل مالك عن اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: خطأ، وصواب؛ فانظر في ذلك، وذكر يحيي بن إبراهيم بن مزين، قال: حدثني أصبغ، قال: قال ابن القاسم: سمعت مالكاً، والليث يقولان في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس كما قال ناس فيه توسعة، ليس كذلك، إنما هو: خطأ، وصواب، قال يحيي: وبلغني أن الليث بن سعد قال: إذا جاء الاختلاف: أخذنا فيه بالأحوط[١] .

حدثنا عبد الرحمن بن يحيي، قال: حدثنا أحمد بن سعيد، حدثنا محمد بن زيان، قال: حدثنا الحارث بن مسكين عن ابن مسكين عن ابن القاسم عن مالك أنه قال في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مخطئ ومصيب، **فعليك بالاجتهاد** .

ثم ساق ابن عبد البر_ رحمه الله_ بإسناده عن ابن وهب، قال:

قال لي مالك: يا عبد الله، أدّ ما سمعت وحسبك، ولا تحمل لأحد على ظهرك، واعلم أنما هو: خطأ، وصواب: **فانظر لنفسك فإنه كان يقال: أخسر الناس من باع آخرته بدنياه، وأخسر منه: من باع آخرته بدنيا غيره .**

وذكر إسماعيل بن إسحاق في كتابه المبسوط عن أبي ثابت، قال: سمعت ابن القاسم يقول: سمعت مالكاً، والليث بن سعد يقولان في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن ناساً يقولون: فيه توسعة، فقالا: ليس كذلك، إنما هو: خطأ، وصواب .

قال إسماعيل القاضي: إنما التوسعة في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: توسعة في اجتهاد الرأي، **فأما أن تكون توسعة لأن يقول الإنسان بقول واحد منهم من غير أن يكون الحق عنده: فلا**، ولكن اختلافهم يدل على أنهم اجتهدوا: فاختلفوا ...

إلى أن روى ابن عبد البر_ رحمه الله_ بإسناده عن المزني، قال:

قال الشافعي في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أصير منها إلى ما وافق الكتاب أو السنة أو الإجماع أو كان أصح في القياس، وقال في قول الواحد منهم إذا لم يحفظ له مخالفاً منهم: صرتُ إليه، وأخذتُ به إن لم أجد كتاباً، ولا سنة، ولا إجماعاً، ولا دليلاً منها هذا إذا وجدت معه القياس، قال: وقلَّ ما يوجد ذلك .

قال المزني: فقد بين أنه قبل قوله بحجة، ففي هذا مع اجتماعهم على أن العلماء في كل قرن ينكر بعضهم على بعض فيما اختلفوا فيه: **قضاء بين على أن لا يقال إلا بحجة، وأن الحق في وجه واحد**، والله أعلم][٢].

وقد عقد ابن عبد البر_ رحمه الله_ باباً عنون له بقوله:

[باب: ذكر الدليل في أقاويل السلف على أن الاختلاف: خطأ، وصواب: **يلزم طلب الحجة عنده**، وذكر

---

(١) والأحوط: هو الموافق للدليل من الكتاب، والسنة كما يدل عليه سائر كلامهم .

(٢) " جامع بيان العلم وفضله٢/٨٠: ٨٢ " .

بعض ما خطأ فيه بعضُهم بعضاً، وأنكره بعضُهم على بعض عند اختلافهم، وذكر معنى قوله صلى الله عليه وسلم: " أصحابي كالنجوم "[١]][٢] .

وقد ساق ابن عبد البر_ رحمه الله_ في هذا الباب جملة وفيرة عن السلف الصالح: الصحابة فمن بعدهم_رضوان الله عليهم_ في تعقب بعضهم بعضاً، وتخطئة بعضهم بعضاً بل وإنكار بعضهم على بعض فيما اختلفوا فيه إلى أن قال_ رحمه الله_:

[هذا كثير في كتب العلماء، وكذلك اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتابعين، ومن بعدهم من المخالفين، وما رد فيه بعضهم على بعض: لا يكاد يحيط به كتاب فضلاً عن أن يجمع في باب، وفيما ذكرنا منه: دليل على ما عنه سكتنا، وفي رجوع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم إلى بعض، ورد بعضهم على بعض: دليل واضح على أن اختلافهم عندهم: خطأ، وصواب، ولذلك (ما) كان يقول كل واحد منهم: جائز ما قلت أنت، وجائز ما قلت أنا، وكلانا نجم يهتدى به، فلا علينا شيء من اختلافنا ...

إلى أن قال_ رحمه الله_:

قال أبو عمر: الاختلاف ليس بحجة عند أحد علمته من فقهاء الأمة إلا من لا بصر له، ولا معرفة عنده، ولا حجة في قوله][٣] .

وقال ابن حزم_ رحمه الله_:

[فإذا وردت الأقوال: فاتَّبع كلامَ الله تعالى، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم الذي هو بيان عمّا أمرنا الله تعالى به، وما أجمع عليه جميع المسلمين، فهذا هو صراط الله تعالى، وحبله الذي إذا تمسكت به: أخرجك من الفرقة المذمومة، ومن الاختلاف المكروه إن كنت تؤمن بالله، واليوم الآخر كما قال تعالى، **وهذا هو الذي أجمع عليه جميع أهل الإسلام_ قديماً، وحديثاً_، فإنه لم يكن قط مسلم إلا ومن عقده وقوله: أن كلام الله تعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم: فرض قبوله، وأنه لا يحل لأحد معارضته بشئ من ذلك، ولا مخالفته**][٤] .

وقد قال الشاطبي_ رحمه الله_:

[قال الخطابي: وليس الاختلاف حجة، وبيان السُّنَّة: حجة على المختلفين من الأولين والآخرين .

هذا مختصر ما قال، والقائل بهذا[٥]: راجع إلى أن يتبع ما يشتهيه، ويجعل **القول الموافق حجة له يدرأ بها**

---

(١) قال البزار، وابن عبد البر إن هذا الحديث لا يصح، انظر: " جامع بيان العلم٢/٩٠: ٩١ "، وقال ابن حزم إنه حديث ساقط موضوع بلا شك، انظر: " الإحكام٦/٢٤٣: ٢٤٤ " .

(٢) " جامع بيان العلم وفضله٢/٨٥ :٩٢ " .

(٣) "جامع بيان العلم٢/٨٧: ٨٩ " .

(٤) " الإحكام٥/٦٧: ٦٨ " .

(٥) أي: بأن الخلاف حجة .

عن نفسه، فهو قد أخذ القول وسيلة إلى اتباع هواه لا وسيلة إلى تقواه، وذلك أبعد له من أن يكون ممتثلاً لأمر الشارع، وأقرب إلى أن يكون ممن اتخذ إلهه هواه](1) .

ـــ فإذا تبين لنا أن الخلاف ليس بحجة، ولا بعذر لترك الحق المترجح بدليله من الكتاب، والسنة، وأن القائل بهذا: راجع إلى أن يتبع ما يشتهيه، ويجعل القول الموافق حجة له يدرأ بها عن نفسه، وأنه قد أخذ القول: وسيلة إلى اتباع هواه لا وسيلة إلى تقواه، وذلك أبعد له من أن يكون ممتثلاً لأمر الشارع، وأقرب إلى أن يكون ممن اتخذ إلهه هواه كما سبق معنا من كلام الشاطبي_ رحمه الله_، وأنه يجب القول بما دلّ عليه الكتاب، والسنة من ذلك، فإن المتعين حينئذ: الأخذ بالقول الراجح، وتحريم الأخذ بالمرجوح، وهذا هو ثمرة الردّ إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومقتضاه، ولازمه .

* وقد قال تعالى: { واتبعوا **أحسن** ما أنزل إليكم من ربكم } [الزمر: ٥٥] .

* وقال_ أيضاً_: { فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون **أحسنه**، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب } [الزمر:١٧_١٨] .

(فإذا كان أحد الدليلين هو الأرجح، فاتباعه: هو الأحسن، وهذا معلوم، فالواجب على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجح من غيره، وهو العمل بأرجح الدليلين المتعارضين)(2) .

ـــ وعلى هذا: نصّ أهل العلم:

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [ليحذر المفتي الذي يخاف مقامه بين يدي الله سبحانه: أن يفتي السائل بمذهبه الذي يقلده **وهو يعلم أن مذهب غيره في تلك المسألة أرجح من مذهبه، وأصح دليلاً**، فتحمله الرياسة على أن يقتحم الفتوى بما يغلب على ظنه أن الصواب في خلافه، فيكون خائناً لله، ورسوله، وللسائل وغاشاً له، والله لا يهدي كيد الخائنين، وحرّم الجنة على من لقيه وهو غاشٌ للإسلام وأهله، والدين النصيحة، والغش: مضادّ للدين كمضادة الكذب للصدق، والباطل للحق، وكثيراً ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده، فنحكي المذهب الراجح، ونرجحه، ونقول: هذا هو الصواب، وهو أولى أن يؤخذ به، وبالله التوفيق](3) .

وقال ابن القيم_ رحمه الله_ أيضاً_: [وإن سئل عن حكم الله من غير أن يقصد السائل قول فقيه معين: فههنا يجب عليه الإفتاء بما هو راجح عنده، وأقرب إلى الكتاب والسنة من مذهب إمامه أو مذهب من خالفه **لا يسعه غير ذلك**، فإن لم يتمكن منه وخاف أن يؤدي إلى ترك الإفتاء في تلك المسألة: **لم يكن له أن يفتي بما لا يعلم أنه صواب، فكيف بما يغلب على ظنه أن الصواب في خلافه ؟!، ولا يسع الحاكم والمفتي غير هذا ألبتة**، فإن الله سائلهما عن رسوله، وما جاء به لا عن الإمام المعين وما قاله، وإنما يُسأل الناس في قبورهم، ويوم معادهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقال له في قبره: ما كنتَ تقول في هذا الرجل الذي بُعِثَ

---

(1) " الموافقات٤/١٤٠: ١٤١ " .

(2) " فتاوى ابن تيمية١٣/١١٤: ١١٥ " .

(3) " إعلام الموقعين٤/ ١٧٧ " .

فيكم ؟، { ويوم يناديهم فيقول: ماذا أجبتم المرسلين }، **ولا يُسأل أحد قط عن إمام، ولا شيخ، ولا متبوع غيره** بل يسأل عمن اتبعه، وأئتم به غيره، فلينظر بماذا يجيب ؟، وليعدَّ للجواب صواباً](١) .

وقال الشاطبي_ رحمه الله_: [أما إذا كان اطلع على فتاويهم قبل ذلك، وأراد أن يأخذ بأحدها: فقد تقدم قبل هذا أنه **لا يصح له إلا الترجيح**، لأن من مقصود الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله، وتخييره: يفتح له باب اتباع الهوى **فلا سبيل إليه ألبتة**](٢) .

ـــ هذا، وقد نقل غير واحد من الأئمة، وأهل العلم: الإجماع على وجوب الأخذ بالراجح، وترك المرجوح(٣):

قال ابن الصلاح_ رحمه الله_: [واعلم أن من يكتفي بأن يكون في فتياه أو عمله موافقاً لقولٍ أو وجهٍ في المسألة، ويعمل بما يشاء من الأقوال أو الوجوه من غير نظر في الترجيح، ولا تقيّدٍ به: فقد جهل، **وخرق الإجماع**، وسبيله: سبيل الذي حكى عنه أبو الوليد الباجي المالكي من فقهاء أصحابه أنه كان يقول: إن الذي لصديقي علي إذا وقعت له حكومة: أن أفتيه بالرواية التي توافقه، وحكى عن من يثق به: أنه وقعت له واقعة وأفتى فيها وهو غائب جماعة من فقهائهم من أهل الصلاح بما يضره، فلما عاد سألهم؛ فقالوا: ما علمنا أنها لك، وأفتوه بالرواية الأخرى التي توافقه، قال: وهذا ممّا لا خلاف بين المسلمين ممن يعتد به **في الإجماع** أنه لا يجوز .

قلت: وقد قال إمامهم مالك_ رضي الله عنه_ في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم: مُخطيء، ومصيب: فعليك بالاجتهاد .

وقال: ليس كما قال ناس: فيه توسعة، قلت: لا توسعة فيه بمعنى أنه يتخير بين أقوالهم من غير توقف على ظهور الراجح، وفيه توسعة بمعنى أن اختلافهم يدل على أن للاجتهاد مجالاً فيما بين أقوالهم، وأن ذلك ليس ممّا يقطع فيه بقول واحدٍ متعين لا مجال للاجتهاد في خلافه، والله أعلم](٤) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية_ رحمه الله_: [**أجمع** العلماء على تحريم الحكم، والفتيا بالهوى، وبقولٍ أو وجه من غير نظر في الترجيح](٥) .

وقال ابن القيم_ رحمه الله_: [لا يجوز للمفتي أن يعمل بما شاء من الأقوال والوجوه من غير نظر في الترجيح، ولا يَعْتَد به بل يكتفى في العمل بمجرد كون ذلك قولاً قاله إمام أو وجهاً ذهب إليه جماعة، فيعمل

---

(١) " إعلام الموقعين٤/٢٣٦ " .

(٢) " الموافقات٤/٢٦٢ " .

(٣) وقد نقل كل من الغزالي، والشوكاني_ رحمهما الله_ إجماع الصحابة_ رضي الله عنهم_ على العمل بالترجيح، انظر: "المستصفى/٣٧٦ "، " إرشاد الفحول/٤٥٦ " .

(٤) " أدب المفتي/١٢٥: ١٢٦ " .

(٥) " الاختيارات الفقهية/٣٣٢ " .

بما يشاء من الوجوه والأقوال حيث رأي القول وَفْقَ إرادته وغرضه: عمل به، فإرادته وغرضه هو المعيار، وبها الترجيح، **وهذا حرام باتفاق الأمة**، وهذا مثل ما حكى القاضي أبو الوليد الباجي عن بعض أهل زمانه ممن نَصَبَ نفسه للفتوى أنه كان يقول: إن الذي لصديقي عليّ إذا وقعت له حكومة أو فتيا أن أفتيه بالرواية التي توافقه، وقال: وأخبرني مَنْ أثق به أنه وقعت له واقعة فأفتاه جماعة من المفتين بما يضره، وأنه كان غائبا فلما حضر سألهم بنفسه، فقالوا: لم نعلم أنها لك، وأفتوه بالرواية الأخرى التي توافقه، قال: **وهذا ممّا لا خلاف بين المسلمين ممن يعتد بهم في الإجماع أنه لا يجوز**، وقد قال مالك_ رحمه الله_ في اختلاف الصحابة رضي الله عنهم مخطيء ومصيب فعليك بالاجتهاد .

وبالجملة: فلا يجوز العمل، والإفتاء في دين الله **بالتّشَهِّي، والتخير، وموافقة الغرض، فيطلب القول الذي يوافق غرضه وغرضَ مَنْ يُحابيه: فيعمل به، ويفتي به، ويحكم به، ويحكم على عدوه، ويفتيه بضده، وهذا من أفسق الفسوق، وأكبر الكبائر**، والله المستعان](١) .

وقد مر معنا قول الشاطبي_ رحمه الله_: [وأيضاً: فإن ذلك يفضي إلى تتبع رُخَص المذاهب من غير استناد إلى دليل شرعي، وقد حكى ابن حزم **الإجماع على أن ذلك فسق لا يحل**، وأيضا فإنه مؤدٍ إلى إسقاط التكليف في كل مسألة مختلف فيها، لأن حاصل الأمر مع القول بالتخيير أن للمكلف أن يفعل إن شاء، ويترك إن شاء، وهو عين إسقاط التكليف، بخلاف ما إذا تقيّد بالترجيح: فإنه متبع للدليل، فلا يكون متبعاً للهوى، ولا مسقطاً للتكاليف](٢) .

ـــــ تنبيه:

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [إذا اعتدل عند المفتي قولان، ولم يترجح له أحدهما على الآخر، فقال القاضي أبو يعلى: له أن يفتي بأيهما شاء كما يجوز له أن يعمل بأيهما شاء، وقيل: بل يُخيّر المستفتي؛ فيقول له: أنت مخير بينهما لأنه إنما يفتي بما يراه، والذي يراه هو التخير، وقيل: بل يفتيه بالأحوط من القولين .

قلت: الأظهر أنه يتوقف، ولايفتيه بشئ حتى يتبين له الراجح منهما لأن أحدهما خطأ، فليس له أن يفتيه بما لا يعلم أنه صواب، وليس له أن يخيره بين الخطأ والصواب، وهذا كما إذا تعارض عند الطبيب في أمر المريض أمْرَان: خطأ، وصواب، ولم يتبين له أحدهما: لم يكن له أن يُقْدِم على أحدهما، ولا يخيره، وكما لو استشاره في أمر فتعارض عنده الخطأ، والصواب من غير ترجيح: لم يكن له أن يشير بأحدهما، ولا يخيره، وكما لو تعارض عنده طريقان: مهلكة، وموصّلة، ولم يتبين له طريق الصواب: لم يكن له الإقدام، ولا التخيير؛ فمسائل الحلال والحرام: أولى بالتوقف، والله أعلم](٣) .

ـــــ فإذا وجب على المفتي الأخذ بالراجح، وحَرم عليه الأخذ بالمرجوح: فإن على المستفتي في ذلك مثل

---

(١) " إعلام الموقعين ٤/٢١١ " .

(٢) " الموافقات ٤/١٣٤ " .

(٣) " إعلام الموقعين ٤/٢٣٨ " .

ما على المفتي، فيجب عليه أن يتحرى لدينه بالبحث عن القول الراجح من الأقوال المختلفة بقدر وسعه وطاقته .

قال الشاطبي_ رحمه الله_: [إن الفقيه لا يحل له أن يتخيَّر بعض الأقوال بمجرد التشهي، والأغراض من غير اجتهاد، ولا أن يفتي به أحداً، **والمقلد في اختلاف الأقوال عليه مثل هذا المفتي**][1] .

وقال الشاطبي_ رحمه الله_ أيضاً_: [فإذا عرض العامي نازلته على المفتي: فهو قائل له: " أخرجني عن هواي، ودلني على اتباع الحق "، فلا يمكن_ والحال هذه_ أن يقول له: " في مسألتك: قولان، فاختر لشهوتك أيهما شئت "؛ فإن معنى هذا: تحكيم الهوى دون الشرع، ولا ينجيه من هذا أن يقول: ما فعلت إلا بقول عالم، لأنه حيلة من جملة الحيل التي تنصبها النفس وقايةً عن القال والقيل، وشبكةً لنيل الأغراض الدنيوية، وتسليط المفتي العامي على تحكيم الهوى بعد أن طلب منه إخراجه عن هواه: رميٌ في عماية، وجهلٌ بالشريعة، وغشٌ في النصيحة][2] .

ـــــ وقد أجمع أهل العلم على حرمة تتبع الرخص الناتجة عن زلات العلماء:

* قال سليمان التيمي_ رحمه الله_: " لو أخذت برخصة كل عالم: اجتمع فيك الشر كله "[3] .

قال ابن عبد البر_ رحمه الله_ تعليقاً على قول سليمان التيمي السابق: [هذا إجماع لا أعلم فيه خلافاً] [4] .

* وقال الإمام الأوزاعي_ رحمه الله_: " من أخذ بنوادر العلماء: خرج من الإسلام "[5].

* وعنه_ رحمه الله_ أيضاً_ قال: " يُترك من قول أهل مكة: المتعة، والصرف، ومن قول أهل المدينة: السماع، وإتيان النساء في أدبارهن، ومن قول أهل الشام: الجبر، والطاعة، ومن قول أهل الكوفة: النبيذ، والسحور "[6] .

* وقال_ كذلك_ رحمه الله_: " نجتنب أو نترك من قول أهل العراق: خمساً، ومن قول أهل الحجاز: خمساً، من قول أهل العراق: شرب المسكر، والأكل في الفجر في رمضان، ولا جمعة إلا في سبعة أمصار، وتأخير صلاة العصر حتى يكون ظل كل شيء أربعة أمثاله، والفرار يوم الزحف .

ومن قول أهل الحجاز: استماع الملاهي، والجمع بين الصلاتين من غير عذر، والمتعة بالنساء، والدرهم

---

(1) " الموافقات٤/١٤٠ " .

(2) " الموافقات٤/١٤٣: ١٤٤ " .

(3) " جامع بيان العلم٢/٩١: ٩٢ " .

(4) " المرجع السابق " .

(5) " سنن البيهقي الكبرى١٠/٢١١ "، " سير أعلام النبلاء٧/١٢٥ " .

(6) " سنن البيهقي الكبرى١٠/٢١١ " .

بالدرهمين والدينار بالدينارين يداً بيد، وإتيان النساء في أدبارهن "[1] .

* وقال عبد الله بن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: سمعت القطان يقول: " لو أن رجلاً عمل بكل رخصة: بقول أهل الكوفة في النبيذ، وأهل المدينة في السماع، وأهل مكة في المتعة: لكان فاسقاً "[2] .

* وعن إسماعيل بن إسحاق القاضي، قال: " دخلت على المعتضد، فدفع إليّ كتاباً نظرت فيه، وكان قد جمع له الرخص من زلل العلماء، وما احتج به كل منهم لنفسه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، **مصنف هذا الكتاب: زنديق** .

فقال: لم تصح هذه الأحاديث ؟ .

قلت: الأحاديث على ما رويت، ولكن من أباح المسكر: لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة: لم يبح الغناء والمسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها: **ذهب دينه** .

فأمر المعتضد: فأحرق ذلك الكتاب "[3] .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [المصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله، وبيان زلة العالم: ليبينوا بذلك فساد التقليد، وأن العالم قد يزل ولا بد إذ ليس بمعصوم: فلا يجوز قبول كل ما يقوله، وينزل قوله منزلة قول المعصوم، **فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض، وحرموه وذموا أهله**، وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم فهم يقلدون العالم فيما زل فيه، وفيما لم يزل فيه، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد: فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون ما لم يشرع، ولا بد لهم من ذلك إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه: فالخطأ واقع منه ولا بد][4] .

ـــ فيجب على المستفتي أن يبذل غاية جهده بحسب وسعه وقدرته للوقوف على أرجح الأقوال، وأن لا يستسهل، فكما يتحرى لأمر مطعمه، ومشربه، وسائر أموره الدنيوية طلباً لأحسنها، وأجودها، وأفضلها: وجب عليه أن يتحرى لأمر دينه الذي هو لحمه، ودمه .

* وقد سبق معنا قول الإمام مالك_ رحمه الله_ لابن وهب: " يا عبد الله، أدّ ما سمعت وحسبك، ولا تحمل لأحد على ظهرك، واعلم أنما هو: خطأ، وصواب: فانظر لنفسك فإنه كان يقال: أخسر الناس من باع آخرته بدنياه، وأخسر منه: من باع آخرته بدنيا غيره "[5] .

قال الشاطبي_ رحمه الله_ : [**ولا ينجيه من هذا أن يقول ما فعلت إلا بقول عالم، لأنه حيلة من جملة الحيل**

---

(1) " سنن البيهقي الكبرى١٠/٢١١ " .

(2) " عون المعبود١٣/١٨٧ " .

(3) " سنن البيهقي الكبرى١٠/٢١١ "، " سير أعلام النبلاء١٣/٤٦٥ " .

(4) " إعلام الموقعين٢/١٩٢ " .

(5) " جامع بيان العلم وفضله٢/٨٢ " .

التي تنصبها النفس وقاية عن القال والقيل، وشبكة لنيل الأغراض الدنيوية](١) .

ــــ فإذا تقرر معنا_ كما سبق_: وجوب رد الخلاف إلى الكتاب والسنة، وكون الخلاف ليس حجة أو عذراً لترك طلب الحق المترجح بدليله من الكتاب والسنة، ووجوب الأخذ بالراجح من الأقوال، وتحريم الأخذ بالمرجوح منها، فإنه ينتج لنا من هذا كله: أن قول القائل: " لا إنكار في مسائل الخلاف ": مردود بيقين .

* وقد سُئل الإمام الشافعي_ رحمه الله_: ما الاختلاف المحرّم ؟ .

فقال_ رحمه الله_: " كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيِّه منصوصاً بيّناً: لم يحلَّ الاختلاف فيه لمن علمه "(٢) .

وإذا كان هذا النوع من الاختلاف محرماً: فقد وجب الإنكار على من أخذ به .

قال ابن القيم_ رحمه الله_: [قولهم " إن مسائل الخلاف لا إنكار فيها ": ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول والفتوى أو العمل، أما الأول، فإذا كان القول يُخالف سنة أو إجماعاً شائعاً: **وجب إنكاره اتفاقاً ...**

إلى أن قال:

وكيف يقول فقيه لا إنكار في المسائل المختلف فيها، والفقهاء من سائر الطوائف قد صرّحوا بنقض حكم الحاكم إذا خالف كتاباً أو سنة، **وإن كان وافق فيه بعض العلماء ؟!**](٣) .

ــ وقد أشار إلى ما وقع فيه البعض هاهنا من تناقض، واضطراب: ابن مفلح_ رحمه الله_، فقال مُبدياً تعجبه: [ولا إنكار فيما يسوغ فيه خلاف من الفروع على من اجتهد فيه أو قلَّد مجتهداً فيه، كذا ذكره القاضي، والأصحاب، وصرّحوا بأنه لا يجوز، ومثّلوه: بشرب يسير النبيذ، والتزوج بغير ولي، ومثّله بعضهم: بأكل متروك التسمية .

وهذا الكلام منهم مع قولهم: يُحدّ شارب النبيذ **متأولاً، ومقلداً:** أعجب لأن الإنكار يكون: وعظاً، وأمراً، ونهياً، وتعزيراً، وتأديباً، وغايته: الحدُّ، **فكيف يُحدُّ ولا يُنكر عليه ؟!!!، أم كيف يفسق على رواية، ولا ينكر على فاسق ؟!!!**](٤) .

قال الشوكاني_ رحمه الله_: [أقول: هذه المقالة قد صارت أعظم ذريعة إلى سدّ باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وهما بالمثابة التي عرفناك، والمنزلة التي بيّناها لك، وقد وجب بإيجاب الله عز وجل وبإيجاب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على هذه الأمة: الأمرُ بما هو معروف من معروفات الشرع، والنهي عمّا هو منكر من منكراته، ومعيار ذلك: الكتاب، والسنة؛ فعلى كل مسلم أن يأمر بما وجده فيهما أو

---

(١) " الموافقات٤/١٤٤ " .

(٢) " الرسالة/٥٦٠ " .

(٣) " إعلام الموقعين٣/٣٠٠ " .

(٤) " الآداب الشرعية١/١٣٢ " .

في أحدهما معروفاً، وينهي عمّا هو فيهما أو في أحدهما منكراً، وإن قال قائل من أهل العلم بما يخالف ذلك: فقوله منكر: يجب إنكاره عليه أولاً ثم على العامل به ثانياً، وهذه الشريعة الشريفة التي أُمِرنا بالأمر بمعروفها، والنهي عن منكرها هي هذه الموجودة في الكتاب، والسنة، وأما ما حدث من المذاهب: فليست بشرائع مستجدّة، ولا هي شرائع ناسخة لِما جاء به خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم وإنما هي: بدع ابتدعت، وحوادث في الإسلام حدثت، فما كان فيها موافقاً للشرع الثابت في الكتاب، والسنة: فقد سبق إليه الكتاب، والسنة، وما كان منها مخالفاً للكتاب، والسنة: فهو ردّ على قائله، مضروبٌ به في وجهه كما جاءت بذلك الأدلة الصحيحة التي منها: " كل أمر ليس عليه أمرنا: فهو رد " .

فالواجب على من علم بهذه الشريعة ولديه حقيقة من معروفها، ومنكرها: أن يأمر بما علمه معروفاً، وينهى عمّا علمه منكراً، فالحق: لا يتغير حكمه، ولا يسقط وجوب العمل به، والأمر بفعله، والإنكار على من خالفه بمجرد قول قائل أو اجتهاد مجتهد أو ابتداع مبتدع ! .

فإن قال تارك الواجب أو فاعل المنكر: قد قال بهذا: فلان أو ذهب إليه فلان: أجاب عليه: بأن الله لم يأمرنا باتباع فلانك بل قال لنا في كتابه العزيز: { ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا }، فإن لم يقنع بهذا حاكمه إلى كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما أمرنا الله سبحانه في كتابه بالرد إليهما عند التنازع][١] .

---

(١) " السيل الجرار ٤/٥٨٨: ٥٨٩ " .

ـــــ **تنبيه هام:**

يُفرّق أهل الطائفة المنصورة بين نوعين من مسائل الخلاف يخلط الكثيرون بينهما[١]:

ـــــ النوع الأول: مسائل الخلاف التي يكون الخلاف فيها غير سائغ لمخالفته للكتاب أو السنة أو الإجماع، فمثل هذا الخلاف: غير معتبر، وقد مر معنا قول الإمام الشافعي_ رحمه الله_ لما سُئل ما الاختلاف المحرّم؟.

فقال_ رحمه الله_: " كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيِّه منصوصاً بيّناً: لم يحلَّ الاختلاف فيه لمن علمه "[٢] .

فهذا النوع من الخلاف عندهم: هو الذي يأتي فيه ما سبق تقريره من وجوب الأخذ بالراجح، وحرمة الأخذ بالمرجوح، وعظم جناية، وفسوق من جعل الخلاف هاهنا مبرراً للاختيار كيفما شاء واتفق بغير تقيّد بالدليل الأرجح، ووجوب الإنكار على المخالف فيه .

وقد قال أبو الحسن ابن الحصار المالكي_ رحمه الله_:

فليس كل خلافٍ جاءَ معتبراً إلا خلافٌ له حظٌّ من النظر[٣]

ـــــ النوع الثاني: مسائل الخلاف التي يكون الخلاف فيها سائغاً حيث لا نص من الكتاب أو السنة أو الإجماع.

قال الإمام الشافعي_ رحمه الله_: " الاختلاف من وجهين: أحدهما محرم، **ولا أقول ذلك في الآخر** .

قال: فما الاختلاف المحرم ؟ .

قلت: كل ما أقام الله به الحجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصاً، بيناً: لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه .

وما كان من ذلك يحتمل التأويل، ويدرك قياساً، فذهب المتأول أو القايس إلى معنى يحتمله الخبر أو القياس وإن خالفه فيه غيره: لم أقل أنه يُضيق عليه ضيق الخلاف في المنصوص "[٤] .

وهذا النوع الثاني من الخلاف الذي أشار إليه الإمام الشافعي_ رحمه الله_ هو ما يُعرف: بمسائل الاجتهاد . قال ابن القيم_ رحمه الله_: [الاختلاف في كتاب الله: نوعان ...

والنوع الثاني: اختلاف ينقسم أهله إلى: محمود، ومذموم؛ فمن أصاب الحق: فهو محمود، ومن أخطأه مع اجتهاده في الوصول إليه: فاسم الذم موضوع عنه، وهو محمود في اجتهاده، معفو عن خطئه، وإن أخطأ مع

---

(١) يراجع ما ذكرناه عند الحديث عن عدم التلازم بين الخطأ، والإثم، وبيان من هو الذي يُعذر باجتهاده وإن لم يصب الحق .

(٢) " الرسالة/٥٦٠ " .

(٣) " الإتقان للسيوطي١/٣٤ " .

(٤) " الرسالة/٥٦٠ " .

تفريطه وعدوانه: فهو مذموم][(١)] .

ــ وهذا النوع الثاني من الخلاف_ الخلاف في مسائل الاجتهاد_: هو ممّا يجوز فيه عند أهل الطائفة المنصورة الأخذ برخص العلماء القائمة على الاستدلال_ لا اتباعاً للهوى_، ومن ثم: فلا إنكار هاهنا[(٢)]، والله أعلم .

* عن الحسين بن بشار المخرمي، قال: " سألت احمد بن حنبل عن مسألة في الطلاق، فقال: إن فعل: حنث .

فقلت: يا أبا عبد الله، اكتب لي بخطك، فكتب لي في ظهر الرقعة: قال أبو عبد الله: إن فعل: حنث .

قلت: يا أبا عبد الله، إن أفتاني إنسان_ يعني: أن لا يحنث_ ؟ .

فقال لي: تعرف حلقة المدنيين ؟ .

قلت: نعم، قال الحسين بن بشار: وكانت للمدنيين حلقة عندنا في الرصافة في المسجد الجامع، فإن أفتوني يحل ؟ .

قال: نعم "[(٣)] .

قال المرداوي_ رحمه الله_: [ففي هذا دليل على أن المفتي إذا جاءه المستفتي ولم يكن له عنده رخصة: فله أن يدله على صاحب مذهب له فيه رخصة][(٤)] .

* وعن الفضل بن زياد، قال: سمعت أبا عبد الله وسئل عن الرجل يسأل عن الشيء من المسائل، فيرشد صاحب المسألة إلى رجل يسأله عنها، هل عليه شيء في ذلك ؟ .

فقال: إذا كان الرجل متبعاً: أرشده إليه، فلا بأس .

قيل له: فيفتي بقول مالك وهؤلاء ؟ .

قال لا، إلا الكتاب، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره، وما روى عن أصحابه، فإن لم يكن روى عن أصحابه شيء، فعن التابعين "[(٥)] .

وقد عقد الخطيب البغدادي_ رحمه الله_ باباً في كتابه " الفقيه والمتفقه " عَنْونَ له بقوله: " باب: التمحل في الفتوى " .

قال_ رحمه الله_: [متى وجد المفتي للسائل مخرجاً في مسألته، وطريقاً يتخلص به: أرشده إليه، ونبهه عليه

---

(١) " الصواعق المرسلة٢/٥١٥ " .

(٢) يأتي_ إن شاء الله_ الحديث عن هذه المسألة ضمن ضوابط الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في الباب القادم .

(٣) " طبقات الحنابلة١/١٤٢ "، " روضة الناظر ١/٣٨٦ "، " المسودة/٤١٢ "، "كشاف القناع٦/٣٠١ " .

(٤) " الإنصاف٨/٤٢٨ " .

(٥) " طبقات الحنابلة٢/١٥ "، " الإنصاف٨/٤٢٨ "، " المسودة/٤٥٧ " .

كرجل حلف أن لا ينفق على زوجته، ولا يطعمها شهراً أو شبه هذا: فإنه يفتيه بإعطائها من صداقها أو دين لها عليه أو يقرضها ثمن بيوتها أو يبيعها سلعة وينويها من الثمن، وقد قال الله تعالى لأيوب عليه السلام لما حلف أن يضرب زوجته مئة: { وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث } [ص: ٤٤]][1] .

قال النووي_ رحمه الله_: [ومن التساهل أن تحمله الأغراض الفاسدة على تتبع الحيل المحرّمة أو المكروهة والتمسك بالشبه طلباً للترخيص لمن يروم نفعه أو التغليظ على من يريد ضرّه، وأما من صحّ قصده فاحتسب في طلب حيلة **لا شبهة فيها** لتخليص من ورطة يمين ونحوها: فذلك حسن جميل، وعليه يحمل ما جاء عن بعض السلف من نحو هذا كقول سفيان: " إنما العلم عندنا: الرخصة من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد"][2] .

([1]) " الفقيه والمتفقه٢/١٩٤ " .

([2]) " المجموع شرح المهذب١/٤٦ " .

فهرست الجزء الأول

والحمد لله أولاً وآخرا